قلمس

مُخْتصَر نَظْمِ الدُّرَرِ

في تَنَاسُبِ الآيِ وَالسُّوَرِ

برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي

الفاتحة - القصص

قائمة المحتويات

"من التفاسير التي يُغبن من لا يطالعها: تفسير البقاعي، الموسوم بـ(نظم الدرر في تناسب الآي والسور)

وقد قال الشوكاني في كتابه البدر الطالع متحدثا عن البقاعي:

(ومن أمعن النظر في كتابه المترجم له في التفسير الذي جعله في المناسبات بين الآي والسور = علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء، الجامعين بين علم المعقول والمنقول، وكثيرا ما يشكل علي شيء في الكتاب فأرجع إلى مطولات التفسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي وأرجع إلى هذا الكتاب - نظم الدرر - فأجد فيه ما يفيد في الغالب)

ومع أن الشوكاني انتقد البقاعي في موضع آخر فيما يتعلق بالمناسبات إلا أنّ كلامه بالأعلى صحيح في أن تفسير البقاعي يحوي ما لا يحويه غيره.

وهو كتاب ليس خاصا بالمناسبات بين الآيات والسور بل يتناول مناسبة الكلمات داخل الآية الواحدة، بالإضافة إلى حُسن بيانه لمعنى الألفاظ في الجملة" — أحمد السيد

مقدمة المختصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

فهذا مختصر التفسير الأنيق للإمام الدقيق: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لإبراهيم بن عمر البقاعي رحمه الله، وأقدّم له بثلاث مقدمات:

الأولى: التعريف بالإمام البقاعي طيّب الله ثراه[١]

وُلد البقاعي سنة ٨٠٩ هـ - ١٤٠٦م في لبنان حاليًا في عصر المماليك الذي ازدهرت فيه العلوم، مع ظلمٍ للرعية وإهمال حقوقهم وارتفاع الضرائب، وانتشار البدع والخلافات [كما هو ظاهر في تفسيره الإشارة إليه، خاصة بدعة الحلول والاتحاد].

نشأ في أسرة فقيرة وحفظ القرآن، وقُتل أبوه وعدد من أقاربه غدرًا فهربت به أمه مع أبيها إلى دمشق وربته فتعلم فيها القراءات وأخذ العلم عن كبار علمائها كابن الجزري، وتزوج أكثر من مرتين، وولد له ثلاثة أولاد أو أكثر وكلهم توفي في حياته في سن مبكر، وأخذ العلم أيضًا عن الحافظ ابن حجر في مصر وتقي الدين السبكي وغيرهما من الرجال والنساء، وأخذ عن أبي الفضل المشدَّالي المغربي قاعدة معرفة علم المناسبات التي انطلق منها في تفسيره، وبرّز في عدد من العلوم، وأكثر التأليف، وجمع إلى العلم المرابطةَ في سبيل الله.

أثنى عليه تلميذه السيوطي وشيخه ابن حجر وأذن له بالتدريس ووصفه بالعلَّامة، وقال عنه الشوكاني: "ومن محاسنه كما وصف نفسه أنه لا يخرج عن الكتاب والسنة بل هو متطبع بطباع الصحابة"، وذمه قرينه السخاويُّ ذمًا شديدًا لا يساعده واقع البقاعي، وكثيرٌ من معاصريه لتكفيرِه لبعض أعيان الصوفية، وإنكارِه لبعض البدع المنتشرة كالغناء والسماع، وشدةِ ألفاظه

(١) ينظر: برهان الدين البقاعي ومنهجه في تفسيره دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم، لعبد الله الخطيب، وما بين المعقوفتين ليس مذكورًا فيه.

في مواضع، وإنكارِه على الغزالي مقولة: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، وسيأتي في موضع ذكرها إن شاء الله ما يوضح موقفه منها.

وهو شافعي المذهب، وعقيدته في الجملة هي عقيدة أهل السنة والجماعة [إلا أنه ربما أول بعض الصفات في مواضع لم أثبتها في المختصر].

توفي ليلة السبت ١٨/ ٧/ ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠م، ودفن بالمقبرة الحميرية خارج دمشق التي يقوم عليها الآن حي الشويكة.

الثانية: التعريف بتفسير نظم الدرر في تناسب الآي والسور

ألف البقاعي هذا التفسير؛ لبيان إعجاز القرآن في نظمه ولذلك حرص على إبراز النكتب البلاغية في وضع كل كلمة موضعها وترتيب سوره وآياته، وله أسماء أخرى هذا أشهرها، وألفه في أربعة عشر عامًا كما سيأتي في الخاتمة، واعترض عليه بسببه كثيرٌ من الناس لأسباب متعددة، منها -غير ما تقدم-: إكثاره النقل من التوراة والإنجيل، ولم أذكر من ذلك في المختصر إلا شيئًا يسيرًا جدًا يَستدل به على أمر مهم، وبناؤه تفسيرَه على علم المناسبات وهو علم مختلف فيه بين العلماء، فضلًا عن علم مقاصد السور.

وأما عن منهجه فيه فقد استخلصته بعد القراءة والتلخيص فيما يأتي:

١- اعتمد البقاعي في تفسيره على الكتاب والسنة، وأقوال السلف أحيانًا، واللغة كثيرًا، والإسرائيليات بضوابطها، فلم يعتمد في تفسيره أصلًا غيرَ معتبر.

٢- أكثر ما استعمل البقاعيُّ الاجتهادَ فيه هو الربط بين معطيات المصادر السابقة، فربما خرج بروابط هي محل نظر وإن صحت أصولها.

٣- تميز البقاعي في تفسيره باللغة بأمور:

منها: التزام القواعد اللغوية المقررة في علوم اللغة قدر الإمكان، فيطرد مثلًا دلالة الوصف -كالمؤمنين والخاشعين- على الرسوخ والثبات، ودلالة الماضي على مجرد الوقوع، والمضارع

على التجدد والاستمرار، و«ال» على الكمال، و«ذلك وأولئك» على بعد الرتبة نزولًا أو صعودًا، والتأكيد على أن ثمة إنكارٌ ما، وهكذا.

وقد يوجه القول في بعض المواقف المختلف فيها إلى المعروف لغةً من غير تكلف، كقوله عند قوله تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ [الرعد: ٣١]: "من إيمان مقترحي الآيات بما يقترحون .. فقد وضح أن ﴿ييأس﴾ على بابها، وكذا في البيت الذي استشهدوا به على أنها بمعنى: علم، يمكن أن يكون معناه: ألم تيأسوا عن أذاي أو عن قتلي علمًا منكم بأني ابن فارس زهدم، فلا يضيع لي ثأر"(٢).

ومنها: إعادة الكلمة إلى جذرها اللغوي واستعمال الاشتقاق الكبير لربط المعاني ببعضها ثم التفسير بناء على المعنى الجامع وعلى المعاني المتفرقة ولوازمها، كقوله عند آية: ﴿وجعلنا بينهم موبقًا﴾ [الكهف: ٥٢]: "أي: هلاكًا أو موضع هلاك فاصلًا حائلًا بينهم، مهلكًا قويًا ثابتًا حفيظًا، لا يشذ عنه منهم أحد، وإنما فسرته بذلك.."، وذكر نظائره من القرآن ثم قال:

"وأما أخذه من اللفظ فلأن مادة وبق -يائية وواوية، مهموزة وغير مهموزة - لها أحد عشر تركيبًا [وذكرها].. كلها تدور على الجمع وخصوصًا ترتيب «وبق» يدور على الحائل بين شيئين، ويلزمه القوة والثبات والحفظ والهلاك قوة أو فعلًا؛ لأن من حيل بينه وبين شيء فقد هلك بفقد ذلك الشيء بالفعل إن كان الحائل موتًا، وبالقوة إن كان غيره"(٣)، فيلاحظ أن في تفسيره باللغة تصرفًا واجتهادًا.

٤- الاستنباط في كتابه كثير، منه البعيد المتكلَّف ومنه القريب الحسن.

٥- قد يذكر البقاعي في أول تفسيره قاعدةً يلتزمها فيما يأتي من التفسير من غير تذكير بموضعها الأول إلا نادرًا، كنقله عن الحرالي لطبقات الناس وأسنانهم في تلقي أحكام القرآن والتي تجعل «المؤمنين» أعلى طبقة وسنًّا من «الذين آمنوا»؛ لدلالة الوصف على الرسوخ والماضي على مجرد الوقوع أو على أدنى تحقق، فيذكر مثلًا عند قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا

(٢) نظم الدرر ٤/ ١٥٣، العلمية.

(٣) نظم الدرر ٤/ ٤٧٧ - ٤٧٨، العلمية.

وعملوا الصالحات﴾ عبارة نحو: "ولو على أدنى درجات الإيمان"، استحضارًا لتلك القاعدة ولدلالة الماضي، وكذلك تفريقه بين «عند» و«لدن» كما سيأتي.

وأحسن ما في تفسيره عندي:

١- المواضع التي تكلم فيها عن سبيل المجرمين وسنن الله فيهم وفي المؤمنين، وتصحيح المعايير في النظر إلى الدنيا والدين؛ لدقة فهمه وعبارته وحسن استخراجه لها من مواضعها من الآيات ومعرفته بالواقع مما ساعده على إحسان تنزيلها، وكلام البقاعي في بعض هذه المواضع كلامُ مجرِّب يعيش تلك المعاني لا مجرد مفسر.

٢- اطراد منهجه -بل وأحيانًا عبارته- مما يُكسِب القارئ له قدرةً على محاكاته والترقي معه.

٣- الوقوف على كل كلمة في الآية تقريبًا وتثوير ما فتح الله عليه فيها من المعاني مع التأصيل لها، فكان تفسيره مثالًا حسنًا للتدبر.

٤- اطلاعه على كثير من المصادر وحسن انتقائه لما ينقله، وقد ينقل ما ليس موجودًا بين أيدينا الآن ككثير مما نقله عن الإمام الحَرَالِّي عليهما رحمة الله، وقد ينقل ما لا يسنده إلى قائله أو يذكر أنه منقول.

وأقل ما فيه عندي:

١- بعض مقاصد السور التي قصَّر فيها عن كثير من المعاني التي كان الأولى مراعاتها.

٢- التكلف في بعض المناسبات.

٣- تفسيره لبعض أوائل السور ذات الحروف المقطعة بتفسير متكلف أو غريب يبعد أن يكون مما يستعمله العرب الأميون، وقد يكون لذلك وجه قريب لم أفهمه، والله أعلم.

٤- التكلف في بعض الروابط بين المقطع والمطلع أو غموض وجه الربط بينهما.

الثالثة: التعريف بمختصر نظم الدرر

أولًا: منهج الانتقاء

حرصت في هذا المختصر على إثبات المناسبات والمقاصد؛ لأنها موضوع الأصل إلا في مواضع لا تخفى مناسبتها إن شاء الله، وعلى ما يبين فيه سبيل المجرمين، ومعية الله للمؤمنين، وسننه فيهم وفي الواقع، وذكر صفات النفس الإنسانية وأخلاق الناس، ومعايير الوحي في قضايا اشتهرت النظرة الخاطئة إليها كالمبالغة في الاهتمام بزينة الدنيا، وغيرها من الأمور التي تنمِّي الوعي والإيمان إن شاء الله.

وهو يكاد يفسر كل كلمة في القرآن، فاقتصرت من تفسيره على ما يخدم ذلك الذي حرصت عليه ويحافظ على تسلسل المعاني واتساقها، وربما غمضت عبارة البقاعي في موضع أو خفي وجهها، فذكرت في الهامش أو بين معقوفتين [ ] ما يزيل الغموض أو الخفاء وذلك قليل، وربما ذكر للسورة مقصدًا ليس هو أولى معانيها بذلك، فأذكر في الهامش أو بين معقوفتين ما يمكن أن يكون أقرب إن وجدت، والله أعلم.

ثانيًا: مواضع الزيادات والإبدالات

سيجد القارئ عددًا من الأقواس المعقوفة، وبيانها فيما يلي:

أولًا: قد أجد أن المناسبة التي ذكرها البقاعي أشبه بوصفِ السياق منها بالمناسَبة، فأبدلها بما هو أظهر في نظري منها، وأسعد ما عندي في البدل أن أجد في المفسّرين من ذكرها، وأكثر ما اعتمدت في ذلك على ثلاثة كتب: مفاتيح الغيب للرازي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي، فإن لم أجد من ذكر المناسبة ذكرتُ من عندي ما ليس ببعيد إن شاء الله وهو داخل في معنى الآية، وإلا تركتُه وأثبت ما عند البقاعي.

وقد يذكر البقاعي في أثناء تفسير الآية ما هو أولى بأن يكون مناسبةً مما ذكره، فأجعله كذلك ولا أحيطه بمعقوفتين، وهذا قليل.

ثانيًا: عند مقارنة النسخة المطبوعة بالأجزاء التي بين يدي من النسخة المخطوطة لاحظتُ وجود سقطٍ من المطبوع في بعض السور -وهو قليل- فجعلته بين معقوفتين وبينت ذلك في الهامش، وأما سقط الكلمة ونحوها فأثبته ولا أشير إليه.

ثالثًا: أبدلت كلمةً اتفقت عليها النسخة المطبوعة والمخطوطة بكلمةٍ أخرى، وذلك في موضع واحدٍ في آخر تفسير سورة الكوثر في قوله رحمه الله: "فالأُولى من سخيف عقل الخسيف وأكله إلى الخلق"، قلت بدلًا منها: "[ونظره] إلى الخلق"؛ لأن الأولى لم أفهم لها وجهًا في السياق ولو بعيدًا، ولا حرفُ التعدية مناسب لها، فلعله خطأ قلم، والله أعلم.

ومن يقارن بين المطبوع والمختصر قد يجد اختلافًا في بعض العبارات، وهي عائدة إلى أن العبارة في المطبوع تكون مشكلة فأرجع إلى المخطوط فأجدها قد قُرئت خطأ مثلًا أو سقط منها شيء يسير كحرف نفي أخل بالمعنى، فأعتمد هنا على ما في المخطوط ولا أشير إليه.

ثالثًا: القراءة المعتمدة في المختصر

كان لا بد في كتابة الآيات من التزام قراءة معينة، والأولى أن تكون قراءة المصنف لبنائه التفسير عليها، ولم أجد من نص على ذلك من أهل العلم بالقراءات، فاحتملتُ أن تكون القراءة المعتمدة عنده هي قراءة أبي عمرو من طريق السوسي عنه لثلاثة أمور:

الأول: أنه فسر بعض الآيات أو خطَّها في المخطوط الذي يُقال أنه بخطه بناء على قراءةٍ انفرد فيها أبو عمرو، مع ندرة مخالفته لها في مواضع هي من قبيل اختلاف الترتيب في عرض التفسير بناء على عدة قراءات كما سيأتي قريبًا.

الثاني: استأنستُ بواحدٍ من أوائل مصنفاته وهو: كفاية القاري وغنية المقري بقراءة أبي عمرو ابن العلاء البصري(٤).

الثالث: رجّحت من راوييه: السوسي؛ لموافقة خط الآي في ذلك المخطوط.

وليست هذه الأمور بالقواطع لكن الأمر قريب إن شاء الله، والله أعلم.

(٤) ينظر: برهان الدين البقاعي ومنهجه في تفسيره، لعبد الله الخطيب، ص٢٩.

وقد ينطلق البقاعي في التفسير من قراءة أخرى ثم يذكر قراءة البصريين، ففي هذه المواضع القليلة تصرفتُ بما يجعل قراءة البصريين هي الأساس ثم تُذكر القراءة الأخرى؛ لأحقق الالتزام بقراءة واحدة في المختصر كله.

مثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿والذين قُتِلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ [محمد: ٤] قال في المخطوط: "﴿والذين قاتلوا﴾ وفي قراءة البصريين وحفص: ﴿قُتِلوا﴾ وهي أكثر ترغيبًا، والأولى أعظم ترجية"(٥)، فجعلتُ العمدةَ على ما ذكره عن البصريين، ثم أتبعتها بالقراءة التي جعلها العمدةَ في التفسير وهي قراءة أهل الحجاز والكوفة، وهكذا في باقي المواضع.

وإنما مثلت بهذا الموضع؛ لأن المطبوع يثبت الآيات أحيانًا داخل التفسير كما هي في المخطوط وأحيانًا على قراءة حفص، وفي هذا الموضع أثبتها على قراءة حفص، فخفي وجه تفريق البقاعي بين القراءتين في المعنى إذ صارت في الموضعين ﴿قُتِلوا﴾.

وأحسن ما في المختصر عندي:

١- اقتصاره على أنفس ما في هذا التفسير الأنيق الذي قد يثبّط القارئَ عن إكماله: طولُ الكتاب، وكثرة الأخطاء في النسخة المطبوعة، وصعوبة العبارات أحيانًا خاصة عبارات الإمام الحرالي رحمه الله، وهي أكثر العبارات التي تصرفت فيها تصريفًا يوضحها ولا يمسخها إن شاء الله، وإن عجزت عن توضيحها بمجرد التقديم والتأخير وتغيير صيغة الاشتقاق وإضافة أحرف التعدية وعلامات الإعراب ونحوها، ذكرتُ في الهامش ما لاح لي من معناها.

٢- رجوعه إلى النسخة المخطوطة في إصلاح كثير من المواضع المشكلة.

٣- تكميل بعض ما في الأصل من الخَلل بمصادر أخرى أو بما ظهر لي مما هو مبني على عادة البقاعي التي فهمتها مع تكرار القراءة لأكثر تفسيره وتحليل أغلب عباراته.

٤- المحافظة على أسلوب البقاعي وتناسق العبارات واتصالها.

---

(٥) موضعه في المطبوع: نظم الدرر ٧/ ١٥٣، العلمية.

وأقل ما فيه عندي:

ما ذكرته من المناسبات والمقاصد مما لم أعزه -وهو بحمد الله قليل-، فلعل القارئ ينظر إليه بعين النقد فيأخذ ما رآه حسنًا ويعذر ما رآه غير ذلك، والله الموفق.

واللهَ أسأل أن يتقبل هذا العمل، ويغفر ما فيه من الزلل، وما في النيات من الدَّخَل، وأن يكون في هذا المختصر خدمةً لهذا التفسير القيّم، ونفعًا للمسلمين وهدايةً، وذخرًا لي يوم ألقاه، والله ولي المغفرة والقبول، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

✍ قلمَّس

١٣ ربيع الآخر ١٤٤٦هـ

١٦ أكتوبر ٢٠٢٤م

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب متناسبًا سوره وآياته، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وبعد:

فهذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله مناسبات في ترتيب السور والآيات.

وعلم مناسبات القرآن تُعرف به علل ترتيب أجزائه، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، وقد قال الرازي في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"، وقال العز بن عبد السلام ما حاصله: "يُشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد، مرتبط أوله بآخره"، قال الزركشي: "وقال بعض مشايخنا: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا"، والشيخ المشار إليه هو محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي.

وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب؛ لأنه يكشف أن للإعجاز طريقين: **نظم** كل جملة على حيالها بحسب التركيب، **ونظمها** مع أختها بالنظر إلى الترتيب، وبه يتبين لك أن القصص المكررات أُعيدت في كل سورة لمعنى استُدل عليه بها غير المعنى الذي سيقت له القصة في السورة الأخرى، وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها، ورب آية أقمت في تأملها شهورًا.

وانتفعت في هذا الكتاب كثيرًا بتفسير الحَرَالّي الذي سماه: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل، وكتاب العروة لهذا المفتاح.

سورة الفاتحة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال المشدَّالي: "تُعرف مناسبات الآيات في جميع القرآن بالنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وإلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وإلى ما تستشرفه نفس السامع من اللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاءه بها"، وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة: أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ وهكذا اسم كل شيء، يدل إجمالًا على تفصيل ما فيه، ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة، وأطبق بينه وبين اسمها.

فمدار أسماء الفاتحة على أمر خفي كافٍ لكل مراد، فهي «كنز» لكل شيء، و«شافية» لكل داء، و«كافية» لكل هم، و«وافية» بكل مرام، و«واقية» من كل سوء، و«رقية» لكل ملم، والغرض الذي سيقت له: هو إثبات استحقاق الله لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة.

ولما كان المقصود من جمع العباد على الله تعالى: معرفته لأجل عبادته، واعتقاد أن كل الأمور منه وإليه، شُرعت التسمية أول كل شيء، وصدرت بها الفاتحة؛ لأنها لما أفادت نسبة الأمور كلها إليه، أفادت أنه الإله وحده، وهذا إجمال ما فصلته الفاتحة، والفاتحة إجمال تفصيل القرآن، وقدّم التعوذ تعظيمًا للقرآن؛ ليجتهد تاليه في تصفية سره، وجمع متفرِّق أمره، لينال مراده، ومن هنا تعرف مناسبة المعوذتين بالفاتحة.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يفيد أنه المستحق لجميع المحامد بذاته، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ يفيد أنه يستحقها أيضًا لكونه ربًا مالكًا منعمًا، ولما كانت مرتبة الربوبية لا تستجمع الصلاح إلا بالرحمة ولا تتم إلا بالمِلك التام قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ ترغيبًا في لزوم حمده و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾ ترهيبًا من سطوات مجده.

فلما استجمع الأمر استحقاقًا وترغيبًا وترهيبًا، كان من شأن كل ذي لب الإقبال عليه، فقال عادلًا عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب، مقدمًا للوسيلة على الحاجة؛ لأنه أجدر بالإجابة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ إشارة إلى أن عبادته لا تتهيأ إلا بمعونته، وأن ملاك الأمر بيده.

قال الحرالّي: "كلام الله منه ما هو كلامه عن نفسه، ومنه ما هو كلامه عما كان يجب أن ينطق به الخلق مما لا يمكنهم البلوغ إلى كنهه؛ لقصورهم وعجزهم، فتولى اللهُ الوكيلُ على كل شيء الإنباءَ عنهم، وجعل تلاوتهم لذلك نازلًا لهم منزلة أن لو كان ذلك النطق ظاهرًا منهم؛ لطفاً بهم وإتماماً للنعمة عليهم؛ لأنه تعالى لو وكلهم في ذلك إلى أنفسهم لم يأتوا بشيء تصلح به أحوالهم".

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥﴾ تلقيناً لأهل لطفه، وتنبيهاً على المحل الذي لا وصول بدونه، والهدى كما قال الحرالي: "مرجع الضال إلى ما ضل عنه"، ثم أكّد بأن ذلك لن يكون إلا بإنعامه فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦﴾.

فلما طلب أشرف طريق سأل أحسن رفيق، ولما كان إنعامه سبحانه عامًا، كان المسؤول هو صراط أهل الخصوصية، المنعَم عليهم بصفة الرحيمية، فميّزهم ببيان أضدادهم تحذيرًا منهم فقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فعلم مقدار النعمة على القسم الأول، وأن من حاد عن سبيلهم شقي.

قال الحرالي: "كانت الفاتحة أم القرآن؛ لأن القرآن جميعه مفصل من مجملها، فالآيات الثلاث الأول شاملة لكل معنى تضمنته الأسماء الحسنى والصفات العلى، والثلاث الأخر من قوله: ﴿اهدنا﴾ شاملة لكل ما يحيط بأمر الخلق في الوصول إلى الله والانقطاع دون ذلك، وكل ما يكون وصلةً بين الخلق والحق فمفصَّل من آية ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾"، ومن أنفع الأمور في ذوق هذا المشرب استجلاء الحديث القدسي: «قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل » الحديث.

سورة البقرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى؛ ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة، فلذلك سميت بها السورة، وكانت أحق من غيرها؛ لأن الإحياء فيها عن سبب ضعيف في الظاهر فكانت أدل على القدرة، وفيها إشارة إلى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل يرشدنا في كل أمر إلى الصواب، فمن أعرض خاب، ومن تردد كاد، ومن أجاب اتقى وأجاد.

وسميت «الزهراء» لإنارتها طريق الهداية والكفاية في الدنيا والآخرة، ولإيجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب ولم يكن في شك مريب، و«بالسنام» لأنه ليس في الإيمان بالغيب بعد التوحيد بأعلى من الإيمان بالآخرة، ولأن السنام أعلى ما في المطية، والكتاب الذي هي سورته هو أعلى ما في الحامل للأمر، وهو الشرع الذي أتاهم به رسولهم ﷺ.

ولما كانت الحروف المقطعة التي ابتُدئت بها سورة البقرة وغيرها: شطرَ حروف المعجم، كان كأنه قيل: من زعم أن القرآن ليس كلام الله، فليأخذ الشطر الآخر، ويركب عليه كلامًا يعارضه به.

﴿الٓمٓ﴾ قال ابن القيم في بدائع الفوائد ما حاصله: "أن حروفه الثلاثة جمعت المخارج الثلاثية: الحلق واللسان والشفتان على ترتيبها، وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق، والنهاية التي هي المعاد، والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي، وكل سورة افتتحت بهذه الحروف ذكرت فيها الأحوال الثلاثة"، وأما مناسبة ما بعد ذلك للفاتحة: فهو بيان أن الصراط المستقيم المسؤول عنه في الفاتحة إنما هو في هذا الكتاب، وبيّن صفات المهتدين حثًا على التخلق بها، والضالين زجرًا عن قربها.

أو تقول: مقصود السورة وصف الكتاب وما عداه توابع ولوازم، ولن يثبت أنه هدى إلا بإثبات أنه حق في نظمه ومعناه، فأخبر عن الكافرين بما يكون تكذيبهم به تصديقًا له، وعن المنافقين بما يعلمون به أنه الحق لِما هتك من سرائرهم، فاستدل على حقية معناه بعجزهم عن معارضته، فلما تم ذلك دعاهم بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾

[البقرة: ٢١]، ثم استدل على حقية نظمه بعجزهم عن معارضته، فلما ثبت ذلك ثبت أنه من عند الله فثبت تأهله لتعليم الشرائع.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لما كانت الصلاة التزام عهد العبادة، كانت لذلك تعهدًا للإيمان وتكرارًا، ولذلك من لم يُدِم الصلاة ضعف إيمانه وران عليه كفر، فلا إيمان لمن لا صلاة له ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٢﴾ ووجه ترتب الإيمان بالغيب على التقوى: أن المتقي لما كان متوقفًا غير متمسك بأمر، كان إذا أُرشد إلى غيب لا يعلمه لم يدفعه بمقتضى ما تقدم علمه، ووجه ترتب الإنفاق على الإيمان بالغيب: أن الإنسان لما كان لا يطلع على جميع رزقه كان رزقه غيبًا، فإذا أيقن بالخلف جاد بالعطية.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ والوصف بهذه الأوصاف إشارة إلى أمهات الأعمال، فالإيمان أساس الأمر والصلاة مشار بها إلى التحلي بكل خير والتخلي عن كل شر ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وكلاهما من أعمال البدن، والنفقة عمل مالي، فحصل بذلك حصر الفعل والترك الضابطين لجميع الأعمال كيف ما تشعبت.

ولما أخبر عن أفعالهم الظاهرة والباطنة أخبر بثمرتها فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٤﴾.

ولما بيّن حال الكتاب للمؤمنين بيّن حاله للكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولعله عبر بالماضي والموضع للوصف، تنفيرًا من مجرد إيقاع الكفر ولو للنعمة، وليشمل المنافقين وغيرهم، وكل موضع ذكر فيه الكفر فإنما عبر به إشارةً إلى أن الأدلة الأصلية في الوضوح بحيث لا تخفى على أحد، ولا يخالفها إلا من ستر مرآة عقله، إما عنادًا وإما بإهمال النظر السديد والركون إلى نوع تقليد ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥﴾.

ولما كان عجيبًا كون شيء واحد هدى لناس دون ناس، علل ذلك بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ قال الحرالي: "وشرّكه في الختم مع القلب؛ لأن أحدًا لا يسمع إلا ما عقل"، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ فهم لا ينظرون بالتأمل، ولما سوى هنا بين الإنذار وعدمه، كانت البداءة بالقلوب أنسب تسويةً لهم بالبهائم، ولما كان الغبي قد يسمع أو يبصر فيهتدي،

نفى السمع ثم البصر تسفيلًا لهم عن حال البهائم، بخلاف ما في الجاثية(٦) فإنه لما أخبر فيها بالإضلال، وكان الضال أحوج شيء إلى سماع الهادي نفاه، ولما كان الأصم إذا كان ذا فهم أو بصر أمكنت هدايته وكان الفهم أشرف، نفاهما على هذا الترتيب.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦﴾ قال الحرالي: "آخذٌ في عموم ذواتهم؛ لكونهم لم يتلبّسوا بشيء يصد عنهم شيئًا من عذابها كما يكون للمعاقبين من المؤمنين حيث يتنكب العذاب عن مواضع وضوئهم ونحو ذلك".

ولما افتتح سبحانه بالذين واطأت قلوبُهم ألسنتَهم في الإيمان، وثنّى بالمجاهرين من الكافرين الذين طابق إعلانُهم إسرارَهم في الكفران، أتبعه ذكر المساترين الذين خالفت ألسنتُهم قلوبَهم في الإذعان وهم المنافقون، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ ذكرهم بلفظ الناس لظهور معنى النوس فيهم لاضطرابهم بين الحالين؛ لأن النوس هو حركة الشيء اللطيف المعلق في الهواء، كالخيط الذي ليس في أسفله ما يثقله، فلا يزال مضطربًا بين جهتين، ولم يظهر هذا المعنى في الفريقين الأولين لتحيزهم إلى جهة واحدة.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ولما كانوا متهمين أكدوا بإعادة الجار فقالوا: ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٧﴾ أي: بعريقين في الإيمان كما ادعوه، ولعله نفى العراقة فقط؛ لأن منهم من كان حين هذا القول غير جازم بالكفر وآمن بعد ذلك، وفي ذكر قصتهم وتقبيح أحوالهم حثٌّ على الاجتهاد في سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم.

وتصنيف الناس آخر الفاتحة ثلاثة أصناف: مهتدين ومعاندين وضالين، مثل تصنيفهم أول البقرة ثلاثة: متقين، وكافرين مصارحين وهم المعاندون، وضالين وهم المنافقون، وإجمالهم ثم تفصيلهم من بديع الأساليب، وهو دأب القرآن العظيم.

وابتدأ قصتهم بالتنبيه على خفة عقولهم من حيث إنهم يخادعون من لا يُخدع؛ لانعدام شعورهم وإدراكهم بقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني أن عقولهم لخباثتها إنما تسمى نفوسًا، والنفس كما قال الحرالي: "ما به ينفس المرء على غيره، استبدادًا منه بنفاسته على من سواه"، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٨﴾.

---

(٦) في قوله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ الآية: ٢٣.

ثم بين أن سبب الغفلة عن هذا الظاهر: كون آلة إدراكهم مريضة، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمرض كما قال: "ضعف في القوى يترتب عليه خلل في الأفعال"، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ ٩﴾.

ولما أخبر تعالى عن بواطنهم أتبعه من الظاهر ما يدل عليه، فبين أنهم إذا نُهوا عن الفساد العام ادّعوا الصلاح العام بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ وبناؤه للمجهول إشارة إلى عصيانهم لكل قائل كائنًا من كان ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بما نرى لكم من الأعمال الخبيثة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١٠﴾.

ولما كان حالهم مبنيًا على الخداع بإظهار الخير وإبطان الشر، وكانوا يرون إفسادهم -لما لهم من عكس الإدراك- إصلاحًا، فكانوا يناظرون عليه بأنواع الشبه، كان قولهم ربما غر من سمعه، فقال تعالى محذرًا من حالهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ أي: البالغون من العراقة في الإفساد: ما يجعل إفسادَ غيرهم بالنسبة إلى إفسادهم عدمًا، وقال الحرالي: "ولما كانت الطمأنينة بالإيمان إصلاحًا، كان اضطرابهم فيه إفسادًا، لا سيما مع ظنهم أن كونهم مع هؤلاء تارة وهؤلاء تارة من الحكمة والإصلاح، وهو عين الإفساد؛ لأنه مخالفة للفريقين، فقد أفسدوا طرفي الإيمان والكفر"، ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١١﴾.

ولما بين حالهم إذا أُمروا بالصلاح العام، بين أنهم إذا دُعوا إلى الصلاح الخاص سموه سفهًا فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي: من أي قائل كان ﴿لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ "والإيمان المضاف إلى الناس أدنى مراتب الإيمان"، قاله الحرالي ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ أي: الذين استدرجهم إلى ما دخلوا فيه بعد ترك ما كان عليه آباؤهم: خفةٌ نشأت عن ضعف العقل، ثم رد قولهم بحصر السفه فيهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لجمودهم على رأيهم مع ظهور بطلانه ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٢﴾ ولا يتصور لهم؛ لأن جهلهم مركب، وهو أسوأ الجهل والعلم، ولما كان الفساد يكفي في معرفته والصد عنه أدنى تأمل، والسفه لا يكفي في إدراكه والنهي عنه إلا رزانة العلم، خُتمت كل آية بما يناسب ذلك.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ معبرين بالجملة الفعلية الماضية الدالة على أدنى الحدوث ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ معبرين بالاسمية الدالة على الثبات ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٣ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٤﴾ قال

الحرالي: "العمه انبهام الأمور التي فيها دلالات يُنتفع بها عند فقد الحس، فلا يبقى له سبب يُرجِعه عن طغيانه"، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فكأنه لوضوحه كان في أيديهم فباعوه بها ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٥﴾.

ولما كانت الأمثال ألصق بالبال، مثل حالهم في ذلك بالأمور المحسوسة فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ وهو كناية عما حصل لهم من الأمنة بما قالوه من كلمة الإسلام، وأفرد الضمير تقليلًا للنور؛ لانطفائه في آخره، ثم جمعه لئلا يُتوهم أن بعضهم انتفع فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وبقيت نارهم؛ ليجتمع عليهم حرها مع حر الفقد لما ينفعهم من النور، وعبر بالإضاءة أولًا إشارة إلى قوة أولهم وانمحاق آخرهم؛ لأن محط حالهم الباطل، والباطل له صولة ثم تضمحل عند من ثبت لها؛ ليتبين الصادق من الكاذب ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٦﴾.

ولما فرغ من المثل كشَف المراد بظلماتهم بأنها ما في آذانهم من الثقل المانع من الانتفاع بالسماع، وما في ألسنتهم من الخرس عن كلام الخير؛ لأن قلوبهم مختوم عليها فلا ينبعث منها خير تقذفه إلى الألسنة، وما على أبصارهم من الغشاوة المانعة من الاعتبار فقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ ولما كان في مقام إجابة الداعي إلى الإيمان، قدم السمع لأنه العمدة في ذلك، وثنى بالقول لأنه يمكن الأصمَّ الإفصاحُ عن المراد، وختم بالبصر لإمكان الاهتداء به بالإشارة، بخلاف ما في الإسراء(٧).

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٧ أَوْ﴾ مثلهم في سماع القرآن الذي فيه المتشابه والوعيد والوعد ﴿كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ومثّلَ القرآن بهذا؛ لمواترة نزوله وعلوّه وإحيائه القلوب ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ والظلمات لما لم يفهموه؛ لأنهم كالأنعام لا نفوذ لهم إلى ما وراء الدنيا، والرعد ما ينادي عليهم بالفضيحة والتهديد، والبرق ما يلوح لهم معناه ويستحسنوه.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٨ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ مبادرين إلى ذلك ما دامت الإضاءة، مع أنهم يغضون أبصارهم خوفًا واعتمادًا على الأسباب، وهو مَثَلٌ لما وجدوا من القرآن موافقًا لآرائهم ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ أي: حال انقطاع اللمعان يقفون لجبنهم وعمى

---

(٧) لعله يقصد قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ الآية: ٤٦.

بصائرهم، وهكذا حال هؤلاء لا يقيسون ما أشكل عليهم من القرآن على ما فهموه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩﴾.

قال الحرالي: "ضرب للمنافقين مَثلين لمّا كان لهم حالان، وللقرآن عليهم تنزلان: منه ما يرغبون فيه لما فيه من مصلحة دنياهم، فضرب لهم المثل الأول، وقدّمه لأنه سبب دخولهم مع الذين آمنوا، ومنه ما يرهبونه ولا يستطيعون سماعه لما يتضمنه من أمور شاقة عليهم لا يتحملها إلا مؤمن حقًا، فضرب له المثل الثاني، فلن يخرج حالهم عند نزول نجوم القرآن عن مقتضى هذين المثلين".

وقال: "**وجه إنزال حرف الأمثال**: تفهيم ما غمض من المغيَّبات بضرب مثل من المشهودات، وللمثل حكمٌ من ممثوله، فإن كان حسنًا حسن مثله وإن كان سيئًا ساء مثله، وبقدر علو المثل أو دنوه أو توسطه يتزايد إيمان العبد وعلمه وفهمه، والضد بالضد ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا يضل به كثيرًا ويهدي به كثيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ومعرفةُ أمثال القرآن المعرِّفةِ إحاطةَ ممثولاتِها، وعلمُ آياته المعلِمةِ اختصاصَ معلوماتِها: هو حظ العقل من القرآن، ولكل حرف اختصاص بحظٍّ من الإنسان، فمن يُسِّر له القراءة والعمل بحرف منه اكتفى، ومن جمعها فقد أتم ووفى.

واعلم أن قراءة الأحرف الستة تمامًا وفاءٌ بتفصيل العبادة؛ لأنها أشفاعٌ: ثلاثةٌ للتخلي وثلاثةٌ للتحلي، فترك الحرام طهرة البدن، وترك النهي طهرة النفس، وترك التعرض للمتشابه طهرة القلب، وتناول الحلال زكاء البدن، وطاعة الأمر زكاء النفس، وتحقق العبودية بمقتضى حرف المحكم نور القلب، **وأما قراءة حرف الأمثال**: فهو خاص بالقلب؛ لأن أعمال الجوارح وأحوال النفس قد استوفتها الأحرف الستة التفصيلية، والذي يخص القلب بقراءة هذا الحرف: هو المعرفة التامة المحيطة بأن كلَّ الخلقِ خلقُ الله وحده، وأنه جميعه مَثلٌ لكلية أمر الله القائم بكلية ذلك الخلق، وأن تفاصيل ذلك الخلق أمثالٌ للأمر المحيطات بها، وأن تفاصيل الأمر أمثالٌ لأسماء الله تعالى بما هي محيطة(٨)".

---

(٨) يوضحه قوله: "فسنة الله إخراج الحي من الميت، كإخراج حي الشجر من موات البذر، وإخراج الحي المؤمن من الميت الكافر، فأظهر سبحانه بذلك وجوه الإحكام والاشتباه في آيتي خلقه ليكون آية على ما في أمره، وليشف ذلك عما يظهر من علمه وقدرته، كما أظهر في آدم ما شاء من علمه، وفي عيسى ما شاء من قدرته، وفي الخلق ما شاء من ملكه" [نظم الدرر ٢/ ٥٧، العلمية - بتصرف].

ولما ثبت بهذا البيان تمامُ القدرة وشمول العلم المستلزمين للوحدانية، أنتج قطعًا إفراده بالعبادة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إيذانًا بأنهم صاروا بما تقدم من ضرب الأمثال وغيرها متأهّلين للخطاب من غير واسطة، تنشيطًا لهم في عبادته ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢٠ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ وإخراج الأشياء في حجاب الأسباب أوفق بالتكليف بالإيمان بالغيب، لأنه كما قيل: لولا الأسباب لما ارتاب المرتاب، ولا يشك ذو حس إذا تيقظ من نوم فوجد بساطًا مفروشًا وخيمةً مضروبة وطعامًا مقدمًا، أن نفسه تنبعث بذاتها لتعظيم من فعل ذلك بها.

وتنزيل هذه الدعوة إلى هذا البيان جارٍ على مقتضى أحوال العرب؛ إذ ليس من شأنها تكلف الأفكار، فعوملت بما جبلت عليه، لتكون نقلتها من فطرة إلى فطرة، ومن علم وجداني إلى علم وجداني عليّ، فأجريت هذه الدعوة على ما أحكمه صدر السورة في قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ [البقرة: ٢].

ولما أمر بعبادته وذكّرهم بما يعلمون أنه فاعله وحده، حسُن النهي عن أن يشرَك به ما لا أثر له في شيء من ذلك، فقال معللًا: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ ويجوز أن يكون مسببًا عن التقوى المرتجاة في قوله آنفًا: ﴿لعلكم تتقون﴾ قال الحرالي: "لما شهدوا الندّية منهم تعلَّق بهم رجاؤهم وخوفهم، وعاقبَهم ربُّهم على ذلك بأيديهم، فاشتد داعي رجائهم لهم وسائقُ خوفهم منهم فتذللوا لهم وخضعوا، فصاروا بذلك عبدة الطاغوت وجعلوهم لله أندادًا"، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢١﴾ وهذه الآية من المحكم الذي اتفقت عليه الشرائع.

قال الحرالي: "**وجه إنزال حرف المحكم**: تحقيق اتصاف العبد بما هو اللائق به في صدق وجهته إلى الحق، ببراءته من نفسه والتجائه إلى ربه. **والتحلي بأوصاف هذا الحرف**: بحسب البراءة من التعرض لنظيره المتشابه؛ لأن اتباع المتشابه زيغ، لقصور العقل والفهم عن نيله، ووجوب الاقتصار على الإيمان به، وإنما يتصف بهذا الحرف عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا.

والذي تحصل به قراءة هذا الحرف: **أما من جهة القلب**: فالمعرفة بعبودية الخلق للحق عبوديةَ خلقٍ ورزق وتصريف، فيسلم له مقاليد أمره، **وأما من جهة حال النفس**: فجميع أحوال العبد المُعْرِقِ في المِلك، وجماع ذلك وأصله: الذل انكسارًا، والبراءة من الترفع

والفخر على سائر الخلق. **وأما من جهة العمل**: فتصرف الجوارح وإسلامها لله قولًا وفعلًا وبذلًا، ومسالمة الخلق لسانًا ويدًا، وهو تمام الإسلام".

ولما ثبتت هذه الأدلة وأن هذا الكتاب من عند الله معنى، قال مبيّنًا أنه من عنده نظمًا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أتى بـ«من» التبعيضية في هذه السورة دون غيرها؛ لأنه سبحانه لما فرض لهم فيها الريب الذي يلزم منه زعمهم أن يكونوا اطلعوا له على مثيل، أتى بها ليفيد تحديهم في قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه، والمراد بالسورة هنا مفهومها اللغوي؛ لأنها من المثل المفروض، وهو لا وجود له في الخارج حتى يكون لقِطَعه اصطلاح، ولو أريد التحدي بسورة من القرآن لقيل: «فائتوا بمثل سورة منه»، ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ إيماء إلى كذبهم في دعوى الشك فيه.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أتى بأداة الشك تنفيسًا لهم وتهكمًا بهم، ثم لم يتمم ذلك التنفيس حتى ضربهم بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ فألزمهم الخزي بما حكم عليهم به من العجز، والتعبير بالفعل الأعم من الإتيان أبلغ؛ لأن نفيه نفي الأخص وزيادة، قال الجاحظ: "إن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ أحكم ما كانت العرب لغة، فدعاهم إلى حظهم بالحجة، حتى إذا صار الذي يمنعهم من الإقرار: الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، وهو في ذلك يدعوهم إلى معارضته إن كان كاذبًا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة.

فحين لم يجدوا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف! قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويكابر فيه، فدل ذلك العاقل على عجز القوم؛ لأن سورة واحدة كانت أفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه من بذل النفوس والحرائب، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد علمهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر!".

وأحسن ما وقفت عليه في سبب الإعجاز: ما نقله الزركشي في كتابه البرهان عن الخطابي، وقال: "وإليه ذهب الأكثرون من علماء النظر": أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة، قال: "والتحقيق أن الكلام منه الجزل والسهل والرسل، وقد جمعت بلاغات القرآن ذلك، فانتظم لها نمط يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد كالمتضادين، فكان اجتماعهما فضيلة خص بها القرآن لتكون آية بينة لنبيه ﷺ.

وإنما تعذر على البشر جميعًا الإتيان بمثله لأمور: منها أن علمهم لا يحيط بجميع ما يقوم به الكلام، **وهو ثلاثة أشياء**: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم؛ وإذا تأملت القرآن وجدتها منه في غاية الشرف والفضيلة، وقد توجد هذه الفضائل على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن يوجد مجموعه في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير".

وقال ابن أبي زيد المراكشي ما يصلح أن يكون متنًا وجملة، وما تقدم شرحًا له وتفصيلًا: "فعلى إعجازه دليل إجمالي: وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها فغيرها أحرى، ودليل تفصيلي: مقدمته التفكر في خواص تركيبه، ونتيجته العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علمًا"، ﴿فَاتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وتعريف النار وصلة الموصول؛ لأن أخبار القرآن بعد ثبوت أنه من عند الله معلومة مقطوع بها، فهو من باب تنزيل الجاهل منزلة العالم، تنبيهًا على أن ما جهله لم يجهله أحد.

ولما ذكر ما لهم ترهيبًا، ذكر ما للمؤمنين ترغيبًا فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ولمّا ثبت بعجزهم عن المعارضة أن هذا الكلام كلامه سبحانه، ثبت أن ما فيه من الأمثال أقواله، وكان طعنُهم بها لكونها بالأشياء الحقيرة لا تليق بكبريائه، فأشار بعدم الاستحياء من ضربها لكونها حقًّا = إلى أن الأشياء كلها وإن عظمت، حقيرة بالنسبة إلى جلاله، فلو ترك التمثيل بها لذلك لانسدّ ذلك الباب الذي هو من أعجب العجاب فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ والمعنى أن ذلك وغيره بمنزلة واحدة في الضعف والحقارة، وأما شرف بعضه على بعض فإنما كان بتشريف الله له ولو شاء لعكس الحال.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ قال الحرالي: "وكان إضلالًا لهم؛ لأن في ضرب المثل بما يسبق لهم استزراؤه = تطريقٌ لهم إلى الجهالة"، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ ببركة اعتقادهم الخير وتسليمهم له الأمر، فيشرح صدورهم لما فيه من المعارف، فيزيدهم به إيمانًا وطمأنينة، والمهديون كثير في الواقع، قليل بالنسبة إلى الضالين ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾

فانتجت تلك الأوصاف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قال الحرالي: "أشير إليهم بأداة البعد؛ لبعدهم عن محل الخير".

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ قال الحرالي: "جاء هذا الاستفهام لإيضاح انقطاع العذر في التمادي على الكفر"، ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ وإطلاق الموت على ما لم تحله حياة مجاز، وسر التعبير به: التنبيه على أنه أكثر ما تكون الإعادة التي ينكرونها مثل الابتداء، فلا وجه أصلًا لإنكارها مع الاعتراف بالابتداء، فكيف والإعادة دونه ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ولما أجمل أحوالَهم على وجه يقتضي امتناع الكفر؛ لما عليه من باهر الأدلة، دعاهم إلى توحيده، على عادة القرآن في الترقي إلى الأعلى، فساق ابتداء الخلق مساقَ الإنعام على عباده؛ ليكون داعيًا إلى توحيده من وجهين: كمال القدرة والإحسان إليهم، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال الحرالي: "قوله: ﴿جميعًا﴾ إعلام بأن حاجة الإنسان إنما تقوم بكلية ما في الأرض، فلو بطل منها شيء تداعى سائرها"، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فكان خلقُ الأرض وتهيئتُها قبل خلق السماءِ ودحوُها بعده، على أن ثم للتعظيم لا للترتيب فلا إشكال، وقدم الأرض لشدة الملابسة ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم عطف على ذلك قصةَ آدم عليه السلام دليلًا على أن النوع الآدمي هو المقصود من هذا الوجود، وأنه لا يجوز في الحكمة أن يترك بعد موته بلا إحياء يرد به إلى دار تظهر فيها الحكمة جدًا، وذكرها في سياق داع إلى عبادته، حيث أحسن إلى هذا النوع الآدمي قبل إيجادهم، بمحاجة الملائكة عنهم وتشريف أبيهم آدم بالعلم وسجود الملائكة، ثم ما وقع لإبليس معه، فتاب عليه ولم يتب على إبليس فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ والأظهر أنهم قالوا ذلك تفرسًا بما ظهر لهم من خلقته الجامعة بين الشهوة والعقل، ومن المعلوم أن الشهوة حاملة على الفساد، وعَلم سبحانه ما خفي عنهم من أنه يوفِّق من أراد منهم للعمل بمقتضى العقل مع منازعة الشهوة والهوى، فيكمل عن درجة العامل بمقتضى العقل من غير منازع له، فيظهر تمام القدرة.

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٩ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣١ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٢ *وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ ظاهره أن الأمر بالسجود كان بعد الإنباء بالأسماء، والعكس أولى من جهة المعنى؛ لأن سجود الملائكة قبلُ يكون إيمانًا بالغيب على قاعدة التكاليف، وأما بعد إظهار فضيلة العلم فقد كُشِف الغطاء، ولكن هذا الترتيب هو مقتضى الأسلوب الحكيم، فإنه لما أخبر بمحاجته عن آدم ذكر لهم الحجة في فضيلته وهي العلم.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٣ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ ولما كان السياق هنا لمجرد بيان النعم قال: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ بخلاف سياق الأعراف[٩] فإنه أريد منه مع ذلك: التعريف بأن التمكين لا يمنع من الإخراج تحذيرًا للمتمكنين في الأرض من إنزال المثلات، والمقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى أو بعضه ولم تكن مناقضة، والله تعالى يعبّر عن القصة في كل سورة بما يناسب المقام ويترك ما لا يقتضيه.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ في هذا النهي دليل على أن هذه السكنى لا تدوم؛ لأن المُخلَّد لا يناسب أن يُحظر عليه شيء، ولذا دخل عليه الشيطان من جهة الخلد، ولا داعي لبيان نوع الشجرة؛ لأن السياق لبيان شؤم المخالفة وبركة التوبة لا لتعيين المنهي عنه ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٤ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ قال الحرالي: "وحكمة نسبة هذا الذنب إلى الشيطان بتسببه: أن الله تعالى يعطي عباده الخير بواسطة وبلا واسطة، ولا ينالهم شر إلا بواسطة نفس، كما وقع من الإباء للشيطان فكانت خطيئته في ذات نفسه، أو بواسطة شيطان كما كانت مخالفة آدم".

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٥ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٦ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا

---

(٩) في قوله تعالى: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما﴾ الآية: ١٩.

يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدَى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: أدنى اتباع يعتد به، ولذلك اكتفى في جزائه بنفي الخوف الذي قد يكون عن توبة من ضلال بخلاف ما في طه[10]، ولما كان الخوف أشد لأنه يزداد بمر الزمان والحزن يخِفّ، قدمه فقال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آتٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ على فائت؛ لأنهم ينجون من النار ويدخلون الجنة، والحزن كما قال الحرالي: "توجع القلب لأجل نازح قد كان في الوصلة به رَوح"، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وهنا آخر الآيات الخاصة بالنعم العامة لجميع بني آدم، دالة على التوحيد لأنها حادثة فلها محدث، وعلى النبوة لأنه ﷺ أخبر عنها موافقًا لما في التوراة والإنجيل من غير تعلم، وعلى المعاد لأن من قدر على خلقها ابتداء قدر على إعادتها.

ولما فرغ من دعوة العرب الجامعة لغيرهم، شرع يخص بالذكر العلماء من المنافقين، على وجه استلزم عموم المصارحين منهم بالكفر، فقال مذكرًا لهم بنعمه الخاصة بهم: ﴿يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أو يقال: لما كان الكفار قسمين: من محّض كفره، ومن شابَهُ بنفاق وخداع، ذكر الماحض بما يعم العالم والجاهل فقال: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم﴾ الآية، ثم أتبعه المنافق فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا﴾ الآية، ثم شرع في ذكر قسمٍ من الماحض هو كالمنافق في أنه يعرف الحق ويخفيه، ولهذا تراهم مقرونين بهم في كثيرًا من القرآن، وأخّرهم لطول قصتهم وما فيها من دلائل النبوة، بما أبدى مما أخفوه من دقائق علومهم.

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٣٩﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ قال الحرالي: "أُمروا بتجديد الإيمان بالقرآن؛ لما فيه من إنباء بما ليس في كتابهم؛ لأنه خاتم ليس وراءه كتاب يبينه، وقد أبقى لكل كتاب قبله بقية أحيل فيها على ما بعده"، ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ﴾ ليس المراد معناه المتبادر إلى الذهن، فإن العرب كثيرًا ما تريد بالأولية المبالغة في السبق.

أو معناه: أنه لم يمنعهم من الإيمان به الجهل بل الحسد للعرب، فصارت رتبة كفرهم قبل رتبة كفر العرب الجاهلين به أو الحاسدين له خاصة لا للعرب، ثم نهاهم عن الحامل على الكفر بالآيات بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤٠﴾﴾ وفيها زجر لهم

(١٠) في قوله تعالى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ الآية: ١٢٣.

عن عنادهم، ومن لطفه سبحانه زجر القاسي ونهي العاصي وتنبيه الغافل وزيادة الكامل ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قال الحرالي: "**وجه إنزال حرف النهي**: كفّ الخلق عما يهلكهم في أخراهم، ولا تصح الحروف التي بعده إلا بحسب الإحكام في قراءته؛ لأن الملة الحنيفية مبنية على الاكتفاء باليسير من المأمورات، والمبالغة في الحمية من المنهيات؛ لكثرة مداخل الآفات منها على الخلق فيما بعد الموت، **ويصعب هذا الحرف على الخلق**: لتوهمهم أن دنياهم لا تصلح إلا بالمثابرة على المنهيات؛ لنظرهم لجدواها في الدنيا وعماهم عن وبالها في الأخرى، وما حوفظ على الرياضات والتأديبات إلا بوفاء الحمية منها، والحمية أصل الدواء، فمن لم يحتم عن المنهيات لم ينفعه تداويه بالمأمورات.

والذي يحصل به قراءة حرف النهي: **أما من جهة القلب**: فمشاهدة البصيرة لموعود الجزاء حتى كأنه ينظر إليه، **وأما من جهة حال النفس**: فالصبر بحبسها عما تشتهيه طبعًا مما هو محلل لها شرعًا، قال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»، وصبر النفس عن شهواتها -وإن كانت حلالًا- هو حقيقة تزكيتها، وإطلاقها ترتع فيها هو تدسيتها، وحبسها عن ذلك شائع إلا في النساء بكلمة الله، والطيب؛ لأنه غذاء للروح وتقوية للحواس، **وأما من جهة العمل**: فرفع اليد عما زاد على الكفاف، وتخليته لذوي الحاجة ليتخذوه معاشًا".

وثنّى بالصلاة؛ لأنها استرزاقٌ يغنيهم عن اشتراء ثمن كانوا يأخذونه من أتباعهم في اللبس والكتمان ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقًا نحن نرزقك﴾ [طه: ١٣٢] فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٢﴾ ۞أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ولعله عبر بالنفس زيادة في التنفير عن هذا الأمر؛ إذ ليس من العقل أن ينصح الإنسان غيره وينسى نفسه ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والظاهر أن المراد به حكم التوراة، كانوا يحملون عوامهم عليه، ونسوا أنفسهم من الأمر باتباع حكمها في محمد ﷺ، ولذا أنكر عليهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إشارة إلى أن ما هم عليه من هذا لا يفعله ذو مسكة، والعقل: "إدراك حقائق ما نال الحسُّ ظاهرَه"، قاله الحرالي.

ولما أنكر عليهم اتباع الهوى أرشدهم إلى دوائه، فقال عاطفًا على ما مضى من الأوامر: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال الحرالي: "فكأنهم إنما حملهم على مخالفة حكم العقل:

ما تعودت به أنفسهم من الرياسة، فشقّ عليهم أن يصيروا أتباعًا للعرب، فأمرهم بالاستعانة بالصبر الذي يُكرِه أنفسَهم على ذلك"، قال: "والصبر حبس النفس عن حاجتها وعادتها، وعلى إصلاحها وتزكيتها، هو ضياء للقلوب تبصر به ما يخفيه عنها الجزع".

وفيه التفات إلى ﴿وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] وإشارة إلى أن من لم تنهه صلاته عن الباطل وتأمره بلزوم الحق فليس بمصل، فكأن المراد بالصبر: تخليص النفس من أشراك الهوى وقسرها على الإخلاص، فمن صلى على هذه الصفة كان من الناجين.

ولعظم الصلاة خصصها بالضمير فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: المخبتين الذين هم في غاية اللين لربهم، بحيث ينظرون عواقب الأمر وما أعد عليها من الأجر، وغيرهم يمنعهم ثقلها من فعلها، وإن فعلها فعلى غير رغبة، قال الحرالي: "الخشوع: هدوّ الجوارح والخواطر فيما هو الأهم في الوقت، وخُصت الصلاة بالكبر دون الصبر؛ لأن الصبر صَغار للنفس، والصلاة وجهة للحق، والله هو العلي الكبير".

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ عبر بالظن عن العلم؛ تهويلًا للأمر، وتنبيهًا على أنه يكفي العاقل ليلزم الطاعة: ظنُّ لقاء الملك، فكيف والأمر متيقن لا ريب فيه! ويجوز أن يراد: ظن الموت في كل لحظة، فإنه إذا كان على ذكر من الإنسان أوجب له السعادة ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ عبر بذلك وإن كانوا في قبضته؛ لأن اسمه الظاهر يكون في تلك الدار في غاية الظهور، لا كهذه الدار التي الغالب فيها معنى اسمه الباطن إلا عند أولي البصائر.

ولما كان الغالب على الناس الجمود، كرر النداء لهم لطفًا بهم فقال: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهم من ظهرت أعلام وجودهم في زمانهم، وكذا كل تفضيل يقع في القرآن والسنة، وإنما العالَم من شمله الوجود لا ما أحاط به العلم بعد.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ لما كان المتقَى إنما هو الجزاء في يوم القيامة، حذفه وأقام اليوم مقامه تفخيمًا له، وتنبيهًا على أن عقابه لا يُدفع ولو بأنواع الحيل فقال: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ ولما كان عدم النصرة للجمع يستلزم عدمها للمفرد بطريق الأولى، جمع فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قال الحرالي: "ولما كانت أسباب النجاة أحد هذه الثلاث، استوفاها ليسد على ذي النفس المستمسك بنفاسته جميعها".

ولما ذكرهم بالنعمة الظاهرة، ذكر أهل الاستحقاق بما عوقبوا به فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ سماه بذلك لأنه أشد البلاء على النفس؛ لما فيها من استحقارها، من السوم وهو تعذيبٌ بتهاونٍ بالمعذَّب ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾. ولما كان ما فُعِل بهم في البحر: إهلاكًا للرجال وإبقاء للنساء، طبق ما فعلوا ببني إسرائيل، عقبه به فقال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ فكان الإنجاء منه وبه ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

ولما كان فرق البحر للإبقاء البدني، وكان إنزال الكتاب للإبقاء الديني عقبه به فقال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال الحرالي: "وفيه إشعار بأن المناجاة إنما يتهيأ لها لميقات حبس النفس عما به قوامها، وكمال ذلك إنما هو الصوم، وكمال العدد الذي هو طور مصير من حال إلى حال هو الأربعون"، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ وأفهمت أداة التراخي تجاوزَ الخطابِ لما نالوه من الخير، ثم تعقبوا ذلك بمعاودة عملِ من لا عقل له من اتخاذ جسد العجل إلهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم قال إشارة إلى عظم الذنب والنعمة: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا﴾ قال الحرالي: "وخصه باسم العفو لما ذكر ذنوبهم، لأن المغفور له لا يذكر ذنبه"، ﴿عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ قال: "والشكر ظهور بركة الباطن على الظاهر، وكل ما كان في حق الخلق ترددًا فهو من الله سبحانه إبهام لمعلومه فيهم، على ذلك تجري كلمة لعل وعسى ونحوها".

ولما كان في ذلك دليل على سوء طباعهم، ذكرهم بنعمة الكتاب الذي يُرجع إليه عند الضلال فقال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: المبين للأشياء على ما هي عليه من غير لبس ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم تلاه بما هداهم به في قتل الأنفس فقال: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فجعلتم أنفسكم متذللة لمن لا يملك لها شيئًا ولمن هي أشرف منه وهذا أسوأ الظلم ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي فطركم قبل أن تتخذوا العجل بريئين من العيب، وعبر بالنفس إشارة إلى خبث ما ارتكبوا فقال: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ﴾ قال الحرالي: "كلمة تفهم اختصاص ما أضيفت إليه بوجهٍ مّا عام، وأخص منه «لدن»"، ﴿بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

ولما استتيبوا عن عبادة العجل التي تقيدوا فيها بالمحسوس، طلبوا برؤية بارئهم بالحس، فقال مسليًا للنبي ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ قال الحرالي: "جاء باللام لأنهم آمنوا به وتوقفوا عن الإيمان ببعض ما أتاهم به، فمن آمن لأحد فقد آمن بأمور لأجله، ومن آمن به فقد قبل أصل رسالته ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ [التوبة: ٦١]".

ولما ذُكرت الصاعقة الناشئة غالبًا من الغمام، ناسب إيلاؤها بذكر تظليل الغمام فقال: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٤ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٥ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٦﴾ قال الحرالي: "وفيه إشعار بتحذير هؤلاء أن يروا نحوًا مما رأوا فينالهم نحو مما نالوه؛ لأن قصص القرآن إنما ذكرت لما يلحق هذه الأمة في أمد يومها من شبه أحوال من قص عليهم قصصه".

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ وعبر بنون العظمة في قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ إشارة إلى أنه تعالى لا يتعاظمه ذنب وإن عظم كاتخاذ العجل، وعبّر عن ذنوبهم بجمع الكثرة لأن السياق لتعداد النعم، وإشارة إلى أنهم أصروا عليها بحيث كادوا أن يجعلوا بإزاء كل نعمة ذنبًا، بخلاف الأعراف فإن السياق فيها لبيان إسراعهم في الكفر[١١].

وناسب عدُّ النعم العطفَ عليها بقوله: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٧ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قال الحرالي: "ذكر عدولهم عن ذلك واشتغالهم ببطونهم، إظهارًا لبلادة طباعهم وغلبة حب العاجلة عليهم، فبدلوا كلمة التوحيد وهي الحطة بطلب الحنطة ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة: ٦٦]".

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٨ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾ عبر بالانفجار الذي يدور على السيلان مع الانتشار؛ لأن السياق للامتنان، ولما لم يكن سياق الأعراف لذلك عبر بالانبجاس الذي يدور معناه على مجرد الظهور والنبوع ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ ولسياق الامتنان زاد قوله ممتنًا عليهم بالإحلال بعد الإيجاد: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن

---

(١١) في قوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾ الآية: ١٦١.

رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عامة؛ لأن من أفسد في شيء منها بالفعل فقد أفسد فيها كلها بالقوة ﴿مُفْسِدِينَ ۝٥٩﴾ قال الحرالي: "وفيه إشعار بوقوع ذلك منهم؛ لأن في كل نهي إشعارًا بمخالفته، وفي كل أمر إشعارًا بموافقته؛ لأن ما جبل المرء على فعله أو تركه لا يؤمر به أو يُمنع منه؛ لاكتفاء إجباره فيه طبعًا عن أمره أو منعه".

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ مناسَبةً لخساسة ما سألوه، قال الحرالي: "وفيه تهديد لهذه الأمة بما غلب على أهل الدنيا منهم من مثل أحوالهم، باستبدال الأدنى في المعنى من الحرام والمتشابه، بالأعلى من الطيّب والأطيب، المأخوذ عفوًا واقتناعًا"، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر العظيم الذي حل بهم، أو: اهتمامهم بمعاشهم وشهواتهم على هذا النحو الأخس الأدنى ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٦٠﴾.

ولما بين أن تعنتهم مرة بعد مرة أورثهم كفرًا في قلوبهم فمردوا على العصيان فعاقبهم بما ذكر، وكان في ذلك تحذير لمن طلب الصراط المستقيم، وإعلام بأن المتقين المستجاب لهم في الدعاء بالهداية ليسوا في شيء من ذلك، نبه على أن من عمل ضد عملهم فآمن كان على ضد حالهم، أو يقال: لما علل إهانة بني إسرائيل بعصيانهم بيّن ما أعدّ لمن أطاع، أو يقال: لما أخبر بإلزامهم الخزي فربما أوهم أنه لا خلاص لهم، أُعلموا أن باب التوبة مفتوح فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾.

ولما بيّن ما للعالم المذعن، تلاه بما لليهود من الجلافة الداعية إلى النفور عن ثمرة العلم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ﴾ وهو هنا: "الإعراض المتكلَّف، بما يُفهمه التفعُّل" قاله الحرالي، وذلك لأن النفوس إذا توطنت على أمر الله فرأت محاسنه، لم ترجع عنه إلا بمنازعة من الهوى شديدة، ولما كان يمكنهم أن يدّعوا الإيمان والعمل الصالح، عقبت تلك بآية الميثاق إشارة إلى أنه ليس المنجي الإيمان في الجملة، بل الإيمان بجميع ما أُخذ عليهم به الميثاق إيمانًا مصحوبًا بالقوة، ومنه صفة عيسى ومحمد عليهما السلام والأمر

باتباعهما، وقد كفروا به فلم يصح لهم إيمان ولا عمل؛ لأن التفرقة بين ما أتى منه تعالى زندقة ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٣﴾.

ولما ذكرهم بنعمة العفو، قرّعهم بجلافة أخرى لهم خذل بها فريقًا منهم فغلبهم الخسران فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٤ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٥﴾.

ولما كان من جملة ما استخفوا به في السبت إزهاق أرواح الحيتان الممنوعين منها، وكان في قصة البقرة التعنت في إزهاق نفس واحدة أُمروا بها تلاه بها، ولما بين تعالى قساوتهم في حقوقه أتبعه بيان جسارتهم في مصالح أنفسهم، لينتج أنهم أسفه الناس فقال: ﴿۞وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٦﴾ والجهل: التقدم في الأمور المنبهمة بغير علم، قاله الحرالي.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٨ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٦٩﴾ فتبركوا بما لا تكون بركة إلا به.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ قال ابن عباس: "لو ذبحوا بقرةً مّا لأجزأتهم، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم"، ولعل تخصيص لحم البقر بهذا؛ لإيقاظهم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى، ولينزع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذي عبدوه.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أقبل عليهم بالخطاب توبيخًا لهم وإشارة إلى أن الموجودين منهم راضون بما مضى من أسلافهم وودوا لو كانوا عملوا منه شيئًا ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ﴾ أي: تدافعتم، فكان كل فريق منكم يرد القتل إلى الآخر، ولما كان ذلك فعلُ غافلٍ عن إحاطة علم الخالق سبحانه قال: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧١ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٢﴾ فيرشدكم العقل إلى اعتقاد البعث وغيره مما تخبر به الرسل.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ التي هي أبعد الأشياء عن حال القلب، فإن القلب أحيي حي والحجر أجمد جامد، ولم يشبّهها بالحديد لما فيه من المنافع ولأنه قد يلين، ولما كانت القلوب بالنظر إلى حياتها ألين ليّن، وبالنظر إلى ثباتها على حالة أصلب شيء قال: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ لأنها لا تلين لما حقه أن يُلينها بخلاف الحجر، وكل وصف للحي يشابِه به ما دونه فهو أقبح فيه مما دونه؛ لأن الحي مهيأ لضد تلك المشابَهة بالإدراك ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ولما بين سبحانه أن قلوبهم صارت من كثرة المعاصي محجوبةً بالرَّينِ كثيفةَ الطبعِ، التفت إلى المؤمنين يؤيّسهم من فلاحهم فقال: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ﴾ والطمع: تعلق البال بالشيء من غير تقدم سبب له ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ إشارة إلى أنهم على جبلات آبائهم وإلى أن من اجترأ على الله لا يُطمع في صلاحه؛ لأنه إذا اجترأ عليه كان على غيره أجرأ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ إشارة إلى أنه لا يفعله عاقل، ولذا ختمه بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: والحال أنهم مع العقل حاملون للعلم متعمدون.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يمكن أن يكون خطابًا للمؤمنين المخاطبين بـ«تطمعون» أي: أفلا يكون لكم عقل ليردكم عن تعليق الأمل بإيمانهم! ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ولما ذكر تعالى هذا الفريق الذي هو من أعلاهم كفرًا، عطف عليه قسمًا أعتى منه وأفظ؛ لأن العالِم يرجى لفته أو تخجيله بالحجاج بخلاف المقلد العاتي فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ ويجوز أن يراد بهم من يحسن الكتابة وهو بعيد عن الفهم، ولذلك قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: بخلاف القسم الذي قبله ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وهي تقدير الوقوع فيما يترامى إليه الأمل ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٧﴾﴾ تأكيدًا لنفي العلم عنهم.

ولما أثبت لهذا الفريق القطع على الله بما لا علم لهم به وكان هذا معلوم الذم، سبب عنه ذم فريق أردأ منهم وأضر على العباد بطريق الأولى فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ﴾ أي: منهم ومن غيرهما ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثم بين بالعلة الحاملة لهم

على ذلك خساستهم فقال: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ۝٧٨﴾ وفي هذه الآية بيان لما شرف به كتابنا من أنه لإعجازه لا يقدر أحد أن يدس فيه شيئًا فيلبس به، فلله المنة علينا والفضل.

[ولما أثبت كذبهم، ذكر منه ما يجمع إلى قباحة الكذب]: جرأتهم وعدم اكتراثم بجرائمهم فقال: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ أي: منقضية، لأن كل معدود منقضٍ ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧٩﴾ ولما انتفى الأمران لأن ما قالوه ليس جهلًا بل يعملون خلافه، صرح بما هو كائن فقال: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨٠﴾ وأما الذين ادعوا أن يخلفونهم في النار فبين ما لهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾.

ثم شرع يقيم الدليل على أنهم ممن أحاطت به خطيئته فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولما كان الإعراض عن هذه المحاسن في غاية البعد، فكيف إذا كانت بعهد؟ فكيف إذا كان من الله؟ أشار إلى ذلك بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ۝٨٢﴾ أي: عادتكم ذلك.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٨٣ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الموجب للمفاداة ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ المحرِّم للقتل والإخرج ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ﴾ ضد ما قصدتم بفعلكم من العز ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: الدار التي جعلها محط قصده.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٨٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٨٥﴾ وهو من أعظم الأدلة على خذلان من غزا لأجل المغنم أو غل، وقد ورد ذلك في كثير من الآثار، منها قوله ﷺ: «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب».

ولما بين أنهم نقضوا العهود فاستحقوا النار، بّشع حالهم بما افتتحه بحرف التوقع فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: نقضتم تلك العهود مع أن عندكم فيها كتاب الله التوراة تدرسونه كل حين ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ من الهوى وهو نزوع النفس لسفل شهوتها، في مقابلة معتلى الروح لمنبعث انبساطه، قاله الحرالي، وقد دل على أن المرادَ الباطلُ بالتعبير بالهوى والنفس.

﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٦﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قال الحرالي: "أعظم الذنوب ما يعاقب الله عليها بالإلزام بذنوب أشد منها، فأعقب استكبارَهم اللعنَ، كما كان في حق إبليس مع آدم عليه السلام، فانتظم صدر هذه السورة إظهار الشيطنتين من الجن والإنس الذي اختتم به القرآن في قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ [الناس: ٦] ليتصل طرفاه".

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الجواب محذوف، ودل ما بعده على أنهم كفروا به، وفي ذلك قاصمة لهم؛ لأن كتابهم يكون شاهدًا على كفرهم، فأتبعه شهادتهم لئلا يحرفوا معنى ذلك فقال: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٨﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: حظوظهم فقدموها وآثروها فكان ذلك عين [تضييعها] وتأخيرها، عكس ما فعل المؤمنون من بيعهم لأنفسهم وخروجهم عنها بتعبدهم لله بإيثار ما يرضيه على هوى أنفسهم ، فكان ذلك عين تحصيلها وتقديمها.

ولما أقام سبحانه الدليل على استحقاقهم للخلود في النار بكفرهم بالكتاب الذي كانوا يستفتحون بالآتي به، أقام دليلًا أبين منه وذلك بكفرهم بكتابهم نفسه فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ وفي صيغة المضارع تصوير لشناعة هذا القتل بتلك الحال الفظيعة، ورمز إلى أنهم لو قدروا الآن فعلوا فعلهم، وفيه إيماء إلى حرصهم على قتل النبي ﷺ تحذيرًا منهم، وقد صدق هذا فقد عزم بنو النضير على أن يلقوا عليه صخرة وسمّه أهل خيبر، وأورد مضمون دعواهم بأداة الشك فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إشعارًا بأن مثل ذلك لا يصدر من متلبس بالإيمان.

ثم أقام دليلًا أقوى، فإنه لم يعهد إليهم في التوراة ما عهد إليهم في التوحيد، وهو في النسخ الموجودة بين أظهرهم الآن، وقد نقضوا ذلك باتخاذ العجل، كما هو منصوص الآن فيما بين أيديهم منها فقال: ﴿۞وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٩١ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: حبه، وحذف المضاف لشدة التمكن وفيه إشارة إلى أن المعرض عن امتثال الأمر مستحق الإبعاد عن مقام الأنس ﴿بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾ فحصل من هذا أنهم إما كاذبون وإما أنهم أجهل الجهلة حيث عملوا ما لا يجامعه الإيمان وهم لا يعلمون.

ولما بان أنه لا حظ لهم في الآخرة، ختم ذلك بدليل قطعي فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ لأنه علامة صلاح حال العبد مع ربه ورجائه للقائه، قال الحرالي: "فعلى قدر نفرة النفس من الموت يكون ضعفُ مناله من المعرفة التي بها تأنس بربها فتتمنى لقاءه وتحبه، و«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» يقع ذلك لعامة المؤمنين عند الغرغرة، وللموقنين وقتَ الحياة؛ لكمال الكشف لهم، ولذلك ما مات نبي حتى يخير فيختار لقاء الله لتكون وفادتُه وفادةَ محب مبادر، ولتقاصر المؤمن عن يقين النبي: يتولى الله الخيرة في لقائه، ومنه ما ورد: «ما ترددت في شيء ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه» فيختار الله للمؤمن لقاءه؛ لأنه وليه يختار له فيما لا يصل إليه إدراكه"، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٣ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤﴾.

ولما بين أنهم لا يتمنونه، أثبت لهم ما هو فوق ذلك من تمني الضد الدال على علمهم بسوء منقلبهم فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ عبّر بالسنة؛ لأن مأخذ الاشتقاق أليق بهذا السياق، إذ المراد به ذمهم بتهالكهم على بقائهم في الدنيا على أي حالة كانت، علمًا منهم بأنها ولو كانت أسوأ الأحوال، خير لهم مما بعد الموت لتحقق شقائهم، فعبر بما منه الإسنات وهو القحط وسوء الزمان.

قال السهيلي: "العلم بتنزيل الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها، يفتح بابًا من العلم بإعجاز القرآن، والله المستعان"، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٥﴾.

ولما ذكر عداوتهم لأخص البشر، ذكر عداوتهم لخواص الملائكة الذين لا حامل على بغضهم إلا الكفر فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: فإنه لا يضر إلا نفسه، وعلل هذا بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فليس لأحد إنكار ما أذن فيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٦﴾﴾ ولما كانت عداوةُ واحد من الحزب لكونه من ذلك الحزب عداوةً لجميع ذلك الحزب، تلاه بقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم أتبعه مدح هذا وأنه واضح الأمر لمريد الحق وإن كفر به فاسقٌ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٨﴾﴾. ولما أنكر عليهم أولًا ردهم للرسل، أنكر عليهم ثانيًا كفرهم بما أتوا به بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ بتركهم العمل به، وإن حلوه بالذهب ووضعوه على الكراسي بين أيديهم ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ولما كانت سنة الله جارية بأنه ما أمات أحدٌ سنةً إلا زاد في خذلانه بأن أحيي على يده بدعة، أعقب نبذهم لكلام الولي: إقبالَهم على كلام العدو فقال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ الذي ولّدوه بما يزينونه من حاله، ليعتقد أنه مؤثّر بنفسه ونحو ذلك، كما أن الأنبياء وأتباعهم يعلمون الناس الحق بما يبينونه من أمره ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ بالعمل بما نعلّمُكَه فإن العمل به كفر، أو باعتقاد أنه حق مغنٍ عما جاء عن الله، أو أنه مؤثر بنفسه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾ وذكر الفرقة في أشد الاتصال ليفهم منه ما دونه فقال: ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ولما كان هذا الذي تقدم -وإن كان للعامل به نفع على زعمه- فضره أكبر من نفعه، أتبعه قسمًا آخر ليس للعامل به شيء غير الضر فقال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ بيانًا لأنهم أسفه الناس: ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

ولما بين ما عليهم فيما ارتكبوه من المضار أتبعه ما في الإعراض عنه من المنافع فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ وهذه المثوبة عامة لما يحصل في الدنيا والأخرى من الخيرات ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ١٠٣﴾ قال الحرالي: "فيه إشعار برتبة من العلم أعلى وأشرف من الرتبة التي كانت تصرفهم عن أخذ السحر، لأن تلك الرتبة تزهّد في علم ما هو شر، وهذه ترغّب في منال ما هو خير، ولما جعل تعالى من المضرة في السحر ونحوه، كان من المثوبة لمن آمن واتقى من هذه الأمة: سورة الفلق والناس، حرزًا وإبطالًا وتلقفًا لما يأفك سحر الساحرات، وذلك من مثوبة الدفع مع ما أوتوا من مثوبة النفع".

ولما كان من الحق، كما قال الحرالي: "إجراء الأمور على حكم ما أثبتها الحق سبحانه لأنها بذلك حق، وكان صرفها إلى من لم يثبتها في حيزه: إفك وقلب، وهو في باب الرأي بمنزلة السحر في الحس"، أتبع الآيات الذامة للسحر الحقيقي: التنبيهَ على السحر المجازي، ليكون النهي عنه نهيًا عن الأول بطريق الأولى فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ ففيه إلزام تصحيح الصور لتطابق تصحيح المقاصد، وليقع الفرق بين الصورتين كما وقع بين المعنيين"، قال الأصفهاني: "وهذا النهي اختص بهذا الوقت"، قال الواحدي: "لإجماع الأمة على جواز المخاطبة بهذا اللفظ الآن".

ولما أرشد ختم الآية إلى العلة الأخروية الحاملة على السماع وهي النعيم للمطيع والعذاب للعاصي، علل بعلة أخرى دنيوية وهي مخالفة الأعداء، فإنهم ما يودون أن ينزل عليكم شيء لكم فيه خير فضلًا عن أن تمتثلوه، ومخالفة الأعداء من الأغراض العظيمة لذوي الأخلاق الفاضلة والأدوات الكاملة، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ ولو كان عند غيره بمحل الاحتقار، كما كان العرب عند بني إسرائيل؛ لما كانوا يرون من جهلهم وجفائهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ ولا يخفى ما فيها وفي التي بعدها من التحريض على الكتاب الذي لا ريب فيه.

ولما حرم سبحانه قولهم ﴿راعنا﴾ بعد حله وكان ذلك من باب النسخ، وكان اليهود يرون أن دينهم لا يُنسخ، فطعنوا بذلك في هداية الكتاب؛ لأنه على زعمهم يلزم منه أن يبدو لله الشيء بعد أن لم يكن، ولو كان من عند الله لما تغيّر لعلمه بالعواقب، هذا مع أن النسخ في كتابهم الذي بين أظهرهم! = قال في مظهر العظمة: ﴿۞مَّا نَنسَخْ﴾ وساقها بغير عطف

لشدة التباسها بما قبلها ﴿مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نَنسَئْهَا﴾ أي: نؤخرها، قال الحرالي: "**النسء**: تأخير عن وقت إلى وقت، ومن أمثاله: مقاتلة العدو عند القوة، والمهادنة عند الضعف، وكل ما شأنه أن يمتنع في وقت لمعنى مَّا ثم يعود في وقت لزوال ذلك المعنى، فهو من المنسَّأ الذي أضافه أكثر الناظرين إلى النسخ؛ لخفاء الفرقان بينهما، **وأما النسيان**: فهو ما يظهره الله من البينات بإدخال النسيان على النبي ﷺ، كسلامه من اثنتين حتى أظهر الله سنة ذلك لأمته"، ﴿نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

ثم قال معرضًا عن خطاب اليهود تعريضًا بغباوتهم إلى خطاب أعلم الخلق: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٥﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الحرالي: "فهو بما هو على كل شيء قدير: يفصّل الآيات، وهو بما له ملك السماوات والأرض: يدبر الأمر"، ثم قال ترهيبًا في إشارة إلى ترغيب: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٦﴾﴾ قال الحرالي: "وفي ذلك تعريض بالتحذير للذين آمنوا من مخالفة أمره كائنًا ما كان؛ لئلا تلقن بواطنهم عن اليهود نحوًا مما لقنت ألسنتهم بأن تستمسك بسابق فرقانها فتتثاقل عن قبول لاحقه، كما أبى أهل الكتاب نسخَ ما لحقه التغيير من أحكام كتابهم".

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: يأخذ الكفر بدلًا من الإيمان بالإعراض عن الآيات وسؤال غيرها أو التمسك بما نسخ منها، ومن يفعل ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٧﴾﴾ وكثيرًا ما تزلزلت طوائف عند تبدل الآيات، وبحسب ما يقع في النفس من تثاقل عن قبوله يلحقه من هذا الضلال.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: أنه راسخ في طبائعهم فلا تطمعوا في صرفه، فإن أنفسهم غالبة على عقولهم، وما كفاهم ضلالهم في أنفسهم حتى تمنوا إضلال غيرهم بالرجوع عنه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: من صحة رسالة محمد ﷺ بشهادة التوراة، ومن أنهم خالدون في النار؛ لأنهم ممن أحاطت به خطيئته.

ولما أخبر بأن ودهم ورجوعهم محال، أرشد إلى الدواء بقوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ ولم يقيده بالجميل كما في قوله: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ [الحجر: ٨٥]؛ لتنزُّل الخطاب على مستحق مواقعه، وحثهم على أن يكون فعلهم ذلك اعتمادًا على تفريجه تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ

﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فبشرهم بذلك بظهورهم عليهم، ولما كان النصر وهم في القلة والضعف وعدوُّهم في القوة والكثرة مستبعدًا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ وأظهر الاسم الأعظم لاستحضار ما يدل عليه من صفات الجلال والإكرام ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٨﴾.

ولما كان المقصود من الصلاة قصر الهمة على الحضرة الإلهية وتفريغ البال من جميع الشواغل علم أن التقدير بعد الختم بشمول القدرة: فثقوا بمحكم هذا الكتاب ومنسوخه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي -وإن كنا سنبتليكم في قبلتها بالنسخ- قوام الدين والمعينة على جميع النوائب بإعانة الخالق ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إن كنتم مصلين بالحقيقة، فإن المال بعض ما صَرفت عنه الصلاة من أعراض الدنيا ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ وزاد ترغيبًا فيه بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٠٩﴾.

ثم عطف على دعواهم في مس النار: دعواهُم في دخول الجنة، تصريحًا بما أفهمته الدعوى الأولى تلويحًا فقال: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ قال الحرالي: "والبرهان: علم قاطع الدلالة غالب القوة، بما تُشعر به صيغة الفُعلان"، قالوا: وهذا دليل على أن كل قول لا برهان عليه باطل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١٠ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١١﴾ وهذا كما أثبت خلاف دعواهم في مس النار بقوله: ﴿بلى من كسب﴾ [البقرة: ٨١] الآية، فالتحم الكلام بذلك أشد التحام.

ولما أبطل دعوى اختصاصهم بالرحمة قدحًا منهم في غيرهم، أتبعه قدح كل فريق منهم في الآخر، مع ما يشهد به كتاب كلٍ من بطلان قوله فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ثم شبه بهم في نحو هذا القول: الجهلة الذين ليس لهم كتاب، الذين هم عندهم ضُلّال، وفي ذلك غاية العيب لهم؛ لتسوية حالهم بهم في القطع في الدين بالباطل، كما سوى حالهم بهم في الحرص على الحياة في الدنيا فقال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣﴾.

ولما اشتركت جميع هذه الفرق في الظلم وزاد الجهلة منعَ حزب الله من عمارة المسجد الحرام بما يرضيه، وكان من منع مسجدًا واحدًا لكونه مسجدًا مانعًا لجميع المساجد قال:

﴿۞وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ وما كان أمنهم فيها إلا بسبب كثرة المساعد على الظلم والتمالؤ على الباطل، وسنزيل ذلك ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٣﴾ قال الحرالي: "كل من كان سببًا في خلاء مسجد أو عمل فيه بغير ما وضع له من ذكر الله، كان ساعيًا في خرابها وناله الخوف في محل الأمن، حتى ينتظم بذلك من تسبب في خراب مدينة مسلمة، وكذلك أجرى الله سنته أن كل طائفة لا تقيم حرمة مساجده، شُرِّدت منه ودخلتها خائفة تحت ذمة طائفة أخرى، وهكذا حتى تكون العاقبة للمتقين".

ثم سلّى المؤمنين بأنهم أينما صلوا بقصد عبادته لقيهم ثوابه فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٤﴾.

ولما أفاد ذلك وصفه تعالى بتمام القدرة واتساع الملك، كان من المحال افتقاره إلى شيء، فقال معجّبًا ممن اجترأ على نسبة ذلك إليه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٥﴾ قال الحرالي: "فجاء بالجمع المشعر بالعقل والعلم؛ لأنه لا عجمة ولا جمادية بين الكون والمكوِّن، إنما تقع بين آحاد من المقصرين في الكون عن الإدراك التام، والقنوت: ثبات القائم بالأمر على قيامه تحققا بتمكنه فيه".

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٦﴾ بالرفع للاستئناف أو عطفًا على ﴿يقول﴾، وبالنصب لما في ﴿إذا﴾ من معنى الشرط.

ولما تقررت عظمته سبحانه، عجّب من الجرأة عليه بما استوى فيه حال الجهلة من العرب بالعلماء من أهل الكتاب، تبكيتًا لهم وتنفيرًا منهم بأنه لا حامل لهم على مشابهتهم إلا اتباع الهوى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٧﴾ فيه بعث للشاك على تعاطي أسباب الإيقان، وهو: صفاء العلم عن كدر طرق الريب؛ لاجتماع شاهدي السمع والعين.

ولما تضمن هذا السياق: الشهادة بصحة رسالته ﷺ، صرح بها فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٧﴾ لأنك إن بلغتهم جميع ما أرسلت به إليهم لم نحاسبك بأعمالهم، وإن تركت بعض ذلك محاسنة لهم لم يحبوك ما دمت على دينك،

فأقبِل على أمرك ولا تبال بهم، وهو معنى قراءة نافع: ﴿ولا تَسألْ﴾ على النهي، أي: احتقرهم فإنهم أقل من أن يلتفت إليهم.

وأخبر أن أهل الكتاب في قسم المنذرين بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ فتكون بشيرًا لهم، ولن تكون كذلك حتى توافقهم في أهوائهم وتترك كتابك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ﴾ مشيرًا بأداة التعريف إلى كمال معناه، وبالحصر إلى أن غيره هو الهوى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ قال الحرالي: "فأظهر إفصاحًا ما أفهمته إضافة الملة إليهم من حيث كانت وضعًا بالهوى".

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى﴾ قال: "أشارت «الذي» إلى معنى قريب من الظاهر المحسوس، ففيه إنباء بأن أدنى ما جاءه من العلم مبطلٌ تلبيسَهم وأهواءهم"، ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنهم على ضلال وأنك على كل الهدى، والمراد والله أعلم: من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين موالاة لهم طمعًا في نصرتهم، ولذا ختم بقوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١١٩﴾.

ولما أفصح بمن يستحق النذارة منهم فأفهم من يستحق البشارة، تلاه به فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال الحرالي: "وحقية الأمر: هي وفاؤه إلى غايته، والإحاطة به إلى جماع حدوده، حتى لا يسقط منه شيء ولا يقصر فيه"، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢٠﴾ الوصف بالخسار يُعلم أنهم كانوا على شيء يمكن الربح فيه بتكملة الإيمان بكتابهم، بالإيمان بالكتاب الخاتم فضيعوه فخسروا، فإنه لا يخسر إلا من له أصل مال متهيئ للنماء والربح، والله أعلم.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال الحرالي: "لما طال المدى في تذكيرهم بالنعم وبيان عوارهم، كرر النداء إظهارًا لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله"، ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ ولما حصرت الآية الماضية الخسارةَ فيهم، قدَّم نفي القبول فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٢٢﴾ قال الحرالي: "فأنبأ تعالى بمضمون الآيتين أن هؤلاء ليس في حالهم حظ صحة البتة، وبهذه الغاية انصرف الخطاب عنهم إلى ذكر صاحب الملة التي يرضاها، وافتتح بابتداء أمره في ابتلائه؛ ليحتج عليهم بالملة الحنيفية الإبراهيمية والدين المحمدي".

ولما كانت جميع الطوائف تعظم إبراهيم عليه السلام، ذكّرهم ما أنعم به عليه تذكيرًا يؤدي إلى ثبوت هذا الدين بإطلاع النبي الأمي على ما لا يعلمه إلا خواص العلماء، وفي التذكير بوفائه عليه السلام حثٌّ على الاقتداء به، وكذا في ذكر الإسلام والتوحيد هزٌّ لجميع من يعظمه إلى اتباعه في ذلك، فقال: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بيانٌ لأن أسنى أحوال العباد: الإذعان لمن صدّقته الأدلة دون اعتراض ولا توقف ولا بحث عن علة، وفيه إشارة إلى تبكيت المدعين لاتباعه من بني إسرائيل ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ فيه ترغيب في التخلق بوفائه وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته.

ولما كان من إمامته اتباع الناس له في حج البيت الذي شرفه الله ببنائه، قال إثر ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مخالفته وموطئًا لأمر القبلة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٤﴾﴾.

ولما كان السياق للمنع من المسجد، وكان ذلك شاملًا بعمومه للبادي، ولذلك قرر أنه مثابة للناس عامة وأمن، كان الأنسب تنكير البلد فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ فيه إيماء إلى أنه يكون أطيب حالًا في الدنيا وأوسع رزقًا من المؤمن ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ بما أستدرجه به من النعم الحاملة له على المعاصي، ولما كان التقدير: بئس المتاع في الدنيا، عطف عليه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: العذاب له في الآخرة.

ولما ذكّر بما مهده من أمر البيت عطف على قوله: ﴿وإذ ابتلى﴾: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال الحرالي: "عدد تعالى وجوه عنايته بالعرب في هذه الآيات كما عدد وجوه نعمته على بني إسرائيل فيما سبق، فكانت هذه في إقامة الدين وتلك في محاولة مدافعته؛ ليظهر تفاوت ما بين الاصطفاء والعناية"، ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ اعترافًا بالتقصير؛ لحقارة العبد -وإن اجتهد- في جنب عظمة مولاه ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٦﴾﴾.

ولما سأل القبول سأل الزيادة عليه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال الحرالي: "لما كان الإسلام ظاهر الدين كان سريع الانثلام؛ لمضايقة الدنيا،

وإنما يتم الإسلام بسلامةِ الخَلق من العبد والإلقاءِ بكل ما بيده لربه مما تُنازِع فيه النفسُ والدنيا، ولذلك هو مطلبٌ لأهل الصفوة في خاتمة العمر ليخرجوا من الدنيا عن إلقاء للحق وسلام للخلق، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿توفني مسلمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وفيه ظهور لشرف عمل الحج حيث كان متلقى عن الله بلا واسطة؛ لكونه علمًا على يوم الدين حيث لا واسطة بين الرب والعباد ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ وعلل طمعه في ذلك بأن عادته تعالى الفضل فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٧﴾.

لما طلب ما هو له في منصب النبوة من تعليم الله له المناسك بغير واسطة، طلب لذريته مثل ذلك بواسطة النبي فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ، فإنه لم يبعث من ذريتهما غيره، فهو دعوة إبراهيم ﷺ، ففي ذلك أعظم ذم لهم بعداوته مع كونه مرسلًا لتطهيرهم بالهدى الذي لا ريب فيه ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

ولما كان ظاهر دعوته أن البعث في المؤمنين، كانوا إلى تعليم ما ذكر أحوج منهم إلى التزكية، فأخر قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْۚ﴾ حتى يكونوا في محل يؤمن عليهم فيه أن يرتدوا، أو يحرفوا كتابهم كما فعل من تقدمهم، ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة، اقتضى المقام تقديم التزكية؛ ليقبلوا ما جاءهم من العلم، وأما تقديمها في آل عمران(١٢) مع ذكر البعث للمؤمنين، فلاقتضاء الحال بالمعاتبة على الإقبال على الغنائم.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٨ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ فيه تعريض بمعاندي أهل الكتاب، قال الحرالي: "والسفاهة: خفة الرأي في مقابلة ما يراد منه من المتانة والقوة"، وفي نصب النفس إنباء بأن السفاهة لحقته كلَّه وكان بدء ذلك من جهتها، فإنه تعالى يعطي الخير بواسطة وبغير واسطة، ولا يحذي الشر إلا بواسطة نفس، ليكون في ذلك حجة الله على خلقه، وإنما استحق السفاهة من يرغب عن ملة إبراهيم؛ لظهور شاهدها في العقل، وعظيم بركتها في التجربة.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٩﴾ فيه أعظم ترغيب في اتباع دينه والاهتداء بهديه، وأشد ذم لمن خالفه، وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبي الكريم، وإقامة للحجة عليهم.

---

(١٢) في قوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم﴾ الجمعة: ٢، آل عمران: ١٦٤.

ولما ذكر إمامته، ذكر ما يؤتم به فيه وهو سبب اصطفائه وصلاحه وذلك دينه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ لإحسان ربك إليك، وحذف المفعول ليتناول كل ما يصح إسلامه ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣٠ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ وهو الإسلام، فأغناكم عن تطلبه وإجالة الفكر فيه رحمة منه لكم ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣١﴾ أي: ملقون بجميع ما ينسب إليكم لله، فإن من كمل افتقاره إلى الغني الحكيم أغناه بحسب ذلك.

ولما قرر سبحانه لبني إسرائيل أن أباهم يعقوب ممن أوصى بنيه بالإسلام، قال مبكتًا لهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٢ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: فما لكم وللسؤال عنها في ادعائكم أنهم كانوا هودًا أو نصارى؟ لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فليس السؤال عنهم لمن يعلم ما يأتي وما يذر إلا فضولًا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٣٣﴾.

ولما أخبر أنهم تركوا سنة الأصفياء، بين أنه عاقبهم على ذلك بأن صيرهم دعاة إلى الكفر؛ لأن سنته الماضية أن من أمات سنة أحيي على يديه بدعة عقوبة له فقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ فأمره بأن يجيبهم أنه مستن بسنة أبيهم لا يحول عنها كما حالوا فقال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٤﴾ وأتبع ذكرها ما يوصل إليها فقال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٥﴾ وعبّر بـ«إلى»؛ لاقتضائها الانتهاء إلى الاتباع.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ عبر بفعل المطاوعة لكون الإيمان مع ظهور دلائله موافقًا للفطرة، وأما الكفر فإنه لبُعده عن المزاج لا يكون إلا بعلاج بين الهوى والعقل، وبَعد الإعراض عن الإيمان عبر بصيغة التفعّل فقال: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي: يريدون أن يكونوا في شق غير شقكم.

ولما لزم عن ذلك مكايدتُهم قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٦ صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الحرالي: "عبّر بالصبغة؛ لأن تلقين الوحي سريع التصيير من حال الضلال إلى حال

الهدى، كما يُصبغ الثوب في الوقت فيستحيل من لون إلى لون، في مقابلة ما يصبغه أهل الكتاب بأتباعهم المتبعين لهم في أهوائهم، في نحو الذي يسمونه الغطاس". ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ لأنها صبغة قلب لا تزول؛ لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم، وتلك صبغة جسم لا تنفع ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٧﴾.

ثم قال موجهًا الخطاب إلى رسوله ﷺ؛ لأنه لا ينهض بمحاجتهم غيره، لما عندهم من العلم مع الجدل: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٨﴾ فأعمالنا أحسن من أعمالكم، والإخلاص: عزل النفس، فلا يبلغ عبدٌ حقيقتَه حتى لا يحب أن يُحمد على عمل.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فلا يمكنهم أن يقولوا: نحن، وإن قالوا: الله، فقد برّأ إبراهيمَ من ذلك فبطل ما ادعوا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٣٩ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ فلو كانوا على ما زعمتم فقد مضوا، فلا ينفعكم إلا ما تستجدونه الآن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٤٠﴾.

ولما كانوا أحدثوا في دينهم ما عابهم عليه الله، لزم أن يكونوا أباحوا لأنفسهم من النسخ ما منعوا منه خالقهم فكانوا أسفه الناس، فقال: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إظهارًا للوصف الذي استخفهم إلى هذا القول، والسفيه: الذي يعمل بغير دليل، إما بأن لا يلتفت إليه بل يتبع هواه، أو يرى غير الدليل دليلًا، وأكّد الوصف بقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المأخوذ من النوس وهو التحرك، تصريحًا بذمهم وتعميمًا لكل من مالأهم على ذلك.

وساق سبحانه الإخبار عنهم بما يثبت النبوة، فإنه إخبار عما سيكون منهم، فكان منهم على وفق الخبر، ولم يقدروا مع شدة عداوتهم على تكذيبه بالكف عن ذلك، مع ما في ذلك من توطين نفوس أهل الإسلام وتعليمهم الجواب قبل الحاجة ليكون أقطع للخصم فقال: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٤١﴾ نكّره لأن المراد به جزئيات من الشريعة، وأما الصراط المعرّف في الفاتحة فالمراد به الشريعة كلها، بما دلت عليه «ال» من الكمال.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما جعلنا قبلتكم وسطًا ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ لما أثبت لهم الوسط الذي من حله كان جديرًا بألا يخفى عليه شيء من الجوانب قال: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ﴾ قال الحرالي: "في جملته إنباء بأن القبلة مجعولة، أي: مصيَّرة عن حقيقة وراءها، ابتلاءً بتقليب الأحكام، ليكون تعلق القلب بالله الحكيم لا بالعمل المحكم، فيتوجه الصادق حيثما وجهه الله، ويتعلق المجيب عن غرض ظاهر ليس يسنده صادق باطن = بما لا يثبت عند تغيره"، ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾.

ثم بين شدتها على من أخلد إلى العادة لغلبة القوة البهيمية، ولم يتمرّن في الانقياد للأوامر الإلهية على خلع الإلف فقال: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ أي: ثقيلة؛ لأن مفارقة الإلف بعد الطمأنينة إليه شاق جدًا، ولما كان قبولهم لهذا الأمر عن إيمان وعلم، قال عن توجههم الأول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ لا في صلاتكم إلى القبلة الأولى، ولا في تمييز الصادق منكم من المنافق بالامتحان بتغيير الأحكام من القبلة وغيرها، ولا في اختصاصكم به سبحانه دون أهل الكتاب الناكبين عن مرضاته.

ولما نزه نفسه المقدسة عن الإضاعة، علل ذلك بما هو أعم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٢﴾ قال الحرالي: "الرأفة: عطف العاطف على من يجد عنده منه وصلة" ولذلك كانت أشد الرحمة، قال: "والرحمة تعم من لا صلة له بالراحم"، ولولم يكن منه سعي في الوصلة، فتقتلعه من ذنوبه اقتلاعًا أشد ما كان بها اعتلاقًا.

ولما بين رأفته ورحمته بالناس عمومًا، بين ذلك برسوله خصوصًا فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ وعن الماوردي: أن كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام فالمراد به الحرم إلا هذا فالمراد به الكعبة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٣﴾.

ثم أراحه ﷺ من التطلع إلى هدى بعض بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ لأن إعراضهم ليس عن شبهة إذا زالت زال بل عن عناد ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ ولما كان دينهم قد نُسخ، أعلم

سبحانه بأن ثباتهم على قبلتهم مع ذلك مجرد هوى فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ قال الحرالي: "فأبهمه، ولم يكن نحو الأول الذي قال فيه: ﴿بعد الذي﴾ [البقرة: ١٢٠] لخفائه عنه؛ لأن ذلك كان في أمر الملة التي مأخذها العقل، وهذه في أمر التوجيه الذي مأخذه الدين والغيب".

ثم أكّد علمهم بحقية هذا التحويل بقوله، معظمًا لهذه المعرفة بإسناد الإيتاء إليه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ أي: التحويل المحقّق لصدق نبوة محمد ﷺ ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ في التشبيه بالأبناء إنباءٌ باتصال معرفتهم به كيانًا كيانًا إلى ظهوره، وبشدة اعتلاقهم به قبل كونه كما يعتلق الوالدُ ولدَه، وفي تأكيد الأمر تارة بالعلم وتارة بالمعرفة تأكيد لوجوب اتباعه ﷺ، وإزاحة لما يلقيه السفهاء العالمون به من الشبه.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٥ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي أخبرتُ به في هذه السورة ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٦ *وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ ولما كان هذا لأجل تزكية النفس وخلاصها، وكان ذلك لا يحصل إلا بفعل الخير واجتناب الشر قال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي: فاجعلوها مقصدكم من القبلة وغيرها، وحثهم على ذلك وحذرهم من تركه بقوله: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٧﴾.

ولما كثر شغبهم وجدالهم في شأن القبلة فاشرأبَّ لذلك النفاق، زاد تأكيد أمرها فقال: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ ولما كان ربما ظُن أن التحويل لأجل تطلعه ﷺ إليه وهو فيه بالخيار، فيظن أن الرجوع إلى القبلة الأولى مصلحة لما انتشر في ذلك من الكلام قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٨﴾ قال الحرالي: "ومن التفت بقلبه في صلاته إلى غير ربه لم تنفعه وجهة بدنه إلى الكعبة؛ لأن ذلك حكمٌ حقيقتُه: توجه القلب، وكما يتداعى الإجزاء الفقهي باستدبار الكعبة حسًا، فكذلك يتداعى القبول باستدبار وجه القلب عن الرب غيبًا".

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ ولما كان ربما ظن أن الرجوع إلى القبلة الأولى يزيل الكلام، بين تعالى أن الأمر بخلاف ذلك فقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فإنهم لعنادهم لا يرجعون إلى الحق الذي يعرفونه بل يتكلمون بما هو مادة الحجة لا حجة، بما دل

عليه وصفهم بالظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله، أو يُظهرون لددًا يسمونه حجة، وفي قطع الاستثناء حثٌّ على الثبات على أمر الله والإعراض عمن خالفه؛ لِما تأصل من إبطاله وفاسد أحواله، وإن أبدى من الشبه ما يخفى أمره ويصعب حله حتى يُظن حجةً.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بالتمكين من الحجج وغيره من أمور الدين كما أتممتها على إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ إلى الثبات على هذه القبلة وغيرها من أمر هذا الدين بسبب خشيتي، فإنها جالبة لكل خير ودافعة لكل ضير.

﴿كَمَا﴾ أي: وجهناكم إلى الكعبة لهذه العلل كما ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يستنقذكم اتباعه من الجهل والذل في الدنيا، ومن العذاب في الأخرى ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ قال الحرالي: "فيه أخذهم بما جبلت عليه العرب من إيثار السمع على البصر بخلاف ما عليه سائر الأمم"، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ قال: "أنبأهم بأن هذا التنزيل لأنفسهم بمنزلة الغذاء للأبدان، فكما تتنامى أجسادهم بالماء فكذلك تتنامى أنفسهم بالأحكام والآيات، فمن علم ذلك حرص عليها، ومتى زكت النفس قويت على ما شأنها أن تناله قواها، كما أن البدن إذا قوي تمكّن مما شأنه عمله".

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: "فخص تعليم الحكمة من عموم تعليم الكتاب؛ لأن الحكمةَ: منالُ العسير بأمر فيه يُسر، فينال الحكيم باطلاعه على إفضاء أسباب الدنيا إلى مسبَّبات الآخرة: ما لا يصل إليه العامل الكادح، فعلى قدر ما وهب الله سبحانه العبدَ من العقل يعلمه من الكتاب والحكمة"، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ ولما ذكر هذا الخير رغبهم فيما يديمه فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥١﴾﴾.

ثم أعقبه الأمرَ بالصبر والصلاة؛ إيماءً إلى أنهما ملاك كل من الذكر والشكر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ولما كانت الصلاة لا تقوم إلا بالصبر اقتصر على التعليل به فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ قال الحرالي: "وأيسر الصبر: صبر النفس عن كسلها بأخذها بالجد فيما كلفت به، فمتى يسر الله لها ذلك استحْلَت ما كانت تصبر عليه، ومتى لم تصبر عنه نالها عقوبات يكون الصبر عليها أشد من الأول".

قال: "ولما كان الصبر لله إنما هو حمل النفس على ما تكرهه عادة، أنبأهم أن فيه حلاوة الحياة، حملًا لهم على الجهاد في سبيله، وإن كان ذلك مما لا يناله شعورهم؛ لخفائه عن إدراك

المعقول"، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٣﴾ وفيه إشارة إلى أن كون الله معهم لا يمنع أن يُستشهد منهم، بل ذلك من ثمرات معيّته حيث ظفروا بسعادة الأخرى، وظفر من بقي بسعادة الدارين.

ولما كان الطين الذي منه البشر لا يخلص عن الشوائب إلا بعد تصفية قال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ قال الحرالي: "أفْقَد بالجوع قوام البدن وبالخوف قوام النفس لمّا لم تصبر على كره الجهاد، وقد كان الصبر عليه أهون ولكنهم خافوا الأعداء على أنفسهم فجاءهم إلى مواطنهم، من لم يمش إلى طبيبه ليستريح جاء الطبيب لهلاكه".

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ﴾ قال: "فيه إشعار بأن من جاهد كثر عدده ونما ولده، وأن من تكاسل قل عدده ودرج خلفه"، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ خصها بالذكر؛ لأنها أعظم أموال الأنصار الذين هم من أخص الناس بهذا الذكر، لا سيما في وقت نزول هذه الآيات وهو أول زمان الهجرة ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ قال الحرالي: "فالصبر في: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ على العمل، والصبر في: ﴿وبشر الصابرين﴾ على مصائب الدنيا"، وشتان بين من كان الله معه، وبين من قيل لنبيه ﷺ: بشره بصبره على بلاء التخلف.

ولما كان للأنفس مداخل دنيوية في تحمل الصبر، خلّص تعالى الصابرين له من الصابرين تطبعًا وتحاملًا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بأداة البعد إشارةً إلى علو مقامهم، ولذا عبّر عن هدايتهم بالجملة الاسمية على وجه يُفهِم الحصر فقال: ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

ولما كان الحج -الذي هو من أعظم شعائر البيت- ممنوعًا إذ ذاك بأهل الحرب، كان كأنه قيل: فلنبلونكم بقتالهم ليزول المانع وتتم النعمة بظهور الدين، أو يقال: لما ذكر البلايا بنقص الأموال بسبب الذنوب أتبعها الدواء الجابر لذلك، «فإن الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الذهب والفضة»، فقال: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ﴾ قال الحرالي: "أي: كلف نفسه معاهدة البر والخير من غير استدعاء له"، ﴿خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾.

ولما تقدم أن بعض أهل الكتاب يكتمون ما يعلمون من الحق، وكان الخروج إلى غير ذلك استطرادًا، انعطف إلى تبكيت من يفعل ذلك على الأسلوب الحكيم المبيّن لأن هذا الكتاب

هدى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ ولما كان الترهيب من الكتمان في أي وقت ولو قل، أثبت الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾.

ولما لعن الكاتمين واستثنى منهم التائبين، ذكر المصرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦٠ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦١﴾ قال الحرالي: "ففيه إشعار بطائفة -أي: من عصاة المؤمنين- يؤخَّر عذابهم، وفي مقابلة علم الجزاء: تصنيفُ أهل الدنيا بحسب اقتراف السوء، فمن داومه داومه العذاب، ومن أخَّره أُخِّر عنه العذاب، ومن تزايد فيه تزايد عذابه، وذلك لكون الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الجزاء بحسب الوصف".

ولما احتج عليهم بما تقدم وقرر شرائع الإسلام وختم بثواب المطيع وعقاب العاصي، [أنتج قوله]: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٢﴾ قال الحرالي: "ولما كان مضمون الكتاب دعوة الخلق إلى الحق، وكان الضار للخلق إنما هو الشتات كان النافع لهم إنما هو الوحدة، فلما أظهر لهم تعالى مرجعَهم إلى وحدة أبوة آدم ﷺ في جمع الذرية، ووحدة أبوة إبراهيم ﷺ في جمع الإسلام، ووحدة أحمدية محمد ﷺ في جمع الدين، كان ذلك آية على أعظم الانتفاع بالرجوع إلى وحدة الإلهية".

ولما كان مقام الألوهية لا يصح إلا بتمام العلم وكمال القدرة، نصب الأدلة على ذلك فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال الحرالي: "ولما كانت هذه الأمة خاتِمة، وكان من سنة الله أن يعاجل بالعقوبة لمن كفر بعد خرق العادة، لم يجبها إلى ما سألته من ذلك بل كفاها بأمر الاعتبارِ الأعمِّ إجابةً، والأسمح مخالفةً؛ ليكونوا علماء منقادين لروح العلم لا لسلطان القهر، فيمتازوا بذلك عن غيرهم".

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ﴾ القوم: الذين يقومون في الأمر حق القيام، ففيه إشعار بأن ذلك لا يناله إلا من تنامى عقله، حتى يقوم بالاعتبار قيامَ المنتهضين في أمور الدنيا ﴿يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ أي:

فيعلمون أن مصرّف هذه الأمور فاعل مختار، وهو قادر بما يشاهد من إحياء الأرض وما هو أكبر على بعث الموتى وغيره فلا يتخذون أندادًا من دونه، وقد جعل سبحانه العالَم على قسمين: قسم يدرَك بالحواس الظاهرة ويسمى الشهادة والخلق، وقسم لا يدرك بها ويسمى الغيب والأمر، فاحتوى القسمان على وجوه متعددة يستدل بها على وحدانيته.

وسبب تكثير الأدلة أن العقول متفاوتة، ولذا عاب من عبد سواه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وأشار بختم التي قبلها إلى أنهم قد ضلت عقولهم، أو يكون التقدير: فمن الناس من عقل تلك الآيات فآمن بربه وفني في حبه، ﴿ومن الناس﴾ وهم من لا يعقل ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ بأن يفعلوا معهم من الطاعة والتعظيم فِعل المحب، على أنه من المبني للمفعول، أو يكون للفاعل فيكون المعنى: كحبهم لله لأنهم مشركون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ لأنهم لا يعدلون به شيئًا في حالة من الحالات، بخلاف المشركين فإنهم يعدلون في الشدائد إليه سبحانه ويشركون في الرخاء.

قال الحرالي: " لم يقل في أولئك «قوم» بل قصرهم إلى اسم النوس الذي هو تردد وتلدد، وفي لحنه إشعار بأن من اتخذ ندًا من دون الله؛ فلوصلة بين حال قلبه وحال ما اتخذ، فإن من غلب عليه هوى شيء فقد عبده، ومن عبد الله فهو الذي علا عن المخلوقات".

ولما عجّب من حالهم، حذر من سوء مآلهم فقال: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: المتخذون للأنداد، ولكنه أظهر لأجل التعميم: الوصفَ الذي استحقوا به ما يذكر وهو وضعهم الشيء في غير محله ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٤﴾ قال الحرالي: "موضع الرؤية في الحقيقة هو أن القوة لله جميعًا، لكن لما كانت رؤيتهم لذلك ناشئة عن رؤية مشهود العذاب، ذكر العذاب الذي هو ظاهر مرأى أن القوة لله جميعًا"، والتقدير: لو رأوا ذلك الوقت الذي يشاهدون فيه تلك العظمة لرأوا أمرًا فظيعًا شاغلًا لهم عن اتخاذ الأنداد وغيره من الظلم، وحذف الجواب للعلم به.

﴿۞إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ قال الحرالي: "فيه إشعار بأن ذلك قبل غلبة العذاب عليهم، ففيه إنباء بأن بين رؤيتهم العذاب وبين أخذهم به مهل يقع فيه خصومتهم وإدراكهم للحق، تغيّب عنهم في الدنيا بما فتن بعضهم بعضًا"، ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٥﴾ قال: "فيه إشعار بخلو بواطنهم من الاستناد إلى الله، وأنهم لم يكونوا عقلوا إلا تسبب بعضهم ببعض، فكأنهم كانوا نظام أسباب تقطعت بهم فانتثروا منها، وأسبابهم

وُصَل ما بينهم في الدنيا التي لم تثبت في الآخرة؛ لأن ما كان في الدنيا منه بحق فهو من الباقيات الصالحات، وما كان منه عن هوى فهو من الفاني الفاسد".

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ قال الحرالي: "فيه إجراءٌ لتأسفهم على وجهٍ متوهَّمٍ غيرِ محقَّق كما كان تمسكُهم بهم متوهَّمَ الانتفاعِ غيرَ محقَّق، ففيه إثبات لحالهم في الآخرة على ما كان ينالهم في الدنيا من الأخذ بالموهوم والغيبة عن المعلوم"، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ قال: "وفيه إشعار بأن عمل كل عامل مردود إلى ما اطمأن به قلبه وتعلق به خوفه ورجاؤه، فمن غلب على سره شيء فهو ربه الذي يصرف عمله إليه، فلا يجد عنده جزاءً؛ لتبرؤه منه فيصيرَ حسرة عليه، فأنبأ تعالى أنهم لا ينصرونهم ولا يجزونهم فلم ينفعهم تألهم إياهم، والحسرة: أشد الأسف على الفائت الذي يحسر المتلهف أي: يقطعه عما تحسر عليه"، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٦﴾.

قال الحرالي: "لما استوفى سبحانه ذكر أمر الدين الذي هو غذاء القلوب، نظم به ذكر غذاء الأبدان من الأقوات؛ لما بينهما من التعاون على إصلاح العمل ظاهرًا وقبوله باطنًا، وكما قيل: ملاك الدين الورع، وهلاكه الترف، ونقصه السرف، فكما انتظم الكتاب قصر الخلق على أفضل متصرفاتهم في التدين، اتصل به قصرهم على أفضل مآكلهم في التقوت"، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ولما كانت رتبة الناس من أدنى المراتب في خطابهم أطلق لهم الإذن تلطفًا بهم ولم يفجأهم بالتقييد فقال: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا﴾.

قال الحرالي: "والتحريم: المنع مما يلحق الأكل منه ضرر في جسمه كالميتة، أو في نفسه كلحم الخنزير، أو رين على قلبه كما أهل لغير الله به، ثم أشار إلى أن ما حرم خبيث بقوله: ﴿طَيِّبٗا﴾ الأصل فيه ما يستلذ، ويوصف به على جهة التشبيه الطاهرُ؛ لأن النجس تستقذره النفس، والحلالُ؛ لأن الحرام يستقذره العقل لزجر الشرع عنه".

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ وأشار بصيغة الافتعال إلى انهماك هذا الصنف على اللحاق به، وإنما عليهم الجهد لمنابذته؛ لأن مخالفته لا تكون إلا بمجاهدة كثيرة، لا يقدرون عليها ما داموا في هذه الرتبة ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ وهو من شطن إذا بعد، وشاط إذا احترق، قال الحرالي: "فهو يبعدهم عن وطن ما هم عليه من الائتمار في مآكلهم إلى التناول بشهواتهم؛ ليستدرجهم من خطوة الأكل بالشهوة إلى الأكل بالهوى، فيتداعى منها إلى المحرمات"، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٧ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٨﴾.

وقال في حرف الحلال: "**وجه إنزال هذا الحرف**: توسيع الاستمتاع بما خلق الله في الأرض من نعمه الموافقة لطباع عباده، ومن متسع خلال هذا الحرف وقعت الفتنة على الخلق بما زُين لهم منه: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، ووجه فتنته: أن على قدر التبسط فيه يحرم من طيب الآخرة: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ [الأحقاف: ٢٠] «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة».

والذي تحصل به قراءة هذا الحرف: **أما من جهة القلب**: فمعرفة حكمة الله في المتناوَل، ومعرفة أخص منافعها، ومعرفة موازنة ما بين الانتفاع بالشيء ومضرته، واستعماله على حكم الأغلب منهما، **وأما من جهة النفس**: فسخاؤها وطيبها بما يقع فيه الاشتراك من المنتفعات المحللات، وصبرها عما تشتهيه من المضرات، **وأما من جهة العمل**: فالتسمية، والتناول باليمين، والترفّع عن تناول النهبة، والاكتفاء بما دون الشبع «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن»، والحمد في الختام، وغيرها".

ولما نهاهم عن متابعة العدو، ذمهم بفعلهم ذلك من غير حجة بل بمجرد التقليد للجهلة فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾ قال الحرالي: "وهو وجدان الأمر على ما ألفه الناظر إليه"، ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ ثم قال مبكتًا: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٦٩﴾.

ثم أخبر أنهم صاروا باتباعهم لأولئك أضلَّ من البهائم؛ لأنها وإن كانت لا تعقل فهي تسمع وتبصر فتهتدي إلى منافعها فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ فالكافرون في كونهم لا يرجعون عن غيهم بعد سماع الأدلة وهم أولو عقل، كالبهم التي لا ترجع بالكلام؛ لأنها لا تسمع إلا الصوت، بل برميها بالحجر والعصا، فهي محلُّ مَثَلهم الذي هو عدم الإدراك، والأصم الأبكم الأعمى محلّ مَثلها في عدم الرجوع بالنداء بل بقارع يصكه في وجهه، ولما كان موجود إدراك العقل هو حقائق المحسوسات، وقد نفى عنهم الحس المدرك لها، ترتب عليه قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧٠﴾.

ولما أخبر عن المعرضين، رقى الخطاب من الناس إلى أعلى منهم رتبة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ ولم يذكر الأرض لتناولهم الرزق من السماء بعبادة من في السماء واسترزاقِه، قال الحرالي: "من عرف الله بالكرم هان عليه أن يتكرم، ومن عرفه بالإحسان هان عليه أن يحسن وهو شكره لله، من أيقن بالخلف جاد بالعطية"، وقال: "ولما كانت

أسنان القلوب متعددة: الإنسان ثم الناس ثم الذين آمنوا ثم الذين يؤمنون ثم المؤمنون ثم المؤمنون حقًا ثم المحسنون ثم الموقنون، ووراء هذه الأسنان أحوال تقع أثناءها كالإسلام والعقل والسماع وغيرها من الأوصاف، جاء خطاب القرآن على رتب متراقية لا يشمل أدناها أعلاها، إلى ما وراء ذلك من خصوص خطاب النبي ﷺ بما لا يليق إلا به".

فلما كانت هذه الرتبة أرفع من رتبة الناس، خص في خطابهم بقوله: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ وهذا بخلاف ما يأتي في سورة المؤمنين خطابًا لأعلى طبقات الخلص وهم الرسل[١٣] ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧١﴾﴾. ولما قيّد الإذن بالطيّب من الرزق، بيّن الخبيث منه ليجتنب، وأفهم حلَّ ما عداه؛ ليزداد المخاطب شكرًا فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ قال الحرالي: "ولما كان إدراك المؤمنين لمقتضى الخطاب فوق إدراك الناس، خاطبهم بذكر ما حرم عليهم، فناظَر ذلك ما نهى عنه الناس من اتباع خطوات الشيطان".

﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ قال: "لأذاه للنفس، كما حرم ما قبله لمضرتهما في الجسم؛ لأن من اغتذى جسمه بجسمانية شيء، اغتذت نفسه بنفسانية ذلك الشيء؛ «الكبر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم»، فلما جعل في الخنزير من الأوصاف الذميمة، حرم على من حوفظ على نفسه من ذميم الأخلاق، وإذا حرم لحمه الذي هو المقصود بالأكل وهو أطيب ما فيه، كان غيره من أجزائه أولى".

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: "لأن مالكه الله الذي جعل ذكر اسمه عليه إذنًا في الانتفاع به، وذِكرُ الإهلال إعلامٌ بأن المحرَّمَ ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل الذي عُلم أن غير اسم الله قد أعلن به عليه؛ «قالوا: يا رسول الله! إن ناسًا يأتوننا بلحام لا ندري أسموا الله عليها أم لا، فقال: سموا الله أنتم وكلوا»، فلما كانت هذه الآية جامعةَ آيِ التحريم، قدّم الضمير؛ لتكون في الإبلاغ أنهى معنى من التي أُخّر فيها[١٤].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ويدخل فيها أن من بغى أو قصد بضربه في الأرض فسادًا أو عدا على أحد فحصل للعادي بسبب ذلك مخمصة، لا يحل له ما كان حرامًا؛ لأن فيها إعانة له على معصيته، فإن تاب استباح".

---

(١٣) في قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا﴾ الآية: ٥١.

(١٤) في قوله: ﴿وما أهل لغير الله به﴾ المائدة: ٣، النحل: ١١٥.

وعلل ذلك الحكم بقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ وفيه إشعار بأنه لا يضطر أحد إلى الحرام إلا عن ذنب أصابه؛ لأن المؤمن لا يعجزه ما لا يعجز ربه «جهز رسول الله ﷺ جيشًا ففنيت أزوادهم، فأقاموا أيامًا يتقوتون بيسير حتى أخرج الله لهم العنبر» فلم يحوجهم إلى ما حرم عليهم بل جاءهم بما هو أطيب مآكلهم في حال السعة ﴿رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ إنباء بأن من لم يبغِ فيما اضطُر إليه ولم يعدُ: يرحمه الله بتوسعة لا يضطر بعدها إلى مثله مع غفران الذنب الذي أوجب الضرورة.

ولما كان في بيان هذه المحرمات الإشارة إلى عيب من استحلها من العرب جهلًا وتقليدًا، تلاها بتكرير عيب الكاتمين لما عندهم من الحق، خوفًا على انقطاع ما كان يُهدى إليهم، فجمعوا بين كتم العلم وأكل السحت واستحلاله فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأن كل ما لم يثبت من خير الدنيا في الآخرة فهو حقير وإن جل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ لِما أوقعوا فيه الناس من التعب بكتمهم عنهم ما يقيمهم على المحجة السهلة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ ولما جعل سبحانه أول مآكلهم نارًا وآخر أمرهم عذابًا، كان أيضًا أوسط حالهم نارًا، فقال معجِّبًا من حبسهم أنفسهم في ذلك: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾.

ثم ذكر السبب الموجب لهذا فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ﴾ فمن كتمه فقد حاول نفي ما أثبته الله تعالى فقد ضادّ الله في ملكه، ولم يقرّع المشركين من العرب كما قرّع بني إسرائيل لأن كفر المشركين عن جهل وكفر أولئك عن تعنت ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ١٧٦﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "متى بُين شيء في الكتاب من أحوال النصارى فليس على ما ورد من مثله في اليهود؛ لأن كفرهم تعنت، وخطاب مشركي العرب فيما أشير إليه دون خطاب الفريقين؛ إذ قد تقدم لهم ما لم يتقدم للعرب من البينات، والزيغ عن الهدى شامل للكل، مع أن أسوأ الأحوال حال من أضله الله على علم"، وبهم يُلحق سائر من تنكب، فيلحق باليهود منافقو أمتنا ممن ارتاب بعد إظهار إيمانه وفعل أفاعيلهم من المكر والاستهزاء، ويلحق بالنصارى من اتصف بأحوالهم، وبالمشركين من جعل لله تعالى ندًا.

ولما كان قد تبين للمتقين ما يُخرِج عن الصراط المستقيم، عقبه بما يلزمهم ليعملوه، فابتدأ من هنا بذكر الأحكام إلى آخر السورة فقال: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال الحرالي: "ففي الإيمان بهم وبما قبلهم: قهر النفس للإذعان لمن هو من جنسها، والإيمان بغيب من ليس من جنسها، ليكون في ذلك ما يزع النفس عن هواها".

وعقَّب الإيمان بالصدقة إشعارًا بأنها المصدِّقة له، وإرشادًا إلى أن في بذلها سلامة من فتنة المال فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ وفي ذلك إشارة إلى الحث على مفارقة كل محبوب سوى الله في الله، قال الحرالي: "فمن ظن أن حاجته يسدها المال فليس برًّا، إنما البر الذي أيقن أن حاجته إنما يسدها ربه ببِره الخفي".

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ قال: "فيه إشعار بأن من تحقق بالصبر ابتداءً فكان شاكرًا، أعانه الله على الصبر والمصابرة انتهاءً"، ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ﴾ فيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعواه ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٦﴾ وقال ابن الزبير في برهانه: "ثم ذكر الأحكام، وقدّم منها الوفاء بالعهد والصبر؛ لأن ذلك يحتاج إليه في كل الأعمال، وما تخلل هذه الآيات من قوله: ﴿ليس البر﴾ إلى قوله: ﴿آمن الرسول﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلتسبب أوجب ذكره".

قال الحرالي في العروة: "**وجه إنزال حرف الأمر**: حمل الخلق على صدق التذلل لله تعالى إثر التطهير من رجزهم، وهو حرف العبادة، فالعابد من ساقه الخوف إليها، والعارف من قاده الحب لها، وهو بناء ذو عمود وأركان وحظيرة تحوطه، **فأما عموده**: فإفراد الله بالعبادة، **وأول أركانه**: الصلاة، فأقوى الناس إيمانًا أكثرهم وأطولهم صلاة وقنوتًا، من أحبّ ملكًا خدمه ولازمه، ولا تخدم الملوك بالتكاسل.

والركن الآخر: الصوم، وهو إمساك النفس لله عن كل ما تتشوف إليه من خاص أمرها، وإنما فُرض -والله أعلم- بالمدينة؛ لأنهم لما أمنوا من العداوة وعامِّ الفتنة، عادت الفتنة خاصة في الأنفس بالتبسط في الشهوات، وذلك لا يليق بالمؤمنين المؤثرين للدين على الدنيا، **والركن الآخر**: الزكاة، وهو كسر نفس الغني بما يؤخذ منه من حق أصنافها، وليميّز بها المؤمنين من المنافقين؛ لتمكنهم من الرياء في العمود والركنين، فلما شمل الإسلامَ في المدينة

أخلاطٌ واتسعت الأموال وشحت النفوس، فُرضت الزكاة وعين أصنافها، وشدد الله فيها الوعيد جبرًا لضعف أصنافها.

والركن الآخر: الحج، وهو حشر الخلق من أقطار الأرض للوقوف بين يدي ربهم، ليكون لهم أمنة من حشر ما بعد مماتهم، فكمل به بناء الدين، **والحظيرة الحائط**: الجهاد، ولم تزل مصاحبة الأركان كلها: إما مع ضعف كما بمكة، أو مع قوة كما في المدينة، ولكل في ذلك الظاهر في الإسلام: موقعٌ حدوده في الإيمان، وموقعٌ في الإحسان.

واعلم أن الوفاء بقراءة حرف النهي تمامًا يفرّغ لقراءة حرف الأمر؛ لأن المتوسع في متاع الدنيا لا يمكنه التوسع في عمل الأخرى؛ لما بينهما من التضاد، والذي تحصل به قراءة هذا الحرف: **أما من جهة القلب**: فالتوحيد والإخلاص، ولكل عمل من المأمورات اسم في الإخلاص، كإخلاص المنفق بأن الإنعام من الله، والمجاهد بأن النصر من الله.

وأما من جهة أحوال النفس: فأساسها طمأنينة النفس بربها في قوامها، فمتى اطمأنت النفس إلى غيره ردت جميع عباداتها لِما اطمأنت إليه وكانت أَمَته لا أمة ربِّها، وهذا هو الذي أحبط عمل العاملين من حيث لا يشعرون.

وأما من جهة العمل وأحوال الجوارح: فإن أدب الناطق بكلمة الشهادة أن يجمع حواسه إلى قلبه، فأدب الصلاة خشوع الجوارح، وأدب الإنفاق حسن المناولة، وأدب الجهاد إصلاح العدة، ومياسرة الخلطاء، وحسن القيام على الخيل، والتزام ما يجد معه المُنة من ركوب أو ارتجال، ومَن تكلف غير ما يجد منته فقد ضيع الحق، ولكل مأمور أدب يخصه على ما يستقرأ من السنن النبوية وآثار الخلفاء وصالحي الأمراء".

ولما كان الصبر على بذل الروح أعظم الصبر وفعله أعظم مصدِّق في الإيمان، والاستسلام للقصاص أشد وفاء بالعهد، أخبر المؤمنين بما أوجب عليهم من ذلك وما يتبعه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ ولم يقل: القتل، قال الحرالي: "لأن أخذ غير الجاني ليس قصاصًا بل اعتداء ثانيًا"، وكذا أخذ غير المساوي اعتداءٌ، فلا يقتل مسلم بكافر؛ بما أفهمه القصاصُ، وتقييدُ الحكم بأهل الإيمان، مع قوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ [الحشر: ٢٠] في أمثالها من الآيات.

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ وتقتل الأنثى بالذكر والذكر بها؛ لأن كلًا منهما مساوٍ للآخر، ونقصت الدية النصفَ وإن كانت بدل الدم تنبيهًا على انحطاط حرمة الأموال عن حرمة الدماء، ولما ذكر أن من البر الإيمان بالكتاب، وكان من الكتاب بذل الروح المعلوم حبها، عقّب به الإشارة إلى إيتاء المال؛ لأنه عديل الروح، لا يؤتى لأجل الله إلا بمحض الإيمان فقال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ أي: بالنزول عن الدم إلى الدية.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾ أي: بالقتل ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: التخيير والعفو ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾ لإبائه هذه المنة العظيمة التي لم تكن في بني إسرائيل، وفي عدم تخصيص جزائه بإحدى الدارين إعلام بشياعه في كليهما، تغليظًا عليه.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ قال الحرالي: "فالحياة لمن سوى الجاني: ممن كان يعتدى عليه بجناية غيره في الدنيا، والحياة للجاني: بما اقتص منه في الأخرى؛ لأن من يكفّر ذنبه حي في الآخرة"، وأما مطلق القتل كما كانوا يقولون: "القتل أنفى للقتل" فليس كذلك، لأن من علموا أنهم إذا قتلوا اثنين قُتل بهما واحد ربما جرّأهم ذلك على القتل، وقد كانوا مستجيدين كلمتهم، وبينها وبين ما في القرآن كما بين الله وخلقه، فإنها زائدة على عبارة القرآن في الحروف وناقصة في المعنى ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٨﴾ الله بالانقياد لما شرع فتتحامون القتل.

قال الحرالي: "ولما كان في الخطاب السابق ذكر القتل والقصاص الذي هو حالٌ حضره الموت، انتظم به ذكر الوصية؛ لأنه حالُ من حضره الموت"، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٧٩ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨٠ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨١﴾.

ولما كان بين القصاص والوصية وبين الصوم مناسبة، من حيث أن في القصاص قتل النفس حسًا، وفي الصوم قتل شهوة النكاح الموجد للنفس حسًا، وفي القصاص حياة الأجساد معنى، وفي الصوم حياة الأرواح بطهارتها وتهيئها لإفاضة الحكمة، وهو مدعاة إلى التحلي بأوصاف الملائكة بالتخلي من الدنيا، المأمور به المتقون حال الوصية عند مقاربة الاجتماع بالملائكة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وهو الإمساك، قال الحرالي:

"فتماسك المرء عما شأنه فعله من حفظ بدنه بالتغذي، وحفظ نسله بالنكاح، وخوضه في زور القول وسوء الفعل: هو صومه، وتمامه: الإعراض عن أشغال الدنيا والتوجه إلى الله والعكوف في بيته، ليحصل بذلك نبوع الحكمة من القلب".

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه إشعار بأنه مما كتموه حرصًا على ضلال العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ فإن الصوم يكسر الشهوة فيقمع الهوى، قال الحرالي: "وفي إشعاره تصنيف المأخوذين بذلك صنفين: من يثمر له صومه تقوى، ومن لا يثمر له ذلك".

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ نظمه يشعر أن المعنى: فالمكتوب عليه: عدةٌ ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ غير المكتوب على الصحيح والمقيم، فتبقى هذه الأيام الأخر خليةً عن حكم الكُتُب لا عن تشريع الصوم ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ﴾ وفي إعلامه أن من لم يقدر على التماسك عن غذائه فحقه أن يغذو غيره؛ ليقوم بذل الطعام عوضًا عن ذلك ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ﴾.

وترك ذكر الفطر إشارة إلى خساسته تنفيرًا عنه، وجعل أهل الصوم محلَّ الخطاب إيذانًا بما له من الشرف ترغيبًا فيه فقال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ قال الحرالي: "قوله ﷺ في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي» إذ ليس من شأن العبد ألا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا ينتصف ممن يعتدي عليه، ولذلك كان الصوم كفارة للقتل خطأ؛ لينال بالصوم مِن قتلِ نفسه بوجه ما: ما جرى على يده خطأ من القتل".

ولما أبهم الأيام عيّن هنا فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قال الحرالي: "أشعر أن في الصوم حسن تلقٍ لمعناه ويسرًا لتلاوته، ولذلك جمع فيه بين صوم النهار وتهجد الليل"، وفي مدحه بإنزاله فيه مدح للقرآن به؛ لإشعاره أن من أعظم المقاصد بمشروعيته: تصفية الفكر لفهم القرآن، ليوقف على ما وُصف به في أول السورة من أنه ﴿لا ريب فيه هدًى﴾ [الآية: ٢].

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قال الحرالي: "فيه إشعار بأن طائفة الناس يهيؤهم الصوم للتدبر وانكسار النفس إلى رتبة المؤمنين، ولذلك أجمع مجرّبة أعمال الديانة: أن مفتاح الهدى إنما هو الجوع، وأن الأعضاء متى أُوهنت لله، نوّر الله القلب وصفّى النفس وقوّى الجسم وضاقت مجاري الشيطان من الدم الذي ينقصه الصوم، فكان فيه مفتاح الخير كله، وإذا كان للناس

هدًى ونورًا كان للمؤمنين أهدى وأنور، وفي قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ ذِكر لما يجده الصائم من النور والتهيئة؛ ليشهد تلك البينات في نفسه وكونَها ﴿مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ فإن قوله في التي قبلها: ﴿لعلكم تتقون﴾ إشارة إلى أنه صوم ينبني عليه تقوى، ينبني عليها فرقان، كما قال تعالى: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]".

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ ولما نسخ بهذا ما مر من التخيير، أعاد ما للمريض والمسافر لئلا يظن نسخه فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ فإنه لو كلفكم أكثر منه كان جديرًا أن تنقصوا من أيامه، إما بالذات بأن تنقصوا من عدّتها، أو بالوصف بأن تأكلوا في أثنائها كما تفعل النصارى.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ ومن أسرار التكبير: أنه لما كان العيد محل فرح، وكان من طبع النفس تجاوز الحدود غفلة أو بغيًا، أمر فيه به ليُذهِب من غفلتها ويكسر من سورتها ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ قال الحرالي: "فأعظم الهدى: هدى المرء لأن يذبل جسمه في حق ربه «يدع طعامه وشرابه من أجلي»"، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٤﴾ قال: "فيه تصنيف في الشكر نهاية، كما كان فيه تصنيف للتقوى بداية، فمن صح له التقوى ابتداء، صح منه الشكر انتهاء، ومنه إظهار النعمة بزكاة الفطر.

ولما أعلى الله عباده بالصوم وأظهر على المقرّبين بركاتِه، بشّر البعيدين من السائلين فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾"، ولما كان قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ شاملًا لكل ما دعى إليه وكان الإيمان أعلاه قال: ﴿وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾ حق الإيمان، وعلل ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٥﴾ قال الحرالي: "والرشد: حسن التصرف في الأمر حسًا أو معنى، في دين أو دنيا".

ولما يسر لهم أمر الصوم، يسر لهم ما كان حرم عليهم فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ أي: أبيح ذلك في حالة الملابسة، فيُفهِم أنه لا يباح نهارًا والله أعلم، ويجوز أن يكون تعليلًا؛ لأن الصبر يضعف عنهن حال الملابسة والمخالطة ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ قال الحرالي: "أظهر الله في هذه الآية رفقَه بهذه الأمة من حيث أجرى شرعتها على ما يوافق خلقتها، وصرف

عنها ما علم أنها تختان فيه؛ لما جبلت عليه من خلافه، وإذا شاء الله أن يشدد على أمة أمرها بما جبلها على تركه، ونهاها عما جبلها على فعله، وفي السنة والفقه مقتبسات من هذا الأصل الذي حفظ الله به المأمورين من المخالفة".

﴿وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ هذه الاستعارة وإن كانت متعارفة عندهم لم يقتصر عليها؛ لأنها خفيت على بعضهم، ولو كانت مجملة لما عاب النبي ﷺ على عدي رضي الله عنه عدم فهمها، وقال الحرالي بناء على أنها مجملة: "والخطاب بالإجمال ممكن الوقوع ولا يلزم العمل به، وفائدته: تدريج حكمة التنزيل وتحصيل بركة التلاوة".

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ معبرًا بالقربان؛ لأنه في سياق الصوم، والورع به أليق؛ لأن موضوعه فطام النفس عن الشهوات، فهو نهي عن الشبهات من باب: «من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه»، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٦﴾.

ولما كان طيب المطعم محثوثًا عليه لا سيما في الصوم، نهى عن بعض أسباب تحصيل المال فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾ وعبّر بالأكل لأنه المقصد الأعظم من المال ﴿أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ولما كان من وجوه أكله بالباطل: التوصل بالحاكم بحجة باطلة يعجز الخصم عن دفعها، كما قال ﷺ: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بما أسمع منه»، فقال عاطفًا: ﴿وَتُدۡلُواْ﴾ قال الحرالي: "هو من إنزال الدلو خفية في البئر ليستخرج منه ماء، فكأن الراشي يدلي برشوته للحاكم خفية؛ ليستخرج من جوره مالًا يأكله"، ﴿بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ يلزم منه العلم بأن ذلك التوصل لا يفيد الحل ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾.

ولما كان كثير من الأحكام يدور على الهلال لا سيما الحج الذي هو أخو الصوم، أتبعه به فقال: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ أي: فاتقوا فلا تسألوا عما لا يهمكم في دينكم ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٨﴾.

ولما ذكر العبادات الموقتة أتبعها بغير الموقتة، وهي الجهاد الذي هو حظيرة الموقتة الذي لا سلامة لها بدونه، التفاتًا إلى الظالمين بالمنع عن المسجد الحرام، فأمر بأن يُفعل معهم مثل ما فعلوا فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأشعر ذكره مطلقًا بعد الموقت بالهلال إلى أنه غير موقت به ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي: من شأنهم قتالكم لا كالصبيان ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ بقتال من لم يبح ابتداؤه به إما بعهد أو بغير دعوة لمن لم تبلغه، وبقتل من لا منعة فيهم ولا رأي لهم، ودوام القتال لمن ألقى السلم بعد الابتداء به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٨٩ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: وجدتموهم وأنتم تطمعون في أن تغلبوا أو حيث تمكنتم من قتلهم، قاله الأصبهاني؛ لأنه من ثقُف إذا صلب وصار حاذقًا ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ أي: العذاب بالإخراج أو غيره من أنواع الإخافة ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ لما فيه من مواصلة الغم القابض للنفس عن مراداتها ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ أي: لا تقصروا على مدافعتهم بل أجهزوا عليهم ولا حرج عليكم، فإن الانتهاك لحرمة المسجد منسوب إلى البادئ ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩٠﴾.

ولما كان النزوع بعد الشروع لا سيما حالة الإشراف على الظفر عسرًا على الأنفس قال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ فكفوا عنهم، وعلله بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩١ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ ولما كان هذا في أوائل ما بعد الهجرة قبل أن يروا من نصر الله لهم ما يقوّي عزائمهم، أعراه من التأكيد فقال: ﴿لِلَّهِۖ﴾ حتى لا يبقى مشرك أبدًا ولا كتابي إلا بالجزية، والحكمة في إبقائهم دون المشركين: أن لهم كتبًا أمهلوا لحرمتها وليقفوا على الحق منها، وأما أهل الأوثان فليس لهم ما يرشدهم إلى الحق، فكان إمهالهم زيادة في شركهم من غير فائدة تُنتظر ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٢﴾.

ولما أباح تعالى القتال وكان فعله في الأشهر الحرم عندهم شديدًا، ثار العزم للسؤال عنه فقال: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ مشعرًا بالقصاص ومفصحًا به في قوله: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتحري في القصاص حتى لا تتجاوزوا ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أظهر ولم يضمر، لئلا يقيد بالتقوى في باب الاعتداء مثلًا ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٣﴾.

ولما كانت النفقة من أعظم دعائم الجهاد، وكان ضيق العيش في أول الإسلام دافعًا لترك الإنفاق خشية الهلاك، أخبرهم أن الأمر على غير ما يسوّل به الشيطان ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال الحرالي: "لما أسس تعالى حكم الجهاد الذي هو أشق الأعمال على النفس، نظم به أمر الجود والإنفاق الذي هو أشق منه، ومن حيث أن القتال لا يتم أمره إلا بالشجاعة والجود، ولذلك كان أشد الآفات في الدين: البخل والجبن"، فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو كل ما أمر به الله، وإن كان استعماله في الجهاد أكثر.

﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بأن تبخلوا، فإن في ذلك الإخلاد إلى الدعة والتواكل، فيجترئ عليكم العدو فلا تقوم لكم قائمة ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٤﴾ قال الحرالي: "فانتظم ختم الخطابين بأن لا يقع الاعتداء في القتل، وأن يقع الإحسان في المال، وفي إشعاره: حض الأنصار على إنفاق أموالهم وألا يلتفتوا إلى الدنيا، وكان حال المهاجرين التجرّد عنها، فما خرج المهاجرون عن أصله، خرج الأنصار عند التمسك به عن وصفه".

ولما ختم آيات القتال بالنفقة في سبيل الله لحاجة الجهاد إليها، وكان الحج من سبيل الله، وكانت آيات القتال نُظمت بسببه، رجع إلى الحج والعمرة فقال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾.

ولما كثرت الأوامر في هذه الآيات وكان لا يحمل على امتثالها إلا التقوى، أكثر تعالى فيها من الأمر بها، ولما كان منها ما هو معقول المعنى ومنها ما هو تعبدي، وكان عقل المعنى يساعد على الامتثال قرن الأمر به بالترغيب، ولما كان امتثال التعبدي شديدًا على النفس مع جماحها عن الأوامر قرنه بالتهديد، فكان ختامه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٥﴾ مناسبًا أيضًا لما بعده من النواهي، ومن تدبر الابتداء عرف الختم، ومن تأمل الختم لاح له الابتداء.

ولما ذكر أن الحج موقت بالأهلة، عين وقته فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ ولما كان في الإنسان قوى أربع: شهوانية بهيمية، وغضبية سبُعية، ووهمية شيطانية،

وعقلية ملكية، وكان المقصود من العبادات أن تقهر بالقوة الرابعة القوى الثلاث لأن منشأ الشرور محصور فيها، قال محذرًا منها مرتّبة: ﴿فَلَا رَفَثُ﴾ أي: شيء من أمور النكاح ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال الحرالي: "هو الخروج عن إحاطة العلم والعقل والطبع"، ولما كان المراء قد يجر إلى الفسق قال: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ فصار الفسق واسطة بين أمرين جارَّين إليه.

ولما كان في الجدال ما في الرفث من الشهوة وقد يكون فسقًا وقد يفسد ذات البين، كان أعظمها؛ لاشتماله على قبائح الكل، فلذلك أجمع القراء السبعة على بنائه مع «لا» على الفتح دون ما قبله؛ لأن البناء دال على نفي الماهية الموجب لنفي جميع أفرادها، وأما الرفع فإنما يدل على نفي فرد منكّر منها، قال الحرالي: "فمنع في الحج من الإقبال على الخلق إلا بما الإقبال فيه إقبالٌ على الحق، كما تُحُومِيَ ما يختص بالنفس من الأحداث في عمل الصلاة، وفي وروده نفيًا لا نهيًا إعلام بأنه مناقض لحال الحج؛ لأن شأن ما يناقض أن ينفى، وشأن ما لا يناقض أن ينهى عنه"، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾.

ولما عم في الحث على الخير، أشار إلى أن الخير هو الزاد الحسي والمعنوي؛ إذ لا أضر من إعواز الزاد لأكثر العباد، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ولما فهم من هذا: الحث على الإكثار من الزاد، تحركت النفوس الزاكية القابلة للتجرد عن الأعراض الفانية، إلى السؤال عن المتجر لإنفاقه في وجوه الخير، فأجيب بقوله، معلمًا أن قطع العلائق أولى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ ولما كان الاستكثار من المال إنما يكره للشغل عن ذكر الله، أمر به فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ أي: أيها الحُمس بمخالفة موقف أبيكم إبراهيم عليه السلام.

ولما قبح عليهم ذلك أشار لهم إلى تعظيم ما هداهم له منه فقال: ﴿ثُمَّ﴾ أنزلت عليكم في هذا الذكر الذي هو عزكم وشرفكم لا مخالفة الناس في الوقوف بالمزدلفة والإفاضة منها = أن ﴿أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾.

ولما أمرهم بالذكر في المناسك، أمرهم بالذكر بعد قضائها؛ لأن من فرغ من العبادة كان بصدد أن يستريح فيفتر، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ

أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ١٩٨ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩٩﴾.

ولما كان غالب أفعال العباد على غير السداد، قال مشيرًا إلى ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ من خلاصة أعمالهم القولية والفعلية والاعتقادية وهو ما أخلصوا فيه فهو الذي يثابون عليه، وهو قليل بالنسبة إلى الباقي ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٠﴾.

ولما أمرهم بذكره عند قضاء الأركان، قال معممًا: ﴿۞وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾ ولما كان مدار الأعمال على النيات، قيد ذلك بقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ فأدار أفعاله على ما يرضي الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولما كان الحج حشرًا في الدنيا، والانصراف منه يشبه انصراف أهل الموقف، فريقًا إلى الجنة وفريقًا إلى السعير، ذكّرهم بذلك بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠١﴾ فاعملوا لما يكون سببًا في انصرافكم منه إلى دار كرامته، وهنا تم ما أراد تعالى من بيان قواعد الإسلام: الإيمان والصلاة والزكاة والصوم والحج.

ولما كان قد ذكر الراغب في الدنيا وحدها والراغب في الدارين، ذكر المسرّ لإرادة الدنيا بإظهاره لإرادة الآخرة، وهذا هو المنافق فبدأ به بعد ذكر التقوى والحشر، ليكون مصدوعًا بادئ بدء بذلك الأمر، مقصودًا بالتهديد بالحشر، وساقه بصيغة ما في أول السورة من ذكر المنافقين؛ ليستحضر السامع تلك الأحوال فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٢﴾.

ثم بيّن وجه لدده فقال عاطفًا على ما تقديره: فإذا واجهك اجتهد في إظهار أنه مصلح ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾ الذي يعيش به الحيوان، قال الحرالي: "سماه حرثًا لأنه المنسوب إلى الخلق، ولم يسمه زرعًا لأن ذلك منسوب إلى الحق"، ولأنه إذا هلك السبب هلك المسبب من غير عكس ﴿وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ الذي به بقاء نوع الحيوان، ونظمت الآية هكذا لإفهام أن غرضه بالخصام: التوصل إلى الإهلاك، وبالإهلاك: إلى الإفساد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٣﴾ ولم يقل: الهلاك؛ لأنه قد يكون صلاحًا كما إذا كان قصاصًا، ولا قال: الإفساد؛ ليشمل ما إذا كان الفساد عن غير قصد.

ثم قال تحقيقًا لألديته: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ وتخصيص هذا الاسم المنبئ عن الجهامة -وهي الاستقبال بوجه كريه-؛ لتجهّمه في مواجهة من أمره بذلك، قال الحرالي: "فلمعنًى مّا يختص بالحكم: يسمي الله النار باسم من أسمائها"، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٤﴾. ولما أتم الخبر عن شر الأقسام، أتبعه خيرها ليكون ختامًا، وبينهما تباين: فإن الأول من يهلك الناس لاستبقاء نفسه، وهذا يهلك نفسه لاستصلاح الناس، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٥﴾.

ثم عقب هذا القسم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليكون النداء واقعًا بادئ بدء في أذن الواعي، كما كان المنافق مصدوعًا بما سبقه من التقوى والحشر ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ أي: الإيمان الذي هو ملزوم لسهولة الانقياد إلى كل خير ﴿كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٦﴾ قال الحرالي: "وما أحسن هذا الختم المضاد لختم التي قبلها، فإن تذكر الرأفة منه سبحانه، والعبودية منا الموجبة للانقياد لكل ما يحبه، وتذكّر عداوة المضل = أعظم منفر منه وداع إلى الله".

ولما أقام الأدلة على عظمته ووحدانيته، وبيّن ولايته وعداوة المضل، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: بهذا الكتاب الذي لا ريب فيه، قال الحرالي: "التعبير بـ«إن» يشعر بأنهم يُستزلون، والتعبير بالماضي إشعار بالرجوع عنه رحمة من الله لهم، كرحمته قبل لأبويهم حين أزلهما الشيطان"، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ فإن العلم أعون شيء على المقاصد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٧﴾.

ولما كان هذا الختم مؤذنًا بالعذاب، وكان إتيان العذاب من محل تتوقع منه الرحمة كالسحاب والملائكة أفظع، وكان بنو إسرائيل قد شاهدوا العذاب من السحاب، وكان من زل بعد هذا البيان قد أشبههم في هذا الحال فكان جديرًا بأن يشبههم في المآل، قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَ﴾ الحال أنه قد ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ﴾ بإهلاكهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢٠٨﴾.

[ولما كان في قوله: ﴿هل ينظرون﴾ تعريضًا بقوم ذوي غرورٍ وقلة انتفاع بالآيات، لفتهم إلى ما بلغهم من قلة انتفاع بني إسرائيل بما أوتوه من الآيات على كثرتها][١٥] فقال: ﴿سَلْ

(١٥) التحرير والتنوير ٢/ ٢٨٨، بتصرف.

﴿بَنِي إِسْرَآءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الحرالي: "وأصل هذا التبديل: رد علم العالم عليه ورد صلاح الصالح إليه، وعدم الاقتداء بهما، وذلك المتاركة التي تقع بين العامة وبين العلماء والصلحاء، وهو كفر نعمة الله وتبديلها"، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٠٩﴾﴾.

ولما استدعى ذلك التهديدُ العجبَ من كفر العاقل بالنعمة، بين أن سببه غالبًا: الكبر والبطر فرحًا بما في اليد وركونًا إليه وإعراضًا عما عند الله فقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وبناه للمفعول؛ دلالة على ضعف عقولهم بأنهم يغترون بكل مزين ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ﴾ قال الحرالي: "لإعراضهم عن الدنيا رغبة فيما عند الله"، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٠﴾﴾.

ثم بيّن أن هذا الكفر والتزيين طرأ بعد البيان فقال: ﴿۞كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ﴾ قال الحرالي: "والبغي: أعمال الحسد، فإذا حسدت فلا تبغِ؛ لأن الحسد واقع في النفس كأنها مجبولة عليه فلذلك عذرت فيه، فإذا عملَتْ بحسبه كانت باغية"، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١١﴾﴾.

ولما أفهم ما تقدم وقوع العداوات، وكان من لم يصمم على الإباء بين مستثقل لأمر الرسل لِما يرى من تفريقهم لما رضي به الناس، وبين مستثقل لانتظار النصر، فكان حالهم كمن يطلب الجنات بلا مشقات، وذلك محال فإن الثبات على الصراط المستقيم لا يكون إلا باحتمال شدائد التكاليف، قال مواجهًا بالخطاب رفعًا للهمم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ نبّهت «لما» التي فيها معنى التوقع على أنه كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدين على بصيرة من حصول الشدائد لكثرة المخالف، فيكونوا متوقعين في كل وقت مكابدةَ القوارع وحلول الصوارع، ليكون ذلك أجدّ لهم وأجدر بالثبات والارتقاء.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ والمعنى أنهم أُزعجوا بأنواع البلايا والأهوال إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ﴾ قال الحرالي: "في إشعاره إعلام بأن الله تعالى إنما يفرج عن أنبيائه

ومن معهم بعد انقطاع أسبابهم ممن سواه؛ ليمتحن قلوبهم للتقوى، فتتقدس سرائرهم من الركون لشيء من الخلق وتتعلق بالله وحده، حتى يقول ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»"، ﴿أَلَا إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ والحاصل أنه لا يكفي مجرد ادعائهم الدخول في السلم، بل لا بد من إقامة البينة بالصبر على ما يمتحنهم كما امتحن الأمم الخالية.

ولما كانت النفقة من أصول ما بنيت عليه السورة من صفات المؤمنين قال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ قال الحرالي: "وكان حق ذلك ألا يسأل عن ماذا ينفق؛ لأن المنفق هو الفضل كله، ففي هذا السؤال نوع تلدد من نحو ما تقدم لبني إسرائيل، فكان فيه إظهار مثل الذين خلوا من قبلهم، فقال تعالى خطابًا للنبي ﷺ وإعراضًا منه لما في السؤال من التبلد الإسرائيلي": ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ فعمم المنفَق منه، وخص المصرف مبينًا أهمه؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ قال الحرالي: "ختم بالعلم لأجل دخول الخلل على النيات في الإنفاق؛ لأنه من أشد شيء تتباهى به النفس".

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ قال: "هو في المعنى راجع إلى الذين يسألون عن النفقة، وبذلك انتظمت الآية بما قبلها، فكأنهم يتبلدون في الإنفاق تبلدًا إسرائيليًا، ويتقاعدون عن الجهاد تقاعد أهل التيه منهم"، ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ وهذا باعتبار الأغلب، وهو كما قال الحرالي عن بعض التابعين: "لقد أدركنا قومًا الموت لهم أشهى من الحياة عندكم اليوم؛ لما خربوه من دنياهم وعمروه من أخراهم، فكانوا يحبون النقلة من الخراب إلى العمارة"، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ لما فيه من الظفر والغنيمة أو الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ لما فيه من الذل والفقر وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾.

ولما أوجب عليهم القتال مرسَلًا في جميع الأوقات ونهاهم عنه في المسجد الحرام، أخبرهم بحكمه في الشهر الحرام فقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ أي: في زعمهم وفي الجملة لا أنه من الكبائر ﴿وَصَدٌّ﴾ كان ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: ويسألونك عنه، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ﴾ ودل على ما فهمته من قوله: ﴿كبير﴾ بتقييد ما تقدم بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ ولما كان كل ما تقدم

فتنة، بين علة كبره بقوله: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ كلما لاحت لهم فرصة ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ تخويف من التواني عنهم فيستحكم كيدهم، وتلهيب للأخذ في الجد في حربهم.

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ فيه إشعار بوقوعه؛ لأن الله سبحانه إذا ساق شيئًا مساق الشرط، اقتضى أنه سيقع شيء منه ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٥﴾. قال الحرالي: "ولما ذكر أمر المتزلزلين ذكر أمر الثابتين"، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٦﴾.

ولما كان الشراب مما أذن فيه في ليل الصيام، وكان غالب شرابهم النبيذ الذي ربما اشتد فأعاق عن العبادة والجهاد؛ لأن السكران لا ينتفع به في رأي ولا بطش، ولم يكن ضروريًا في إقامة البدن كالطعام، أخّر بيانه إلى أن فرغ مما هو أولى منه من أجد الجد وأمهات المطايب، ثم شرع في بيان أهزل الهزل وأم الخبائث فقال: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ﴾ الذي هو أحد ما غنمه عبد الله بن جحش رضي الله عنه في سريته التي أنزلت الآيات السالفة بسببها ﴿وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ قرنهما سبحانه هنا وفي المائدة؛ لتآخيهما في الضرر بالجهاد وغيره، بإذهاب المال مجانًا عن غير طيب نفس، وإن كان اقتصر هنا على ضرر الدين وهو الإثم؛ لأنه أسّ يتبعه كل ضرر ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ وفي هذا كما قال الحرالي: "تنبيه على النظر في تفاوت الخيرين وتفاوت الشرين".

ولما ذم النفقة فيهما، أجاب عما يمدح الإنفاق فيه فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ٢١٧﴾ وأشعر تكرير السؤال عنها بتكرير الواردات المقتضية لذلك، فأنبأ ذلك بعظم شأنها؛ لأنها أعظم دعائم الجهاد ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ قال الحرالي: "وهو ما سمحت به النفس من غير كلفة، فصار المنفَق على ثلاث رتب: الصدقة المفروضة التي إمساكها هلكة في الدنيا والآخرة، وعفو لا ينبغي الاستمساك به لسماح النفس بفساده، وفيما بينهما ما تُنازِع النفسُ إمساكَه فيقع لها المجاهدة في إنفاقه، وهو متجرها الذي تشتري به الآخرة من دنياها".

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ولما كان البيان من أول السؤال إلى هنا قد شفى في أمور الدارين وكفى قال: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ أي: في أمورهما، لتفعلوا الخير

وتتقوا الشر فتفوزوا في الدارين، ولما كان النفع لليتيم من أجلّ ما يرشد إليه التفكر في أمور الآخرة، وكان الجهاد من أسباب القتل الموجب لليتم وكانوا يلون يتاماهم، ندبهم إلى مخالطتهم على وجه الإصلاح، الذي لا يكون لمن يتعاطى الخمر والميسر فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

ولما كان النكاح من معظم المخالطة في النفقة وغيرها وكان الإنسان جهولًا، تولى سبحانه بحكمته تعريفه ما يصلح له وما لا يصلح من ذلك فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ لأن نفع الإيمان أمر ديني يرجع إلى الآخرة الباقية ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ﴾ المشركة؛ لأن نفع نسبها ومالها وجمالها يرجع إلى الدنيا الدنيّة الفانية، قال الحرالي: "فانتظمت هذه الآيات في تبيين خير الخيرين، وترجيح أمر الغيب في أمر الدين والعقبى في أدنى الإماء من المؤمنات = على أمر العين في أمر العاجلة من الدنيا في أعلى الحرائر من المشركات".

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ﴾ ولم يذكر الحرة والحر المؤمنَين إعلامًا بأن خيريتهما مقطوع بها، وأن المفاضلة إنما هي بين من كانوا يعدونه دنيًّا فشرّفه الإيمان، ومن يعدونه شريفًا فحقّره الكفران، وذَكَر الموصوف بالإيمان في الموضعين؛ ليدل على أنه موضع التفضيل وإن كان دنيًّا، واقتصر على وصف الشرك فيهما؛ لأنه موضع التحقير وإن علا في العرف موصوفُه.

ولما كانت مخالطة أهل الشرك مظنة الفساد الذي ربما أدى إلى التهاون بالدين، قال منبهًا على ذلك ومعللًا لهذا الحكم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: الأفعال المؤدية إليها ولا بد فربما أدى الحبُّ الزوجَ المسلم إلى الكفر، ولا عبرة باحتمال إسلام الزوجِ الكافر؛ لأن درء المفاسد مقدم، ولما رهّب من أهل الشرك حثًا على البغض فيه، رغب في الإقبال إليه سبحانه بالإقبال على أوليائه بالحب فيه وبغير ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

ولما كان في النكاح شائبة للجماع تثير للسؤال عن أحواله، عطف آية الحرث على آية العقد فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أظهره لئلا يُظنّ لو قال «فيه» بأن الضمير لمطلق المراد بالأذى من الدم فيشمل الاستحاضة ﴿وَلَا

تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي: الرجاعين عما كانوا عزموا عليه من ذلك ومن كل ذنب أوجب لهم نقص الإنسانية، ثم أشار إلى أن المخالطة على الوجه الذي نهى الله عنه قذرة جدًا بقوله: ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٠﴾ أي: الحاملين أنفسهم على ما يشق من أمور الطهارة فيتورعون عن كل مشتبه، وأظهر تاء التفعل؛ لأن شهوة النكاح جديرة بأن تغلب الإنسان إلا بمزيد مجاهدة منه.

ولما بيّن المأتي نوع بيان، أوضحه مشيرًا إلى ثمرة النكاح الناهية لكل ذي لب عن السفاح فقال: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ وفي تخصيص الحرث بالذكر وتعميم جميع الكيفيات، إشارة إلى تحريم ما سواه؛ لما فيه من العبث بعدم المنفعة ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ ولما كانت هذه أمورًا خفية لا يحمل على صالحها ويحجر عن فاسدها إلا محض الورع قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾.

قال الحرالي: "فيه إشعار بما يجري في أثناء ذلك من الأحكام التي لا يصل إليها الحكام، مما لا يقع الفصل فيه إلا في الآخرة، من حيث إن أمر ما بين الزوجين سر لا يفشى، وفي إشعاره إبقاء للمروءة في ألا يحتكم الزوجان عند حاكم في الدنيا، وأن يرجع كل منهما إلى تقوى الله وعلمه بلقائه"، ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢١﴾ وهو إشارة إلى أن مثل هذا من باب الأمانات، لا يحجز عنه إلا الإخلاص في الإيمان والتمكن فيه.

ولما أذن في إتيان النساء في محل الحرث، بين حكم ما إذا منع الإنسان نفسه من ذلك بالإيلاء أو بمطلق اليمين، فمنع من ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ فإن ذلك إذا طال حمل على الاجتراء على الكذب فجرّ إلى أقبح الأشياء، قال الحرالي: "والعرضة: أخذ الشيء على غير قصد له بل يقصد غيره"، ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ فتجعلوا الأيمان لكم ديدنًا، فإن من لا ينقاد إلى الخير إلا بقائد من يمين أو غيرها ليس بصادق العزيمة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ ولما كان السياق للمؤاخذة كان الحلم أنسب الأشياء لذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ لا يعاجلهم بالأخذ.

ولما كان الإيلاء حلفًا مقيدًا، بينه دليلًا على حلمه فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ﴾ ينتظر فيها رجوعهم إليهن حلمًا من الله، حيث لم يجعل الأمر بتًا

حين الحلف بفراق أو وفاق، قال الحرالي: "وقطع سبحانه بذلك ضرار الجاهلية في الإيلاء إلى غير حد"، ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٤ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾.

ولما كان المطلّق ربما ندم فحمله العشق على إنكار الطلاق رهّبه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لعبارتهم عنه، قال الحرالي: "في إشارته إعلامٌ بأن الطلاق لا بد له من ظاهر لفظ يقع مسموعًا"، ﴿عَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ قال: "وفيه تهديد بما يقع في الأنفس من المضارة بين الأزواج في أمور لا يصل إلى علمها الحكام، فجعلهم أمناء على أنفسهم، ولذلك رأى العلماء أن الطلاق أمانة في أيدي الرجال، كما أن العِدد والاستبراء أمانة في أيدي النساء، فلذلك انتظمت آية تربص المرأة في عدّتها بآية تربص الزوج في إيلائه"، فقال:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ولما كانت النفس داعية إلى الشهوات عبّر بها فقال: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ هزًا إلى الاحتياط في كمال التربص، والاستحياء مما يوهم الاستعجال ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ والمشهور من كلام أهل اللغة: أن جمع القرء بمعنى الطهر: أقراء وقروء، وجمعه بمعنى الحيض: أقراء فقط ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وبيّن الرجعة تنبيهًا على أنه إن كان ولا بد من الطلاق فليكن رجعيًا، فقال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في أيام الأقراء، فإذا انقضت صارت أحق بنفسها منه بها؛ لانقضاء حقه، والكلام في الرجعية بدليل الآية التي بعدها.

ولما أثبت الحق لهم وكان منهم من يقصد الضرر، قيده بقوله: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ ولما أخرج أمر الرجعة عنهن جبرهن بقوله: ﴿وَلَهُنَّ﴾ من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ أي: في كونه حسنة في نفسه على ما يليق بكل منهما، لا في النوع، ولما كان كل منهما قد يجور على صاحبه قال: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من حالهما، قال الحرالي: "والمعروف ما أقره الشرع وقبله العقل ووافقه كرم الطبع"، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بالإنفاق والمهر وغيرهما، وختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ليخشى كلُّ من أعاره ثوبَ عزِّه سطوتَه ﴿حَكِيمٌ ۝٢٢٦﴾ تنبيهًا على أنه ما فعل ذلك إلا لحكمة بالغة تسليةً للنساء، وما أوجده بعزته وأتقنه بحكمته لا يمكن نقضه.

ولما ذكر الرجعة ولم يبين لها غاية تنتهي بها قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ دون: طلقتان؛ تنبيهًا على أنه ينبغي أن تكون كل طلقة في مرة لا أن يجمعهما في مرة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ قال الحرالي: "فصرَفهم بذلك عن ضرار الجاهلية الذي كانوا عليه بتكرير الطلاق إلى غير

حد"، ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾ أي: إن طلقها الثالثة، ولا يملك بعده عليها الرجعة، ويجوز أن يراد بالتسريح عدم المراجعة من الثانية لا أنه طلقة ثالثة، ولما كان مقصود النكاح حسن الصحبة وكان الطلاق منعًا لها قال: ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ ومنه: بذل الصداق كاملًا، وألا يشاححها في شيء لها فيه حق، مع طيب المقال وكرم الفعال.

ثم قال مشيرًا إلى أن من إحسان التسريح: سماح الزوج بما أعطاها: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ أي: أيها المطلقون أو المتوسطون من الحكام وغيرهم ﴿أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ من صداق وغيره ﴿شَيۡـًٔا﴾ قال الحرالي: "لأن إيتاءَ الرجل للمرأة إيتاءُ نحلة لا في مقابلة الانتفاع، فلذلك أمضاه ولم يرجع منه شيئًا".

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي: الزوجين، وعبّر عن الظن بالخوف تحذيرًا من عذاب الله ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أي: أيها المتوسطون بينهما ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وتكرير الاسم الأعظم يدل على تعظيم هذه الأحكام؛ لأن كل إنسان مجبول على تقديم نفسه، والشرع كله مبني على العدل ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ سواء كان ذلك مما آتاها أو من غيره، أكثر منه أو لا؛ لأن الخلع عقد معاوضة، فكما جاز لها أن تمتنع من أول العقد حتى ترضى ولو بأكثر من مهر المثل، فكذا في الخلع يجوز له أن لا يرضى إلا بما في نفسه.

ولما كانت أحكام النساء بالمرافقة والمفارقة مبنية تارة على الشهوات البهيمية وتارة على السبُعية، وكان تعالى قد حد فيها حدودًا تكون بها المصالح وتزول المفاسد، منع من تعديها ولم يذكر قربانها كما مضى في آية الصوم فقال: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ ولما كانت شرائع الله ملائمة للفطرة السليمة عن جواذب الرذائل، أشار إلى ذلك بصيغة الافتعال في قوله: ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ أي: لا تتكلفوا مجاوزتها، وفيه إشارة إلى العفو عن المجاوزة من غير تعمد.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ في جعل هذا غاية للحل، زجرٌ لمن له غرضٌ مّا في امرأته عن طلاقها ثلاثًا؛ لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر، ومجرد العقد لا يفيد هذه الحكمة ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾.

ولما ذكر الطلاق رجعية وبائنة، بيّن وقت الرجعة فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارفن انقضاء العدة لأن الإمساك لا يتأتى به الأجل ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ﴾ ولما كان التقدير: فمن يفعل ذلك فقد ظلم زوجه، عطف عليه زيادة في التنفير عنه قولَه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ بتعريضها لسخط الله عليه ونفرة الناس منه.

ولما كان قد يفعل ذلك تهاونًا بالنظر لا قصدًا لشيء من المصالح، كان شبيهًا بالهازئ فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ بإهمالها عن قصد المصالح ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هل ترون فيها ما هو عبث بخلوه عن حكمة ظاهرة؟ ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ٢٢٩﴾.

ولما نهى عن الضرار في العصمة وفي أثرها الذي هو العدة، أتبعه النهي عنه بعد انقضائها بالعضل فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ استدل الشافعي بها على أنه لا نكاح إلا بولي؛ لأن التعبير بالعضل دالٌّ على المنع الشديد المعبر من الداء العضال، ولو كانت المرأة تزوج نفسها لما كان إعياء ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم﴾ ولما كانا قد يتراضيان على ما لا ينبغي، قيده بقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ فإن تراضوا على غيره كما لو كان الزوج غير كفؤ فاعضلوهن.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ﴾ ولما كان وصف المتكلم بالعلم أدعى لقبول من دونه منه، قال مظهرًا ومعيدًا للاسم الأعظم تعظيمًا للأمر: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢٣٠﴾.

ولما كان النكاح قد يكون عنه ولادة فيكون عنها رضاع، وكانت المرضعة قد تكون زوجة مفارقة بطلاق أو موت، وسّطه بين عِدّتي الطلاق والوفاة؛ لإدلائه إلى كل بسبب، وحثًا على الشفقة على الصغير؛ لأنهما قد يؤذيانه إن كان الطلاق عن شقاق فقال: ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾.

قال الحرالي: "فيه إيذان بأن لا يمنع الوالدُ الأمَّ أن ترضع ولدها فيضرها في فقدها له، ولا يسيء معاملتها في رزقها بسبب ولدها، وفي إشعاره تحذير الوالدات من ترك أولادهن لقصد الإضرار، مع ميل الطبع إلى القيام بهم، وأن لا تضره في سرفِ رزقٍ"، وقد أفهم تمامُ هذه العنايةِ بالصغير أن الإنسان كلما ضعف كانت رحمة الله له أكثر وعنايته به أشد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣١﴾﴾ فاعملوا بحسب ذلك.

ثم ذكر عدة الوفاة لما تقدم وتتميمًا لأنواع العدد فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ ولما كان هنا من أمر العدة ما لم تعرفه العرب قبلُ فربما أنكرته القلوب لكونها لم تفهم سره، ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٢﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أبلغ مما لو قيل: ولا تعقدوا النكاح، فإن النهي عن العزم الذي هو سبب العقد نهيٌ عن العقد بطريق الأولى ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ﴾.

ولما كانت بين الطرفين أمور يغلب فيها الهوى، غلّظ الزواجر لتقاوم تلك الدواعي فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ ثم قال حثًا على التوبة، وإقامة بين الرجاء والهيبة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فبادروا بالتوبة.

ولما تمت أحكام العدد أتبعها أحكام الأصدقة فقال: ﴿۞ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ جبرًا لكسرها بالطلاق، والمطلقة من غير مس ولا فرض تستحقه للمتعة بالإجماع ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٤﴾﴾ وإنما كانت إحسانًا؛ لأن ملاك القصد فيها كما قال الحرالي: "ما تطيب به نفس المرأة، ويبقى باطنها وباطن أهلها سلمًا أو ذا مودة".

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ولما أوجب لها ذلك بعثها على تركه؛ لأن الزوج لم ينتفع منها بشيء: بالتعبير بالعفو فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: النساء، فإن النون ضميرهن والواو لام الفعل ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ

﴿عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ وهو الزوج، الذي إن شاء أبقاها وإن شاء سمح لها بالجميع، والتعبير بهذا: هزٌّ للزوج إلى العفو في نظير ما جُعل إليه من هذا دونَها.

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ أما من المرأة: فلأن الزوج لم ينل منها شيئًا، فهو أقرب إلى رضاه، وأما من الرجل: فلما أشار إليه بجعل العقدة بيده، فإنه كما ربطها باختياره، حلّها باختياره، فدفْعه الكلَّ أقربُ إلى جبر المرأة ورضاها ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ خصه الحرالي بالرجال فقال: "فمن حق الزوج بما له من الرجولة أن يكون هو العافي وألا يؤاخذ النساء بالعفو، ولذلك لم يأت في الخطاب أمر لهن، فمن أقبح ما يكون: حمل الرجل على المرأة في استرجاع ما آتاها، بما يصرح به قوله: ﴿أو آتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا﴾ [النساء: ٢٠]"، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٥﴾.

ولما ذكرت أحكام النساء والشغل بالأولاد وغير ذلك مما قد يشغل عن الصلاة والعبادة قال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أو يقال: لما ذكر سبحانه ما بين العباد خاصة، ذكر ما بينه وبينهم، وقال الحرالي: "إنما أمر بالمحافظة على الصلاة في أثناء هذه الأحكام؛ لأن هذا الاشتجار المذكور بين الأزواج، فيما يقع من تكرُّهٍ في الأنفس وتشاحٍّ في الأموال، إنما وقع من تضييع المحافظة عليها؛ لأن الصلاة بركة في الرزق وسلاح على الشيطان، فإذا حفظوها جرَت أمورُهم على سداد يغنيهم عن الارتباك في جملة هذه الأحكام".

وقال: "خَلَلُ حال المرء في دنياه ومعاده إنما هو عن خلل حال دينه، **وملاك دينه وأساسه**: إيمانه وصلاته، فمن حافظ على الصلوات أصلح الله حال دنياه وأخراه، **ويتم ذلك**: بأن يعملها عملًا إسلاميًا، وخشوعًا إيمانيًا، وشهودًا إحسانيًا، وأول ذلك الطهارة لها، ثم التزام التوبة عندها؛ لأن طهور القلب التوبة كما أن طهور البدن والنفس الماء والتراب، ثم حضور القلب في التوحيد عند الأذان والإقامة، من حضر قلبُه عندهما حضر في صلاته، ومن غفل قلبه عندهما غفل في صلاته، ثم تمام هيأتها.

وبالنقص من تمامها تنقص المحافظة عليها، وبتضييع المحافظة عليها يتملّك الأعداءُ النفسَ ويلحقها الشح، فتثقل عليها الأحكام وتتضاعف عليها المشاق، وما من عامل يعمل عملًا في وقت صلاة إلا كان وبالًا عليه وعلى من ينتفع به من عمله، فالصلوات مِلاك لصلاح أحوال الخلق مع أزواجهم في جميع أحوالهم".

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أخفاها ليحافظوا على الكل، كما أخفى ليلةَ القدر وساعةَ الإجابة في يوم الجمعة والاسمَ الأعظم ووقت الموت؛ حملًا على التوبة في كل لحظة ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٦﴾ قال الحرالي: "القنوت: الثبات على أمر الخير وفعله، ومنه المداومة على الصلاة، حتى لا يقع التفات للخلق، ولذا لزم الصمت فيها؛ لأن كلام الناس قطعٌ لدوام المناجاة، ففي إشعاره أن من قام لله تعالى قانتًا في صلاته، أقام الله حاله وبارك في رزقه، كما تشير آية: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقًا نحن نرزقك﴾ [طه: ٣٢]".

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ قال: "ما من حكم شرعه الله في السعة إلا وأثبته في الضيق، بحيث لا يفوت في ضيقه بركةٌ من حال سعته؛ ليعلم أن فضل الله لا يُفقِدُه حال"، وفيه إشعار بأن المراد الأعظم من الصلاة هو الذكر وهو دوام حضور القلب، ولذا نبّه على ذلك بقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ٢٣٧﴾.

ولما أمر بالمحافظة على الصلاة، وكان في الاشتغال بالنساء والأولاد ما يضر بالفراغ للعبادة، كان الحال مظنة السؤال عن الرهبانية والاختصاء، فعقب الأمر بذلك بآيتين من آيات النكاح؛ إفهامًا لهم بأن يتركوا الترهب، ويكونوا رجالًا في الاقتداء بنبيهم ﷺ في القيام بحقوق الله وحقوق نفسه وسائر العباد، وجعلها آيتين فقط، أولاهما في حكم من أحكام الموت؛ إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الإقبال على العبادة أكثر، وأن يكون الاشتغال بأمر النساء والأولاد على وجه التزود للموت وما بعده.

ولما كان الخوف المذكور في آية المحافظة على الصلاة من أسباب القتل، عقبه عدة الوفاة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٣٨﴾ ولعل إثباتها في التلاوة مع نسخ حكمها، تذكيرًا للنساء بما كان عدة لهن في أول الأمر، لئلا يستطلن العدة الثابتة بأربعة أشهر وعشر، فينتهكن شيئًا من حرماتها.

ولما ذكر متاع المتوفى عنهن، كرر متاع المطلقات تأكيدًا للحكم فقال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٣٩﴾ قال الحرالي: "حيث كان الذي قبل الدخول حقًا على المحسنين، كان المحسن يمتّع بأيسر وصلة، والمتقي يحق عليه الإمتاع بمقدار ما وقع له من حرمة الإفضاء ولِما وقع بينهما من الضجر، فيكون في المتعة إزالة لبعض ذلك وإبقاء للمودة"، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢٤٠﴾.

ولما انقضى ما لا بد منه مما سيق بعد الإعلام بفرض القتال، رجع إليه فقال: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ قال الحرالي: "لما كان حظيرة الدين الجهاد الذي فيه بذل الأنفس وإنفاق الأموال، كثرت فيه مواعظ القرآن، وأعلم هذه الأمة بما يقع فيه، فذكر من وقائع الأمم السالفة ما يكون مثلًا لوقائع هذه الأمة"، ﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ قال: "فيه إشعار بأن تخوفهم لم يكن من نقص عدد وإنما كان من جزع أنفس، فأعلم تعالى أن الحذر لا ينجي من القدر، وإنما ينجي منه الدعاء".

﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ لعل فيه حضًا على التفضل بالمراجعة من الطلاق، كما تفضل الله على هؤلاء بالإحياء بعد أن أدبهم بالإماتة، وختْم التي قبلها بـ﴿لعلكم تعقلون﴾ فيه إشارة إلى أن الخارجين من ديارهم لهذا الغرض سفهاء، أو إلى أن المتوفى قد يطلق زوجه في مرض موته فرارًا من إرثها، وقد يحتال على المطلقة ضرارًا بما يمنع حقها، فكان معنى الختم: أنكم إذا عقلتم لم تمنعوا أحدًا من فضل الله الذي آتاكم، فإنه تعالى قادر على أن يمنع المراد إعطاؤه، ويمنح المراد منعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٢٤١﴾.

ولما بيّن أن الموت لا يصون منه فرار، أمر بالجهاد الذي هو المقصود الأعظم بهذه السياقات فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٢٤٢﴾ ولما كانت النفقة التي هي من أعظم مقاصد السورة: أوثق دعائم الجهاد وأقوى مصدق للإيمان، كرر الحث عليها على وجه أبلغ فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ قال الحرالي: "وصفه تعالى بالحَسَن؛ ليبذله على وجه الإحسان، فيعامل اللهَ به كأنه يراه"، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٤٣﴾.

ولما كان الصحابة يتمنون في مكة الإذن في القتال، عجّب من حال بني إسرائيل حيث سألوا ذلك ثم لم ينصفوا إذ أُمروا؛ تحذيرًا من مثل حالهم، وتصويرًا لعجيب قدرته على نقض العزائم، فقال ملتفتًا إلى قوله: ﴿كُتب عليكم القتال﴾ [البقرة: ٢١٦]: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ولما كان الإخلال من الشريف أقبح قال: ﴿إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾ ولما كان من أولاد الصلحاء أشنع قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولما كان ممن تقرر له الدين واتضحت الآيات أفحش قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ قال

الحرالي: "فأنبأ تعالى أنهم أسندوا ذلك إلى غضب الأنفس على الإخراج، وإنما يقاتل في سبيل الله من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا".

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٤﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أشار بتقديم العلم إلى أن الفضائل النفسانية أشرف من الجسمانية وغيرها ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٥﴾﴾.

ولما كان أغلبهم واقفًا مع المشاهدات، غير ثابت القدم في الإيمان بالغيب قال: ﴿۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ قال الحرالي: "وقلّ ما احتاج أحد في إيمانه إلى خارقة، إلا كان إيمانه إن آمن: غلبة يخرج عنه بأيسر فتنة، ومن كان إيمانه باستبصار ثبت عليه ولم يحتج إلى آية، فإن كانت الآية كانت له نعمة ولم تكن عليه فتنة، فإن الآيات طليعة المؤاخذة، والاقتناع بالاعتبار طليعة القبول والثبات"، ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي: شيء يوجب السكون والثبات في مواطن الخوف.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٦﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ من الماء الذي جعله حياة لكل شيء، فضربه مثلًا للدنيا التي من ركن إليها ذل ومن صدف عنها عز ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ أي: ملأ بطنه ﴿فَلَيْسَ مِنِّى﴾ أي: كمن انغمس في الدنيا ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ كمن عزف عنها بكليته، ثم استثنى المقتصد فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ﴾ قال الحرالي: "فيه إيذان بتصنيفهم ثلاثة أصناف: من لم يطعمه البتة؛ وهم الذين ثبتوا وظنوا أنهم ملاقو الله، ومن شرب منهم؛ وهم الذين افتتنوا وانقطعوا عن الجهاد، ومن اغترف غرفة؛ وهم الذين تزلزلوا حتى ثبّتهم الذين لم يطعموا".

﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ أطاعوا فأرواهم الله وقوّى قلوبهم، ومن عصى في شربه غلبه العطش وضعف عن اللقاء فبقي على شاطئ النهر ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟﴾ أي: معظمهم، قال الحرالي: "رد الضمير مردًا عامًا، إيذانًا بكثرة الذين اغترفوا وقلة الذين لم يطعموا، كما آذن ضمير ﴿فشربوا﴾ بكثرة هؤلاء"، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ

﴿بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ لقوتهم وكثرتهم، قال: "ففيه من نحو قولهم: ﴿ولم يؤت سعة من المال﴾ اعتمادًا على أن النصر بمال أو قوة، وليس إلا بالله".

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ﴾ ونبّه بقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ على أن سبب النصر: الطاعة والذكر لله الذي لا كفؤ له، فلا ينبغي لمن علم ذلك أن يفتر عن ذكره، ويرضى بقضائه ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٧ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ وأشاروا بقولهم: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤٨﴾ موضعَ قولهم «عليهم»: إلى أنهم إنما يقاتلونهم لتضييعهم حقه سبحانه، لا لحظّ من حظوظ النفس، كما كان من معظمهم أول ما سألوا.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قال الحرالي: "تخليصًا للملك مما يلحقه بفقد الحكمة من اعتداء الحدود"، فكان داود عليه السلام أول من جمع له بين الملك والنبوة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ ولما بين هذه الواقعة بيّن الحكمة من الجهاد وتسليط الناس على بعض، فإنهم جُبلوا على خلائق موجبة للتجبر وطلب التفرد بالعلو المفضي إلى الاختلاف فقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٤٩﴾ ومما يجب التنبه له من قصتهم هذه: ألا يثق العاقل بنفسه، ولا يزال يصفها بالعجز وإن ادعت خلاف ذلك، بل يثق بحول مولاه وقوته، ولا ينفك يسأله العفو والعافية.

ولما علت هذه الآيات عن أقصى الغايات، نبه سبحانه على ذلك بقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ قال التفتازاني في شرح العقائد: "الحق: الحكم المطابق للواقع، ويقابله الباطل، وأما الصدق: فقد شاع في الأقوال خاصة، ويقابله الكذب"، فمعنى الآية على هذا: إنا عالمون بالواقع من هذه الآيات، فأخبرنا عنها بما يطابقه فكانت أخبارنا صدقًا، فالحق يعتبر من جانب المخبِر عن الواقع بما يطابقه، والصدق يعتبر من جانب السامع فإنه إذا وجد الخبر مطابقًا للواقع قال: هذا صدق ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٥٠﴾.

ولما تقدم في هذه السورة ذكر رسل كثيرة، تشوفت النفس إلى معرفة أحوالهم في الفضل فقال: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ﴾ بأداة البعد لبعد مراتبهم ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ قال الحرالي: "فيه إيذان بأن الأسباب لا تقتضي آثارَها إلا بإمضاء كلمة الله فيها"، ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥١﴾﴾.

ولما كان الاختلاف على الأنبياء سببًا للجهاد الذي هو حظيرة الدين، وكان عماد الجهاد النفقة، أتبع ذلك قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٢﴾﴾ وفيها التفات إلى أول السورة حيث وصف المؤمنين بالإنفاق والإيقان بالآخرة، وبيان لأن المراد بالإنفاق أعم من الزكاة، وأن ذلك يحتمل جميع وجوه الإنفاق.

ولما نفى الخلة والشفاعة تشوفت الأنفس إلى معرفة سبب انقطاع الأسباب في ذلك اليوم، إذ كان المألوف من ملوك الدنيا أنهم لا يكادون يتمكنون من أمر حق التمكن؛ لكثرة الشفعاء ومن يحتاج الملِكُ إلى مراعاتهم لئلا يتضعضع أمره فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مقررًا لكمال التوحيد فإنه المقصود الأعظم من جميع الشرائع، ولكن الإنسان لِما جبل عليه من النقصان لا بد له من ترغيب يشده وترهيب يرده وأعمال تصدقه وأخلاق تحققه، فخلّل سبحانه آيَ التوحيد بالأحكام والقصص، وقال الحرالي: "نقل تعالى المؤمنين بالاعتبار في خلق السماوات والأرض من اسمه الإله في قوله: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ [البقرة: ١٦٣] الذي وقع فيه الشرك بالباطل، إلى يقين العيان باسمه ﴿الله﴾ الذي لم يقع فيه شرك بحق ولا بباطل، وما يلتئم بمعناه من أوصافه العظيمة".

ولما وحد نفسه الشريفة أثبت استحقاقه لذلك بحياته، وبين بوصف القيومية أنها أبدية فقال: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ وكل جملة استؤنفت في هذه الآية فهي علة لما قبلها، وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٣﴾﴾ شارح للازم العلم المحيط وهو القدرة التامة، فمن ادعى شركة فليحفظ هذا الكون ولو قليلًا ليصح قوله.

ولتمحض الآية في الكلام عن الله سبحانه، ولِما وفت به من أدلة التوحيد على أتم وجه في أحكم نظام، قال ﷺ: «إن هذه الآية سيدة آي القرآن» فإن فضل الذكر والعلم يتبع المذكور والمعلوم، كما كُررت فيها الأسماء الشريفة تكرارًا لم تبلغه آية غيرها في القرآن،

وهي خمسون كلمة على عدد الصلوات المأمور بها أولًا في حضرة العرش والكرسي فوق سدرة المنتهى، فكأنها مراقي لروح قارئها إلى ذلك المحل الأسمى، ولعله لهذا لا يقرب من يقرؤها عند النوم شيطان؛ لأن من كان في حضرة الرحمن كان عاليًا عن وساوس الشيطان.

ولما اتضحت الدلائل لكل عالم وجاهل قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ ثم علل ذلك بقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ حتى صار الدين بحيث يبادر إليه كل من أراد نفع نفسه ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ وهو نفسه وما دعت إليه، وقال الحرالي: "الطاغوت: ما أفحش في الإخراج عن الحد الموقف عن الهلكة، صيغة مبالغة وزيادة انتهاء مما منه الطغيان"، ﴿وَيُؤمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ قال: "وهو تمثيلٌ للمعلوم بالنظر والاحتجاج بالمشاهد المحسوس؛ ليتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيُحكِم اعتقاده فيه"، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٤﴾﴾.

ولما كان كأنه قيل: فمن يخلص النفس من ظلمات الهوى والشيطان؟ قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعها لأن طرق الضلال كثيرة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ ﴿٢٥٥﴾﴾ وحّده لأن الصراط المستقيم واحد ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ولما ذكر عباده الخلص، ذكر عباد الشهوات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ستروا ما دلت عليه الأدلة بشهوات النفوس ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ من شهواتهم وما أدت إليه من اتباع كل ما أطغى ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٦﴾﴾.

ولما ذكر عظمته تعالى وتوليه حزبه وخذلانه للكافرين، دل على ذلك بقصة المحاج للخليل والمار على القرية، مذكّرًا بقصة الذين قال لهم موتوا ثم أحياهم فقال: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ والعبارة تدل على تقدم ادعاء أحد لمشاركة في هذه الصفة ﴿قَالَ﴾ ذلك المحاج بجرأة وعدم تأمل؛ لما ألفه من ذل الناس له: ﴿أَنَا۠﴾ أيضًا ﴿أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

فلما رأى إبراهيم أنه قد اجترأ على عظيم وأن محاجته ربما خفيت أو طالت عجّل إبهاته، وقال الحرالي:" لما كان من حسن الاحتجاج: ترك المراء بمتابعة الحجة الملبسة، انتقل من حجة الأنفس إلى حجة الآفاق فقال: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ إظهارًا لمرجع العالم بكليته إلى واحد، وأن قيوم الإنسان في الإحياء

والإماتة هو قيوم الآفاق في طلوع الشمس وغروبها"، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

وأتبع هذه الآية بقصة المار على القرية؛ بيانًا لوجه مغالطة الكافر لمن استخفه من قومه في المحاجة مع الخليل عليه السلام، بأن الإحياء الذي يستحق به الملك الألوهية هو هذا الإحياء الحقيقي، لا التخلية عمن استحق القتل كما كان يفعل فقال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٨﴾﴾.

ولما كان الإيمان بالبعث من المقاصد العظمى في هذه السورة، أثبت الإيمان بالرد على المحاجّ، والإيقان بإشهاد المتعجب، والطمأنينة بقصة الخليل فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ وقد لاح فيها أن قصده عليه السلام الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين بل إلى حق اليقين، وأما نفس الشك فقد نفاه تصريحًا بقوله: ﴿بلى﴾ وتلويحًا بكون هذه الآية عقب آية محاجته للذي بهت.

ثم ثنى الكلام إلى الأمر بالنفقة في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا ما شرعه الملك فقال: ﴿۞مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦١﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٢﴾﴾.

ولما شرط لقبولها شرطًا، أتبعه النهي عن إهماله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ولما كان للمرائي حالان، ألحقه بأشدهما فقال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ﴾ قال الحرالي: "ولما ضرب مثلًا لنماء النفقة بالحرث، ضرب مثلًا لإبطالها بخطأ الحارث في الحرث فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهي

الحجارة الملس الصلبة التي لا تقبل انصداعها بالنبات"، ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ فاغتر به بعض الجهلة فزرع عليه ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٣﴾.

ولما فرغ من مثل العاري عن شرط القبول، ضرب للمقترن بالشرط فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالنظر في إصلاح العمل وإخلاصه والصبر على جميع التكاليف، فإن من راض نفسه بحملها على بذل المال الذي هو شقيق الروح، قل طمعها في اتباعه لشهواتها فسهل عليه حملها على سائر العبادات، ومتى تركها وهي مطبوعة على النقائص، زاد طمعها في اتباع الشهوات ولزوم الدناءات.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾ أي: مطر كثير ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ وهو الندى الذي ينزل في الضباب، والمعنى: أن أهل هذا الصنف لا يتطرق إلى أعمالهم فساد، بل نقصٌ باعتبار ضعف النيات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٤﴾ فاجتهدوا في إحسان الظاهر والباطن، وقدم مثل العاري عن الشرط عليه لأن درء المفاسد أولى.

ولما قدم أن المن والرياء مبطلان للصدقة رجع إليهما؛ دلالة على الاهتمام بهما، فضرب لهما مثلًا أوضح وأشد تنفيرًا فقال: ﴿۞أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولما ذكر كرمها ذكر شدة الحاجة إليها فقال: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ وبقي صاحبها بمضيعة مع ضعفه وثقل ظهره بالعيال وقلة المال.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ قال الحرالي: "فجعل المثل الأول في الحب الذي على الصفوان؛ لآفة من تحته، وجعل المثل في الجنة بجائحة من فوقه، كأنهما جهتا طروّ الآفات، من جهة أصل أو فرع"، فحال من راءى في أعماله أو آذى في صدقاته يوم القيامة كحال هذا في نفسه وعياله عند خيبة آماله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٥﴾ أي: تحملوا أنفسكم على الفكر، ومن يكون كذلك ينتفع بفكره، وقال الحرالي: "كذلك من حق أعمال الدين أن لا تقع إلا بفكرة في إصلاح أوائلها السابقة، وأواخرها اللاحقة".

ولما رغب في الفعل وتنقيته، أتبعه المال المنفق منه فأمر بطيبه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ

﴿تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ بالحياء مع الكراهة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ يفضل على من أسلف خيرًا رغبة فيما عنده، ولم يرغبكم في الإنفاق لحاجة بل لطفًا بكم ﴿حَمِيدٌ ٢٦٦﴾ يجازي المحسن أفضل الجزاء، على أنه لم يزل محمودًا عذب أو أثاب.

ولما وعد -وهو أصدق القائلين- المنفقين بالغنى والإثابة في الدارين، أتبعه بما للعدو من ضد ذلك، فقال محذرًا من البخل ومبينًا سببه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: الذي يقتضي اسمه الهلاك والبعد، وأحد الوصفين كافٍ في مجانبته فكيف إذا اجتمعا! ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ ثم صرح بما له تعالى من الخير فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٧﴾ قال الحرالي: "في إشعاره توهين لكيد الشيطان، ووعد كريم للمفتون بخوف الفقر وعمل الفحشاء؛ لعلمه بضعف الأنفس وسرعة قبولها للوسواس".

ولما ختم بهاتين الصفتين بيّن أن من ذلك: أنه يهب من صفاته ما يشاء لمن يشاء بأن يؤتيه الحكمة فيفهم ما خفي من هذه الأمثال، ويقبل أمر الرحمن ووعده؛ لجريانه على مقتضى العقل والحكمة، وأن أمر الشيطان ووعده على وفق الهوى والشهوة فقال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي: العلمُ بالأشياء على ما هي عليه، المزيَّنُ بالعمل، والعمل المتقن بالعلم، فهي قوة تجمع العلم المطابق، وفعل العدل بالعمل على وفق العلم، قال الأصبهاني: "القرآن مملوء من الأدلة على أن كمال الإنسان ليس إلا هاتين القوتين"، ﴿مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٦٨﴾ أي: العقول الصافية عن دواعي الهوى، المنبعثة من التوهمات الحاصلة عن الوسوسة.

ولما كان السياق للإنفاق، عُلم أن التقدير: فالله مطالبكم في وضع مالكم وجمعه بوجه الحكمة ومحاسبكم على ذلك، فعطف عليه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٢٦٩﴾. ولما كان حال الأنفاق يختلف بالسر والجهر، حث عليه في كلتا الحالتين مع ترجيح الإسرار لبعده عن الرياء فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٧٠﴾.

ولما حث على الخير ولزوم الهدى، وكان أكثرهم معرضين؛ لأن ما دعا إليه هادم لما جبلوا عليه من الحب لتوفير المال والحفيظة على النفس، وكان ﷺ شديد الأسف عليهم، خفف

سبحانه عليه الحال فقال: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧١﴾.

ولما كان الإنفاق لأجل المحاويج وفيهم المؤمن، بين أنه محط القصد فقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ ولما ذكر أخفى مواضع النفقة ختم بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ وإن اجتهدتم في إخفائه بإعطائه لمن لا يسأل.

ثم بين أن النفقة حسنة في كل وقت وعلى كل حال فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ربط الجزاء بالفاء؛ إعلامًا بأنه مسبَّب عن هذه الأحوال، حثًا على الإتيان بها كلها لسهولة ذلك، ولما كان الانتهاء عن المن والأذى في بعض الأحوال شديدًا؛ لما يرى من المنفَق عليه من الغضّ ونحو ذلك، لم يربط الجزاء بالفاء[١٦] إشارة إلى العفو عما يغلب النفس منه ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾.

ولما ذكر النفقة وكان مما يسترزقون به قبل الإسلام الربا، وهو أخذ مجانًا وصورته زيادة وحقيقته نقص وعيب، والنفقة إعطاء مجانًا وظاهرها نقص وباطنها زيادة وخير؛ نهاهم عن تعاطيه ونفرهم منه، وقال الحرالي: "ولما كان حال المنفق لا سيما المخلص لله أفضل الأحوال، نظم به أدناها وهو الذي يتوسل به إلى الأموال بالربا، فأفضل الناس المنفق وشر الناس المرْبي، فنظم به خطاب الربا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ولما كان من الصحابة من أكل الربا، عبر بالمضارع إشارة إلى أن هذا الجزاء يخص المصرّ فقال": ﴿يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ﴾ عند البعث ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيكون ذلك سيماهم، يُعرفون به بين أهل الموقف فضيحةً لهم.

وقال الحرالي: "في إعلامه إيذان بأن آكله يسلب عقله في الدنيا ويكون أخرقًا، يقبل في محل الإدبار ويدبر في محل الإقبال"، وهو مؤيَّد بالمشاهدة، فإنا لم نسمع قط بآكل ربا ينطق بالحكمة ولا يشهر بفضيلة، بل هم أدنى الناس وأدنسهم، ولما كان ذلك قد يظن أنه يخبط الفكر بالوسوسة مثلًا قال: ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ أي: الجنون، فأشار بذلك إلى المنع من أن تكون

---

(١٦) فيما تقدم في قوله تعالى: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى لهم أجرهم﴾.

النفقة من حرام ولا سيما الربا، وإلى أن الخبيث المنهي عن تيمم إنفاقه قسمان: حسي ومعنوي، والنهي في المعنوي أشد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ قال الحرالي: "أتى بالفاء المعقبة فلم يجعل فيه فسحة ولا قرارًا عليه؛ لما فيه من خبل العقل الذي هو أصل مزية الإنسانية وإن لم يشعر به حكماء الدنيا وأطباؤها"، ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

ولما كان المرغِّبُ في الربا ما فيه من الربح الناجز المشاهد، والمفتِّرُ عن الصدقة كونها نقصًا محققًا بالحس قال: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ فالربا نقص والصدقة زيادة وإن كانت الصورة بالعكس؛ لأن ذلك إنما هو بيد الله، فما شاء محقه وإن كثر، أو نماه وإن قلّ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٥﴾﴾ فلا يبارك أموالهم ولا ييمن أحوالهم.

ولما بين تعالى ما سلبه عن الكافرين من محبته، أتبعه ما أثبته للمؤمنين من رحمته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ائتمارًا وانتهاء، لا سيما ترك الربا ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٧﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ قال الحرالي: "فانقطعت وصلته من الرحيم والشفيع".

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٨﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولما كان كل أحد يدعي العلم ويأنف من النسبة إلى الجهل قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ أي: فأنتم تعرفون صحة ما دعوتكم إليه، فإذا تحققتم ذلك فامتثلوه، فإنه يقبح على العالم بقبح الشيء الإصرارُ عليه، وإلا فبينوا أنه ليس بخير. قال الحرالي: "ختم الخطاب بأجمل موعظة وأشملها؛ ليكون انتهاء الخطاب على ترهيب الأنفس لتجتمع عزائمها على القبول"، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

ولما ذكر في المال أمرين ينقصانه ظاهرًا ويزكيانه باطنًا: الصدقة وترك الربا، وأمر بالإنظار في الإعسار فكان ذلك ربما أطمع المدين في شيء من الدين، اقتضى الحالُ الإرشادَ إلى حفظ المال الحلال والتنبيه على كيفية التوثق فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ

أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِالْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ﴾.

قال الحرالي: "ولكثرة المداينة وعمومها وسع فيها الشهادة فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ في إشعاره أنه ربما داخل الرجل والرجلين نحو ما داخل المرأتين، فيكون الكتاب مقيمًا لشهادتهما، فنفى عن الرجال الريبة بالكتاب، كما نفى عن النساء الضلال بالذكر"، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨١﴾﴾.

ولما كان ذلك حال الحضور وسهولة إحضار الكاتب والشاهد، عطف عليه حال السفر فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ﴾ ولما كان محلها القلب قال: ﴿قَلْبُهُۥۗ﴾ ومن أثم قلبه فسد، ومن فسد قلبه فسد كله؛ لأن القلب قوام البدن، إذا فسد فسد سائره ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

ولما أخبر عن سعة علمه، دل عليه بسعة ملكه المستلزم لسعة قدرته؛ ليدل ذلك على جميع الكمال فقال: ﴿۞لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ مما وطنتموه في النفس وعزمتم عليه، وليس هو من الخواطر التي كرهتموها ولم تعزموها ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، فقال رسول الله ﷺ: «أترون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سمعنا وعصينا﴾! قولوا: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾» فلما ذلت بها ألسنتهم نزلت: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ

وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ فقد تبين من هذا تناسب هذه الآيات.

وأما مناسبتها لأول السورة ردًا للمقطع على المطلع: فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه، ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها، على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي، والاتصاف بأوصاف الكمال أشد اتصال، وجعل رأسهم الرسول ﷺ تعظيمًا للمدح وترغيبًا في ذلك الوصف.

وقال ابن الزبير: "ولما بين تعالى أن الكتاب هو الصراط المستقيم، ذكر افتراق الأمم وأحوال الزائغين تحذيرًا من حالهم".

ولما أكمل قولهم في القوة النظرية الكفيلة باعتقاد المبدأ، أتبعه قولهم في القوة العملية فقال: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٤ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ وذكر الفعل مجردًا في الخير إيماء إلى أنه يكفي في الاعتداد به مجرد وقوعه ولو مع الكسل بل ومجرد نيته ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ فشرط في الشر صيغة الافتعال الدالة على الاعتمال إشارة إلى أن الإثم لا يكتب إلا مع التصميم والعزم القوي.

ولما بشرهم بذلك، رحمهم بأن جعلهم أهلًا للخلافة، فلاح بذلك أنه يعلي أمرهم ويظهر دينهم، إذ كان سبحانه هو الداعي عنهم فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا﴾ أي: باللسان والسنان.

وأشار إلى قوة المخالفين، حثًا على الصدق في الالتجاء بقوله: ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ﴾ [أي: الذين فيهم قوة المحاولة](١٧) ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٨٥﴾ أي: الساترين للأدلة، فتضمن ذلك وجوب قتالهم وأنهم أعدى الأعداء وأن قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] ليس ناهيًا عن ذلك، وإنما هو إشارة إلى أن الدين صار في الوضوح إلى حد لا يتصور فيه إكراه، بل ينبغي لكل عاقل ناصح لنفسه أن يدخل فيه بغاية الرغبة فضلًا عن الإحواج إلى إرهاب، ومن أبى أُدخل فيه قهرًا بنصيحة الله التي هي الضرب بالحسام ونافذ السهام.

---

(١٧) كما فسر «القوم» به في مواضع.

قال الحرالي: "لما كانت الإحاطة في ثلاث رتب: إحاطة إلهية قيومية، وإحاطة كتابية، وإحاطة تفصيلية، وكانت الإحاطة الخاصة بهذه السورة إحاطة كتابية، أفصحت بها في معظم آياتها، وألاحت إلى الإحاطة الإلهية بحسب قربها من الإحاطة الكتابية، فلذلك انتظمت بها سورةُ آل عمران؛ لما نزل فيها من الإحاطة الإلهية، حتى كان في مفتتحها اسم الله الأعظم، فكان ما في البقرة إفصاحًا: في آل عمران إلاحة، وما في البقرة إلاحة: في آل عمران إفصاحًا، فلذلك هما مرتبطتان، وغمامتان تظلان صاحبهما يوم القيامة".

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها: إثبات الوحدانية والقيومية المقتضية للقيام بالعدل، أي: بعقاب العاصي وثواب الطائع، بما يقتضي للموفق المسارعة في الخيرات، وترك الانشغال بالدنيا التي آثرها الكفار لنيل الرئاسة التي لن تغني عنهم شيئًا، وأيضًا لمّا ثبت بالبقرة هداية الكتاب وقامت به دعائم الإسلام، جاءت هذه لإثبات الوحدانية لله بإبطال إلهية غيره حتى عيسى ﷺ الذي كان يحيي الموتى، فلما ثبت أن الكل عبيده دعت سورة النساء إلى اجتماعهم عليه.

وسميت بـ«آل عمران»؛ لِما تضمنته قصتهم من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد، والتوحيد موجب لزُهرة المتحلي به فلذلك سميت «الزهراء»، وصرّح في أولها بما أفهمه آخر البقرة بأن بيده كل شيء وأنه واحد قيوم، وقال الحرالي: "وإنما بدئ هذا الترتيب بسورة الكتاب؛ لأن علمه أقرب إلى المخاطبين من تلقي علن أمر الله، فكان في تعلمها والعمل بها: تهيؤٌ لتلقي ما تضمنته سورة آل عمران".

﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝١﴾ في وصفه بذلك إعلام بأنه قادر على نصر جنده وإعزاز دينه، وحثٌّ على مراقبته بجهاد أعدائه ودوام الخضوع والضراعة إليه.

ولما كان القيوم هو المدبر للمصالح، اتصل به الإعلام بتنزيل ما يتضمن ذلك وهي الكتب المذكورة فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٢﴾ فيه على وجازته رد على وفد نجران، إذ كان نزاعهم في الإله أو النبي أو فيهما، فبين الحق في الإله بالقيومية، وفي الكتاب بالإعجاز، وأشار بالكتب القديمة إلى أن ليس لهم إنكار هذا الكتاب وهو أعلى منها، قال الحرالي: "وكما أن هذا الكتاب هو الكتاب الجامع الأول المحيط بكل كتاب، كذلك هذا الحق المنزل به هذا الكتاب: هو الحق الجامع المحيط الذي كل حق منه، وهو الحق الذي أقام به حكمته فيما رفع ووضع".

﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى﴾ أي: بيانًا ولذا عم فقال: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ وأما في أول البقرة فبمعنى خلق الهداية في القلب فلذا خص المتقين، وهذه الآية كالتعليل لآخر البقرة فكأنه قيل: ﴿كلٌّ آمن بالله﴾ لأنه متفرد بالألوهية والحياة والقيومية ﴿وملائكته وكتبه ورسله﴾ [الآية: ٢٨٥] الذين جاؤوا بكتبه.

ثم استجد لكتابنا إنزالًا خاصًا تنبيهًا على علو رتبته عن غيره بمقدار علو رتبة المتقين الذين هو هدى لهم فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۝٣﴾ أي: الكتاب المصاحب للعز الذي يكسب صاحبه قوة الفصل والوصل لما يريد فيفرّق بين الحق والباطل، فيتحقق النصر على الأعداء المرشد إلى الدعاء به ختام البقرة.

ثم قال بيانًا لحال من أعرض عن الكتب الموصوفة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ واستمر يؤكد استجابته لدعاء أوليائه بالنصر آخر البقرة في نحو قوله: ﴿قل للذين كفروا ستُغلبون﴾ [آل عمران: ١٢] إلى أن ختم السورة بشرط الاستجابة فقال: ﴿اصبروا وصابروا﴾ [الآية: ٢٠٠].

ثم قال استدلالًا على وصفه سبحانه بالقيومية التي فارق بها كل من يُدَّعى فيه الإلهية، وموضحًا لأن كتبه هدى وأنه عالم بالمطيع والعاصي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ أي: ولا هم يقدرون على أن يدّعوا في عيسى عليه السلام مثل هذا العلم، بل في إنجيلهم التصريح بأنه يخفى عليه بعض الأمور.

ولما قرر شمولَ العلم أتبعه بتمام القدرة فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ قال الحرالي: "فيها توطئة لبيان الأمر في شأنه عليه السلام، من حيث إنه مما صور في الرحم وحملته الأنثى ووضعته، وأن جميع ما في السماء والأرض لا ينبغي أن يقع فيه لبس في أمر الإلهية"، ولما عُلم أن التصوير في الرحم أدق شيء علمًا وقدرة فعلم أن فاعله لا كفؤ له، وصل به كلمة الإخلاص فقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ وقال الحرالي: "ختم بالعزة المقتضية للانتقام من أهل عداوته، والحكمة المقتضية لإكرام أهل ولايته".

ثم فصّل أمر المنزَّل إلى المحكم والمتشابه، فنظر إليه جملة كما اقتضاه التعبير بالكتاب، فعبر بالإنزال دون التنزيل فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ قال الحرالي: "حرف المحكم أثبت الحروف عملًا، وحرف المتشابه أثبت الحروف إيمانًا".

فبين سبحانه بهذا أنه كما يفعل الأفعال المتشابهة مثل تصوير عيسى عليه السلام من غير نطفة ذكر مع إظهار الخوارق على يديه، كذلك يقول الأقوال المتشابهة ابتلاءً لعباده؛ ليبين فضل العلماء الراسخين الموقنين بأنه من عنده، وما كان كذلك فلا اختلاف فيه في

نفس الأمر؛ لأن سبب الاختلاف الجهل أو العجز، وهو سبحانه متعالٍ جَدُّه عن شيء من ذلك، ويسألونه بيان المشكل حتى يفتحه عليهم بما يرده إلى المحكم، وهذا على وجه يشير إلى المَهْمَهِ الذي تاه فيه النصارى، وهو المتشابه الذي منه زعمهم أن عيسى عليه السلام إله، فابتغوا الفتنة فيه ولم يردوا ذلك إلى المحكم الذي قاله لهم فأكثرَ منه.

ثم قال فيما تحصل به قراءة هذا الحرف: "اعلم أن تحقيق الإسلام بقراءة حرف المحكم لا يتم إلا بكمال الإيمان بقراءة حرف المتشابه؛ لأن حرف المحكم حال يتحقق للعبد بعد تحققه لحال المتشابه"، وقد بين سبحانه أنه لا يضل بحرف المتشابه إلا ذوو الطبع العوج الذين لم ترسخ أقدامهم في الدين ولا استنارت معارفهم في العلم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾.

ولما ذكر اتباعهم له ذكر علته فقال: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ *وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ﴾ وهم الذين توقفوا عن الخوض في المتشابه فتفرغوا للعمل في المحكَمِ الموجِبِ لإذعان النفس، فكما لا يصلح العراء عن الاتصاف بالمحكم، لا يصلح الترامي إلى الخوض في المتشابه ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ ولما كان مع كل مشتبِهٍ أمرٌ إذا دقق النظر فيه رجع إلى مثالٍ حاضرٍ للعقل، قال معممًا لمدح المتأملين على دقة الأمر وغموضه بإدغام تاء التفعل: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾.

ولما أيقنوا أنه من عند الله، تضرعوا إليه في أن يثبتهم ويرحمهم ببيان ما أشكل عليهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ تنبيه للعباد على عجزهم لئلا يقول مغترٌّ مع هذا البيان: لا طريق إلى تنكب الصراط. وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ تنبيه على وجوب التثبت في فهم الكتاب والإحجام عن مشكله خوفًا من الفضيحة يوم الجمع.

ولما تحقق أن ذلك اليوم كائن لا محالة، تحقق أن من نتائجه -تحقيقًا لعزته سبحانه- قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ وفيها تنبيه على أن الزائغين الذين وقفت بهم نعمه المقتضية لتصديقه عن تصديقه، ليست مغنية عنهم تلك النعم شيئًا.

ولما كانت السورة سورة التوحيد، كان الدعاء فيها إلى الزهد أليق من غيره، فأشارت الآية إلى ما توجبه فتنة الأموال والأولاد من الهلاك، قال الحرالي: "اختص خطاب هذه السورة بالذين آمنوا؛ لعلو معاني الإيمان فيها، وكان خطاب سورة البقرة بمقتضى العقل الذي به يقع أول الإصغاء، كما في قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات﴾ إلى ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ [الآية: ١٦٤]، ثم أقبلت آل عمران على الذين لهم لب العقل، فقال في أولها: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ [الآية: ٧] وفي آخرها: ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ [الآية: ١٩٠]، فبالعقل يقع الاعتبار، وباللب يكون التذكر".

ولما كان سبب استمرار الكفر من النصارى: الخوف من ملوكهم، نبه على أن أسلافهم لما أراد سبحانه قهرهم لفرعون لم تضرهم ذلتهم ولا نفعته عزته فقال: ﴿كَدَابِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ﴾ ولما أوجب ذلك العقوبة صرف القول إليه تعظيمًا فقال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ثم عدل إلى الاسم الأعظم تهويلًا لأخذهم فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ قال الحرالي: "فكان ما ظهر من أمر الدنيا: عقابًا على ما ظهر من الأعمال، وما بطن من أمر الآخرة: استيفاءً لما أُضمر من التكذيب، فكأن ذنب المؤمن يقع في دنياه خاصة لصفاء باطنه من التكذيب، وذنب الكافر يقع في دنياه وأخراه لاستغراقه ظاهره وباطنه"، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٢﴾.

ولما لم ينتفع الكفرة بقصة آل فرعون لجهل أو طول عهد قال: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾ أي: في بدر ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ قال الحرالي: "فكان الواحد منهم بما هو مسلمٌ: ذاتًا، وبما هو مؤمن: ذاتًا، فصار ضعفان ﴿فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية، وأما الكافر فظاهرٌ لا باطنَ له فكان ذاتًا واحدة، وأما صاحب اليقين فهو عشر ذواتٍ بما هو صاحب يقين ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين﴾ [الأنفال: ٦٥]"، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝١٣﴾.

ولما كان الذي أوقفهم عن الإيمان شهوات زائلة لا يؤثِرها على اتباع الملِك إلا من انسلخ إلى طور البهائم التي لا تعرف إلا الشهوات، صرّح بذلك فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ قال الحرالي: "الشهوة: نزوع النفس إلى محسوس لا تتمالك عنه"، وفيه إعلام بأن المزيَّن هو الحب لا المحبوب، فصارت محبة أهل الدنيا هي للأمر الكلي من هذه المسميات

وربما إذا تشخّص في الجزئيات لم يكن محبوبًا، وفيه تحريك للهمم إلى العلو عن رتبة الناس الذين أكثرهم لا يعلمون ولا يشكرون ولا يعقلون.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ قال الحرالي: "وأخفى فتنة النساء بالرجال سترًا لهن كما أخفى أمر حواء في ذكر المعصية لآدم؛ لما في ستر الحرم من الكرم، والله سبحانه وتعالى حيي كريم".

﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ قال الحرالي: "والمتاع ما ليس له بقاء، وهو في نفسه خسيس"، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ فأرشد هذا الخطاب اللطيف إلى منافرة العرض الخسيس بأن يجعله في يده لا في قلبه، فيستعين به على الطاعة، ولا يفرح به بحيث يشغله عن الخير، وإن مُنع منه لا يتأسف عليه؛ لتحقق زواله ولرجاء الأولِ إلى ما عند خالقه الذي ترك ذلك لأجله.

ولما ذكر سبحانه ما أوجب الإعراض عن هذا العرض، فكان السامع جديرًا بأن يقول فعلام أُقبل؟ أمر نبيه ﷺ بجوابه لتكون البشارة داعية إلى حبه فقال: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ بأن أعرضوا عن هذه الشهوات من حيث إنها شهوات، وجعلوها عبادات واقية لهم من عذاب ربهم ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قال الحرالي: "في معنى لفظ الخلود: إعلام بسكون الأنفس إليها لما فيها من موافقتها"، ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ ولما ذكر حظ البدن قرر لذة هذا النعيم بما للروح فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ أي: بنياتهم وبمقادير ما يستحقونه بها.

ثم ذكر الأوصاف التي استحقوا بها ذلك حثًا عليها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال الحرالي: "وصفهم به إشعارًا بما ينالهم من شدائد الدنيا، والصبر أمدح أوصاف النفس، به تنحبس عما زُين من الشهوات، وتحقيق الإيمان بالغيب يوجب ترك الدنيا للآخرة، ويتحقق الصبر: بحبس النفس عن التمولات الزائدة على الكفاف، التي هي حظ من لا خلاق له في الآخرة، ولذلك يحق أن تُنصب هذه الكلمات؛ لأن الصفات المتبعة للمدح حليتها النصب في لسان العرب".

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: "من شأن الصابر عن الدنيا الصدق؛ لأن أكثر المداهنة إنما يراد بها الدنيا، وفي عطف الصفات ما يؤذن بكمال الوصف؛ لأن العرب تعطفها إذا كملت، وتتبع بعضها بعضًا إذا تركبت، فيقولون: حلو حامض، إذا كان غير صادق الحلاوة ولا الحموضة"،

﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ قال: "والمنفق أعلى من المزكي؛ لأنه يجود بما في يده فضلًا، والمزكي يخرج ما وجب عليه فرضًا"، ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ التي هي أشق الأوقات استيقاظًا وأحبها راحة وأولاها بصفاء القلوب وأقربها إلى الإجابة.

قال الحرالي: "لما أنهى تعالى الفرقان ببيان المحكَمَينِ والمتشابِهَينِ في الوحي والكون، انتظمت هذه الشهادة التي هي أعظم شهادة في كتاب الله بآية القيومية التي هي أعظم آية الوجود؛ لينتظم آية الشهود بآية الوجود" فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ فثبت أن التوحيد على ما وقعت به الشهادة، ثم قال تعليلًا لذلك وتلقينًا للعباد أن يكرروها دائمًا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ دليلًا على قسطه.

ولما عُلم بذلك أنه يجب له سبحانه الخضوع وإخلاص التوحيد وذلك هو الإسلام قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ فيجازيهم عن قريب على كفرهم في الدنيا بأيدي بعضهم وأيدي المؤمنين، ثم ينقلون إلى حسابه تعالى في الدار الآخرة، ومن الكفر بالآيات الكفر بعيسى ﷺ حين انتحلوا فيه الإلهية، قال الحرالي: "فكفروا بما كان مستحقًّا أن يكون سبب الهداية؛ لأنه اشتبه عليهم خلقه بما ظهر على يديه من آيات الله تعالى".

﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ بعد هذا الأمر الواضح ﴿فَقُلۡ﴾ معرضًا عنهم، عملًا بالآية السالفة: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ ولما كان المكمل لنفسه يجب عليه السعي في إكمال غيره قال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ في صيغة «افتعلوا» تلويح إلى ميل الأنفس إلى الضلال ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ في بنية «التفعّل» إيماء إلى أن طرق الهدى بعد البيان آخذٌ محاسنها بمجامع القلوب، وأن الصادف عنها بعد ذلك قاهر لظاهر عقله وقويم فطرته، برجاسة نفسه واعوجاج طبعه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾.

وقال الحرالي: "لما كان لبس اليهود في الكتاب فصّل أمرهم في سورة: ﴿الم . ذلك الكتاب﴾ [البقرة: ١، ٢]، ولما كان اشتباه أمر النصارى في الإلهية بيّن ما تشابه عليهم في سورة: ﴿الم . الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم﴾ [آل عمران: ١، ٢] ولم يذكر أمر اليهود إلا مجملًا"، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا تحقيق لأن قتلهم لمجرد العدوان ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾.

ولما كان ربما قيل: إن لهؤلاء أعمالًا حسانًا، بين أنها صور لا معاني لها؛ لتضييع القواعد فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾.

ثم أخذ يدل على الحبوط وعدم النصر بما يشاهد من أحوالهم في منابذة الدين فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وأظهر موضع الإضمار فقال بدل «إليهم»: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ليدل على أن ضلالهم على علم، وأن الذي أوتوه منه: قراءتهم له بألسنتهم وادعاء الإيمان به ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ﴾ قال الحرالي: "في إمهاله ما يدل على تلددهم وتبلدهم؛ بما يوقعه الله من التحيّر على من دعي إلى حق فأباه، وفي صيغة «يتفعل» في قوله: ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ ما يدل على تكلف التولي لما عرفوه وكتموه.

﴿فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ فصار وصفًا لهم بعد أن كان تعمُّلًا، ما أنكر منكر حقًّا وهو يعلمه إلا سلبه الله علمه، حتى يصير إنكاره له بصورة من لم يكن قط علمه"، وفيه تحذير لهذه الأمة من الوقوع في مثل ذلك ولو بأن يدعى من حسن إلى أحسن منه، نبه عليه الحرالي وقال: "إذ ليس المقصود حكاية ما مضى: ما هو كائن فحسب بل خطاب القرآن قائم دائم". ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ وتطاول الزمان وهم على هذا الباطل حتى اطمأنوا إليه؛ لأنه ما كذّب أحد بحق إلا عوقب بتصديقه بباطل، وما ترك قوم سنة إلا أحيوا بدعة، على أن كذبهم أيضًا جرهم إلى الاستهانة بعذاب الله العظيم.

ولما نسبوا ذلك إلى الكتاب فجعلوه دينًا قال: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ قال الحرالي: "التوفية مخصوصة بوجود النفس التي تنفس فتريد وتختار وتحب وتكره، فمن سُلب النفْسَ بتحقق الإسلام ارتفع عنه التوفية، فلذلك اختص وعيد القرآن بالنفس في نفاستها وما تنشأ لها عليه من أحوالها وأفعالها ودعواها في ملكها، فمتى نفست فتملّكت أو تشرَّفت مُلكًا، خرجت عن إسلامها حتى ينالها سلب القهر منه"، ﴿مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥﴾.

ولما كان الإخبار أن الكفار سيغلبون ولا ناصر لهم عجيبًا، قال معلمًا أن الذي من شأنه أن يفعل ذلك مع بعض أعدائه جدير بأن يفعل أضعافه لأوليائه: ﴿۞قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ

﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ في الإيتاء إشعار بأنه تنويل من الله من غير غلبة ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ قال الحرالي: "فالملوك مملوكون بما ملكوا، وأعزاء الله ممكَّنون فيما إليه وُجِّهوا، فالذل والعزة في قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ متقابلان، فإذا كان ذلك العز من الله عوضًا عن سلب الملك، كان هذا الذل والله أعلم: ذل أهل الدنيا لدنياهم، فاستعملتهم أنفسهم في شهواتها، وأذلهم أتباعهم فتوسلوا بهم إلى قضاء أغراضهم في أهوائهم".

﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ لم يذكر الشر تعليمًا للأدب في خطابه، وترغيبًا في الإقبال عليه وحده، مع أن ملك الخير كله مستلزم لمثل ذلك في الشر؛ لأنهما ضدان كل منهما مساو لنقيض الآخر، فإثبات أحدهما نفي للآخر ونفيه إثبات للآخر ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾.

قال الحرالي: "لما كانت هذه الآية متضمنة تقلبات نفسانية في العالم الآدمي، اتصل بها ذكر تقلبات في العالم الدائر؛ ليؤخذ لكل منها اعتبار من الآخر"، فقال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فهو سبحانه من قدرته أنه يجعل كلَّ واحد من المتقابلين بطانةً للآخر، والجًا فيه على وجه لا تصل إليه العقول؛ لما فيها من افتراق المتقابلات ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾.

ولما اقتضى ذلك قصر الهمم عليه، وكان نصارى نجران يوالون ملوك الروم لمحض الدنيا، حذر المؤمنين من مداناة مثل ذلك مع كونهم مؤمنين، إشارة إلى أنه لا تجتمع موالاة المؤمنين وموالاة الكافرين في قلب إلا أوشكت إحداهما أن تغلب على الأخرى فتنزعها، فقال نتيجةً لما قبلها: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ تنبيهًا على أن ولاية أوليائه من ولايته، وأن المنهي عنه: الولاية التي قد توهن الركون إلى المؤمنين.

لأن في ذلك كما قال الحرالي: "تبعيد القريب وتقريب البعيد، والمؤمن أولى بالمؤمن كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» فأقواهم له ركن وضعيفهم مستند لذلك الركن القوي، وإذا اتخذ الكافرَ وليًا من دونه ربما تداعى ضعفه في إيمانه إلى ما ينازعه فيه من ملابسة أحوال الكافرين(١٨)، كما أنهم لما أصاخوا إليهم إصاخة أوقعوا بينهم سباب الجاهلية كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلوا خاسرين﴾ [آل عمران: ١٤٩]".

(١٨) لعله يريد: أن ضعف إيمانه قد يؤدي إلى ما ينازعُ إيمانَه من ملابسته أحوالَهم بسبب موالاتهم.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ أي: إلا أن تخافوا منهم خطرًا مجزومًا به، لا كما خافه نصارى نجران وتوهمه حاطب رضي الله عنه، فإن ركنتم إليهم أعرض الله عنكم ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ ولما كانت مصائب الدنيا قد تستهان قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ أي: وإن طال إملاؤه لمن أعرض عنه، فيوشك أن ينتقم منه.

قال الحرالي: "لما كانت الولاية والتقاة أمرًا باطنًا يترتب عليه فعل ظاهر فوقع التحذير فيه على الفعل، كرر التحذير على ما وراء الفعل مما في الصدور"، فقال: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ و ﴿يوم﴾ معمول لعامل من معنى «يحذّر» لأن قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ جاء سابقًا لـ«يوم» ولاحقًا، ولما كان تكرير التحذير قد ينفّر، بين أنه رأفة بالمحذَّرين فإنه نصب الأدلة والدعاة ورغّب ورهّب فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾.

ولما نهاهم عن موالاة الكفار وكان الإنسان ربما والاهم وهو يدعي محبة الله، وكان الإخبار بالرأفة ربما دعا إلى الاتكال فوقع الاشتباه في الحزبين، جعل له علامة فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ قال الإمام: "المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراضَ عن غيره"، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله ﷺ فهو كذاب بكتاب الله، فالنجاة إنما تكون بمحبة الله للعبد لا بمحبة العبد لله، فإنه ربما كان يظن أنه يحب الله والواقع ليس كما ظن؛ لكونه يعمل بما يسخطه سبحانه ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ قال الحرالي: "أي: لمن لم ينته لرتبة حب الله له، بما يوقعه من موجبات المغفرة والرحمة".

ثم بيّن أن الاتباع لا ينفع إلا مع الإذعان فقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ وقال الحرالي: "لما كانت رتبة الاتباع عليا وليتها رتبة الائتمار، فهو إما متبع على حب وإما مؤتمر على طاعة، فمن لم يكن من أهل الاتباع فليكن من أهل الطاعة"، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ أظهر الوصف إعلامًا بأن التولي كفر، قال: "أفرد الأمر لله في الوعيد إبقاءً لرسوله ﷺ في حيز الرحمة، وفي إلاحته: أن حب الله للعبد بحسب توحيده، وأن الكفر بحسب ما غطى من رتبة أدنى التوحيد؛ لأن هذه السورة إلهية حبية توحيدية، فخطابها مخصوص بما يجري في حكم ذلك من الإيمان والكفر والمحكم والمتشابه".

ولما كان الأصفياء أخص من مطلق الأحباب بين بعض الأصفياء وما أكرمهم به، أو يقال: لما ختم بالأمر باتباع الرسول، تشوفت النفس إلى معرفة الرسل الذين توجب مخالفتهم الكفر، فبينهم بقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ لا مزية لبعضهم على بعض، قال الحرالي: "فكما لم يقع فيمن سواه لبس من أمر الإلهية، فكذلك ينبغي ألا يقع فيه هو أيضًا لبس لمن يتلقّن بيان الإحكام والتشابه من الذي أنزل الكتاب محكمًا ومتشابهًا.

وقد عاد سبحانه بهذا الخطاب على أحسن وجه إلى قصة عيسى عليه السلام، الذي نزلت هذه الآيات كلها في المجادلة في أمره"، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ إشارة إلى أنه اصطفاهم على تمام العلم بهم ترغيبًا في الاقتداء بهم.

قال الحرالي: "لما كان ذِكر المصطفين توطئة لأمر عيسى عليه السلام اختص التفصيل بأمره دونهم، فأنبأ عن ابتدائه من قول أم مريم بقوله: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ وكان نذر الذكور هو المعهود في بني إسرائيل لصلاحهم لسدانة بيت الله والقيام به ﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ﴾ ولما كان حسن الإجابة على حسب إحاطة سمع الملتجأ إليه وعلمه قالت: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ كما قال سلفها عليهما السلام: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ في سلامته من العوارض المانعة من المكث في المسجد والقيام به، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله، أي: أن الذكر الذي أرادت ليس كالأنثى التي وُهبت بل هي أعلى؛ لأنها -مع ما لها من العلو في نفسها- ستلد أعظم أنبيائهم، ثم يكون مقرِّرًا لأعظم الشرائع في آخر الزمان، وأكدت شدة رغبتها في مضمون كلامها بقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ أي: العابدة بلسانهم.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ قال الحرالي: "وقد أنبأ سبحانه في هذه السورة من تقبل مريم عليها السلام وإنباتها وحسن سيرتها بما نفى اللبس في أمرها وأمر ولدها؛ لأن المقصود بهذه السورة: رفع اللبس الذي ضل به النصارى، فيذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمقصودها"، ﴿وَكَفَّلَهَا

﴿زَكَرِيَّآءُۖ﴾ قال: "في قراءة التشديد، إنباء بأن الله تعالى هو في الحقيقة كفيلها بما هو تقبلها"، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّآءُ ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ فأغناها هذا التقبل عن سواه.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ﴾ ولما لم يكن معهودًا قالت: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ لأن ما خرج من المعهود فهو من عنده، وما كان مستغربًا فهو من لدنه، فهي ثلاث رتب: لدنية وعندية وعادية، ولما أخبرت بذلك عللته بقولها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ قال الحرالي: "في تجديد الاسم العظيم إشعار بأن ذلك يكون لكَ ولمن شاء الله كما هو لي بما شاء، وأعظم الشكر لرزق الله: معرفة العبد بأنه من الله.

فلما أشهده سبحانه ذلك دعا ربه الذي عوّده بالإحسان أن يرزقه ولدًا في غير إبانه، كما رزق مريم رزقًا في غير زمانه"، فقال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّآءُ رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾.

ولما كان سبحانه عند ظن عبده به سمع دعاءه فقال: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ وهو موضع محاربة العابد للشيطان وهو أشرف الأماكن لذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ قال الحرالي: "مسمى بصيغة الدوام، مع أنه كما قيل: قتل، إشعار بدوام حياته الروحانية حيث قتل شهيدًا".

﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا﴾ قال في القاموس: "والحصور من لا يأتي النساء وهو قادر على ذلك أو من لا يشتهيهن"، والأول أولى لأنه أمدح له، ومهما دار الشيء على صفة الكمال في الأنبياء وجب ألا يعدل عنه، وإن كان النكاح أكمل كما وقع لنبينا ﷺ ﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾.

ولما فرغ مما للكافل أتبعه ما للمكفولة تنبيهًا على انخراطها في سلك ما مضى في خرق العادة، وأن تخصيصها بالإنكار أو التنازع مع الإقرار بأمرهم ليس من العقل فقال: ﴿۞وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ فدل

إخبارك بذلك مع نشأتك أميًا على أنه وحي منا، وجعل هذا التنبيه بين هذه القصص ليكون السامع على ذكر مما مضى، ويلقي السمع وهو شهيد لما بقي، وجعله بعد الافتتاح بقصة مريم تنبيهًا على عظم شأنها وأنها المقصودة للرد على وفد نصارى نجران.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ والتعبير بها أوفق لمقصود السورة وأنفى لما يدعيه المجادلون في أمره، وبين أن المراد بالكلمة: الفعل الذي يكون عنها فقال: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾ وزاد في نفي ضلالهم بقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وفيه تعظيم له وبيان لفضله على يحي عليهما السلام حيث لم يجعل له في البشارة به مثل هذا الذكر ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ إشارة لأمه بأنه ممنوع من أعدائه إذا قصدوه، وتنبيه على أن دعواهم لصلبه كاذبة.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فعبر بالخلق إشارة إلى أن العجب فيه لا في مطلق الفعل كما في يحي من جعل الشيخ كالشاب ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلوم الإلهية لتفيده تهذيب الأخلاق، فيفيض عليه قول الحق وفعله على أحكم الوجوه بحيث لا يقدر أحد على نقض ما يبرمه ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وتأخيره في الذكر يفيد تعظيمه بأن ما قبله مقدمات لتلقيه ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ ذكر هذه المعالجة لئلا يتوهم أنه خالق حقيقة.

ثم أكد ذلك إزالةً لجميع الشبه بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ وحّد الضمير أولًا لكون ما عده ظاهرًا لكل أحد على انفراده، وجمعه ثانيًا لئلا يقال: إنها ليست آية لكلهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٤٩﴾﴾ فإن التقوى مستلزمة لطاعة الرسول.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أنا وأنتم فيه سواء، لا أدعي أني إله ولا أدعو إلى عبادة غير الله كما يدعي الكذبة الذين تظهر الخوارق على أيديهم

امتحانًا من الله لعباده فيجعلونها سببًا للعلو في الأرض، وإلى هذا يرشد قوله عليه السلام: «من يتكلم من عنده إنما يطلب المجد لنفسه، فأما الذي يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق» [يوحنا: ١٨]، وإلى مثل ذلك أرشدت التوراة، فإنه جعل العلامة على صدق الصادق وكذب الكاذب الدعوة، فمن كانت دعوته إلى الله وجب تصديقه ومن كذبه هلك، ومن دعا إلى غيره وجب تكذيبه ومن صدقه هلك.

ولما كان قوله في أول السورة: ﴿يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ وقوله هنا: ﴿يخلق ما يشاء﴾ مغنيًا عن ذكر حملها طواه ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾ ولما كان المقصود ثباتهم معه إلى أن يتم أمره، عبر بصلة دلت على تضمين كلمةٍ توافق الصلة فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥١ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٢ وَمَكَرُواْ﴾ بالإضمار الصالح لشمول كل من تقدم له ذكر، أما مكر اليهود فمشهور، وأما الحواريون الاثنا عشر فدلالة أحدهم عليه كما قيل.

ثم اضمحل مكرهم بقوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ بأن رفعه إليه وشبّه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه وإنما صلبوا أحدهم، ويقال: أنه الذي دلهم، وسيُنزله في آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضرب عليهم الذلة بقصدهم أذيته وطلبِهم بها العز، فكان تدميرهم في تدبيرهم وذلك أخفى الكيد ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٣﴾.

فقال تعالى مخبرًا عن ذلك: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لم يقل: وأما الذين اتبعوك؛ لأن هذه ترجمتهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَنُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٦﴾.

ولما بيّن من أمر عيسى ما لم يدع شكًا ولا شبهة، قال منبهًا على عظمة هذه الآيات: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٧﴾.

ثم أكد ظلمهم وصور حكمته بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ في الإبداع من غير أب، بل أمر آدم أعجب فإنه بلا أب ولا أم، ولذلك فسر مثله بأنه ﴿خَلَقَهُۥ مِن

تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٨﴾ فكل ولد كائنًا من كان إنما يكون بقول الله له ذلك، لا فرق عنده في شيء من ذلك ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٥٩﴾.

ولما لم يبق بعد الهذا البيان إلا العناد قال: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦٠﴾ ولما كان العلم الأزلي حاصلًا بأنهم يكفون عن المباهلة وكان ذلك قاطعًا لدعواهم، حسن تعقيب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦١﴾ أتى فيهما بالحصر؛ لخفاء نفي العزة والحكمة عن غيره تعالى بخلاف الحياة والقيومية، ولما ثبت تفرده بهما عُلم أنه لا إلٰه إلا هو ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٢﴾.

ولما نكصوا عن المباهلة فانقطعوا، أظهر النتيجة بالدعوة إلى الكلمة التي قامت البراهين عليها فقال: ﴿۞قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٣﴾.

ولما علم أهل الكتاب محبةَ العرب لأبيهم إبراهيم عليه السلام، ادعى كل منهم أنه كان على دينهم؛ لاجتذاب المسلمين إلى ضلالهم، ولم يكن لذلك ذكر في كتابهم، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٤﴾ ولا يأتي مثله في دعوى أنه مسلم؛ لأن الإسلام -الذي هو الإذعان للدليل- معنى قديم من حين خلق الله العقل.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٥ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ قال الملوي في حصن النفوس: "واليهودي: من آمن بموسى والتزم أحكام التوراة، والنصراني: من آمن بعيسى والتزم أحكام الإنجيل، ثم صار اليهودي: من كفر بما أنزل بعد موسى، والنصراني: من كفر بما أنزل بعد عيسى، والحنيف: المائل عن كل دين باطل، والمسلم: المطيع لأوامر الله في أي كتاب أنزلت"، وفي ذكر الوصفين تعريض بأنهم في غاية العناد واليبس على المألوفات وترك البينات ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٦﴾.

ثم أخذ يبين نتيجة لما مضى من هو أقرب إلى إبراهيم عليه السلام ممن جاء بعده، وهو من اتبعه في التوحيد والانقياد للدليل، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ لم يقل: وليهم؛ تعميمًا وإعلامًا بالوصف الموجب للتقريب وهو العراقة في الإيمان، ترغيبًا لمن لم يبلغه في بلوغه.

ثم أعرب عن مرادهم بدعواهم مع علمهم بمخالفتها لصريح العقل فقال: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: من شأنها أن تطوف حولكم طواف التابع المحب مكرًا وخداعًا ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بأن تأولوه بغير تأويله ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ الذي لا يقبل تأويلًا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ولما ذكر لبسهم دل عليه بقوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوله لأن مرادهم التلبيس بظاهر لا باطن له في جزء يسير جدًا ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ ليظنوا أنه لا غرض لكم إلا الحق وأنه ما ردكم عن دينهم إلا ظهور بطلانه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ثم أمره أن يعجب من حالهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: أفعلتم الإيمان على تلك الصورة خشية ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: فلا يحتاج إلى تنبيه أحد بمحاجتكم عليه عنده.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ لئلا يظن أن اختصاص البعض بالرحمة لضيقها عن العموم ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم قال مقررًا لكتمانهم للحق بأن الخيانة ديدنهم في الأعيان الدنيوية والمعاني الدينية، منبهًا على أنهم وإن شاركوا الناس في انقسامهم إلى أمين وخائن فهم يتديّن خائنهم بخيانته، مادحًا للأمين منهم: ﴿۞وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ ولما كان إثبات الإثم ونفيه لا يُعرف إلا منه تعالى، قال مبينًا تضمن قولهم للكذب عليه: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ بَلَىٰ﴾ أي: عليكم في خيانتهم سبيل؛

لتحريمها في كل شرع على كل أحد ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أظهر الوصف لتعليق الحكم به وإشعارًا بأنه العلة الحاملة له على الأمانة.

[ولما كانت الخيانة في أموال الناس لا تتمشى إلا بالأيمان الكاذبة، وكان قد ذكر خيانتهم في الأموال، ذكر في هذه الآية خيانتهم في عهد الله وفي تعظيم أسمائه فقال](١٩): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾.

ولما نسبهم إلى الكذب عمومًا نبه على نوع خاص منه هو أكذب الكذب فقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولما كان لكلام الله حلاوة لا يلتبس بغيره عبر بالحسبان استبعادًا له فقال: ﴿لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تجاوزًا إلى كذب أعظم منه ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أظهر الاسم الأعظم ليدل على أن ما لم يكن من عنده فلا حق فيه بوجه ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: العام كما قالوا عليه هذا الكذب الخاص ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

ولما كان الكذب على الله يقتضي الكذب على الأنبياء؛ لأنهم المبلغون عن الله تعالى، وكانت نسبة القول إليهم تقتضي ادّعاء دعوة النبي إلى عبادته؛ لأنه -بزعمهم- المشرّع لذلك من دونه سبحانه، شرع يبين كذبهم في ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: تابعين طريق الرب بكمال العلم المزيَّن بالعمل، فإن الرباني هو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فإن فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل.

ولما أثبت أن الحكيم من البشر لا بد أن يكون داعيًا إلى الله لا إلى نفسه لتظهر حكمته، أثبت أن ذلك لا بد وأن يكون على وجه الإخلاص؛ لأن بعض الشياطين يُبعِد التهمة عن نفسه بالدعاء إلى غيره على وجه الشرك، لا سيما إن كان ذلك الغير ربانيًا كعيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١٩) مفاتيح الغيب، ٤/ ٣١٤ - ٣١٥، بتصرف.

ولما بيّن سبحانه أن التولي عن الرسل كفر، ذكر قانونًا كليًا لتمييز الرسول الصادق عن الكاذب فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أي: عهدي، سمي بذلك لما فيه من الثقل ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٠ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨١﴾.

ولما كان منهم من تولى ففسق، سبب عن ذلك قوله: ﴿۞أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٢﴾.

ثم بيّن ما يكون به الإسلام فقال: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ ولما كان ما ناله صاحبا شريعة بني إسرائيل من الكتاب والمعجزات أعظم مما كان لمن قبلهما، غيّر السياق فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ تنبيهًا على الموضع الذي كفر به اليهود والنصارى ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٣﴾ ولما كان هذا هو الإسلام، قال محذرًا من الردة عنه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٤﴾.

ثم شرع يستدل على استحقاقه للخسار بقوله: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٦﴾ حتى إنهم ليلعنون أنفسهم، فإن الكافر يُطبع على قلبه فيظن أنه على هدى فيلعن الكافر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٧﴾.

ولما رغّب بالتوبة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٨﴾ رهّب من التواني عنها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأن الله تعالى يطبع على قلوبهم فلا يتوبون توبة نصوحًا، أو: لن توجد منهم توبة أصلًا لأنهم تمادوا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٨٩﴾.

ثم ذكر حالهم في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ويجوز أن يكونوا ثلاثة: التائبون توبة صحيحة، والتائبون توبة فاسدة، والواصلون كفرهم بالموت من غير توبة، ولذا قال: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ «لو» في مثل

هذا السياق تنبّه على استقصاء ما قبلها، وأن ما بعدها نُصَّ عليه لئلا يظن عدم دخوله، وإنما اقتصر على ملء الأرض لأنه أكثر ما يدخل تحت أوهام الناس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩٠﴾.

ولما أخبر بأن الإنفاق لا ينقذ من مات على الكفر، عرَّف بالإنفاق النافع فقال: ﴿۞لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ٩١ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

ثم عاد يخبر بكذب أهل الكتاب بأمر حسي فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ ولما كان هذا إلزامًا لليهود باعتقاد النسخ الذي طعنوا به في هذا الدين ليصير عذرًا لهم في ترك الاتباع فكانوا يقولون: لم تزل الشحوم وغيرها حرامًا، أجابهم بقوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾.

ولما اتضح كذبهم وتدليسهم قال: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ في كل قوله فوجب اتباعه في كل أمره، وأعظمه ملة إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وهي الإسلام، وهو معنى قوله: ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ أي: تابعًا للحجة إذا تحررت ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾.

ثم أخبر عن البيت الذي هو أعظم شعائر إبراهيم عليه السلام التي كفروا بتركها فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾.

ولما أتم الدلائل ولم يذعنوا بل زادوا طغيانًا قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان كفرهم ظاهرًا ذكر شهادته فقال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨﴾ ثم ذكر أنهم زادوا مع الكفر التكفير فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾ باستقامتها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾.

ولما آذن بالسخط على أعدائه أقبل على أحبائه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ ثم عجّب من طاعتهم لهم مع ما هم عليه بعد اتباع الرسول ﷺ من الأحوال الشريفة فقال: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ نُقل عن أبي الحسن الشاذلي أن هذه الآية في أصل الدين وهو التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن: ١٦] في فروعه.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طريقه، وأصل الحبل: السبب الموصل إلى البُغية، وكل من يمشي على طريق دقيق زَلِق إذا تمسك بحبل مشدود أمن من السقوط، وقد جاءت الأخبار بدقة الصراط، ومثال دقته: ما في هذا الدين من شدة على النفوس لما لها من النوازع والحظوظ، فمن حفظ نفسه بالتمسك بحبل الله حُفظ عن السقوط ﴿جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولما كان السياق لبيان دقائق الكفار في إرادة إضلالهم، ختم الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾.

ولما عاب الكفار بالضلال ثم بالإضلال، أمر المؤمنين بالهدى في أنفسهم ثم بهداية غيرهم بالاجتماع فقال: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ أي: جماعة تصلح لأن يقصدها الناس حتى تكون أشد شيء اجتماعًا ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ ثم خص منه: ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ ليكون مأمورًا به مرتين دلالة على جلالته ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ فبين سبحانه أن الاجتماع المأمورَ به إنما هو بالقلوبِ الجاعلةِ لهم كالجسد الواحد.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ بما ابتدعوه في أصول دينهم وارتكبوه من المعاصي فقادهم ذلك -ولا بد- إلى التخاذل والتواكل والمداهنة التي قصدوا بها المسالمة فجرتهم إلى المصارمة، ولما كان التفرق ربما كان بالأبدان مع الاتفاق في الآراء، بين أن الأمر ليس كذلك فقال: ﴿وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ وزاد اختلافهم تقبيحًا بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾.

ثم بين يوم العذاب فقال: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ بدأ بهم لأن النشر المشوش أفصح، ولأن المقام للترهيب والنكاية ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾. ولما حازت هذه الآيات قصب السباق، أشار إليها بأداة البعد وأضافها إليه فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾.

ولما كان أمْرهم بالإقبال عليه ونهيهم عن الإعراض عنه ربما أوهم الحاجة، أزال ذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ١٠٩﴾.

ولما كان منها: هدايته وإضلاله من يشاء قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم بين وجه الخيرية فقال: ﴿تَامُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ولو وصل الأمر إلى القتال، مبشرًا لهم بأنهم يمتثلون ما أمرهم به في قوله: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ ﴿وَتُومِنُونَ بِاللَّهِۗ﴾ وهذا يُفهِم أن من لم يؤمن كإيمانهم فليس من هذه الأمة؛ لأن الكون المذكور لا يحصل إلا بجميع ما ذكر ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ﴾ ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُومِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠﴾.

ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة، خفف عن أوليائه بقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ ولما أخبر بذلهم أتبعه الإخبار بدوامه؛ معاملة منه لهم بضد ما أرادوا، فعوّضهم عن الحرص على الرئاسة: إلزامهم الذلة، وعن الإخلاد إلى المال: إسكانهم المسكنة، فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمِ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ أي: عهد وثيق مسبِّب للأمان ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمِ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ هو أبلغ مما في أولها وما في البقرة(٢٠)؛ ليكون ذمهم على سبيل الترقي كما هي قاعدة الحكمة.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ١١٢﴾ أي: يجددون تكلّف الاعتداء، فإن الإقدام على المعاصي يهوّن الكفر، قال الأصفهاني: "قال أرباب المعاملات: من ابتُلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفرائض، ومن ابتلي بترك الفرائض وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر"، والآية دليل على مؤاخذة الابن الراضي بذنب الأب وإن علا.

ولما كان السياق ربما أفهم أنهم كلهم كذلك، قال نافيًا لذلك: ﴿۞لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ ثم ذكر الحامل على ذلك فقال: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣﴾. ثم ذكر ما أثمر لهم التهجد فقال: ﴿يُومِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وكرر الاسم الأعظم

---

(٢٠) أولها: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق﴾ الآية: ٢١، وما في البقرة: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ الآية: ٦١.

إشارة إلى استحضارهم لعظمته ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: إيمانًا يصدّقونه بالعمل الصالح، ولما وصفهم بالاستقامة في أنفسهم وصفهم بأنهم يقوّمون غيرهم فقال: ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن تُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾.

ولما رغّبهم في الإنفاق الذي قدّم أنه صفة المتقين، وكان مما يمنع منه خوف الفقر والنزول عن حال الموسرين من الكفار المفاخرين بالإكثار المعيِّرين بالإقلال وقوفًا مع الدنيا، قال واصفًا أضداد من تقدم، نافيًا ما يعتقدون من نفع أعمالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾.

ثم بيّن حال ما يفعلونه من المكارم بقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ لتضييعهم وجه القبول وهو الإخلاص ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالبناء على غير أساس الإيمان ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ ثم قال دفعًا لتوهم أن ذلك بخس: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أما الممثَّل لهم: فبكونهم أنفقوا على غير الوجه الذي شرعه، وأما الممثَّل بهم: فبكونهم لم يحرسوا زرعهم بالطاعات ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ ولما كان الممثل لأجلهم أعم من أن يموتوا على الظلم أو يسلموا، لم يعبّر بفعل «الكون».

ولما كان الجمال والمال من أعظم المرغبات في الموالاة، قال تعالى منبهًا على مكر ذوي الأموال والجمال، الذين يريدون إيقاع الفتنة بهم ليضمحل أمرهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيمانًا مصدَّقًا بالعمل الصالح الذي من أعظمه الحب والبغض في الله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ عبر بذلك إعلامًا بأنهم ينزلون أنفسهم عن علي درجاتهم بموادتهم ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ مع اجتهادهم في إخفائها؛ لأن الإنسان إذا امتلأ من شيء غلبه بفيضه، ولكنكم لحسن ظنكم لا تتأملونها ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ مما ظهر غلبةً.

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ﴾ أي: لاغتراركم بإقرارهم بالإيمان لصفاء بواطنكم، والاستفهام للتوبيخ المراد به التهييج؛ لأن المؤمن كيّس فطن ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ فإنهم كاذبون في إقرارهم ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ويكفرون هم به كله، إما بالقصد الأول وإما بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ﴿وَإِذَا

لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ لتغتروا بهم ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾.

ثم بيّن بغضهم وشدة عداوتهم بدليلٍ مشاهَد فقال: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ ثم جلّى هذا الخبر بذكر أحوالهم من النصر لما صبروا واتقوا، وعدمه لما تركوا ذلك، وأحوال عدوهم التي أخبر عنها فقال: ﴿۞وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ ولعله إنما خص غزوة أحد بالذكر دون ما نُصروا فيه؛ لأن الشماتة بالمصيبة أدل على البغضاء والعداوة من الحزن بما يسر.

ولما كان رجوع عبد الله بن أبيّ المنافق بطائفته سببًا في همّ الطائفتين من الأنصار بالفشل، كان إيلاء هذه القصة للنهي عن اتخاذ بطانة السوء في غاية المناسبة، ولذا افتتحها سبحانه بقوله مبدلًا من ﴿وإذ غدوت﴾: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ وناصرهما؛ لأنهما مؤمنتان فلا يتحقق الفشل منهما ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ وهي من الاحتباك، فيكون أصل نظمها: والله وليهما لتوكلهما فلم تفشلا، فتولوا الله وتوكلوا عليه ليصونكم من الوهن، فالأمر بالتوكل ثانيًا دال على وجوده أولًا، وإثبات الولاية أولًا دال على الأمر بها ثانيًا.

ولما كانت إصابة الكفار للمسلمين في هذه الغزوة ربما شكّكت من لم يحقق بواطن الأمور، ذكّرهم تعالى بنصره لهم في غزوة بدر وهم في القلة دون ما هم الآن بكثير، مشيرًا لهم إلى ما أثمره توكلهم من النصر حثًا على ملازمته فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ وبنصرهم في أحد أول النهار عند صبرهم، وبإدالة العدو عليهم عند فشلهم آخره، على أن النبي ﷺ لم يرجع من أحد إلا بعد انصرافهم، وأما المشركون فرجعوا ولم يلووا على قتلاهم وهم من سرواتهم وحمّال راياتهم.

ويمكن أن تكون هذه القصة مندرجة في حكم النهي عن طاعة فريق من أهل الكتاب؛ لأن همّ الطائفتين بالفشل إنما كان من أجل رجوع ابن أبيّ حليف أهل الكتاب، ويؤيده نهيه في أثنائها عن مثل ذلك بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم﴾ [الآية: ١٤٩] الآية.

ولما امتن عليهم بالنصرة أمرهم بالتقوى إشارة إلى أنها السبب لدوام النعمة فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢٣﴾ قال ابن هشام في السيرة: "المعنى: فاتقوني فإنه شكر نعمتي"، ويجوز أن يكون: لعلكم تزدادون نعمًا فتشكرون عليها، إقامةً للمسبَّب مقام السبب، والله أعلم ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾.

ولما كان الإمداد بهم ليس موجبًا للنصر، قال قاصرًا الأمر عليه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ ولما كانت الهزيمة في هذه عليهم قال: ﴿لَكُمۡ﴾ لئلا يتوهم أنه بشرى لضدهم، ولمثل هذا قدم القلوب فقال: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا بمدد ولا غيره، فلا تجدوا في أنفسكم من رجوع من رجع ولا تأخر من تأخر ولا هزيمة من انهزم ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ الذي يضع الأشياء في أتقن محالها، فمتى التفت أحد إلى سواه وكله إليه فخُذل. ولما قرر الوعد ذكر ثمرته فقال: ﴿لِيَقۡطَعَ﴾ بالقتل ﴿طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: طائفة من كرامهم ويهزم الباقين ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أي: يردهم بغيظهم مع الخزي ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ۝١٢٧﴾.

ولما كان ﷺ حريصًا على طلب الإدالة عليهم ليمثِّل بهم كما مثلوا بعمه حمزة وعدة من أصحابه رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ بل الأمر له كله، إن أراد فعل بهم ما تريد أو منعك منهم بالتوبة عليهم أو إماتتهم حتف الأنف فيتولى هو عذابهم، وذلك معنى قوله: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾. وبين قدرته على فعل ما يريد بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ ولما كان ﷺ لشدة غيظه عليهم في الله جديرًا بالانتقام منهم، أشار له إلى العفو للحث على التخلق بأخلاق الله الذي سبقت رحمته غضبه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٩﴾.

ولما كان هذا الختم ربما أطمع في انتهاك الحرمات لاتباع الشهوات، وكان أعظم المقتضيات للخذلان: تضييعهم للثغر الذي أمرهم النبي ﷺ بحفظه لإقبالهم على الغنائم للزيادة في الأعراض الدنيوية المشار إلى ذمها في قوله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ [آل عمران: ١٤]، وكان الربا في اللغة هو مطلق الزيادة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ ناهٍ عن

الالتفات إلى الدنيا بالإقبال على غنيمة أو غيرها إقبالًا يوجب الإعراض عن الآخرة باستباحة أكل الربا الموجب لمن لم يتركه وما يقاربه: الضمان بالخذلان في كل زمان(٢١).

ولما كان سبب الهزيمة طلبهم الزيادة بالغنيمة، وكان حب الزيادة حلالًا قد يجر إلى حبها حرامًا فيجر إلى الربا المضاعف؛ لأن من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه قال: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ فهو نهي عن الربا بصريح العبارة، وتحذير من أن يعودوا إلى ما صدر منهم من الإقبال على الغنائم قبل انفصال الحرب بطريق الإشارة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾.

ولما نهى عما منع النصر، أمر بما تضمن الفوز بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾. ثم وصفهم على وجه معرّف بأسباب النصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

ثم أخذ يشجعهم على جهاد المفسدين بالأمر بمشاهدة مصارع الماضين مع أنهم كانوا أشد، فقال: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ أي: وقائع سنها الله في القرون الماضية في المؤمنين والمكذبين، وأحوال كانت للفريقين ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كان الرجوع عن الهفوة واجبًا على الفور، عقب بالفاء قوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾.

ولما تكلفت هذه الجمل بالهداية إلى سعادة الدارين نبه على ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾.

ولما أمرهم بالمسارعة نهاهم عما يعوق عنها فقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ أي: إن كان إيمانكم راسخًا كما لم يهن من سيقص عليكم نبأهم؛

---

(٢١) لأنه -والله أعلم- علامة على حب الدنيا الجالب للوهن الموجب للهزيمة، كما قال ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم» إلى أن قال: «وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

لأنكم بين إحدى الحسنيين، أما في الدنيا فلأن دينكم حق ودينهم باطل، وأما في الآخرة فلأنكم في الجنة وهم في النار.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ فكما لم يضعفهم وهنهم وهم على الباطل، فلا تضعفوا أنتم وأنتم على الحق ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ﴾ ولما كانت الأيام إنما تعظم بعظم أحوالها، ذكر الحال المنبَّه عليها بقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يبرز ما يعلمه غيبًا إلى عالم الشهادة؛ ليقيم الحجة على الفاعلين ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ فهو لا يستشهدهم وإنما يجعل قتلهم أول خيبتهم وعذابهم ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إن أصيبوا، ويجعل مصيبتهم سببًا لقوتهم ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ أما إذا كانت لهم فبالنقص بالقوة بالبطر الموجب للعكس، وأما إذا كانت عليهم فبالنقص بالفعل الموجب للقطع بالنار.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ عند المصائب، فإن ذلك أعظم دليل على الوثوق بالله ووعده. ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: الحرب، عبر عنها به لأنها سببه، ولقد تمنى بعضهم الموت نفسه بتمني الشهادة ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾. [ثم قال عطفًا على الإنكار المتقدم في قوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾][22]: ﴿۞وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ بترك ما شرعه له نبيه أو التقصير فيه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾.

ولما كان موت الرأس من أنصار الدين لا يصلح سببًا للفرار، وكان الفرار لا يكون سببًا في زيادة الأجل ولا نقصه، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ فمن أقدم شكرته ولم يضره الإقدام، ومن أحجم ذمته ولم ينفعه الإحجام، ولما كان الحامل على الإقدام إيثار ما عند الله، والحامل على الإحجام إيثار الدنيا قال: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾.

ثم أخذ يؤسِّيهم بطريق من قبلهم ويسليهم فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا﴾ تسبب عن قتل نبيهم أو قتلهم أن الباقين ﴿وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا

(٢٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٠٩.

ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾ أي: وما خضعوا لأعدائهم فطلبوا أن يكونوا تحت أيديهم، تعريضًا بمن قال: اذهبوا إلى أبي عامر الراهب ليأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، بل صبروا فأحبهم الله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: التي استوجبنا بها الخذلان، فنسبوه إلى أنفسهم، وهذا كما وصف به المتقين قبلُ من قوله: ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ [آية: ١٣٥] ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ إشارة إلى أن الرعب من نتائج الذنب، والثبات من ثمرات الطاعة.

ثم أشاروا إلى أن قتالهم إنما هو لله لا لحظ من حظوظ النفس بقوله: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولما كان ثوابها لا بد أن يشاب بالكدر لأنها دار الأكدار، خص وصف الحسن بالآخرة فقال: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ﴾ أي: مجازًا بتوفيقهم إلى الأسباب في الدنيا، وحقيقة في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾.

ولما أمر بطاعته الموجبة للنصر والأجر، حذّر من طاعة الكافرين المقتضية للخذلان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ بتعكيس أحوالكم ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ بسخط الله عليكم، وصَغاركم تحت أيدي أعدائكم، وخلودكم في العذاب في الأخرى، ولما نفى صلاحهم للولاية قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ فنصره لا يساويه نصر أحد، وقرر ذلك بقوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ المقتضي للجرأة عليهم وعدم الوهن في أمرهم ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾.

ثم ذكّرهم بنصره لهم أول هذه الوقعة مدة تلبسهم بالصبر والتقوى فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ ولما ذكر الفشل عطف عليه سببه فقال: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من حَسِّهم وهزيمتهم.

ثم علل هذا العصيان من بعضهم بقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ﴾ في ثباتكم على الدين في حالَي السراء والضراء ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥٢ ۞إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ عبّر بالثواب وإن كان في صورة العقاب؛ لأنهم سروا حين تبين أن مقتل النبي ﷺ خبر كاذب ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا

﴿أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ لاشتغالكم عن ذلك بالسرور بحياة الرسول ﷺ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ من خير وشر، وبما يصلح من جزائه ودوائه، فتارة يداوي بالداء وتارة بالداواء.

ولما كان أمانهم بعد ذلك بعيدًا وفي ذلك المحل الضنك ولا سيما بالنعاس الذي هو أبعد شيء عن ذلك، عطف بأداة البعد في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ دليلًا على الأمنة؛ فإنه لا يكون إلا من أمن ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ لا الدفاع عن الدين، يطلبون خلاصها ولا يستطيعون لشدة جزعهم، فعوقبوا بأن لم يحصل لهم الأمن المذكور، ثم فسر همهم فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: من أن نصره بعد هذا لا يمكن أو أنهم لو قعدوا في المدينة لم يقتل أحد، ونحو ذلك من فاسد الظنون التي فتحتها «لو» والأوهام ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ أي: الذين لا يعلمون من عظمة الله وقدرته ما يعلمه أتباع الرسل.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ ظنًا منهم أن الحذر يغني من القدر، فرد عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ من الإيمان والنفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ أي: يطهرها من الوساوس الصارفة عن المراقبة من محبة الدنيا التي كانت سبب الهزيمة وغيرها، وختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ دافعًا لتوهم أن الابتلاء لعدم العلم بالخفايا.

ثم قال مبينًا لبعض ما هو من ثمرات العلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ أي: من الذنوب، فإن القتال إنما هو بالأعمال، فمن كان أصبر في أعمال الطاعة كان أجلد على قتال الكفار ولم يكن توليهم عن ضعف في نفس الأمر ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ وأعاد الاسم الأعظم تنبيهًا على أن الذنب عظيم والخطر بسببه جسيم، فلولا الإحاطة بصفات الكمال لعوجلوا بالنكال فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾.

ولما كان قولهم: لو ثبتنا في المدينة لسلمنا، مظنة لأن يخدع كثيرًا من المؤمنين لشدة حبهم وأسفهم على من قُتل منهم، بادر إلى الوعظ بما يزيل هذا الأثر فنهاهم عن الانخداع بأقوالهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي

ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا في غاية التهكم بهم؛ لأن إطلاق هذا القول منهم لا سيما على هذا التأكيد، يلزم منه ادعاء أنه لا يموت أحد في المدينة، وهو لا يقوله عاقل ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ أي: باعتقاده وعدم المواسي فيه ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾.

ثم بيّن لهم ثمرة فوات أنفسهم في الجهاد؛ ليكون ذلك مبعدًا لهم مما قال المنافقون، موجبًا للتسليم ومحببًا في الجهاد فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾ فلا حيلة في دفع الموت ولا في الحشر إليه سبحانه، وأما الخلاص من هول ذلك اليوم فحيلته بالطاعة.

ولما فرغ من وعظهم وكان النبي ﷺ قد لقي من بعضهم في هذه الغزوة ما يوجب الغضب والإيقاع ببعضهم لينزجروا عن العود إلى مثله قال: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ ولم تعنفهم بانهزامهم عنك بعد إذ خالفوا رأيك وهم كانوا سببًا لاستخراجك، ثم بيّن ثمرة هذا اللين المتين ببيان ما في ضده من الضرر فقال: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ تألفًا لهم وتطييبًا لنفوسهم ليستن بك من بعدك، ولما أمر بالمشاورة التي هي النظر في الأسباب، أمر بالاعتصام بمسببها من غير التفات فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ فلا يفعل بهم إلا ما فيه إكرامهم وإن رُئي غير ذلك.

ثم أخبر بما يقبل بقلوبهم إليه ويقصر هممهم عليه فقال: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾.

ولما كان الغلول من أعظم موجبات الخذلان، والنزاهة عنه من أعظم موجبات النصر، وكان أخذهم للغنائم قبل وقتها: إما لإخفائها أو خوفًا ألا يقسمه ﷺ بينهم على السواء وحاشاه، وأما النهب لغير هذا القصد فطيش، أعقبها بقوله: ﴿۞وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ وقد يكون التقدير بعد الأمر بالتوكل: فلا تأتوا بما يقدح فيه كالغلول وما يدانيه فتخذلوا ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾.

ثم أنكر على من ظن غير ذلك من استواء حال المحسن وغيره فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ

﴿بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ فكيف يتخيل أنه يساوي بينهم في المآل وقد فاوت بينهم في الحال وهو الحكم العدل!

ولما بان بهذه المراشد قدر من أسداها إليهم على لسانه ﷺ، نبّه على ذلك ليستمسكوا بغرزه ولا يلتفتوا لحظة عن لزوم هديه فقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ وفيها أنه ﷺ علّمهم من الحكمة في هذه الوقعة ما أوجب نصرتهم في أول النهار، فلما خالفوه خُذلوا.

﴿أَوَلَمَّآ﴾ تركتم ما أرشدكم إليه رسوله ﷺ فحصل أن ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ لأن الوعد كان مقيدًا بالصبر والتقوى، وقد تركتم المركز وأقبلتم على الغنائم قبل الأمر به، ولما كانت نسبة المصيبة إليهم ربما أوهمت من لم ترسخ قدمه في المعارف الإلهية أن بعض الأفعال خارج عن مراده تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾.

ولما كان قولهم هذا ظاهرًا في نفاقهم قال: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ عبّر بها؛ لأن قولهم أقرب إلى أصوات الحيوان منه إلى كلام الإنسان ذي العقل واللسان؛ لأنهم يقولون بها ﴿مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ بل لا شك عندهم في وقوع القتال ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي: لأجلهم، والحال أنهم قد أسلموهم ﴿وَقَعَدُواْ﴾ عنهم خذلانًا لهم ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾.

ولما عُلم بذلك وبما تقدم أنه لا مفر من القدر، فلم يبقَ إلا الأسف الطبيعي على الفقد، وكان سرور المفقود يبرد غلة الموجود، بشرهم بقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والله أعلم بمن يُقتل في سبيله ﴿أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: المحسن إليهم في كل حال، فكيف في حال قتلهم فيه؟

وحقق حياتهم بقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ لأنه لو حاسبهم على أقل نعمة من نعمه لم توف جميع أعمالهم بها؛ لأن أعمالهم من نعمه، فكان ذلك مذهبًا لحزن من خلفوه، ومرغبًا في الأسباب الموصلة إلى مثل حالهم، وهذا -والله أعلم- معنى الشهادة، أي: أنه ليس لهم حال غيبة؛ لأن دائم الحياة بلا كدر كذلك ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾.

ثم أخذ يذكّر ما أثمر لهم إيمانهم من المبادرة إلى إجابته ﷺ إشارة إلى أنه لم يتخلف عن أمره من غير عذر إلا صريح النفاق، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ ولما كان تعليق الأحكام بالأوصاف حاملًا على التحلي بها عند المدح قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: قريشًا ﴿قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ وهذا التعبير أمدح للصحابة من التعبير عمن أخبرهم ومن جمع لهم بخاص اسمه أو وصفه ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ لأنه ما ثناهم عن طاعة الله ورسوله ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾.

ولما كان اعتمادهم على الله تعالى سببًا لفلاحهم قال: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ﴾ مع ذلك ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ على من يرضيه.

ثم أخبرهم أن المخوِّف لهم: مَن كيدُه ضعيف وأمره سخيف وهو الشيطان فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ القائل الذي تقدم أنه الناس ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ نسب القول إليه لأنه الذي زينه لهم حتى أُشرِبته القلوب ﴿يُخَوِّفُ﴾ أي: يخوفكم ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ لكنه أسقط المفعول الأول إشارة إلى أن تخويفه يؤول إلى خوف أوليائه، وإلى أن من خاف من تخويفه وعمل بموجبه ففيه ولاية له تصحح إضافته إليه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾.

ولما كان أكثر الناس أرجفوا وثبّطوا، وكان ذلك مما يخطر بالبال تمادي أيام الكفر وأهله فيوجب الحزن قال: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي: دينه بإذلال أنصاره ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ قد عم جميع ذواتهم؛ لأن المسارعة دلت على أن الكفر ملأ نفوسهم.

---

(٢٣) "لقيهم أبو سفيان، فضمن لهم ضمانًا لتخويف النبي ﷺ وأصحابه" [زاد المسير: ١/ ٥٠٤].

ولما كان قبول نُعيمٍ وركبِ عبد القيس لهذا الجُعْل من شري الكفر بالإيمان قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾ لما نالوه من لذة العوض في ذلك الشري. ولما كان مما اشتُري به الكفر رجوع المنافقين عن أحد قال: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ ولما كان رجوعهم آمنين مظنة عزهم، عوّضهم بالإهانة الدائمة فقال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾.

ولما كان مطلق المسارعة أعم مما بالعوض، وهو أعم مما بالرجوع، جاء نظم الآيات على ذلك، ولما كشفت هذه الوقعة جملة من المغيَّبات من أعظمها تمييز المخلص من غيره قال: ﴿۞مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ بأن يفضح المبطل وإن طال ستره، بتكاليف شاقة وأحوال شديدة لا يصبر عليها إلا المخلص ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ ولما تسبب عن هذا وجوب الإيمان به قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ أي: في أنه أرسلهم، وفي أنهم صادقون في كل ما يخبرون به عنه ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾.

ولما كان من جملة مباني السورة الإنفاق، ذم الله الباخلين بالأنفس والأموال في سبيل الله فقال: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ثم أخبر بغناه عن إنفاقهم على وجه يحث عليه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: اللذين هذا مما فيهما، ولما كان البخل من الأفعال الباطنة التي يستطاع إخفاؤها ودعوى الاتصاف بضدها، ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ وقدم الجار إشارة إلى عظمة علمه بأعمالهم، ولأنه أبلغُ في الوعيد.

ثم دل على خُبره: بسماع ما يورده المشككون لأهل الإسلام من الشبه، قياسًا على ما يعرفونه من أنفسهم من أنه لا يطلب الإنفاق إلا محتاج فقال: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ وهذا رجوع إلى إتمام ما تقدم قبل هذه القصة من بغض أهل الكتاب لأهل هذا الدين وحسدهم وإرادة تشكيكهم للرجوع عنه.

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ وأتبع اجتراءهم على الخالق: اجتراءهم على أشرف الخلائق فقال: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ فهو أذمّ من التعبير بالمضارع ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ﴾ كما كنتم

تذوقون الأطعمة ولا تؤدون حقوقها ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾.

ولما كان القربان من جنس النفقات أتبعه قولهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ وفيه دليل على أنهم ما أرادوا بقولهم: ﴿إن الله فقير﴾ إلا التشكيك حيث كان الإنفاق من دينهم، بل وادعوا أنه لا يصح دين بغيره.

﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ وفيه رد على اليهود المدّعين قتلهم للمسيح، وعلى النصارى المسلّمين لهم بذلك، المستلزم لكونه ليس بإله ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾.

ولما تقدّم ذكر رجوعهم حذر الموت، وأن موت النبي ﷺ وقتله ممكن كما كان من قبله من الأنبياء، فكان ذلك محقّقًا لأنه لا يصان من الموت أحد، صرّح بذلك فقال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ ومن يجوز عليه ذوق الموت يجوز عليه ذوق النار، فالعاقل من سعى في النجاة منها والإنجاء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ وهذا مقتضى الدين الذي دخلتم فيه، فما لكم تسرعون إلى الغنائم أو غيرها فتتعجّلوا طيباتكم في الحياة الدنيا!

﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ فهذا هو الفوز، لا الشح في الدنيا بالنفس والمال، الذي ربما كان سببًا لامتداد العمر وسعة المال، ولما كان لا فوز إلا ذلك قال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ أي: المتاع الذي يدلّس الشيطان أمره على الناس حتى يغتروا به، فيغبنوا بترك الباقي والإقبال على الزائل، والسعيد من سعى في أن يكون موته في رضى مولاه الذي لا محيص له عن الوقوف بين يديه.

ولما سلى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك﴾ سلّى المؤمنين بإخبارهم بحلول المصائب الكبار المعلية لهم في دار القرار، فقال موطّنًا لنفوسهم عليها تهوينًا لها عليهم: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ بالإنفاق ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾ بالإصابة، وإيلاء ذلك لتوفية الأجور في التي قبلها، مرغّبٌ في كل ما يكون سببًا لذلك من الصبر على الأوامر والمصائب.

ولما كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص، وكان ربما أطمع في العافية بعده، أخبر أن البلاء لم ينقضِ به بل لا بد بعده من بلايا فقال: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ

وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ من الطعن في الدين وغيره، بسبب هذه الوقعة أو غيرها ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ فختم قصة أحد بمثل ما تقدم من قوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا﴾ [الآية: ١٢٠] دليلًا عليه.

ثم أخذ يدلّ على عدواتهم بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ من المال والجاه بما كتموا من العلم وأظهروا من خلافه، ولذا أعقبها بقوله محذرًا من مثل حالهم: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ قال ابن هشام في السيرة: "أن يقول الناس: علماء، وليسوا بأهل علم، لم يتحملوهم على هدى ولا حق"، ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾.

وعلل الخبر بإهلاكهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وله جميع ما يمكنهم الانحياز إليه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾. ثم أمر بالتفكر لينبه على شمول القدرة الموجب للتوحيد، فشرع -بعد أن بدأ السورة بدلائل صدقه بإعجاز القرآن- في بث أنوار المعرفة بنصب دلائلها القريبة فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ وذكر في البقرة ثمانية أنواع من الأدلة، واقتصر هنا على ثلاثة؛ لأن السالك يفتقر في ابتداء السلوك إلى كثرة الأدلة، فإذا استنار قلت حاجته إلى ذلك، وكان الإكثار منها كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لجج المعرفة.

واقتصر هنا من آثار الخلق على السماوية لأنها أقهر وأبهر، وانتقال القلب منها إلى عظمته سبحانه أشد وأسرع، وختم تلك بما هو لأول السلوك: العقل، وختم هذه بلبه لأنها لمن تخلّص من وساوس الشيطان وهواجس الأوهام المانعة من الوصول إلى اليقين.

ولما كان كل مميِّز يدعي الرشاد، نعتهم بما يبيّن من يُعتدّ بعقله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ وفي ذلك تعليم العباد أدب الدعاء بتقديم الثناء قبله، وتنبيه على أن العبد كلما غزرت معرفتة زاد خوفه فزاد تضرعه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ

ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

ولما تسبب عن هذا الدعاء الإجابة لتكمُّلِ شروطه قال: ﴿۞فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أي: صدقوا إيمانهم بمفارقة أحب الناس إليهم في الدين وأعز البلاد.

ولما كان للوطن من القلب منزل ليس لغيره قال: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ﴾ بغير ذلك ﴿فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فخرجوا عن مساكن أرواحهم بعد النزوح عن منازل أشباحهم، هذا بالنظر إلى الإنسان نفسه، ويجوز أن يكون الخطاب للمجموع فيكون المعنى: وقاتلوا بعد أن رأوا كثيرًا من أصحابهم قد قُتل ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا﴾ وعظمه بقوله: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

ولما كانت هذا المواعدة آجلة، وكان نظرهم إلى ما فيه الكفار من عاجل السعة ربما قدح في إيمان بعضهم بالغيب الذي هو شرط القبول، داواه على وجه يصدّق ما تقدم من الوعد بأنهم سيغلبون وأن أموالهم إنما هي صورة لا حقائق لها، عطفًا لآخرها على أولها فقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

ولما بين بآية المهاجرين أن النافع من الإيمان هو الموجب للثبات عند الامتحان، ذكر وصف التقوى العام تعقيبًا لتهديد الكافرين بما لأضدادهم فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ وأشار بجعل الجنات كلها نزلًا إلى التعريف بعظيم ما لهم بعد ذلك عنده تعالى من النعيم العظيم، ولهذا أظهر ولم يضمر لئلا يظن الاختصاص بالنزل فقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

ولما أخبر في هذه السورة بعداوة أهل الكتاب وكفرهم فكان ربما أيأس من إيمانهم، أتبعه مدح مؤمنيهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: كله فيذعن لما يأمر منه باتباع هذا النبي ﷺ ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾.

ولما كثر في هذه الآيات الأمر بمقاساة الشدائد واستهانة عظائم الكروب، والحث على المعارف الإلهية والآداب الشرعية، ختمها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بكل ما ذكرنا في هذه السورة ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ تصديقًا لإيمانكم ﴿وَصَابِرُواْ﴾ الأعداء فلا يكونن على باطلهم أصبر منكم على حقكم ﴿وَرَابِطُواْ﴾ وأصله ربط الخيول في الثغور، ثم صار يطلق على مطلق المكث فيها للذب عن الدين، وعلى المحافظة على الطاعات، ثم أمر بملاك ذلك كله فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾.

والتي قبلها فيمن آمن بجميع الكتب المفتتح بها؛ للفوز بالفرقان بالنصر، ردًا للمقطع على المطلع، والله عنده حسن المآب.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما تقرر أمر الكتاب الجامع الذي هو الطريق، وثبت الأساس الحامل الذي هو التوحيد، دعت هذه السورة إلى الاجتماع على ذلك، ولما كان السبب الأعظم في الاجتماع عادة هو الأرحام العاطفة التي مدارها النساء سميت «النساء»، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الجامع لشتات الأمور بإحسان التزاوج في لطائف المقدور ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي جعل الأرحام رحمة عامة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص من أراد بالتواصل على ما دعا إليه دينه.

ولما كانت أمهات الفضائل أربعًا: العلم والشجاعة والعدل والعفة، وكانت آل عمران داعية إلى الأولين، وكانت قصة أحد قد أسفرت عن أيتام يُمنع أمثالهم من الإرث في الجاهلية، جاءت هذه السورة داعية إلى الفضيلتين الباقيتين، مع تأكيد الخصلتين الأولين حسبما تدعو إليه المناسبة، وذلك مثمر للتواصل بالإحسان وللاجتماع على طاعة الديان، وما أحسن ابتداءها بعموم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بعد اختتام تلك بخصوص ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] الآية(٢٤).

ولما اشتملت هذه السورة على كثير من التكاليف فكانت شاقة على النفوس قال: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ وقد جعل سبحانه الأمر بالتقوى مطلّعا لسورتين: هذه وهي رابعة النصف الأول، والحج وهي رابعة النصف الثاني، وعلله في هذه بالمبدأ وفي الحج بالمعاد، ولذا قدّمها؛ لتكون الآيات المتلوة طبق الآيات المرئية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عبر في هذه السورة بالخلق وفي غيرها بالجعل؛ لأن السياق هنا للترهيب الموجب للتقوى، والخلق أعظم في إظهار الاقتدار من الجعل الذي هو ترتيب المسببات على أسبابها.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ وهذا يؤذن بأن صلة الأرحام عظيمة عند الله حيث قرنها باسمه، واتفق المسلمون على أن صلة الرحم واجبة، وأحقهم بالصلة الولد، وأول صلته أن يختار له الموضع الحلال، ثم قال مؤكدًا؛ لأن

(٢٤) لعله يريد أن الصبر والمصابرة شأن الذين آمنوا، وأن الإحسان والمواصلة شأن كل الناس.

أفعال الناس في قطيعتها وترك التقوى أفعال من يشك في أنه بعين الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾.

ولما ذكر في السورة الماضية قوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [الآية: ١٨٥]، علم أنه لا بد من وجود الأيتام في كل وقت، فكانوا أولى مَن يُتقى الله فيه بعد الأرحام فقال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ حرصًا وحبًا في الزيادة من الدنيا التي علمتم شؤمها وما أثرت من الخذلان في آل عمران، وعبّر بالأكل الذي كانت العرب تذم بالإكثار منه ولو أنه حلال طيب، فكيف إذا كان حرامًا، ومن مال ضعيف، مع الغنى عنه! ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾.

ولما كان هذا التحذير ربما أوقفهم عن نكاح اليتيمات خوفًا من التقصير في حقوقهن، عطف على ما تقديره: فإن وثقتم من أنفسكم بالعدل فخالطوهم بالنكاح وغيره، قولَه: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ بأداة الشك حثًا على الورع ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ ولما كان النساء كالتيامى في الضعف قال مسببًا عن الإذن في النكاح: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ في الجمع ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾.

وقال أبو جعفر بن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿وبثّ منهما رجالًا كثيرًا ونساء﴾ أعلم كيفية النكاح المجعول سببًا في التناسل وما يتعلق به وأحكام الأرحام والمواريث، فتضمنت السورة ابتداء الأمر وانتهاءه، وفصّل كيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر إلا الطلاق لأن أحكامه تقدمت، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ورعي الحقوق إلى الموت، فلم يذكره هنا إلا إيماء ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلًا من سعته﴾ [النساء: ١٣]، وناسب هذا المقصود من التواصل والألفة ما افتتحت به السورة من قوله: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة ويدق ذلك ويغمض، تكرر فيها كثيرًا الأمر بالاتقاء".

ولما كان قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ ربما تعلق به من يبخل ببعض الحقوق تعذرًا بكثرة النساء، أتبعه ما ينفي ذلك فقال مخاطبًا للأزواج لأن السياق لهم: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ وأكّد بقوله: ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾ أي: عطية عن طيب نفس، ولما كان المتخلق بالإسلام ربما أبى قبولَ ما تسمح به المرأة لظنه أنه لا يجوز أو غير

ذلك، قال: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ وربما كان التبعيض ندبًا إلى التعفف عن قبول الكل؛ لأنه لا يكون غالبًا إلا عن خداع أو ضجر فربما أعقب الندم، قال الأصبهاني: "فإن طلبت منه بعد الهبة عُلم أنها لم تطب نفسها"، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾.

ولما كانت الكفاية من المال من أعظم الأسباب المعينة على التفرغ لأمر الآخرة لفراغ البال عن تحصيله، فمن أراده لهذا الغرض كان من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، ومن أراده لنفسه كان من أعظم المعوقات عنها، حثّ سبحانه على حسن رعايته في غير آية، ولما كان في النساء والمحاجير من الأيتام وغيرهم سفهاء قال: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ المختصة بكم أو بهم ولكم ولاية عليها فإنه يجب عليكم حفظها ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته من قول أو عمل وليس مخالفًا للشرع فهو معروف.

ولما كان السفه أمرًا باطنًا لا يعرف إلا بالتصرف ولا سيما في المال، علمهم سبحانه ما يتوصلون به إلى معرفته، فقال مصرحًا بالأيتام اهتمامًا بأمرهم: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ أي: علمتم ذلك يقينًا كأنكم تبصرونه على وجه تأنس أنفسكم به ﴿مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ نكّره لأن وجود كمال الرشد في أحد يعز وقوعه ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ لزوال الحاجة إلى الحجر بخوف التبذير، وأضافها إليهم بعد إضافتها أولًا إلى المعطين إشارة إلى أنه لا يستحقها إلا من يحسن التصرف فيها.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا﴾ ولما كان يخشى من امتناعه من الأكل: التفريط فيه باشتغاله بنفسه، عبّر بصيغة الأمر فقال: ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: بقدر أجرة سعيه ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ احتياطًا؛ لأن الأحوال تتبدل والرشد يتفاوت، فالإشهاد أقطع للشر وأزجر للولي عن الخيانة؛ لأن من عرف أنه لا يقبل عند الخصام إلا ببينة احترز غاية الاحتراز ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ والباء في مثل هذا تأكيد لأن ما قرنت به هو الفاعل ﴿حَسِيبٗا ٦﴾ أي: بليغًا في الحساب، فهو أبلغ تحذيرًا لهم وللأيتام من الخيانة ومد العين إلى حق الغير.

ولما ذكر أموال اليتامى، بيّن إجمالًا من أين تكون فقال: ﴿۞لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ أظهر موضع الإضمار

للإشارة إلى أنه لا فرق بينهن وبين الرجال في القرب الذي هو سبب الإرث ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ وهذه الآية مجملة بينتها آيات المواريث، وقد كان السبب في إنزال فرائض الميراث النساء، وذلك أن أوس بن الصامت ترك امرأةً وبناتًا، فزوى ابنا عمه ميراثه عنهن، فشكت امرأته ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية.

ولما بين المفروض أتبعه المندوب فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ لتطييب قلوبهم، وقرينة صرفه عن الوجوب ترك التحديد ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾. ولما كان للتصوير في التأثير في النفس ما ليس لغيره، أعاد الوصية بهم لضعفهم مصورًا لحالهم فقال: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ ولما كان هذا الخوف ربما أداهم في قصد نفعهم إلى جور على غيرهم قال: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾.

ولما طال التهويل في شأن اليتامى، وكان ذلك ربما نفّر من مخالطتهم رأسًا فتضيع مصالحهم، بيّن أن ذلك خاص بالظالم في سياق موجب لزيادة التحذير، فقال مؤكدًا؛ لما كان قد رسخ في نفوسهم من الاستهانة بأموالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾.

ولما تشوفت النفوس بذلك إلى بيان مقادير الاستحقاق بالإرث، وكان النبي ﷺ قد رغّب في علم المواريث بأنه نصف العلم، وحذّر من إضاعته بأنه أول علم ينزع من الأمة قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ بما له من العظمة الحكمة البالغة، وبدأ بالأولاد لأن تعلق الإنسان بهم أشد فقال: ﴿فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ﴾.

ولما كان الوالد أقرب الناس إلى الولد وأحقهم بصلته أتبعه حكمه فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ ثم بين أن هذا كله بعد إخراج الوصية والدين؛ لأن ذلك سبق فيه حق الميت الذي جمع المال فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾.

ولما كان الإنسان قد يرى أن بعض أقربائه أنفع له فأحب تفضيله فتعدى هذه الحدود لما رآه، وكان ما رآه خلاف الحق في الحال أو المآل، وكان الله تعالى هو المستأثر بعلم ذلك، ولهذا

قال ﷺ: «أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما» قال: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ لأنه لا إحاطة لكم في علم ولا قدرة، فلو وكل الأمر في القسمة إليكم لما وضعتم الأمور في أحكم مواضعها ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾.

ولما كان الإرث بالمصاهرة أضعف من الإرث بالقرابة ذكره بعده، وقدمه على الإرث بقرابة الأخوة تعريفًا بالاهتمام به ولأنه بلا واسطة فقال: ﴿۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ ولما كان الميت قد يضار ورثته أو بعضهم بشيء يخرجه عنهم، ختم بالزجر عن ذلك بقوله: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ مع ما تقدم من قوله ﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا﴾، قال الأصبهاني: "والإضرار في الوصية من الكبائر".

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ ولما كان هذا البيان مخالفًا لمألوفهم، وكان الفطام عن المألوف شاقًا جدًا، وعظ بالترغيب والترهيب فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ فهو من شأنه ألا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بإمهاله، وفي الوصفين مع التهديد استجلاب للتوبة.

ثم قال لئلا يُغتر بوصف الحليم: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ فمن راعاها ولو لم يقصد طاعته بل رفعًا لنفسه عن الإخلاد إلى الفاني والاستئثار على الضعيف المنبئ عن البخل وسفول الهمة، أوشك أن يجره ذلك إلى أن يكون ممن يطيع الله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ ولما كان اختصاصهم بالإرث عن النساء والأطفال هو الفوز عندهم لما فيه من احتواء الأموال وبلوغ ما فيها من الآمال قال: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ ولما كان منعهم للنساء والأطفال من الإرث استهانة بهم، ختم بقوله: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾.

ولما أوصى سبحانه بالنساء، وكان الإحسان في الدنيا تارة بالثواب وتارة بالزجر والعتاب؛ لأن مدار الشرائع على العدل والإنصاف، وختم سبحانه بإهانة العاصي إحسانًا إليه بكفه

عن الفساد، لئلا يلقيه ذلك إلى أبد الهلاك، وكان من أفحش العصيان الزنى، نظمه عقب آيات الإرث وما تقدمها احتياطًا للنسب لئلا يدخل في الورثة من ليس منهم، ولما كانت الفتنة بالنساء أكبر قدمهن فيه اهتمامًا بزجرهن فقال:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ فإن ذلك أصون وأمنع ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وهن وافيات الأعراض ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ للخروج قبل الموت بتبين الحد أو بالنكاح، وإن لم يشهد الأربعةُ لم يُفعل بهن ذلك وإن تحقق الفعل، ثم أتبعه حكم الرجال فقال: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ بشهادة الأربعة ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ وقد بين مجملَ الأذى: آيةُ الجلد وسنة الرجم ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ فتخلقوا بفعله وارحموا المذنبين إذا تابوا، ولا يكن أذاكم لهم إلا لله ليرجعوا، وليكن أكثر كلامكم لهم الوعظ بما يقبل بقلوبهم إليه.

ولما ذكر توبة الزناة، وكان الحامل على الزنى شدة الشهوة وقلة النظر في العواقب، وكان ذلك إنما هو في الشباب، عرّف بوقت التوبة وشرطها مرغبًا في تعجيلها مرهبًا من تأخيرها فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ أي: المقبولة، لأنها بدون القبول لا نفع لها فكأنه لا حقيقة لها ﴿عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ التي هي ضد الحِلم أو العلم، إشارة إلى شدة قبح العصيان، فالمعنى حينئذ: يعملون السوء متلبسين بسفه أو خفة أخرجتهم عن الحق والعلم فكانوا كأنهم لا يعلمون ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ لعله عبر بـ«ثم» إشارة إلى بُعد التوبة ولا سيما مع القرب ممن واقع المعصية؛ لعسر الخلوص من حبائلها غالبًا.

ولذلك أشار إلى تعظيمهم بأداة البعد فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العظيمو الرتبة الصادقو الإيمان ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالصادقين في التوبة ﴿حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: واحدة بعد أخرى مصرين عليها فسقة كانوا أو كفرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ فسوى بين الفسق والكفر تنفيرًا من الفسق لصعوبة النزع عنه بعد مواقعته، ولذلك جمعهما في العذاب بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا﴾ ولما كان تأخير التوبة لذة نفسانية ختم بقوله: ﴿أَلِيمٗا ١٨﴾.

[ولما وصف التوبة عاد إلى أحكام النساء فقال][٢٥]: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ أي: كارهين لهن إلا رجاء الإرث، وذلك أنهم كانوا ينكحون اليتامى غير راغبين فيهن إلا تربص الموت لإرث مالهن، أو يكون الفعل واقعًا على نفس النساء، أي: كارهات، وذلك لأن الرجل كان إذا مات وله امرأة تزوجها قريبه من عصبته بغير صداق، أو زوّجها غيرَه وأخذ صداقها، أو منعها من الأزواج ضرارًا لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت هي فيرثها، ولهذا أتبعه قوله: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ أي: تمنعوهن من التزوج أو تشددوا عليهن بالمضارة وهن في حبائلكم.

﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَا ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي: بالشهود الأربعة إن كانت زنى، فاعضلوهن بالإمساك في البيوت كما مضى؛ لأن من تعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه، أو بمن يقبل من الشهود إن كانت نشوزًا، فلكم العضل إلى الصلاح أو الافتداء بما تطيب به النفس ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ فلا تبادروا إلى المفارقة واصبروا عليهن نظرًا للأصلح لا لمجرد الميل النفسي، فإن الهوى شأنه أن لا يدعو إلى خير.

ثم دل على هذه العلة بقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ لم يقيده سبحانه تعميمًا للفائدة ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ ولما تقدم أن أخذ الافتداء إنما يكون حال الفاحشة، جعل أخذه بدونها قائمًا مقام القذف بما لا حقيقة له فقال: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ أي: بتقوى الله في المعاشرة بالإحسان؛ لأن مبنى النكاح على ذلك وإن لم يُصرَّح به فيه.

ولما تقدم الإذن في نكاح ما طاب من النساء، مست الحاجة إلى معرفة ما يحل منهن لذلك وما يحرم فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾ وهذان الصنفان لم يحللن في دين من الأديان ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ

(٢٥) مفاتيح الغيب ٥/ ٢٣٤، بتصرف.

﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَـٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٢٣ ۞وَٱلۡمُحۡصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ التي تدفعونها مهورًا حال كونكم ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ أي: قاصدين قضاء الشهوة فقط، وهو على هذا الوجه لا يكون إلا زنى، فيكون فيه حينئذ إضاعة المال وإهلاك الدين، ولا مفسدة أعظم مما يجمع هذين الخسرانين ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾ ثم قال مرغبًا في امتثال أوامره ونواهيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٢٤﴾.

ولما كان ما مضى في الحرائر، أتبعه تعليم الحكمة في نكاح الإماء فقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَـٰتِ﴾ أي: الحرائر، سُمّين بذلك لأن العرب كانوا يصونونهن وهُنَّ أنفُسَهن عن أن يكن كالإماء ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُم﴾ أي: مما ملك غيركم من المؤمنين ﴿مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ﴾ أي: إمائكم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِۚ﴾ حذرًا من مخالطة كافرة خوفًا من الفتنة، والظاهر أن فائدة التقييد: الندب إلى مباعدة الكفار فلا ينكح منهن إلا لضرورة، فكأن هذه سورة المواصلة أسقط فيها أهل المباعدة، والمائدة سورة تمام الدين فذكر فيها ما يجوز لأهله، وهذا كما أن قيد الإحصان هنا للندب إلى عدم نكاح الزواني مع جوازه بآية النور ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ [النور: ٣٢] كما سيأتي.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ ولما كان مما لا يخفى أن السيد المالك للرقبة مالك للمنفعة من باب الأولى، كان الأمر بدفع المهور إليهن مفيدًا لندب السيد إلى جبرها به فقال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَـٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ قال الشافعي: "جماع الإحصان أن يكون دون التحصين مانع من تناول المحرم، فالإسلام والحرية والتزوج والإصابة والحبس في البيوت كلها مانع، وكل ما منع أحصن"، ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾.

ولما كان من شأن النكاح تغليظ الحد، غلّظه في الحرائر بالرجم ولم يغلّظ على الإماء، بل بيّن أن حدهن بعده هو حدهن قبله فقال: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَـٰتِ﴾ أي: الحرائر لأنهن في مظنة العفة وإن لم يتزوجن ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ أي: الحد، والمراد هنا الجلد لأن الرجم

لا يتنصف ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: حل نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: الوقوع في الزنى ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ولما أتم هذه الأحكام بين ما أراد بها من موجب الرحمة فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الذين أنعم عليهم؛ ليكون ذلك أدعى إلى القبول وأعون على الامتثال ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ فلا يشرع شيئًا إلا وهو في غاية الإحكام، فاعملوا به يوصلكم إلى دار السلام.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يرجع لكم بالبيان الشافي عما كنتم عليه من طرق الضلال؛ لما كنتم فيه من العمى والجهل ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ بأن تصيروا إلى ما كنتم فيه من الشرك والضلال، فقد أبلغ سبحانه في الحمل على الهدى: بموافقة الولي المنعم، ومخالفة العدو الجاهل، النازل من أوج العقل إلى حضيض طباع البهائم.

ولما كان الميل متعبًا لمرتكبه، أخبرهم علة بيانه للهداية وإرادته التوبة فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فيضع عنكم الآصار التي كانت على من كان قبلكم الحاملة على الميل، ويرخص لكم في بعض الأشياء كنكاح الأمة ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ مبناه الحاجة، فهو لا يصبر عن النكاح ولا غيره من الشهوات، ولا يقوى على فعل شيء إلا بتأييد منه سبحانه.

ولما كان غالب ما مضى مبنيًا على الأموال تارة بالإرث وتارة بالصداق، وكان الأكل أعظم المقاصد بالمال، وكان العرب يرون التهافت على الأكل أعظم العار، كنّى به التناول فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بأخذ نصيب النساء والصغار من الإرث، وبعضل النساء وغيره مما نُهي عنه ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ولعل الإتيان بالاستثناء المتصل والمعنى على المنقطع؛ للإشارة إلى أن كل تصرفات الدنيا جديرة باسم الباطل؛ تزهيدًا فيها وترغيبًا فيما يبقى، وهكذا كل استثناء منقطع في القرآن، لا يُعدل فيه عن أداة الانقطاع -وهي لكن- إلى صورة الاتصال إلا لحكمة.

ولما كان المال عديل الروح ونهى عن إتلافه بالباطل، نهى عن إتلاف النفس؛ لكون أكثر إتلافهم لها بالغارات لنهب الأموال وما كان بسببها، فكان النهي عن ذلك أنسب شيء لما

بنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ دل العطف بالواو على تناهي كل منهما، مع ما أفهمته صيغة «الفُعْلان» من المبالغة، فكان المراد العدْو الشديد الناشئ عن الظلم الذي لا شائبة فيه للحق ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾.

ولما ذكر ما للفاعل تحذيرًا، أتبعه ما للمنتهي تبشيرًا فقال: ﴿*إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال الأصبهاني: "وكل ذنب عظّم الشرع الوعيد عليه، أو عظم ضرره في الخمس الضرورية فهو كبيرة وما عداه صغيرة"، ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الصغائر، ولا تقاوم المكفِّراتُ الكبائرَ ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ٣١﴾.

ولما نهى عن الأكل نهى عن التمني الذي هو مقدمته؛ ليكون نهيًا عنه بطريق الأولى، فإن التمني قد يكون حسدًا، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه، والنهي هنا للتحريم عند أكثر العلماء، فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ﴾ أي: تتابعوا أنفسكم في ذلك ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ أي: في الإرث وغيره من الفضائل.

فمن شاهد غيره أرفع منه فتمنى زوال ذلك عن صاحبه فهذا هو الحسد المذموم، فإن اعتقد أنه أحق منه فقد فتح على نفسه باب الكفر، فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له الحكيم علمًا بأن ذلك مصلحته فإن الله أعلم بما يصلح العباد ويفسدهم، وإن تمنى مثل ذلك لنفسه: فإن كان دينيًا كان حسنًا، وإن كان دنيويًا فمنهم من جوّز ذلك ومنهم من لم يجوّزه؛ لأن تلك النعمة ربما كانت مفسدة في حقه كقصة قارون.

ثم قال مشيرًا إلى أنه لا ينال أحد جميع ما يؤمل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ وبين أنه ينبغي الطلب والعمل فقال: ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ فالتمني حينئذ غير نافع والاشتغال به مجرد عناء، ولما أشار بالتبعيض إلى أن الحصول بتقديره، أمر بالإقبال عليه فقال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ وفي ذلك تنبيه على عدم التعيين لأنه ربما كان سبب الفساد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٣٢﴾ والمعنى أنه قد فعل بعلمه ما يصلحكم، فاسألوه بعلمه وقدرته ما ينفعكم.

وعطف على ذلك ما هو من العلة فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ٣٣﴾.

[ثم قدَّم لما سيذكره من الأحكام بعده بقوله][26]: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ في التأديب والتعليم، وبين سببه فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ﴾ أي: الرجال، ولهذا كان فيهم الأنبياء والولاة ونحو ذلك مما يحتاج إلى فضل قوة ﴿عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ أي: النساء، ولما ذكر السبب الموهبي أتبعه الكسبي فقال: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾.

ولما بيّن فضلهم ذكر ما يلزمهن من حقوقهم فقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مخلصات في طاعة الأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: لحقوقهم في غيبتهم عنهن، وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ ترغيب في طاعتهم فيما يرضي الله، وترهيب من عصيانهم بما يسخطه، ورعي للحدود التي أشارت إليها البقرة وشرحتها السنة.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: ترفعهن عليكم وعصيانهن فيما جعل الله لكم من الحق ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بما يخيفهن من جلال الله ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ﴾ إن لم يرجعن بالوعظ ﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ قال الشافعي: "ولا يزيد في هجرة الكلام على ثلاث"، ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ ضرب تأديب غير مبرح، قال: "الضرب مباح وتركه أفضل"، ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ بشيء من ذلك ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ أي: طريقًا إلى الأذى على ما سلف من العصيان من توبيخ ونحوه بل اغفروا لهن، ولا يحملنكم ما منحكم الله من العلو على المناقشة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ فقدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن، وهو مع ذلك يعفو عمن عصاه، فتخلقوا بما قدرتم عليه من صفاته لتنالوا جليل هباته.

ولما بين حال الوفاق وما خالطه من أحوال يصلحها الزوج، أتبعه حال المباينة والشقاق المحوج إلى من ينصف أحدهما من الآخر، فقال: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ لا تمكن في العادة إزالته، وذلك بظن أنه لا صلاح في اجتماعهما ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ هذا أكمل لأن أهلهما أقرب إلى إزالة أسباب الشقاق من بينهما؛ لأنهم أجدر بالاطلاع على حقائق أحوالهما، وأقرب إلى إخفاء ذلك عن الأجانب، وفائدة الحكمين: أن يخلو كل منهما بصاحبه ويستكشف حقيقة الحال ليعرف وجه الصلاح.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ وهذا دال على أنه لا يكون شيء إلا بالله وأن الأسباب إنما هي محنة منه، يسعد بها من يباشرها ويعتمد على الله دونها، ويشقى بها من

(٢٦) التحرير والتنوير ٥/ ٣٧، بتصرف.

يجعلها محط قصده فيعتمد عليها، فصارت هذه الآيات كفيلة بغالب أحوال النكاح، ولم يذكر الطلاق عندما ذكر الشقاق لتقدمه في البقرة، ولأن مبنى هذه السورة على التواصل والتواد كما تقدم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾.

ثم ذكر الخُلق المقصود من الخَلق المبثوثين على تلك الصفة وهو الإحسان في معاملة الخالق بتوحيده، والإحسان في معاملة الخلائق فقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وملاك ذلك كله: التعبد بامتثال الأوامر واجتناب الزواجر، وبدأ بما لله لأنه إذا صح تبعه غيره ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾.

ولما كان الاختيال والفخر على الفرح بالأعراض الفانية والركون إليها حاملًا على البخل خوفًا من زوالها قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ وقصره ليعم كتم العلم ونحوه، ثم تلاه بأسوأ منه فقال: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ وفي التعبير بما هو من النَّوس إشارة إلى أنهم لا يعلّقون أطماعهم بذلك إلا بذوي الهمم السافلة، ثم أتبع ذلك أخبث منه وهو الشحُّ بالكلام الذي لا يُخشى نقصُه وجحدُ النعمة وإظهارُ الافتقار فقال: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا﴾ وكان الأصل: لهم، ولكنه قال؛ تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف وإعلامًا بأن ذلك حامل على الكفر: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

ودل على خسة مقاصدهم وسفول هممهم بقوله: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لقصور نظرهم وتقيده بالمحسوسات، كالبهائم التي لا تدرك إلا الجزئيات المشاهدات، ولما ذكر إخراج المال على وجه لا يرضاه ذو عقل، ذكر الحامل عليه مشيرًا إلى أنهم حقروا أنفسهم بما عظموها به، وذلك أنهم تعبدوا للعبيد وتكبروا على خالقهم المجيد فقال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

ولما كان المأمور بالإحسان إليهم هنا أخص ممن أشير إليهم في البقرة، أكد بزيادة النافي فقال: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ﴾ الحامل على كل خير والنازع عن كل شر ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ٣٩﴾.

ولما فرغ من توبيخهم، قال معللًا: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ فمن كان هذا شأنه لا يسوغ لعاقل توجيه الهمة إلا إليه. ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢﴾ بل يفتضحون بسيئ أخبارهم جزاء لما كانوا يكتمون من آياته وبيناته.

ولما وصف الوقوف بين يديه في يوم العرض والأهوال، وصف الوقوف بين يديه في الدنيا في مقام الأنس المنجي من هول الوقوف في ذلك اليوم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ ولما كان السكر يوقع في صورة الذنب لجري اللسان فيه بما لا يليق، ختم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾.

ولما أنزل هذه فيمن حرف الكلمَ عن مواضعه في الصلاة بلسانه فقط لا عن عمد، عجّب ممن يحرّف بالقلب واللسان عمدًا وعدوانًا فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وفيه: أن أقل شيء من الكتاب يكفي في ذم الضلال لأنه كاف في الهداية ﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ معرضين عن الهدى، وسبب كثير من ذلك ما في دينهم من الآصار عقوبةً على نقضهم الميثاق ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ حتى تساووهم فلذلك يذكّرونكم بالأضغان كما فعل شاس بن قيس[٢٧] لا محبة فيكم، ويلقون إليكم الشبه، فالله أعلم بهم حيث حذركم منهم ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ۝٤٤﴾ أظهر الاسم الأعظم لتستحضر عظمته فيستهان أمر الأعداء.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ثم بين ما يَضلون به ويُضلون بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ يريدون أنهم خالفوه عمدًا؛ ليظن من سمع ذلك أنهم على بصيرة في المخالفة بسبب ما عندهم من العلم، فيورثه ذلك شكًا وحيرة ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ موهمين نفي إسماع ما يكره وإنما يريدون الدعاء كما يقال: اسمع لا سمعت! ﴿وَرَٰعِنَا﴾ موهمين إرادة المراعاة وإنما يريدون الشتم بالرعونة.

---

(٢٧) حين ذكّر أوسيًا وخزرجيًا بالعداوة التي كانت بينهما حتى اقتتلا [زاد المسير: ١/ ٤٣١].

فكانوا يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون التوقير والإكرام، ولذلك قال: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ بما يفسرونها به لمن يطمعون فيه من تلك المعاني الخبيثة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

ولما بكتهم وصرح بلعنهم، خوفهم من إظهار ذلك في الصور المحسوسة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يسند الإيتاء إليه تحقيرًا لهم ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٦﴾﴾ فلا بد من وقوع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا، وقد آمن بعضهم فلم يصح أنهم لم يؤمنوا.

ولما كان امتثالهم لتحريف أحبارهم ورهبانهم شركًا بالله كما قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾ [التوبة: ٣١]، أعلم أن ما أشير إليه من تحريفهم أداهم إلى الشرك أيضًا فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وزاده حسنًا أنه في سياق: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا﴾ [النساء: ٣٦] ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾ وطوى مقدمة الضلال وذكر مقدمة الافتراء؛ لأن السياق لأهل الكتاب الذين ضلالهم على علم وعناد، بخلاف ما يأتي عن العرب ﴿إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٧﴾﴾.

ثم عجّب من تزكيتهم أنفسهم بعد افترائهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾ بما ليس فيهم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ﴾ وكان الأصل: إليهم، ولكنه قال لزيادة التوبيخ والإعلام بأن كفرهم عناد لكونه عن علم: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ عبّر بالإشارة دون الخطاب؛ ليدل على أنهم يقولون ذلك فيهم حتى في غيبتهم، حيث لا حامل لهم على القول إلا محض الكفر.

﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥١﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ﴾ فبان بذلك أنهم حازوا أعلى خلال الذم، أولًا: بالجهل ومدح

النفس تشبعًا بما لم يعطوا وذلك سبب لجميع النقائص، وثانيًا: بمنع الحق من أهله بخلًا، وثالثًا: بتمني ألا يصل إلى أحد نعمة وإن كانت لا تنقصهم.

فتسبب عن حوزهم هذه الخلالَ تفضيلُ غيرهم من العرب عليهم فقال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي أقسمنا له في كتابكم أنا سنعز ذريته من إسماعيل ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٣﴾ باقيًا إلى أن تقوم الساعة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ وهم أغلب العرب ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾ بنفسه وصد غيره كبني إسرائيل وبعض العرب ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٤﴾.

ولما أثبت لمن صد عنها النار علله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَت جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٥﴾ فلذلك قدر على ذلك العذاب وجعله على قدر ذنوبهم؛ لأن عزائمهم كانت على دوامهم على ما استحقوا به ذلك ما بقوا.

ولما ذكر الترهيب بعقاب الكافرين أتبعه الترغيب بثواب المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٦﴾.

ولما وعدهم على امتثال أمره بكريم ثوابه قال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ وحثهم على المبادرة إلى حسن الامتثال بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٧﴾.

ولما أمر بالعدل ورغّب فيه، أمر بطاعة المنتصبين لذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ أي: الحكام فيما لم يكن معصية، والعلماء العاملون فإنهم يأمرون بأمر الله ورسوله ﷺ ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتضرع بين يديه بما شرعه لكم من الدعاء والعبادة؛ ليفتح لكم ما أغلق منه ويهديكم إلى الحق منه ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ بالبحث عن آثار رسالته من نص في ذلك بعينه أو أولى قياس ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٨﴾.

ولما كان التقدير كما أفهمه آخر الآية وأشعر به أولها: فمن أبى ذلك فليس بمؤمن، دلّ عليه بقوله معجّبًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ كان الأصل: رأيتهم، ولكنه أظهر الوصف الذي دل على كذبهم فيما زعموه من الإيمان فقال: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦٠ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: من شدة البغض للإسلام وأهله وإن اجتهدوا في إخفائه.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: عن عقابهم والخشية منهم لأنهم أقل من أن يحسب لهم حساب ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ وإن ظننت أن ذلك لا يؤثر؛ لأن القلوب بيد الله ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: بسببها وما يبيّن أحوالها، أو خاليًا معهم فإن ذلك أقرب إلى ترقيقهم ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾.

ولما كان إرسال الرسول إنما هو للرفق بالأمة والنص لهم [قال مرغبًا لهم في طاعته ﷺ]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٣﴾.

ثم قال مؤكدًا غاية التأكيد: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولما كان الإذعان لما يخالف الهوى في غاية الشدة، أشار إليه بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٤﴾.

[ولما ذكر تكليفهم بالأمور السهلة، بيّن أنه لو شدد عليهم لظهر كفرهم وعنادهم فقال](٢٨): ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ كما كان في التوراة في كفارة بعض الذنوب، وكما فعل المهاجرون بتعريض أنفسهم لذلك ثلاث عشرة سنة ﴿أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ كما فعل المهاجرون ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ لقصور إيمانهم ﴿إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ وهم العالمون بأن الله خير لهم من أنفسهم وأن حياتهم إنما هي في طاعته، والتقدير: ولكنّا لم نكتب عليهم، فليشكروا لنا ويستمسكوا بهذه الحنيفية السمحة ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٥﴾ أي: مما ثبتوا به أنفسهم بالأيمان الحانثة ﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٦ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٧﴾.

---

(٢٨) مفاتيح الغيب ٥/ ٣٨٠، بتصرف.

ولما رغب في العمل بمواعظه، رغب في مطلق الطاعة فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ طاعةً هي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ في كل ما أراده، فإن منصب الرسالة يقتضي ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: معدود من حزبهم، لا أنه يلزم أن يكون في درجاتهم وإن كانت أعماله قاصرة ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: الذين شهدوا لدين الله بالحق ولسواه بالبطلان بالحجة أو بالسيف، ثم قُتلوا في سبيل الله ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ وقد تجتمع الصفات الأربع في شخص، ومن عظيم رتبتهم قول النبي ﷺ في آخر عمره: «مع الرفيق الأعلى» ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٨ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٦٩﴾.

ولما ذكر الشهادة بعد ذكر ثواب من قبل موعظته ولو في قتل نفسه، وكان قد تقدّم التحذير من الأعداء، ندب إلى الجهاد مع الإرشاد إلى الاستعداد له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ من الأعداء، المشاققين منهم والمنافقين ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧٠﴾ ولا تخاذلوا فتهلكوا.

ولما كان من أجلّ مقاصد هذه السورة: تبكيت المنافقين للتحذير منهم قال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتثاقل عن الجهاد لنفاق أو ضعف إيمان، ويأمر غيره بذلك أمرًا مؤكّدًا إظهارًا للشفقة عليكم وهو عين الغش، فإنه يثمر الضعف المؤدي إلى جرأة العدو المفضي إلى التلاشي ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧١ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٢﴾ لم يجعل محط همه في الحالتين غير المطلوب الدنيوي.

ولما عُلم ذلك عُلم أن قصد المجاهد الآخرة فقال: ﴿۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ وربما دل التعبير بـ«سوف» على طول عمر المجاهد غالبًا خلافًا لما يتوهمه كثيرٌ؛ إعلامًا بأن المدار على فعل الله لا على الأسباب ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ في الدارين على اجتهاده في إعزاز دين الله.

ثم هيج القاعدين بقوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ نصبه على الاختصاص تنبيهًا على أنه من أجلّ ما في سبيل الله ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن

لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٤﴾ كأنه قال: قد جعلت لكم الحظ الأوفر من الميراث فما لكم لا تقاتلون في سبيلي شكرًا لنعمتي؟ وأين ما تدّعون من الحمية والحماية!

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ﴾ تصديقًا لدعواهم الإيمان، من غير فترة أصلًا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فلا ولي لهم ولا ناصر ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٥﴾.

ولما عرفهم هذه المفاوز والمفاخر، عجب من حال من توانى بعد ذلك فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ﴾ جوابًا على قولهم: ائذن لنا في قتال الكفار فإنهم قد آذونا ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ نسب القول إليهم لأن حالهم في التأخر حال من يقوله، فالمراد تهييجهم ليس غير.

﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ لأنه غير محقَّق الحصول، وإن حصل كان مكدَّرًا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لأن نعيمها محقق ولا يفنى ولا كدر فيه، وهي شر من الدنيا لمن لم يتق لدوام عذابها ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٦﴾ لا في دنياكم بأن تنقص آجالُكم بقتالكم وأرزاقُكم باشتغالكم، ولا في آخرتكم بأن يضيع شيء من ثوابكم على ما تنالونه من المشقة.

ولما كانوا كأنهم يرجون بترك القتال الخلودَ أو تأخيرَ موتٍ يسبِّبه القتال، نبههم على ما يحقق أن المنية لا بد من ورودها في وقتها فقال: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ فإذا كان لا بد من الموت فلأن يكون في الجهاد الذي يستعقب السعادة الأبدية أولى من أن يكون في غيره، ولما أخبر أن الحذر لا يغني من القدر، أتبعه حالًا لهم [مخالفًا لذلك الاعتقاد] فقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ۝٧٧ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ أي: تفعل ما على الرسل من البلاغ ونحوه، ولم نجعلك إلهًا تأتي بما يُطلب منك من خير وشر ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٨﴾.

ثم قال مرغبًا في طاعته ﷺ مخففًا عنه دوام عصيانهم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ لأنه داعٍ إليه ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٧٩﴾ ثم عاد يخبره ببعض ما يخفونه،

فقال مبينًا نفاقهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨٠﴾.

ولما كان فعلهم ذلك لاعتقادهم أنه ﷺ رئيس لا يعلم إلا ما أظهروه، أرشد إلى الاستدلال على أنه رسولُ مَن يعلم السر وأخفى بما يزيح الشك فقال:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ المعجِز للخلائق، المظهر لخفاياهم على اجتهادهم في إخفائها ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨١﴾ بالتناقض والتخلف عن الصدق وتفاوت النظر في الإعجاز.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ من غير ثبت ﴿أَذَاعُواْ﴾ ما يقدرون عليه من المفاسد ﴿بِهِۦۖ﴾ أي: بسببه من غير علم منهم بحقه من باطله، فيحصل الضرر البالغ لأهل الإسلام، أقله قلب الحقائق ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ نفسه إن كان موجودًا وأخباره إن كان مفقودًا ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.

ولما كان التقدير: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بالرسول ووُرّاثِ علمه لاستبيحت بذلك بيضتكم واضمحلت أموركم، عطف عليه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٢﴾ منكم فإنهم لا يتبعونه من غير إرشاد الرسول بل بهداية من الله سبحانه، كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو وورقة بن نوفل، والدليل على هذا المعنى: أن السياق لرد الأشياء كلها إلى الرسول ﷺ والمنع من الاستقلال بشيء دونه.

ثم أشار إلى أن الأمر بالجهاد باقٍ وإن بطّأ الكل فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولو كنت وحدك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ فإن الله سبحانه ناصرك وحده، وليس عليك إثم أتباعك لو تخلفوا عنك، وقد أعاذهم الله من ذلك ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٣﴾.

ولما أمر المؤمنين بالإعراض عن المنافقين وحذر من مجالستهم، وكان بين كثير من الصحابة رضي الله عنهم وبين المنافقين قرابات توجب الشفقة الحاملة للشفاعة فيهم قال: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٤﴾ وقال الإمام: "والغرض منه: التنبيه على أن الشفاعة المؤدية إلى سقوط الحق وقوة الباطل تكون عظيمة العقاب عند الله تعالى".

ولما كان ذلك موجبًا للإعراض عنهم رأسًا، بيّن سبحانه أن التحية ليست من وادي الشفاعة لأنها تابعة للظاهر، والشفاعة تابعة للعمل، فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٥﴾﴾ وقال الأصبهاني: "لما كان مبنى هذه السورة على الندب إلى الإحسان والتعاطف، ناسب ذكر هاتين الآيتين بعد ذكر آية الجهاد المختتمة بالبأس والتنكيل"، ولما كانت الشفاعة أعظمها في الإحسان قُدّمت، ولا سيما وموجبها الإعراض، ومقصد السورة التواصل.

ثم علل ذلك بقوله، دالًا على تلازم التوحيد والعدل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٦﴾﴾.

وهذا التواصل إنما هو حيث لا يؤدي إلى مقاطعة أمر الله، ولذا قال تعالى مبكتًا لمن لم يجزم بإبعادهم: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٧﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فيهجروا من خالفهم، إن كانوا في دار الحرب فبتركها، وإن كانوا عندكم فبترك موادة الكفرة والموافقة لهم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ﴾ بالأسر وغيره ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ في حل أو حرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ على أحد من أعدائكم بل جانبوهم كليًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ فرارًا منكم ﴿إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾﴾.

ثم ذكر قسمًا آخر من المنافقين فقال: ﴿سَتَجِدُونَ﴾ أي: عن قرب بوعد مؤكَّد ﴿ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ فهم يظهرون لكم الإيمان ولقومهم الكفر، وهو معنى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: الابتلاء بالخوف عند المخالطة ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ ولما كان هؤلاء أشد نفاقًا وأعدى ممن قبلهم، صرح بمفهوم ما صرح به في أولئك؛ لأنهم أجدر بالإغلاظ، وطوى ما صرح به فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ ولما كانت أخلاقهم في غاية الدناءة، أشار إلى الوعد بتيسير التمكين منهم بقوله: ﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩٠﴾﴾.

ولما بين أقسامهم بيانًا ظهر منه أن أحوالهم ملبسة، فربما قُتل بسبب ذلك من لا يستحق القتل قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ أَن يَقْتُلَ مُومِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ ولما كان الخطأ مرفوعًا عن هذه الأمة، فكان ربما يظن أنه لا شيء على المخطئ، بيّن أن الأمر في القتل ليس كذلك حفظًا للنفوس فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُومِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُومِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ﴾ وقد أسقط هذا حرمة نفسه بغير الكفارة، بسكناه في دار الحرب التي هي دار الإباحة أو وقوعه في صفهم.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾ وكأنه قدم الدية هنا إشارة إلى المبادرة بها حفظًا للعهد، ولتأكيد التحرير بكونه ختامًا كما كان افتتاحًا حثًا على الوفاء به؛ لأنه أمانة لا طالب له إلا الله، فكان سره النظر إلى خير الدين في المؤمن، وإلى حفظ العهد في الكافر ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولما كانت الكفارات من المشقة بمكان قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يصلحكم ﴿حَكِيمًا ۝٩١﴾ في نصبه الزواجر بالكفارات وغيرها، فالزموا أوامره وباعدوا زواجره لتفوزوا بالعلم والحكمة.

﴿*وَمَن يَقْتُلْ مُومِنًا﴾ ولعله أشار بصيغة المضارع إلى دوام العزم على ذلك لأجل الإيمان وهو لا يكون إلا كفرًا، وترك الكلام محتملًا زيادة تنفير من قتل المسلم ﴿مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٢﴾.

ولما تبين بهذا المنعُ الشديد من قتل العمد، وكان قد أمر بالجهاد وربما التبس الحال، أمر بالتثبّت فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُومِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأخذ ما معه أو إدراك ثأر كان لكم قبله ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٣﴾.

ولما كان في الضرب في سبيل الله هذا الخطر فكان ربما قيل: إذًا نقعد فنسلم، بيّن فضله فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ ولما كان القاعد وإن فاته الجهاد فقد تخلّف الغازيَ في أهله، إذ يحيي الدين بالاشتغال بالعلم ونحوه

قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٤﴾﴾ ثم بينه بقوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

ولما كان القاعد المشارك للمجاهد هو المتمكن من تنفيذ الأمر؛ لهجرته أرض الحرب وكونه بين المؤمنين، بيّن أن القاعد عن الهجرة مع التمكن ليس بمشارك بل ظالم لنفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾ لتركهم الواجب وتكثيرهم سواد الكفار وانبساطهم في وجوههم ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

ثم قال بيانًا لأن المستثنى منهم كاذبون في ادعائهم الاستضعاف: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ أحلّهم محل الرجاء إيذانًا بخطورة ترك الهجرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾ يمحو الذنب وقد يعاتب عليه ﴿غَفُورًا ﴿٩٨﴾﴾ يزيل أثره رأسًا فلا يُذكر، ولعل العفو للرجال والغفران للنساء والولدان.

ثم رغّب في الهجرة بما يسلي عما قد يوسوس به الشيطان فقال: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ يغضب الأعداء به ويرغم أنوفهم بسبب ما يحصل له من الرفق وحسن الحال ﴿كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ فضلًا عن بلده ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٩﴾﴾ وكذا كل من نوى خيرًا ولم يدركه، فالله موفيه إياه توفية كريم.

ولما أوجب السفر للجهاد والهجرة وكان مظنة المشقة، ذكر تخفيف الصلاة بالقصر بقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠٠﴾﴾ والسياق مشير إلى شدة الاهتمام بشأن الصلاة، وقاضٍ بأن المخاطرة بالنفس والمال لا تسقط الجهاد ولا الهجرة، إذ الخوف والخطر مبنى أمرهما، ولولا أنها لا رخصة فيها بوجه لوُضعت في مثل هذه الحالة أو أخِّرت عن وقتها، ولكنه لا زكاء للنفوس بدون فعلها على وجهها، وقد كانت الصلاة ركعتين ركعتين، فأتمت بعد الهجرة إشارة إلى أن المدينة دار الإقامة وما قبلها كان محل سفر.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ والآية على وجازتها محتملة لجميع الكيفيات المذكورة لصلاة الخوف.

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ﴾ وقوله: ﴿وليأخذوا حذرهم﴾ متصل بأول آيات الجهاد في هذه السورة ﴿خذوا حذركم﴾ [الآية: ٧١] فهو من رد المقطع على المطلع، وعطف عليه قوله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ﴾ إشارة إلى وجوب الحذر منهم في كل حال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٠١﴾ من أعظمه: حذركم الذي لا تمكنهم معه منكم فرصة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ فإن ذكرَه حصنُكم من كل عدوٍ ظاهر أو باطن، فهو أعظم حفيظ للعبد، ثم أمر بالصلاة حال الطمأنينة تنبيهًا على قدرها وبيانًا لأنها أوثق عرى الدين وأفضل مهذبات النفوس؛ لاشتمالها على مجامع الذكر فقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾.

ولما علّمهم الحذر خوف الضرر، وكان مظنةً لمتابعة النفس فيه فيحصل التواني في الجهاد قال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: تضعفوا وتتوانوا بالاشتغال بذكر ولا صلاة، فقد يسرت ذلك لكم تيسيرًا لا يعوق عن شيء من أمر الجهاد ﴿فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ﴾ فلا يكونن على باطلهم أصبر منكم على حقكم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾ لأنكم تقاتلون فيه وهم يقاتلون في الشيطان، وهذا لكل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سواء كان ذلك في جهاد الكفار أو لا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾.

ولما ختم بمجاهدة المبطلين بالحجة والسيف، ناسب الإخبار بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبيّن فائدته التي عدل عنها المنافقون في استحكام غيره فقال: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ هذا الاستغفار لا عن ذنب إذ هو منزه عن ذلك، ولكن عن مقام عالٍ للارتقاء إلى أعلى منه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ أي: يخونونها بأن يوقعوها في الهلكة بالعصيان فيما أؤتمنوا عليه من الأمور الخفية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن

كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٦ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٧ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما جعل لكم من الأسباب ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين تنقطع.

ولما كان من أعظم المحاسن كف الإنسان عما لا علم له به قال: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ۝١٠٨﴾ أي: يعلم منهم ما يعلمه تعالى بأن يحصي أعمالهم كلها فيجادل الله عنهم؟

ولما نهى عن نصرة الخائن، ندب إلى التوبة من كل سوء فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٩﴾. وحث على التوبة ببيان أن ضرر إثمه لا يتعدى نفسه، فإن كل أحد مجبول على محبة نفع نفسه ودفع الضر عنها فقال: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١١٠﴾ ولما ذكر ما يخص الإنسان من إثمه أتبعه ما يعديه إلى غيره فقال: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝١١١﴾.

ثم بيّن نعمته على نبيه ﷺ في عصمته عما أرادوه من مجادلته عن الخائن(٢٩) فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ۝١١٢﴾ وهذا من أعظم الأدلة على أن العلم أشرف الفضائل.

ولما كان قوم طعمة قد ناجوا النبي ﷺ في الدفع عنه، نبههم وغيرَهم على ما ينبغي أن يقع به التناجي فقال: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١١٣﴾ وهي من أعظم الدلائل على أن المطلوب من أعمال الظاهر رعاية أحوال القلب في إخلاص النية.

ولما رتب الثواب العظيم على الموافقة، رتب العقاب الشديد على المخالفة فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ عبر بالمضارع رحمة منه تعالى بتقييد الوعيد بالاستمرار ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ ولما كان المخالف للإجماع لا يكفر إلا بمنابذة المعلوم بالضرورة، عبر بالاتباع فقال: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٤﴾.

(٢٩) طعمة بن أبيرق، سرق درعًا وأودعها عند يهودي فوُجدت عنده، ولم يثبت ذلك عليه حتى نزلت.

ثم قال إشارة إلى أن من خرق الإجماع صار حكمه حكم المشركين، فكيف بمن نابذ المرسلين؟: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٥﴾ ذكر الضلال دون الافتراء؛ لأن معظم السياق للعرب والجهل فيهم فاش، بخلاف أهل الكتاب فإنهم كفروا عن علم فكانوا مفترين.

﴿إِن يَدۡعُونَ﴾ عبّر عن العبادة بالدعاء؛ إشارة إلى أن كل معبود لا يُدعى في الضرورات فيَسمع فعابده أجهل الجهلة ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ فجعلوا أنفسهم للإناث عبادًا وهم يأنفون من أن يكنّ لهم أولادًا، هذا مع أن مادة «أنث» و«وثن» يلزمها في نفسها الكثرة والرخاوة والفرقة، وكل ذلك في غاية البعد عن رتبة الإلهية ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾ أي: يعبدون في الحقيقة ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنًا﴾ لأنه هو الآمر لهم بذلك ﴿مَّرِيدًا ١١٦﴾ وعبّر بصيغة «فعيل» للمبالغة في ذمهم؛ تنبيهًا على أنهم تعبدوا لما لا إلباس في شرارته لأنه شر كله، بخلاف ما في سورة الصافات(٣٠) فإنه يقتضي عدم المبالغة.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ١١٧ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ كل ما أقدر عليه من الباطل مما هو سبب للتسويف بالتوبة ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ بأنواع التغيير، من تغيير الفطرة الأولى السليمة إلى ما دون ذلك من فقوء عين الحامي ونحوه، ويدخل فيه كل ما خالف الدين، فإن الفطرة الأولى داعية إلى خلاف ذلك، حتى أدخلوا فيه تشبه الرجال بالنساء في التخنث وما يتفرع عنه وتشبههن بهم في السحق وما نحا نحوه ﴿وَمَن يَتَّخِذِ﴾ أي: يتكلف تغيير الفطرة الأولى فيأخذ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا ١١٨﴾.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ بأن يخيّل إليهم في شيء من الأباطيل أنه قريب الحصول وأنه إن لم يحصل كان في فواته ضرر، فيسعون في تحصيله فيضيع عليهم في ذلك الزمان ويرتكبون فيه ما لا يحل من الأهوال والهوان ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ أي: يزين لهم تعليق الآمال بما لا يتأتى حصوله ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾ وأظهر في موضع الإضمار زيادةً في النفرة فقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: المحترق البعيد عن الخير ﴿إِلَّا غُرُورًا ١١٩﴾ أي: تزيينًا بالباطل وإظهارًا لما لا حقيقة له أو له حقيقة سيئة = في أبهى الحقائق وأشهاها إلى الطبع.

---

(٣٠) في قوله: ﴿وحفظًا من كل شيطان مارد﴾ الآية: ٧.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢١﴾ وأكثر من التأكيد هنا لأنه في مقابلة وعد الشيطان، وهو موافق للهوى الذي طبعت عليه النفوس، فلا تنصرف عنه إلا بعسر شديد.

ولما كان الكفار يمنون أنفسهم الأماني الفارغة، فكان أهل الكتاب يدّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، والمشركون يقولون: ﴿نحن أكثر أموالًا وأولادًا وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ: ٣٥] ونحوه، قال رادًا على الفريقين: ﴿۞لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ التي يمنيكم جميعًا بها الشيطان ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٢ وَمَن يَعۡمَلۡ﴾ وخفف تعالى عن عباده بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٣﴾ اشتملت هذه الكلمات العشر على الدين كله، مع الترغيب بالمدح لمتبعه، وإفهام الذم لغيره.

[ولما شرط للجنة الإيمانَ شرحه وبين فضله من وجهين: أحدهما: أنه الدين الذي فيه إظهار كمال العبودية لله، والثاني: أنه دين إبراهيم ﷺ][31] فقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٤﴾.

[ولما ذكر من أول السورة إلى هذا الموضع أنواعًا من التكاليف والوعد والوعيد، بين هنا أنه الملك المطاع، فوجب على كل عاقل أن يخضع لتكاليفه، وأيضًا: لما أخبر أنه اتخذ إبراهيم خليلًا بين أن ذلك لا يخرجه عن عبوديته؛ لأن كل ما في السماوات والأرض ملكه][32] فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٥﴾.

ولما كانت النفوس لا تنقاد للأعمال الشاقة إلا ببشارة ونذارة، وكان ذلك لا يؤثّر إلا عند القطع بكمال من صدر عنه: رتب تعالى هذا الكتاب على أنه يذكر أحكامًا، ثم يفصلها بوعد ووعيد، وينظمها بدلائل بره وجلاله، ثم يعود إلى بيان الأحكام، فيكون ذلك أقرب إلى القبول، ولما كان توريث النساء والأطفال مما أبته نفوسهم، فكان التفريق في إثباته أنجع، وصل بذلك قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ مكررين الاستفتاء وهو لا يكون غالبًا إلا

---

(٣١) مفاتيح الغيب ٦/ ٥٥، بتصرف.

(٣٢) مفاتيح الغيب ٦/ ٥٩، بتصرف.

فيما فيه اعتراض، محتجين بأنه لا ينبغي أن يكون المال إلا لمن يحمي الذمار، والحال أنهم قد عبدوا من دونه إناثًا، وجعلوا لهم مما رزقهم الله نصيبًا.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ بسبب التوقف في ذلك وتكرير الاستفتاء عنه ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وما أنسب ذكر هذا الحكم الذي كثرت فيه المراجعة عقب آية الإسلام الذي معناه الانقياد والخضوع والإحسان، وذكْر إبراهيم عليه السلام الذي تقدم أنه وفّى بكلمات ربه من غير مراجعة ولا تلعثم، وأنه كان حنيفًا ميالًا مع الدليل؛ تعنيفًا لمن قام عليه الدليل وهو يراجع ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٦﴾﴾.

[ثم أخبر عن أمر آخر مما أفتاهم به فيهن](٣٣) فقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ أي: ظنت بما يظهر لها من القرائن ﴿مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي: ترفعًا بمنع حقوقها أو إساءة صحبتها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ﴾ ولما كان التقدير: أو يتفارقا على وجه العدل، عطف عليه قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ أي: من المفارقة؛ لأن مبناه الإحسان الكامل بالرضى من الجانبين، والمفارقة مبناها العدل الذي يلزمه في الأغلب غيظ أحدهما، وتخصيص المفارقة بالطيّ؛ لأن مبنى السورة على المواصلة.

ولما كان منشأ التشاجر المانع من الصلح: شكاسة في الطباع، صوّر سبحانه ذلك تنفيرًا عنه فقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: الناظرة إلى نفاستها عُجبًا ﴿ٱلشُّحَّ ۚ﴾ أي: الحرص وسوء الخلق، وكله يرجع إلى اعوجاج الفطرة الأولى الذي كنى عنه بالإحضار الذي لا انفكاك له إلا بجهاد وتذكير بما عند الله من حسن الجزاء ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ إشارة إلى أن الشحيح لا محسن ولا متق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٧﴾﴾ فهو مجازيكم عليه أحسن جزاء.

ولما ذكر سبحانه أن الوقوف على الحق -فضلًا عن الإحسان- متعسر، أتبعه أن ذلك عند الجمع أعسر فقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٨﴾﴾.

---

(٣٣) مفاتيح الغيب ٦/ ٦٣، بتصرف.

ولما كان من الإصلاح المعاشرة بالمعروف، ذكر قسيمه فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٢٩﴾. ثم دل على صفة الوسع بقوله ترغيبًا في سؤاله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان في السياق بيان ضعف النفوس ونقصها، فكانت محتاجة إلى تقوية الكلام المخرج لها عما ألفت من الباطل قال: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾.

ولما كرر الحث على التقوى لكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفس عند الزوجية والقرابة، أخبر أن وصيته بها قديمة؛ ليكون أدعى للقبول فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ١٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣١﴾ ودلت جملة «لله» في كل مرة على غير الذي قبلها، والدليل إذا كثرت مدلولاته كانت إعادته مع كل واحد منها أولى؛ ليقوى العلم بالمدلول، وختم كل جملة بصفة من صفاته الحسنى؛ ليجتهد السامع في التفكر والاستدلال على صفات الكمال؛ لأن الغرض الكلي من هذا الكتاب: صرف العقول عن الاشتغال بغير الله تعالى إلى الاستغراق في معرفته سبحانه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٢﴾ ولما كان فيها تهديد بليغ وتعريف بسعة الملك وكمال التصرف، وكان مدار أحوال المتشاحين الأمرُ الدنيوي، وكان قد بيّن أن مبنى أحوال المنافقين على طلب الدنيا خصوصًا، قال تخسيسًا لهممهم: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ لقصور نظره على المحسوس الحاضر كالبهائم ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ وما أشد التئامها بما قبلها؛ لأن من كان تام القدرة واسع الملك كان كذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ١٣٣﴾.

ثم قال ما هو كالنتيجة لما مضى من الأمر بالقسط من أول السورة إلى هنا على وجه أكّده وحث عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ ولما كان أعظم مباني هذه السورة العدل قدمه فقال: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بخلاف ما يأتي في المائدة، فإن النظر فيها إلى الوفاء الذي إنما يكون بالنظر إلى الموفى له ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا﴾ فيخيَّل إليكم أن الشهادة له بباطل تدفع ضرًا ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فتشهدوا له بذلك رحمةً له ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ فهو المرجو لجلب النفع ودفع الضر بغير ما ظننتموه ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٤﴾.

ولما أمر بالعدل على هذا الوجه، أمر بالحامل عليه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٥﴾.

ولما كان التمادي بعد نزول هذا الهدى موجدًا للكفر مجددًا له قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بما كانوا مهيئين له من الإيمان بالفطرة الأولى ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ فعوّجوا ما أقامه الله من فطرهم ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعد مجيء الرسول بإظهار الأدلة وإقامة الحجج ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بتجديد الكفر أو التمادي فيه ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ﴾ بإصرارهم على الكفر إلى الموت ﴿كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٦﴾.

[ولما ذكر طائفة تظهر الكفر، ذكر أخرى تبطنه فقال][34]: ﴿*بَشِّرِ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٧ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٨ وَقَدۡ﴾ أي: يتخذونهم والحال أنه قد ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِى ٱلۡكِتَـٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ عبر عن الشروع بالخوض، إيماءً إلى أن كلامهم لا يخلو عن شيء في غير موضعه رمزًا إلى عدم مجالستهم على كل حال، فكيف بولايتهم!

﴿إِنَّكُمۡ إِذًا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ أي: في الكفر؛ لأن مجالستهم دالة على النفاق والرضى بما يصرحون به، والرضى بالكفر كفر، وكذا المخالط للعاصي من غير إنكار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱلۡكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٣٩﴾.

ثم وصف أولئك المنافقين بما يعرّف بهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ تحقيرًا لظفرهم ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: نطلب حياطتكم والمحافظة على مودتكم حتى غلبنا على جميع أسراركم ﴿وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ أي: من تسلطهم بما كنا نخادعهم به ونشيع فيهم الإرجافات والمرغّبات الصارفة لهم عن كثير من المقاصد ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۗ﴾ ولما كان هذا ربما أيأس المؤمنين من الدنيا قال: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤٠﴾.

(٣٤) التحرير والتنوير ٥/ ٢٣٣.

ثم قال معللًا لمنعهم السبيل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ لأنهم يرونها تعبًا من غير أرب، فالداعي إلى تركها وهو الراحة أقوى من الداعي إلى فعلها وهو خوف الناس ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ليظنوهم مؤمنين فيُرُونهم ما يسرهم ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤١﴾ حيث يتعين ذلك طريقًا لمخادعتهم ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٢﴾.

ولما أنكر على من اتخذ الكافرين أولياء، صرح بالنهي عنه للمؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٣﴾ أي: دليلًا واضحًا على كفركم باتباعكم غير سبيل المؤمنين.

ولما نهاهم عن أفعال المنافقين أخبر بجزائهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأن ذلك أخفى ما في النار وأدناه وأخبثه، كما أن كفرهم كذلك ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ حثًا على مجاهدة النفس في الإقلاع عنه لشدة عسره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٥ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٦﴾.

ولما أخبر أنه يبغض خوض الكافرين الذين قبّح مجالستهم حال التلبس به، كان كل جهر بسوء كذلك إلا ما استثناه فقال: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ ثم ندب إلى العفو والإحسان حثًا على الأحب إليه سبحانه والأدخل في الكرام فقال: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٨﴾.

ثم شرع في بيان أحوال أهل الكتاب وأنهم هم الذين أضلوا المنافقين بما يلقون إليهم من الشبه التي وسّع عقولَهم لها: ما أنعم به عليهم سبحانه من العلم، فوضعوا نعمته حيث يكره، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٤٩﴾ عطف الجمل فيها بالواو وإن كان بعضها سببًا لبعض؛ إشارة إلى أنهم جديرون بالوصف بكل منها على انفراده، وأن كل خصلة كافية في نسبة الكفر إليهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ لأن الدليل على نبوة البعض دليل على نبوة كل من حصل منه مثل ذلك الدليل، فإذا جاز حصول الدليل بدون المدلول تعذر الاستدلال به، فلزم حينئذ

الكفر بالجميع ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥١﴾﴾.

ثم ذكر بعض ما أرادوا به الفرقة حين قالوا كذبًا: إن كنت نبيًا فأتنا بكتاب جملة من السماء نعاينه حين ينزل كما أتى موسى عليه السلام فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ وزاد في تبكيتهم بقوله: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى أن العالِم ينبغي له أن يكون أبعد الناس من التمويه فضلًا عن الكذب الصريح، واليهود الآن معترفون بأن التوراة لم تنزل جملة.

﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا يدل على أن كلا السؤالين ممنوع؛ لأدائه إلى الاستخفاف بالمعجزات، مع أن إنزال الكتاب جملة غير مناسب لحكمة هذه الدار من ربط المسببات بالأسباب، ومن المعلوم أن تفريق الأوامر سبب لخفة حملها وأعظم تثبيتًا للمنزل عليه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ لكون سؤالهم الرؤية على هذا الوجه تعنت من غير مقتض له أصلًا.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٢﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٣﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهو أعظم من مطلق كفرهم؛ لأن ذلك سد لباب الإيمان عنهم وعن غيرهم، وهذا الحرف لكونه في سياق طعنهم في القرآن الذي هو أعظم الآيات، وقع التعبير فيه أبلغ مما في آل عمران؛ فإنه أتى فيه بالمصدر المفهِم لأن القتل صار لهم خُلقًا وصفة راسخة، بخلاف ما مضى فإنه بالمضارع الذي ربما دل على العروض.

ثم ذكر أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظائمهم إلى الله فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ﴾ وقد كذبوا لأنهم ولدوا كغيرهم على الفطرة ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فإنهم لما اختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم وترك ما تدعو إليه عقولهم، طبع سبحانه عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٤﴾﴾.

ثم عطف على كفرهم بعض ما هو منه، فقال مؤكدًا بإعادة العامل: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ افتخارًا به مع شكهم فيه، فجمعوا بين أنواع من القبائح، منها: التشبّع بما لم يعطوا، ومنها

على تقدير صدقهم: الكفر بقتل النبي لكونه نبيًا، ومطلق القتل، ووصفه بالرسالة مضافة إلى الاسم الأعظم؛ استهزاء به وبمن أرسله -عز اسمه-؛ لأنه لم يمنعه منهم على زعمهم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾ وعبر بأداة الاستثناء دون «لكن» الموضوعة للانقطاع، إشارة إلى أنهم شكوا في قتله، ثم كلفوا أنفسهم جعله ظنًا، ثم جزموا به، ثم صار عندهم متواترًا قطعيًا، فلا أجهل منهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ إلى مكان لا يصل إليه حكم آدمي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ إذا فعل شيئًا أتقنه بحيث لا يطمع أحد في نقض شيء منه، والختم بهاتين الصفتين يدل على أن المراد استهزاؤهم والرد عليهم.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المختلفين في عيسى عليه السلام ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ بعد نزوله من السماء: أنه ما قتل وما صلب ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ [ولما شرح فضائح اليهود، أعقب بتشديده عليهم في الدنيا والآخرة][٣٥]، فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠﴾ أنه شدد عليهم فمُنعوا مستلذات تلك المآكل بما منعوا أنفسهم وغيرهم من لذاذة الإيمان ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ بسبب ما آلموا الناس بأكل أموالهم وتغطيتهم على حقوقهم.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ ثم أتبعه ما نشأ عن العلم من الفضائل فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يجددون الإيمان في كل لحظة ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ ولما كانت الصلاة أعظم دعائم الدين، ولذلك كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر نُصبت على المدح من بين هذه المرفوعات فقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾ ثم رجع إلى الرفع ليكون أبين في مدحها فقال: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾ وعطفت الأوصاف بالواو تفخيمًا لها وإشارة إلى أن الرسوخ في العلم مقتضٍ لأنهم في الذروة فيها.

ثم ذكر علة إيمانهم فقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ

(٣٥) مفاتيح الغيب ٦/ ٩٦، بتصرف.

﴿وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ ولما كانوا قد طلبوا أن ينزل عليه الكتاب جملة واحدة كما زعموه في موسى قال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ وهم يدّعون الإيمان به مع اعترافهم بأنه لم ينزل جملة ولا مكتوبًا من السماء ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ أي: شيئًا فشيئًا لا جملة واحدة.

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾ ولما كان المراد استغراق النفي لجميع الزمان المتعقّب للإرسال، أسقط الجار فقال: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ فلذلك رتب أمورًا لا يكون معها لأحد حجة.

ولما كان التقدير: ومع ما قام من البراهين فهم لا يشهدون بصدقك قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ وبلاغته وحكمته هي شهادة الله لأنه قائله ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾.

ولما قامت الأدلة على صحته، أتبعه وصف من جحده في نفسه وصد عنه غيره فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ لأن أشد الناس ضلالًا: مبطل يعتقد أنه محق ثم يحمل غيره على مثل باطله، فصاروا بحيث لا يرجى لهم الرجوع إلى الطريق النافع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾.

ولما أنتج جميع ما تقدم صدقَ الرسول، دعاهم إلى اتباعه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ولم يؤكد بتكرير «ما»؛ لأن قيام الأدلة أوصل إلى حد من الوضوح بشهادة الله ما لا مزيد عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فلا يسع ذا لب أن يعدل عما أخبر به ﴿حَكِيمٗا ١٧٠﴾ فلا ينبغي له أن يضيع شيئًا من أوامره لأنها على غاية الإحكام.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ فمن قال عن عيسى عليه السلام أنه لغير رِشدة فقد جوّز أن يُظهِر اللهُ المعجزاتِ على يد من لا يحبه وذلك مناف للحكمة، ومن قال إنه الله أو ابن الله فهو أبطل وأبطل، بل ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتهم ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ وإن ضممتم إليه أنه إله واحد؛ لأن ذلك بديهي

البطلان ﴿إِنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾ فإن ذلك يقتضي الحاجة والمجانسة فلا يكون واحدًا، ولأنه إله واحد لا شريك له فإن ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧٠﴾.

[ولما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام وأنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه فقال][٣٦]: ﴿۞لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ فإنه من جنس البشر ﴿وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ ولما أخبر عن خلّص عباده بالتشرف بعبوديته، أخبر عمن يأبى ذلك فقال مهددًا: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧١ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ بما وجدوا من لذاذة الترفع والكبر وآملوا بذلك أولياء الله ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾ وفيه أتم زاجر عما قصده المنافقون من موالاة أهل الكتاب.

ولما كان السامع جديرًا بأن يكون قد شرح صدرًا بقواطع الأدلة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: المحسن إليكم بإرساله ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ فإن الله لما خلق للآدمي عقلًا وحفّه بالشهوات والفتور، أنزل كتبه بذلك العقل مجردًا عن كل عائق، وأمرهم أن يجعلوا عقولهم تابعة له منقادة به؛ لأنها مشوبة وهو خالص.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ أي: جعلوه عصامًا لهم في الفرائض التي هي من أعظم مقاصد هذه السورة فلا يضلوا بعد الهدى؛ لأن العصام هو الرابط للوعاء أن يخرج شيء مما فيه، وصيغة الافتعال تدل على الاجتهاد في ذلك؛ لأن النفس داعية إلى الإهمال المنتج للضلال ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ لا بشيء استوجبوه ﴿وَفَضۡلٖ﴾ يعلمون أنه زيادة لا سبب لهم فيها ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾.

فوصف هذا القسم بالاعتصام بالله وقبول جميع أحكامه، تعريضًا بالمنافقين الذين والوا غيرهم، وبالكافرين الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وترك قسم المستنكفين والمستكبرين ووضع موضعه حكمًا من أحكام الفرائض من غير عطف بل بكمال الاتصال، بيانًا لأن من أبى توريث النساء والصغار فقد استنكف عن عبادته واستكبر وإن آمن ببقية الأحكام

(٣٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٨٦، ابن الجوزي.

فقال: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ وللاعتناء بأمر المواريث قال إشارة إلى أن الله لم يكل أمرها إلى غيره: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾.

ومن استنكف عن حكمٍ فذاك الكافر حقًا، وهذا مراد أهل الكتاب المريدين لضلالكم لتشاركوهم في الشقاء الذي وقع لهم لما بدلوا الأحكام ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلًا عظيمًا﴾ [النساء: ٢٧] ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ [النساء: ٤٤] ولذلك -والله أعلم- ختم هذه الآية بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٥﴾ وجعل الكلام في الفرائض في أول السورة وأثنائها وآخرها اهتمامًا بأمرها، ولِما تقدم من أن تفريق القول فيما تأباه النفوس أدعى لقبوله.

ومن هنا ظهرت مناسبة آخر هذه السورة لأولها؛ لأن أولها مشير إلى أن الناس كلهم كشيء واحد، وذلك يقتضي عدم الفرق بينهم إلا فيما شرعه الله، وآخرها مشير إلى ذلك بالتسوية بين النساء والرجال في مطلق التوريث وإن اختلفت الأنصباء، كما أن ختامها بإحاطة العلم دليل على ما تضمنه أولها من تمام القدرة؛ لأن تمام العلم مستلزم لشمول القدرة، قال الإمام: "وهذان الوصفان هما اللذان بهما ثبتت الربوبية والإلهية، وبهما يجب على العبد أن يكون منقادًا لكل التكاليف".

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتاب ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق؛ شكرًا لنعمه واستدفاعًا لنقمه، وقصة المائدة أدل ما فيها على ذلك، وتسميتها بـ«العقود» أوضح دليل على ما ذكرت من مقصودها وكذا «الأحبار».

لما أخبر في آخر سورة النساء أن اليهود لما نقضوا المواثيق حرم عليهم طيبات أحلت لهم، ناسب افتتاح هذه بأمر المؤمنين بالوفاء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ١﴾ وهي تعم جميع أحكامه سبحانه ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فاحذروا أن تنقضوا كما نقضوا فيصيبكم ما أصابهم، وفي الأمر بالوفاء بالعقود بعد الإخبار بأنه بكل شيء عليم: غاية التحذير من تعمد الإخلال بشيء من ذلك وإن دق، وفي افتتاح هذه بذكر الأطعمة عقب سورة النساء التي من أعظم مقاصدها النكاح والإرث المشروع فيهما الولائم والمآتم = أتم مناسبة.

﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: حدوده في جميع الدين، وشعائر الحج أدخل في ذلك والاصطياد أولاها ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ لعله وحّده والمراد الجمع، إشارة إلى أن الأشهر الحرم كلها في الحرمة سواء ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ﴾ أي: ولا تحلوا التعرض لناس قاصدين ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ لأن من قصد بيت الملك كان محترمًا باحترام ما قصده.

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ إِن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ ولما نهاهم عن أشياء اشتد إلفهم لها ورغبتهم فيها، وكان الانتهاء عن الحظوظ شديدًا، أمر بالتعاون فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ كرر الأمر بها إشارة إلى أنها الحاملة على كل خير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

ثم عدّد ما وعد بتلاوته عليهم مما حرم مطلقًا إلا في حال الضرورة فقال: ﴿۞حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ﴾ ولما كان القصد في هذه السورة إلى حفظ

العهود قدم المفعول له فقال: ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ فهو دخول في علم الغيب، ويلتحق به كل كهانة وتنجيم وطيرة يتطيرها الناس الآن من التشاؤم ببعض الأمور، فإياك أن تعرج على شيء منها فتكون على شعبة جاهلية ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: خروج من الدين.

ولما كانت هذه المنهيات معظم دين أهل الجاهلية عُلم أن الأمر بالكف عنها لم يكن إلا بعد كمال الدين وإظهاره على كل دين، وكذا الانتهاء عن جميع هذه المحارم إنما يكون لمن رسخ في الدين قدمه فلا التفات له إلى غيره، ولذا عقبها بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بإنزال كل ما يُحتاج إليه من أصل وفرع، نصًا على البعض وبيانًا لطريق القياس في الباقي.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بأن جمعت عليه كلمة العرب؛ ليظهر بهم الدين وتنكسر شوكة المفسدين، من غير حاجة في ذلك إلى غيرهم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ تتجازون به فيما بينكم ويجازيكم به ربكم ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾.

ولما حرم الميتة وكان الصيد ربما مات في يد الجارح قبل إدراك ذكاته فسأل بعضهم عن ذلك قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: علماء نحارير في ذلك، فأفاد أن على كل طالب لشيء أن لا يأخذه إلا من أجلّ العلماء به وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من آخذ من غير متقن قد ضيع أيامه! ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ولما كان تعليم الجوارح أمرًا خارجًا عن العادة في نفسه -وإن كان قد كثر حتى صار مألوفًا- ختم الآية بما هو خارج عن عادة البشر من سرعة الحساب ودقته، فقال محذرًا من إهمال شيء مما رسمه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾.

ولما كان قد تقدم النهي عن نكاح المشركات والمنافرة لجميع أصناف الكفار؛ لضعف الأمر إذ ذاك وشدة الحاجة إلى إظهار الغلظة لهم لتعظيم دين الله، حتى كانت خلطتهم من أمارات النفاق، وكان الدين وصل عند نزول هذه من العظمة إلى حد لا يحتاج فيه إلى ذلك،

وكانت مخالطة أهل الكتاب لا بد منها عند فتوح البلاد، فأُمنت الفتنة في مخالطتهم = وسّع الأمر بحل طعامهم ونسائهم، فقال مكررًا ذكر الوقت الذي أنزل فيه هذه الآيات:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ﴾ أي: قاصدين الإعفاف والعفاف؛ تنبيهًا على أنه لا يقصد المتصفةَ بغيره لمجرد الشهوة إلا من أخلد إلى مجرد الحيوانية فصار أدنى من البهائم، مع أن التعليق بذلك الوصف لا يُفهِم الحرمة عند فقده بل الحلَّ من باب الأولى؛ لأن من حِكَم النكاح الإعفاف، فإذا شرع إعفاف العفائف كان إعفاف غيرهن أولى؛ لأن زناها إما لشهوة أو حاجة، وكلاهما للنكاح مدخل عظيم في نفيه، والله أعلم.

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ﴾ ولما كان النهي عن نكاح المشركات لخشية الفتنة، وكانت الفتنة -وإن علا الدين ورسخ اليقين- ممكنة، وكانت الصلاة تسمى إيمانًا؛ لأنها من أعظم شرائعه، وكانت مخالطة الأزواج مظنة للتكاسل عنها ولهذا أنزلت ﴿حافظوا على الصلوات﴾ [البقرة: ٢٣٨] بالمحل المتقدم، ختمت هذه الآية بقوله عز وجل منفرًا من نكاحهن بعد إحلاله إشارة إلى أن الورع تركه؛ امتثالًا للنهي عن موادة المحادّ لئلا يحصل ميلٌ فيدعو إلى المتابعة، أو ولدٌ فتستميله لدينها: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦﴾.

ولما افتتح هذه السورة بالأمر بالوفاء بحق الربوبية، ووفّى سبحانه هذا الحق بما أفاضه من المنافع والملذات فضلًا منه، أتبعه الأمر بالوفاء بعهد العبودية، وقدم منه الصلاة لأنها أشرفه بعد الإيمان، وقدم الوضوء لأنه شرطها فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ﴾ وخصت الصلاة ومس المصحف بالأمر بالوضوء تشريفًا لهما، وقد نزلت هذه الآية والنبي ﷺ يخطب: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب» فقوله «المصلون» إشارة إلى أن الماحي للشرك هو الصلاة ومتى زالت رجع، وإلى ذلك يشير قوله ﷺ: «بين العبد والكفر ترك الصلاة».

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي: قضيتم حاجة الإنسان التي لا بد له منها، وينزه الكتاب عن التصريح بها؛ لأنها من

النقائص المذكِّرة له بعجزه وفقره؛ ليكف من إعجابه وفجره ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧﴾.

ولما كان في هذه المأمورات والمنهيات خروج عن المألوفات، ذكّر بما يوجب القبول والانقياد فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ لم تُجمع لئلا يظن أن المقصود تعداد النعم لا الندب إلى الشكر بتأمل هذا الجنس ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ حين بايعكم الرسول ﷺ ليلة العقبة على السمع والطاعة.

﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ ولما كان مبنى السورة على الوفاء بالعهد، وكان الوفاء بذلك إنما يخف على النفوس ويعظم العزم عليه بالتذكير بجلالة موثقه، قدّم قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

ولما كان من جملة المعاقَد عليه ليلة العقبة أن يقولوا الحق حيث ما كانوا لا يخافون في الله لومة لائم قال: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ وقال أبو حيان: "فالتي في معرض المحبة والمحاباة بدئ فيها بما هو آكد وهو القسط، والتي في معرض العدواة والشنآن بدئ فيها بالقيام لله، وأيضًا فتقدم هناك حديث النشوز والإعراض فناسب ذكر تقديم القسط، وهنا تأخر ذكر العداوة فناسب أن يجاورها ذكر القسط".

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ يمكن أن يدخل فيه بغض أهل الزوجة الكافرة أو ازدراؤها في شيء من حقوقها لخسة دينها، فأُمروا بالعدل بينها وبين ضراتها المسلمات، وإذا كان هذا الشأن في الكافر فما الظن به في المسلم! ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ حتى فيمن يجاوز فيكم الحدود، فكلما عصوا الله فيكم أطيعوه فيهم ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ عبّر باللام دون «إلى» المقتضية لنوع بُعد زيادةً في الترغيب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩﴾ وقال أبو حيان: "لما كان الشنآن محله القلب وهو الحامل على ترك العدل، أمر بالتقوى وأتى بصفة ﴿خبير﴾ المختصة بما لطف إدراكه".

ولما أمر ونهى، بشر وحذر فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝١٠ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١١﴾ أي: النار التي لا يراها شيء إلا أحجم عنها؛ لأنهم أقدموا على ما ينبغي الإحجام عنه من التكذيب بما لا

ينبغي التكذيب به. ثم قال مذكِّرًا للمؤمنين ببعض ما خاطبهم به؛ ليقدموا على مباينة الكفرة ويقفوا عند حدوده كائنة ما كانت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ولو شاء لسلطهم عليكم كما سلط ابن آدم على أخيه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ فإنه يمنعهم إذا شاء كهذا المنع وإن تعاظم الأمر.

ثم قال إشارة إلى ملازمة اليهود للنقض، تحذيرًا للمؤمنين من أن ينقضوا مثلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم من الصَّغار، وإعلامًا بأن عادته سبحانه في الإلزام بالأوامر قديمة غير مخصوصة بهم: ﴿۞وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ ثم ذكر شرط هذه المعية فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ لأن بذل المال أعظم مصدِّق للإيمان ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ﴾ ولما كان المهلِك من المعاصي ما اتصل بالموت فأحبط ما قبله، نزع الجار فقال: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٣﴾﴾.

قال ابن الزبير: "وذكر عهد الآخرين فقال: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ [المائدة: ١٤]، ثم فصّل للمؤمنين أفعال الفريقين ليتبين لهم ما نقضوا فيه، ثم بين تفاوتهم في البعد عن الاستجابة فقال: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة﴾ [المائدة: ٨٢] الآية".

ولما نقضوا الميثاق، بيّن أنهم استحقوا ما هم فيه من الخزي فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ﴾ وعن ابن مسعود: "قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية"، وتلا هذه الآية ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ولما دخل النصارى فيما مضى لأنهم من بني إسرائيل، خصهم بالذكر لأن كفرهم أشد وأسمج فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ أي: مسمين أنفسهم ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ ولما أدى ذلك إلى تشعبهم وتشاحنهم قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ وبين اليهود ﴿ٱلْعَدَاوَةَ﴾ ولما كانت قد تكون عن بغي ونحوه إذا زال زالت أو خفت، قال معلمًا أنها لأمر باطني نشأ من تزيين الهوى فهو ثابت غير منفك: ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ

﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ولما كانوا قد تدربوا على الخيانة حتى صارت لهم خلقًا، سماها صنائع فقال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٥﴾.

ولما علم بذلك أحوال الفريقين، أقبل عليهم واعظًا فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ١٦ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٧ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: كدورات النفوس والأهواء والوساس الشيطانية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ فيصيروا عاملين بأحسن الأعمال كما يقتضيه اختيار من في النور ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٨﴾ وذلك مستلزم لسرعة الوصول.

ثم قال مبيّنًا لما عليه أهل الكتاب من الظلام: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ ثم قال مثبتًا لكمال التصرف مع كمال الملك: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ كبشر من أنثى فقط ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

ثم ذكر طامة من طوامهم حملهم عليها العجب والبطر بما أنعم الله به عليهم فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي: عريقون في كل من الوصفين، كما يدل عليه العطف بالواو ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾.

[وبانت علة ذلك بقوله]: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ أي: الذي عظمته من عظمتنا، فإعظامه واجب لذلك ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ ولعله عبر بالمضارع إشارة إلى أن دينه وبيانه لا ينقطع أصلًا بحفظ كتابه، فكلما درست سنة منح الله بعالم يرد الناس إليها بالكتاب المعجز القائم أبدًا، فلذا لا يحتاج الأمر إلى نبي مجدد إلا عند الفتنة التي لا يطيقها العلماء وهي فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢١﴾.

ثم حكى من أخبارهم ما فيه دلالة على نقضهم الميثاق وقساوتهم ونقض ما ادعوه من بنوتهم ومحبتهم، وذلك أنها ناطقة بتعذيبهم وتفسيقهم حين عصوا، فعلم أن الإكرام

والإهانة دائران بعد مشيئته على الطاعة والمعصية فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ بعد ما كنتم عبيدًا لفرعون غير طامعين في شيء منه، فكذلك جعله في غيركم لكفركم بالنعم وإيثاركم الجهل على العلم ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم أتبعه ما يقيد به هذه النعم من الشكر، بامتثال الأمر في جهاد الأعداء في سياق مؤذن بالنصر، معلم بأنه نعمة أخرى يجب شكرها فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ عبروا بأداة الشك مع إعلام الله لهم بإهلاكهم على أيديهم، جلافة منهم وعراقة في التكذيب.

﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يوجد منهم الخوف من الجبارين، ومع ذلك فلم يخافا وثوقًا منهما بوعد الله ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ لأن الملك معكم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾. فلم يزدهم ذلك إلا نفارًا واستضعافًا لأنفسهم لإعراضهم عن الله فـ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فكان فعلهم فعل من يريد السعادة بمجرد ادعاء الإيمان من غير تصديقه بالأفعال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ثم بعد هلاكهم أدخلها بنيهم الذين نشؤوا في التيه؛ لسلامتهم من اعوجاج طباعهم التي ألبستهم إياها بلاد الفراعنة، وفي هذه القصة أوضح دليل على نقضهم للعهود التي بنيت السورة على طلب الوفاء بها، ومات في تلك الأربعين كل من قال ذلك القول أو رضيه، وأنعم الله عليهم فيه بالغمام والطعام؛ لأن المنع بالتيه كان تأديبًا لهم لا غضبًا فإنهم تابوا.

﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ وهي من أعظم الأدلة على نبوتك؛ لأن ذلك لا علم لك ولا لقومك به إلا من جهة الوحي ﴿بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ

﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾ ومناسبتها لما قبلها: من حيث إنها أيضًا ناقضة لدعواهم البنوة؛ لأن قابيل ممن ولد في الجنة على ما قيل ومع ذلك فقد عُذب لما نقض العهد، ومن المناسبات أيضًا: أن كفر بني إسرائيل بمحمد ﷺ إنما هو للحسد، فنُبِّهوا بقصة ابني آدم على أن الحسد يجر إلى ما يسخط الله ويكب في النار.

وأحسن منه: أن يكون الأمر لموسى ﷺ عطفًا على «لا تأس» والمعنى أن قومك سيرثون الأرض المقدسة وأنت متوف قبل دخولها، وقد أجريت سنتي في بني آدم بأنهم إذا توطّنوا واستراحوا تحاسدوا، وإذا تحاسدوا تدابروا فاقتتلوا، فاتل عليهم هذه القصة لتكون زاجرة لهم من أن يفعلوا ذلك إذا فرغوا من الجبابرة وتوطنوا البلاد فأبطرتهم النعم، ويكون ذلك وعظًا لهذه الأمة ومانعًا من فعل مثل ذلك بعد إكمال دينهم ووفاة نبيهم ﷺ.

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ أي: فعالجته معالجة كبيرة وشجعته بما عندها من النفاسة على زعمها حتى غلبت عقله فانطاع لها، وتحقيق المعنى: أن من تصور النهيَ عن الذنب والعقابَ عليه امتنع منه فكان فعله كالعاصي عليه، ومن استولت عليه نفسه بالشبه في تزيينه صار فعله له كالمطيع له بعد أن كان عاصيًا عليه ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ لأنه فقد أخاه وأغضب ربه وأباه ولم يفده ذلك ما كان سبب غيظه بل زاده بعدًا.

قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»، وكذا «من سن سنة سيئة» ولهذا قال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»، وهذا لأن الآدمي لنقصانه أسرع شيء إلى الاقتداء في النقائص، وهذا ما لم يتب الفاعل، فإذا تاب أو كان غير متعمد للفعل كآدم عليه السلام لم يكن سانًا لذلك، فلا شيء عليه ممن عمل به.

ولما علم بهذا أن الإنسان موضع العجلة والإقدام على الموبقات من غير تأمل فكان أحوج شيء إلى نصب الزواجر، أتبعه قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ويُفهِم أيضًا أنهم أجرأ الناس على القتل ولذا كانوا يقتلون الأنبياء ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا﴾ من بني آدم، وكأنه أطلق تعظيمًا لهم ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ يبطل دعواهم البنوّة، إذ لا فضل لأحد على آخر في تحريم القتل بغير ما ذكر من الموجبات، لا من

بني إسرائيل ولا من غيرهم ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [ثم بين أن كثيرًا منهم بعدما كتبنا عليهم ذلك مسرفون في القتل لا يبالون بعظمته، فقال][37]: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ وبين شدة عتوهم بإصرارهم خلفًا بعد سلف، فلم يثبت الجار فقال: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٤﴾.

ولما كان الإسراف بعد هذه الموانع محاربة للناهي، وكان تارة يكون بالقتل وتارة بغيره قال: ﴿۞إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ﴾ وأثبت الجار إشارة إلى القبول وإن طال زمن المعصية وقصر زمن التوبة ﴿أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾.

ولما ذكر حكم المحاربين وكان ذلك ربما كان جزاء من لم يرسخ قدمه في الدين، أتبع ذلك الأمر بالتقوى وجهاد كل من أفسد بقطع الطريق أو غيره، فقال على وجه الاستنتاج مما قبله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولما كان التكليف منحصرًا في تخلٍ من المنهيات وتحلٍ بالمأمورات، وقدم الأول لأنه من درء المفاسد، أتبعه الثاني فقال: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ولما كان الناس عند الأمر والنهي بين مقبل ومعرض، وكان قد أمر المقبل بجهاد المعرض، وكان للجهاد مزيد خصوصية أُفرد بالذكر، وإعلامًا بأنه للعاصي مطلقًا سواء بالكفر أو بغيره فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٧﴾.

ولما كان ترك هذه الأوصاف الثلاثة: التقوى وطلب الوسيلة والجهاد، مزيلًا للوصف الأول وهو الإيمان، ناسب -تحذيرًا من تركها- ذكر حال الكفار وأنه لا تنفعهم وسيلة في تلك الدار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٨﴾. ثم علل شدة إيلامه بدوامه فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾ ولما كان دوام المكث ربما انقطع معه العذاب قال: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: خاصة دون عصاة المؤمنين ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾.

ولما كانت السرقة من جملة المحاربة والسعي بالفساد وكان فاعلها غير متقٍ ولا متوسل، عقب بها فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ وقايةً للمال وهوانًا لها للخيانة،

---

(٣٧) مفاتيح الغيب ٦/ ١٩٩، بتصرف.

وديتها إذا قُطعت في غير حقها خمس مئة دينار وقايةً للنفس ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٤٠ فَمَن تَابَ﴾ ودل على كرمه بقبول التوبة في أي وقت ولو طال زمن المعصية بإثبات الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ وعدل عن قوله «سرقته» تعميمًا للحكم في كل ظلم ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بردّ الظلامة والثبات على الإقلاع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾.

ولما كان معنى ذلك أنه لا اعتراض عليه سبحانه في شيء من ذلك ولا مانع، قال مقررًا له: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كان إيقاع النقمة أدل على القدرة وكان السياق لها قال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٢﴾ فختم بهذه القضية الضرورية ما دعت المناسبة إلى ذكره من الأحكام.

ولما كانت من غير شك علةً لعدم الحزن على من عصى قال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ وقدم الأسوأ فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ معبرًا بما هو أبعد عن القلب من اللسان، فهم إلى الحيوان أقرب ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: كفرت ألسنتهم تبعًا لقلوبهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ من منافقين يكذبون عليك ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ الصدقَ ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ لعلة.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ الذي يسمعونه عنك تحريفًا قريبًا من مواضعه، ولذا أثبت الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ وهذا أدق مكرًا مما في النساء[٣٨] ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ المنافقون بفضحهم وخوفهم، واليهود بالجزية وبيان تحريفهم وغيره ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٤٣﴾.

ثم ذكر أثر التحريف وهو الحكم به فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ أي: الحرام الذي يسحت البركة أي: يستأصلها وهو كل ما لا يحل كسبه، وهو أخذهم الرشى ليحكموا بالباطل على نحو ما حرفوه، ولما كانوا قد يأخذون الرشوة ولا يقدرون على إبرام الحكم فيترافعون إلى النبي ﷺ ليفعلوا ذلك، فإن حكم بما أرادوا قبلوه وإلا قالوا: ليس هذا في ديننا؛ لئلا يلزمهم بما حكم، أعلمه بما يفعل في أمرهم، فقال مخيِّرًا له في أمر

(٣٨) في قوله: ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ الآية: ٤٦.

المعاهدين: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٤﴾ أما أهل الجزية فيجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلى حاكمنا.

[ثم عجّب منهم في عدولهم عن حكم كتابهم إلى حكم من يعتقدون أنه مبطل ثم إعراضهم عن حكمه، فبيّن جهلهم وعنادهم لئلا يغتر بهم مغتر أنهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله، فقال][39]: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٥﴾ لأنهم لو كانوا عريقين في الإيمان بكتابهم لآمنوا بك لأن كتابهم دعا إليك.

ثم قال تأكيدًا لذمهم في الإعراض عما دعت إليه التوراة وتحذيرًا من مثل حالهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وحفظه: دراسته والعمل بما فيه، والآية من الاحتباك: ترك ذكر الحفظ في النبيين لدلالة الثاني عليه، وترك ذكر الإسلام في الثاني لدلالة الأول عليه، وإنما خص الأول بذكر الإسلام لأن الأنبياء أحق به، وهو داع إلى الحفظ قطعًا، وخص الثاني بالاستحفاظ لأن الأتباع أولى به، وهو دال على الإسلام ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ في العمل بحكم من الأحكام ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ فإن ذلك حامل لكم على العدل والإحسان ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾.

ولما نهى عن الأمرين وكان ترك الحكم بالكتاب: إما لاستهانة أو خوف أو رجاء أو شهوة، رتّب ختام الآيات على الكفر والظلم والفسق، قال ابن عباس: "من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق"، فقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تدينًا بالإعراض عنه وإن لم يحكم بغيره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٦﴾ وهذه الآيات نزلت في تبديل اليهود حكمَ التوراة في الزنا، ولكن لما كان السياق للمحاربة، وكان الزنا محاربةً خفية بالنظر إلى فحشه وجرّه أحيانًا إلى المحاربة، وغيرَ محاربة بالنظر إلى كونه عن تراضٍ غالبًا وصاحبه غير متزيٍّ بزي المحاربين، لم يصرح به.

---

(٣٩) مفاتيح الغيب ٦/ ٢٢٠.

ثم رجع إلى القتل مبينًا أنهم بدلوا فيه كما بدلوا في الزنا ففضلوا بني النضير على بني قريظة فقال: ﴿۞وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: الذين تركوا العدل فضلوا فصاروا كمن يمشي في الظلام.

ولما كانت هذه الآيات ناقضة أيضًا لما ادعوا من البنوة بما ارتكبوه من الذنوب أتبعها ما أتى به عيسى عليه السلام، وكذا كل ما بعدها من آياتهم إلى آخر السورة، لا تخلوا آية منها من التعرض إلى نقض دعواهم بذكر ذنب أو عقوبة فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وذكر الأثر يدل على أنهم تركوا دينهم فلم يبق منه إلا رسم خفي ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ونسبه إلى أمه إشارة إلى أنه لا والد له تكذيبًا لليهود، وإلى أنه عبد مربوب تكذيبًا للنصارى.

وقوله: ﴿مُّصَدِّقًا﴾ الأول صفة لعيسى عليه السلام والثاني صفة لكتابه ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ولما كان المتقون هم الذين ينزلون المحكم والمتشابه على ما يتحقق به أنه هدى، وكان قد بين أن في الإنجيل من الهدى ما يسهل به رد المتشابه إليه فصار بذلك كله هدى، قال معممًا بعد ذلك التخصيص: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

[فأنتج ذلك الوصف قوله]: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ وفي قراءة حمزة: ﴿ولِيحكمَ﴾ ﴿أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فإن كان تدينًا كان كفرًا، وإن كان لاتباع الشهوات كان معصية؛ لأن الشهوات تحمل على الخروج عن دائرة الشرع مرة بعد أخرى، وقدم الكفر؛ لأن السياق لمن حرف الكلم عن موضعه وذلك هو التغطية التي هي معنى الكفر لأنه من الظلام، كما أن الفسق سبب الظلم؛ لأنه الخروج عما من شأنه النفع، فكان الآخر أولًا في المعنى، والأول نهاية في الحقيقة.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكامل في جمعه لكل ما يطلب منه وهو القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ أي: شاهدًا حفيظًا مصدقًا وأمينًا رقيبًا، وفي هذه الصفة بشارة لحفظه سبحانه لكتابنا حتى لا يزال بصفة الشهادة، فإنه استحفظهم كتبَهم فعجزوا عنها فحرفها محرفوهم، فتكفل هو سبحانه بحفظ كتابنا فكان قيّمًا عليها،

فما كان فيها موافقًا له فهو حق وما كان مخالفًا فهو إما منسوخ أو مبدّل، ويحكم بما في كتابنا لأنه ناسخ لجميع الكتب، والآتي به مرسل إلى جميع العالمين.

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، فتذعنون معتقدين أن ذلك مقتضى الحكمة الإلهية ﴿فَاسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ حسًا في القيامة ومعنًى في جميع أموركم في الدارين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم أعاد الأمر بالحكم به ليكون مأمورًا به مرتين: مرة لأن الله أمر به وأخرى لأنه على وفق الحكمة، فقال تأكيدًا له وتعظيمًا شأنه، ومحذرًا من الأعداء فيما يلقونه من الشبه للصد عنه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم﴾ ولو أراد بهم الخير لهداهم إلى القبول ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ التي هذا منها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ولما كان من أعرض عن حكم الله أقبل ولا بد على حكم الشيطان الذي هو عين الهوى الذي هو دين أهل الجهل، سبب عنه الإنكار عليهم بقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ مع أن أحكامها لا يرضاها عاقل لأنها مجرد أهواء، وقراءة ابن عامر ﴿تبغون﴾ أدل على الغضب، ولما كان حسن الحكم تابعًا لإتقانه، وكان إتقانه دائرًا على صفات الكمال قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: المستجمع لصفات الكمال ﴿حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: يوجد منهم اليقين يومًا ما، وفي ذلك تقريع لهم بجمود أذهانهم، وتبكيت لهم بأنهم يصفون أهل الجاهلية بالضلال، وقد عدلوا في هذه الأحكام إليهم.

ولما بيّن عنادهم وعدواتهم، نهى من اتسم بالإيمان عن موالاتهم، لأنه لا يفعلها بعد هذا البيان مؤمن ولا عاقل فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولما كان الإنسان لا يوالي غير قومه إلا بمقدّمات يتحبب بها إليهم، أشار إلى ذلك بصيغة الافتعال فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فهم -وإن اختلفوا في الدين- متفقون على عداوتكم يا أهل الدين الحنيف ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لأن الله غني عن العالمين، فمن والى أعداءه تبرأ منه ووكله إليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي:

الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، فلذلك اختاروا غير دين الله ووالوا من لا تصلح موالاته، ونفي الهداية عنهم دليل على أن العبرة في الإيمان القلب، وهكذا كل من كان يقول أو يفعل ما يدل دلالة ظاهرة على كفره وإن كان يصرح بالإيمان.

ولما علل ذلك، كان سببًا لتمييز الخالص الصحيح من المغشوش المريض فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في موالاة أهل الكتاب حتى يكونوا من شدة ملابستهم كأنهم مظروفون لهم، ويعتلون بما لا يعتل به إلا مريض الدين من النظر إلى مجرد السبب في النصرة عند خشية الدائرة فـ﴿يَقُولُونَ﴾ اعتمادًا عليهم وهم أعداء الله ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ ولما كان فعلهم هذا للخالص سببًا في ترجي أمر من عند الله ينصر به دينه قال: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٤﴾.

ثم قال عطفًا على ﴿فيصبحوا﴾ أي: يكون ذلك سببًا لتحقق المؤمنين أمر المنافقين بالمسارعة في أهل الكتاب والندم عند خذلانهم ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٥٥﴾.

ولما أخبر أن من يتولهم فهو منهم، نفى المجاز مصرحًا بالمقصود، فقال مظهرًا لنتيجة ما سبق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وعدل عن قوله: «من يوالهم منكم» إلى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ﴾ ليصرّح بأن ذلك ترك للدين ﴿عَن دِينِهِۦ﴾ الذي معناه: موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فيوالون أعداءه ويتركون أولياءه، فيكونون أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين، فالله غني عنهم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ﴾ ولما كان ذلهم هذا إنما هو التواضع والرفق لا الهوان كان في الحقيقة عزًا، فقال مشيرًا إلى ذلك بحرف الاستعلاء: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لعلمهم أن الله يحبهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ﴾ من يستحقه باستمرارٍ من غير ملال كالمنافقين، وحذف المفعول تعميمًا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ فلذلك هم صلاب في دينهم، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين لا يروعهم قول قائل ولا اعتراض معترض ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٦ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم وصفهم

بما يصدّق إيمانهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٧ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٨﴾.

ولما نبه على العلل المانعة من ولايتهم، قال منبهًا على علل أخرى، موجهًا للبراءة منهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ونبّه بصيغة الافتعال على أن من يواليهم يجاهد عقله على ذلك اتباعًا لهواه فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٩﴾.

ولما عم في بيان استهزائهم جميع الدين خص روحه وخالصته فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ لعدم انتفاعهم بعقولهم، فكأنهم لا عقول لهم، ولذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ ولو كان لهم شيء من عقل لعلموا أن التذلل بين يدي الله بالصلاة لا أحسن منه بوجه، وللأذان من الأسرار ما تعجز عنه الأفكار، منها أنه جمع الدين كله أصولًا وفروعًا، كما بينته في كتابي: الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان.

[ولما أعلم أنهم اتخذوا الإسلام هزوًا ولعبًا] قال مبكتًا لهم وموبخًا: ﴿۞قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٦١ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي نقمتموه علينا مع كونه قيّمًا ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ والمثوبة للخير، استعارها للشر تهكمًا ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٢﴾.

ودل على استحقاقهم للعن وغيره مما تقدم بقوله، دالًا على صحة الإسلام بإطلاع شارعه نبيّه ﷺ على خفاياهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: لا تغتروا بمجرد قولهم الحَسَن الخالي عما يناسبه من الأفعال، فكيف بالمقترن بما ينفيها! ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ﴾ أي: من عند أنفسهم لسوء جبلاتهم من غير سبب منكم ﴿قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ بعد ما رأوا من الخير، دالًا على قوة عنادهم بالاسمية المفيدة للثبات ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦٣﴾.

ولما كذبهم في دعوى الإيمان أقام الدليل على كفرهم فقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ وكان هذا دليلًا على كفرهم لأنهم لو كانوا مؤمنين ما أصروا على شيء من ذلك، فكيف بجميعه! فكيف بالمسارعة فيه! ولما كانوا يزعمون العلم عبر عن فعلهم بالعمل فقال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٤﴾.

ولما كشف عن زيغ المنافقين وأوليائهم من أهل الكتاب، أنكر على علمائهم وزهادهم عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فقال: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ فما سكوتهم عنهم في ذلك إلا لتمرنهم على المعاصي وتمردهم في الكفر واستهانتهم بمن لا تخفى عليه خافية.

ولما كان من طبع الإنسان الإنكار على من خالفه، وكان لا ينحطّ إلى السكوت عن الفاسقين فضلًا عن تحسين أحوالهم إلا بتدرب طويل حتى يصير له ذلك كالصنعة يألفها والملكة لا يتكلفها، فجعل ذنب المرتكب للمعصية غير راسخ؛ لأن الشهوة تدعوه إليها، وذنب التارك للنهي راسخًا؛ لأنه لا شهوة له تدعوه إلى الترك بل الفطرة السليمة تحثه على النهي فكان أشد حالًا = قال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٥﴾.

ثم قال معلمًا بأنهم لم يقنعوا بالسكوت عن المنكر حتى تكلموا بأنكره: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ لحسدهم، فكلما رأوه سبحانه قد زاد إحسانه إليك طعنوا فيه، وفي هذا إياس من توبتهم وتأكيد لعداوتهم وزجر عن مودتهم، أي: إنهم لا يزدادون بتلاوتك عليهم إلا شقاقًا ما وجدوا قوة، فإن ضعفوا فنفاقًا.

﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ ولقد صدّقت المشاهدة ذلك بغزوة قينقاع ثم النضير ثم قريظة ثم خيبر وفدك ووادي القرى، وهم متقاربون لم يتناصروا ولم ينصروا ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كان الإنسان لكونه محل نقصان لا ينبغي أن يسعى إلا بما يرضي الله، وحينئذ يُنسب الفعل إلى الله لكونه آمرًا به خالقًا له، كانت نسبة السعي إلى الإنسان دالة على الفساد فقال: ﴿فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٦﴾ فلا ينصر لهم جيشًا ولا يصلح لهم شأنًا.

ثم وعظهم سبحانه استعطافًا لهم لئلا ييأسوا من روحه فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٧﴾ وقدّم الإيمان لأنه أساس جميع الأعمال، فلا نجاة لأحد إلا بتصديق محمد ﷺ. ولما كان محطّ نظرهم الأمر الدنيوي، رجع -بعد إرشادهم إلى إصلاح الحالة الأخروية لأنها أهم في نفسها- إلى سبب قولهم تلك الشناعة وهو تقتير الرزق عليهم، وبيّن أن السبب إنما هو من أنفسهم فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ

أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ولما عُلم مما تقدم أن من أريدت سعادته يؤمن ومن أريدت شقاوته لا يؤمن، وكان ذلك ربما فتّر عن الإبلاغ قال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ ولما تقدم أنهم يسعرون الحروب، وكان وعد الله بإخمادها جائز وقوعه بعد قتل وجراح قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ من أن ينالوك بما يمنعك من الإبلاغ حتى يتم دينك ويظهر على الدين كله، والحاصل أن لترك البلاغ سببين: خوف فوات النفس، وخوف فوات ثمرة الدعاء، فنفى الأول بضمان العصمة، والثاني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فبلّغ ولا يحزنك من لا يقبل، فإعراضه ليس لقصور إبلاغك بل لقصور إدراكه؛ لأن الله ختم على قلبه لفساد طبعه.

ولما أمر بالتبليغ العام، أمره بنوع منه على وجه يبطل ادعاءهم المحبة والبنوّة فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ لأنهم لم يضروا إلا أنفسهم، وربك العليم القدير لو علم فيهم خيرًا لأقبل بهم إليك.

ولما أخبر عن كثير منهم بالزيادة في الكفر رغّب القسم الآخر على وجه يعم غيرهم إعلامًا بأن الجميع في ذلك سواء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ولما سبق في هذه السورة ذم اليهود ولم يتقدم للصابئة ذكر، استأنف فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ ولما كان حال النصارى مشتبهًا جُعلوا في حيز الاحتمال للعطف على اليهود لما تقدم من ذمهم، وعلى الصابئة لخفة حالهم لكونهم لم يبلغ ذمهم في هذه السورة مبلغ ذم اليهود، فقال: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ولما كانت هذه البشارة موجبة للدخول في الإيمان، وكان أكثر أهل الكتاب يسارعون في الكفر، أعاد سبحانه ذكر الميثاق المتقدّم فقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وقدم المفعول للدلالة على انحصار أمرهم في حال التكذيب والقتل، فلا حظ لهم في تصديق مخالف لأهويتهم.

﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ لقلة عقولهم مع مباشرتهم لهذه العظائم ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ فلا تعجب من جرأتهم في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿فَعَمُواْ﴾ أي: فتسبب عن ظنهم أنهم لا تنالهم فتنة: أنهم عموا وانطمست بصائرهم ﴿وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧٣﴾.

ثم أخذ يبيّن من حال النصارى ما بين من حال اليهود فقال: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ﴾ أي: ستر ما دل عليه النقل وهدى إليه العقل ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٤ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ ولما كان القول بالاتحاد أشد من دعوى التثليث قدّمها.

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنه لا يصح ولا يتصور في العقل أن يتعدد الإله بأي وجه، لا يكون إلا واحدًا بكل اعتبار ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ أي: مباشرة من غير حائل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٥ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٦﴾.

ولما أبطل قولهم بإثبات كماله أتبعه إبطال ما كفر به المخاطبون، فوصف المسيح عليه السلام بما لا يكون إلا لمربوب فقال: ﴿۞مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فما من خارقة له وإلا وقد كان مثلها أو أعجب منها لمن قبله كآدم في خلقه من تراب، ولما كفروا بأمه أيضًا قال: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ فذكرهما بأعلى صفاتهما إشارة إلى أن من رفعهما فوق ذلك فقد أطراهما، ثم بيّن نزولهما عن رتبة الإلهية بذكر أبعد الأوصاف منها فقال: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٧﴾ ولما نفى صلاحيتهم للإلهية لذاتهم، نفاها لصفاتهم فقال: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾.

ثم نهى الفريقين عن الغلو بالباطل في أمر عيسى: اليهود بإنزال عن رتبته، والنصارى برفعه عنها فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ أي: من الناس بتماديهم في الباطل حتى ظُنّ حقًا ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٩﴾.

ولما نهاهم عن ذلك وقبحه عليهم، علله محذرًا منه بقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ لأنهم خالفوا النبيَّين معًا فلا هم تعبدوا بما دعاهم إليه داود من شرعهم الذي يدّعون التمسك به، ولا هم خرجوا إلى ما أُمروا به من طاعة عيسى، فعُلم قطعًا أنهم مع الهوى ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٨٠ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ وبين إغراقهم في عدم المبالاة، بالتنكير في سياق النفي فقال: ﴿عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٨١﴾ معبرًا بالفعل الذي يعبر به عما قد لا يصحبه علم.

ولما أخبر بإقرارهم على المناكر دل على ذلك بأمر ظاهر منهم، مقوض لبنيان دينهم فقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ولما كان الإنسان لا يوالي حزب الشيطان إلا بمنازعة الفطرة الأولى السليمة، عبّر بالتفعل فقال: ﴿يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ ولما كان ذلك منهم ميلًا مع مجرد الهوى قال: ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: التي من شأنها الميل مع الهوى، ثم بين ما قدمته فقال: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾.

ولما كان هذا دليلًا على كفرهم، دل عليه بقوله: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ لأن مخالفة الاعتقاد تمنع الوداد، ثم قال منبهًا على أن الفسق هو الحامل على عدم الإيمان ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٣﴾ أي: متمكنون في المروق من دوائر الطاعات.

ولما دل ميلهم إلى المشركين دون المؤمنين على أنهم في غاية العداوة لهم، قال مستنتجًا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ وأنهم ما اجتمعوا على الموالاة إلا لاجتماعهم في أشدية العداوة ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ وفي التوريك على قولهم إشارة إلى أنهم ما كانوا على حقيقة النصرانية ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ﴾ أي: مقبلين على العلم، من القَسّ وهو التتبع ﴿وَرُهۡبَانٗا﴾ أي: في غاية التخلي من الدنيا، ولما كان ذلك موجبًا لمجانبة التكبر قال: ﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٤﴾.

ولما كان هذا معلولًا لرقة القلب قال: ﴿۞وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٥ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا﴾ ولجريهم في هذا المضمار عبروا بـ«مع» دون «في» في قولهم: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ هضمًا لأنفسهم وتعظيمًا للصلاح

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٧﴾ ولما ذكر جزاء المذعنين ترغيبًا، ذكر جزاء من لم يفعل فعلهم ترهيبًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٨﴾.

ولما كان مدح الرهبان داعيًا إلى الترهب، وكانت الرهبانية شريفة في المبدأ دنية في المآل، فإنها مبنية على الشدة في الطاعات والتورع عن أكثر المباحات، والإنسان مطبوع على النقائص فربما دعاه طبعه إلى عدم الوفاء بما عاقد عليه كما قال تعالى: ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ [الحديد: ٢٧]، عقب ذلك بالنهي عنها والإخبار بأنه بنى هذا الدين على التوسط رحمة منه لأهله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ﴾ ورغّبهم في امتثال أمره بأن جعله موافقًا لطباعهم ملائمًا لشهواتهم فقال: ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

ولما أطلق ذلك حذرهم من مجاوزة الحد إفراطًا وتفريطًا فقال: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ فدل بصيغة الافتعال على أن الفطرة الأولى مبنية على العدل، فعدولها عنه لا يكون إلا بتكلف، وما أحسن تصديرها بما صدر به أول السورة ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، ولما كان أولها في الوفاء بالعقود، كان كأنه قال: أوفوا بالعقود، فلا تتهاونوا بها فتنقضوها، ولا تبالغوا فيها فتكونوا معتدين فتضعفوا، بل سددوا وقاربوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٩ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولما كان الرزق يقع على الحرام قيده بقوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ ويجوز أن يكون قيدًا محذرًا مما فيه شبهة تنبيهًا على الورع، ويكون معنى طِيبه: تيقُّنُ حله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٩٠﴾.

وسبب نزول الآية: أن جماعة من الصحابة حلفوا أن يترهّبوا فنهاهم النبي ﷺ، فلما أنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا﴾ الآية، قالوا: كيف نصنع بأيماننا؟ فأنزلت ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ الآية، ولما كان سبب النزول داخلًا في المعنى اعتمدتُ عليه في المناسبة، ووجه دخوله: أن تحريم ما أُحل يكون تارة بنذر وتارة بيمين، والنذر في المباح لا ينعقد وكفارته كفارة يمين.

وأما الحلف على الآتي -وهو الذي يمكن التحريم به- فذكر حكمه بقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ أي: مؤمنة، حملًا لمطلق الكفارات على ذلك المقيد

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولما اشتمل ما تقدّم على نعم عظيمة، ختم بالشكر المربي لها فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٩١﴾.

ولما بيّن حال المأكل وكان داعية إلى المشرب، بين المحرم منه فعلم أن ما عداه مأذون فيه فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ﴾ وأضاف إليها ما واخاها في الضرر دينًا ودنيا فقال: ﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وحكمة ترتيبها هكذا: أنه لما كانت الخمر أتلف شيء للمال قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار، ولما كان الميسر مفسدة المال قرن به مفسدة الدين وهي الأنصاب، ولما كان تعظيم الأنصاب شركًا جليًا إن عبدت وخفيًا إن ذبح عليها دون عبادة، قرن بها نوعًا من الشرك الخفي وهو الاستقسام بالأزلام، ثم أمر باجتناب الكل فقال: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ ثم علل بما يفهم أنه لا فوز بشيء مع مباشرتها فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٢﴾.

ولما قدّم حكمة النهي عن الأنصاب والأزلام في أول السورة وهي أنها فسق، اقتصر على بيان علة النهي عن الخمر والميسر؛ إعلامًا بأنهما المقصودان بالذات، وأن الآخرَين ما ضُمّا إلا لتأكيد تحريم هذين؛ لأن المخاطب أهل الإيمان وقد كانوا مجتنبين لذينك فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ لأن الخمر تزيل العقل فيزول المانع من إظهار الكامن من الضغائن، والميسر يذهب المال فيوجب ذلك الإحنة على من سلبه ماله، ولما ذكر ضررهما في الدنيا، ذكر ضررهما في الدين فقال: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ﴾ وأعظم التهديد بالاستفهام والجملة الاسمية الدالة على الثبات فقال: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩٣﴾!

ولما كان ذلك مألوفًا لهم ومحبوبًا عندهم وكان تركه شديدًا، أكد دعوتهم إلى اجتنابه فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أنكم لم تضروا إلا أنفسكم لأن الحجة قد قامت عليكم ولم يبق على الرسول شيء؛ لأنكم علمتم: ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٤﴾.

ولما حُرمت الخمر قال بعض القوم: قد قُتل فلان وفلان وهي في بطونهم! فأنزل الله: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ﴾ على أنه لو لم يرد هذا السبب كانت المناسبة

حاصلة، وذلك أنه تعالى لما أباح الطيب من المأكل وحرم الخبيث من المشرب، نفى الجناح عمن يأكل ما أذن فيه أو يشرب عدا ما حرمه، فقال معممًا: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾.

وشرط التقوى ليخرج المحرمات فقال: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اجتهادًا بالعلم لا اتفاقًا ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ باجتناب ما جدد عليهم تحريمه ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بأنه من عند الله وأن له أن يمحو ما يشاء ويثبت ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ﴾ أي: لازموا التقوى إلى أن أوصلتهم إلى مقام المراقبة وهي الغنى عن رؤية غير الله، وفي هذا غاية الحث على التورع في المأكل والمشرب، وإشارة إلى أنه لا يوصل إلى مقام الإحسان إلا به ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٥﴾.

ولما ذكر ما حرم من الطعام في كل حال، وكان الصيد مما حرم في بعض الأوقات قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وذكر الاسم الأعظم تذكيرًا بجلاله سبحانه، وأشار إلى تحقير البلوى تسكينًا للنفوس بقوله: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ فيخرج بالامتحان ما كان من أفعال العباد في عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ لتقوم بذلك الحجة على الفاعل.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾ ولما كان الله توابًا، خص الوعيد بمن استغرق الزمان بالاعتداء، فأسقط الجار لذلك فقال: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٦﴾ بما التذ من تعرضه إليه؛ لما عرف بالميل إلى هذا أنه إلى ما هو أشهى منه كالخمر وما معها أميل.

ولما أخبرهم بالابتلاء، صرح بتحريم التعرض لما ابتلاهم به فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ وعن الشافعي أن الذي له مثل ضربان: **ما حكمت فيه الصحابة**: فلا يعدل إلى غيره؛ لأنه قد حكم به عدلان، وهم أولى من غيرهم؛ لأنهم شاهدوا التنزيل وحضروا التأويل، **وما لم يحكموا فيه**: فيرجع فيه إلى اجتهاد عدلين.

﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٧ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ ولما كانت حالة الإحرام أشبه شيء بحالة الحشر في التجرد عن المخيط والإعراض عن الدنيا ختم الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٨﴾.

ولما كان الإحرام وتحريم الصيد إنما هو لتعظيم الكعبة بين حكمة ذلك، وأنه كما جعله سببًا لأمن الوحش والطير جعله سببًا لأمن الناس فقال: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ عبر عنها بذلك لأنه من «الكعب» الذي به قيام الإنسان وقوامه ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ لأنه تعالى جبل العرب على الشجاعة ليفتح بهم البلاد، فلزم منه شدة حرصهم على الغارات التي يشغل دوامها عن تحصيل المعاش فيفنوا، فجعل بيته وما كان من أسبابه أمانًا لقيام معايشهم ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فلذلك جعل فيها ما قامت به مصالح الناس، وكف فيه أشدهم عن أضعفهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾.

[ولما ذكر رحمته بعباده، ذكر أنه شديد العقاب؛ لأن الإيمان لا يتم إلا بالرجاء والخوف، وأعقبه لذكر الرحمة ليدل على أنها أغلب فقال][40]: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾. ولما علم بذلك أنه المجازي وحده، أنتج أنه ليس إلى غيره إلا ما كلفه به فقال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾.

ولما أثبت العلم كله لنفسه الشريفة أنتج أنه لا أمر لغيره ولا نهي، فأخذ سبحانه يبين حكمة ما مضى من الأوامر والزواجر: بأن الأشياء منها طيب وخبيث، ولا يميز هذا من ذاك إلا الخلّاق العليم، فربما سلك الإنسان ما يظنه حسنًا فجرّه إلى السيئ وهو لا يشعر فيهلك كالرهبانية التي كانوا عزموا عليها، والخمر التي دعا شغفهم بها إلى تدرّج الإنزال فيها فقال: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾.

ولما كان الخبيث أكثر في الظاهر وأيسر قال: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ والخبيث والطيب منه جسماني ظاهر لكل أحد، ومنه روحاني أخبثه الشرك وأطيبه معرفة الله وطاعته، والتفاوت بينهما في العالم الروحاني أشد؛ لأن مضرة خبث الجسماني قليلة ومنفعة طيبه يسيرة، ومضرة خبث الروحاني عظيمة دائمة وطيب منفعته جليلة باقية، وهي القرب من الله والانخراط في زمرة السعداء.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لتكونوا من الطيب ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: العقول الخالصة من شوائب النفس، فتؤثروا الطيب وإن قل في الحس؛ لكثرته في المعنى، على الخبيث وإن كثر في الحس؛

---

(٤٠) مفاتيح الغيب ٦/ ٣١٣، بتصرف.

لنقصه في المعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ فكأنه قيل: ما بلَّغكم إياه خذوه بحسن انقياد، وما لا فلا تسألوا عنه ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾.

ثم علل النهي بأن غيرهم طلب أشياء، إما بأن سأل غيره ذلك وإما بأن شرعها وسأل غيره أن يوافقه عليها وهو قاطع بحسنها فكانت سبب شقائه فقال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾ وهذا زجر بليغ؛ إذ لم يكن الله تعالى بمخفٍ عنهم شيئًا ينفعهم، ولا مبد لهم شيئًا يضرهم؛ لأنه بكل شيء عليم.

ثم قال معللًا بختام التي قبلها: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ دالًا بذلك على أن الإنسان قد يشرع لنفسه الخبيث دون الطيب ظنًا أنه من محاسن الأعمال، فإذا هو مما لا يعبأ الله به بل يعذب عليه كما فعل هؤلاء، ولما كانوا قد حرموا هذه الأشياء، وكان التحريم والتحليل من خواص الإله، وكان لا إله إلا الله، كان حكمهم عليها بالحرمة نسبة لذلك إلى الله سبحانه كذبًا فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾.

ولما اتخذوا هذه المحرمات دينًا ومضى عليه أسلافهم، دعتهم الأنفة من تضليل آبائهم إلى الإصرار عليه، ولِما في ذلك من عود السبّ عليهم على زعمهم، فقال تعالى دالًا على ختام التي قبلها من عدم عقلهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

ولما كان جهلهم مركبًا لا يشعرون به فلا يجوز الاقتداء بهم قال: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٠٤﴾ لفقدهم آلة الهدى وهو العلم، وأدل دليل على ذلك أنهم حرموا الطيب، فاضطروا إلى تحليل الخبيث من الميتة، وأغضبوا بذلك خالقهم فدخلوا النار، فلا أقبح مما يختاره لنفسه المطبوع على الكدر، ولا أحسن مما يشرعه له رب البشر.

ثم أعلم المؤمنين أن مخالفة الغير في قبول الهدى لا تضرهم أصلًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ ثم قال مفهمًا لوجود الضرر عند فقد الهداية: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ بالإقبال على ما أنزل الله وعلى الرسول، حتى تصيروا علماء وتعملوا بعلمكم فتخالفوا من ضلّ، وقد كان أحدهم لا يتبع أباه إذا كان سفيهًا في أمر دنياه، بل

يعد حسن تحصيلها من معالي الأخلاق وجودة النظر مع أنها عرَض تافه، فكيف لا يخالفه فيما به سعادته الأبدية! ما ذاك إلا لمجرد الهوى.

وقد كان الحزم العمل بالحكمة التي كشفها النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»، والمعنى: أوسع النظر حتى تأخذ بكل ما قد ينفعك وتجتنب كل ما قد يضرك، فإنك إن فعلت ذلك وغلبك القضاء لم تجد في وسعك أمرًا تقول: لو أني فعلته أو تركته، بخلاف ما إذا لم تنعم النظر وعملت عمل العجزة فإن الشيطان يفتح لك الأبواب التي نظر فيها الحازم، فيكثر لك من «لو» لأنها مفتاح عمله، وليس في الآية ما يتعلق به من يتهاون في الأمر بالمعروف كما يفعله كثير من البطلة، ففي المسند أن النبي ﷺ قال: «إنما هي: لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم».

ثم قال مؤكدًا ما أخبر به: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٧﴾ فيجازي كل أحد بما عمل، ولا يؤاخذ أحدًا بعمل غيره.

ولما أخبر سبحانه بأنه نصب المصالح، وأن أسلاف المشركين لم ينصحوا لخلفهم، عقب بآية الوصية لما فيها من قيام الأمور على السداد وإصلاح المعاش والمعاد، وهي ملتفتة إلى أول السورة إذ هي من أعظم العهود، فقال علمًا منه أن الوفاء في مثل ذلك يقل، وحثًا لهم عليه: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ١٠٨ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠٩ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ١١٠﴾ أي: الذين من عادتهم الخروج فهم أبدًا غير منضبطين بعقد ولا عهد، وقد نزعها إلى مجموع هذه السورة منازع: منها ذكر القتل عند قصة ابني آدم وما بعدها، ثم الجهاد الذي هو من أسباب الموت، وقوله: ﴿أن النفس بالنفس﴾ [المائدة: ٥٤].

ولما كانت عادته تعالى أن يذكر الشرائع ثم يؤكّدها بذكر الإلهيات أو أحوال الأنبياء أو القيامة، عقب بقوله: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الذين بلغوا دينه، تذكيرًا بسرعة انصرام هذه الدار وهجوم ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ بدل قولهم: أنت أعلم؛ تأدبًا بمحو أنفسهم عليهم السلام من ديوان العلم بالكلية.

ولما كان في سؤاله تعالى للرسل عن الإجابة تبكيتًا للمبطلين وتوبيخًا، وكان أهل الكتاب أكثرهم تمردًا وتعديًا قال: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي﴾ ولما ذكر هذه الأمة بنعمه عليهم في أول السورة، أشار بذلك إلى أنهم إن لم يذكروها في دار العمل بالشكر، ذكروها في ذلك اليوم قسرًا بالكفر ويا لها من فضيحة!

﴿عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ قرن كل نعمة فيها بما يدل على عبوديته ورسالته؛ ليخزي من غلا في قدره أو قصّر، ولما كان من أعظم ما يراد بالسياق توبيخ من كفر به كرر قوله: ﴿بإذني﴾، وتأمل إعادة ﴿إذ﴾ عند التذكير بروحٍ كامل حسًا أو معنى، وحذفها عند الناقص.

﴿۞وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ بإثبات النون الثالثة للدلالة على تمام الانقياد. ولما كان أجلّ المقاصد تأديب هذه الأمة بألا تسأل نبيّها ﷺ ما تقدم النهي عنه، ذكر لهم شأن الحواريين في اقتراحهم بعد ما تقدم من امتداحهم، فقال مقربًا لزمن تعنتهم من زمن إيمانهم، مذكرًا لهذه الأمة بحفظها على الطاعة، ومبكتًا لبني إسرائيل بكثرة تقلبهم: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ تلطفًا، كما يقول الإنسان لمن يعظمه: هل تقدر على كذا؟ وهو يعلم أنه قادر، وهذه القصة قبل قصة الإيحاء إليهم، فتكون «إذ» هذه ظرفًا لتلك، وتكون فائدة الإيحاء إليهم: حفظهم من أن يسألوا آية أخرى بعد ما رأوا من الآيات.

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى

ﱡﭐ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ فإنك تغني من تعطيه وتزيده عما يرتجيه ولا تطلب منه غير أن ينفع نفسه بما قويته عليه من طاعتك بذلك الرزق ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾.

وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ تقريعٌ لمن قال ذلك وهو يدعي حبه واتباعه ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ أي: رفعتني إلى السماء كاملًا مع بذلهم جهدهم في قتلي ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾.

ولما كان هذا السؤال يفهم إرادة التعذيب للمسؤول عنهم قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا أحد يعترض عليك ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ فلا تفعل شيئًا إلا في أعلى درج الإحكام.

ولما انقضى جوابه عليه السلام تشوف السامع إلى جواب الله فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ أي: الذي كان لهم في الدنيا وصفًا ثابتًا، فحداهم على الوفاء بما عاهدوا عليه، فنفعهم بأن كانت ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ يعني أنه لم يدع لهم شهوة إلا أنالهم إياها، وقال ابن الزبير: "لما طلب تعالى المؤمنين بالوفاء وأعلمهم بثمرة التزام التسليم والامتثال، أراهم ثمرة الوفاء وعاقبته وعاقبة من وفّى وأنهم الصادقون، وقد أمرنا أن نكون معهم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٩]"، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾.

ثم علل إعطاء ذلك الثواب وسهولته لديه بقوله، مشيرًا إلى أن كل ما ادعيت فيه الإلهية بعيد عن ذلك: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ فلذلك هو يحكم ما يريد، والكل بالنسبة إليه موات جديرون بأن يعبر عنهم بـ«ما» لا بـ«من»، فقد انطبق آخر السورة على أولها كما ترى، والله أعلم.

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقصودها الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من توحيد الله والاجتماع عليه والوفاء بعهوده، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد: الأنعام؛ لأن الإذن فيها -كما يأتي- مسبّب عن التفرد بالخلق. وإنزالها جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك يدل على جلالة أصول الدين ووجوب تعلمها على الفور، بخلاف الأحكام فإنها تفرق بحسب المصالح، ونزولها ليلًا حين ينزل تعالى إلى سماء الدنيا دليل على بركتها وأن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا الأيقاظ من سِنة الغفلات.

ولما ختم السورة التي قبلها بتحميد عيسى عليه السلام لجلاله سبحانه، افتتح هذه بالإخبار بأنه مستحق للمحامد كلها استحقاقًا ثابتًا قبل إيجاد الخلق وبعده لما له من صفات الجلال والكمال فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وجمعها تنبيهًا على أن طرق الشر كثيرة تدور على الهوى، وقد تقرر بهذا ما افتتح به السورة؛ لأن من تفرد بالاختراع كان هو المختص بجميع المحامد، ومن كان كذلك لم يكن إله سواه ﴿وَٱلنُّورَ ۝١ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝٢﴾ أي: يجعلون غيره ممن لا يقدر على شيء معادلًا له، وتقديم الظلمة مناسب لسياق العادلين.

وهذه أول السور الأربع التي أشارت كل سورة منها إلى نعمة من النعم الأربع التي اشتملت عليها الفاتحة، وهي هنا نعمة الإيجاد المشار إليه بـ﴿رب العالمين﴾ [آية: ٢].

ولما تكفلت السور المتقدمة بالرد على مشركي العرب وأهل الكتاب، تكفلت هذه بالرد على بقية الفرق، وهم الثنوية من المجوس والصابئة وأصحاب الروحانيات المنتسبون إلى ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ ولما كانوا يستبعدون البعث لصيرورة الأموات ترابًا يختلط بغيره فيتعذر التمييز، وكان تمييز الطين أعسر لشدة اختلاط أجزائه بالماء قال: ﴿مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ لأعمارهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ جامع للكل، وستر علمه عن الكل -كما أشار إليه بالتنكير- وهذا لا يكون إلا لواحد وإلا لتباينت المقادير والإرادات، ولما كان الشك في الإعادة بعد هذه البيان بعيدًا، أشار إليه بأداة التراخي وصيغة الافتعال فقال: ﴿ثُمَّ

أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٣﴾ أي: تكلفون أنفسكم الشك، فأنتج هذا أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، أي: بسبب إقامة العدل.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما بين سبحانه حال أهل الصراط المستقيم وحال من تنكب عنه صممًا وعمًى، أعقبه الإشارة إلى طائفة مالت إلى النظر والاعتبار وليست ممن يرجع إلى شريعة قد حُرّفت، فلم توفق لإصابة الحق وهم الثنوية، فافتتح السورة بذكر خلق السماوات والأرض التي عنها وجد النور والظلمة، وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ مما يوضح هذا المعنى، فإنه تعالى ذكر المادة التي عنها أوجدَنا، كما ذكر للنور والظلمة ما هو كالمادة وهو وجود السماوات والأرض.

ثم بُسطت في السورة كلها الدلالاتُ في الموجودات، مع التنبيه على أن ذلك لا ينتفع به إلا من هيئ بحسب السابقة فقال: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ [الأنعام: ٣٦]، (١) فمن الخلق من جعله الله سامعًا معتبرًا بأول وهلة كإبراهيم ﷺ لما رأى الكوكب، (٢) ومنهم الميت، والموتى: منهم من يزاح عن جهله، (٣) ومنهم من يبقى في ظلماته ميتًا، ولما كانت السورة محركة إلى النظر ناسب أمر العباد به فأشار في صدرها إلى القسمين الأولين فقال: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله﴾.

ولم تقع هنا إشارة إلى القسم الثالث مع العلم به لئلا يكسل من ضعفت همته، حتى إذا انبسطت الدلائل وانشرحت الصدور لتلقيها، قال تعالى مشيرًا إليه ومحذرًا منه: ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفي قوله: ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] إشارة إلى أن سماع الضرب الأول بأول وهلة ليس من جهته بل بإسداء الرحمة وتقديم النعمة، وإذا كانت الدلالات مبسوطة فكيف يتوقف عاقل في عظيم رحمته تعالى بإرسال الرسل! وحصل من السور الأربع بيان أهل الصراط المستقيم وطبقاتهم وطريقهم وحال المتنكبين عنه من باقي الطوائف".

ولما أقام الدليل على تمام القدرة والاختيار، قال دالًا على الوحدانية بشمول العلم: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٤﴾ [ولما تكلم عن التوحيد والمعاد وما يقررهما، ذكر بعده ما يتعلق بالنبوة فقال][41]: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ

(٤١) مفاتيح الغيب ٦/ ٣٦٢ بتصرف.

مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ فلم يتأخروا عند المجيء أصلًا لنظر ولا لغيره، وذلك أدل ما يكون على العناد ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

ثم حقق هذا التهديد بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ولما كان المراد ناسًا معينين لم يستغرقوا زمن القبل وهم أهل المكنة الزائدة أدخل الجار فقال: ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ إعلامًا أن ذلك ما كان إلا لهوانهم استدراجًا لهم ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا﴾ ودل على أنه لم يبق من المهلَكين أحد بقوله: ﴿ءَاخَرِينَ ۝٧﴾.

ولما كان اليهود قد اقترحوا إنزال الكتاب، بين ما يترتب عليه فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ﴾ زيادة على الرؤية ﴿بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ولم يُضمِر تعليقًا للحكم بالوصف وتنبيهًا على أن من الموجودين من يؤمن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٨﴾.

ثم أخبر أنهم اقترحوا أيضًا ظهور الملك لهم فبين لوازمه بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بهلاكهم، فإنه لا ينظره أحد منهم إلا صعق ولو أعطيناهم قوة يثبتون بها لنظره؛ لأنه حينئذ يفوت الإيمان بالغيب، وقد جرت عادتنا بالإهلاك عند ذلك ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٩ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: صورة يستطيعون نظرها، وحينئذ يقع لهم اللبس الذي وقع لهم بدعائك ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝١٠﴾.

ولما كان طلبهم هذا للتعنت والاستهزاء، وكان ذلك يشق عليه ﷺ والمؤمنين، أخبرهم بما يريح منهم ويسليهم فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ ولما علم الله أن المكذبين يجيبون عن هذا بقولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين، أمرهم أن يشاهدوا مصارع من علموا إهلاكهم بمثل تكذيبهم؛ ليغنيهم عما اقترحوا فقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١٢﴾.

ثم قال استعطافًا لهم إلى الإقبال عليه والإعراض عن الخضوع لما هو في ملكه، وتقبيحًا لأن يأكلوا خيره ويعبدوا غيره: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ولما كانوا في مقام العناد أشار إلى ذلك بإعراضه عن انتظار جوابهم، توبيخًا لهم بعدم النصفة التي يدعونها فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ وذلك الجمع: لتخصيص الرحمة في ذلك اليوم بأوليائه والنقمة بأعدائه، بعد أن كان عم بالرحمة الفريقين في الدنيا، ولأن أكثر أفعال الحيوان خارجة عن العدل، فكان البعث محط الحكمة؛ لإظهار التحلي بالصفات العلى.

ثم أمرهم بالاعتبار في الزمان فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ وقدم الاعتبار بالمكان عليه لأنه أظهر، والمعلّم الكامل هو الذي يترق بالأظهر إلى الأخفى، ولما دل ما مضى على القدرة التامة، وكانت القدرة لا تتم إلا بالعلم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٤﴾ والعليم هنا أبلغ من البصير، وذلك مثل ما تقدم في قوله: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا والله هو السميع العليم﴾ [المائدة: ٧٦] وهو ترجمة قوله: ﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ [الأنعام: ٣].

ولما نهضت الحجج أنكر عليهم في قالب الأمر له ﷺ بالإنكار على نفسه ليكون أدعى لهم وأرفق بهم فقال: ﴿۞قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ﴾ أي: أكلف نفسي خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى والعقل المجرد عن الهوى كما فعلتم أنتم وآخذ ﴿وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ فهو الغني على الإطلاق وغيره محتاج في ذاته وفي جميع صفاته إليه، وفيه تعريض بكل معبود دون الله ولا سيما الأصنام، فإنهم كانوا يهدون لها الأطعمة مع علمهم أنها لا تُطعِم ولا تَطعَم بل تأكلها الدواب والطيور.

والآية التفات إلى قوله أول السورة: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾، والنظر السديد كافٍ في التنزه عن ذلك، فكيف وقد أُمرت بذلك! وهو معنى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٥﴾ أي: في عدادهم باتباعهم في شيء من أغراضهم. ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ في أيّ شيء مما تريدون مني أن أوافقكم فيه ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٦﴾. ولما كان قد قدم من عموم رحمته ما قد يُطمع الفاجر، صرّح بما قدّم به من الخسارة مبينًا أن الرحمة في ذلك اليوم على غير المعهود الآن فقال: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾.

[ثم قال عطفًا على الجمل المفتتح بـ«قل» مؤذنًا بأن المشركين خوفوا النبي ﷺ أو عرضوا له، ومثبتًا لنفسه ومؤيسًا لأعدائه من أن يستزلوه](٤٢): ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ

---

(٤٢) التحرير والتنوير ٧/ ١٦٢.

﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٨ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ ولما كان في القهر ما يكون مذمومًا نفاه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلا يوصل أثر القهر إلا لمستحق ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٩﴾ بما يستحق كل شيء.

ولما أقام الأدلة على الوحدانية، وآذنت صفة القهر بالانتقام، أشهدهم بما يؤذن استحقاقهم للعذاب إنذارًا لهم فقال: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ وقطع الكلام هنا إشارة إلى عنادهم أو سكوتهم ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ بالآيات التي عجزتم عن معارضتها، ولما كان أعظمَ شهيد ذكر أعظم آية فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ولما كان في سياق التهديد، قال مقتصرًا على ما يلائمه ومشيرًا إلى أن أكثر الخلق هالك: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي: بلغه، قال الفراء: "والعرب تضمر الهاء في صلات «الذي» و«من» و«ما»".

ولأجل أن الله هو الشاهد لم تنقضِ الشهادة بموت النبي ﷺ، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة»، وقال الإمام أبو زرعة العراقي: "وأما كونه مبعوثًا إلى الخلق أجمعين فالمراد المكلف منهم وهذا يتناول الإنس والجن والملائكة، فأما الأولان فبالإجماع وأما الملائكة فمحل خلاف"، ولا يلزم من كونه مرسلًا إليهم في الجملة أن يلزمهم جميع فروع شريعته.

ولما لم يبق لمتعنت شبهة، أنتج ذلك لزوم التوحيد الذي إذا ثبت في قلب فاضت أنواره بحسب ثباته، فقال منكرًا عليهم ومعجّبًا: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٢٠﴾.

ولما شهد الله لرسوله ﷺ، وكان كفار قريش قد ادعوا أنهم سألوا أهل الكتابين فادعوا أنهم لا يعرفونه قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾ وقد وثقتم بهم بسؤالكم لهم عني غير مرة وآمن بي جماعة منهم فلم تتابعوهم، فبان اتباعكم للهوى ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢١﴾. ثم بين أن الظلم كان سبب خسرانهم فقال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢﴾.

ولما كان المعنى أنهم أكذب الناس، دل عليه بكذبهم يوم الحشر فقال: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ أي: سمَّوا شيئًا من دوننا إلهًا وعبدوه بالفعل أو بالرضى به؛

فإن الرضى بالشيء فعل له لا سيما إن انضم إليه تكذيب المحق والشهادة للمبطل بأن دينه خير ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٢٢ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٢٣﴾ أي: إن تكذيبهم لك أوصلهم إلى حد يكذبون فيه في ذلك اليوم بعد كشف الغطاء تطمّعًا بما لا ينفعهم، أو يكون المراد تنديمًا لهم: أنه لم يكن عاقبة كفرهم الذي افتُتنوا به إلا جحوده والبراءة منه ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٢٤﴾.

ثم قسم المعرضين عن الآيات إلى قسمين فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٥ *وَهُمْ﴾ أي: يستعمون إليك، والحال أنهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: وما هم بضاريكم فيما يقدح في المقصود من إرسالك من إظهار الدين وإذلال المفسدين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾.

ولما ختم بعظيم التهديد، عرّف بحالهم عند الكشف عنه فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٧﴾ والمعنى: لو رأيت ذلك لرأيت أمرًا هائلًا، ولكنه حذف تفخيمًا له لتذهب النفس فيه كل مذهب، وجاز حذفه للعلم به في الجملة.

ولما أخبر بتمنيهم الإيمان إذ ذاك، كذّبهم بأن الأمر ليس كما قالوا فقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ من العذاب الذي لا يطيقونه ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ من دلائل الرسل وادعاء خفاء البعث وأنه لا حقيقة له ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ﴾ بعد الرد ما كانوا يقولونه قبل الموت: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٢٩﴾ وما رأيناه قبل هذا إلا سحر، هذا محتمل وظاهر، ولكن الأنسب لسياق الآيات أن يكون حكاية لقولهم له ﷺ في هذه الدار.

[ولما أخبر بإنكارهم للبعث، بين أنهم في الآخرة يقرون به فقال][43]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ وكأن كلامهم هذا منزل على حالات مختلفة كلٌ منها أهول مما قبله، ويوم القيامة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذو ألوان،

(٤٣) مفاتيح الغيب ٦/ ٣٩٦، بتصرف.

ولما أقروا بعد فوات الإيمان: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾﴾ والكلام هنا فيه نوع إحسان؛ لأنه أهون من التعذيب مع الإعراض في مقام: ﴿اخسؤوا فيها ولا تُكلِّمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ولذلك كان آخر المقامات.

ولما كان ذلك، أنتج قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: الحقيقية، وكذا الموت الذي هو مبدؤها فإن من مات جاءت ساعته ﴿بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ أي: تعالي يا حسرة فإنه لا نديم لنا سواك، وهو كناية عن عظمة الحسرة لينتهي الإنسان عن أسبابها ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ ففاتنا ما يسعد فيها من تهذيب الأخلاق المهيئة للسباق.

وذلك أن الله خلق المكلف وأفاض عليه نعمًا ظاهرة وهي الحواس والآلات الجثمانية، ونعمًا باطنة وهي العقل وغيره ليحصّل بها المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي تعظم منافعها بعد الموت، وبعَث الأنبياء عليهم السلام للهداية وأظهر عليهم المعجزات ليصدقوا، فأعرضوا عنهم واستعملوا تلك القوى في اللذات الفانية، ففاتت الآلات التي هي رأس المال، واللذات التي عدوها أرباحًا، فلا رأس مال ولا ربح، فصاروا في غاية الانقطاع والغربة، ولا خسران أعظم من هذا.

ثم زاد الأمر فظاعةً بالإخبار في جملة حالية بشدة تعبهم ووهن ظهورهم بذنوبهم فقال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ولما كشف الحال عن أن ما ركنوا إليه خيال، قال منبهًا على خساسة الدنيا ومعجّبًا من قوة رغبتهم فيها: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ولما كان السياق للخسارة، وكانت أكثر ما تكون من اللعب وهو فعل ما يسرّ على وجه غير مشروع ويسرع انقضاؤه، قدمه فقال: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ﴾ واللهو: ما من شأنه أن يعجب النفس على وجه لم يؤذن فيه فيكون سببًا للغفلة، فتأخيره إشارة إلى أن الجهلة كلما فتروا في اللعب أثاروا الشهوات بالملاهي، والمعنى أن الدنيا ما هي إلا ساعة لعب يندم الإنسان على ما فرط فيها ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ولما كرر في هذه السورة أمره بمقاولتهم وختم بما يقتضي سلبهم العقل، وكان من المعلوم أنهم لا يجيبون إلا بالبذاءة كما هو دأب المعاند المغلوب، وأن ذلك يحزنه ﷺ لما جبل عليه من الشهامة والنزاهة، كان الحال محتاجًا إلى التسلية فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ ما

فاتك من حالات الصفاء التي كدرها ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾ أي: من تكذيبك، فلا تحزن ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ولكن لشدة عنادهم ووقوفهم مع الحظوظ وعجزهم عن الجواب، ومن علم أن ربه يرضي المطيع له ويجزي عاصيه لا ينبغي أن يحزن بل يسر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٤﴾.

ولا شك أن الحزن عند وقوع ما يسوء من طبع البشر الذي لا يقدر على الانفكاك عنه، فالنهي عنه إنما هو نهي عما ينشأ عنه من الاسترسال المؤدي إلى الجزع ونسيان ما يعزي، فهو من النهي عن السبب للمبالغة في النهي عن المسبب، وما أنسب ذكر ما يحزن بعد تقرير حال الدنيا والآخرة، ومن المعلوم أنهما ضدان فلا تنال إحداهما إلا بضد ما للأخرى، فلا تنال الآخرة إلا بضد ما لأهل الدنيا من اللعب واللهو، وذلك هو الحزن الناشئ عن التقوى الحامل عليها الخوف.

ولما كان الاشتراك في شيء يهونه قال: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾ ولما كان قرب الزمان أجدر بذلك أدخل الجار فقال: ﴿مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ﴾ وهذا دليل على أن النهي عن الحزن نهيٌ عن تابعه المؤدي إلى عدم الصبر ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٥﴾.

ولما سلاه بذلك، أخبره بأنه لا حيلة له غير الصبر فقال: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ والمراد بهذا بيان شدة حرصه ﷺ على هدايتهم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٦﴾ أي: تطمع نفسك فيما لا مطمع فيه، فإن ما شاءه الله لا يكون غيره.

ولما أفهم هذا القضاء أن حالهم كالميت فلا يمكن أن يستجيب عادة قال: ﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ أي: فيهم قابلية السمع لأنهم أحياء، فيتدبرون حينئذ ما يلقى إليهم فينتفعون به ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ حسًا ومعنى ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإفاضة الإيمان على الكافر وإعادة الروح إلى الهالك فيسمعون ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٧﴾. ثم ذكّر النبي ﷺ بعض كلامهم الآيل إلى التكذيب فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ وهذا منهم إشارة إلى أنهم لا يعدون القرآن ولا شيئًا مما رأوه منه ﷺ آية ولا أنها من ربه ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ فلا يتفكرون في شيء من ذلك.

ثم ذكرهم بآياتٍ غير القرآن، كافيةٍ لصلاحهم لو تأملوها حق تأملها فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي: في ذلك وفي أنّا خلقناهم ولم يكونوا شيئًا وحفظنا أحوالهم وقدرنا أرزاقهم وآجالهم، وجعلنا فيها ما هو أقوى منكم وما هو أضعف، وجعلناكم أقوى من الجميع بالعقل، وربما سلطنا الأضعف عليكم كالجراد والفأر بما تعجز عنه عقولكم إلى غير ذلك ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ والقرآن ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ بل ذكرنا جميع أحوال خلقنا، وأثبتنا في القرآن مجامع الأمور فهو تبيان لكل علم يمكن أن يحتاجه المخلوق، فمن أراد الهداية هداه بدقيق أسراره، ومن أعرض عمي حتى عن واضح أنواره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٩﴾.

ولما كان التقدير: فالذين آمنوا أحياء سامعون لأقوالنا، عطف عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ولعله جمعها إشارة إلى أن المكذب لا يزال يخبط في جميع الظلمات، وذلك أنهم لما لم ينتفعوا بحياتهم ولا حواسهم ولا عقولهم كان ذلك منهم عدمًا ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٠﴾.

ثم رجع إلى التوحيد الذي أبانته الأدلة قبل الآيتين، فقال دالًا على اعتقادهم القدرة التي استلزم تعنتُهم بطلب الآية نفيَها، وعلى اعتقادِهم للتوحيد في الجملة وهم يكذبون به، بيانًا لأنهم في الظلمات مقهورون لعدم تحاشيهم من التناقض: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ حقيقتها: هل رأيتم أنفسكم، تنبيهًا لهم على أن المسؤول عنه معلوم لكل أحد علمَه بنفسه، فيُلزَمون به التوحيد أو العناد فقال: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤١﴾ في أن غيره يغني شيئًا حتى يستحق الإلهية، وهذه حجة لا يسعهم معها غير التسليم، فإن عادتهم أنهم إذا اشتد الأمر لا يدعون غير الله، وهي مع ذلك دليل على ما أخبرت به الآية قبلها من أن الأمر كله لله.

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤٢﴾ فهو يجيبكم تارة ولا يجيبكم أخرى، فلا يردكم عدم إجابته عن اعتقاد قدرته ودوام الإقبال عليه في مثل تلك الحال؛ لما ركز في العقول السليمة والفطر الأولى من أنه لا قادر إلا هو.

ولما أخبر أن التضرع قد يكشف به البلاء، أخبرهم أن تركه يوجب الشقاء، ترغيبًا في إدامته وترهيبًا من مجانبته فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾ ولما كان المراد بعضهم وهم الذين

أراد قص أخبارهم، أدخل الجار فقال: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلًا فخالفوهم، وحذف لفهمه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ ليرجعوا عما زين لهم الشيطان إلى ما تدعوهم إليه الرسل ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٣﴾ بالإظهار؛ لأن مقصودها الاستدلال على التوحيد، وعند الكشف للأصول ينبغي الإبلاغ في العبارة، بخلاف ما يأتي في الأعراف(٤٤).

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بما دخل عليهم به من باب الشهوات ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٤٤﴾ من العظائم والمناكر التي أوجبها النكس بالرد أسفل سافلين. ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: فتسبب عن تركهم التذكر وما يفيده من التخشع والتسكن أنَّا ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: معرضين عمن آتاهم هذا الرخاء بعد ذاك البلاء، فعُلم أنهم في غاية الغباوة لا يرتدعون بالبلاء ولا ينتفعون بالرخاء، بل ظنوا أن البلاء عادة الزمان والرخاء باستحقاقهم الامتنان ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ في حال الرخاء ليكون أشد لتحسرهم.

﴿بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٥ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بوضع الشيء في غير موضعه، فوضعوا القسوة موضع الرقة من البأساء، والفرحَ بالنعمة موضع الخشية من الرد إليها، ولما كان استئصالهم من أجلّ النعم على من عادوهم فيه من الرسل وأتباعهم، نبه على ذلك بجملة مظهرة لاستغنائه المطلق فقال: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾.

ولما كان الإتيان بالكاف في قوله: ﴿أرأيتكم﴾ مشيرًا مع إفادة التأكيد إلى أن ثَم نوع مهلة، وأتبعه أنَّ أخذ الأمم كان بغتة، أعقبه ما يومئ حذفُ الكاف فيه إلى الإسراع بالجواب خوف المفاجأة بالعذاب فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝٤٧﴾ ولما قرن الأخذ بالبغت تارة صريحًا وتارة بإسقاط الكاف، فصّل ما أجمل في الآيتين فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٨﴾.

ولما كان ذلك كله في مناضلة من كذب الرسل، بين حقيقة الرسالة فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لا مجيبين إلى ما يقترح الأمم ولا معذبين لمن يعاندهم ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أما في الآخرة فواضح، وأما في الدنيا الفانية فلأن

---

(٤٤) في قوله: ﴿لعلهم يضرعون﴾ الآية: ٩٤.

خوفهم فيها ينقلب في الآخرة سرورًا دائمًا فصار كالعدم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حزنًا يضر بحياتهم الأبدية. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: يديمون الخروج مما ينبغي الاستقرار فيه من الإيمان وما يقتضيه، وأما الفسق العارض فإن صاحبه يصدر التوبة منه فيعفى عنه.

ولما بيّن وظيفة الرسل، وكانوا يقترحون عليه الآيات إلزامًا له ﷺ بالكذب؛ لأن الرسول في زعمهم لا يكون بشرًا، أمره بنفي ما ظنوا أنه يلزمه فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ولما كان يخبر بالغيب فلا يخطئ، فصاروا يظنون أنه يعلم الغيب ولكنه من آيات الكهان قال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ فلم أدّع ما ألزمتموني به ولا اتصفت بما ظننتم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ ولما ثبت بهذا أنهم عمي الأبصار والبصائر، لا يهتدون إلى ما ينفعهم ولا يقدرون على إفحام خصم ولا التفصي عن وهم ولا وصم، وأنه ﷺ أبصر البصراء وأحكم الحكماء لاتباعه علام الغيوب، قال تبكيتًا لهم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: بالوحي.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ وليس المراد تخصيص الإنذار بالخائف بل الإشارة إلى جلافتهم وبلادتهم ﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ كناية عن الدوام ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ولما كان أكابر المشركين قد وعدوه ﷺ الاتباع إن طرد من يأنفون من مجالستهم وزهدوه فيهم بأنهم إنما اتبعوه للحاجة، بين تعالى أنه لا حظ له في طردهم ولا في اتباع أولئك بهذا الطريق إلا من جهة الدنيا التي هو مبعوث للتنفير عنها فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ليس لك إلا ظاهرهم ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فتخشى أن يحيفوا عليك فيه، أو: ليس عليك من رزقهم شيء فيثقلوا به عليك، وما من رزقك عليهم من شيء فيضعفوا عنه لفقرهم، بل الرازق لك ولهم الله.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما فتناهم بإرسالك ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالتخصيص بالإيمان والغنى والفقر ونحو ذلك ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ إنكارًا لأن يفضل غيرهم عليهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين لا يقاربوننا في خصال الدنيا ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾ على جلاله ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: وفقهم لإصابة الحق وهم فيما نرى من الحقارة ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾! فالآية ناظرة

إلى ما يأتي من قوله تعالى: ﴿حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ أي: الذين يستحقون أن يفضلوا لشكرهم على غيرهم لكفرهم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ وأظهر موضع الإضمار دلالة على الوصف الموجب لإكرامهم وتعميمًا لغيرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ إِنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٥﴾ وربما كانت ناظرة إلى ما قذفهم به المشركون من عدم الإخلاص، فيترجح حينئذ أن المراد بالحساب: المحاسبة على الذنوب.

ثم قال عاطفًا ضدَّ ﴿وكذلك فتنا﴾ عليها: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الفتن بإيراد بعض ما فيه دقة وخفاء ليتميز الضال من المهتدي ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ ليتضح سبيل المصلحين فيتبع ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ أي: تظهر ظهورًا بينًا ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٦﴾ فتجتنب، وخص هذا بالذكر وإن كان يلزم منه بيان الأول؛ لأن دفع المفاسد أهم.

ولما بين من سوء عاقبة سبيلهم ما لا يمكن معه اتباع أهوائهم، أمره بأن يخبرهم أنه مباين لهم في الدين فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ ثم أكد ذلك بما يدل على أنه لا شبهة لهم في عبادتهم فقال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: عوضًا عما أنا عليه من الحكمة البالغة المؤيدة بالبراهين، ولما كان من المعلوم أن الهوى لا يدعو إلا إلى غاية الردى قال محققًا: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٧﴾.

ولما كان ما طلبوه من الآيات ليس في يده، أخبرهم بما هو متمكن فيه من النور، وما هم فيه من العمى فقال: ﴿قُلْ إِنِّي﴾ وأشار إلى تمكنه في الحجج بحرف الاستعلاء فقال: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ فإن العدو إنما يصانع عدوه لعدم الوثوق بالنصرة عليه أو بأنه على الحق، وأما أنا فواثق بكلا الأمرين ﴿مِّن رَّبِّي﴾ أي: المحسن إلي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقْضِ﴾ أي: يفصل وينفِّذ، وهو معنى قراءة ﴿يقص﴾ أي: يقطع القضاء ﴿ٱلْحَقَّۖ﴾ ويظهره فيفصله من الباطل، ليتبعه السعيد ويتنكب عنه الشقي.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٨ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ﴾ أي: فكنت أهلك من خالفني غضبًا لربي، لكنه لم يكن الأمر إلي لأني لا أعلم الظالم عند الله من غيره ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ فيهلكهم.

ثم أتبع علمه بما هو أعم من ذلك فقال: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ ولما ذكر علم الغيب أتبعه علم الشهادة؛ لأن ذكر المحسوسات الداخلة تحت القضية العقلية الكلية معينٌ على تصور ذلك المعقول ورسوخه فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ وقدمه لأن الإنسان أكثر ملابسة له ﴿وَٱلْبَحْرِۚ﴾ وأخره لأن إحاطة العقل بأحواله أقل وإن كان أعظم وعجائبه أكثر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم رجع إلى التعميم ردًا للآخر على الأول فقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ فثبت أنه فاعل للعالم على سبيل الإحكام والإتقان؛ لأنه وحده عالم بجميع المعلومات، ومن اختص بذلك كان مختصًا بصنع جميع المصنوعات، قادرًا على جميع المقدورات.

ولما كان من مفاتح الغيب الموت والبعث الذي ينكرونه، وكان من أدلته العظيمة: النوم والإيقاظ منه، مع ما فيه من الإحسان المتكرر ومن تقريرٍ لكمال القدرة بعد تقريره لكمال العلم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾.

ولما قرر كمال العلم والقدرة أخبر بعظيم جبروته وأن أفعاله هذه قاهرة لا يمكن مخالفتها فلو اجتهد أحد في أن ينام أو يقوم في غير وقته ما قدر فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ﴾ أما قهره للعدم فبالإيجاد، وأما قهره للوجود فبالإفناء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يحفظون عليكم كل حركة وسكون؛ لتقوم عليكم بشهادتهم الحجة على مجاري عاداتكم، وإلا فهو سبحانه غني عنهم لأنه العالم القادر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ﴾ ولما كان تقديم المفعول أخوف قال: ﴿أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ في نفَس واحد ليتقدم ذلك عن وقته أو يتأخر ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾.

ولما أثبت وحدانيته بأفعاله، ذكّرهم أحوالهم في إقرارهم بها وقت الشدائد فقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾.

ولما كانوا بإشراكهم كأنهم يظنون أن الشدة زالت عنهم أبدًا، وكان اللائق بهم دوام التذلل وفاء أو خوفًا، أخبرهم ترهيبًا وتحذيرًا أن قدرته على تلك الشدة في حالة الرخاء كقدرته عليها في وقتها فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن

﴿تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ﴾ أي: يخلط بينكم حال كونكم ﴿شِيَعٗا﴾ أي: متفرقين كل شيعة على هوى فيكون ذلك سببًا للسيف ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٦﴾ كان هذا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿كَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ أي: الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك، فهو من عظيم التوبيخ ودقيق التقريع ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾

ولما أخبر بجواب تكذيبهم، تقدم إليه فيما يفعل وقت خوضهم فيه فقال: ﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بغير تأمل ولا بصيرة بل طوع الهوى، كمن يخوض برجله الماء فيخطو على غير بصيرة وبغير تمام الاختيار لغلبة الماء ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ بترك المجالسة أو ما يقوم مقامها، ولما كان الخوض في الآيات دالًا على قلة العقل قال: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ فحكم على حديثهم فيما سوى ذلك أيضًا بالخوض لأنه غير مقيد بنظام الشرع ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: إنساء عظيمًا، إشارة إلى أن مثل هذا الأمر جدير بأن لا ينسى ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾.

ولما كانت هذه الآية مكية، وكانوا إذ ذاك عاجزين عن الإنكار بغير القلب قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فلا يكذّبون بآياته في مجالسة الكفرة ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾ أي: الخائضين إذا كانوا أقوى منهم ﴿مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن﴾ نهينا لتكون المفارقة إظهارًا للكراهة: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ للخائضين ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩﴾ فيجتنبون الخوض إكرامًا للجليس.

ولما أبرز هذا الأمر في صيغة النهي أعاده بصيغة الأمر اهتمامًا به، وأظهر لهم وصفًا آخر هو غاية الوصف الأول فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ على نمط الأسخف من دنياهم، ولما كان الدين أرسخ الملكات وأشرف ما عند الإنسان، وكان اللعب ضده في سرعة الانقضاء ووهاء البناء، قال ذامًا لهم بأنهم بدلوا ما لا أشرف منه بما لا أمحق للمروءة منه: ﴿لَعِبٗا﴾ ولما كان ربما قيل: إنهم إذا انقضى اللعب عادوا إلى الاشتغال بالدين، أتبعه الباعث عليه إشارة إلى أنه كلما ملوا اللعب بعثوا النفوس إليه باللهو فقال: ﴿وَلَهۡوٗا﴾ أي: في الاستهزاء بالدين الحق بالمكاء والتصدية والبحائر والسوائب وغير ذلك ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾.

ولما كان ربما أفهم ذلك تركهم في كل حالة نفاه بقوله: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ يصهر به ما في بطونهم، بما اعتقدوا في الآيات ما ظهر على ألسنتهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ أي: يجددون من تغطية الآيات.

﴿قُلۡ﴾ بعد ما أقمت من الأدلة على أن الأمر كله لله، منكرًا عليهم: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فأنزلته عن أفق مقصده إلى حضيض معطبه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ ولكنه لتمكن الحيرة منه لا يقبل، وقد اعتسف المَهْمه تابعًا للشياطين فغُلب على نفسه وحيل بينه وبين العبر ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ أي: لا غيره، بل هدى أصحاب المستهوى إلى جانبه كلا شيء ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾.

ثم فسر المأمور به فقال: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢﴾ والختم كالتعليل للأمر بالتقوى.

ولما كانوا بعبادة غيره تعالى مع إقرارهم بأنه الخالق، في حال من يعتقد أن ما يعبدونه من دونه هو الذي خلق أو شارك فيه، قال معيدًا الدليل الذي ذكره أول السورة على وجه آخر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: بسبب إقامة الحق، وأنتم ترون أنه غير قائم في هذه الدار، فوجب على كل من يعلم أن الله حكيم خبير أن يعتقد وجوب البعث لإظهار العدل ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ ٧٣ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ أي: أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، فاحذروا جزاءه يوم تنقطع الأسباب، وهو سبحانه لا يذكر أحوال البعث إلا ويقرر فيه أصلين: القدرة والعلم؛ لأنه لا يقدر على البعث إلا من جمعهما ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٤﴾.

ولما كان مضمون هذه الآيات: مضمون ما افتُتحت به السورة الهادمة لمذهب الثنوية وهم قوم إبراهيم عليه السلام الذي يعترف بفضله جميع الطوائف، تلاها بمحاجته لهم بما أبطل مذهبهم فقال: ﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ فنبهه بهذا الإنكار على أن بطلان دينه أمر بديهي أو نحوه، فإنهم يباشرون جميع أمرها ويعلمون أنها مصنوعة وليست بصانعة، وكثرتها تدل على بطلان إلهيتها بما أشار إليه قوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما بصرنا إبراهيم عليه السلام هذا التبصير في أمر الأصنام: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ ولما كانت الأمور السماوية مشاهدة لجميع الخلق وأشرف من الأرضية، فإذا بطلت صلاحيتها للإلهية بطلت الأرضية من باب الأولى، نصب لهم الحجاج في أمرها، فقال مسببًا عن الإراءة المذكورة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ فحجب ملكوت الأرض فشرع ينظر في ملكوت السماء ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ وأتى بما يصلح أن يكون خبرًا واستفهامًا ليوهمهم أنه مخبر، فيكون ذلك أنفى للشغب وأجلب لهم إلى إنعام النظر وتنبيهًا على موضع الغلط ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾.

واستدل بالأفول دون الطلوع؛ لأنه شرف في الجملة وسلطان، ولأن قومه كانوا منجمين ومذهبهم أن الكوكب إذا كان صاعدًا من المشرق إلى وسط السماء كان قويًا عظيم التأثير، فإذا كان نازلًا إلى المغرب كان ضعيف الأثر، وما كان كذلك لا يصلح للإلهية ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ ثم علل ذلك بالوجه الذي فارق فيه ما مضى فأورث شبهة فقال: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ وغلب نورَها جيشُ الظلام، ولما كانت القلوب قد تهيأت بعد هذه الحجة لقبول الحق ختم بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾.

ثم قال مستنتجًا من الدليل العقلي المتقدم: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ فعبر بذلك عن الانقياد التام؛ لأن من انقاد لشيء أقبل عليه بوجهه ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ أي: سهلًا ميالًا مع الدليل غير جامد على التقليد دأب الغليظ البليد، وأكد البراءة بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾.

ولما كانت محاجتهم بعد الأدلة الواضحة في غاية السقوط نزه المقام عن ذكرها، وبين جوابه لما فيه من الفوائد فقال: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ أي: أحسن إليّ فرجوت إحسانًا مثله وخفت عصيانه؛ لأن من رُجي خيره خيف ضيره، وأتبعه بيان أن معبوداتهم مسلوب عنها ما يوجه إليه الهمم فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ ولا أرجوه لأنه عاجز، فأثبت لله القدرة بالهداية لأنها أشرف، وطوى الإضلال لدلالتها ودلالة ما نفي في جانب الشركاء عليه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: من تسليطها بأنفسها أو بأتباعها؛ لأنه قادر على ما يريد فلا أخاف غيره.

ولما كان هذا في صورة التعليق فكان موضعًا لإطماع الخصم فيه، علله بما أزال هذا الخيال فقال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالمراد أني ما تركت الجزم شكًا بل جهلًا بالعواقب، إعلامًا بأن تلك رتبة لا تصلح إلا لله، ثم قال مشيرًا بإظهار تاء التفعل إلى أن في جبلاتهم أصل التذكر الصاد عن الشرك: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وتعجب منهم في ظنهم خوفه من معبوداتهم بقوله منكرًا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ مع أنه لا يقدر على شيء ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ أي: المستجمع لصفات العظمة والقدرة ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة تمنع من إنزاله الغضب بكم، فأوقع الأمن في موضعه وهم أوقعوه في موضع الخوف، فبان أن هذا وقول شعيب عليه السلام: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ [الأعراف: ٨٩] الآية، و﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤] من مشكاة واحدة.

ولما كان المحذور المنفي هنا إنما هو خوف الضرر من آلهتهم، وكان حصول الضرر لمخالفها بواسطة أتباعها أو غيرهم من سنن الله في عباده، اقتصر على صفة الربوبية المقتضية للرحمة والحماية، وقد وقع في قصته الأمران: إمكانهم من أسباب ضرره بإلقائه في النار، ورحمته بجعلها عليه بردًا وسلامًا، ولما كان المحذور في قصة شعيب عليه السلام العود في ملتهم، أتى بالاسم الأعظم المقتضي لاستحضار العظمة والتفرد المانع من دنو ساحات الكفر، والله الموفق ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ودل على أنه لا علم لهم بما سئلوا عنه بقوله مستأنفًا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ولما كان عليه السلام قد انتصب لإظهار حجة الله في التوحيد والذب عنها، ندب السامع لتدبر ما مضى لحسنه فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فلا يفعل بحزبه إلا ما ظنه به خليله مما يقر أعينهم ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ فلا يلتبس عليه أحد من غيرهم فيفعل به ما يخل بالحكمة.

ولما أشار إلى رفعته بأنه بصّره بالحجة حتى كان على بصيرة من أمره، أتبعه ما دل على أنه رفع ذكره أبدًا لذبه عن توحيده فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾ وابتدأ سبحانه بهما لأن السياق للامتنان على الخليل عليه السلام، وهو أشد سرورًا بابنه الذي متع به ولم يؤمر

بفراقه، وابن ابنه الذي أكثر الأنبياء من نسله ﴿كُلًّا هَدَيْنَاۚ﴾ ثم أتبع ذلك المهتدين قديمًا وحديثًا تأكيدًا لأن هذا المذهب لم يزل خُلَّص العباد دعاةً إليه، فهو أحق بالاتباع من جهة الحقية والأقدمية، وليس في آبائكم من هو أحق اتباعًا من إبراهيم عليه السلام، وقد تلوت عليكم في كلامي المعجز إبطاله للأوثان التي أضلتكم ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ وكل من هؤلاء ابتُلي فصبر واغتنى فشكر.

ولما كان يوسف ممن أعلى الله كلمته على كلمة ملك مصر، أتبعه من أعلى كلمتهما عليها فقال: ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾. ولما كانا ممن سلطهما على الملوك أتبعهما من سلط الملوك عليهما بالقتل فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآءَ وَيَحْيَىٰ﴾ ثم أتبعهما من عاندهما الملوك ولم يسلطوا عليهما فقال: ﴿وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم أتبعهم من لم يكن بينهما وبين الملوك أمر فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ ولما كانا ممن هدى الله بهما قومهما من غير عذاب، أتبعهما من هدى قومه بالعذاب فقال: ﴿وَيُونُسَ﴾ ولما انقضت ذرية إبراهيم عليه السلام، ختم بابن أخيه الذي ضل قومه فهلكوا بغتة فقال: ﴿وَلُوطًاۚ﴾ وقيل: إنه سبحانه أهلك قوم إبراهيم بعد هجرته، فإن صح ذلك تمت المناسبة في هلاك كل من قومه وقوم ابن أخيه بعد خروج نبيهم عنهم.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبين كماله وفضله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾ ثم قال مظهرًا لعز الإلهية بالغنى المطلق: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: وإن كان في غاية الإتقان بقوانين العلم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكة، ولعل الإشارة على هذا الوجه لتحقيرهم ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ أي: ذوي قوة على القيام بالأمور، بالإيمان بها والحفظ لحقوقها ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وقد جاء في هذه الأمة من العلماء والراسخين من لا يحصيهم إلا الله.

ولما كان المراد بسوقهم هكذا -والله أعلم- أن كلًّا منهم بادر بعد الهداية إلى الدعاء إلى الله، قال مكررًا لأمداحهم بما يحمل على التحلي بأوصافهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ وفي التعبير بالاقتداء إيماء إلى تبكيت كفار العرب حيث اقتدوا بمن لا يصلح

للقدوة من آبائهم وتركوا من يجب الاقتداء به، ثم فسر الهدى بمعظم أسبابه فقال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾.

ثم قال تأكيدًا لأمر الرسالة بالإنكار على من جحدها وإلزامًا لهم بما هم معترفون به، أما أهل الكتاب فعلمًا قطعيًا، وأما العرب فلأنهم سلموا لهم العلم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ لأن من نسب ملكًا تام الملك إلى أنه لم يثبت أوامره في رعيته بما يرضيه ليفعلوه وما يسخطه ليجتنبوه فقد نسبه إلى نقص عظيم، فكيف إذا كانت النسبة كذبًا! وأسند قول البعض إلى الكل لأنهم لم يردوا على قائله ولم يعاجلوه بالأخذ تفظيعًا للشأن، وفيه إشارة إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عماد الأمور كلها، من فرط فيه هلك وأهلك.

ثم قال ملزمًا لأهل الكتاب بالاعتراف بالكذب أو المساواة للأميين في التمسك بالهوى: ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء السفهاء الذين تجرؤوا على هذه المقالة غير ناظرين في عاقبتها ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ إما بالدعاء إلى ما فيه أو بالدعاء إلى غيره، ثم بين أنهم أخفوا منه ما هو صريح في الثاني اتباعًا منهم للهوى فقال: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ﴾ فلولا ما أتاهم به موسى عليه السلام ما فاقوهم بفهم ولا علم.

﴿قُلِ﴾ غير منتظر لجوابهم فإنهم أجلف الناس وأعتاهم ﴿ٱللَّهُۖ﴾ الذي أنزله ﴿ثُمَّ﴾ لا تسمع لهم شيئًا بل ﴿ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ أي: قولهم وفعلهم المبنيين على الجهل ﴿يَلۡعَبُونَ ٩٢﴾ أي: يفعلون ما لا ينفعهم مع تضييع الزمان.

ولما أثبت سبحانه أنه الذي أنزل التوراة والإنجيل تكميلًا لإثبات الرسالة، عطف عليه قوله تأكيدًا لإثباتها وتقريرًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: فيهم قابلية الإيمان بها على ما هي عليه ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ ولما تكرر وصف المنافقين بالتكاسل عن الصلاة، جعل المحافظة عليها علمًا على الإيمان فقال: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٣﴾.

ولما كان قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ كذبًا صريحًا، وكان بعض الكفرة قد ادعى الإيحاء إليه للطعن في القرآن، قال تعالى مهولًا للأمر: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى

ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ كالنضر ابن الحارث، ولما لم يكن أحد أظلم منه قطعًا قال مهددًا: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: شدائده التي قد غمرتهم كما يغمر البحر الخضم من يغرق فيه، فهو يرفعه ويخفضه ويبتلعه ويلفظه ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لنزع أرواحهم ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: هذه الساعة، وكأنهم عبروا به لتصوير طول العذاب ﴿تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٤﴾ ومن استكبر عن آية واحدة كان مستكبرًا عن الكل، وعبر بالمضارع تصويرًا لحالهم.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ بالموت الدال على العلم والقدرة، ودل على الموت بقوله: ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ عن كل شيء صدكم عن اتباع رسلنا ﴿كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾ أي: ملّكناكم مما ظننتم أنه لكم، وبدلتم ما دل عليه من عظمتنا بالاستهانة بأوامرنا ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ ثم قال تهكمًا بهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ وإذا انقطع البين فقد تقطعت أسباب الاتصال، ثم بين زوال ما كانوا يستندون إليه بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٥﴾.

ولما تجلى بما تقدم مقامُ العظمة تهيأ السامع لتدبره، فقال دالًا عليه ومصرّفًا ما مضى من الدلائل على أوجه أخرى، إعلامًا بأن دلائل الجلال تفوق عدد الرمال، وتنبيهًا على أن القصد بالذات معرفة الله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ وهو إنما خلق النبات لمصلحة الحيوان، وخلق الحيوان لحفظ جسد الإنسان؛ لأجل المعرفة والمحبة والعبودية ﴿يُخۡرِجُ﴾ أي: على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ فكيف تنكرون قدرته على البعث! ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ وعبر باسم الفاعل الدال على الثبات لأنه لا منازعة لهم فيه، فلا حاجة إلى التعبير بالفعل الدال على التجدد ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٦﴾.

ثم أتبعه ما هو مثله في الدلالة على الإحياء لكنه في المعاني وهو سماوي ترقية من العالم السفلي إلى العلوي فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ والأول أدل على القدرة لأنه بتخليق الله ابتداء، تنبيهًا على أن الأنوار لا توجد إلا بإبداعه والظلمات لا تثبت إلا بتقديره ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ أي: ذوي حسبان لأن الحساب يعلم بدورهما، وعبر بصيغة المبالغة إشارة لأن الحساب بهما عظيم النفع، فكأنه حقيقتهما التي يعبر عنهما بها، وأما غير ذلك من منافعهما فلا مدخل للعباد فيه.

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالَب فلا يستطيع أحد أن يبدّل شيئًا من ذلك ﴿ٱلۡعَلِيمِ ٩٧﴾ الذي جعل ذلك بعلمه على ميزان قويم لا يزيغ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٨﴾ قال قتادة: "إن الله تعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: زينة للسماء وليُهتدى بها ورجومًا للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد أضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به"، وقدم الإصباح والليل ومتعلقهما لتقدمهما في الخلق. ثم تلاه بخلق الإنسان على حسب ما مر أول السورة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ ولما كان الإنشاء والتصريف على هذه الوجوه أدق صنعة فكان محتاجًا إلى فطنة وتدقيق نظر ختم بقوله: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٩﴾.

ولما ذكر الإبداع التفريعي من هذين الكونين، أتبعه سببه القريب وهو الماء، فقال سائقًا له مساق الإحسان ليعظم أثره في القلب -فينبغي للداعية أن يسلك هذا المسلك ليكون للقلوب أملك-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ سواء كان حقيقيًا من النجم والشجر، أو مجازيًا من الأنثى والذكر ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ وبدأ بما بدأ به في آية الفلق من الحب، ثم ثنى بما من النوى فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ وتقديم الحب يدل على أن الزرع أفضل فإنه قوت والغذاء مقدم على الفاكهة ﴿مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾ بدأ بهاتين الشجرتين لفضلهما كما تقدم لأن ثمرهما فاكهة وقوت، وقدم الأول لأنهم له أكثر ملابسة ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

ولما كان السياق لإثبات الوحدانية بإثبات القدرة، وكان الاشتباه أبلغ من التشابه عبر به فقال: ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ وعلق الأمر بالنظر الذي هو أثبت الحواس؛ لأن المراد هو ظاهر ذلك لأنه في سياق الدلالة على البعث والتوحيد فقال: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ وهذا بخلاف الحرف الثاني فإنه في سياق الرد على العرب فيما يجعلون من خلقه لأصنامهم، ولذا ختم بالإذن لهم في الأكل منه للانتهاء عما كانوا يحرمونه منه، وبالأمر بالتصدق على من أمر بالصدقة عليه، وأما الباطن الذي هو الأكل فسيأتي ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ ويعلم من مراقبة الأول والآخر: النظر فيما بينهما لأنه لازمه، ودل على كمال القدرة والعظمة بأداة البعد وميم الجمع فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾.

ولما كان ذلك كله شرحًا لآية: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ دلالة على تمام القدرة الدالة على الوحدانية للدلالة على البعث، حسن العود إلى تقبيح حال المشركين بالتعجيب منهم في جملة حالية فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ وعبر بالاسم الأعظم وقدمه استعظامًا لأن يعدل به شيئًا ﴿شُرَكَآءَ﴾ يعني: وما كان ينبغي أن يكون له شريك مطلقًا، لأن الصفة إذا ذُكرت غير مجراة على شيء، كان ما يتعلق بها من النفي عامًا في كل ما يجوز أن تكون له الصفة.

ولما اهتز السامع من هذا التقديم لزيادة المعنى من غير زيادة اللفظ، بينهم بقوله: ﴿ٱلْجِنَّ﴾ الذين هم أعدى الموجودات عليهم ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ فجمعوا جهالات غاية في الضلالات: وصف الملائكة بالأنوثة، ومقام الربوبية بالحاجة، وتخصيصه بما لا يرضونه لأنفسهم، ومادة «خرق» تدور على التقدير بغير علم ليحدث عنه الفساد، ولذا قيل لمن لا يحسن العمل: أخرق ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم دل على التنزيه بقوله: ﴿۞بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: مبدعهما، ومن كان كذلك فهو غني عن التوليد، فلذا عجّب بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠٢﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي: وحده؛ لأن من أشرك به لم يعبده وهو منافٍ للغنى المطلق ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٣﴾﴾ فيه إشارة إلى أن العابد ينبغي أن يتفرغ لعبادته ويقطع أموره عن غير وكالته، فإنه يكفيه بفضله عمن سواه.

ولما كان كل شريك وابن يدرك شريكه وأباه، وصف نفسه تعالى بما اقتضاه المقام من تنزيهه فقال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٤﴾﴾ قال الحرالي: "اللطف: إخفاء التوسل إلى الشيء بإظهار ما يضاده، ولا يتم إلا بخبرة ولذلك نظم باسمه الخبير، وباسمه اللطيف أقام أمر أوليائه في الدنيا، فيبدو عزهم من وراء ذل، ويتراءى ذلهم ومن دونه عز، فهو الذي أطعم من جوع وآمن من خوف، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا".

ولما أكثر لهم من الأدلة على وحدانيته، ناسب أن يعظهم ويمدحها حثًا على تدبرها فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ فاصعدوا عن النظر بالأبصار إلى الاعتبار بالبصائر،

ولا تهبطوا إلى حضيضٍ لا تفهمون معه إلا ما يحس بالأبصار ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ﴾ أي: عمل بالأدلة ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لأنه خلصها من الضلال المؤدي إلى الهلاك.

﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٥ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ على هذا الأسلوب العجيب ليعمى ناس عن بيّنه ويبصره آخرون ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ والمبصرون هم المرادون بقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٦﴾. ولما كان طعنهم ربما فتّر عنه قال: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾.

ولما طال التنفير عما اتُّخذ من دونه، كان ذلك ربما دعى إلى سبها، فنهى عنه لمفسدة كبيرة يجرها فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ فالطاعة إذا استلزمت وجود منكر عظيم: احترز منه ولو تُركت وقتًا لتحصل القوة على دفع ذلك المنكر، فحكم الآية باق ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: القبيح الذي أقدموا عليه بغير علم؛ لمحبتهم له ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٩﴾.

ثم بيّن شيئًا مما زين لهم من عملهم، فقال عاطفًا على ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ مما اقترحوه ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١١٠ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١١﴾ أي: يديمون التحير، على أن الحال -لما فيه من الدلالة- لا يقتضي حيرة بوجه.

ولما نفى إيمانهم عند ذلك، عمم على وجه مفصّل لما قبله فقال: ﴿۞وَلَوۡ أَنَّنَا﴾ على عظمتنا البالغة، بما أشار إليه جمع النونات ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلا يطمع أحد في إيمانهم بغير ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١٢﴾.

ولما أثبت بما تقدم عداوة الكفار للنبي ﷺ كان كأنه قيل تسلية له وتثبيتًا: قد عادوك لأنك عالم والجاهلون لأهل العلم أعداء: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ وعبر عن الجمع بالمفرد والمراد الجنس؛ إشارة إلى أنهم يد واحدة في العداوة فقال: ﴿عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ﴾ ولما كان السياق للأعداء ذكر

الوصف الدال على الحياطة والعناية فقال: ﴿رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ وهذا خلاف الآيات التي عبر فيها باسم الجلالة كما سيأتي، ولما دلّ بالربوبية أن العاقبة إلى خير قال: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ أي: اتركهم على أي حالة اتفقت ﴿وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٣﴾ أي: يتعمدون اختلاقه، واذكر ما لربك عليك من الرحمة فثق به واعلم أن له في هذا لطيف سريرة تدق عن الأفكار.

﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى كذبهم وما في حيزه ﴿أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأنها غيب وهم لبلادتهم واقفون مع الوهم، ولذلك استولت عليهم الدنيا التي هي أصل الغرور ﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾ أي: يفعلوا بجهدهم ﴿مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٤﴾ وهذه الجمل كما نبه عليه أبو حيان: "على غاية الفصاحة؛ لأنه أولًا يكون الخداع فالميل فالرضى فالاقتراف، فكأن كل واحد مسبب عما قبله".

ولما فصّل الحقائق أحسن تفصيل فثبتت بذلك نبوته، فكان اقتراحهم تعنتًا ظاهرًا لأنهم كذبوا بأعظم الآيات: القرآن وطعنوا فيه بما زادهم فضائح، فثبت أنه لا فائدة في إجابة مقترحاتهم = أجاب منكرًا لما اقتضاه لسان حالهم من طلب التحاكم إلى أوليائهم فقال: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ ولقد كثر التنبيه في هذه السورة على التفصيل؛ لوقوع العلم بأن من لا يحسن التفصيل لا يتقن التركيب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لما في كتبهم من البشائر به ولما له من موافقتها في الأحكام المحكمة، وكثرة ذكر الله على وجوه ترقق القلوب، مع ما يزيد به من التفصيل، ولما كان أهل الكتاب يخفون ما عندهم من العلم ويقولون للمشركين: إنهم أهدى سبيلًا، بما قد يوهم أنهم يعتقدون بطلانه قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٥﴾ قال أبو حيان: "طلب مشركو قريش من النبي ﷺ أن يجعل بينهم حكمًا من أهل الكتاب يخبر بما في كتابهم من أمره، فنزلت".

ولما دل على كونه حقًا من عند الله قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا﴾ فلا يقدر أحد أن يبدي في شيء منها حديثًا يخالف الواقع ﴿وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٦﴾ فأعرض عن الجهال وأقبل على ذي الجلال فإنك إن تطعه اهتديت: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أي وقت بعد أن علمت أن أكثرهم فاسقون متبعون للهوى ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٧﴾

فيجزمون بالأمور بحسب ظنهم، فيكشف الأمر عن أنها كذب، فيعرف الفرق بينك وبينهم في تمام الكلام، فلا يبقى شبهة في أمر المحق والمبطل.

ثم علل هذا البيان لما يتبع ويجتنب بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ ولكون الحال شديد الاقتضاء للعلم، قطعه عما بعده فقال: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ أي: يقع منه ضلال يومًا ما ﴿عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٨﴾﴾ فمن أمركم باتباعه فاتبعوه، ومن نهاكم عنه فاجتنبوه.

ولما كانت سنة الله تعالى أنه يذكر وحدانيته ويستدل على ذلك بالخلق، ثم يعجّب ممن أشرك به، ثم يأمر بالأكل مما خلق تذكيرًا بالنعمة ليكون داعية إلى شكره، ختم بأنه لا حَكم سواه ينازعه في حكمه فقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ أي: يقع منهم الضلال فيوقعون غيرهم فيه بنكوبهم عما دعت إليه أوامر الله ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي: بسبب اتباعهم للهوى وهو ميل النفس.

ولما كان الهوى ربما وافق ما أدى إليه العلم قال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٠﴾ ۞وَذَرُواْ﴾ أي: اتركوا على أي حالة اتفقت وإن كنتم تظنونها غير صالحة ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: المعلوم الحرمة ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ من كل ما فيه شبهة، وعلامته أن يضطرب القلب عنده كما قال ﷺ: «والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر»، ﴿نَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢١﴾﴾ صيغة الافتعال للدلالة على أن أفعال الشر إنما تكون بمعالجة من النفس للفطرة الأولى السليمة.

ولما أمرهم بالأكل مما ينفعهم، محذرًا من أكل ما يعيش مرأى بصائرهم، أتبعه نهيهم عن الأكل مما يضرهم في أبدانهم وأخلاقهم فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ لأنه قد حرمه فصار نجس العين أو المعنى، فصار مخبثًا للبدن والنفس، واسمه تعالى منزه عن أن يذكر على الحرام فإن ذُكر عليه كان ملاعبًا فلم يطهره، وأما ما كان حلالًا ولم يذكر عليه اسمٌ فهو حلال لقوله ﷺ: «اذكروا أنتم اسم الله وكلوا» ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ﴾ وهذا دليل على أن النسيان لا يحرّم الذبيحة لأنه ليس بسبب للفسق.

ولما كانت الشبه ربما زلزلت ثابت العقائد، قال محذرًا منها: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: أخابث المردة من الجن والإنس ﴿لَيُوحُونَ﴾ أي: يوسوسون وسوسة بالغة سريعة ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾

أي: المقارين لهم في الطباع المهيَّئين لقبول كلامهم ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ أي: ليفتلوكم عما أمركم به بخرافاتهم التي بنوها على الهوى، ويكفي في هدم جميع شبههم إجمالًا: أن صاحب الدين ومالك الملك منع منها.

﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢٢﴾ لأن من اتبع أمر غير الله فقد أشركه بالله، كما قال ﷺ في قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾ [التوبة: ٣١] من أن عبادتهم لهم: تحليلهم ما أحلوا وتحريمهم ما حرموا، فنبه بذلك على أن الأسماء تتبع المعاني، قال النووي: "واعلم أن الذبح للمعبود باسمه نازل منزلة السجود له، وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم، فمن ذبح لغير الله على وجه التعظيم والعبادة لم تحل ذبيحته وكان فعله كفرًا، كمن سجد لغيره سجدة عبادة".

ولما كان معنى التحذير من طاعة المشركين: أنكم إن فعلتم فقد رددتم أنفسكم إلى ظلام الضلال بعد أن مُنحتم نور الهداية قال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة الجهل، وظلمة ما ينشأ عنه من الهوى، وظلمة ما نشأ عن الهوى من الكفر، وإذا كان المثل من الممثول في شيء، كان الممثول عريقًا فيه بطريق الأولى ﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ بما زين له من سوء أعماله.

ولما كان إيحاء الشياطين إلى أوليائهم مما يوجب لزوم العمى ليس إلا تزيينًا للقبائح قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما زين لهم ذلك ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٣ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما زينا لهم سوء أعمالهم ﴿جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ ولما كان الأكابر أقدر على إنفاذ المكر وترويج الأباطيل بما لأغلب الناس من السعي في رضاهم طمعًا فيما عندهم قال: ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ أي: يخدعوا أصاغرهم بما يلبّسون عليهم حتى يتبعوهم فيعادوا لهم حزب الله ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٤﴾ لأن الله تعالى يجعل بما يزين لهم: تدميرَهم في تدبيرهم.

ثم أتبع هذا بما يدل على تكبرهم ومكرهم لغيرهم وعوده على أنفسهم، فقال تعجيبًا من حالهم فيما زين لهم من ضلالهم، وتصديقًا للإخبار بأنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾ لما لنا من العظمة المقتضية لأن لا يختص أحد عنا بشيء ﴿مِثۡلَ مَآ﴾ ولما كان نظرهم قاصرًا على المحسوس من غير نظر إلى جانب الله، بنوا

للمفعول قولهم: ﴿أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ﴾ ولما كان الشيء يعظم بعظمة مَحله ومُوقعه قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٥﴾.

ولما علم بما تقدم أن الأمر أمره والقلوب بيده قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ من أكابر المجرمين أو غيرهم ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾ أي: يوسعه بأن يجعله قابلًا للنور ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي: مضطربًا، والحرجة: شجرة لا تصل إليها راعية، قال عمر رضي الله عنه: "كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الإيمان والخير"، وإن وصل إليه شيء لم يجد مسلكًا فنكص، ولذا قال: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ أي: يتكلف في قبول الهدى الصعودَ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ فكلما أصعدته حركته الاختيارية أهبطته حركته الطبيعية، ولما كان هذا الوصف منفرًا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٦﴾.

ومادة «رجس» تدور على الاضطراب الملزوم للعوج، ولذا وصف سبيله بما هو أبعد شيء عنه فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن لا المقترحات ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك، حال كونه ﴿مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ على منهاج الفطرة الأولى التي هي في أحسن تقويم بالعقل السليم الذي لم يشبه هوى، ولما كان فيه ما لا يستقل العقل بإدراكه وإن كان منتظمًا معه قال: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بإرشاد الهداة من الرسل ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٧﴾ أي: يجتهدون في التخلص من العوائق للعقل من الهوى وغيره ولو على أدنى وجوه الاجتهاد، بما يشير إليه الإدغام.

﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٨﴾ بيانًا لأن المراد هو التذكر المؤدي إلى الأعمال، فإنها معيار الصدق.

ثم ذكر بعض أحوال الغافلين استعطافًا لهم إلى المتاب فقال: ﴿*وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ عطفٌ على جواب الجن، وتقديره: ربنا هم ضلوا لأنهم كانوا يستمتعون بنا في النفوذ وسماع الأخبار الغريبة فاستوجبوا العذاب بمفردهم، وستره لظهوره ولأنه مناسب لحالهم في الاستتار مع شهرتهم.

﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لأن الأعمال بالنية، وقد ثبّتم العزم على الكفر ما بقيتم، فالجزاء من جنس العمل ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ وفي هذا التعليق زيادة في عذابهم بتعليق رجائهم من انقطاع بلائهم

بما لا مطمع فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: المحسن إليك برفع أوليائك وخفض أعدائك، ولما كان تنزيل كل شيء منزلته في هذا المقام أعظم قدّم قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فلا يعذب المخلص ويترك المشرك ﴿عَلِيمٌ ۝١٢٩﴾ فلا يخفى عليه عمل أحد فيهمله لذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل تلك التولية التي سلطنا بها الجن على الإنس بما زاد عذاب الفريقين ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الجن أو الإنس، كافرًا أو لا ﴿بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٣٠﴾ أي: بسبب اجتماعهم في الطباع حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها، فيظلم بعضهم بعضًا ويهلك بعضهم بعضًا، وعن مالك بن دينار قال: "رأيت في بعض الكتب المنزلة أن الله تعالى يقول: أفني أعدائي بأعدائي ثم أفنيهم بأوليائي"، أو يقال: كما تولى الله تعالى المؤمنين بسبب محاسن أعمالهم ليعزّهم، أخبر أنه ولى بعض الظلمة بعضًا ليهينهم بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوئ الأعمال.

ولما كان حاصل المحاورة المتقدمة موالاة من ضرت موالاته، أتبعها بأخرى حاصلها معاداة من ضرت معاداته فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ولما صار القبيلان بتوجيه الخطاب نحوهم كالشيء الواحد قال: ﴿مِّنكُمْ﴾ وإن كانوا من الإنس خاصة، ولما كان النظر في هذه السورة إلى العلم غالبًا لإثبات تمام القدرة، ولذلك أكثر فيها من ذكر التفصيل الذي لا يكون إلا للعالم، كان القص الذي هو تتبع الأثر أنسب فقال: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾.

ثم بين أن ضلالهم كان بأردأ الوجوه وأسخفها فقال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لحضورها مع دناءتها، عن الآخرة لغيابها مع شرفها وعن اتباع الرسل، دأب الجاهل في الرضى بالدون، والدابة في القناعة بالحاضر ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝١٣١ ذَٰلِكَ﴾ أي: إرسال الرسل ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣٢﴾ عما يجب عليهم مما لا تستقل به عقولهم؛ لِما فيهم من الشهوات المانعة لهم عن نافذ المعرفة بما يراد بهم، فأرسلنا إليهم الرسل فأيقظوهم من غفلتهم. [ولما بان عدله سبحانه في البيان، بيّن عدله في الجزاء فقال]: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٣﴾.

ولما كان طلب العبادة ربما أوهم الحاجة إليها، وكان الإمهال مع المبارزة ربما ظن أنه عن عجز، قال مرغبًا مرهبًا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم

مَّا يَشَآءُ﴾ من جنسكم أو غيره ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٤﴾. ثم قال جوابًا لاستعجالهم بالعذاب: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٥﴾ وفيه تقرير لرحمته؛ لأن القادر إذا أراد النقمة أخذ على غرة ولم يهدد، وإذا أراد الرحمة تقدم بالوعيد ليحذّر.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ وفيه مع النصيحة تخويف أشد مما قبله لأن فيه إعراضًا عنهم ﴿إِنِّي عَامِلٌۖ﴾ ويمكن أن يكون متمحضًا للتهديد فيكون المعنى: اعملوا الآن من مخالفتي بغاية ما لكم من القوة إني كذلك أعمل فيما جئت به، ولما كان وقوع المتوعد به سببًا للعلم بالعاقبة، أثبت الفاء فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٦﴾.

ثم شرع في تفصيل قوله: ﴿أغير الله أتخذ وليًا﴾ [الأنعام: ١٤] على أسلوب آخر، والسر في الإعادة أن الشيء إذا أثبت أو نفي بدليله ثم أعيد ذلك في أسلوب آخر كان أثبت في النفس، لا سيما إن كان في الأسلوب الثاني -كما هي عادة القرآن- زيادة في البيان وتنبيه على ما لم يتقدم أولًا، قال الغزالي: "والمقصود أنه لا مكرر في القرآن، وإن رأيت ما ظاهره ذلك فانظر إلى سوابقه ولواحقه؛ لينكشف لك مزيد الفائدة في إعادته"، وابتدأه ببيان ظلمهم وجهلهم تنبيهًا على سخافة عقولهم، تنفيرًا عنهم بوضعهم الأشياء في غير مواضعها، فقال عاطفًا على ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾: ﴿۞وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ﴾ أثبت الفاء لأن الجعل لا يعرف إلا بالقول.

﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٣٧﴾ قال البغوي: "كانوا إذا سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غني عنه، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إليها وقالوا: إنها محتاجة".

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما زين لهم تضييعَ أموالهم والكفرَ بربهم شركاؤهم ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ما هو أبين منه وهو ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ ولما كان ذلك ربما كان لفائدة استهين لها هذا الفعل العظيم، ذكر أنه ليس له فائدة إلا الهلاك ليكون ذلك أعجب فقال: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ﴾ فجمعوا لهم بين هلاك النفس بالقتل وهلاك الدين بإيقاعه تدينًا بغير أصل ولا شبهة، فلا أضل ممن تبع من كان سببًا لذلك، ولما كان الكلام

هنا في شركائهم وتجرئهم على مقام الإلهية، علق الأمر باسم الذات الدال على الكمال فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ خلاف ما تقدم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١٣٨﴾.

ولما ذكر إقدامهم على ما قبحه الشرع، أتبعه إحجامهم عما حسنه مما دانوا به لمجرد أهوائهم فقال: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ١٣٩﴾.

ثم أتبعه ما هو مختلط من الإقدام والإحجام فقال: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ ولما كان ذلك وصفًا منهم للأشياء في غير مواضعها التي يحبها الله قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ﴾ أي: بأن يعذبهم في كل موضع يكرهون وصف العذاب فيه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ لا يجازي على الشيء إلا بمثله ويضعه في أحق مواضعه ﴿عَلِيمٌ ١٤٠﴾ بالمماثلة ومن يستحقها، وفيه إشارة إلى تعاليه عن أن يكون شرعها، فإنها سفه محض لا يفعلها إلا ظالم جاهل.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولما ذكر عظيم ما أقدموا عليه، ذكر جليل ما أحجموا عنه فقال: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بغير شرع ولا نفع ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولما خسروا مع ادعائهم غاية البصر: النفسَ بالقتل والمالَ بالتحريم فأفادهم ذلك خسارة الدين، كانت نتيجته قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ ودلّ على ثباته وأنه ليس فلتة عارضة بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤١﴾.

ثم قال زيادة في التعجيب منهم في تصرفهم في ملكه بغير إذنه سبحانه وشرعهم ما لم يأذن فيه، في سياق مقرر للتوحيد عودًا على بدء لأنه المدار الأعظم: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: مرفوعات على الخشب ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ وبدأ بأشهرها عند المخاطبين بهذه الآيات فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ ولما كان القصد نفي الشريك وإثبات الفعل بالاختيار قال: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾.

قال أبو حيان: "لما كانت تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع والبعث قال: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ [الأنعام: ٩٩] إشارة إلى الإيجاد أولًا وإلى غايته، وهنا لما كان في معرض الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾"، وعبر بـ«إذا» دون «إن» تحقيقًا لرجاء الناس في الخصب، ولما كان مما قبّح به مذاهب الكفار

أن يجعلوا شيئًا من أموالهم لأحد بأهوائهم، أشار هنا إلى أنه فرض فيها حقًا وجعل له مصارف بقوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ في الأكل حتى لا يبقى شيء للزكاة، ولا في الصدقة حتى لا يبقي لنفسه ولا لعياله شيئًا.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤٢ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ ولعله شدد إشارة إلى العفو عن صغيره إذا رجع عنه ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: طريقه في التحليل والتحريم، وعبر بذلك لأنه دال على أن شرائعه للاندراس لولا تتبع الفسقة في كل خطوة، وإلا لبادر إليها المحو؛ لبطلانها في نفسها، فلا أمر من الله يحييها ولا كتاب يبقيها، ثم علل نهيه عن اتباعه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٣﴾.

ولما كان المشركون قد فصلوا الحرمة بالنسبة إلى ذكور الآدمي وإناثه، ألزمهم تفصيلها بالنسبة إلى ذكور الأنعام وإناثه في أسلوب أبان فيه سفاهتهم، فقال بيانًا لـ﴿حمولة وفرشًا﴾: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ ومتى كان كذلك لزمهم تحريم الكل وإلا عُلم أنه لا نظام لهم فكانوا جديرين بالتوبيخ، ولذا ختم بقوله: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٤ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ لأنه لا محلل ولا محرم غيره، فكنتم بذلك ناسبين الحكم إليه.

ولما كان التقدير: لقد كذبتم عليه حيث نسبتم إليه ما لم تأخذوه عنه، سبب عنه قوله معممًا: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ وما أنسب هذا الختم لما بنى أحكامهم عليه من قوله: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ [الأنعام: ٢١].

ولما أبطل دينهم وبيّن أن التحريم بالتشهي افتراءٌ على الله، أتبعه البيان الصحيح لما يحل ويحرم فقال: ﴿۞قُل﴾ معلمًا بأن التحريم لا يثبت إلا بوحي من الله ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا﴾ ولذلك حُرِّمت، فإن جميع المحرمات يوجب ارتكابها الخبث والانسلاخ من الخير ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ بالبناء للمفعول لأن المعتبر حصول الاضطرار

لا كونه من معين، ومن التعبير بذلك تؤخذ حرمة ما زاد على سد الرمق لأنه حينئذ لا يكون مضطرًا ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤٦﴾.

قال الحرالي: "**وجه إنزال حرف الحرام**: طهرة الخلق من مضار أبدانهم ورجاسة نفوسهم ومجهلة قلوبهم، فما اجتمعت فيه كان أشد تحريمًا، وما وجد فيه شيء منها كان تحريمه بحسب تأكد الضرورة إلى طهرته، ولما كان من الأمور ما يشبه الحلال من وجه والحرام من وجه، اختلفت فيها الأمة علمًا، واجتنب جميعَها الصالحون عملًا «من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه»، فلم يتطبب بطب الله من لم يَحْتَمِ عن محرماته ومتشابهاتها، وهو الورع الذي هو ملاك الدين.

واعلم أن قراءة حرف الحرام هو الأساس الذي يطهر النفس من المناهي والفؤادَ من المجاهل، فإن الإنسان فيه بزرة للخير وبزرة للشر، وبحسب تخلصه من مزاحمة نبات بزرة الشر تنمو فيه بزرة الخير، **والذي تحصل به قراءة هذا الحرف**: هو الورع الذي هو كف اليد ظاهرًا عن الشيء الضار، ولما كانت الجوارح لا تنقاد إلا عن تأثر من النفس لم يصح الورع ظاهرًا إلا أن يقع في النفس روعة باطنة من تناول ذلك الشيء، ولما كان الحرام: **ما يضر العبد في جسمه** كالميتة، تيسر على المستبصر كف يده عنها.

وكذلك **ما يضر بنفسه** كلحم الخنزير لأنه رجس، والرجس هو خبائث الأخلاق التي هي أقبح من خبائث الأبدان، فإن من اغتذى جسمه بلحم حيوان اغتذت نفسه بنفسانية ذلك الحيوان وأخلاقه، وفي نفس الخنزير مجامع رذائل الأخلاق كالانكباب على أدنى الأشياء وعدم الاستشراف كذوات الأعناق.

وكذلك **ما يضر بهما وبالعقل** كالخمر، فالمتبصر في المحرمات يأنف منها لما يدري من مضرتها وأذاها في الوقت الحاضر وسوء عقباها في يوم الدين، ومن شرب الخمر ولم يتب سقاه الله طينة الخبال، ولو هدد شاربَها في الدنيا من له أمر بأن يسقيه من بوله ورجيعه لوجد من الروع ما يحمله على الورع عنها.

فلا تصح قراءة هذا الحرف: إلا بتبصرة القلب فيه وروعة النفس منه وورع اليد عنه، وإلا فهو من الذين يقرؤون حروفه ويضيعون حدوده، ومن لم تصح له قراءة هذا الحرف لم تصح له قراءة حرف سواه ولا تصح له عبادة، وهو الذي لا تزيده صلاته من الله إلا بُعدًا".

ولما كانت الآية المتقدمة تعم كل طاعم، وكان تعالى قد حرم على اليهود أشياء غير ما تقدم قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٧ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٨﴾.

ولما عُلم أن إقدامهم على الأحكام الدينية كان بغير حجة، أخبر بشبهة يعتذرون بها عن جهلهم على وجه يثبت الرسالة؛ لوقوعه طبق ما قال، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ وهو لا يشاء إلا الحق فلو لم يكن حقًا يرضاه لمنعنا منه فلم يقع، ولما كان هذا عنادًا ظاهرًا بعد وضوح الأمر قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ ولم ينفعهم عنادهم.

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٩﴾ أي: تقولون تارة بالتخمين وتارة بالكذب اليقين.

ولما انتفى أن يكون لهم حجة وثبت أن الأمر إنما هو لله، ثبت أنه المختص بالحجة الواضحة فقال: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٥٠﴾.

ولما لم يكن لهم شاهد غير متخرصهم، فإن المبطل يظهر باطله عند المحاققة، سنة من الله مستمرة، دعائهم إلى ما يخزيهم فقال: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ وإضافة الشهداء إليهم ووصفهم بـ«الذين» دليل على أنهم معروفون بنصرة مذهبهم بالباطل، ولو لم يضف لأفهم أن المطلوب من يشهد بالحق وليس كذلك؛ لأنه لا حجة لهم.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف، دلالة على أن القائد إلى التكذيب إنما هو الهوى، وأن من خالف ظاهر الآيات إنما هو صاحب هوى، ودل بالنسق بالواو على العراقة في الوصفين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥١﴾.

ولما أبطل دينهم،أخبرهم بدين الملك الذي له الخلق والأمر فليس التحريم لأحد غيره فقال: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ ولما كان المحرم أهم قدمه فقال: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾ أي: المحسن إليكم بالتحليل والتحريم ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ورتب الجمل أحسن ترتيب، فبدأ بالتوحيد في صريح البراءة من الشرك، إشارة إلى أن التخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل فقال:

﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ ولما وصى بأول واجب للمنعم الأول الموجد من العدم، أتبعه ما لأول منعم بعده بالتسبب في الوجود، فقال ناهيًا عن الإساءة في صورة الأمر بالإحسان على أوكد وجه؛ لما للنفوس من التهاون في حقهما: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾.

ولما أوصى بالسبب في الوجود، نهى عن التسبب في الإعدام وبدأ بأشده فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ ولأن الظاهر هو حصول الفقر قدم الآباء فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ وظاهر قوله في الإسراء: ﴿خشية إملاق﴾ أنهم موسرون ولكنهم يخشون الفقر فبدأ بهم فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ [الإسراء: ٣١]، نبه عليه أبو حيان.

ولما كان قتلهم أفحش الفواحش بعد الشرك، أتبعه النهي عن مطلقها فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ﴾ خصه من عموم الفواحش تعظيمًا ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ولما كانت هذه الأشياء لعظيم خطرها لا تحتاج إلى مزيد فكر ختم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥٢﴾ فعُلم من ذكر الوصية أن هذه المذكورات هي الموصى بها والمحرمات أضدادها، فصار شأنها مؤكدًا من جهة التصريح بالتوصية بها، والنهي عن أضدادها.

ولما كان المال عديل الروح لأنه لا قوام لها إلا به، وكان أعظمها حرمة مال اليتيم لضعفه وقلة ناصره ابتدأ به فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ ثم ثنى بالمقادير على وجه يعم فقال: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ ثم ثلث بالعدل في القول لأنه الحكم على الأموال وغيرها فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾.

ولما كان العدل في هذه الأمور شديدًا لكونها شهوات، رغّب فيها ورهّب بأن كل من يفعل شيئًا منها مع غيره يوشك أن يفعل معه مثله، فلذلك حض على التذكر فيها، ولأنها خفية تحتاج إلى مزيد تدبر فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٣﴾ ما جبلت عليه نفوسكم من محبة مثل ذلك لكم، فتحكموا لغيركم بما تحكمون به لأنفسكم.

ثم نبّه على تعظيم هذه الشرائع بما يعم جميع الأحكام فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ بغاية جهدكم لأنه الجامع للعباد على الحق الذي فيه كل خير ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: المنشعبة عن الأهوية المفرقة بين العباد ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ فتخافون أن تزلوا فتضلوا فتهلكوا، وختم كل آية بالوصية ليكون ذلك آكد في القول فيكون أدعى للقبول، وختم كل واحدة منها بما ختم؛ لأنه إذا كان العقل: دعا إلى التذكير، فحمل على التقوى.

ولما كانت هذه الآيات الثلاث وافية بالآيات العشر التي كتبها الله لموسى على لوحي الشهادة ذكر بعدها التوراة، فقال مشيرًا بـ«ثم» إلى الترتيب والتعظيم: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ويجوز وهو أحسن: أن يكون معطوفًا على ما تقديره: ذلكم وصاكم به كما وصى بني إسرائيل في العشر الآيات التي هي أول ما كتبه الله لموسى.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ أي: أتى بالإحسان بما بيّن من الشرع وبما حمى أهل الأرض به من الإهلاك بعامة، فإنه نُقل أن الله لم يهلك قومًا هلاكا عامًا بعد إنزال التوراة ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ لما يرون من حسن شرائعه وفخامة كلامه وجلالة أمره، فلا يتخذوا عجل غاية أمره خوار لا يفهم.

ثم بيّن أنه لم يخصهم بذلك، بل أنزل على هذه الأمة كتابًا هو أعظمها بركة وأبينها دلالة فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ ولما كان الإنسان ربما تبعه في الظاهر، أمر بإيقاع التقوى المصححة للباطن إيقاعًا عامًا، ولذلك حذف الضمير فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥ أَن﴾ أي: لئلا ﴿تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ لما لنا من الاستعداد بوفور العقل واعتدال الأمزجة والإذعان للحق، ولذلك سبب عن هاتين العلتين قوله: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي لا أعظم منه فلا أعظم من آياته؛ لأن الأثر على قدر المؤثر ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ أي: صار في صفد أي: سد عن سهولة الانقياد للدليل.

﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧ ۞هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بعذابهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ يوم الجزاء ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ أي: أشراط الساعة، ولما كان تجلي الرب في يوم الجزاء "أعظم من مقالة قائل" ترك ما يترتب عليه وقال: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا﴾ كافرة ﴿إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾ ويسر الأمر فلم يكلف باستغراق زمان القبل بالإيمان فقال:

﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل مجيء الآية في زمن متصل به ﴿أَوۡ﴾ لم تكن المؤمنة العاصية ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾ السابق على مجيء الآية ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ أي: توبة؛ لأن المقصود الإيمان بالغيب وقد فات بالآية الملجئة ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٩﴾.

ولما نهى عن اتباع السبل لأنها سبب التفرق عن الحق، ختم بهذين التهديدين العظيمين الدالين على غشاوتهم، وكان ذلك مؤسفًا للنبي ﷺ لما كان يرجوه من هدايتهم، فثبته سبحانه وسلاه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ وأضيف إليهم لشدة رغبتهم فيه ومقاتلتهم عليه ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ لا في حسابهم ولا في خلق الهداية في قلوبهم، وفيه غايةُ الحث على الاجتماع ونهايةُ التوعد على الافتراق وتعليلٌ لقوله: ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ الآية ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٦٠﴾.

ثم بيّن ما يفعل بهم حينئذ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾.

ولما تضمن ما مضى تصحيح التوحيد وإبطال أديان الضلال، أمره بالإعلان بأمره وأن يصف دينه بما فيه من المحاسن تحبيبًا فيه وحثًا عليه، ولأن ذلك من نتيجة هذه السورة فقال: ﴿قُلۡ﴾ مؤكدًا بالنونين ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦٢ دِينٗا قِيَمٗا﴾ أي: بالغ الاعتدال، وعلى قراءة ﴿قِيَمًا﴾ فهو مصدر بمعنى القيام، وصف به للمبالغة ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ أي: قابلًا للاستقامة لكونه ميالًا مع الدليل، وفيه رجوع إلى ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ [الأنعام: ٧٤] الذي بنيت السورة في الحقيقة عليه، وترغيبًا في هذا الدين لأن جميع المخالفين ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام: العرب وأهل الكتابين بالأبوة، والمجوس بالبلد والأخوة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦٣﴾.

ثم بيّن هذه الملة بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ وأعلمَ أنه يستحقه من كل أحد؛ لإحسانه إليه وإنعامه عليه فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾ وأنه يستحقه وحده فقال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ ولما دل على ذلك ببرهان العقل، أتبعه بجازم النقل فقال: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ بالبناء للمفعول؛ لأن هذا الدين لو لم يَرِد به أمر كان ينبغي للعاقل أن يدين به لظهور دلائله، فكيف إذا برزت به الأوامر الإلهية! ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٥﴾.

ثم قال نتيجة لما تقدم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أفينبغي لأحد أن يدين لغير سيده وذلك الغير مربوب مثله! هذا ما لا يرضاه عاقل لنفسه، ولما كان المعنى: أني إن بغيت ربًا غيره وكلني إلى ما توليته فهلكت، قال معممًا ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بما هي ناظرة في نفاستها معرضة عن ربها موكولة إلى قوّتها ﴿إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم﴾ ولما تقدم أنهم فرقوا دينهم قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

ولما قدم أنه المحسن إلى كل شيء بالربوبية، أتبعه التذكير بتخصيصهم بالإحسان مستعطفًا لهم إليه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ ولما كان من طبع الآدمي إذا علا التجبر، أتبعه التهديد للظالم والاستعطاف للتائب فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٧﴾﴾ وتأكيده الثاني دون الأول ناظر إلى قوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ١٢]؛ لأنه في سياق التأديب والتذكير بنعمة الاستخلاف، وسيؤكد في الأعراف الاثنين؛ لأنه في حكاية إسراع بني إسرائيل في الكفر واستحقاقهم على ذلك العقوبة.

وقد ختم السورة بما به ابتدأها، فإن قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ هو المراد بقوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ [الأنعام: ٢]، وقوله: ﴿أغير الله أبغي ربًا وهو رب كل شيء﴾ [الأنعام: ١٦٤] هو معنى قوله: ﴿خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [الأنعام: ١]، والله الموفق.

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها إنذار من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية، وأدل ما فيها على هذا أمر الأعراف، فإن اعتقاده يتضمن الإشراف على الجنة والنار والوقوف على حقيقة ما فيهما.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي من رحمته انتقامه من أهل الضلال ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الهادي لأهل الاصطفاء إلى لزوم طريق الوفاء.

﴿الٓمٓصٓ﴾ لما ذكر في آخر التي قبلها أنه أنزل إليهم كتابًا مباركًا وأمر باتباعه وعلل إنزاله، أخذ يستدل على ما ختم به تلك من سرعة العقاب وعموم الثواب فقال مخبرًا عن مبتدأ تقديره: هو ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن﴾ وعبر عن القلب بمسكنه الذي هو أوسع منه مبالغة في الأمر فقال: ﴿فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ من سرعة العقاب على نحو ما أوقع سبحانه بالأمم السابقة كما سيقص من أخبارهم ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١﴾ بالرحمة والغفران، وحذف مفعول «تنذر» يدل على عموم الرسالة.

ويجوز أن يراد النهي بمعنى: انف الحرج لتنذر، فإن من كان منشرح الصدر أقدم على ما يريد، وعلى كل تقدير فالنذرى للكافرين والذكرى للمؤمنين، لأن النفوس على قسمين: جاهلة عريقة في طلب اللذات والشهوات، وشريفة مشرقة بالأنوار الإلهية مستعدة للانجذاب إلى عالم القدس، إلا أنه ربما غشيها غواش من عالم الأجساد فيعرض لها نوع ذهول وغفلة، فبعثة الرسل للأولى إنذار وللثانية تذكير.

وقال أبو حيان: "اعتلاق هذه السورة بما قبلها: هو أنه لما ذكر تعالى قوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه﴾ [الأنعام: ١٥٥] واستطرد منه لما بعده إلى قوله في آخرها ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام: ١٦٥] وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم وذلك لا يكون إلا بالأوامر الشرعية، ذكر ما تكون به الأوامر وهو الكتاب الإلهي".

وقال ابن الزبير: "لما وقعت الإحالة في الأنعام على الاعتبار بالأمم السالفة، استدعت الإحالة والتسلية بسطَ أخبارهم إلى آخر سورة هود إلى قوله سبحانه: ﴿وكلًا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود: ١٢٠]، ولما ذكرهم أخبارهم في هذه السورة أومأ في قوله: ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأعراف: ١٧٦] إلى إلحاق كل من كذّب

الرسول ﷺ بمن قص ذكره من المكذبين، وافتتح ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما ممن كفر على علم وفي ذلك أعظم موعظة، قال تعالى إثر ذلك: ﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقوله: ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: أنه قد تضمن ما يرفع الحرج ويسلي النفوس؛ لتنذر به وتستن في ذلك سنن من نقص خبره من الرسل ﴿اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم﴾ فإن هلاك من نقص عليكم خبرهم إنما كان لعدم الاتباع والركون إلى شياطين الجن والإنس الذين بيّن عداوتهم بقصة آدم حتى قال: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ [الأعراف: ٢٧] وبسط هنا ما أجمل في البقرة. ولم تتكرر قصة إلا وهي تفيد ما لم تفده أولًا، مع أن الواقع في السورتين من كلتا القصتين مستقل شاف، وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله ووضح كماله، فتبارك من هذا كلامه".

﴿ٱتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ أي: من الذين بيّنا في الأنعام ضررهم لكم ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ ما هو مركوز في فطركم الأولى.

ولما كانت النعم والنقم من أعظم ما يُتذكر للإقبال على الله والإعراض عن غيره وعدم الاغترار بأسباب الأمن قال: ﴿وَكَم﴾ أي: قلّ تذكركم والحال أنه كم ﴿مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ لظلمها باتباع من دون الله، فلا تغتروا بأوليائكم من دونه وأنتم عالمون أنهم لم ينفعوا من قبلكم وقت إنزال السطوة، وتحقق المهلَكون إذ ذاك عدمَ إغنائهم فلم يوجهوا آمالهم نحوهم ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ ولما كان أشده ما كان في وقت الراحة والغفلة قال: ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقت الاستكنان في البيوت ليلًا.

ولما كان حذف المضاف يجوز فيه بحسب ما يحسن من المعنى: ألا يلتفت إليه كما في أول الآية، وأن يلتفت إليه كما في قوله: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ أي: نائمون وقت القائلة = ذكره لبيان أن الأهل هم المقصودون لأنه موضع التهديد، والمعنى: أنهم كانوا في كل من الوقتين غافلين لأنهم كانوا آمنين، لم يظنوا أن شيئًا من أعمالهم موجب للعذاب ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥﴾.

ثم قال دفعًا لوهم من يظن أن الأمر انقضى بعذاب الدنيا: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾. ولما كان السؤال يُفهِم خفاء المسؤول عنه على السائل، أزال هذا

الوهم بقوله مؤذنًا بأنه أعلم منهم عما سألهم عنه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٦ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: أعماله الموزونة، ولعله عبر بها عنها إشارة إلى أن كل عمل يوزن على حدة ليسعى في إصلاحه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٨﴾ والحال أنّا قد مكناهم من إنجائها بخلق القوى وإدرار النعم كما مكناكم، وذلك قوله:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فما منها بقعة إلا وهي صالحة للانتفاع ولو بالاعتبار ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ فأكلوا خيره وعبدوا غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ بما تنجون به أنفسكم. ثم ذكّرهم ما كانو عليه قبل هذه المكنة من العدم، تذكيرًا بالنعم في سياق دال على البعث فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر قصة آدم وأنه لما خالف الأمر أخرجه من الجنة؛ تحذيرًا لأهل المكنة من إزالة المنة وإحلال النقمة.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١٠ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ إنكارًا عليه وتوبيخًا له؛ استخراجًا لكفره الذي كان يخفيه بما يبدي من جوابه؛ ليعلم الخلق سبب طرده ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فلا يليق لي السجود لمن هو دوني ولا حكمة في أمري بذلك، ثم بين وجه الخير الذي تصوره بسوء فهمه أو بما قاده إليه سوء طبعه فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١١﴾ وقد غلط غلطًا فاحشًا فإن الإيجاد خير من الإعدام بلا نزاع، والنار تعدم ما خالطته والطين ينمّيه، هذا لو كان الفضل باعتبار العناصر والمبادئ، وليس كذلك بل هو باعتبار الغايات.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ وعبر بالهبوط الذي يلزم منه سقوط المنزلة دون الخروج؛ لأن مقصود هذه السورة الإنذار وهو أدل عليه، وسبب عن أمره به قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وسبب عن كونها لا تقبل الكبر قوله: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي: من الجنة، فانتفى أن يكون الهبوط من موضع عالٍ من الجنة إلى موضع منها أحط، ثم قال مشيرًا إلى أن كل من أظهر الاستكبار ألبس الصغار: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٢﴾.

ولما علم أن الحسد قد أبعده، تمادى فيه فسأل ما يُنزِل به المحسودين إلى دركته، ولم يسأل بشقاوته ما يعليه إلى درجاتهم فـ: ﴿قَالَ﴾ ولما كان الحكم عليه بما تقدم لا يكون سببًا لسؤاله الانتظار [أعراه عن الفاء] فقال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٣﴾.

فأعلم سبحانه أنه قد سبق في الأزل الحكم له بالانتظار لا أنه إجابة له فقال: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٤﴾ ودل قوله: ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [الحجر: ٣٨، ص: ٨١] وهو النفخة الأولى، أنه لم يمنعه من الموت، لكن لم يذكره هنا لأن السورة للإنذار والإبهام أشد في ذلك، وأجابه إلى الإنظار وهو يريد به الفساد؛ لأنه لا يعدو أمره فيه، ولتظهر حكمته تعالى في الثواب والعقاب.

ثم قابل نعمة الإمهال وإطالة العمر بالتمادي في الكفر فـ﴿قَالَ﴾ مسببًا عن عصيانه ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ بحملهم على ترك ما أمرتهم وفعل ما نهيتهم كما يقعد قاطع الطريق على السابلة للخطف ﴿صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٥﴾ وهو الإسلام ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ مواجهة فيفعلون ما يعلمون أنه خطأ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مغافلة فيعملون ما هو في غاية الفساد ولا شعور لهم بفساده فيتعاطون مثله وهم لا يشعرون.

﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ مخايلة فيفعلونه وهو مشتبه عليهم، وهذه الجهات التي يمكن الإتيان منها، وترك الأعلى لأنه لا قدرة له على الإتيان منه لئلا يلتبس أمره بالملائكة، وقد ذكر ذلك في بعض الآثار ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٦ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ١٧ ۞ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وهو يدل على إباحة الأكل من كل شيء فيها غير المنهي عنه، وأما آية البقرة فتدل على إباحة الأكل منها في أي مكان.

وهذا السياق إلى آخره مشير إلى أن من خالف أمره تعالى ثُلّ عرشه وهدم عزه وإن كان في غاية المكنة ونهاية القوة، وأكد تحريم الشجرة بالنهي عن قربانها دون الاكتفاء بالنهي عن غشيانها فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ فَوَسْوَسَ﴾ أي: ألقى في خفاء وتزيين وتكرير ﴿لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: المواضع التي يسوؤهما انكشافها، وفيه أن إظهار السوءة موجب للبعد من الجنة وأنهما لا يجتمعان، وطوى مضمون الوسوسة مفهمًا أنه أمر كبير وخداع طويل.

وعطف عليه قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: في عدم الشهوة والقدرة على الطيران والتشكل وغير ذلك من خواصهم ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ١٩ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف

وأن الأغلب أن كل حلّاف كذاب، فإنه لا يحلف إلا عند ظنه أن سامعه لا يصدقه، ولا يظن ذلك إلا وهو معتاد للكذب.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي: أنزلهما من علو الطاعة إلى المعصية التي أوجبت له الهبوط ﴿بِغُرُورٍۚ﴾ أي: بخداع وحيلة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢١﴾ وفيه تنبيه على أن من غوى فإنما هو تابع لأعدى أعدائه، تارك لأولى أوليائه.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٢﴾ ففزعا إلى الاعتراف ولم يجادلا كما فعل إبليس، وفيه إشارة إلى أن المبادرة إلى الإقرار بالذنب من فعال الأشراف وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر، وأن الجدال من فعال الأرذال وموجبات الغضب المقتضي للطرد.

﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾ إلى دار المجاهدة والمناكدة حال كونكم ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٣﴾ وفيها إشارة إلى قبح مغبّة المخالفة ولو مع التوبة، وحثٌّ على دوام المراقبة خوفًا من سوء المعاقبة ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٤﴾ وعلم بهذا أن الدلالة على الحشر فذلكة القصة.

ثم شرع يحذرنا من عدونا كما حذر أبانا عليه السلام، وبدأ بقوله بيانًا لأنه أنعم علينا فيها بكل ما يُحتاج إليه، وإيذانًا بما في كشف العورة من الفضيحة والإبعاد عن كل خير، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ إعلامًا بأن نفس الكشف نقص لا يصلح لحضرات الكمال ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي: زينةً زيادة على الساتر، محبّبًا فيما يُبعِد من الذنب ويقرب إلى حضرة الرب.

ولما ذكر اللباس الحسي أتبعه المعنوي، فقال مشيرًا بقطعه عما قبله إلى كمال تعظيمه حثًا عليه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ أي: من لباس الثياب، وأومأ بأداة البعد إلى علو رتبته وحسن عاقبته لكونه أهم اللباسين؛ لأن نزعه يكون بكشف العورة الحسية والمعنوية، فلو تجمل الإنسان بأحسن الثياب وهو غير متق كان كله سوءات، ولوكان متقيًا وليس عليه إلا خريقة كان في غاية الجمال والستر والكمال.

والذي يكاد يقطع به أن المعاصي سبب إحلال السوءة الذي منه ضعف البدن وقصر العمر حسًا أو معنى كما تُفهِمه القصة في التوراة، فإن فيها قول الله لآدم عليه السلام: «في اليوم الذي تأكل منها تموت موتًا» أي: تتهيأ للموت حسًا ويقضى عليك بالاشتغال بأسباب المعيشة، فيقصر عمرك معنًى بذهاب بركته، ولما كان في شرع اللباس تمييز الإنسان عن الحيوان والدلالة على عظمة الرب ورحمته قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ولو أدنى تذكر بما يشير إليه الإدغام، لئلا يقول المتعنت: إن ذلك خاص بالمسلمين، بل يتذكر فيعرف أنه يستقبح منه ما يستقبح من غيره.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيصدكم عما يردكم إلى وطنكم الجنة بتزيين ما ينزع عنكم من لباس التقوى فيدخلكم النار ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وأشار بالمضارع إلى إطالة الوسواس وإدامة المكر فقال: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ ودل على منافاة الكشف للجنة بالتعليل بقوله: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ فإن ذلك مبدأ ترك الحياء و«الحياء لا يأتي إلا بخير» كما رواه الشيخان.

ولما كان نهي الشيطان عن فتنتنا إنما هو نهي لنا عن الافتتان به، حذّر من دقة كيده معللًا ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لأن بينهم تناسبًا في الطباع يوجب الاتباع، وعدم رؤيتنا لهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم، فإنهم يتصورون في الأجسام الكثيفة فيراهم بنو آدم، كالشيطان الذي رآه أبو هريرة رضي الله عنه حين أمره رسول الله ﷺ بحفظ الصدقة، قال أبو حيان: "إلا أنه نادر، كما أن الملائكة عليهم السلام تبدو في صور".

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: أمرًا بالغًا في القبح ﴿قَالُواْ﴾ معللين لارتكابها ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ ولما كانت هذه العلة بيّنًا عوارها، افتروا معها ما يصلح للعلية فقالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فأعرَض عن الأولى لبديهية بطلانها؛ لأن من المعلوم أنهم لو كانوا على سفه في تحصيل المال ما تابعوهم، وأمر بالجواب عن الثانية فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وفيه تهديد شديد على الجهل والقول على الله بالظن.

ولما كان تعليلهم بأمر الله مقتضيًا لأنه إذا أمر بشيء اتُّبع، أمره أن يبلغهم أمره فقال: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ

تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: يظنون بقلة عقولهم ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٢٨﴾.

ولما أمر بإقامة الوجه عند كل مسجد، أمرهم بما ينبغي عندها من ستر العورة الذي تقدم الحث عليه، معبرًا عنه بالزينة ترغيبًا فيه وبيانًا لأنها ليست مما يتورع عنه لقوله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ولما أمر بكسوة الظاهر بالثياب لتوقف صحة الصلاة عليها، أمر بكسوة الباطن بالطعام والشراب لتوقف القدرة عليها فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ ونهى عن الاعتداء فيهما فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ كما قال ﷺ: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» الحديث ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٢٩﴾.

ولما كانوا قد حرموا على أنفسهم بعض الطيبات لأن الشيطان يوسوس لهم بأنه توسع في الدنيا مذموم، قال منكرًا عليهم إعلامًا بأن الزهد الممدوح ما كان مع صحة الاعتقاد في الحلال والحرام لا ما كان مع تبديل شيء من الدين: ﴿۞قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالأصالة وأما الكفار فهم تابعون لهم في التمتع بها ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً﴾ للذين آمنوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ وفيه بيان لأن الزهد المأمور به إنما هو بالقلب بألا تكون الدنيا أكبر همه، وأما الانتفاع بها فيما أذن الله فيه وهو غير مهتم بها فهذا من المحاسن ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٠﴾ ليتوصلوا إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح.

ولما بين أن ما حرموه ليس بحرام بيّن ما حرمه الله فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وقيده بذلك تأكيدًا لمنعه بأنه لا يتصور إلا موصوفًا بأنه بغير الحق، كما نص في قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ﴾ تنبيهًا على شدة الشناعة: على قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣١﴾.

ولما تكرر ذم الضال كان كأنه قيل: فلم لا يهلك من يخالفه؟ فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ ولما كان نظرهم إلى الفسحة في الأجل، وكان قطع رجائهم من جملة عذابهم قدمه فقال: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عبر بها والمراد أقل ما يمكن لأنها أقل

الأوقات في الاستعمال في العرف ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ لأنه ما ضربه لهم إلا وهو عالم بكل ما يكون من أمرهم فلا يتجدد له شيء من أحوالهم.

ولما تحرر مما تقدّم أنه لا سبيل إلى النجاة إلا بالرسل قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ﴾ ولما كانت زيادة الخبرة بالرسول أقطع للعذر وأقوى في الحجة قال: ﴿مِّنكُمۡ﴾ ولما كان الأغلب على مقصد هذه السورة العلم كما في قوله: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم﴾ [الآية: ٥٢]، كان التعبير بالقصّ الذي هو تتبع الأثر أليق فقال: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ ونظمها بعد قوله: ﴿أنزلنا عليكم لباسًا﴾ لأن ذكر دواء هتك السوءة أهم.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ ولما كان ذلك ليس سببًا حقيقيًا للتعذيب وإنما هو كاشف عمن ذرأه الله لجهنم لإقامة الحجة عليه، أعرى عن الفاء قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ وأثبتها في ختم السابقة للترغيب في الاتباع ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ﴾ ولما كان تكذيب الرسل تارة يكون بشرع ما لم يشرعوه وتارة برد ما شرعوه قال: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: كمن شرع في المطاعم والملابس غير ما شرع، أو ادعى أنه يوحى إليه فحكم بوجود ما لم يوجد ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي: برد ما أخبر به الرسل فحكم بإنكار ما وجد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ أي: غابوا ﴿عَنَّا﴾ ولما كان الإله لا يغيب فعلموا ضلالهم بغيبتهم عنهم قال مترجمًا عن ذلك: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ وقدّمهم لأنهم الأصل في الإغواء.

﴿فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي: لأجلهم ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ لكونهم أول من سن الضلال ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ﴾ من السابق واللاحق والمتبوع والتابع ﴿ضِعۡفٞ﴾ وإن لم يكن متساويًا؛ لأن المتبوع وإن كان سببًا لضلال التابع، فالتابع كان سببًا لتمادي المتبوع وتقويته باتباعه والدفاع عنه، ولما كانوا جاهلين باستحقاقهم لهذا السبب قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ لنحمل به عنكم

شيئًا من العذاب لأننا لم ننتفع بضلالكم وقد كفرتم مثلنا ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٨﴾﴾ لا باتباعكم لنا.

ولما كان أهل الشدائد يتوقعون عادةً الخلاص أخبر أن هؤلاء ليسوا كذلك، وأظهر موضع الإضمار تعميمًا وتعليقًا بالوصف فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنها طاهرة عن الأرجاس، فإذا صعدت أرواحهم الخبيثة أغلقت الأبواب دونها ثم أُلقيت إلى سِجّين ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يكون ما لا يكون، فإن الجمل مَثل في عظم الجرم وسم الإبرة مَثل في ضيق المسلك، ولما كان هذا للمكذبين المستكبرين أخبر أنه لمطلق القاطعين لما أمر الله به أن يوصل فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وإن كانوا أذنابًا مقلدين للمستكبرين.

ثم فسر جزاء الكل فقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فرش من تحتهم، ولعله لم يذكر التحت لأن المهاد كالصريح فيه ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: أغطية، وصرح في هذا بالفوقية لأن الغاشية ربما كانت عن يمين أو شمال أو بمعنى مجرد الوصول، ولما كان بعضهم لا أهلية له في قطع ولا وصل قال عامًا لكل الضلال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ليعرف أن المدار على الوصف، والمجرم: المذنب ومادته ترجع إلى القطع، والظالم: الواضع للشيء في غير موضعه، ويجوز أن يكون نبه بتغاير الأوصاف على تلازمها.

ثم أخبر عن أحوال المؤمنين ترغيبًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان الجمع بالألف واللام مظنة لتوهم أن عمل جميع الصالحات شرطٌ في دخول الجنة، اعترض بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وترغيبًا في اكتساب ما لا يوصف من النعيم بما هو في الوسع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤١﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ثم أخبر عن تعاطيهم الشكر المستجلب للزيادة بقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ولما كان تصديقهم للرسل في الدنيا من علم اليقين، أخبروا في الآخرة بما وصلوا إليه من عين اليقين فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لأنه تعالى جعله سببًا ظاهريًا بكرمه، والسبب الحقيقي هو ما ذكروه من توفيقه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ﴾ وأثبت المفعول الأول تلذيذًا، وحذفه هنا احتقارًا للمخاطبين وليشمل ما للفريقين ﴿رَبُّكُمۡ﴾ أي: الذي أحسن إليكم فقابلتم إحسانه بالكفران ﴿حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ﴾ أي: بسبب ما أقر به أهل النار على أنفسهم ﴿مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٣ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ بإلقاء الشكوك والشبهات ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٤﴾ فمتى وجدت هذه الصفات الأربع حقت اللعنة.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ أي: سور لئلا يجد أهل النعيم ما يكدر نعيمهم ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ وهو كل مرتفع لأنه يكون أعرف مما انخفض ﴿رِجَالٞ﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ ولما كان هذا السلام ربما أشعر أنهم دخلوا الجنة قال: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ﴾ أي: والحال أنهم ﴿يَطۡمَعُونَ ٤٥﴾ في دخولها، وعبر بالطمع لأنه لا سبب للعباد إلى الله من أنفسهم وإن كانت لهم أعمال فضلًا عن هؤلاء الذين لا أعمال لهم.

﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٦ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ من أهل النار ﴿يَعۡرِفُونَهُم﴾ بأعيانهم وأما معرفتهم إجمالًا فتقدم، وإنما قال هنا: ﴿بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ لأن النار قد أكلتهم وغيرت معالمهم مع تغيرهم بسواد الوجوه وعظم الجثث ونحوه ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ للمال والرجال ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٧﴾ في الدنيا زاعمين أنه لا غالب لكم.

ثم زادوا في توبيخهم وتأسيفهم بقولهم مشيرين إلى ناس كانوا يحقرونهم من أهل الجنة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ وكأنه يكشف لهم عنهم زيادة في عذابهم ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٨ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد أن عرّفهم إياهم وأمر الجنة فكان ذلك زيادة في عذابهم ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي: لأنكم أعلى منا فإذا أفضتموه وصل إلينا، وهذا من فرط ما هم فيه من البلاء، فإن بين النار والجنة أهوية لا يمكن معها وصول شيء من الدارين إلى الأخرى.

﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا﴾ أي: اشتغالًا بما يُغفِل عن كل ما ينفع من الأمور المعجِبة للنفس من غير نظر في عاقبة،

فجُوزوا من جنس عملهم بأن لم ينظر لهم في إصلاح العاقبة، ولما قدم ما هو أدعى إلى الاجتماع على الباطل الذي هو ضد مقصود السورة من الاجتماع على الجد، وكان من شأن الغفلة أن تجر إلى استجلاب الأفراح والانهماك في الهوى حقق ذلك بقوله: ﴿وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ﴾ في فعل ذلك ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما فيها من الأعراض الزائلة حتى حُجبوا عن نظر معانيها فلم يحسبوا لما وراءها ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا﴾ فعلوا هم بأنفسهم بأن ﴿نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ أي: فعلوا ذلك والحال أنّا قد ﴿جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ ثم خص المنتفعين به؛ لأنه بالنسبة إلى غيرهم كالعدم فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وفيه رجوع إلى وصف الكتاب الذي هو من مقاصد السورة على أبدع وجه.

ثم ذكر حال من لا يؤمن به وهم الجاحدون، فقال مشيرًا إلى أن جحدهم بعد العلم بصدقه كحال من ينتظر أن يأتي مضمون وعيده: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: تصيير ما فيه من وعد ووعيد إلى مقارّه التي أخبر أنه يصير إليها ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فما صدّقوا حتى رأوا، فلم يؤمنوا بالغيب في دار العمل فلذا لم ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ فإنه لا خلاص لنا إلا بأحدهما ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟﴾ جبلة وطبعًا، لا يرجعون عنه إلا عند رؤية البأس ﴿يَفْتَرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ولما كان مدار القرآن على تقرير: التوحيد والنبوة والمعاد والعلم، ودل ما تقدم على تمام القدرة والعلم، علل ذلك بأنه الرب لا غيره في سياق دال على الوحدانية وعلى الإعادة التي قررها بالإبداء الذي هو أشد منها فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ولما كان ربما قال الكفار: ما له إذا كان قادرًا وأنت محق في رسالتك لا يعجل لنا الإتيان بتأويله؟ بين أن عادته الأناة وإن كان أخذه كلمح بالبصر إذا أراده فقال: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ودل على كمال قدرته بأمر يشاهد كل يوم على كثرة منافعه التي نظّم بها هذا الوجود فقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ﴾ أي: الليلُ يطلب النهارَ ﴿حَثِيثًا﴾ وابتدأ بذكر الليل لأن إغشاءه أول كائن بعد تكمل الخلق، على أن الظاهر في الاستحثاث هنا إنما هو النهار؛ لأنه بشروقه أظهر أثرًا في الاستحثاث من الليل.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ ولما صح أن جميع ما نراه من الذوات خلقه وما نعلمه من المعاني أمره، أنتج قطعًا قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾ وهو ما كان من الإيجاد بتسبيب وتنمية ﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ وهو ما كان إخراجًا من العدم من غير تسبب، وما كان حفظًا وتدبيرًا بالكلام كالأديان وكل ما يلاحظ القيومية ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ ولما دل على أنه يستحق هذا الثناء لذاته، دل على أنه يستحقه لصفاته فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾.

ولما ذكر تفرده بالخلق والأمر المقتضي لتفرده بالعبادة، أمر بالدعاء الذي هو مخها فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ أي: تذللًا ظاهرًا وباطنًا؛ لأن تفرده بأن يدعى هو اللائق بمقام عز الربوبية، والتذلل على هذه الصفة هو اللائق بمقام ذل العبودية، وهذا هو المقصود من الدعاء لا تحويل العلم الأزلي، فإن العبد لا يدعو إلا وقد استحضر من نفسِه الذلَّ والحاجةَ ومن ربِّه العلمَ والكفايةَ، وهذا هو المقصود من جميع العبادات فلهذا كان الدعاء مخها، وقد جمع هذا الكلام على إيجازه شرائط الدعاء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ إيماءً إلى تعدّي من خالفها.

ولما كان الوفاء بحق الربوبية والقيام بحق العبودية مقتضيًا للصلاح، أمر بإدامته بالنهي عن ضده فقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو منع من إيجاد ماهية الإفساد وهذا يقتضي المنع من جميع أنواعه، فيتناول الكليات الخمس التي اتفقت عليها الملل وهي الأديان والأبدان والعقول والأنساب والأموال ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ لكم بما سوى فيها من المنافع، ثم نفى ما قد يُفهَم من الاقتصار على مقام الخوف بقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ فإن من جمع بين الخوف والرجاء كان في مقام الإحسان، و﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾.

ولما كان دوام الصلاح لا يكون إلا بالغيث وهو من أجلّ أنواع الرحمة قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ ولعله عبر باليدين: اليمنى واليسرى، لدلالته على أنه تارة يكون رحمة وتارة عذابًا، وإن كانت الرحمة فيه أغلب وهي ذات اليمين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ ولما كان هذا -مع ما فيه من التذكير بالنعمة المقتضية لتوحيده بالدعوة - دليلًا ثانيًا على القدرة على البعث قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ ولو على أدنى الوجوه بما أشار إليه الإدغام.

ولما كان كأنه قيل: فكما أنّا فاوتنا بين الأراضي بخلق بعضها جيدًا طيبًا وبعضها رديئًا خبيثًا، كذلك فاوتنا بين الأناسي بجعل بعضها طيبًا وبعضها خبيثًا، فالجيد يسهل إيمانه والخبيث يعسر إذعانه ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ أي: قليلًا ضعيف المنفعة، وهو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر عند سماعهما للذكر، والآية من الاحتباك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا التصريف -وهو الترديد مع اختلاف الأنحاء لاختلاف الدلالات- ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ وختم بتخصيص المنتفع بها؛ لأنها بالنسبة إلى غيرهم كالعدم فقال: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٧﴾.

ثم ساق دليلًا حسيًا على أن في الناس الخبيث والطيب مع الدلالة على تمام القدرة والغيرة من الشرك على تلك الحضرة، بتفصيل أحوال من سلفت الإشارة إلى إهلاكهم ولم تغن عنهم قوتهم شيئًا فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ ولما كان إرساله قبل تفرق القبائل باختلاف اللغات قال: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: الذين كانوا ملء الأرض ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

ولما كان المقصود إفراده بذلك علله بقوله مؤكدًا له بإثبات الجار: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٨﴾، وفي هود: ﴿أليم﴾ [الآية: ٢٦] وفي المؤمنون: ﴿أفلا تتقون﴾ [الآية: ٢٣]؛ لأن ترتيب السور الثلاث وإن كان اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم فلعله جاء على ترتيبها في النزول؛ لأنها مكيات، وعلى ترتيب مقال نوح عليه السلام لهم، فألان أولًا المقال بإيهام أن عِظم اليوم لا بسبب العذاب بل لأمر آخر، فلما تمادوا بيّن لهم أن عظمه إنما هو من جهة إيلام العذاب الواقع فيه، فلما لجّوا في عتوهم قال لهم قول القادر إذا هدد غيره: ألا تفعل ما أقول لك؟ أي: متى خالفت بعد هذا عاجلتك بالعقاب، وأنت تعرف قدرتي.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف الذين يملأ العيونَ مرآهم عظمة، ولم يصفهم هنا بالكفر لأن ذلك أدخل في التسلية لأنها أول سورة قص فيها مثل هذا في ترتيب الكتاب، ووصفهم به في سورة هود إما لأنها صفة ذم لم يقصد بها التقييد فلا يختل المعنى بإثباتها ولا نفيها، أو لأنهم أجابوه بذلك مرتين: إحداهما قبل أن يسلم أحد من أشرافهم، والثانية بعد أن أسلم بعضهم، وأكد ذمهم تسلية لهذا النبي الكريم بالتعريف بقربهم منه في النسب بقوله: ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ أي: نعتقد اعتقادًا هو في الثقة به كالرؤية أنك ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ أي: ظاهر في نفسه حتى كأنه يظهر ذلك لغيره.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ فنفى وحدة غير معينة، ولا يصدق ذلك إلا بنفي كل فرد، فهو أنص من نفي المصدر ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٠﴾. ثم أخبر عن وظيفته بيانًا لرسالته فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وجمع لكثرة أبواب كفرهم أو لتعدد معجزاته أو لأنه جُمع له ما أُرسل به من قبله كإدريس جده وشيث عليهما السلام ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١﴾ فخذوه عني تصيروا علماء، ولا تتركوه بنسبتي إلى الضلال تزدادوا ضلالًا.

ولما كان الحامل لهم على هذا مجرد استبعاد أن يختص عنهم بفضيلة وهو منهم كما سيأتي في غير هذه السورة، أنكر ذلك عليهم بقوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ أي: كامل في الرجولية ولا تتهمونه ﴿مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهو السفينة التي منّ الله على الناس بتعليمه عملها لتقيه من الطوفان، فكانت آية ومنفعة عظيمة لمن أتى بعدهم ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ على شدة ظهورها لما لها من العظمة بالنسبة إلينا، إشارة إلى أن من فعل مع الرسول شيئًا فإنما فعله مع مرسله.

وعُديَت النجاة بالهمزة وهي الأصل في التعدية، وقُرنت بـ«الذين» لأنه أصرح الموصولات ولما أعيدت القصة في يونس[٤٥] كانت التعدية بالتضعيف أليق؛ لإفهامه مزيد الاعتناء مناسبةً لما تقدم من التفويض في قوله: ﴿فأجمِعوا أمركم وشركاءكم﴾ [يونس: ٧١]، وتلا بـ﴿مَن﴾ لأنها مشتركة بين الوصل والشرط وقد تطلق على ما لا يعقل فناسب ذلك الحال، وزيد هناك في وصف الناجين ﴿وجعلناهم خلائف﴾ [يونس: ٧٣] نظرًا إلى قوله في أول السورة ﴿ثم جعلناكم خلائف﴾ [يونس: ١٤].

ولما افتتحت القصة بنسبتهم له إلى الضلال باطلًا وهو ناشئ عن العمى، قلب الأمر عليهم على وجه الحق فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ أي: مطبوعين في عمى القلب مع قوتهم فيما يحاولونه، وذلك ثابت لهم؛ بما أشار إليه «فَعِل» دون أن يقال «فاعل»، وختمت القصة في يونس بقوله: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين﴾ [الآية: ٧٣] لقوله أولها: ﴿إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري﴾ [الآية: ٧١] أي: إنذاري؛ لأنه لو كان تبشيرًا لما كبر عليهم.

---

(٤٥) في قوله تعالى: ﴿فكذبوه فنجّيناه ومن معه في الفلك﴾ الآية: ٧٣.

ولما كان عاد بعدهم ولم يكن هنا ما يقتضي تشويش الترتيب أتبعهم بهم مقدمًا المرسل إليه ليفيد تخصيص رسالته بهم وهم بعض أهل الأرض فقال: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ﴾ ولما كانوا عارفين بما أصاب قوم نوح قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٤﴾ أي: أفلا تجعلون بينكم وبين عذاب الجبار وقاية.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ ولما كان قد أسلم من أشرافهم من له غنى في الجملة قيّد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وصفهم بذلك للتسلية كما تقدم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: مظروفًا لخفة العقل فهي محيطة بك فلذا قلت ما لا حقيقة له، فالتنوين للتعظيم.

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٦٥ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ وأثبت ما يلزم منه ضدها فقال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٦ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وجمعها لما تقدم ﴿وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٧﴾. ولما كانوا يعرفون أمانته وعقله، وظن أنه ما حملهم على هذا إلا العَجب من أن يطلع على ما لم يطلعوا عليه، أنكر عليهم ذلك ذاكرًا لما ظنه حاملًا لهم فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: عزه عزكم وشرفه شرفكم فما فاتكم شيء ﴿لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٨﴾.

ولما كانت هذه حجة قطعية في استحقاقه للإفراد بالعبادة قال عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وسموه وعدًا استهزاءً ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦٩ قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي: حق وقرب أن يقع ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ ولما كانت آلهتهم التي يجادلون فيها مجرد أسماء لخلوّها من كل معنى قال: ﴿فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ ولعله أتى بصيغة التنزيل؛ لأن التفعيل يفيد التجدد والتدريج، فقصد النفي بكل اعتبار؛ لأنه في سياق المجادلة وفي سورة مقصودها إنذار من أعرض عما دعا إليه هذا الكتاب النازل بالتدريج ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي﴾ وأشار بقوله: ﴿مَعَكُم﴾ إلى أنه لا يفارقهم لخشيته منهم ولا غيرها.

﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧٠ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ وأظهر موضع الإضمار تصريحًا بالمقصود وبيانًا لعلة أخذهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ٧١﴾ أي: قطعنا دابرهم وهم مستحقون لذلك لأن الإيمان لم يكن من صفتهم، فما آمنوا في الماضي

ولا يؤمنون في الآتي، ويزيده حسنًا أنهم لما افتتحوا كلامهم بنسبته إلى السفاهة كاذبين، ختم القصة بوصفهم بمثل ذلك صدقًا؛ لأن الإيمان لا يصدر إلا عن كمال الرزانة وترك الهوى والانقياد لواضح الأدلة، فمن تركه مع ذلك فهو في غاية الطيش والسفاهة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ﴾ الذي له كل شيء، وهي ناقته كما أن الأرض أرضه والنبات رزقه، فأظهر لئلا يختص أكلها بأرض دون أخرى.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ إيماء إلى أن الضعف أجلّ النعم لملازمته لطرح النفس المؤدي إلى الإذعان للحق ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ بدؤوهم بالإنكار صدًا لهم عن الإيمان ﴿أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ وكأنهم قالوه ليبنوا على جوابهم ما يفعلونه؛ لأن المستكبرين لا يتم لهم كبرهم إلا بطاعة المستضعفين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وبنى للمفعول لتعميم التصديق ولأن كونه من عند الله أمر مقطوع به.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ كائنًا ما كان ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾. ثم سبب عن قولهم قوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ والعاقر المذكور في قوله: ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ [الشمس: ٩١]، قالوا: هو قدار ابن سالف، جعلت له امرأةٌ ابنتَها إن عقرها ففعل فكان أشقى الأولين، وأشقى الآخرين عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه، جعلت له قطام -امرأة من بني عجل جميلة- نفسَها إن قتله، فكلاهما ألقى نفسه في المعصية العظمى لأجل شهوته.

وأكثر ما يستعمل العقر في الفساد، وأما النحر فيستعمل غالبًا في الانتفاع بالمنحور، فلعل التعبير به إشارة إلى أنهم لم يقصدوا بنحرها إلا إهلاكها عتوًا وعنادًا، وأما اقتسامهم لحمها فهم لم يريدوا بذلك الانتفاع باللحم، وإنما قصدوا -حيث لم يمكنهم المشاركة جميعًا في العقر- أن يشتركوا فيما نشأ عنه تعريضًا برضاهم به ومشاركتهم فيه بما يمكنهم.

﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ولعل توحيد الدار هنا مع الرجفة في قصة صالح

وشعيب، وجمعها في القصتين مع الصيحة في سورة هود للإشارة إلى عظمهما في الموضعين؛ وذلك لأن الزلزلة إذا كانت في شيء واحد كانت أمكن، والصيحة من شأنها الانتشار فإذا عمت الديار المتباعدة فأهلكت كانت أبلغ، ولا مخالفة؛ لأن عذابهم كان بكل منهما، ولعل المراد بالرجفة أن الدار رجفت فرجفت القلوب حتى تقطعت.

وخصت الأعراف بما ذكر فيها؛ لأن مقصودها إنذار المعرضين، والرجفة أعظم قرعًا لعدم الإلف لها، ومن الآيات العظيمة أن ذلك الذي خلع قلوبهم لم يؤثر في صالح عليه السلام والمستضعفين معه، وذلك مثل الريح التي زلزلت الأحزاب وما نال النبي ﷺ وأصحابه منها كبير أذى وكفها الله عن حذيفة رضي الله عنه.

ولما أصابهم ذلك سبب لهم الهجرة عن ديارهم ديار السوء واللعنة فقال تعالى إعلامًا لنا بذلك: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ ولعله وحد قوله: ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾ لكون آيته واحد ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن﴾.

وعبر بما يفهم أن هذا كان دأبهم مع كل ناصح فقال: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٨ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ عدل في قصته عن الأسلوب في باقي القصص؛ لأن من أعظم المقاصد بسياق هذه القصص تسلية النبي ﷺ في مخالفة قومه له وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بأولئك، وقصص من عدا قوم لوط مشابهة لقصة قريش في الشرك بالله وأذى المؤمنين، وأما قصة قوم لوط فزائدة بأمر عظيم الشناعة شديد العار فعدل عن ذلك النسق تنبيهاً عليه تهويلًا للأمر وتبشيعًا له، وحينئذ يترجح أن يكون العامل «اذكر» لا «أرسلنا» أي: واذكر لوطًا وما رأى عليه قومَه زيادة على شركهم من هذا الأمر الذي لم يبقِ للشناعة موضعًا.

فالقصة تسلية وتذكير بنعمة معافاة العرب من مثل هذا الحال وإنذار لهم، مع ما شاركت فيه أخواتها من الدلالة على سوء جبلة هؤلاء المقتضي لتفردهم بذلك الأمر الفاحش، والدليل على أنه أشنع الشنع بعد الشرك -مع ما جعل الله في كل طبع سليم من النفرة عنه-: اختصاصه بمشاركته للشرك في أنه لم يحل في ملة ولا حال، وبقية المحرمات ليست كذلك، فأما قتل النفوس فقد حل في القصاص والجهاد وغير ذلك، والوطء في القبل لم يحرم إلا بقيد كونه زنى ولولا الوصف لحل، وأكل المال الأصل فيه الحل وما حرم إلا بقيد كونه بالباطل، وكذا غير ذلك.

قال أبو حيان: "ولما كان هذا الفعل معهودًا قبحه ومركوزًا في العقول فحشه أتى معرَّفًا فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾"، أو تكون «ال» فيه للجنس على سبيل المبالغة، كأنه لشدة قبحه جُعِل جميع الفواحش، وأما الزنى فإنه قال فيه: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ثم عيّنها في استفهام آخر ليكون أدل على تناهي الزجر عنها فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي: مشتهين أو لأجل الشهوة، لا حامل لكم على ذلك إلا هي كالبهائم التي لا داعي لها من جهة العقل.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار، كان الأليق به الإسراف الذي هو غاية الجهل المذكور في سورة النمل(٤٦)، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: لم يحملكم على ذلك إلا اعتياد المجاوزة للحدود، ولم يُسمَّ قومُ لوط في سورة من السور كما سُمِّي غيرهم صونًا للكلام عن تسميتهم، وأما قوم نوح فإنما لم يسموا لعدم تفرق القبائل إذ ذاك فكانوا جميع أهل الأرض ولذا عمهم الغرق، والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨١﴾﴾ وكأنهم قصدوا بـ«التفعل» نسبتهم إلى محبة هذا الفعل القبيح، وأن تركهم له إنما هو تصنع وتكليف لنفوسهم بردها عما هي مائلة إليه، وإظهار للطهر رياءً؛ بما أشار إليه إظهار تاء التفعل، وفيه مع ذلك سخرية. ولما كان الإعلام بإنجائه أهم قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وأظهر موضع الإضمار تعليقًا للحكم بوصف القطع لما حقه الوصل، بوصل ما حقه القطع من فاحش المعصية.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وهي بلد، وقيل: قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ وهو خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ ولما كنا عالمين من قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر» أن هذه البينة كافية في صحة الدعوى ولم تدع ضرورة إلى ذكرها لم تعيَّن ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ولما كان هذا من أوائل قوله لهم، ترك التأكيد بذكر القسط الرافع لمجاز المقاربة ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ونهيه

---

(٤٦) في قوله تعالى: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾ الآية: ٢٣.

عليه السلام عن بخس الجمع الذين فيهم قوة المدافعة، نهي عن بخس الواحد من باب الأحرى؛ لأن الشرائع إنما جاءت بتقوية الضعيف على حقه.

ولما نهى عن الفساد بالبخس عم كل فساد فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بوضع شيء من حق الحق أو الخلق في غير موضعه ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ أي: إصلاح الله لها **بنعمة الإيجاد** بخلقها وخلق منافعها على هذا النظام البديع المحكم، **ونعمة الإبقاء** بإنزال الكتب وإرسال الرسل ونصب الشرائع التي بها يحصل النفع ويتم أمر المعاش والمعاد بتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٤﴾ لأن المؤمن يثاب على فعله لبنائه له على أساس الإيمان، والكافر أعماله فاسدة فلا يكون فعله لهذه الأشياء خيرًا له من جهة إسعاده في الآخرة لأنه لا ثواب له.

ولما كان النهي عن الإفساد بالصد عن سبيل الله هو المقصود بالذات لأنه ينهى عن كل فساد، خصه بالذكر إشارة إلى أنه زبدة المراد فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي طريق من طرق الدنيا والدين ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تهددون من يسلكه إن لم يوافقكم على ما تريدون، ولما كان طريق الدين أهم خصه بالذكر فقال: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ ولما كانوا لا يقنعون بمطلق الصد بالتهديد ونحوه بل يبدون للمصدود شبهًا توهمه أنه على ضلال قال: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي: تطلبون اعوجاجها بإلقاء الشبهات والشكوك.

ولما كانت أفعالهم: نقص الناس إما في الأموال بالبخس وإما في الإيمان بالصد، ذكّرهم أن الله تعالى فعل معهم ضد ذلك من التكثير بعد القلة في سياق منذر باجتثاثهم فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾ وصرح بهم في هود(٤٧) لكون الحال مقتضيًا للبسط ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٦﴾.

ثم انتقلوا إلى الدفاع بالفعل وهو أمارة الانقطاع فقال: ﴿۞قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ ولم يريدوا منه العود إلى الكفر؛ لأنه عليه السلام كان محفوظًا قبل النبوة كإخوانه من الأنبياء

(٤٧) لعله يريد قوله تعالى: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ الآية: ٨٩.

عليهم السلام بل كانوا يعدون سكوته عنهم قبل إرساله إليهم كونًا في ملتهم، فيكون مرادهم بالعود حقيقة في الجميع.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٧ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ أي: بسكوتنا أو بسكوتي وكفر من كان كافرًا ممن تبعني ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ فهو من باب التذكر للمخاوف للصدق في التضرع إلى الله تعالى والاستعاذة من مكره، ولذلك أتى باسم الجلالة الجامع لمعاني الأسماء الحسنى، وصفة الربوبية الملتمس بذكرها فعل ما يفعل المربي الشفيق ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ فهذه الجملة كالتعليل للتعليق بالمشيئة؛ قطعًا لطمع المخاطبين في عودهم، وهكذا ينبغي للمربوب، ولا ينبغي الجزم بأمر يستقبل إلا لله ربنا لإحاطة علمه.

ولما كان ذلك مزعجًا للقلوب بتأمل الأخطار المشفية ذكر المفر فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بحيث يكون لكل فريق باب يصل به إلى غاية أمره، وهذا مقام الإنصاف، ولو أراد ترجيح نفسه ومتبعيه لدعا لهم أن يعاملوا بالفضل وأن يعامل ضدهم بالعدل، ويجوز أن يكون المراد: لا نعود إلى ما كنا عليه من السكوت؛ لأنا أمرنا بإنذاركم إلا أن يشاء الله سكوتنا بأمر يحدثه إلينا في ذلك لمصلحة اقتضاها علمه، فإذا أراد ذلك وأمرنا به فعلنا، فله الخلق والأمر.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٨ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف إشارة إلى أنه الذي حملهم على نتيجة الاستكبار وهي الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ ثم لم يرضوا به حتى كفّروا غيرهم فقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ﴾ أيها الأتباع ممن لم يؤمن بعد ﴿شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٨٩ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٠﴾.

واستأنف قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ وكرره إشارة إلى أن تكذيب الصادقين لا سيما الرسل في غاية الشناعة ومبالغةً في رد مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيهًا لآرائهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظامًا لما جرى لهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩١﴾. ولما حل الغضب بتلك الدار هاجر عنها كما كانت عادة الأنبياء عليهم السلام فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٩٢﴾.

وخص الله هذه الأمم التي وردت في القرآن بالذكر؛ لأنه كان عند العرب كثير من أخبارهم ففصلت لهم أحوالهم، وإلا فقد كانت الأمم عظيمة الانتشار في جميع الأقطار، ومعلوم أن الله تعالى لم يترك واحدة منها بغير رسول ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولكنهم لم يُذكروا إلا إجمالًا لئلا يسارع العرب إلى التكذيب بما ينزل فيهم من غير دليل شهودي يقام عليهم.

وتخصيص تكرير هذه القصص الخمس على هذا الترتيب في كثير من سور القرآن دون قصة إبراهيم عليه السلام وهو أعظمهم؛ لانتظامهم في أنهم أقرت أعينهم برؤية مصارع من خالفهم، وأما هو عليه السلام فقد خرج من بين قومه قبل عذابهم فلم يهلكهم بحضرته، وهو طبق ما اتفق لولده أفضل البشر نبينا محمد ﷺ، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] تعرف ما في هذا المقام من الإكرام.

ولما قدّم سبحانه إجمال الإنذار بما اشتركت فيه الأمم من الإهلاك، أتبعه إجمالًا آخر أبسط منه دال على سنته في استئصال المكذبين، لئلا يُظن أن غيرهم كان حاله غير حالهم؛ ليكون الإجمال كالقواعد الكلية لتنطبق على الجزيئات فلا يغتر بأحوال المستدرجين الأشرار، وذلك متكفل بالتسلية لنبيه ﷺ والتأسية، متقدم على قصة موسى وهارون عليهما السلام لطولها، وتعجيلًا بما في ذلك من مصارع الإنذار، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٣﴾ ولو أدنى تضرع، بما أشار إليه الإدغام؛ لأن ذلك كافٍ في الإنقاذ من عذاب الإنذار الذي هذه سورته، بخلاف ما مضى في الأنعام.

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ ولما لم يعتبروا ويعلموا أن ذلك من الله، وظنوا أنه دأب الدهر وفعل الزمان، واستمروا على فسادهم في حال الشدة والرخاء، سبب عنه قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٤﴾ فحق من سمع هذا أن يبادر إلى الرجوع عن كل مخالفة هو فيها خوفًا من الأخذ بغتة. ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ﴾ وقراءة التشديد تدل على كثرتها ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾.

ولما كانوا قد ضلوا ضلالًا بعيدًا في جعلهم السراء والضراء سببًا للأمن من مكر الله، قال منكرًا عليهم أمنهم عاطفًا له على ﴿ولكن كذبوا﴾ لأنه سبب الغلط وهو سبب الأمن: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٦﴾ عبّر بالاسم الدال على الثبات؛

لأن النوم يقتضي الاستقرار. ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي: وقت راحتهم ونشاطهم، ولما كانت اليقظة موجبة للحركة عبر بالمضارع فقال: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وفيه تقريع لهم بنسبتهم إلى أنهم صبيان العقول لا التفات لهم إلى غير اللعب ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

ولما كان المقصود من ذلك عبرة السامعين، أنكر عليهم عدم الاستدلال على القدرة فقال: ﴿۞أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ وأظهر موضع الإضمار إشارة إلى بلادتهم لعدم البحث عن الأخبار لينتفعوا بها ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بإزالتها حتى يكونوا كالبهائم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: سماع فهم، وعبر عن الإصابة بالماضي إشارة إلى سرعة الإهلاك ووحدته، وعن الطبع بالمضارع إيماء إلى تجدده.

ثم قال حثًا على الاعتبار: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ ولما كان التكذيب بعد ذلك البيان عجيبًا، كان ربما تخيل متخيل أنهم لم يؤتوا بالبيان الشافي فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ أي: والحال أنه قد ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ﴾ أي: به، وحذفها أدل على الزجر من مطلق التكذيب وأوفق لمقصود السورة.

﴿مِن قَبْلُۚ﴾ مجيء الرسل بالآيات فإنهم أول ما جاؤوهم كذبوهم، فجوزوا على تكذيب الحق من غير نظر بالطبع على قلوبهم، فوقفوا مع حظوظهم ومنعتهم شماختهم عن الإيمان لئلا يقال: إنهم خافوا أولًا من تكذيبهم فكانوا فيه على غير بصيرة، أو إنهم خافوا ثانيًا من الوعيد فدخلوا جبنًا فيما يعلمون بطلانه، فكان تزيين هذا لهم طبعًا على قلوبهم ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ولما كان نقض العهد أفظع شيء ولا سيما عند العرب قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ وهذا إما إشارة إلى الميثاق يوم ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] إن كان ذلك على حقيقته، أو إلى عهودهم حال الشدائد، أو إلى إقامة الحجج بإفاضة العقول ونصب الأدلة فصار كأنه أخذ العهد على من عقل أنه يبذل الجهد في التأمل ولا يتجاوز ما أبداه له صحيح النظر ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم أتبع هذا البيان الكشف عما كان بعد قصة شعيب عليه السلام من قصة صهره موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وهي كالدليل على الإجمال المتقدم، كما كانت القصص

الماضية كالدليل على الإجمال في أول السورة، فإن في قصة فرعون: الأخذ بالبأساء والإنعام بالسراء، ثم الأخذ بغتة بسبب الوقوف مع الضلال بعد البيان الشافي؛ لما على قلوبهم من الطبع وما قادت إليه الحظوظ من الفسق.

وكأنه فصلها عن القصص الماضية تنبيهًا على علي قدرها، لأن معجزات صاحبها أعظم وجهل من عالجهم أفحش، ولذلك عطفها بأداة البعد مع قرب زمنها من التي قبلها إشارة إلى بعد رتبتها فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: عظماء قومه، وخصهم لأنهم إذا أذعنوا أذعن من دونهم.

﴿فَظَلَمُواْ﴾ أي: وقعوا في مثل الظلام حتى وضعوا الأشياء في غير مواضعها ﴿بِهَاۖ﴾ أي: بسببها خوفًا على مملكتهم الفانية أن تخرج من أيديهم، ولما كان من أعجب العجب أن سبب العدل يكون سبب الظلم قال معجّبًا: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٢﴾ فلخص فيها على وجازتها جميع قصتهم على طولها، وقدّم ذكر الآيات اهتمامًا بها ولأنها الدليل على صحة دعوى البعث.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ خاطبه بما يعجبه امتثالًا لأمر الله له أن يلين في خطابه، وذلك لأن فرعون لقب مدح لمن ملك مصر ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٣﴾ وهو تنبيه لمن سمعه على أن فرعون مربوب مقهور. ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ حاصل العبارة: حق على قولي الذي أطلقه على الله ألا يكون إلا الحق، وقراءة نافع ﴿عليّ﴾ بمعنى هذا سواء؛ لأن من حق عليه شيء حق على كلامه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ولما كان من المعلوم أن مثله لا يدَّعي في تلك المجامع إلا حقًا، كان كأنه أظهر البينة، فأتبع ذلك طلب النتيجة فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٤ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ فأوهم أنه لم يفهم إلا أن المراد أنه سيقيمها من غير أن يكون في كلامه السابق دلالة على صدقه ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٥ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٦ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٧﴾ قال أبو حيان: "وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها ليَعرض العجب، وما أعجب هذين الخارقين: أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء، والآخر في يده وهي العصا التي يمسكها، وجمع بهما تبديل الذوات من الخشبية إلى الحيوانية، وتبديل الأعراض من السمرة إلى البياض الساطع".

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٨﴾ فذلك جاء بما رأيتم، فكأن فرعون قال ذلك ابتداء كما في الشعراء فتلقفوه منه وألقاه أكبرهم إلى أصغرهم، إعلامًا بأنهم على غاية الطواعية له خوفًا على رئاستهم تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف: ٥٤]، وأُسند هنا إليهم لأن السياق للاستدلال على فسق الأكثر، وأما هناك فالسياق لأنه: إن أراد سبحانه أنزل آية خضعوا لها كما خضع فرعون لما رأى من موسى عليه السلام حتى خاطب عبيده بما يقتضي أن يكون لهم عليه أمر(٤٨)، فكان إسناد القول إليه أحسن، لأن النصرة في مقارعة الرأس أظهر وخضوع عنقه أكبر.

ولما أوقفوهم عن المبادرة إلى المتابعة بادعاء أنه ساحر، نفروهم من ذلك وخوفوهم بأنه ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ هذه التي أثّلها لكم آباؤكم وبها قوامكم، ولما كان السياق لبيان فسقهم أسقط قولهم في الشعراء: ﴿بسحره﴾ إفهامًا لعجلتهم في إبرام الأمر في ضره مع علمهم أنه محقّ وليس بساحر؛ إشارة إلى تغاليهم في الفسق.

﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١٠٩ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١٠﴾ والحشر: الجمع بكره ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ﴾ ولما كانت دلالة السياق على رغب فرعون أقل مما في الشعراء لما اقتضاه الحال في كل منهما قال: ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ١١١﴾ وهذا يدل على أن السحرة كانوا في ذلك الزمان عندهم في غاية الكثرة، ويدل على أن في طبع الناس المعارضة، فمهما أمكنت بطلت دعوى النبوة، وإذا تعذرت صحت الدعوى.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ أَإِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٢ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ في سياق مفهم أن قصدهم الإلقاء أولًا: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٤﴾. ولما فهم موسى عليه السلام مرادهم، وكان واثقًا من الله تعالى بما وعده به جاريًا مع مراده لا فرق بين أن يتقدم أو يتأخر، أجابهم إلى سؤالهم وهو أوقع في ازدراء شأنهم، فـ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: عن صحة إدراكها حتى خيّلوا إليها ما لا حقيقة له، وبعثوا جماعة ينادون: أيها الناس احذروا! ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أي: وأوجدوا رهبتهم إيجاد راغب فيها طالب لها غاية الطلب.

---

(٤٨) في قوله تعالى: ﴿فماذا تأمرون﴾ الشعراء: ٣٥.

﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٥ ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ أي: تلتقم التقامًا حقيقيًا سريعًا بما دل عليه حذف التاء، ودل على كثرة ما صنعوا بقوله: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ ۝١١٦﴾ أي: يجددون تزويره وقلبه عن وجهه، وفي هذا السياق المعلم بتثبت موسى عليه السلام بعد عظيم ما رأى من سحرهم إلى الإيحاء إليه: بيان لأدبه عليه السلام في ذلك المقام الضنك وسكونه تحت المقاربة مع مرسله سبحانه إلى بروز أوامره الشريفة.

ولما عُلم أن ما صنعوه خيال وما صنعه موسى عليه السلام أثبت من الجبال قال: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الذي يطابقه الواقع لأن باطنه مطابق لظاهره، وفيه تنبيه على أن فعلهم إنما هو في الظاهر خيال وفي الباطن والواقع لا حقيقة له، ولما أخبر عن ثبات الحق أتبعه زوال الباطل فقال: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٧﴾ فدل بكان والمضارع على أنهم مع بطلان ما عملوا: نسوا علمهم فانسد عليهم باب العمل ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ﴾ جزاء على قلبهم للحقائق ﴿صَٰغِرِينَ ۝١١٨﴾ بعد أن كانوا عند أنفسهم ومن تبعهم عالين، ولا صَغار أعظم عند المبطل من ظهور بطلان قوله على وجه لا يكون فيه حيلة.

ولما كان الأدب وذل النفس لا يأتي إلا بخير لأنه اللائق بالعبيد، قاد كثيرًا منهم إلى السعادة الأبدية فقال: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ حين عرفوا أن ما فعله موسى عليه السلام أمر سماوي، ولم يتأخروا بعد ذلك أصلًا حتى كأنهم خروا من غير اختيار ﴿سَٰجِدِينَ ۝١١٩ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢٠ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢١﴾ وفيها دليل على أن ظهور الآية موجب للإيمان عند من ظهرت له ولو أن الرسول غير مرسل إليه.

ولما صرحوا بالذي آمنوا به تصريحًا منع فرعون أن يدلس معه بما يخيل به على قومه، شرع في تهديدهم على وجه يلبّس فيه على قومه إيقافًا لهم عن المبادرة إلى الإيمان، فقال سبحانه مصرحًا باسمه؛ لأن المقصود الإنذار وهو أحسن الناس بالمناداة عليه في ذلك المقام، وقصته مسوقة لبيان فسق الأكثر وهو أفسق أهل ذلك العصر: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ وطوّل الكلام تبيينًا لما أرادوا وتنسية لخاطر الإيمان فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: على حيلة بينكم وبين موسى قبل اجتماعكم لا لأن صدقه ظهر لكم، ثم علل بما يتعلق به فكرهم ويشوش قلوبهم فقال: ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾.

وعبر بحرف التراخي لأن فيه -مع الإطناب المشغل عما رأوه- تعظيمًا لأمر الصلب، فيكون أرهب للسحرة ولمن تزلزل بهم من قومه فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي: بالموت سواء صلبتنا أو تركتنا، فنحن لا نبالي على أي حالة كان بعد عِلمنا بأنا على حالة السعداء، أو المراد: أنا ننقلب إذا قتلتنا إلى من يحسن إلينا بما منه الانتقام منك ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ ثم آذنوه بأنهم مقدمون على كل ما عساه أن يفعل بهم فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: كثيرًا تغمرنا به كما يغمر الماء من يفرغ عليه حتى لا يروعنا ما يخوفنا به ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

والظاهر أن الله تعالى أجابهم فيما سألوه تلويحًا بذكر الرب فلم يقدره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥] ولم يأت في خبر يعتمد أنه قتلهم، وسيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في خلاصهم.

ولما كان السياق لبيان أن أكثر الخلق فاسق، أخبر تعالى بما قال قوم فرعون بعدما رأوا الآيات فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ظانين أن فرعون متمكن مما يريد بموسى من الأذى، منكرين أنه ما عمل شيئًا حين فعل موسى ما فعل؛ لأنه كان لا يقدر على ذلك ولا يعترف به لقومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ وجعلوه مقصودًا لفرعون إحماء له واستغضابًا فقالوا: ﴿لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

والظاهر أنه كان سمى أمراءه آلهة، فإنه نقل عنهم كما في التوراة(٤٩) أنهم كانوا يسمون الكبير إلهًا أي: حاكمًا معبودًا، فملؤه آلهة أي: حكام دونه، وموسى عليه السلام ليس بإله ولا في قومه إله بل هم محكوم عليهم، فكيف يُتركون! وكأن ذلك كان يطلق على الحاكم مجازًا فجعلوه حقيقة وصاروا يفعلون ما يختص به الآلهة من التحليل والتحريم، فكفروا بادعاء الربوبية بمعنى العبودية، وبنفي المعبود الحق بدليل: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨]، والحاصل أنهم عيروه بالرضى بأن يكون رئيسًا على القبط، وموسى عليه السلام رئيسًا على بني إسرائيل، فيكونوا بتركهم أكْفاء للقبط.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ كما كنا نفعل ولا أثر لغلبة موسى لنا في هذه المناظرة، لئلا تتوهم العامة أنه المولود الذي يذهب ملكهم فيثبطهم

---

(٤٩) لعل من مثاله: «فقال الرب لموسى: أنا جعلتك كإله لفرعون» [الخروج: ١].

ذلك عن الطاعة، موهمًا بهذا أن تركه لأذى موسى ﷺ لعدم التفاته إليه لا لعجزه عنه. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: الذين فيهم قوة وقيام فيما يريدون لو اجتمعت قلوبهم.

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٧﴾ فلا عبرة بما ترون في العاجل فإنه قد يكون استدراجًا، وأشار إلى أن قلقهم وصل إلى حد لا صبر معه بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إن كنتم متقين ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾.

ثم فعل سبحانه مقدمات ما أخبرهم به موسى ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ فإن الضر يزيل الشماخة التي هي مظنة الوقوف مع الحظوظ ويوجب للإنسان الرقة. ولما لم يتذكروا قال معرفًا بغباوتهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ أي: نحن حقيقون بها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وعبر في الخير بأداة التحقيق وفي الشر بأداة الشك مع التنكير إشارة إلى أن الخير أغلب.

ولما كانت السيئات لا تصيب بني إسرائيل، فكان إظهارهم للتطير بهم ظاهرًا في تكذيبهم، أشار بإدغام التاء إلى أنهم كانوا إنما يدسونه إلى من يمكنهم اختداعه من الجهلة والأغبياء بخلاف ما في يس(٥٠) فقال: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾ فهم لا يهتدون إلى ما ينفعهم ويظنون أن للعباد مدخلًا في ذلك، فلذا تراهم يضيفون الأشياء إلى أسباب يتوهمونها.

ولما كان قولهم هذا يدل على سوء المزاج وجلافة الطباع بما لا يقبل العلاج، أتبعه ما هو شر منه فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وتلفتنا عما نحن عليه إلى ما تريد، فنحن نسميها سحرًا وأنت تسميها آية ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ولما كان ربما أخصبت بذلك الأرض، أرسل ما يفسده فقال: ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ ولما كان ربما أبقى شيئًا، أرسل ما يلزق في الأرض حتى لا يدع بها شيئًا فقال: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾.

ولما كانوا ربما خزنوا ما لم يصل إليه ذلك، أرسل ما يُسقِط نفسه في الأكل فيفسده فقال: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فإنها عمت أماكنهم، ولما تم ما يضر بالمأكل أتبعه ما أفسد المشرب فقال: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ فإن مياههم انقلبت دمًا منتنًا ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ مبين أن الذي

---

(٥٠) في قوله: ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ الآية: ١٨.

منعهم الإيمانَ مرضُ القلب بالكبر والطغيان ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٢﴾ أي: في جبلتهم قطعُ ما ينبغي وصله مع قوتهم على ما يحاولونه.

ولما كان هذا نقضًا لما أخذه الله على العباد بعهد العقل أتبعه نقضًا حقيقيًا فقال: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وتكبّروا عن أن يقولوا: ربنا ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٣﴾. ودل على قرب الإجابة بالفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٥﴾ أي: يكون حالهم بعدها كحالهم قبلها، فاستحقوا الأخذ لوقوع العلم بأن الآيات لا تفيدهم.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ﴾ ولما أشار بهذه العبارة -التي معناها أنه كانت فيهم كثرة وقوة على ما يقومون به- إلى أنه هو الذي أذلهم لا فرعون، أتبعه ما يدل عليه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ أي: يوجد ضعفهم بالشوكة والاجتماع على حاكم قد تمكنت عظمته في القلوب التي الوهم غالب عليها ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٦ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ أي: من الصنائع الهائلة المعجبة لكل من يراها أو يسمع بها، مع أنها صنعتهم وأسهل شيء عندهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ من الجنان والقصور، وكفى بهذه الآية حاثة على الصبر وضامنة بنصر المظلوم وإهلاك الظلوم.

ولما انقضى ما أراهم سبحانه من الأفعال الهائلة التي استخلصهم بها من ذلك الجبار، ذكر ما قابلوه به من الجهل وما قابلهم به من الحلم، فقال عاطفًا على ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ وإنما جعلته معطوفًا على أول القصة لأن هذه القصص كلها بيانٌ لأن في الناس السيئ الذي لا تغنيه الآيات ولقوله: ﴿أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ [الأعراف: ٩٤]، وحسن موقعها بعد قوله: ﴿بما صبروا﴾ لتشوف النفس إلى حالهم في الرخاء هل شكروا؟ فبين أن كثيرًا منهم كفروا تصديقًا لقوله: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ [الأعراف: ١٠٢] وما شاكله.

﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ أي: شيئًا نراه ونطوف به تقيدًا بالوهم ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ وهذا منهم قول من لا يعد الإلٰه

الذي فعل معهم ما تقدم شيئًا ولا يستحضره بوجه ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ﴾ أي: ذوو قيام في شهوات النفوس ﴿تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ ومن هنا تعلم أن سياق قصتهم بعد النجاة من عدوهم لبيان إسراعهم في الكفر ونقضهم للعهود، واستمر تعالى في هذا إلى آخر السورة، وأما سياق البقرة فالمقصود فيه: الاستجلاب للإيمان بالتذكير بالنعم؛ لأنه في سياق خطابه سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] وما شاكله من الاستعطاف بتعداد النعم ودفع النقم.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مكسّر مهلَك، ثم أشار بالاسمية إلى دوام هلاكه عند الله لبطلان ما هم فيه وإن رئي الآن بخلافه فقال: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولما كان مقصود السورة الإنذار مما حل بالماضين، عبّر بالقتل لأنه أدل على الإماتة وأهز؛ لأنه قد يكون على هيئة بشعة فقال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٤١﴾.

ولما ذكرهم بنعمة إنجاء الأبدان، ذكرهم بأكبر منها إذ كانت لحفظ الأديان فقال: ﴿۞وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ﴾ وأجمل الأربعين في البقرة لأن المراد تذكيرهم بالنعم الداعية إلى الإيمان، وفصلها هنا إلى ثلاثين وعشر؛ لأن المراد بيان كفرهم حين أبطأ موسى عليه السلام عما علموه من الميعاد عشرة أيام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ ولما علم موسى أن عند هارون عليه السلام لينًا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ استصلاحًا لهم وخوفًا من تنفيرهم، فافترقوا كما تفرس فيهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فلما استحلى الخطاب اشتاق إلى الرؤية فسألها لعلمه أنها جائزة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ فالمعنى: أنك لن تثبت لرؤيتي في هذه الدار وسأعرّفك ذلك بمثال أريكه وهو الجبل ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ في غاية المناسبة لعدم الرؤية؛ لأن شرط الإيمان أن يكون بالغيب، وتنبيه على عظم الإلهية وبعدها عن ذوي الأجسام؛ لعلمه سبحانه أنهم سيكررون عبادة الأصنام.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ فأثبت للإلهِ الحقِّ الكلامَ والعظمةَ ونصْبَ الشرعِ الهادي إلى أقوم سبيلٍ، تعريضًا بالعجل ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: لأنها -مع كونها أمهات وجوامع- مفصلة تنشق منها ينابيع العلم، وأشار إلى صعوبة التزام التكاليف بقوله: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي: بجد وعزيمة في العلم والعمل ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ كأنه سبحانه أطلق لموسى عليه السلام الأخذ بكل ما فيها لِما عنده من الملكة الحاجزة له عن المجاوزة، وقيدهم بالأحسن ليكون مانعًا لهم من الوصول إلى القبيح.

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ أي: الذين يخرجون عن أوامري إلى ما أنهاهم عنه، فأمكنكم بفسقهم من رقابهم وأموالهم، فكأنه قيل: إن أخذوا بالأحسن أريتهم دار الفاسقين وأتممت عليهم النعمة ما داموا على الشكر، وإن لم يأخذوا أهلكتهم كما أهلك الفاسقين من بين أيديهم، فحذرهم لئلا يفعلوا أفعالهم إذا استقرت بهم الدار.

ولما كان كأنه قيل: وكيف يختار عاقل ذلك؟ قال: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ في الحال ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وأما في المآل ففي قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ بل إن سلكوه فعن غير قصد ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ أي: بإبطال أعمالهم وإن كانت حسنة؛ لأنهم أبطلوا الآياتِ والآخرةَ بتكذيبهم بها أي: عدوها باطلة، والجزاء من جنس العمل، والحاصل أنهم لما عموا عن الآيات وسدوا باب الفكر فيها، زادهم الله عمى فختم على مداركهم فصارت لا ينتفع بها، وهذه الآيات أعظم زاجر عن التكبر، فإنها بينت أنه يوجب الكفر والإصرار عليه والوهن في جميع الأمور.

ولما كان ارتكاب ذلك محل عجب أعقبه تعالى مبينًا ومحققًا لوقوعه فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ والمعنى أنه لا أضل من قوم كان معهم حلي أخذوه ممن كانوا يستعبدونهم وهم مع ذلك أكفر الكفرة، فكان جديرًا بالبغض لكونه من آثارهم، فاعتقدوا أنه بالصوغ صار إلهًا وبالغوا في حبه والعبودية له، وهو جسد يرونه ويلمسونه، ونبيهم الذي هداهم الله به واصطفاه لكلامه يسأل رؤية الله فلا يصل

إليها ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ كما كلم الله موسى ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ﴾ كما هداهم الله إلى سبيل النجاة ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾.

ثم أخبر أن المبادرة إلى التوبة منعهم من تعجيل الهلاك فقال: ﴿۞وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ ولأن السياق في إسراعهم في الفسق لم يذكر قبول توبتهم كما في البقرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ﴾ أي: ميعاده، ففعلتم هذا قبل بلوغ الموعد الذي زاد فيه ربي فظننتم أني مت فغيرتم كما غيرت الأمم بعد موت أنبيائها ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ إعلامًا ببلوغ الغضب غايته؛ لأنه اجتثاث للدين من أصله ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وحذف أداة النداء وياء الإضافة لاقتضاء الحال الإيجاز ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ بوضعهم العبادة في غير موضعها.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ ولما كان السؤال له ولأخيه وهما معصومان من الذنوب، طوى ما يتعلق بالمغفرة وذكر متعلق الرحمة بخلاف سؤاله له وللسبعين من قومه فإنه عكس فيه ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ١٥٢﴾ أي: المتعمدين للكذب، وهذا نص في أن كل مفتر ذليل كما هو المشاهد، وإن أظهر الجراءة بعضهم. ثم ذكر التائبين ترغيبًا في مثل حالهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ١٥٤﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ لينقلهم من علم اليقين إلى حق اليقين شفقة عليهم؛ ليكون إخبارهم عما رأوا مؤيِّدًا لما يخبر به، فيحفظهم من مثل ما وقعوا فيه، واستخلف على بني إسرائيل يوشع بن نون وكان هارون معهم في هذا الميقات، وكأنهم لما سمعوا كلام الله طلب بعضهم الرؤية جاعليها شرطًا لإيمانهم فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: ٥٥] ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ والظاهر أن سببها ما رأوا عند سماع الكلام من جلال الله وعظيم هيبته.

﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ أي: باتخاذ العجل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجفتهم كانت بسبب أنهم لم ينهوا عن عبادة العجل مع أنهم لم يرضوا بذلك، كأن موسى عليه السلام عبر بما يقتضي إهلاك الجميع؛ لأنه جوز أن يهلك غير هؤلاء لتقصير آخر كعدم الجهاد مثلًا حتى يعمهم الهلاك ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ وغيرك يتجاوز عن الذنب للثناء أو دفعًا لخسيسة الحقد ونحوه وأنت منزه عن ذلك، فبدأ بذكر عزة الربوبية وثنى بذلة العبودية وهما أقوى أسباب السعادة.

﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ﴾ أي: انتقامي الذي يزيل كل عذوبة عمن وقع به ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ لأن كل من تعلق به الغضب تعلقت به الرحمة بإيجاده وإفاضة الرزق عليه ولا عكس، ولما كانت الرحمة الواسعة محلًا للطمع ذكر شرط إتمامها ترهيبًا لمن يتوانى عن تحصيله فقال: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

ولما كانوا ربما ادعوا ذلك مكابرة قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ ولم يعطف لئلا يوهم تعداد الموصوف، والمعنى: أني لا أغفر لأحد إلا إن اتبع محمدًا ﷺ، وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة لمن مات قبل زمانه، وتارة يخرج إلى الفعل ممن أدرك دعوته، فمن علم الله منه أنه لا يتبعه، لا يغفر له ولو عمل الطاعات غير ذلك، "واليهود يجعلون هذه البشارة في سموأل أحد أنبيائهم بعد موسى يذكّرهم بالتوراة، وأي حاجة بهم إلى الوصية باتباع من لم يغير شريعتهم؟ أرأيتهم احتاجوا إلى الوصية بقبول نبوة دانيال أو يرميا أو حزقيل!"، قاله سموأل بن يحيي، وكان حبرًا فأسلم لذلك.

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ ولما دل عليه بأوصافه في نفسه وفي الكتب الإلهية، دل عليه بشريعته فقال: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: بكل ما يعرفونه من التوراة والإنجيل، ومما يعرفونه فيهما أنه ينسخ شرعهم ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: عن كل ما ينكرونه فيهما، فثبتت بذلك رسالته فإنه لكونه أميًا لا يعرف ما فيهما.

ولما ثبتت رسالته شرع يبين لهم ما فيها من المنة عليهم فقال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: كل ما يستخبثه الطبع السليم أو يؤدي إلى الخبث، وجعل تعالى ذلك

في أثناء قصة بني إسرائيل اهتمامًا به وتعجيلًا له، مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته بقصته مع قومه في الأنفال وبراءة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم قال تحقيقًا لعموم رسالته وشمول دعوته: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا المراد بقوله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر» أي: لا أقوله تبجحًا ولكن تحديثًا بالنعمة، وما اجتمع بالأنبياء عليهم السلام في مجمع إلا كان إمامهم، صلى بهم إمامًا في ليلة الإسراء في بيت المقدس ثم في السماء بجميع أهلها، وأما يوم الجمع الأكبر فيحيل الكل عليه، وما ذلك إلا لعلمهم بأن الختام يكون به ليكون أظهر للاعتراف بأمانته؛ لأن المحيل على المحيل على الشيء محيل على ذلك الشيء.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾ فلا بدع أن يرسله إلى جميع من فيهما ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فالكل خاضعون له لأنه لا موجود بالفعل ولا بالإمكان من يصلح للإلهية سواه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ﴾ ولما تقرر أنه لا منازع له أمر بالانقياد لرسوله ﷺ فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ لما ثبت له من العظمة والكمال ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فكلما تجدد له علم به جدد له إيمانًا بحسبه، لا تعتريه غفلة ولا فتور ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ أيضًا، كلما تجدد له علم بصفة منها جدد لها إيمانًا ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولما كثر عدّ مثالب بني إسرائيل، وختم بهداية المتبع لهذا النبي ورحمته، وكان فيهم المستقيم قال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ القضايا المختلفة المتنازع فيها، فلا يقع منهم جور في شيء منها.

ثم ذكرهم بما أنعم عليهم لأجل هؤلاء المهتدين من التكثير والإعزاز استعطافًا لغيرهم، وببعض العقوبات ترهيبًا فقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ والتعبير بالقوم فيه تبكيت لهم بكونهم أهل قوة ولم يتأسوا بموسى عليه السلام في الصبر إلى أن يأتي الله بالفرج ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ﴾ وبين سرعة امتثاله عليه السلام وسرعة التأثير عن ضربه بحذف «فضربه» وقوله: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ ولما لم يتقدم للأكل ذكر ولا كان هذا سياق الامتنان، لم يذكر ما أتم هذه الآية به في البقرة.

﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾ ولما ذكر تبريد الأكباد بالماء أتبعه تبريدها بالظل فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾ قال السموأل ابن يحيي: "وهو طائر صغير يشبه السمانى، يُلين أكل لحمه القلوبَ القاسية، يموت إذا سمع صوت الرعد"، ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾ ودل على أنهم قابلوا الإحسان بالظلم بأكل الخبائث وفعل المحرمات، بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٦٠﴾.

ولما ذكر ما حباهم في القفار أتبعه إنعامه عند الوصول إلى الدار فقال: ﴿وَإِذْ﴾ وعدل عن الإكرام بالخطاب ونون العظمة لأن السياق للإسراع في الكفر، وإظهارًا للعظمة حيث كانت أدنى إشارة منه كافية في سكناهم في البلاد فقال: ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وعبّر في البقرة بفاء التعقيب وأثبت الرغد؛ لأن السياق للاستعطاف إلى الإيمان، وقدم أمره لهم بقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ليُشعِر بعظيم ما تحملوه من الآثام مناسَبةً للسياق، ولا ينافي التقديم هنا التأخير في البقرة لأن الواو لا ترتب.

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ﴾ بجمع القلة استعطافًا إلى التوبة، ولذا وعدهم بقوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولأن السياق فيما تقدّم قال: ﴿مِنْهُمْ﴾ لئلا يتوهم أنهم من الدخلاء فيهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بالإضمار تهويلًا لاحتمال العموم بالعذاب[٥١] ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ١٦٢﴾.

﴿۞وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ولعله عبر بالسؤال ولم يقل: وإذ تعدو القرية، ونحو ذلك؛ لأن كراهتهم للاطلاع عليها أشد مما مضى، وهي دليل على الصرف والصدق ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ بالإضافة إليهم إيماءً إلى أنها مخلوقة لهم، فلو صبروا نالوها وهم مطيعون ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ﴾ ابتلاء لهم، ولو أنهم صبروا أزال الله ذلك فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نجدد اختبارهم كل قليل ﴿بِمَا﴾ أي: بسبب ما ﴿كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٣﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ لا محالة لأنهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ بعظيم ما يرتكبونه وتماديهم فيه،

(٥١) ومناسبةً لمقصود السورة من الإنذار بما حل بالماضين.

﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حتى إذا سئلنا عن أمرنا في عصيانهم نقول: فعلنا جهدنا، هذا إن لم يرجعوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾.

ولما تراجعوا بهذا الكلام ليكون زاجرًا للعاصين فلم يرجعوا، أخبر أنه صدق ظنهم بإيقاع الأمرين معًا فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾ أي: استمروا على النهي ﴿عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالعدو في السبت ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْاْ﴾ بعد الأخذ بالعذاب الشديد جلافةً ويبسًا ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ وتجاوزوا إلى الاجتراء على جميع المعاصي أهلكناهم فـ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾.

ولما تبين بما مضى استحقاقهم للخزي، أخبر أنه فعل بهم ذلك فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ﴾ ولما كان السياق للعذاب أكد بقوله: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: يعذب عقب الذنب بالانتقام باطنًا بالنكتة السوداء في القلب وظاهرًا بما يريد، وهذا بخلاف ما في الأنعام فإنه في سياق الإنعام بجعلهم خلائف ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ﴾ بسبب ما حصل لهم من السبي المترتب على العذاب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ يتبع بعضهم بعضًا، فصار في كل بلدة قليل منهم ليست لهم شوكة ولا منعة، وفرقتهم الأديان نحو فرقة الأبدان فصار ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الذين ثبتوا على دينهم إلى أن جاء الناسخ له فتبعوه امتثالًا لدعوة كتابهم.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ بالفسق تارة وبالكفر أخرى ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ﴾ أي: يجددون الأخذ دائمًا، وحقر ما أخذوه بالإعلام بأنه عرَض زائل فقال: ﴿عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: من الوجودين وهو الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ دائمًا من غير توبة ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

ثم قال معجّبًا من جزمهم بالمغفرة مع إصرارهم: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: في الدناءة والخسة ﴿يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ بناه للمفعول إشارة إلى أن العهد يجب الوفاء به على كل حال ﴿مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وليس منه القطع بالمغفرة بغير توبة ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٥٩﴾.

ولما بين ما للمفسدين بين ما للصالحين المذكورين في قوله: ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: ١٥٩] فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ أي: إمساكًا شديدًا مستمرًا، وهو إشارة إلى إن

التمسك بالسنة في غاية الصعوبة لا سيما عند ظهور الفساد ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ فلا يقولون على الله إلا الحق ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وخصها إشارة إلى أن الأولين تركوها كما صرح به في آية مريم، وبيانًا لأنها من أعظم شعائر الدين.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠ ۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ عبر به لدلالة لفظه على الصعوبة والشدة دون الطور كما في البقرة؛ لأن السياق لبيان نكدهم بإسراعهم في المعاصي الدالة على غلظ القلب ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ إشارة إلى أنه علة رفع الجبل ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾.

ولما ذكر أنه ألزمهم أحكام الكتاب على هذه الهيئة القاهرة الملجئة، أمره أن يذكر لهم أنه ركّب في عموم النوع الآدمي ما يكفي لإقامة الحجة، ولكنه لسبق رحمته لم يؤاخذ بذلك حتى ضم إليه الرسل وأنزل معهم الكتب وأكثر فيها من المواثيق وزاد في البيان، وإلى ذلك الإشارة باسم الرب فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبراهين والرسل ما كانوا معه كالشهود بأنه لا رب غيره.

قال أبو حيان: "والمعنى أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حجتان: إحداهما: كنا غافلين، والأخرى: كنا تبعًا لأسلافنا، فكيف والذنب إنما هو لمن طرّق لنا وأضلنا؟".

والحاصل أنه أخذ علينا عهدان: حاليّ تهدي إليه العقول وهو نصب الأدلة، ومقاليّ أخبرت به الرسل، إعلامًا بمزيد الاعتناء بهذا النوع البشري؛ لما يراد به من الأمر العظيم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾.

ولما ذكر لهم ما أخذ عليهم في كتابهم من الميثاق الخاص الذي انسلخوا منه، وأتبعه الميثاق العام الذي قطع به الأعذار، بيّن ما يعرفونه من حال من انسلخ من الآيات فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ ولما كانت الآيات كلها متساوية في الدلالة وإن كان بعضها أقوى من بعض قال: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ وهو بلعام من غير شك للسباق واللحاق، ولما كان الذي جرأهم على عظمته تعالى: ما أنعم عليهم به من إعطاء الكتاب ظنًا أنه لا يشقيهم بعد ذلك، رهبهم

ببيان أن سبب شقائه هو إيتاء الآيات فقال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: فارقها بالكيلة كما تنسلخ الحية من قشرها.

وذلك أنه لما كان مجاب الدعوة سأله ملك زمانه الدعاءَ على موسى وقومه فامتنع، فلم يزل يرغّبه حتى اتبع هوى نفسه فتمكن من الشيطان، وأشار عليه أن يرسل إليهم النساء مزينات ولا يمتنعن من أحد فأشقاه الله، وهذا معنى ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: فأدركه مكره فصار قرينًا له ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ أي: الضالين الراكبين هوى نفوسهم، وعبر في هذه القصة بـ«اتل» دون «واسألهم» نحو ما مضى في القرية، لأن هذا الخبر مما يحبون ذكره لأن سلخه من الآيات كان لأجلهم فهو شرف لهم، فلو سألهم عنه لبادروا إلى الإخبار به فلا تكون تلاوته ﷺ له بعد ذلك كتلاوته قبل.

ولما كان هذا السياق موهمًا لمن لم يرسخ قدمه في الإيمان أن الشيطان له تأثير مستقل في الإغواء، بيّن أن المشيئة هي السبب الحقيقي فقال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ﴾ بنسبة الفعل إليه تعليمًا للأدب في إسناد الخير إلى الله والشر إلى غيره وإن كان الكل خلقه؛ حفظًا لعقول الضعفاء من إيهام نقص ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: رمى بنفسه إلى الدنيا تهالكًا على ما فيها من الملاذّ الحيوانية والشهوات النفسانية ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ فأعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات مقدّمًا لداعي نفسه على داعي روحه، فلا يغتر أحد بما أوتي من المعارف وما حاز من المفاخر، فإن العبرة بالخواتيم.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ لأنه ليس له سبب إلا اتباع الهوى، فهو يتبعه مع إيتاء الآيات فبعد الانسلاخ منها أولى، فقد وضح تشبيه مثله بمثل الكلب لا تشبيه مثله بالكلب، وهذه القصة تدل على أن من كانت نعم الله في حقه أكثر، كان بُعده عن الله إذا أعرض عنه أكبر ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾.

ولما كان هذا المثل في غاية السوء والقذارة، أنتج قوله تأكيدًا لذمهم وزجرهم: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ ولما كان ذلك محل عجب ممن يميل عن المنهج بعد إيضاحه هذا الإيضاح الشافي قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾.

ولما أسفرت هذه القصص عن أن أكثر الخلق هالك وكان لا يكاد يصدق أن الإنسان يكون أضل من البهائم، قال مقسمًا لبيان ذلك: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ ولما كانوا يعظمون الجن ويَضلون بهم بدأ بهم فقال: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: الفقه الذي كلفوا به وهو النظر في أدلة التوحيد والنبوة وما تفرع عنهما، وعدّ غيره عدمًا لأنه لم ينفعهم النفع الحقيقي ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ لما لم يترتب على حواسهم الإدراك النافع نفاه.

ولما سلبت عنهم هذه المعاني كانت النتيجة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام لا قدرة لها على الفقه، وهؤلاء مع قدرتهم على ذلك أهملوه فنزلوا عن رتبتها، كما أن من طلب الكمال مع نزاع الشهوات علا عن درجة الملائكة بما قاسى من الجهاد فإنه حينئذ يكون في ﴿أحسن تقويم﴾ [التين: ٤]، وإن غلبت شهوتُه كان في ﴿أسفل سافلين﴾ [التين: ٥] بما أضاع من عقله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾.

ولما أنتج هذا أن لهم الأسماء السوأى ولمعبوداتهم أسوأ منها، قال عاطفًا عليه ومنبهًا أن الموجب لدخول جهنم الغفلة عن ذكر الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: كلها دون غيره وكثرتها تدل على عظيم المسمى، وعلم بهذا أن الكمال له لذاته وأما غيره فكماله به، وهو بذاته غَرِقٌ في بحر النقصان ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي: فصفوه وسموه واسألوه ﴿بِهَا﴾ لتنجوا من جهنم وتنالوا ما تحمد عاقبته، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله أقبل على الدنيا وشهواتها فوقع في نار الحرص والحرمان وملاحقة الرغبات، وإذا أقبل على الذكر تحرر بمعرفة الله من رق الشهوات فيسعد بجميع المرادات.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ فيطلقونها على غيره بأن يسموه إلهًا، فيلزمهم أن يطلقوا عليه جميع أوصاف الإله، فقد ألحدوا في البعض بالفعل وفي الباقي باللزوم، أو بأن يسموه سبحانه بما لم يأذن فيه مطلقًا وهو كل ما أوهم نقصًا، أو بما أذن فيه مقيدًا فيسمونه به مطلقًا ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٨٠﴾.

ثم عرَّف بحال الباقين، فقال مشيرًا بمن التبعيضية إلى قلتهم تصديقًا لقوله: ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ [الأعراف: ١٠٢] ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة عرفت من هو أهل

لأن يُؤَم فائتَمّت به فصارت أهلًا لأن يؤتم بها ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾ أي: يجعلون الأمور متعادلة، لا زيادة في شيء منها على ما ينبغي ولا نقص.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ إلى ما يُراد بهم من الشر، فكلما أحدثوا جريمة أحدثنا نعمة، وإذا عملوا طاعة قصرنا عنهم في الإنعام أو ضربناهم بسوط الانتقام، فيظنون أن المعاصي سبب النعم فينسلخون من الدين، ولذا قال: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾ وهو من أدلة: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ أي: أمهلهم طويلًا وهم يعصون حتى يظنوا أن الله يحبهم فيزيدوا في ذلك، وأتى في الاستدراج بأداة العظمة وفي الإملاء بضمير الواحد لأن الاستدراج يكون بواسطة وبغيرها، وأما الإملاء فلا يكون إلا من الله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ١٨٣﴾.

ولما كان التقدير دلالة على صحة الاستدراج: أولم يروا أنهم يقدمون على ما لا يرضاه لنفسه عاقل من عبادتهم للحجر، وشماختهم عن أكمل البشر، ووصفهم أفضل الكلام بالسحر، إلى غير ذلك مما يُغضِب من يوالي عليهم النعم ويدفع عنهم النقم استدراجًا؟ عطف عليه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤﴾.

ولما كان النظر في أمر النبوة مفرعًا على تقرير أدلة التوحيد قال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ البالغ من العظمة أمرًا باهرًا: بظاهره الذي يعرفونه، وباطنه الذي يلوح لهم ولا يدركونه ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ﴾ ولما كان قد تقدم في أول السورة النهي عن التحرج من الإنذار بهذا الكتاب، وبان بهذه الآيات أنه ﷺ أنذر به حق الإنذار، أنكر على من يتوقف عن الإيمان به في أسلوب دال على أن التوقف فيه بعد هذا البيان لا يسوغ إلا لانتظار كلام آخر فقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ فقد دلت الآية على أن للإيمان طريقين: سمعي وعقلي.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ﴾ ولما دل بالإفراد على أن كل فرد في قبضته، عطف عليه بضمير الجمع دلالة على أن جمعهم لا يغني من الله شيئًا فقال: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾ أي: يتحيرون فلا يعرفون طريقًا ولا يفهمون حجة.

ولما بين التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبعه المعاد لتكمل أمهات مطالب القرآن فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾ أي: أيُّ وقتٍ ثباتُ ثقلها واستقراره، من رست

السفينة إذا ثبتت بالمرساة، وفيه بيان لعمههم إذ سألوا عما غيره لهم أهم، وكان اللائق بهم أن يجعلوا بدله: اتقاءها بالأعمال الصالحة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وإخفاؤها أنفع لأنه أعظم وأهيب، فيكون أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

ولما أشار إلى ثقلها بالإرساء وكان الشيء إذا جُهل أشكل وإذا أشكل ثقل قال: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي: الساعة فغاصت إلى حيث لم يتغلغل إليها علم العباد فأهمهم شأنها، ولذلك عبر بالظرف فقال: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

ولما كان علم الغيب ملزومًا لجلب الخير ودفع الضير وكانت الساعة أدقَّه، أمره بنفي هذا اللازم فينتفي الأخص بانتفاء الأعم، وقدم النفع لأنه أهم إلى النفس وليس في السياق ما يوجب تأخيره، بخلاف ما في سورة يونس عليه السلام فقال: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

ولما ختم بحصر العلم والقدرة في الله الموجب لتفرده بالإلهية، قال مقررًا للتوحيد مؤكدًا لأمره: ﴿۞هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي آدم عليه السلام، ومن قدر على اختراع حي من شيء ليس له أصل في الحياة، كان على إعادته حيًا من ذلك الشيء بعد أن صار له أصل في الحياة أقدر، وعبر بالواو لأنه كاف في نفي الشرك الذي السياق للتحذير منه فقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء، بخلاف الزمر(٥٢) فإن السياق للقهر، وتراخي المسببات عن الأسباب مدة أدل عليه لأنه خلاف الأصل.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي: جنس الولد الصالح، فانتشروا في الأرض ذكورًا وإناثًا ﴿جَعَلَا﴾ أي: النوعان من أولادهما ﴿لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ من القوى بالعبادة والرزق ونحوها ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ والدليل على إرادة النوعين قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ بالجمع وكذا ما بعده من عيب عبادة الأصنام.

---

(٥٢) في قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ الآية: ٦.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ لو أصابهم سوء، بل عبدتهم يدافعون عنهم. وكما أن معبوداتهم لا تفعل شيئًا من تلقاء أنفسها فإنها لا تفعله عند دعاء الداعي فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المشركون ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾.

ولما كان اتباع من هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار، كرر تبكيتهم بذلك في أسلوب أوضح للمعايب وملجئ إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وأطلق الدعاء على العبادة إشارة إلى أنه لا تصح عبادة من ليس فيه قابلية أن يدعى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾ ولما كانوا لا يسلّمون بذلك أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثلية بل الدونية فقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾.

ولما أثبت عجزهم دل عليه بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ وقدمها لأن أول ما يخشى من الشيء انتقاله، ولما كانت لهم جوارح مصنوعة قال: ﴿يَمْشُونَ بِهَآ ۖ﴾ ولما كان المخشي بعد الانتقال مد اليد قال: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ﴾ ولما كان المخوف بعد البطش البصر خوفًا من الدلالة قال: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ﴾ ولما كان الإنسان ربما تغيّب عمن يضره فلا يصل إليه إلا بالسمع قال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ أي: تمهلون لحظة لئلا تعتلّوا في الإنظار بعلة.

وعلل عدم المبالاة بكيدهم بقوله دالًا على اتصاف معبوده بما نفاه عن شركائهم من الإحاطة بمنافع الدارين: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ وقد علمتم ما قدمه في هذه السورة من وقائعه بأعدائه وإنجائه لأوليائه، وهو وما بعده وما قبله شارح لقوله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ [الأعراف: ٣] الآية.

ثم كرر التنفير عن أندادهم في أسلوب آخر تأكيدًا للمعنى السابق؛ للفرق بين من يعبد بحق ومن يعبد بباطل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ﴾ أي: أيها الناظر إليهم ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ لما صنعوا لهم من الأعين ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨﴾ أي: نوعًا من الإبصار.

ولما كان حالهم ربما أيأس من فلاحهم وفتّر عن دعائهم قال: ﴿۞ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾.

ولما كان الشيطان بعداوته مجتهدًا في التنفير من هذه المحاسن والترغيب في أضدادها حذَّر أمته ﷺ من كيده، فقال موجهًا الخطاب إلى نبيه ﷺ؛ لأنهم إذا علموا قصد الشيطان لمن نُزع منه حظه، علموا أنه لهم أشد قصدًا وكيدًا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ فيسوق إلى خلاف ما تقدم من المحاسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ والآية ناظرة إلى قوله: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: ١٦] ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ وختم هنا بصفة العلم؛ لأن الوسوسة من باب ما يعلم، وختمها في سورة المؤمن بالبصر(٥٣)؛ لأن المستعاذ منه أمر الناس، ومنه ما يبصر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ أي: كلفوا أنفسهم ذكر الله بجميع ما ينفعهم في ذلك إقدامًا وإحجامًا، وأشار بالاسمية إلى أنهم بإسراع التذكر صاروا كأنهم لم يمسهم شيء، وأكد سرعة البصر بإذا الفجائية فقال: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ وفيه تنبيه على أن من تمادى مع الشيطان عمي لأنه ظالم، والظالم مَن كأنه في الظلام.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: وإخوان الجاهلين من شياطين الإنس والجن ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ قال الواحدي: "إن هذا أكثر ما يأتي فيما يحمد كـ﴿أمددناهم بفاكهة﴾ [الطور: ٢٢]"، فهو من استعمال الشيء في ضده، وكأنه يشير إلى أن الشيطان أكثر ما يأتي الإنسان في صورة الناصح الشفيق، والأوجه أن يكون الإخوان هم الجاهلين لأنهم في مقابلة ﴿الذين اتقوا﴾ ويكون الضمير للشيطان المراد به الجنس، أي: وإخوان الشياطين -وهم الجاهلون الذين لا يتقون- يمدهم أولياؤهم من الشياطين ﴿فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ أي: لا يفترون عن إغوائهم ولو لحظة لجهلهم وشرهم.

ثم أخبر بما هو من تماديهم مع إغواء شياطينهم فقال: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ على حسب اقتراحهم ﴿قَالُواْ لَوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ﴾ لأنه كاف في إثبات نبوته مغنٍ عن الآيات المقترحة ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ وسماه بذلك لأنه سبب لبصر العقول بدلائل الشريعة ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ وأما غيرهم فقد يكون عليهم عذابًا ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾.

(٥٣) في قوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون﴾ إلى ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ غافر: ٥٦.

ولما تقدم الأمر بالذكر عند نزغ الشيطان، علّمهم أدبه فقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ أي: ذكرًا يكون راسخًا فيك مظروفًا لك؛ لفهمك لمعانيه وتخلقك بما فيه ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ لتجمع بين تضرع السر والعلن، وبهذا يكمل ذل العبودية لعز الربوبية ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فإن ذلك يشعر بالتذلل والخضوع، ومن المعلوم أنه فوق السر وإلا لم تفد الجملة شيئًا، فالمقصود حصول الذكر اللساني ليعين الذكر القلبي، وهو حاصل بإسماع النفس، ولا تزال الأنوار تتزايد حتى يزداد الترقي من الظلمات إلى النور.

ثم ذكر أحسن الأوقات له لكونها لما فيها من الشغل أدل على مزيد المحبة والتعظيم فقال: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أي: أوقات البكر ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي: أوقات العشاء أو آخر النهار، ليذكر بالغدو الانتشار من الموت وبالأصيل السكون به فيستحضر جلال الله تعالى فيعظمه حق تعظيمه ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ أي: في وقت غيرهما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزهونه، وقدمه دلالة على أن الأصل في العبادة أعمال القلوب ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ وقد أخبرت الآية عن الملائكة بثلاثة أخبار: عدم الاستكبار وهو أجلّ أنواع العبادة إذ هو الحامل على الطاعة كما أن ضده حامل على المعصية، والتسبيح وهو التنزيه عن كل ما لا يليق، وتخصيصه بالسجود وهو الحال الذي يكون العبد به عند ربه كالملائكة قربًا «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وقد رجع آخر السورة في الأمر باتباع القرآن إلى أولها أحسن رجوع، ولوصف المقربين بالخضوع وعدم الاستكبار إلى وصف إبليس بعصيان أمر الله في السجود لآدم استكبارًا = أيَّ التفات، فسبحان من هذا كلامه.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها تبرؤ العباد من الحول والقوة وحثهم على التسليم لأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة المثمر لنصر الدين وإذلال المفسدين، والجامع لذلك كله أنه لما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله والاجتماع عليه لِما ثبت من تفرده واقتداره، كان مقصود هذه إيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم، وأدل ما فيها على هذا قصة الأنفال التي تنازعوا في قسمها، فكف الله عنهم حظوظ الأنفس وأعطاها نبيه ﷺ؛ لأنه الذي هزمهم بما رمى من الحصبات التي خرق الله فيها العادة بأن بثها في أعين جميعهم وبما أرسل من جنوده فكأن الأمر له وحده، ثم لما صار له ﷺ رده فيهم منة عليهم وإحسانًا إليهم.

واسمها «الجهاد» كذلك لأن الكفار دائمًا أضعاف المسلمين عند الجهاد، وتجب مصابرة الضِّعف، فلو كان النظر إلى غير قوته سبحانه ما أطيق ذلك.

ومناسبتها للأعراف أنه لما ذكر تعالى قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم فيها، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم ﷺ مع قومه، وتقدم أنه لما أطنب سبحانه في قصة موسى عليه السلام كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع، فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين: الأنفال في أول أمره وأثنائه، وبراءة في ختام أمره وانتهائه.

وأما مناسبة أولها لآخر تلك: فهو أنه سبحانه لما مدح من أهّلهم لعنديّته بالإذعان وتمام الخضوع، اقتضى ذلك سؤالًا عن حال الذين عند المخاطب ﷺ فقال ما معناه: إن الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة ومع ذلك فليس لهم إلى الأنفال التفات وإنما همهم العبادة، والذين عندك إنما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها -كما نبه عليه آخر الأعراف- لأن ذلك يفرّق الكلمة ويضعف عن مقاومة الأعداء، والمراد بها هنا الغنيمة سميت هنا بذلك لأن أصلها في اللغة الزيادة، وقد فضل المسلمون بها على سائر الأمم.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولما أخبر أنه لا شيء لهم فيها إلا عن أمر الله ورسوله، وكان ذلك موجبًا لتوقفهم إلى بروز الأمر، وكانت التقوى موجبة للوقوف حتى يأتي الدليل الذي يجسر على المشي وراءه قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فإن الذي رحمكم بإرسال الرسول وإنزال

الكتاب لن يهمل ما يصلحكم ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ أي: الحال التي هي صاحبة افتراقكم واجتماعكم فإن أغلب أمرها البين الذي هو القطيعة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وبين أن الإيمان مستلزم للطاعة بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١﴾.

ثم قال مبينًا ما يصدِّق دعوى الإيمان، ومؤكدًا غاية التأكيد؛ لأن التخلص من أعراض الدنيا عسر: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ فإنها هي الدالة على الله سبحانه، وتظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ولو كانوا مقلّين اعتمادًا على ما عندنا فإهانة الدنيا همتهم لا الحرص عليها، فحينئذ يكونون كالذين عند ربك في التحلي بالعبادة والتخلي من الدنيا، وهو تذكير بوصف المتقين المذكور أول الكتاب بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة: ٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ يغنيهم في الدنيا عن هذه الأنفال، وأما في الآخرة فما لا يحيط به الوصف، قال أبو حيان: "لما تقدمت صفات قلبية وبدنية ومالية ترتب عليها ثلاثة أشياء، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات والبدنية بالغفران والمالية بالرزق الكريم، وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع".

ولما كان ترك الدنيا شديدًا وترك النزاع بعد الدخول فيه أشد، شبه كراهتهم لترك مرادهم في الأنفال بكراهتهم لخروجهم معه ثم بكراهتهم للقاء الجيش دون العير، ثم إنهم رأوا أحسن العاقبة في كلا الأمرين فقال: ﴿۞ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو إيثار الجهاد ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: وضح بفوات العير وتيسير أمر النفير وبإعلامه ﷺ لهم.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ لأنها كانت أول غزوة وكانوا غير متأهبين للقتال إنما خرجوا للقاء العير وعددهم يسير وأهل النفير كثير، وكل هذا تذكير لهم بأنه لم ينصرهم إلا الله بلا صنع منهم، فليس لهم أن ينازعوا في الأنفال ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي: العير لقلة من فيها جهلًا منكم بالعواقب، ثم تبين لكم أن ما فعله الله خير لكم بما لا يبلغ كنهه، فسلموا له الأمر تنالوا الغنى والنصر.

وقال ابن الزبير في مناسبة تعقيب الأعراف بالأنفال ومناسبة آخر تلك لأول هذه: "لما افتتح الأعراف بذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام وكلاهما كفر على علم، ونبه عباده على الباب الذي أتي منه على بلعام بقوله: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ [الأعراف: ١٧٦] فأشار إلى أن اتباع الأهواء أضل كل ضلال، وقد كثر في هذه الشريعة السمحة البيضاء حسم الذرائع وإقامة مظنة الشيء مقامه كتحريمِ القطرة من الخمر والنقضِ بالنوم الثقيل، فهذه مظان لم تُمنع لأعيانها بل بما هي مظان ودواع لما منع لعينه.

ولما أُمر المسلمون بحَل أيديهم عن الأنفال يوم بدر كان ما أمرهم الله به من تسليم الحكم في ذلك إلى الله ورسوله من باب حسم الذرائع؛ لأن تمشية أغراضهم في ذلك -وإن تعلق كل من الفريقين بحجة وإن لم يكن هوى مجردًا- فإنه مظنة لرئاسة النفوس واستسهال اتباع الأهواء، فأمرهم الله بالتنزه عن ذلك والتفويض لله ولرسوله ﷺ فإنه أسلم لهم وأوفى لدينهم وأصلح لذات البين، ثم نُبهوا على أن أعراض الدنيا لا ينبغي للمؤمن الاعتماد عليها اعتمادًا يلفته إلى غير الله بقوله: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾.

ثم قال: ﴿أولئك هم المؤمنون حقًا﴾ تنبيهًا على أن من قصر في هذه الأحوال لم يخرج عن الإيمان ولكن ينزل عن درجة الكمال بحسب تقصيره، ثم أعلم أن الخير كله في التقوى فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] الآية، وهذا الفرقان هو الذي حُرمه إبليس وبلعام فاتبعا الأهواء القاطعة لهم عن الرحمة، ولم يصرّح بخيري الدنيا مع اقتضاء الآية إياه تنزيهًا للمؤمن في مقام إعطاء الفرقان وتكفير السيئات والغفران من ذكر المتاع الذي هو لهو ولعب مع ما لا يجانسه ولا يشاكله.

ووجه آخر من المناسبة: وهو أنه تعالى لما قال: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ [الأعراف: ٢٠٤] بين لهم كيفية هذا الاستماع فقال: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله﴾ الآية، فهؤلاء لم يسمعوا بآذانهم فقط ولا كانت لهم آذان لا يسمعون بها وقلوب لا يفقهون بها، ولو كانوا كذلك لما وجلت وعمهم الفزع والخشية وزادتهم الآيات إيمانًا، فإذًا إنما يكون سماع المؤمن هكذا ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ [الأنفال: ٢١].

ووجه آخر: لما افتتح قصص بني إسرائيل بذكر تفضيلهم ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي﴾ [البقرة: ٤٠] الآية، افتتح خطاب هذه الأمة بما يشعر بذلك، ثم أعقبت البقرة بآل عمران وافتتحت ببيان المحكم والمتشابه الذي منه أتي على بني إسرائيل في كثير من مرتكباتهم،

ولما ضمّنت سورة النساء قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ [النساء: ١٦٠] الآيتين، أتبعت بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ٥١] ثم ذكر ما أحل لهم وحرم عليهم ليحذروا مما وقع فيه أولئك، فعلى هذا لما ضمنت الأعراف من قصصهم جملة وبين فيها اعتداءهم وبناه على اتباع الأهواء، طلب هؤلاء باتقاء ما يشبهه جملة".

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ﴾ أي: آخر ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ كما يقطع أولهم، فيستأصلهم بحيث لا يبقى منهم أحد يشاقق أهل حزبه، فهو يدبر أمركم على ما يريد فلذلك اختار لكم ذات الشوكة ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ ولعله حول العبارة لما في التصريح بضميره من العظمة والبركة ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾.

ولما كان النصر في هذه الغزوة ظاهرًا جدًا قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ ولم يقيّد بـ«لكم»، وأما في قصة أحد فقد كان المقتول منهم أكثر فقيد بها لئلا يُتوهم عند أول الكلام أنه بشرى للكفار ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ ولما كان الإمداد هنا بشرى في نفسه من غير قيد قدّم ضميره على القلوب تفخيمًا له فقال: ﴿بِهِۦ﴾ أي: وحده من غير نظر إلى قوتكم ولا غيرها ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وقدّم في قصة أحد القلوب الملابِسة لضميرهم موازنةً لتقييد البشرى بـ«لكم»، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وأما الملائكة فأسباب، فلا تعتمدوا عليها واعتمدوا عليه سبحانه خاصة، فإن ما عنده من الأسباب ليس منحصرًا بها.

ولما كانت هذه الغزوة في أول الأمر وكانوا كارهين للقاء ذات الشوكة ثم وقع لهم النصر، كان المقام مقتضيًا لإثبات عزة الله وحكمته على سبيل التأكيد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالَب ولا يُحوِج وليّه إلى زيادة العَدد ولا نفاسة العُدد ﴿حَكِيمٌ ۝١٠﴾ فلا يستطيع أحد نقض شيء أحكمه، ولم يؤكد في آل عمران لأنه أخبر أنكم إن فاديتم الأسرى قُتل في العام المقبل مثل عددهم، فوقوع الأمر على ما قال مغن عن التأكيد، ولم يكونوا في أحد هائبين للقاء.

ثم قال مصوِّرًا لعزته وحكمته: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ولبّد لهم الرملَ وسهل عليهم المسير، وأصاب المشركين ما زلق أرضهم حتى منعهم المسير، فسبق المسلمون وتمكنوا من بناء الحياض وتغوير ما وراء الماء

الذي نزلوا عليه ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ شبهها بجراب ملئ ثم رُبط حتى لا يخرج منه شيء.

ورجزه: وسوسته لهم بالقلة والضعف والتخويف بكثرة العدو، والربط على القلوب: طمأنينتهم وطيب نفوسهم بما أراهم من الكرامة، وأعاد اللام إشارة إلى أنه المقصد الأعظم وما قبله وسيلة إليه ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ أي: بالربط بالمطر ﴿ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكر ما أمر به المدد من التثبيت فقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ ثم بين المعية بقوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لأنها أسرع المهالك ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ لأن إفساد الأصابع أنكى ما يكون بعد ذلك؛ لأنه يبطل قتال المضروب أو كماله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بأن يكون في شق غير الشق الذي يرضيانه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ وأظهر الإدغام في المضارع لأن القصة للعرب وأمرهم في عداوتهم كان بعد الهجرة شديدًا ومجاهرة، وأدغم في الماضي لأن ما مضى قبلها كان بين مساترة بالماكرة ومجاهرة بالمقاهرة، وأدغم في الحشر في الموضعين لأن القصة لليهود وأمرهم كان ضعيفًا ومساترة في مماكرة.

ولما كان ما وقع للكفار في بدر يسيرًا بالنسبة إلى ما لهم في الآخرة سماه ذوقًا؛ لأنه يكون بالقليل ليعرف به حال الكثير فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ﴾ أي: والذي أتتكم به الرسل أن ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: على كفرهم وإن لم يظهروا المشاققة ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

ولما قرر إهانتهم في الدنيا والآخرة حسن نهي من ادعى الإيمان عن الفرار منهم فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي: حال كونهم محاربين وهم من الكثرة بحيث لا يدرك من حركتهم وإن كانت سريعة إلا مثل الزحف ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ في أي وقت كان من أوقات القتال ﴿دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

ثم علل ذلك بعزته وحكمته وأن النصر ليس إلا من عنده، فمن صح إيمانه لم يتوقف عن امتثال أوامره، فقال مسببًا عن تحريمه الفرار ومنعًا لهم من الإعجاب بما كان على أيديهم في ذلك اليوم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ بأن هيأ الأسباب المتقدمة على القتل

الممكّنة منه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ لأن هذا الأثر الذي وجد عن رميك للتراب خارق للعادة فمن الواضح أنه ليس فعلك، فالمنفي عنهم البداية والمنفي عنه ﷺ الغاية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ ومادة «بلاء» تدور على الخلطة، فالمعنى أنه فعل ذلك ليخالط المؤمنين منه ما تكون عاقبة مزاولته حسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾.

ثم التفت إلى تهديد الكفار في قالب الاستهزاء بهم وتفخيم أمر المؤمنين فقال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ أي: تسألوا الفتح أيها الكفار كما فعلتم في هذه الوقعة عند أخذكم أستار الكعبة وقولكم: اللَّهُمَّ انصر أهدى الحزبين ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أي: الذي استفتحتم له لأنهم أهدى الفئتين ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾.

ولما كان سبب خذلانه لهم هو عصيانهم الرسول وتوليهم عن قبول ما يسمعونه منه من الروح، حذر المؤمنين من مثل حالهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ لأن ارتكاب شيء من ذلك يكذب دعوى الإيمان وينطبق على أحوال الكفار ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١﴾ أي: لا يستجيبون فكأنهم لم يسمعوا.

ولما كان من هذا شأنه مشابهًا للأصم والأبكم والعادم للعقل، قال معللًا لهذا النهي: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي: التي تدب على الأرض، جعلهم من جنس الحشرات أو البهائم ثم جعلهم شرها ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾ ومن لم ينتفع بسماع الداعي كان كذلك. ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ إسماعًا قسرهم فيه على الإجابة ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ بعد إجابتهم ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ أي: ثابت إعراضهم ولم يستمروا على إجابتهم لما جبلوا عليه من ملاءمة الشر ومباعدة الخير، فإن علمه تعالى يتعلق بكل موجود ومعدوم وهذا علم بالواقع، وبالموجود لو عُدم وبالمعدوم لو وُجد وهذا علم بالقدر.

ولما كان ما مضى من نكال الكافرين مسببًا عن عدم الاستجابة، أمر المؤمنين بها تحذيرًا من مشابهة الكفرة في مثل حالهم فيحشروا معهم في مآلهم فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: ينقلكم بعز الإيمان والعلم عن

حال الكفرة من الصمم والبكم وعدم العقل الذي هو الموت المعنوي إلى الحياة المعنوية، وعبّر باللام دون «إلى» لقرب اجتناء ثمرة الطاعة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فيرد من لا خير فيه إلى الكفر والعناد بعد أن كان في الظاهر مؤمنًا فيكون ممن قسره الله على الإجابة فلم يستمر عليها، ويرد الكافر إلى الإيمان بما يرى من سهولة انقياده ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ أي: واجعلوا بينكم وبين البلاء العام وقاية بإصلاح ذات بينكم واجتماع كلمتكم على أمر الله ورد من خالف إليه، ولا تختلفوا كما اختلفتم في أمر الغنيمة فتفشلوا فيسلط عليكم عذاب عام من أعدائكم أو غيرهم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

ولما كان من أشد العقاب الإذلال، حذرهموه بالتذكير بما كانوا فيه من الذل، لأنه أبعث على الشكر وأزجر عن الكفر فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أطلقها والمراد مكة؛ لأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريبًا ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾.

ثم نهى عن تضييع الشكر في ذلك بالخيانة في أوامره فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾. ولما كان سبب الخيانة غالبًا محبة المال أو الولد قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي: سببها، يختبركم الله بها لينكشف للعباد من يغتر بالعاجل الفاني ممن تسمو نفسه عن ذلك، فلا يحملنكم ذلك على مخالفة أمر الله فتهلكوا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾.

ولما امتن عليهم بالعز بيّن ما يحقق الأمنَ من غيره في الأولى، والنجاةَ من العذاب في الأخرى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ وهو ما يقوّيكم على التصرف فيما تريدون من الفصل والوصل الذي هو وظيفة السادة المرجوع إليهم عند التنازع، والفاروق من الناس: الذي يفرق بين الأمور ويفصلها، وبه سمي عمر رضي الله عنه لأنه أظهر الإسلام بمكة إظهارًا جعل فيه الإيمان مفارقًا للكفر لا يخافه ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ وفيه تنبيه لهم على أن السادات على خطر عظيم لأنهم مأمورون بالمساواة بين الناس ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ كأنه يقول: انظروا إلى مصداق ما وعدتكم به في أحوال النبي ﷺ فإنه كان وحده وجميع الناس يخالفونه، فثبت على أداء الرسالة وإبلاغ النصيحة على ما يصله من الأذى، فأثَبته بأن نجيته منهم.

ولما ذكر مكرهم بالرسول ذكر مكرهم بالرسالة فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ أي: لأنه ليس قول الله ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ من بني آدم سطروا فيها علومهم وأخبارهم، فهو من جنس كلامنا وقائله من جنسنا، وهذا غاية المكابرة لأنه قد تحداهم به فلم يستجيبوا لئلا يُفضَحوا.

﴿۞وَإِذۡ قَالُواْ﴾ أي: ليخيّلوا إلى الناس أنهم قاطعون ببطلانه وإلا لما دعوا بهذا ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الذي أتانا به محمد ﷺ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ غير الحجارة، ولعل مرادهم بذلك: الإشارة إلى أن مجيء الوحي إليك من السماء خارق كما أن إتيان الحجارة منها كذلك، فإن كنت صادقًا في إتيان الوحي إليك منها فأتنا بحجارة منها كما أتت الحجارة منها أصحابَ الفيل صونًا من الله لبيته، أشار إلى ذلك أبو حيان.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ فإنه "لعين تجازى ألف عين وتكرم"، ولما بين بركة وجوده أتبعه ما يخلفه ﷺ إذا غاب في العباد من العذاب فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال أبو حيان: "الظاهر أن «ما» استفهامية أي: أيّ شيء لهم في انتفاء العذاب؟ وهو استفهام معناه التقرير أي: كيف لا يعذَّبون وهم متصفون بهذه الصفة المقتضية للعذاب"، وهي: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ويقولون: نحن ولاته نفعل ما نشاء ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: أهلًا لولايته بحيث إنّ صدهم ربما يقع موقعه ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾.

ولما كانوا يفعلون عند البيت ما ينزَّه عنه، قال مبينًا لجهلهم وبعدهم عن استحقاق ولايته: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ﴾ أي: صفيرًا ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ أي: تصفيقًا، فهو كناية عن أن صلاتهم لا معنى لها، وهؤلاء إنما ذمهم الله لكونهم اتخذوا العبادة لعبًا؛ لينبه على ذم من أشبههم في ذلك فعمد إلى ما هو مباح في أصله فاتخذه دينًا، فكيف إذا كان

مكروهًا بل حرامًا! فقبّح الله قومًا ادعوا الديانة ثم أخذوا أنواعًا من أفعال الكفرة وجعلوها شعارهم ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾.

ولما أخبر عن أعمالهم البدنية، وكان غلبهم مع كثرتهم وقوتهم مستبعدًا، أخبر بما يقربه مبينًا لأعمالهم المالية فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ كما اتفق لهم في بدر، فإن إنفاقهم لم يغن عنهم شيئًا مما أراد الله بهم بل كان وبالًا عليهم، فإنه جرّأهم على الإقدام نظرًا إلى الحاضر وقصورًا عن الغائب كالبهائم فهلكوا، وهذا الكلام منطبق على سبب نزول الآية وعلى كل ما شاكله، وذلك أنهم لما قُهروا في بدر قال أبو سفيان: أنفِقوا مال العير -التي كانت معه- ونحث على حرب محمد، فأجابوا وأنفقوه على غزوة أحد فحصل لهم فيها بعض ظفر، ثم تعقبه الحسرة والمغلوبية في بدر الموعد وكل ما بعدها.

وهذه الآيات مكذِّبة لقولهم: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ فإنهم لو كانوا صادقين لقالوا مثله ثم قالوا: لو كان هذا هو الحق لما قلنا مثله، **موضعَ قولِهم**: ﴿إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا﴾ إلى آخره، **وأما آية المكاء والتصدية** فكأنها تقول: هذا القرآن في أعلى درج البلاغة ولم تؤهلوا أنتم لأن تعارضوه بشيء له أهلية لشيء من البلاغة بل نزلتم إلى أصوات الحيوانات العجم حقيقة، **وأما آية الإنفاق** فقائلة: لو قدرتم في معارضته على إنفاق الأقوال لَمَا عدلتم عنه إلى إنفاق الأموال المفضي إلى مقاساة الأهوال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ ثم ذكر علة الحشر فقال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ ولما بين ضلالهم وهددهم، قال متلطفًا بعباده مرشدًا لهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾.

ولما أشار ختم الآية إلى قتالهم إن أصروا، وعُلم بما تقدم أن الله خاذلهم، قال مصرحًا بالمقصود: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ ولما كانت هذه الوقعة قد سرت كتائب هيبتها في القلوب اقتضى هذا السياق التأكيد فقال: ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ فاقبلوا منهم ولا تقولوا: أنتم متعوذون بهذا غير مخلصين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ وقدم المجرور إفهامًا لأن العلم به كالمختص به فقال: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ ولم يدخل فاء السبب؛ لأن المأمور به العلم، واعتقاد كونه مولى واجب لذاته لا لشيء آخر، بخلاف ما في آخر الحج فإن المأمور هناك الاعتصام ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

ولما كان التقدير: فإذا أعانكم مولاكم عليهم وغلبتموهم وغنمتم، فلا تنسبوا إلى أنفسكم فعلًا فتتنازعوا في المغنم تنازع من حازه بقدرته، عطف عليه: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: أن إسلام هذا الخمس لا حظ للنفس فيه وإنما هو لمحض التقرب إليه سبحانه إذ من المعلوم أنه تعالى أجلّ من أن يناله نفع أو ضر ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ لضعفهم ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ لعجزهم ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر لأن الأسفار مظنات الافتقار.

فالحاصل أنه تعالى لم يرزأكم من المغنم شيئًا، فاعرفوا فضله عليكم بالنصر ثم بحل المغنم ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ أي: إنزالًا واحدًا سريعًا لأجل التفريج عنكم من القرآن والجنود والسكينة وغير ذلك ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى﴾ أي: عن غير قصد من الفريقين بل بمحض تدبير الله ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ وكنتم حين الترائي قاطعين بالموت لولا فضلنا، ولما كان نصرهم محل عجب ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾.

ثم صور لهم حالتهم الموضحة لما كانوا فيه من العجز تذكيرًا لهم بذلك؛ ردعًا عن المنازعة وردًا إلى المطاوعة فقال: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: القربى إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي: القريبة إلى البحر ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ أي: العير الذي فيه المتجر ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ تكادون تمدون أيديكم إليه وهو كان قصدكم، فلو كانت لكم قوة على طرقه لبادرتم إليه، ولكن منعكم منه من كان جاثمًا بتلك العدوة.

﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ لكراهتكم للقائهم؛ لِما وقر فيكم من قوتهم وضعفكم، وقد كان الذي كرّهه إليكم قادرًا على أن يكرّهه إليهم فيقع الاختلاف من جهتهم كما كان في بدر الموعد ﴿وَلَٰكِن﴾ أي: دبر الله ذلك حتى توافيتم إلى موطن اللقاء كلكم في يوم واحد من غير ميعاد، فأطمعكم في العير ثم وعدكم إحدى الطائفتين مبهمًا، وأخرج قريشًا لحماية عيرهم، ولما نجت أوردهم الرياء والسمعة والبطر ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ أي: مقدّرًا في الأزل.

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ في أن الكافرين على باطل والمؤمنين على حق لأنهم كانوا يقولون ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ [الأنفال: ٤٩] فحينئذ تبين المغرور ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٣ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ﴾ أي: جبنتم ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أي: اختلفتم ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فوهنتم فزادكم ذلك ضعفًا وكراهة للقاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٤﴾ أي: ضمائرها من الجراءة والجبن وغيرهما قبل خطورهما في القلوب.

ولما بين ما نشأ عن رؤيته ﷺ منامًا، أتبعه ما فعل من اللطف في رؤيتهم بأنفسهم يقظة فقال: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾ لا في نفس الأمر ﴿قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ قبل اللقاء ليجترئوا على مصادمتكم، ثم كثركم في أعينهم حين المصادفة حتى انهزموا ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤٥﴾ فتجري على ما يريده لا على ما يظنه العباد.

ولما كان العلم بأن الأمر كله لله يثمر قلة المبالاة بالظالمين وإن عظمت قواهم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ لأنه أمارة الصدق في الاعتماد عليه وحده ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٦ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الإحجام والإقدام لجهلكم بالعواقب، وتلك أمارة إخلاصكم في الذكر ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ وأشار إلى عظيم ضرره ببيان ثمرته فقال: ﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ أي: على تلك المشاق، فختم هذه الأسباب بالجامع لها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٧﴾ لأنهم لا يصبرون إلا اعتمادًا عليه، والآيتان تذكرانهم بما أوجب نصرهم ليثبتوا عليه، وذلك سر قول أبي الدرداء رضي الله عنه: "إنما تقاتلون الناس بأعمالكم".

ولما ذكّرهم سبحانه ما أوجب نصرهم آمرًا به، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ناهيًا عنه تعريضًا بحال المنازعة في الأنفال وأنها حال من يريد الدنيا، ويوشك -إن تمادت- أن تجر إلى مثل حال هؤلاء فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا﴾ أي: طغيانًا وتكبرًا على الحق، ومادة «بطر» تدور على اللين القابل للعمل ويلزم منه الضعف، ومنه بطر النعمة إذا لم يشكرها، فإن فاعل ذلك يمكّنه الحكيم من مقاتله فيأخذه، وهو يرجع إلى عدم احتمال القوى للشكر، ففاعل ذلك ضعيف وإن ظهر منه خلاف ذلك.

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنهم لما نجت عيرهم قال أبو جهل: "والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنشرب الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القيان فتسمع بنا العرب فلا تزال تهابنا أبدًا"، فسُقوا مكانَ الخمر المنايا، ونُحرت مكانَ الجزور رقابُهم، وناحت عليهم نوائح الزمان مكان العزف والقيان، وعبّر عن البطر والرئاء بالاسم إشارة إلى الثبات كما هو شأن الأخلاق، وعن الثمرة بالمضارع تنبيهًا على أنهم لا يزالون يجددونها فقال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وكل عمل لا يكون لله إذا صدم بما هو لله اضمحل، بذلك سبحانه أجرى سنته ولن تجد لسنته تحويلًا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٤٨﴾.

ثم زاد في التنفير بذكر العدو المبين والتنبيه على أن كل ما يأمر به خيال لا حقيقة له فقال: ﴿۞وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وذلك أنه تبدّى لهم في صورة سراقة بن مالك الكناني حين خافوا من قومه أن يخلفوهم في أهليهم بسوء؛ لما كان بينهم مما يوجب ذلك، فكاد ذلك أن يثبطهم عن المسير ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ من أن تخلفكم كنانة بشيء تكرهونه، وسار معهم إلى بدر ينشطهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ من الملائكة والغضب النازل بكم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أن يعاجلني معكم بالهلاك ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤٩﴾.

ولما استوفى ما كان يُقطع به في حق أولئك، أبدل منه ما كان يقطع به في حق المؤمنين أهلُ الجهل بالله وبأيامه فقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه أو من اليهود المصارحين بالكفر ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ أي: في إقدامهم على ما يقطع فيه بهلاكهم ظنًا منهم أن الله ناصرهم على قلتهم وكثرة عدوهم، قالوا ذلك ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿مَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٥٠﴾.

ولما ذكر ما سرهم من حال أعدائهم في الدنيا، أتبعه ما يسرهم من حالهم عند الموت فقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ﴾ ولما كان ضرب الوجه والدبر أدل ما يكون على الخزي قال: ﴿وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥١﴾ وحينئذ يعلمون من الذي غره دينه، ثم عللوا لهم ذلك بقولهم زيادة في تأسيفهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥٢﴾.

ولما كان قد بيّن أن من خالف أوامره هلك، بيّن عموم ذلك بقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ وهو مع ذلك من أدلة ﴿فلم تقتلوهم﴾ [الأنفال: ١٧] لأن هؤلاء كان هلاكهم بغير قتال، وهو راجع إلى قوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] وفيه حث على التمرن على عدم الاكتراث بشيء يكون للنفس فيه حظ ليصير ذلك خلقًا كما هو دأب الرسول ﷺ، كما قال كعب بن زهير رضي الله عنه في مدحهم:

ليسوا مَفاريحَ إنْ نالَتْ رِماحُهمُ قومًا وليسوا مَجازيعًا إذا نِيلُوا

ثم بين الحال الذي شابهوا فيه من قبلهم بقوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٣ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأخذ على هذه الحالة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ وقد كان له سبحانه أن يأخذهم قبل أن يغيروا لعلمه بما في ضمائرهم، ولكنه تعالى أجرى سنته الإلهية بأنه ﴿لَمْ يَكُ﴾ وحذف النون إرشادًا إلى أن هذه الموعظة خليقة بأن يوجز بها غاية الإيجاز فيبادر إلى إلقائها؛ لأن من خالفها جدير بتعجيل الانتقام.

﴿مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يكذبون به الرسل ﴿عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ بما تكن ضمائرهم من غيره وإن جهلوه، فيبتليهم ببلاء يظهر به ذلك، فإذا تعلق به العلم ظاهرًا علق به الحكم قاهرًا لتمام قيام الحجة.

وأمهلهم لعلمه بحالهم ولإتمام الحكمة، وإنما يستعجل من يخاف أن تخيب فراسته أو يتغير علمه، وذلك التغيير الذي أظهره البلاء هو التكذيب بالحق عنادًا والبعد عما كانوا يدعونه من العدل والعقل والنزاهة، هكذا كانت كل أمة أرسلت إليها الرسل تدعي، فلما جاءتهم الرسل فكذبوهم، غيروا ما كان في نفوسهم مما كانوا يزعمون.

ثم كرر قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ لِما تقدم من أنه ما من أمة إلا ابتليت بالضراء والسراء، فالضراء متعلقة بمقام الإلهية الناظر إلى العظمة والانتقام، ولذا عبّر في الأولى باسم الذات، والسراء ثمرة مقام الربوبية الناشئ عنه الإنعام، ولذا عبر في هذه الثانية باسم الرب فقال: ﴿كَذَّبُواْ﴾ عنادًا زيادة على الكفر ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بطرًا بالنعم، وقدم الأولى إشارة إلى أنهم بلغوا الغاية في الجرأة، والتعبير فيها بـ﴿كفروا﴾ يؤيده

أي: أن مجرد الستر للآيات بالإعراض عنها كاف في إيجاب الانتقام ولو لم يصرح بتكذيب؛ لعظم المقام ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾(٥٤).

ثم علل اتصافهم بالظلم أو استأنف بيانا له بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فلم ينتفعوا بما أتاهم من صفة الربوبية فمحقتهم صفة الإلهية.

ولعله إنما خص آل فرعون تذكيرًا لأكثر من كان يقول: ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ [الأنفال: ٤٩] وهم اليهود، بأنهم كانوا بالنسبة إلى فرعون وآله أضعف من الصحابة رضي الله عنهم بالنسبة إلى قريش وأتباعهم، فإن اليهود مع قلتهم كانوا قد دانوا لهم بذل العبيد لمواليهم بل أعظم، ومع ذلك نُصروا عليهم لما كان الله معهم، وإعلامًا لهم بأنهم الآن كآل فرعون في العناد مع ما هم فيه من القلة والذلة، فجمعوا من كل قوم أخس صفاتهم، ولذلك أبدل من عموم ﴿الذين كفروا﴾: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ وهم اليهود بلا شك ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ولما أيأسه من تقواهم بتكريرهم النقض، أمره بما يوهن قواهم من إلباس اليأس بإنزال البأس فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ والمراد المبالغة في الإيقاع بهم؛ لأنهم إذا ضُربوا ضربة تفرقوا فيها على غير وجه، عَلِم من شردوا إليه ممن وراءهم أنه قد تناهى بهم الذعر، فذُعر هو فوقع في الشرود أيضًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ما سبق من أيام الله فيعلموا أن هذه أفعاله وهؤلاء رجاله، فينفعهم ذلك فلا ينقضوا عهدًا بعده.

ولما أمره بما يفعل بمن تحقق نقضه أرشده إلى ما يفعل بمن خاف غدره فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أمر مستو في العلم بزواله بينكم وبينهم، ولا تناجزوهم وهم على توهم من بقاء العهد، وهذا إشارة إلى أن يكونوا على غاية الحذر والفحص عن أخبار العدو بحيث لا يتركونه إلى أن ينقض، ثم يعلمون ميله إلى النقض فينبذون إليه عهده؛ لأن ذلك أردع له فهو أدعى إلى السلم، ثم علل جواز النبذ ووجوب النصفة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ لا منكم ولا من غيركم.

---

(٥٤) أو يقال: ذكر وصف الربوبية هنا دون الاسم العلم؛ لزيادة تفظيع تكذيبهم؛ لأنها جراءة في موضع الشكر؛ لأن الرب يستحق الشكر، وعبر بالإهلاك؛ ليفسر الأخذ المتقدِّم بأنه آل إلى الإهلاك، وزيد الإهلاك بيانًا بالنسبة إلى آل فرعون بأنه إهلاك الغرق [التحرير والتنوير ١٠/ ٤٦].

ولما كان نبذ العهد مظنة الخوف من تكثير العدو وإيقاظه، وكان الإيقاع أولى بالخوف، قال مسليًا: ﴿وَلَا تَحۡسِبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ بالظفر في وقت ما ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٦٠﴾ ولو امتنعوا منكم، فلا يغرنك علوّهم وجري كثير من الأمور على مرادهم، فكل ذلك بتدبيرنا وهم في قبضتنا أينما توجهوا ولا بد أن نهلكهم، فاصبر.

ولما كان هذا الوعد الصادق ربما أدى إلى ترك المحاربة، بين أن اللازم ربط الأسباب بمسبباتها، وليتبين الصادق في دعوى الإيمان من غيره فقال: ﴿۞وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ وهم المنافقون لقوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ كما قال تعالى: ﴿مردوا على النفاق لا تعلمهم﴾ [التوبة: ١٠١] ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ فهو يكفيكم أمرهم وليس عليكم إلا الجهد بحسب ما تعلمون، ولما كان أغلب معاني هذه الآية الإنفاق لأن مبنى إعداد القوة عليه، رغب فيه بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦١﴾.

ولما كان ضمان النصر والخلف في النفقة موجبًا لدوام المصادمة والبعد من المسالمة أتبعه قوله أمرًا بالاقتصاد: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ إذا كان الصلاح للمسلمين في ذلك بأن يكون بهم ضَعف، وأقصى مدة الجواز عشر سنين اقتداء برسول الله ﷺ فلا تجوز الزيادة، ولما كان ربما قيل: إنه قد عهد منهم الخداع فمسالمتهم خطر، قال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيما تعهده من خداعهم، فإنه يكفيك أمره ويجعله سببًا لدمارهم، كما وقع في صلح الحديبية فإن غدرهم فيه كان سبب الفتح، ثم علل الأمر بالتوكل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما أبرموه ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٦٢﴾ بما أخفوه وأعلنوه.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٣ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٤﴾ والذي أمدّك بهذه الألطاف حي لا يموت، باقٍ على ما كان عليه من القدرة والقوة، فهو الكفيل بحراستك ممن يريد خداعك، فإذا أمركم بأمر فامتثلوه غير مفكرين في عاقبته، فإنه قد بينه بعزته وأتقنه بحكمته.

ولما صرح أن الله كافيه بيّن أنه كفى المؤمنين أيضًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٥﴾ فهو كافيهم، وهم كافوك لأنه معهم.

ولما بين أنهم كافون مكفيون، أمره أن يأمرهم بما يكونون به كافين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ قال الرماني: "والتحريض ترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة إليه مع الصبر عليه"، ثم بيّن ذلك فقال: ﴿إِن يَكُن﴾ ولما كان توجيه الخطاب يثير العزائم قال: ﴿مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا﴾ فحرِّضهم لأني أعنت كلًا منهم على عشرة فلا عذر لهم في التواني ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٦﴾ علم الحرب وإن كنتم ترونهم أقوياء لأنهم أبدان بغير معان؛ لأنهم لم يبنوا مصادمتهم على تلك الدعائم الخمس التي ألهمتكم إياها في بدر، فمن لم يجمعها لم يفقه الحرب.

﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ وأشار بـ«الآن» إلى أن النسخ كان قبل أن تمضي مدة يمكن فيها غزو، وفائدة الأمر المعقَّب بالنسخ: حيازة الأجر بالعزم على امتثاله، فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ذلك، وهذا لا يمنع استمرار البعض على ما كان، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في غزوة مؤتة وحروب الردة وغيرهما، فقد لقوا من الجموع أضعاف عددهم فصبروا لهم ونُصروا عليهم، قال ابن شبرمة: "وأنا أرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك"، ولعله كرر معنى المقاومة للأكثر قبل التخفيف وبعده؛ للدلالة -كما قال في الكشاف- على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٧ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيبالغ في قتل أعدائه "وهذا كان يوم بدر والمسلمون قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله: ﴿فإما منًا بعد وإما فداء﴾ [محمد: ٤]" قاله ابن عباس.

ثم بين أن الميل عن ذلك إنما هو لإرادة الدنيا المبكَّت به اليهود في آخر التي قبلها بقوله: ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ [الأعراف: ١٩٦] كما أن النزاع في الأنفال ميل إلى الدنيا، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ بالإثخان في قتلهم؛ لظهور الدين الذي به تدرك الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٨﴾ فهو يأمر بالإثخان عند ظهور قوة المشركين، فإذا ضعفت وقوي المسلمون فأنتم بالخيار.

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من الأسرى المراد بهم الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٩﴾ ولكن سبق حكمي بحِل المغنم لكم وإن تعجلتم فيه أمري. ولما ساق هذه البشارة في النذارة قال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ فلم يعذبكم بتسرعكم إلى الإسار للمفاداة دون توقف على إذنه ﷺ؛ لما علم في قلوبكم من الخير ﴿رَّحِيمٞ ٧٠﴾ فأحسن إليكم بحل الغنائم، انظر إلى قوله: ﴿إن تتقوا الله﴾ إلى ﴿ويغفر لكم﴾ [الأنفال: ٢٩] تعرف حسن تعليل الأمر بالتقوى بالمغفرة والرحمة، وفائدة الأمر بها: التحذير من العود اعتمادًا على سعة الحلم.

ولما علم من هذا إباحة أخذ الفداء من الأسر، قال مستعطفًا لهم، آمرًا نبيه ﷺ بمخاطبتهم تنبيهًا على أنهم ليسوا بأهل لخطابه سبحانه لاختيارهم الكون في زمرة الأعداء: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧١ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ في عهد يوثقونه لك ترضى به في المنّ على أحد منهم بغير فداء ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ بالكفر والفسق ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧٢﴾.

وكذا فعل في أبي عزة الجمحي فإنه سأل النبي ﷺ في المن عليه بغير شيء لفقره وعياله وعاهده ألا يظاهر عليه أحدًا، ثم خان فظفر به في حمراء الأسد أسيرًا فسأله العفو فقال: «ألا تمسح عارضيك بمكة وتقول: سخرت بمحمد مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» وأمر به فضربت عنقه، وقال أبو حيان في الخيانة: "هي كونهم أظهر بعضهم الإسلام ثم رجعوا إلى دينهم".

ولما بين للأسرى في قوله: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا﴾ الآية، أن هذا الخير الذي لم يطلع عليه غير الله لا يُسقِط الفداء عنهم لأنه لا دليل عليه، شرع يبين الخير الذي يفيد القرب المؤدي للمناصرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ ولما كانت الآيات المتقدمة في آلات الجهاد قدّم قوله: ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ ترغيبًا في بذلهما إذ كان الحال شديدًا والمال قليلًا ولذا قدّمه، وأما براءة فنزلت وقت سعة وعزة، فتواكل الناس على بعضهم فبعدت مواضع الجهاد، فرُغِّبوا في إصلاح الأموال فناسب تقديم السبيل.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ فبيّن أن الإيمان إن لم يقترن بشهيدين هما الهجرة والجهاد من الغُرب عن المدينة، وشهيدين هما الإيواء والنصرة من أهلها، كان عائقًا عن

القرب والتوارث، والمهاجر في الأصل من فارق الكفار بقلبه ولا واهم، ورافق المؤمنين بحبه ووالاهم، لكن لما كان هذا قد يخفى نيط الأمر بالدار لأنها أمر ظاهر، فصار المهاجر من باعد دار المشركين فرارًا بدينه، ولما فتحت مكة انقطعت الهجرة لظهور الدين وضعف المشركين، وقام مقامها: النية الخالصة المدلول عليها بالجهاد كما قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ لأن استنصارهم يوقع بين مفسدتين: ترك نصرة المؤمن، ونقض العهد وهو أعظمهما، فقدمت مراعاته وتركت نصرتهم، فإن نصَرهم الله فهو المراد من غير أن تدنسوا بنقض، وإن نصر الكفار كان لمن قُتل من إخوانكم الشهادة ولمن بقي الضمان بالكفاية وكان ذلك داعيًا لهم إلى الهجرة، ولما كان للنفوس دواع خفية إلى مناصرة الأقارب والأحباب ومعاداة غيرهم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٣﴾ بما يكون من ذلك خالصًا أو مشوبًا، ففيه مزيد حث على الإخلاص وترغيب في العمل بما ذكر.

ولما بين شرط موالاة المسلم بيّن أن معاداة الكافر لا شرط لها غير مطلق الكفر، فإنه وإن اختلفت أنواعه يجمعه عداوة الله وولاية الشيطان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ وهو خبر مشير إلى نهي المسلم عن موالاتهم، وأما الذي مضى في حق المؤمنين فهو أمر في صورة الخبر وصيغته، يعني: أن في كل من الكفار قوة الموالاة للآخر عليكم وإن اشتدت عداوة بعضهم لبعض؛ لأنكم حزب وهم حزب، يجمعهم داعي الشيطان بوصف الكفران، كما يجمعكم داعي الرحمن بوصف الإيمان.

﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ أي: مثله من تولي المؤمنين ومعاداة الكافرين كما يفعل الكفار بالتعاضد بالنفس والمال، فضلًا عن أن تنزلوا إلى حضيض التنازع في الغنائم ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٤﴾ ولما ترك بعض العلماء إعانة بعض، حصل ما خوّف الله منه حتى علا أمر المفسدين وضعف أهل الدين، فالأمر بالمعروف فيهم في غاية الذل والغربة، يردّ على صاحبه أدنى الناس فلا يجد له ناصرًا، ويجد ذاك الأدنى له على الرد أعوانًا كثيرة، وصار أعظم الناس له محبة من يقنع بلومه على فعله ظنًا منه أن ذلك شفقة عليه، والله المستعان.

ولما تقدمت أنواع المؤمنين: المهاجر والناصر والقاعد وذكر أحكام موالاتهم، أخذ يبين تفاوتهم في الفضل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يذكر آلة الجهاد لأنها -مع تقدم ذكرها- لازمة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ وإن تأخرت رتبتهم عنكم كما أفهمته أداة البعد.

ثم بين أنه متى جمعهم الوصف المحصل للولاية كان القرب في الرحم أولى من غيره فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٦﴾ فهو يعلم أن هذا هو الذي تدور عليه المصلحة وتدوم به الألفة، كما علم في أول الأمر أن نوط الإرث وغيره من لوازم القرب بالأخوة الإسلامية أولى؛ لما في ذلك من جعل ما بينكم من الأخوة كلحمة النسب، فأما الآن فقد ضرب الدين بجرانه وثبت بأركانه، فتوارثوا بالإسلام والقرابة، وتبرؤوا من الكفار.

فقد انطبق آخر السورة بالإعراض عن الدنيا وإصلاح ذات البين وبيان المؤمنين حقًّا وتقليد العليم في جميع الأعمال من غير اعتراض = على أولها، وببيان من يوالى ومن يعادى على أول براءة، والله الموفق.

مقصودها معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الرسول ﷺ وموالاة المؤمنين، وأدل ما فيها على هذا المقصد قصة المخلّفين الذين هُجروا، إذ كانت البراءة منهم بهجرانهم سبب التوبة وذلك معنى تسميتها بـ«التوبة»، فهو من إطلاق المسبب على السبب، وتسميتها «براءة» واضح أيضًا فيما ذُكر، و«الفاضحة» لأن من افتضح كان أهلًا للبراءة منه، و«المقشقشة» أي: المبرئة من النفاق، من تقشقشت قروحه إذا تقشرت للبرء، لأن من عرف أن الله بريء منه ورسوله والمؤمنون لأمر فهو جدير بأن يرجع عنه، وعندي أيضًا أنه مضاعف القش الذي معناه الجمع؛ لأنها جمعت أصناف المنافقين وأحوالهم.

ولما كان أولها مناسبًا لآخر الأنفال المبين لمن يصلح للولاية، قُدّمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتباه أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض سورة، كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء لمثل ذلك من المناسبة، فكان ما ذكر في براءة من البراءة والتولي شرحًا لآخر الأنفال.

وقال في الكشاف: "اختلف الصحابة رضي الله عنهم في كون الأنفال وبراءة سورة واحدة أو سورتان، فتُركت بينهما فرجة لقول من يقول: هما سورتان، وتُركت «بسم» لقول من يقول: هما سورة واحدة"، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: "إنما توهموا ذلك لأن في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود"، وعن علي رضي الله عنه أن البسملة تُركت لأنها أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهد وليس فيها أمان.

وأما تشابه قصتيهما فلِما في كل منهما من نبذ العهد إلى من خيف نقضه، وأن المسجد الحرام لا يصلح لولايته إلا المتقون، وأن قلة حزب الله لا تضرهم إذا لزموا دعائم النصر، وكثرتهم لا تغنيهم إذا حصل في ثباتهم لَبس، وذكر أحكام الصدقات التي هي من وادي الغنائم، والأمر بالإنفاق، وبيان أحوال المنافقين المشار إليهم في قوله: ﴿إذ يقول المنافقون﴾ [الأنفال: ٤٩]، والجامع للكل: أنهما في بيان حال النبي ﷺ في أول أمره وأثنائه ومنتهاه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "تضمنت الأنفال الأمر بالقتال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ [الأنفال: ٣٩]، وبيان أحكام الفرار، وحكم ولاية المؤمنين وما يدخل

تحتها، ثم ذكر في الأخرى حكم من عهد إليه من المشركين والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وكلها أحكام متواردة على قصة واحدة وهو تحرير حكم المخالف، فالتحمت السورتان أعظم التحام، ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أستارهم".

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ ودل السياق وما حواه من بديع الانتظام أن العهد إنما هو لأجل المؤمنين، وأما الله ورسوله فغنيان عن ذلك، قال البغوي: "لما خرج الرسول ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهودًا كانت بينهم وبينه ﷺ، فأمر الله بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم﴾ [الأنفال: ٥٨]".

ولما كان ظاهر الحال وقت تكامل نزولها: أن الحرب قد وضعت أوزارها، أكد أمر الجهاد ومصادمة الأنداد تأكيدًا لم يؤكد في غيرها، قال الواقدي في أواخر غزوة تبوك: "وجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون: قد انقطع الجهاد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم وقال: «لا تزال عصابة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال»"، وهي في الظاهر للمعاهدين وفي الباطن مشيرة إلى أهل الردة وأن لا يقبل منهم إيمان ما لم يجمعوا بين الصلاة والزكاة كما فهم أبو بكر، وأقيمت على ذلك قرائن منها تكرير الجمع بين الصلاة والزكاة في سياق الإيمان تكريرًا لم يكن في غيرها من السور، فهي من أعلام النبوة.

ولما أعلمهم سبحانه بأنه رد إليهم عهدهم وكانوا مختلطين مع أهل الإسلام، جعل لهم مخلصًا إن آثروا البقاء على الشرك فقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تأمنون فيها أمنًا لا نعرض لكم بسوء بل تذهبون فيها حيث شئتم وتلمون شعثكم لا نغدركم؛ لأن ديننا مبني على المحاسن. ولما كان الإسلام قد ظهر بعد أن كان خفيًا وقوي بعد أن كان ضعيفًا قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ أيها الكفرة وإن كثرتم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ وأظهر الوصف موضع الضمير تعميمًا وتعليقًا للحكم به.

ولما أنزل البراءة أمر بالإعلام بها في المجمع الأعظم ليقطع الحجج فقال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قيّده لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ ولما كانت

محافظتهم على عهدهم من أفراد التقوى قال معللًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ فهو قول حاث للكل على التقوى، وكل ينزله على ما يفهم، فهو من الإعجاز الباهر.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين الذين ضربتم لهم هذا الأجل كرمًا ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ بالحبس عن إتيان المسجد والتصرف في بلاد الإسلام وكل مقصد ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: لأجلهم خاصة، فإن ذلك من أفضل العبادات ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: بكل طريق يمكن ولو على غرة، وانتصابه على الظرف إشارة إلى أن يشغلوا في الترصد كلَّ جزء من أجزاء كلِّ مرصد إن قدروا على ذلك، بخلاف ما لو عبر بـ«في» فإنه إنما يدل على الكون في موضع واحد منه، أيَّ موضع كان.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ فيعلم ما يدعو إليه من المحاسن ويتحقق أنه ليس كلام الخلق ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ إن أراد الانصراف ولم يسلم ﴿مَأْمَنَهُۥ ۚ﴾ أي: الموضع الذي يأمن فيه، ثم قاتله بعد بلوغه المأمن إن شئت من غير غدر ولا خيانة، قال الحسن: "هي محكمة إلى يوم القيامة"، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ لأنه لا عهد لهم بنبوة ولا كتاب، فإذا علموا أوشك أن ينفعهم العلم.

ولما كان الأمر بالنبذ مظنة لأن يعجب منه قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ يعني أن الأمر المبيح للنبذ خوف الخيانة، وعلام الغيوب يخبركم أنهم في غاية الخيانة لكم، ولما كان ربما قيل: قد أكدوا لنا الأيمان وأوثقوا العهود! قال: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝٨﴾ وإذا نقض الأكثر اضطر الأقل إلى موافقتهم.

ثم شرع يقيم الدليل على فسقهم وخيانتهم بتذكيرهم ما بدا من بعضهم من النقض بعد أن أثبت فيما مضى أنهم شرع واحد بعضهم أولياء بعض فقال: ﴿۞ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ وكأنه إشارة إلى ما غدر فيه كفار العرب كعضل والقارة حين أرسل ﷺ إليهم نفرًا يعلمونهم الإسلام، فقتلوهم وباعوا خبيبًا وزيد بن الدثنة بمكة فقتلوهما، وكالعرنيين لما أظهروا الإسلام ثم استاقوا لقاح النبي

ﷺ وقتلوا الراعي، ولما خرج أهل مكة معه ﷺ إلى حنين انهزموا بالناس، فتكلم إذ ذاك قوم بما في أنفسهم من الكفر حتى عزم ناس منهم على قتله ﷺ ولكن الله منعه منهم، وأما اليهود فكلهم نقض.

ويجوز أن يكون إشارة إلى أنهم لما تبين لهم صدق ما أخبر به النبي ﷺ فلم يرجعوا لمجرد أهوائهم، كانوا قد اشتروا بذلك ثمنًا قليلًا وهو التمتع بما هم فيه مدة حياتهم على ما صاروا إليه من سفول الكلمة وإدبار الأمر، فمن كان كذلك كان غير مأمون على شيء؛ لأنه رهينة داعي الهوى وأمر الشيطان، لأنه أول ما بدأ بنفسه فغدر بها.

ودل على فسقهم أيضًا بأن مدار خيانتهم على وصف الإيمان فقال: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُومِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ أي: عادتهم المبالغة في حمل أنفسهم على تعدي الحدود؛ لعدم ما يردهم عن ذلك من وازع شرعي، فهذا الذي أحكمه تعالى من نبذ العهد نظرٌ للدين؛ لأنه نظر لأهله الذين لا يوجد إلا بهم.

﴿فَإِن تَابُواْ وَ﴾ أيدوا ذلك بأن ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ فلا يغترون بكلام من شأنه المخالفة بين القول والعمل، والاعتراض بهذا بين هذه الجمل المتلاحمة إشارة إلى عظم الأمر الذي نبه عليه، وتحريض على إنعام النظر فيه؛ ليُعلم أن مدخوله جليل الأمر عظيم القدر.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ ولما كان النكث يستقل به غالبًا الرؤساء، أظهر الوصف موضع الضمير تحريضًا على قتالهم، وإشارة إلى أنهم ما نكثوا وخرجوا عن عادات الكرام إلا لرسوخهم في الكفر فقال: ﴿أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾ عن غيّهم بما يرون منكم من صادق الجد بماضي الحد.

ولما نفى أيمانهم بنفي إيمانهم، شرع يقيم الدليل على ذلك بأمور ارتكبوها كلٌّ منها سبب باعث على الإقدام عليهم، في صورة تعجيب ممن يتواني فيه فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم ليكون زاجرًا عن النقض ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من مكة في عمرة القضاء، أو: ما همّ به ابن أبيّ وأصحابه من إخراج النبي ﷺ من المدينة حيث قال في غزوة المريسيع: "لئن رجعنا إلى المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل"، وهو بعث للمؤمنين على التبرؤ من الكافرين منافقين كانوا أو مجاهرين، مقاربين أو مباعدين.

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ أي: بالقتال؛ لأن النبي ﷺ جاءهم بالكتاب المنير ودعاهم بغاية اللين وتحداهم به عند التكذيب، فعدلوا عن ذلك إلى القتال، فهم البادئون والبادئ أظلم، ثم شرع يبين الأسباب الحاملة على التواني عن قتالهم، وبدأ بالخشية لأنها السبب الأعظم في ترك المصادمة فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ لِما تعلمون من قدرته في أخذه لمن خالفه ولو بعد طول الأناة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ولما كان نكالهم بما ذكر يثمر لبعض المؤمنين سرورًا لهم فيه حظ، بين أنه لا يؤثر في العمل بعد ثباته على أساس الإخلاص فقال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للتوبة ومن لا يصلح، وما في قلوبكم من الإقدام والإحجام لو برز إلى الخارج كيف كان يكون.

﴿حَكِيمٌ ١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن﴾ يبني الأمر فيه على غير الحكمة فـ﴿تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ﴾ أي: دخيلًا، يقول: لم يتخذوا دخيلًا من دونه يسرّون إليه غير ما يظهرون كما يصنع المنافقون الذين يظهرون الإيمان، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٦﴾ سواء برز إلى الخارج أو لا.

ثم شرع يبين أن الوليجة التي يتخذها بعضهم لا تصلح للعاطفة وإن اتصفت بمحاسن الأعمال مالم توضع على أساس الإيمان فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ "أي: الحرام فيُترَكوا حتى يكونوا أهله، وأما على قراءة الجمع فلأنه قبلة المساجد كلها" قاله الحسن، ويجوز أن يراد الجنس، وإذا لم يصلحوا لعمارة الجنس دخل المسجد الحرام لأنه صدره ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ "بسجودهم للأصنام"، قاله ابن عباس ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ من عمارة وحجابة وسقاية وغيرها؛ لبنائها على غير أساس.

﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمان بالرسول؛ لأن هذه البراءة عن لسانه أخذت، فالإيمان بها إيمان به، فعدم ذكره

أقعد في إيجاب الإيمان به ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ فأقدم على رضاه فيه ولو أن فيه تلفه، فهو يرجع إلى قوله: ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ ولكن هذا أبلغ لأنه نفى نفس الخشية، وفيه تعريض بأنهم لا يصلحون لخدمته لأنهم يخافون الأصنام ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ فأقامهم -مع ما قدم لهم من الكمال- بين الرجاء والخوف، والحاصل أن من اتصف بالأوصاف الأربعة كان جديرًا بأن يطمع أن يكون من المهتدين، فكيف توجبون لمن لم يتصف بواحد منها ما يختص به المهتدون من الموالاة!

ولما بين الصالح لذلك من غيره أنكر على من لم يفرق بين الصنفين فقال: ﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الحامل اعتقاد كماله على كل كمال ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الحاث خوفه على كل خير ﴿وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ والكفر أعظم الظلم، فلا توجبوا لهم الهداية ولا المساواة بالمهتدين وإن باشروا جميع أفعالهم ما عدا الإيمان، ومن فعل ذلك منكم كان ظالمًا وخيف عليه سلب موجب الهداية.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ ولما كان المحدَّث عنه فيما قبل: المجاهد في سبيل الله قدّمه على الآلة بخلاف ما في آخر الأنفال كما سلف بيانه، وأيضًا ففي هذا الوقت كان المال قد كثر ومواضع الجهاد قد بعدت فناسب الاهتمام بالسبيل ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وكرر الاسم الأعظم لمزيد الترغيب؛ لخطر المقام، وأفهم هذا أن تلك الأفعال شريفة في نفسها، فمن باشرها كان على درجة عظيمة بالنسبة إلى من لم يباشرها، ومن بناها على الأساس كان أعظم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا نجاة بدون العفو.

ثم أخبر بأن الرحمة كما أثمرت العفو الذي هو أدنى المنازل، أسعدت بأعلاها فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٖ﴾ بأن يكون راضيًا عن الله للرضى بقضاء الله، وذلك يكون إذا قصر نظره على الله، فإنه لا يتغير أبدًا بقضاءٍ من أقضيته كما أن الله الذي هو راحمه لا يتغير، ومن كان نظره لطلب حظٍ له كان أبدًا في تغير من الفرح إلى الحزن ومن السرور إلى الغم ومن اللذة إلى الألم، فثبت أن الرحمة التامة لا تحصل إلا للراضي بقضاء الله ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾.

ولما فرغ من العاطفة بمحاسن الأعمال شرع في العاطفة بالأنساب والأموال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ على ما تدعو إليه الطباع وتقوّيه الأطماع، فتلقوا إليهم أسراركم وتؤثروا رضاهم والمقام عندهم ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ نبه بصيغة الاستفعال على أن الإيمان لكثرة محاسنه وظهور دلائله محبوب بالطبع، فلا يتركه أحد إلا بمعالجة ومكابرة لعقله ومجاهدة، وهذا رجوع بالاحتراس إلى ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ [الأنفال: ٧٥] الآية.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ﴾ لمن لم ينزجر بعد: أنه يجب تحمل المضار ليبقى الدين سالمًا ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ لفوات أوقات نَفاقها؛ لاشتغالكم بما ندب الله إليه فيفوت -على وهمكم- ما به قوامكم.

وقدّم من الأقارب الأب لأنه الأقرب للنصرة، ومن الأموال الموجود في اليد ثم المتوقع ربحه، وختم بالمسكن لأن كل ما تقدم أسباب للاسترواح فيه ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الذي أنعم عليكم بما ذكر ومتى شاء سلبه ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ الذي أتاكم بما به حفظ هذه النعم في الدارين ﴿وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ لجمع عباده عليه ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾.

ولما كان في بعض النفوس من الغرور بالكثرة ما يكسبها سكرة تغفلها عن بعض مواقع القدرة، ساق قصة حنين دليلًا على ما أبهمه من التهديد في ختام التي قبلها، فقد سلّط القديرُ عليكم على كثرتكم أقوياءَ غيرَكم وإن كانوا قليلًا، كما سلطكم على قلتكم حتى صرتم إلى ما صرتم إليه فقال: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ فدل ذلك على أن من أطاع الله ورجح الدين على الدنيا، آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه وإن عاداه الناس أجمعون، ودل بما بعدها من قصة حنين على أن من اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، إلا أن يتداركه الله برحمة منه فيرجع به.

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ حين التقى الجمعان فقال أحدكم: لن نُغلب اليوم من قلة! ثم عاد سبحانه بالإنعام لكون الذي قاله شخصًا واحدًا كره غيرُه مقالتَه، وأسند الفعل للجمع إشارة إلى أنهم لعلو مقامهم ينبغي ألا يكون منهم من يقول مثل ذلك

فإن الإعجاب سم قاتل للأسباب ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ فصرتم لا ترون أن فيها مكانًا يحصنكم؛ لفرط الرعب، فما ضاق في الحقيقة إلا الآمال التي سكنت إلى الأموال والرجال.

﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾ الذين آثروا حب من تقدّم من الآباء وغيرهم على الله فثبتوا على تقليدهم في الباطل بعدما رأوا الدلائل، وأما الذين لم يكن كفرهم راسخًا فكان ذلك صلاحًا لهم لأنه قادهم إلى الإسلام، فقد تبين أن المنصور من نصره الله قليلًا كان أو كثيرًا، وفيه إعلام بأنه لا يرتد بعد إيمانه إلا عريق في الكفر.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ وفيه إشارة إلى أنه جعل هذه الوقعة سببًا لإسلام من حضرها من كفار قريش وغيرهم من المؤلفة بما قسم فيهم ﷺ من غنائم هوزان وبما رأوا من عز الإسلام وعلوه، ولإسلام وفد هوزان بما حصل لهم من القهر وما شاهدوا للنبي ﷺ من النصر، ولإسلام غيرهم من العرب بسبب علمهم بهذه الوقعة أنهم أضعف ناصرًا وأقل عددًا، كل ذلك رحمة منه سبحانه لهم ورفقًا بهم.

ثم بيّن العلة في مدافعتهم وشديد مقاطعتهم فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ لما اشتملوا عليه من خلال الشر والسوء، وأما أبدانهم فاتفق الفقهاء على طهارتها لأن النبي ﷺ شرب من أوانيهم ولم ينه عن مؤاكلتهم ولا أمر بالغسل منها، ولو كانت نجسة ما طهرها الإسلام ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهو آخر سنة تسع، فعبر بقربانه لا بإتيانه بعد التقديم إليهم بأن لا يقبل من مشرك إلا الإسلام أو القتل = إشارة إلى إخراج المشركين من جزيرة العرب وأنها لا يجتمع بها دينان؛ لأنها كلها محل النبوة العربية وموطن الأسرار الإلهية.

وبلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام: **أحدها** الحرم فلا يدخله الكافر بحالٍ لظاهر هذه الآية، **الثاني** جزيرة العرب فيدخله بالإذن ولا يقيم أكثر من مقام السفر ثلاثة أيام لأن النبي ﷺ قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، **والثالث** سائر بلاد الإسلام فيقيم الكافر فيها بذمةٍ وأمانٍ ما شاء ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم، ذكره البغوي.

ولما كان قوامهم بالمتاجر، وكان قوام المتاجر باجتماعهم في أسواقهم، وكان نفيهم مظنة لخوف انقطاع المتاجر، وكان قد أمر بنفيهم رعاية لأمر الدين، وعد سبحانه -وهو الواسع العليم- بما يغني عن ذلك؛ لأن «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه» فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ وصدق سبحانه ومن أصدق منه قيلًا، فإنه أغناهم بالمغانم ثم جعل ذلك سببًا لاختلاط الطوائف ببعض لصيرورتهم إخوانًا في الدين، فكان يجتمع في سوق منى وغيره في أيام الحج من المتاجر مع الغرب والعجم ما لا يكون مثله في بقعة من الأرض.

ثم بيّن من أين يكون ذلك الغنى فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أي: قاهرة إن كانت يد الآخذ لأنها الآلة الباطشة، أو مقهورة إن كانت يد المعطي لأن مقصود الجزية المال واليد أعظم أسبابه، ففي ذلك غنى لا يشبه ما كنتم فيه من قتال بعضكم لبعض لتغنم ما في يده من ذلك المال الحقير، مع ما في ذلك العز الممكن من الإصلاح والطاعة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم عطف عليه بعض أقوالهم المبيحة لقتالهم فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن القائل لهذا القول منهم أربعة، وقيل: كان فاشيًا فيهم فلما عابهم الله به تركوه وهم الآن ينكرونه ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾ أي: حقيقة لم يحتشموا منه مع سخافته، وهو مع ذلك قول لا تجاوز حقيقتُه الأفواهَ إلى العقول لأنه لا يتصوره عاقل.

ثم بيّن أنهم قوم مطبوعون على التشبه بمن يفعل المفاسد، كما أنهم تشبهوا بعبدة الأوثان فعبدوها غير مرة والأنبياء بين أظهرهم يدعونهم إلى الله، وكتابهم ينادي بمثل ذلك فقال: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿مِن قَبْلُ ۚ﴾ أن يحدث منهم هذا القول، وهذا دليل على أن العرب غيروا دين إسماعيل عليه السلام.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ وأشار إلى سفول أمرهم بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الحائز لجميع صفات الجلال، فكانوا يسندون أمرهم إليهم حتى أن كانوا ليتبعونهم في الحلال والحرام ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فعبدوه مع كونه ابن امرأة،

ولما قبّح عليهم ما اختاروه لأنفسهم، قبحه عليهم من جهة مخالفته لأمره فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ في كونه معبودًا أو مشرّعًا.

ولما وهّى سبحانه أمرهم من جهة استنادهم، زاده توهية من جهة مرادهم بالإعلام بأنهم بقتالهم لأهل الطاعة إنما يقاتلون الله، ومن المقرر أنه لا يكون إلا ما يريد فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ بما مضى ذكره عنهم ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ ليتمكنوا من العمل بالأغراض والأهوية، فإن اتباع الرسل حاسم للشهوات وهم أبعد الناس عن ذلك، ثم هدم قولهم بالكلية بقوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: بقول خالٍ عن شيء يثبته ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فالمعنى: لِمَ لا تقاتلونهم وأنتم لا تعتمدون إلا على القدير، وهم يعتمدون على خلق مثلكم، ويقاتلون ربهم الذي أنتم في طاعته، كيف وقد أمركم بقتالهم لينصركم ويظهر آياته ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ والختم به أبلغ؛ لأن الكفر قد لا يكون فيه عناد، والشرك مبناه على العناد باتخاذ الأنداد، أي: لا بد من نصركم ولو استعانوا بمن أرادوا من أندادهم.

ولما حقر أمرهم وكان الإقبال على الدنيا أعظم أمارة على الخذلان ولو أنه بحق فكيف إذا كان بالباطل قال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ﴾ وعبر به لأنه معظم المراد من المال، وإشارة إلى تحقير الأحبار والرهبان بأنهم يفعلون ما ينافي مقامهم ﴿أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ولما أخبر عن إقبالهم على الدنيا، أتبعه الإخبار عن إعراضهم عن الآخرة فقال: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ من يأتيهم بتلك الأموال وغيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ بإخفاء الآيات الدالة عليه عنهم خوفًا على انقطاع دنياهم بزوال رئاستهم لو أقبل أولئك على الحق.

ولما كان أكثرهم يكنزون تلك الأموال، هدّد على مطلق الكنز فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ قال الحرالي: "فأوقع الإنفاق عليهما ولم يخصه بـ«منها» كما قال في المواشي: ﴿خذ من أموالهم﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ لأن هذين الجوهرين يَنال بها أهل الدنيا منافعهم، وقد نفى عنهم الانتفاع بهما بالكنز فلم يكن لهما فائدة إلا بالإنفاق، لأنهما صنما هذه الأمة فكان كسرهما بإنفاقهما".

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ التي تلقى داخلها بالتجهّم كما كان يلقى بذلك الفقراء وغيرهم ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ لتعبيسهم بها في وجوه الفقراء ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ لملئها بالمآكل المشتهاة وازورارهم بها عن الفقراء ﴿وَظُهُورُهُمْۖ﴾ لتقويتها وتحميلها بالملابس ولتوليتهم إياها إذا اجتمعوا مع الفقراء في مكان ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾.

ولما تقدم كثير مما ينبني على التاريخ، وكان مشركو العرب قد أحدثوا في الأشهر بالنسيء ما غيّر السنين عن موضوعها الذي وضعها الله عليه، فضاهوا به فعل أهل الكتاب بالتدين بتحليل أكابرهم وتحريمهم قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ﴾ أي: كان ذلك وثبت يوم ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي: الذي لا عوج ولا مدخل للعباد فيه وإنما هو بتقدير الله للقمر ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ ولما كان إنساؤهم لتحل لهم المقاتلة على زعمهم قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أي: الشهر الذي تؤخر العرب حرمته من الأشهر الحرم ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِۖ﴾ لأنه على خلاف ما شرعه الله، وفيه ستر تحريم ما أظهر الله تحريمه، فتحرر أنهم وقعوا على ضد مرادهم، فإنهم لو قاتلوا في الشهر الحرام: قاتلوا وهم معتقدون الحرمة خائفون عاقبتها، فكانوا غير خارجين عن دائرة التقوى بالكلية، ولكنهم بتحليله قد خرجوا عن دائرتها بمراحل؛ لارتكابهم فيه كل عظيمة مع الأمن لاعتقاد الحل ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يحصل لهم بذلك ضلال عما شرعه الله ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ ولما كان هذا محلّ عجب كان كأنه قيل: ما حملهم على ذلك؟ فقال: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾.

وقال أبو حيان: "كانت العرب لا عيش لأكثرها إلا من الغارات فيشق عليهم توالي الأشهر الحرم، وكان بنو فقيم أهل دين فنسؤوا الشهور فأحلوا المحرم وحرموا صفر؛ ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة، ويسمون ذلك الصفر: المحرم، وربيعًا الأول: صفرًا، وربيعًا الآخر: ربيعًا الأول وهكذا سائر الشهور، فيسقط بهذا حكم المحرم الذي حلل لهم وتجيء السنة من ثلاثة عشر شهرًا أولها المحرم الذي هو في الحقيقة صفر"، وكانت حَجته ﷺ موافقة في تلك

السنة لذي الحجة لما أراد الله بإثبات الحج فيها، فخطب: «ألا إن السنة قد استدارت كهيئتها يوم خلق الله السماوات والأرض ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم﴾».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ والنفر: مفارقة مكان إلى مكان لأمر هاج على ذلك ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأجل تسهيل الطريق إلى الملك سبحانه ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فكنتم أرضيين في سفول الهمم لا سمائيين بطهارة الشيم.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ قال أبو حيان: "و«من» تظافرت أقوال المفسرين أنها بمعنى: بدل، وأصحابنا لا يثبتونه"، والذي يظهر لي أنهم لم يريدوا أنها موضوعة للبدل، بل إنه يطلق عليها؛ لما قد يلزمها في مثل هذه العبارة من ترك ما بعدها لما قبلها، فإنها لابتداء الغاية، ولما كانوا قد أعطوا الآخرة على الاتباع فاستبدلوا به الامتناع، كان إقبالهم على الدنيا كأنه مبتدئ مما كانوا قد توطنوه من الآخرة مع الإعراض عنها، فكأنه قيل: أرضيتم بالميل إلى الدنيا من الآخرة؟ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: ذوي بأس ونجدة مخالفين لكم في الخلال التي كانت سببًا للاستبدال لولايته ونصر دينه.

ولما هددهم بما يضرهم، أخبرهم أنهم لا يضرون بفتورهم غير أنفسهم فقال: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ لأنه متم أمره ومنجز وعده ومظهر دينه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

ثم أتبع ذلك بدليل يتضمن أن المستنفِر لهم ﷺ غير محتاج إليهم كما كان في الهجرة، وأن نفع ذلك إنما هو لهم بتحقيق ما وُعدوه ودفع ما أوعدوه في الدارين فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ ولما أمر بقتال المشركين وكان بعضهم قد تثاقل فاقتضى الحال المعاتبة، حث على نصر الرسول الذي أرسله ليظهره على الدين كله فقال: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

ولما كان صاحبه رضي الله عنه نافذ البصيرة راسخ القدم في المعارف الإلهية، كان حقيقًا لحصول السكينة له عند سماع الاسم الأعظم الذي يتلاشى عند ذكره كل عظيم، وبدأ بالنهي عن الحزن لأنه المقصود بالذات ومابعده علة له، وأما بنو إسرائيل فلم يكن عندهم من المعرفة إلا ما شاهدوا من إحسانه تعالى إلى موسى عليه السلام بإظهار تلك الآيات على يده حتى استنقذهم بها مما كانوا فيه، فلذلك قدم الإنكار ثم أثبت المعية على

سبيل الخصوص به وعبر باسم الرب الدال على ذلك الإحسان فقال: ﴿كلا إن معي ربي﴾ [الشعراء: ٦٢].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ فخيب سعيهم ورد كيدهم، ثم ابتدأ الإخبار بما له تعالى على الدوام فقال: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ قال أبو حيان: "والخفة والثقل مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة أو صعوبة، وأما من لا يمكنه أصلًا فخارج عن هذا"، ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ ولما كان سبب التثاقل ما كان من قلة المال وشدة الحر وطيب الظلال قدّم المال والنفس، بخلاف ما مضى فإنه كان في المفاضلة بين الجهاد في سبيل الله وخدمة البيت فقال: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ ويجوز أن يكون أفعل تفضيل بمعنى أن عبادة المجاهد بالجهاد خير من عبادة القاعد بغيره كائنًا ما كان ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ إشارة إلى أن هذا الأمر إنما ينتفع به العالم، ولا يعد علمًا إلا النافع.

ثم بكّت المتثاقلين بأسلوب الإعراض المؤذن بالغضب فقال: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا﴾ أي: متاعًا دنيويًا ﴿قَرِيبٗا﴾ أي: سهل التناول ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لأن هممهم قاصرة ومنوطة بالحاضر ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ فلم يواز ما يحصل لهم بها من التعب ما يرجونه من العرض فاستأذنوك، وفيه إشارة إلى ذمهم بسفول الهمم ودناءة الشيم بالكسل والنهم وإلى أن هذا الدين متين لا يحمله إلا ذوو الهمم، ولما ذمهم بالشح بالدنيا وصمهم بالسماح بالدين، فقال مخبرًا عما سيكون منهم عَلَمًا من أعلام النبوة: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بهذا الحلف الذي يريدون به حياتها؛ لأنهم كذبوا فيه فانتهكوا حرمة اسم الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾.

ثم قال مقدمًا للدعاء على العتاب لطفًا به ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ في التخلف عنك تمسكًا بما تقدم من الأمر بالصفح عنهم موافقًا لما جبلت عليه من الرفق، وهذا إنما كان في أول الأمر لخوف الفتنة، وأما الآن فقد علا أمر الدين فالمأمور به الإغلاظ عليهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ فإنك إن لم تأذن لهم لقعدوا بلا إذن غير مراعين ميثاقهم، فالحاصل أن الذي أشار إليه سبحانه من باب الترقية من مقام عالٍ إلى أعلى، تسييرًا فيهم بالعدل لمّا انكشف أنهم ليسوا بأهل الفضل.

قال الحرالي: "من القرآن ما أنزل على الوجه الذي بُعث له ﷺ وجُبل عليه ووُصي به نحو: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وهذا الوجه قَبِله النبي ﷺ جبلةً ولم تكن له عنه وقفة؛ لتعاضد خطاب الوصية وخطاب الكتاب عليه، ومنه ما أُنزل على حكم العدل في المؤاخذين، وذلك خلاف ما جُبل عليه ﷺ وما وصاه الله به، فكان ﷺ إذا أنزل عليه ذلك ترقب تخفيفه حتى يعلن عليه بالإكراه في أخذه.

فمما أُنزل إنباء عن مدحه بتوقفه على إمضاء حكم العدل رجاء تدارك الخلق ما هو نحو قوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣]، ومما أنزل بيانًا لأنه ﷺ لا يزال ملتزمًا لتألفهم واستجلابهم حتى يُكره على ترك ذلك بعلن خطاب ما هو نحو قوله: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ [يونس: ٩٤] أي: لا تتوقف لطلب الرحمة لهم كما يتوقف المتري في الشيء؛ لأنه لا بد لأمته من مضاء كلمة العدل فيهم على سنة من تقدمهم في المؤاخذة بذنوبهم، ولذا قال ﷺ حين أنزل عليه ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ [يونس: ٩٤]: «أما أنا فلا أشك ولا أسأل»".

ولما فاته ﷺ معرفتهم بهذا الطريق، شرع يصفهم له بما يعوض عن ذلك فقال: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾ بل كانوا لو أمرهم ﷺ بالقعود شق عليهم كما وقع لعلي في غزوة تبوك حتى قال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟».

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لأنهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا وإن ادعوا ذلك بألسنتهم ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: مشت مع الوساوس حتى شكت ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ بين النفي والإثبات دأب المتحير لا يجزمون بشيء منهما.

وليس استئذانهم في الجهاد لإرادته بل توطئة لأن يعتذروا إذا أمرتهم به بأنه لا عدة لنا الآن فائذن لنا في التخلف حتى نستعد ﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن﴾ لم يريدوا فلم يستعدوا، فلما أمرتهم أخذوا يعتلون بعدم العدة، وذلك لأنه ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ لعدم صلاحيتهم له ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ بما شغلهم من حب الشهوات وكرّه إليهم من ارتكاب المشقات لأنهم لا يرجون ثوابًا ولا يخشون غير السيف عقابًا ﴿وَقِيلَ﴾ لهم لما أسرعوا الإقبال إليها ﴿ٱقۡعُدُواْ﴾ عن جندي لا تصحبوهم، وفي قوله: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ من التبكيت ما لا يعلم مقداره إلا أولو الهمم العلية والأنفس الأبية.

ولما كان كأنه قيل: ما له ثبطهم والسفر بعيد والعدو كثير؟ فنحن محتاجون إلى الإسعاد ولو بتكثير السواد، قيل: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ شيئًا على ما عندكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فسادًا، فالمستثنى منه محذوف وهو «الشيء» ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: لأسرعوا في السير بينكم لتتبع عوراتكم وانتظار زلاتكم؛ ليجدوا منها مدخلًا إلى الفساد ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ بتشتيت الشمل وقطع المراد ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: في غاية القبول لكلامهم لضعف معارفهم وآرائهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فيه إشارة إلى الوصف الذي أشقاهم وتعميم للحكم عليهم وعلى من سمع لهم.

ثم شرع يقيم الدليل على ما قال بتذكيرهم بأشياء تقدمت مشاهدتها منهم فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ظهرًا لبطن بإحالة الآراء وتدبير المكايد، لعلهم يجدون فرصة في نقض أمرك ينتهزونها أو ثغرة في حالة يوسعونها ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فصار همهم الآن الاعتزال والمبالغة في الإخفاء.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ أي: في التخلف عنك ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ بالحزم بالأمر بالنفر فأفتتن إما بأن أتخلف فأكون مصارحًا بالمعصية، أو أسافر فأميل إلى نساء بني الأصفر فأرتد عن الدين فإنه لا صبر لي عن النساء، وقائل ذلك هو الجد بن قيس، كان من الأنصار منافقًا، ثم بيّن أنهم وقعوا فيما أظهروا قصد البعد منه فقال: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: بما قالوا وفعلوا، وفي التعبير بالسقوط دلالة على سرعة انتشابهم في أشراك الفتنة وقوته فصار يعسر خلاصهم معه ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ تعميمًا وتنبيهًا على الوصف الذي حملهم على ذلك.

ثم بيّن الفتنة التي سقطوا فيها فأحاطت بهم جهنم بسببها، ويجوز أن يكون علة لإحاطة جهنم بهم، ولما كان الأنصارُ أقاربَهم خصوا النبي ﷺ بالعداوة فقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وعبّر بالإصابة دون المس إشارة إلى أن ما يسوؤهم ويسرهم من الحسنة والسيئة: ما كان له وقْع لا ما دونه، حفظًا لقلوب أقاربهم.

ولما كان قولهم هذا متضمنًا لتوهم القدرة على الاحتراس من القدر أجابهم بقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ ولما كان قضاؤه كله خيرًا للمؤمن عبر باللام فقال: ﴿لَنَا هُوَ

﴿مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ فلو أراد لدفع عنا كل مصيبة لأنه أقرب إلينا منها، فنحن لا نتهمه في قضائه لأنّا قد توكلنا عليه، والموكِّل لا يتهم الوكيل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾.

ولما تضمن ذلك أن سراءهم وضراءهم لهم خير من حيث إن الرضى بمر القضاء موجب لإقبال القاضي على المقضي عليه بالرأفة والرحمة صرح بذلك في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ وهي أن نصيب أعداءنا فنظفر ونؤجر، أو يصيبونا فنؤجر ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ لأن حذركم لا يمنعكم من الله، وكل ذلك مكروه عندكم، ثم قال متهكمًا بهم: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ أي: بكم، نفعل كما تفعلون والقصد مختلف.

ولما كان مما يصيبهم منهم من العذاب: الإنفاق في سبيل الله خوفًا من اتهامهم بالنفاق ليفتدوا أنفسهم به من السفر قال: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ ولما كان الإعراض عنهم سببه كفرهم لا إنفاقهم لم يربط الجواب بالفاء فقال: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ لأن قلوبكم كارهة ليست لها نية صالحة، فانقسام إنفاقكم إلى طوع وكره إنما هو باعتبار الظاهر، وكأنه عبر بالتفعُّل إشارة إلى قبوله منهم ظاهرًا.

﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ وأكد كفرهم بزيادة الجارّ إشعارًا بأن الكفر بكل منهما على حياله مانع فقال: ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾ ثم قدح في شاهدَي ما يظهرون من الإيمان وهما الصلاة والزكاة بما هو لازم للكفر ودال عليه فقال: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ وذلك كله لعدم النية الصالحة واعتقاد الآخرة.

ولما انتفى عن أموالهم النفع الأخروي الذي هو النفع، تسبب عن ذلك الزهد فيها وعدم اعتقاد أن فيها بركة فقال: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ وإن أنفقوها في سبيلي فإن ذلك إنما هو لما أذلهم من عزة الإسلام، وأكد النفي بإعادة النافي فقال: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ وأبلغ في الحصر بإدخال اللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ فالسياق أبلغ من سياق الآتية بعد النهي عن الصلاة عليهم.

وهكذا كل من أراد استدراجه سبحانه فإنه في الغالب يكثر أموالهم وأولادهم، فيظنون أنهم أكرموا بها ويخفى عنهم أنها سبب لعذابهم في الحياة باتكالهم عليها، وفي الممات

بصعوبته عليهم المشار إليه بالزهوق، وفي الآخرة بموتهم على الكفر باستدراجهم بها، وأما المؤمن فلا يموت حتى يرى من الثواب ما يسليه عن كل شيء فيشتاق إلى لقاء الله، وتخرج نفسه وهو في غاية المحبة لخروجها لأن البدن عائق له عما يرى.

ثم أوضح لبسًا آخر من أحوالهم يقيمونه بالأيمان الكاذبة فقال: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ۝٥٦﴾ أي: يخافون منكم على دمائهم خوفًا عظيمًا يفرق همومهم ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ يمنعهم منكم ﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ أي: مكانًا يدخلونه بغاية العسر لضيقه أو لمانع في طريقه، أو قومًا يداخلونهم وإن كانوا يكرهونهم، بما أرشد إليه التشديد ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ كالدابة التي تنكص بصاحبها بغاية الإسراع بعد أن كانت طائعة، لا تردها مهلكة ولا شيء.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لحظ النفس لا الدين، ولذا قال: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ﴾ عنك ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ۝٥٨﴾ فوافقوا الأولين في جعل الدنيا همهم، وخالفوهم في أن أولئك أنفقوا ليتمتعوا بالتخلف، وهؤلاء طلبوا ليتنعموا بنفس المال الذي يأخذونه ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ فلذلك نكتفي بما يأتي منه كائنًا ما كان، أي: لو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم لأنه لا ينالهم إلا ما قسم الله لهم شاؤوا أو أبوا.

ثم بيّن أن ما لمزوا الرسول ﷺ بسببه هو الحق الذي عيّنه الله له فهو لا يعدل عنه؛ لأنه واقف عند ما يرضيه فقال: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ والظاهر أنه قدم الأهم فالأهم، وحكمة الزكاة **من جهة المالك**: أن المال محبوب لأنه يحصّل المحبوب، والتمادي في حبه يوجب الإعراض عن الله المعطي له، فكان من الحكمة تذكيره بالمالك الحقيقي في أنه أوجب عليه إخراج طائفة منه؛ ليكف منه انصباب النفس بالكلية إليه ويطهّرها عن محبتها له وعن محض الإنفاق في الشهوات، **ومن جهة الآخذ**: أنه لما اجتمعت حاجته إليه وحاجة المالك -ولو احتمالًا- روعي السببان بقدر الإمكان، ورجح المالك بإبقاء الكثير.

ولما ختم بصفتي العلم والحكمة أتبعهما بصنف آخر يتنقّص الرسول ﷺ بما يلزم منه الطعن في علم مرسله وحكمته فقال: ﴿۞وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ أي:

يصدّق كل ما يسمع ولا يعرف مكر من يمكر به، وكذبوا بل هو أعرف الناس بذلك، ولكنه يعرض عند المصالح التي لا يليق بمحاسن الدين غيرها.

﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بأن يصدقهم في كل ما يخبرونه به مما يحتمل التصديق، وذلك لأجل مصالحهم والتأليف بينهم مع ما ثبت من صدقهم، فإنه لو حملهم على عقله وعاقب بمجرد علمه وتفرسه، لقصرت عن ذلك غالب الأفهام فنفرت القلوب ووقع من الأغلب الاتهام.

﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم ﴿مِنكُمۡۚ﴾ أي: من المنافقين ومن في حكمهم، والمعنى: أن إظهارَ تصديقهم قبولًا لما ظهر منهم وسترَ قبائح أسرارهم: سببٌ للكف عن دمائهم وإظهارِ المؤمنين لمقتهم، وربما كان ذلك سببًا لصدق إيمانهم بما يرون من محاسن الإيمان بتمادي الزمان.

وقال الحرالي في رتب البيان عن تطور الإنسان بترقيه في درج الإيمان وترديه في درك الكفران: "أردأ الأحوال لهذا المستخلف: المحل الذي سمي فيه بـ«**الإنسان**»، وهو حيث أنس بنفسه وغيره ونسي عهد ربه، فلذلك يُذم في القرآن ﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس: ١٧] ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦].

ثم المحل الذي تداركه فيه تنبهٌ لسماع الزجر من ربه وهو له بمنزلة سن التمييز ولا يقع إلا عن اجتماع، وذلك هو السن المسمون فيه بـ«**الناس**» لنوسهم أي: ترددهم بين سماع الزجر من ربهم وغلبة أهوائهم عليهم، فلذلك يُذم أكثرهم في القرآن ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثم المحل الذي يتحقق لهم قبول وسماع وإيمان بالغيب لكنهم يتزلزلون عنه كثيرًا عند كل عارضة، وهو لهم بمنزلة سن المحتلم الذي تأهّل عقله للنظر في حقائق المحسوسات، وذلك هو السن الذي يسمون فيه بـ«**الذين آمنوا**» وهو أول سن التلقي، فلذلك جميع آداب القرآن وتعليمه إنما مورده أهل هذا السن، وهم الذين يتكرر عليهم النداء في السورة الواحدة مرات عديدة، وخطاب «الناس» قد جاوزه «الذين آمنوا» لأنهم قد انزجروا بما قبلت قلوبهم عما ينزجر عنه الناس.

وعدم التبصرة بهذه المراتب في الأحوال والبيان هي أقفال القلوب المانعة من تدبر القرآن.

وكذلك ما فوق سنهم من سن «**الذين يؤمنون**» وهم في أول حد القرب، وسنهم بمنزلة بلوغ الأشد، وسن «الذين آمنوا» و«الناس» في مدد حد البعد ولذلك يخاطبون بـ«يا» البعد.

وفوق ذلك سن «**المؤمنين**» وهم أدنى قربًا ولذلك لم يرد في القرآن خطابهم بـ«يا» البعد، وهذا السن بمنزلة الاكتهال، وتمام سنهم «المؤمنون حقًا» وكذلك إلى سن «المحسنين» إلى غيب سن «الموقنين» إلى ما وراء ذلك.

وأسنان القلب يعرفها من تطور فيها ويجهلها من نبت سن قلبه على الجهل، فمن لم يتحقق أسنان القلب وتفاوُت خطابها لم ينفتح له الباب إلى فهم القرآن، ومن لم يتضح له تنزلات الخطاب لم يبِن له خطاب الله من خطاب الرحمن من خطاب الملك الديان".

ولما ختم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ علل ذلك باستهانتهم بالله ورسوله، وأخبر أنهم يخشون على دمائهم فيصلحون ظواهرهم حفظًا لها بالأيمان الكاذبة فقال: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾. ثم علل ذلك بقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بأن يفعل معهما فعل من يخاصم في حد أرض فيريد أن يغلب على حد خصمه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٣﴾.

ولما علل فعل المستهينين علل فعل صنف آخر أخف منهم نفاقًا فقال: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ ولما كان حذرهم مع العمل بما ينافيه من كلام النفاق فِعل المستهزئ قال مهددًا: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾.

ثم حقق نفاقهم بعدم مبادرتهم إلى التوبة التي هي فعل المؤمنين فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ أي: نتحدث على غير نظام ﴿وَنَلۡعَبُۚ﴾ بما لا حرج علينا فيه ويحمل عنا ثقل الطريق ﴿قُلۡ﴾ لهم معرضًا عن اعتذارهم إعلامًا بأنه غير أهل لأن يسمع، جاعلًا لهم كأنهم معترفون بالاستهزاء -حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير-، تكذيبًا لهم في قولهم: إنك أُذن، بالمعنى الذي أرادوه، وبيانًا لما في إظهارك لتصديقهم من الرفق بهم ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم﴾ ودل على أن كفرهم أحبط ما كان لهم من عمل بنزع الخافض فقال: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾.

ولما حكى تعالى عن طوائف من المنافقين ما هو في غاية الفساد، وكان منهم من كان معه ﷺ في العسكر، كان ذلك ربما اقتضى أن يُسأل عن المتخلفين لو خرجوا ما كان يكون حالهم؟ فقال: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم﴾ ولما كان مرجعهم الجمود على الهوى والعادة وتقليد التابع منهم للمتبوع قال: ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: في النفاق، أمورهم متشابهة في جميع أحوالهم.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: من كل ما يكون فيه تعظيم الإسلام وأهله يبغون بذلك الفتنة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ فلا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ٦٧﴾ فقد عُلم أنهم لو غزوا فعلوا فعل هؤلاء سواء؛ لأن الكل من طينة واحدة. ولما بين كثيرا من أحوالهم فاشتد التشوف إلى مآلهم، بينه فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٦٨﴾.

ولما كان حالهم في الإقبال على العاجلة لكونها حاصلة، والإعراض عن العاقبة لأنها غائبة، مشابهًا لحال من قبلهم، بيّن لهم ذلك فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ وهذا ناظر إلى قوله: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ [التوبة: ٥٥] وقوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ تنبيه على ذمهم بقلة النظر لنفسهم المستلزم لقلة عقولهم، حيث كانوا دونهم في القوة ولم يكفّوا عن الاستمتاع والخوض خوفًا مما محق أولئك على قوتهم من العذاب من غير أن ينفعهم شيء.

﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ وهو ناظر إلى قولهم ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾ [التوبة: ٦٥] قال أبو حيان: "وهو مستعار من الخوض في الماء ولا يستعمل إلا في الباطل؛ لأن التصرف في الحق إنما هو على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض"، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ٦٩﴾ فلا أخسر ممن تشبه بهم، ولعل في الالتفات إلى مقام الخطاب إشارة إلى تحذير كل سامع من مثل هذه الحال لصحة أن يكون مرادًا بهذا المقال، فإن من أسرار القرآن في إعجازه أن تكون عبارته متوجهة إلى شيء وإشارته شاملة لغيره.

قال الحرالي: "اعلم أن الله تعالى أنزل القرآن نبأً عن جميع الأكوان، فصد أكثرَ هذه الأمة عن فهمه: ظنُّهم أن الذي فيه من قصص الأولين وأخبار المثابين والمعاقبين إنما مقصوده الأخبار والقصص فقط، وليس كذلك إنما مقصوده الاعتبار والتنبيه لمشاهدة متكررة في

هذه الأمة من نظائر جميع أولئك، حتى يسمع السامع جميع القرآن من أوله إلى خاتمته منطبقًا على هذه الأمة هُدَاتِها وضُلَّالِها، فحينئذ ينفتح له باب الفهم ويضيء له نور العلم ويتجه له حال الخشية ويرى في أصناف هذه الأمة ما سمع من أحوال القرون الماضية، وأنه كما قيل في مثل السائر: إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

ثم إذا شهد انطباق القرآن على كلية الأمة فكان بذلك عالِمًا، ينفتح له باب ترقٍ فيترقى سمعه إلى أن يجد جميع كلية القرآن المنطبق على كلية الأمة: منطبقًا على ذاته في أحوال نفسه وتقلباته، فينتفع بسماع جميع القرآن ويعتبر بأي آية سمعها منه فيطلب موقعها في نفسه فيجدها بوجهٍ ما، فيكون بذلك عارفًا الانطباق على كلية الأمة علمًا، وعلى خصوص ذات القارئ السامع عرفانًا.

واعلم أن أصول الأديان التي لم تترقَّ إلى ثبات حقائق «المؤمنين» سبعة، ما من دين منها إلا ويوجد في صنف من أصناف هذه الأمة، أما «**الذين آمنوا**» فهم أهل دين ثابت ينتظمون به مع من ليس له ثبات من ماضي الأديان التي لها أصل من الصحة في نحو: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، أو مع المحرّفين والمفترين في نحو: ﴿إن الذين آمنوا﴾ إلى ﴿والمجوس والذين أشركوا﴾ [الحج: ١٧] فهذا هو **الدين الأول**(٥٥).

وأما الدين **الثاني** فهو دين الذين هادوا، **والثالث** الذين قالوا إنا نصارى، **والرابع** دين الصابئة وهم أول من عبد محسوسًا سماويًا، **والخامس** دين المجوس الثنوية الذين عبدوا محسوسًا آفاقيًا، **والسادس** دين الذين أشركوا الذين عبدوا محسوسًا أرضيًا، وأما **الدين السابع** فاعلم أن الله تعالى جعل السابع أبدًا جامعًا لستة خيرًا كانت أو شرًا، فالدين السابع هو دين المنافقين الذين ظاهرهم مع الذين آمنوا وباطنهم مع أحد سائر الأديان.

فهذه الأديان السبعة متكررة في هذه الأمة بنحو مما وقع في الأمم الماضية، وهو مضمون قوله ﷺ: «لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم» الحديث، وما بينه ﷺ في هذا الحديث هو من مضمون قوله تعالى: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم﴾ [التوبة: ٦٩] الآية.

---

(٥٥) لعله يريد أن «الذين آمنوا» لتزلزلهم كما تقدم، يتذبذبون بين الثبات على دينهم الثابت، وبين عدم الثبات فيشبهون حال أهل دين آخر ليس له ثبات لكونه محرفًا أو مفترًى، فللحالة الأولى يُذكرون في نحو سياق البقرة مع الذين ثبتوا على الحق من دينهم، وللحالة الثانية يُذكرون في نحو سياق الحج مع كل من أمَّ دينًا حقًا أو باطلًا، والله أعلم.

أما مشابهة الذين أشركوا: فإن هذه الأمة اتخذت بوجه ألطف وأخفى أصنامًا من الدينار والدرهم، وأوثانًا من السبائك والنقر، من حيث إن الصنم ما له صورة والوثن ما ليس له صورة، فما من آية نزلت في المشركين في ذكر أحوالهم وتبيين ضلالهم إلا وهي منطبقة على كل مفتون بديناره ودرهمه.

وأما وجه وقوع المجوسية ونظيرها في هذه الأمة: فإطباق الناس على رؤية الأفعال من أنفسهم، وإسنادهم أفعال الله إلى خلقه، فيحمدونهم على رزق الله ويذمونهم على ما لم يؤته الله، ويقولون: فعلنا وأحسنّا وعاقبنا، كقول نمرود: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ [البقرة: ٢٥٨]، لأن المسلم من أسلم الخلق والأمر لربه، فكل ما أنزل الله تعالى في القرآن مما عزاه لمن وزّع الأفعال بين الحق والخلق من كلام ذي فرعنة أو نمرودية أو سلطان، فللمعتقد المدح والذم حظ منه على حسب توغلهم في الذين زعموا أنهم فيهم شركاء فخافوهم ورجوهم.

فليسمع السامع ما يقرؤه من ذلك حجة عليه؛ ليسأل الله تعالى التخلص منها وليعلم أن ذلك لم يزل حجة عليه وإن كان لم يشعر به قبل.

وأما وجه وقوع الصابئة ونظيرها: فالمتعلق خوفهم ورجاؤهم بالأفلاك هم صابئة هذه الأمة، كما أن المتعلق منهم ذلك بأنفسهم وغيرهم من الخلق هم مجوس هذه الأمة، وكما أن المتعلق منهم ذلك بدرهمهم ودينارهم هم مشركوها، وما تعلق به خوف كل طائفة ورجاؤها فهو ربهم ومعبودهم الذي إليه تصرف جميع أعمالهم، فكل ما أُنزل في القرآن من تزييف آراء الصابئة فهو حجة عليهم؛ لينصرف خوفهم إلى القاهر فوق عباده، وإنما كثر في هذه الأمة حال هاتين الملتين؛ لما آتاهما الله من الكتاب والحكمة، فاختلفوا فيها بالأغراض وإيثار عرض الدنيا، فاستقر حالهم على مثل حالهم وسُلِّطت عليهم مثل عقوباتهم.

وأما ظهور أحوال اليهود فيها: فكل من اقتطع من هذه الشريعة الجامعة للظاهر والباطن حظًا مختصًا من ظاهر أو باطن ولم يجمع بينهما في علمه وحاله وعرفانه فهو من يهود هذه الأمة، كالمقيمين لظواهر الأحوال المضيعين لأعمال السرائر، الشاهد عليهم تعلق خوفهم ورجائهم بأهل الدنيا، المؤثرين لعرض هذا الأدنى، فحيث ظهرت أحداث اليهود من البغي والحسد وتعظيم الدنيا واستحقار الضعفاء فهنالك أعلام اليهودية ظاهرة.

وكذلك من اقتصر على الباطن مع تضييع الظاهر **فهو من نصارى هذه الأمة**، ليس بصاحب فرقان فكيف أن يكون صاحب قرآن! وذلك أن هذا الدين الجامع إنما يقوم بمعالمِ إسلامٍ ظاهرةٍ، وشعارِ إيمانٍ في القلوب، وأحوالِ نفسٍ باطنةٍ، وحقائقِ إحسانٍ شهودية.

وإنما أئمة الدين الذين جمع الله لهم إقامة هذه المعالم: تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله فتأتم بهم الصوفية، وتظهر أنوار قلوبهم على ظلم المتشابهات فيأتم بهم أهل الإيمان، وتبدو في أعمالهم معالم الإسلام تامة فيأتم بهم أهل الإسلام ﴿عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا﴾ [الفرقان: ٦٣] الآية، فأولو الفرقان جامعون مستبصرون، فمن اقتصر على ظاهر دون باطن لزمته مذام اليهود فيما أنزل من القرآن فيهم بحسب توغّله واقتصاره، ومن اقتصر على باطن دون ظاهر لزمته مذام النصارى فيما أنزل من القرآن فيهم.

وأما وجه شياع أحوال المنافقين في هذه الأمة: فهي داهية القراء وآفة الخليقة، وأصل مداخله على الخلق: من إيثار حرمة الخلق على حرمة الحق جهلًا بالله تعالى واغترارًا بالناس، ويتبع ذلك من الذبذبة بين الحالين ما بيّنه النبي ﷺ: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما» وما وصف الله تعالى من أحوالهم: ﴿لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ [التوبة: ٥٤] ينظر المنافق إلى ما يستسقط به فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم.

ومن أظهر علامات المنافق: تبرمه بأعمال الصادق، وليس من مؤمنٍ إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله، وتجده غمازًا لمازًا بخيلًا جبانًا مرتاعًا مستثقلًا في مجامع الخير مستخفيًا في مواطن الشر متقدمًا فيها، طلقَ اللسان بالغيبة والبهتان، ثقيلَ اللسان عن مداومة ذكر الله، ناظرًا إلى الناس بكل وجه ومع ذلك يصانعهم ولا يصادقهم، يأخذ من الدين ما ينفعه في الدنيا لا غير، ويجتنب في الدين ما يضر في الدنيا ولا عكس.

فلذلك من حق القارئ أن يستشعر مواقع آي القرآن في ذات قلبه وأحوال نفسه وأعمال بدنه وفي سره مع ربه وعلانيته مع خلقه، فإنه بذلك يجد القرآن كله منطبقًا عليه خاصًا به، حتى إذا رغَّب في أمر أو رهَّب، رغِب هو فيه من وجه أو رهِب، ولا يقول: هذا إنما أنزل في كذا، حتى يجد لكل القرآن موقعًا في عمله ومحلًا في نفسه ومشعرًا لقلبه كائنًا ما كان، فعند ذلك يوشك أن يكون ممن يقشعر له جلده ابتداء ثم يلين له جلده وقلبه انتهاء، وربما

يجد من الله تعالى نفح رحمة يفتح له بابًا إلى التخلق بالقرآن أسوة بالنبي ﷺ الذي كان خلقه القرآن، وبذلك كان ذا الخلق العظيم".

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۝٧٠ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولعله خص هؤلاء بالذكر لِمَا عند العرب من أخبارهم وقرب ديارهم، مع أنهم كانوا أكثر الأمم عددًا وأنبياؤهم أعظم الأنبياء، نبه على ذلك أبو حيان.

ولعله قدم أصحاب مدين على قوم لوط وهم بعدهم في الزمان؛ لأن هذا في شأن من وُصفوا بأنهم لم يجدوا ما يحميهم مما هم فيه من العذاب من ملجأ أو مغارات أو مدّخل، كما أن من قبل المؤتفكات جمعهم هذا الوصف.

ولعله خص قوم لوط بالذكر من بين من ليس له هذا الوصف؛ لأن العرب كانوا يمرون على مواضع مدائنهم ويشاهدونها، وعبر عنهم بالمؤتفكات؛ لأن القصص للمنافقين الذين مبنى أمرهم على الكذب وصرف الأمور عن ظواهرها وتقليبها عن وجوهها، فالمعنى أن أولئك لما قلبوا فعل النكاح عن وجهه عوقبوا بقلب مدائنهم، فهؤلاء جديرون بمثل هذه العقوبة لقلب القول عن وجهه.

ثم عطف ببيان حال المؤمنين ترغيبًا في التوبة طمعًا في مثل حالهم فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ فلا يقدر أحد على نقض ما يحكمه، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين لا يزالون منصورين على كل مفسد ما داموا على هذه الخلال من الموالاة وما معها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ﴾ أي: إقامة دائمة، وذلك كما قال في حق أضدادهم ﴿عذاب مقيم﴾ ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ أي: الذي يستصغر دونه كل شيء، وفي الوعد بذلك لمن اتصف بما تقدم: ترغيب في الجهاد المأمور به بعدها؛ لكونه من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والداعي الأعظم إلى الموالاة.

ولما كان ما مضى من الترغيب والترهيب كافيًا في الإنابة، وكان من لم يرجع عظيمَ الطغيان أمر بجهادهم بما يليق بعنادهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ وهذا بخلاف ما مضى في قوله: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ فقدم في كل سياق الأليق به ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٤﴾.

ولما أتى بالدليل العام على إجرامهم، أتبعه الدليل الخاص فقال: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ فقصر الفعل تعميمًا للمفعول، إعلامًا بأنهم مهما عنفوا على قول كائنًا ما كان بادروا إلى الحلف على نفيه كذبًا؛ لأنهم مردوا على النفاق فتطبعوا بأعلى الكذب، ويجوز أن تكون الآية تعليلًا للتي قبلها، فتكون جوابًا لمن كأنه قال: أما جهاد الكفار فواضح وأما المنافقون فكيف يجاهدون وهم يظهرون الإسلام؟ فقال: لأنهم يحلفون ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

ولما كان هذا السياق لصنف يجددون الاستخفاف بالله تعالى -بما دل عليه المضارع- دل على أن إقرارهم بالإيمان كذب فعبر بالإسلام فقال: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وكان أذاهم له ﷺ بعد إعطائهم ما أغناهم بخلاف الآية السابقة، فكان الأقعد في ذمهم تأخير قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ وهو من باب:

ولا عيب فيهِمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ بِهِنّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائبِ

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: التي لا يعرفون غيرها لسفول هممهم ﴿مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٥﴾ وأما السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها بشيء.

ثم استدل على أنهم يقبضون أيديهم وعلى اجترائهم على أقبح الكذب فقال: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وأكد لأنه كاذب يظن أن الناس يكذبونه، وهكذا كل كاذب فقال: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٦ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٧﴾ أي: ملازمون للإعراض لم يجددوه.

﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾ أي: الله تعالى أو التمادي على البخل جزاء على ذلك ﴿نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ بأن لا يزالوا يقولون ما لا يفعلون ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٨ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٩﴾ فيخشوا عاقبته فيوفوا بعهده، وفائدة الإعطاء مع علمه بالخيانة: إقامة الحجة.

ولما أخبر أنه لم يكفهم كفران النعمة من غير معاهدة حتى كفروا بمنع الواجب مع المعاهدة، أخبر أنه لم يكفهم أيضًا ذلك حتى عابوا الباذلين بحبهم لربهم ما لم يوجبه عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ونص على المعسر لزيادة فضله وإشارة إلى أن الحث على قليل الخير كالحث على كثيره فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٨٠﴾.

[ثم استأنف شرحًا آخر لأحوالهم فقال](٥٦): ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨١ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾ أي: قعودهم، ولعله عبر بهذا المصدر لصلاحيته لموضع القعود؛ لتكون دلالته على الفرح أعظم، وأظهر الوصف بالتخلف موضع الضمير زيادةً في تهجين ما رضوا به لأنفسهم.

﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ ولما كان هذا في سياق الأموال تارة بالرضى بنيلها والسخط بحرمانها، وتارة بقبض اليد عن بذلها، وتارة بالفرح بالخلاف، وتارة بعيب الباذلين وغير ذلك، قدم قوله: ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودل على عراقتهم في الفسق بأن الإنسان قد يفعل المعصية ويحزن، وقد يسر بها ولا يكره أن يكون بدلها طاعة، وقد يكره ولا ينهى غيره عنها، وهؤلاء فرحوا بالمعصية وكرهوا الطاعة ونهوا عنها فقال: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨٢﴾ لأن من فر من حر ساعة إلى حر الأبد كان أجهل الجهال.

وقد خرج بما في هذه الآية من الأوصاف كعب بن مالك ورفيقاه رضي الله عنهم ونحوهم ممن لم يفرح بالقعود ولا اتصف بما ذكر معه ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٣ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾.

ولما أخزاهم بمنعهم من الخروج إذا استأذنوا علله بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ﴾ ولما كانت الأوليات من الإيمان والكفر وغيرها أدل على تمكن الغرائز قال: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٤ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ

---

(٥٦) التحرير والتنوير ١٠/ ٢٧٦.

﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولما كان الموت على الكفر مانعًا من الصلاة على الميت بجميع معانيها، لم يحتج إلى التأكيد بإعادة الجار.

﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨٥ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ وعطفها بالواو لأن ذلك ليس مسببًا عما قبله، ولما لم يكن هنا ما يقتضي التأكيد لم يعد النافي ولا أثبت اللام ولا الحياة فقال: ﴿وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٨٦﴾ فلا يحملك الإعجاب بشيء من ذلك على فعل شيء مما تقدم النهي عنه؛ تأليفًا لأمثالهم وتطييبًا لقلوب المؤمنين من أولادهم، فإنهم إن كانوا مؤمنين لم يضرهم ترك ذلك.

والمراد: تدريب المؤمنين على الحب في الله والبغض فيه، فلا يظن نجاة من بسطت عليه الدنيا فيوادّه، أو يظن حاجة أهل الدين إليه فيداريه، فأعلمهم أن ذلك مقطوع البركة؛ ليكون النظر إلى المعاني لا الصور.

ولما افتتحت قصتهم بأن المتقين لا يستأذنون في الجهاد بل يكتفون بعموم الحث عليه وأن المنافقين على خلافهم وختم بأن أموالهم فتنة لهم، أتبع ذلك بدليله من أنهم لا يفعلون بها خيرًا فقال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ وخصهم لأن الذم لهم ألزم ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٨٧ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٨٨﴾ فلا يعرفون ما في الجهاد من العز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والعار، فلذلك لا يجاهدون.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ولما كان السياق لبخلهم بالنفس والمال، اقتصر في مدح أوليائه على الجهاد بهما ولم يذكر السبيل ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩٠﴾.

ولما ختم قصص أهل المدر بذم أولي الطول منهم بتخلفهم، وكان ذمهم إنما هو لكونهم قادرين على الخروج في ذلك الوجه، وقدمهم لكثرة سماعهم للحكمة، وكان أهل الوبر أقدر الناس على السفر لأن مبنى أمرهم على الحل والارتحال، فهم أجدر بالذم لأنهم في غاية الاستعداد، تلاهم بهم فقال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩١ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى

ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾﴾ فيه إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير والعجز وإن اجتهد، فلا يسعه إلا العفو.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ يتضمن انتفاء العذر عنهم؛ لأنه علله برضاهم فأفهم أنه لا علة لهم سواه، وأفهم أيضًا أن من كان كذلك كان مثلهم ولو أنه ضعيف أو مريض ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ما في الجهاد من المنافع لهم فلذلك رضوا بما لا يرضى به عاقل، وهو أبلغ من نفي الفقه في الأولى، وزاد المناسبة حسنًا ضم الأعراب في هذه الآيات إلى أهل الحاضرة، وهم بعيدون من الفقه جديرون بعدم العلم.

﴿*يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ ولما كان الكلام في المنافقين الذين يجتهدون في إخفاء نفاقهم، وكان المؤمنون لا اطلاع لجميعهم عليهم لم يذكرهم، بخلاف من يأتي بعد فإنهم مؤمنون ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ مما أبرزتموه إلى الخارج، ومما كان في جبلاتكم ولو تأخرتم لبرز، وهو تهديد عظيم.

ووقع ترتيبهم للاعتذار على ثلاث مراتب: **الأولى** مطلق الاعتذار وقد مضى ما فيها، **الثانية** تأكيد ذلك بالحلف للإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾. **الثالثة** الحلف للرضى عنهم فقال: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ولما رتّب الرضى بالقعود على عدم الفقه والعلم وختم بصنف الأعراب، بيّن أنهم أولى بذلك لكونهم أعرق في هذا الوصف وأجرأ على الفسق؛ لعدم إقبالهم على العلم ولصرفهم أفكارَهم في أنواع المخازي لتحصيل المال، فهم لا يزالون مشغولين بهمه عن كل هم ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا فقال: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم بين أن أفراده انقسموا إلى من ثبت على ما هو الأليق بحالهم، وقسم نزع إلى ما هو الأليق بأهل المدر، كما انقسم أهل المدر إلى مثل ذلك فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ ليستريح من الإنفاق وغيره مما ألزمه به الدين ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ ولما كان الانتقام من الأعداء يتوقف من القادر على سماع أخبارهم والعلم بها قال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٩﴾ ونحوه قوله: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦].

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ والإيمان هو الأصل الذي يترتب عليه الإنفاق عن طيب نفس؛ لما يرجى من ثوابه في اليوم الآخر الذي لولا هو انتفت الحكمة من هذا الخلق ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ثم قال **محققًا** لرجائهم ترغيبًا في الصدقة بأبلغ تأكيد؛ لِما للأعداء من التكذيب: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

وبين ثمرتها بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٠ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ونبه على كثرة مائها بنزع الجار، ولعل تخصيص هذا الموضع بالخلاف لأنه يخص هذه الأمة، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان ريًا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠١ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أي: بأعيانهم لفرط توقيهم وتحامي ما يشكل من أمرهم.

ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ **إحداهما** برجوعك سالمًا عزيزًا، فإنهم قطعوا لغباوتهم وجلافتهم أنك لا ترجع هذه المرة؛ لما يعرفونه من ثباتك للأقران ومن قوة الروم، وغاب عنهم أن الله الذي خلقهم أعظم منهم وأكبر وجنوده أقوى وأكثر، **والثانية** بعد وفاتك بقهر خليفتك رضي الله عنه لأهل الردة، ويمكن أن تكون الثانية: إخراب مسجد الضرار وهتك سرائرهم في شأنه وتفريق شملهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠٢ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يفزعوا إلى المعاذير الكاذبة ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٣﴾.

ولما كان من شأن الرضوان قبول القربان قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٤﴾ ولما كان إخراج المال شديدًا على النفوس، كان ربما استوقف الشيطان من لم يرسخ قدمه في الإيمان عن التوبة

وما يترتب عليها من الصدقة لعدم الجزم بأنها تقبل، فأتبعه بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

ولما كان هذا القسم من المؤمنين فكانت أعمالهم لاخفاء فيها قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولذا حذف «ثم» ولكنه لما كان للمذنبين أكد بالسين فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ أي: مؤخرون بين الرجاء والخوف ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

ثم أتبعهم من ألحق بهم الضرر بعد أن تشوفت النفس لمعرفتهم لمّا تقدّم قوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا﴾ باستجلابهم لبعض من يخدعونه من المؤمنين؛ ليأتي مسجدهم ويترك المسجد المؤسس على التقوى.

﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ أي: إعدادًا وانتظارًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الفاسق ليأتيهم فيقوّيهم على نفاقهم بأن يصير كهفًا يأوون إليه ورأسًا يتجمعون عليه، وذلك أنه كان من بني غنم بن عوف، فلما انهزم يوم حنين هرب إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا فإني آتٍ من قيصر بجنود ومُخرِجٌ محمدًا، وكانوا قد حسدوا إخوانهم بني عمرو بن عوف على مسجد قباء، فبنوا مسجد الضرار وأرسلوا إليه ﷺ ليصلي فيه، فلما نزلت الآية أمر ﷺ بهدمه وأن يتخذ مكانه كناسة تُلقى فيها القمامة.

وقد بان بهذا كله أن سبب فضيحتهم ما تضمنه فعلهم من عظيم الضرر للإسلام وأهله ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ثم قال ناهيًا عن إجابتهم إلى ما أرادوا به من التلبيس: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ﴾ أي: سواء تابوا أو لا، وأراد بعض المخلصين أن يأخذه أو لا، أي: لا بد من إخرابه ومحو أثره ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام تأسيسه، وفيه إشارة إلى عدم صلاحه لأن يُتخذ مصلى ولو من أهل الإخلاص؛ لأن تأسيسه كان لما هو مباعد له ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ﴾ أي: في أبدانهم وقلوبهم كمال الطهارة، بما أشار إليه الإظهار ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ بالإدغام، ندبًا إلى الطهارة ولو على أدنى الوجوه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١١٠﴾ أي: المطبوعين على ظلام البصائر، فهم لا يفكرون في شيء إلا جاء في غير موضعه وعلى غير نظام كخطوات الماشي في الظلام، والآية من الاحتباك: أثبت أولًا التقوى لأن أهل الإسلام أحق بها، فدلت على حذف ضدها ثانيًا، وأثبت ثانيًا ضعف البناء لأن مسجد الضرار أولى به، فدل على حذف ضده أولًا، فذكر النهاية المعقولة لأهلها والبداية المحسوسة للناظرين لها.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾ وهو إخبار عن أنه لا يعد مسجدًا بوجه وإنما هو في عداد بيوت الأصنام، فهو واجب الإعدام ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جامعًا لهم على الريبة في كل زمان ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي: إلا زمان تُقطَّع فيه قلوبهم وعزائمهم ويفرق شملهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١١﴾.

ولما استوفى تعالى في ذلك أقسام المنافقين وختمهم بهذه الطائفة التي ظهر فيها امتثاله ﷺ لقوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ أتبعه بتذكير المؤمنين ما أمرهم به من الجهاد فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ التي تفرّد بخلقها، وقدّمها لأنها الأعز ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ التي تفرد برزقها ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قتالًا يكون الدين محيطًا به وظرفًا فلا يكون فيه شائبة لغيره.

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ﴾ أي: خاصة لا غيره ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١١٢﴾ فهذه الآية تعليل للأمر بالنفر بالنفس والمال.

ولما ثبتت المعاقدة وأحكامها، وصف المعاقدين على طريق المدح للحث على أوصافهم فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ فابتدأ بما هو أساس العمل الصالح ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ ولما كان التزام الدين لا يعرف إلا بالإقرار باللسان قال: ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ ولما كان الإقرار باللسان لا يقبل إلا عند مطابقة القلب، تلاه بالسياحة التي تدور على الاتساع الذي منه توسيع القلب ليتجرد عن ضيق المألوفات إلى فضاء الإلهيات فقال: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾.

ولما كانت الصلاة نتيجة ذلك لجمعها لعمل القلب واللسان وغيرهما، وهي أعلى مجرِّد عن الوقوف مع المألوف، وكان أول مراتب التواضع القيام وأوسطها الركوع وغايتها السجود،

أشار إليها بقوله مخصصًا لها بالذكر تنبيهًا على أن المراد من الصلاة نهاية الخضوع: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ والعرب إذا أتبعت بعض الصفات بعضًا من غير عطف علم أنها غير تامة، فإذا عطفتها أرادت التمكن فيها والتمام، فأعلم سبحانه أن المراد فيما تقدم من الأوصاف الإتيان بما أمكن منها، فأتى بها تباعًا دون عطف.

وأشار إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند الحدود لا يقنع منه إلا بالتمام لأن المقصر في شيء من ذلك إما راضٍ بهدم الدين وإما هادم بنفسه، فيجب التجرد التام فيه؛ لأن النهي أصعب أقسام العبادة؛ لأنه متعلق بالغير وهو مثير للغضب موجب للحمية فربما كان عنه ضرب وقتل، فلذلك عطفها ولم يتبعها فقال: ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ﴾ أي: بغاية الجد ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ولما كان فاعل الخير لا ينفعه فعله إلا باستمراره عليه إلى الموت أتبعه قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

والحاصل: أن **الوصف الأول** للتجرد عن ربقة مألوف خاص وهو شرك المعصية، **والثاني** للتجرد عن قيود العادات إلى فضاء العبادات، **والثالث** لبلوغ الغاية في تهذيب الظاهر، **والرابع** للتوسع إلى التجرد عن قيود الباطن، **والخامس والسادس** للجمع بين كمال الباطن والظاهر، **والسابع** لإفاضة ذلك على الغير، **والثامن** للدوام على تلك الحدود بترك جميع القيود، فمقصود الآية العروج من الحضيض الجسماني إلى الشرف الروحاني.

وفي ختم الآيتين بالبشارة تارة من الخالق في قوله: ﴿فاستبشروا﴾ وتارة من أكمل الخلائق في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٣﴾ أعظم مزية للمؤمنين، وفي جعل الأولى من الله أعظم ترغيب في الجهاد.

ولما ثبت بهذه الآية في تقديم الجار: أن المبايعة وقعت على تخصيص الجنة بالمؤمنين، ثبت أنه لا يجوز أن يدخلها غيرهم، وأن غيرهم أصحاب النار؛ لأنه قد علم أن الآخرة داران: جنة ونار، فوجب التبرؤ منهم فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ فإن الاستغفار معناه محو الذنوب حتى ينجو صاحبها من النار، وما ينبغي لهم أن يكون لهم إليهم التفات فإن ذلك ربما جر إلى ملاينة تفتر عن القتال المبايَع عليه.

وتقييد النهي بالتبيين يدل على جوازه قبل ذلك لعله يقبل إلى الإيمان فيُغفر له كما كان من الخليل ﷺ لأبيه، ولذا قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ﴾ أي: أكره نفسه على البراءة ﴿مِنۡهُۚ﴾ ثم علل ما أفهمه «التفعّل» من المعالجة بقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٥﴾.

ولما كان الاستغفار للمشركين عظيمًا وفيه نوع ولاية لهم، أظهر سبحانه للمؤمنين ما منّ عليهم به من عدم المؤاخذة بالإقدام عليه؛ تهويلًا له وقطعًا لما بين أوج الإيمان وحضيض الكفران بكل اعتبار فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ ولما كان الذي يأمر بسلوك طريق ثم يترك فيها ما يحتاج إلى البيان إنما يؤتى عليه من الجهل أو النسيان، نفى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٦﴾ فهو يبين لكم كل ما تهتدون به، وما تركه فهو رحمة لكم.

ثم علل كمال علمه بشمول قدرته فهو ينصر وينتقم ممن يريد، فلا ينبغي لأحد أن يحب إلا فيه ولا يبغض إلا فيه ولا يهتم بعداوة أحد ممن عاداه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ بكل معنى فهو الذي أحياكم وغيركم الحياة الجسمانية وخصكم أنتم بالحياة الإيمانية ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٧﴾ وفيه تهديد لمن أقدم على ما ينبغي أن يتقي لا سيما الملاينة لأعداء الله.

ثم أقام الدليل على ولايته فقال: ﴿۞لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ وسماها ساعة تهوينًا لأوقات الكروب وتشجيعًا على مواقعة المكاره فإن أمدها يسير وأجرها عظيم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من عظيم ما نالهم من الشدائد فتميل عن الحق، فرجع سبحانه بالجميع إلى ما كانوا عليه قبيل مقاربة الزيغ من مباعدته ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وعبّر بـ«ثم» لوصولهم إلى حالة يبعد معها الثبات فضلًا عن مباعدة الزلات، فثبّتها حتى عادت كالحديد من غير سبب ظاهر من جيش أو غيره، فثبت بذلك أنه مالك الملك ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٨﴾.

ولما صرح بالتوبة على من قارب الزيغ أتبعه التوبة على من وقع منه، فقال غير مصرح به تعليمًا للأدب وجبرًا للخواطر المنكسرة: ﴿وَ﴾ لقد تاب الله ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ بالهجران ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ بالهم والغم من شدة ما لاقوا من الهجران ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: أيقنوا، ولعله عبر به لأنهم لشدة الحيرة

كانت قلوبهم لا تستقر على حال ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: ليرجعوا إلى ما كانوا عليه من الإحسان، وعبر بـ«ثم» إشارة إلى عظيم ما قاسوا وامتنانًا عليهم بالتوبة، وإنما خص هؤلاء بالإرجاء لأمر الله؛ لعلو مقامهم بما لهم من السابقة، فالمخالفة اليسيرة منهم أعظم من الكثير من غيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ولعله أخرج الأمر مخرج العموم ليشمل كل مؤمن، فمن كان مقصرًا كانت آمرة له باللحاق، ومن كان مسابقًا كانت حاثة له على حفظ المقام.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ ولما كان فاعل هذه الأشياء مقدمًا على المعاطب، أشير على وجه التأكيد في جملة اسمية إلى أنه محسن فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ أما في حق نفسه فبتصديق إيمانه بطاعته، وأما في حق المؤمنين فبحمايتهم عن طمع الكافرين، وأما في حق الكفار فبحملهم على الإيمان بغاية الإمكان.

ولما كانت المشقة بالإنفاق ووطئ مطلق الأرض الذي قد لا يلزم منه وصول إلى ما يغيظ العدو دون المشقة الحاصلة في النفس بالظمأ وما معه من فعل ما يغيظ العدو وينقصه، قدم ذلك على قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ مضاعفًا على قدر الثبات، وأكد فاصلة الأولى دون هذه لزيادة تلك في المشقة والنفع ولذا صرح فيها بالأجر والعمل الصالح، نبه على ذلك أبو حيان، ومن عند ﴿إن الله اشترى﴾ شرع في عطف الآخر على الأول الذي مضمونه البراءة من المشركين والاجتهاد في قتالهم بعد انقضاء مدتهم حيث وجدوا.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ﴾ وهو تعليم لما هو الأنسب بالدين والدنيا من انقسام الناس قسمين: قسمًا للجهاد وقسمًا للنفقة وحفظ الأموال والأولاد ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: ناس كثير يسهل افتراقهم ﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: ناس يحفون بالنبي ﷺ ويلزمونه، وكأنه عبر به للحث على كثرة النافرين ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ ولما كان من العلم

بشارة ونذارة وكان الإنسان لنقصه أحوج إلى النذارة خصها بالذكر فقال: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ ثم بين غاية العلم مشيرًا إلى أن من قصد غيرها من ترفع أو افتخار فقد ضل فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٣﴾.

[ولما أمر بقتال المشركين كافة أرشدهم إلى الطريق الأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب فقال][57]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ لأن الجهاد معروف وإحسان والأقربون أولى بالمعروف، ولتبعدوهم عن بلادكم فيكثر صلاحكم ويقل فسادكم، ولتجمعوا بالتفقه والقتال بين جهاد الحجة والسيف، مع الاحتراس من أن يبقى وراءكم من تخشون كيده إذا قاتلتم ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ لأن ذلك أهيب في صدورهم وأكف عن فجورهم، وهي تجمع الجراءة والصبر على القتال وشدة العدواة، ولما كان التقدير: ليكن ذلك مع التقوى لا للدنيا فإنها ملاك الأمر كله، قال منبهًا عليه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٤﴾.

ولما كان من التقوى: تجديد الإيمان كلما نزل شيء من القرآن، وكان قد ذكر القاعد عن الجهاد في قوله: ﴿وإذا أُنزلت سورة أن آمنوا بالله﴾ [التوبة: ٨٦] الآية، التفت إلى ذلك ليذكر القسم الآخر وهو القاعد عن الإيمان فقال: ﴿وَإِذَا مَا﴾ وأكد بزيادة النافي تنبيهًا على فضل الإيمان ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ إيهامًا لأنهم متصفون بأصل الإيمان، هذا ما يظهرون تسترًا، وأما حقيقة حالهم عند أمثالهم فالاستهزاء، استبعادًا لكونها تزيد أحدًا في حاله شيئًا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: فساد معنوي يؤدي إلى خبث العقيدة، ولذا عبر عنه بالرجس فقال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ أي: اضطرابًا موجبًا للشك ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: شكهم الذي كان في غيرها، وسمي الشك في الدين مرضًا؛ لأنه فساد في الروح يحتاج إلى علاج كفساد البدن، ومرض القلب أعضل وعلاجه أعسر وأطباؤه أقل ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٦ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يخالطون من الحوادث والنوازل ما يفضح نفاقهم ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

---

(٥٧) مفاتيح الغيب ٨/ ٤٢٥.

ولما كان عدم توبتهم مع فتنتهم على هذا الوجه مستبعدًا أشار إليه بـ«ثم» فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فلولا أن رجسهم في زيادة لأوشك تكرار الفتنة أن يوهيه إلى أن يزيله، ولكنه كلما أوهى شيئًا خلقوا مثله أو أكثر بسبب الزيادات المترتبة على نجوم القرآن، فالآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم ﴿ويعفُ عن كثير﴾ [الشورى: ٣٤].

ثم قال تأكيدًا لزيادة كفرهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: من المؤمنين إن انصرفتم، فإنه يشق علينا سماع مثل هذا وأن يطلعوا عليه، ولما كان انصرافهم حينئذ مستهجنًا أشار إلى شدة قبحه بـ«ثم» فقال: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ وإن كانوا أقوياء على ما يحاولونه فإنهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ وهذا دليل على ختام الآية قبلها.

وهاتان الآيتان المختتمتان بـ﴿لا يفقهون﴾[٥٨] التاليتان للأمر بالجهاد في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ الموازي لـ﴿انفروا خفافًا وثقالًا﴾ الآية = قد احتوتا مع وجازتهما على حاصل أوصاف المنافقين التالية لآية: ﴿انفروا﴾ المختتم ما هو العام منها في أهل الحاضرة في قوله: ﴿استأذنك أولو الطول منهم﴾ بـ﴿يفقهون﴾ ثم عند إعادة ذكرهم بـ﴿لا يعلمون﴾، وتصويب هاتين الآيتين إلى أهل الحاضرة ظاهر؛ لكونهم ممن يحضر نزول الذكر كثيرًا مع احتمالهما للعموم، والختم هنا بـ﴿لا يفقهون﴾ أنسب؛ لأن مقام زيادة الإيمان بالنسبة إلى هؤلاء يقتضي فكرًا وتأملًا.

ولما أُمر ﷺ أن يبلغ هذه الأشياء الشاقة من أمر هذه السورة وكان المنافقون يكرهون ذلك فينصرفون، عرّفهم أن الأمر كان يقتضي محبتهم لهذا الداعي لهم المقتضي لملازمته، وأن أحواله الداعية لهم إلى محبته أعظم من أحوال آبائهم التي أوجبت لهم منهم من المحبة وعليهم من الحقوق ما هم مفتخرون بالتلبس به فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ والعنت: لحاق الأذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدي للمخرج منه.

---

(٥٨) الأولى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ الآية: ٨٧.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيّ، قال الرماني: "وهو من الحساب لأنهسبحانه يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمته مالا يبلغ إلى حد ونهاية".

وإنما كان كافيًا لأنه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا مكافئ له فلا راد لأمره، وذلك موجب لقصر الرغائب عليه، ولذا قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ﴾ ولما كان في سياق القهر والكبرياء بالبراءة من الكفار والكفاية للأبرار، كان المقام بالعظمة أنسب كآية النمل فقال: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾ أي: المحيط بجميع الأجسام.

فثبت أن ربه هو الأعظم على الإطلاق وكل شيء في قبضته، وإذا كان الكافي فأنا بريء ممن تولى في كل زمان ومكان، فقد عانق آخر السورة أولها، والله تعالى أعلم.

سورة يونس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها وصف الكتاب بأنه من عند الله لحكمته، وأنه ليس إلا من عنده سبحانه لأن غيره لا يقدر على شيء منه، وذلك دال على أنه واحد في ملكه وأمره، وتمام الدليل على هذا قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا عند المخايل كشف عنهم، ولو كان الآتي بالعذاب غير الله لكان إيمانهم به موجبًا للإيقاع بهم، ودل ذلك على أن عذاب غيرهم إنما هو من عند الله لكفرهم؛ لما اتسق من ذلك طردًا بأنه كلما وجد الإصرار على التكذيب وجد العذاب، وعكسًا بأنه كلما انتفى التكذيب في وقت قبول التوبة انتفى العذاب.

لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ هذا الكتاب وختم التوبة بأنه يزيد كل أحد مما هو ملائم له ويبعده عما هو منافر له، أعاد سبحانه القول في شأنه فقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ فكان ما مضى من كونه من عند الله كافٍ في وجوب اتباعه، وما هنا تأكيد الوجوب بكونه مع ذلك حكيمًا، والحكيم: الناطق بالحكمة، استعير له ذلك لأنه يؤدي إلى المعرفة التي يميز بها طريق النجاة من طريق الهلاك، ويحكم بالعدل في كل نازلة، ومحكِمٌ لما أتى به مانعٌ له من الفساد.

قال ابن الزبير: "لما تضمنت براءة ما لرسول الله ﷺ من مزايا السبق وانطوت هي والأنفال على قهره أعداءه ونصره عليهم، كان ذلك مظنة لتعجب المرتاب وتحرك ساكن الحسد من العدو العظيم، قال تعالى: ﴿أكان للناس عجبًا﴾ الآية، ثم قال: ﴿إن ربكم الله﴾ الآيات، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه! وإذا كان الكل ملكه وخلقه، فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد".

ولما كان كونه من عند الله مع كونه حكيمًا، موجبًا لقبوله والسرور به؛ لما تقرر في العقول والفطر من أنه سبحانه الخالق المدبّر، كان ذلك موضع أن يقال: ما كان حال من تلي عليهم؟ فبينه بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ أي: أعمالًا حقة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ فجاؤوا بما هو في غاية البعد عن وصفه، فإن السحر شر محض ليس فيه شيء من الحكمة فضلًا عن أن يمتطي الذروة منه.

ثم شرع يستدل على بطلان قولهم وعلى أنه من عنده من غير شبهة وعلى أن الرسالة لا عجب فيها؛ لأنه تعالى خلق الوجود كله وهو نافذ الأمر فيه، وعلى أنه لم يخلق من فيه من العقلاء سدى؛ لأنه حكيم، فلا بد من رسول يخبرهم بما يرضيه وما يغضبه لتقوم بذلك الحجة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لحكمة أرادها، على أنه وقت يسير لا يَفعل مثل ذلك في مثله إلا من لا يعجزه شيء ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ولما كان هذا الخلق مفتقرًا إلى التدبير قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ فلا يخرج عن تدبيره أمر ولا يغلبه شيء، فبطل قولهم في الأصنام.

ولما تقرر ما وصف به من العظمة التي لا يشاركه فيها أحد، وجب أن يعبد عبادة لا يشاركه فيها شيء فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: وحده، ولما كانت الأدلة على استحقاقه سبحانه للإفراد بها ظاهرة جدًا، أنكر عليهم التوقف عنها والاحتياج فيها إلى بروز الأمر بها فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ ولو أدنى تذكر، بما أشار إليه الإدغام.

فلما تقرر أنه بدأ الخلق تقرر أنه قادر على إعادته فقال: ﴿۞إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ فعُلم قطعًا أنه لا بد من الرسول، فاستعدوا للقاء هذا الملك الأعظم بكل ما أمركم به الرسول ﷺ ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

ثم شرع يقرر ذلك في سياق مذكر بالنعم التي يجب شكرها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فعلم أنه قادر على إيجاد الساعة كذلك إذ لا فرق، وإذا كان خلقه كذلك، فكيف يكون أمرُه الناشئ عنه الخلقُ غيرَ الخلقِ بأن يكون من السحر الذي مبناه على التمويه والتخييل الذي هو عين الباطل! ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

ولما استدل على القدرة على البعث بإيجاد الملوين، أكّد ذلك لإنكارهم أن يكون فيه دلالة فقال: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ ومن تأمل تغير الأجرام الكبار كان جديرًا أن يخاف من تغير أحواله واضطراب أموره فيتقي الله، ونبه بما خلق في السماوات والأرض على وجوه الدلالات؛ لأن الدلالة في الشيء قد تكون بخلقه أو اختلاف صورته أو حسن منظره أو كثرة نفعه أو عظمه أو غير ذلك.

ولما أشار إلى انقراض الدنيا وقام الدليل القطعي على المعاد، عقّبها بعيب من اطمأن إليها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ ثم أتبعه القسم الآخر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ أي: بسبب تصديقهم وإذعانهم لمعرفة الآيات التي غفل عنها الذين لا يرجون اللقاء ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ يعني أن التنزيه عن النقص أوجب لهم السلامة.

ولما ختم بتنزهه تعالى دل على ذلك بلطفه في معاملته من أنه لا يفعل شيئًا قبل أوانه؛ لأن الاستعجال من سمات الاحتياج فقال: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ﴾ ووضع موضعَ الضمير؛ تخصيصًا وتنبيهًا على ما أوجب لهم الإعراض والجرأة قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١﴾.

[ولما حكى عنهم استعجالهم في نزول العذاب، بين أنهم كاذبون في ذلك؛ لأنه لو نزل بالإنسان أدنى مكروه لتضرع إلى الله في إزالته][٥٩] فثبت أنه عند البلاء غير صابر، وعند النجاة غير شاكر، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: مضطجعًا للراحة ﴿أَوۡ قَاعِدًا﴾ أي: متوسطًا في أحواله ﴿أَوۡ قَآئِمٗا﴾ أي: في غاية السعي في مهماته، ويجوز أن يكون عبر بالأحوال الثلاثة عن مراتب الضر، وأشار بالجنب إلى غلبة الضر بحيث لا يستطيع جلوسًا، وأشار بالفاء إلى قرب زمن الكشف فقال: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أي: في كل ما يريده لاهيًا عنا بكل اعتبار ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ فهذه الآية في بيان ضعف الإنسان وسوء عبوديته، والتي قبلها في بيان قدرة الله وحسن ربوبيته، ثم بيّن علة فعله ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٢﴾.

ولما كان ما تقدم صريحًا في الإمهال للظالمين، أتبعه بقوله مهددًا لهم رادعًا عن اتباع الزينة مؤكدًا؛ لأنهم ينكرون أن هلاكهم لأجل ظلمهم: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ تنبيهًا لمن قد يطلب أن يريهم تعالى بوادر العذاب أو ما اقترحوه من الآيات ليؤمنوا، فكأنه قيل: هل يختص ذلك

---

(٥٩) مفاتيح الغيب ٣/ ٤٢٣.

بالأمم الماضية؟ قيل: بل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٣﴾ لأن السبب هو العراقة في الإجرام وهو قطع ما ينبغي وصله، فحيث ما وجد وجد جزاؤه. ولما كان ذلك عامًا لكل مجرم، أتبعه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٤﴾

ولما تقدم أن من قضى بشقاوته لا يؤمن، قال بيانًا لذلك: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ وأبداه مضارعًا إشارة إلى أنهم يقولون ذلك ولو تكررت التلاوة ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ في موضع الضمير تنبيهًا على أن هذا الوصف علة قولهم ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ والإتيان بالغير قد يكون مع وجود الأول، والتبديل لا يكون إلا برفع الأول ووضع غيره مكانه، وقد كانوا عالمين بأنه ﷺ مثلهم في العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا أن يجيبهم إلى التغيير فيبطل مدعاه أو يهلك.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ ثم أتيتكم بهذا الكتاب الأحكم وقد عجزتم وأنتم أفصح الناس عن معارضة آية منه، فعُلم أنه من عند الله، فسبب عنه إنكار العقل فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ إشارة إلى أنه يكفي في ذلك كون الناظر من أهل العقل.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧ وَيَعْبُدُونَ﴾ حال من ﴿الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: قالوا ذلك حال عبادتهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ومن حق المعبود أن يكون مثيبًا على الطاعة معاقبًا على المعصية وإلا كانت عبادته عبثًا، وفي هذا غاية التبكيت لهم بمنابذة العقل مع ادعائهم رسوخ الأقدام فيه ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان الحال مقتضيًا لغاية الإيضاح كرر النافي فقال: ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفيه من الاستخفاف بعقولهم مما لا يقدرون على الطعن فيه بوجه ما يخجل الجماد، فإن ما لا يكون معلومًا لله لا يكون له وجود أصلًا ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾.

ثم بين كماله سبحانه وأن هذا الدين الباطل حادث ببيان أن الناس كانوا مجتمعين على طاعته ثم خالفوا أمره فلم يقطع إحسانه إليهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في ذلك على عهد نوح ﷺ بسبب ما لهم من النوس ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن

﴿رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا﴾ ولما لم يبنِ الكلام على الاتخاذ الذي محطه معالجة بالباطن، لم يذكر الضمير بخلاف الزمر[٦٠] فقال: ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩﴾ وأشار ذلك إلى أن هذا الأمر الذي دُعوا إليه هو -مع ظهور دلائله واستقامة مناهجه وانقياد الفطر إليه- أصل ما كان العباد عليه، وما هم فيه الآن هو الطارئ مع ظهور فساده ووضوح سقمه.

ثم قال عطفًا على قوله: ﴿ويعبدون﴾: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وذلك إما لطلبهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان، أو لكونهم لم يعدوا ما أنزل عليه آيات فضلًا عن كونها بينات، فلا عناد أعظم من هذا ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٢٠﴾.

ولما كان طلبهم محركًا إلى ترجي إجابته، أتبعه بما يبين أن ذلك غير نافع لهم لأنه محض تعنت، مبينًا أن لهم آية عظمى من أنفسهم لا يحتاجون معها إلى التعنت بطلب آية، وهي دالة على مقصود السورة وهو الوحدانية، وأن إشراكهم إنما هو لنقص غرائزهم الموجب لكفران الإحسان فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بأن يصرفوها عن دلالتها على من أرسلها كأن ينسبوها إلى الأسباب.

ولما دلت هذه الجملة على إسراعهم بالمكر من ثلاثة أوجه: التعبير بالذوق الذي هو أول المخالطة، و«من» التي هي للابتداء، و«إذا» الفجائية قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ بأن قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم، نبه عليه أبو حيان ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١﴾ فإذا كانوا لا يمكرون مكرًا إلا ورسله مطلعون عليه فكيف به سبحانه؟

ثم أخذ يبين أسرعية مكره في مثال دال على ما في الآية قبلها من نقله لعباده من الضر إلى النعمة ومن سرعة تقلبهم فقال: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾ وقد بيّنت ما توجبه البديهة من الفزع عند الشدة إلى كاشفها.

ثم أتبعه بكذبهم في ذلك مع ادعائهم أنهم أبعد الناس عنه وأوفاهم للإحسان فقال: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الكامل، فلا يزال الباغي مذمومًا

(٦٠) في قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا﴾ إلى ﴿إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون﴾ الآية: ٣.

حتى يكون على الحق الذي لا باطل فيه بوجه، وعبّر في الأولى بالخطاب تنبيهًا على أنه تعالى جعلهم -بما هيأ فيهم من القوى- أهلًا لخطابه، ثم أعرض عنهم في الثانية إشارة إلى أنهم استحقوا الإعراض لإعراضهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ولما كان السياق لإثبات البعث وتخويفهم، وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا، وللتنفير من البغي والتعزز بغير الحق، وكانت الأمثال أجلى للإشكال قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ أي: ظنًا مؤكدًا جدًا، بما أفاده العدول عن «قدرتهم» إلى ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ فكان حال الدنيا في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها بعد عظيم إقباله كحال النبات في جفافه وذهابه حطامًا بعد ما التف وزين الأرض بألوانه ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ولما بين أن الدار التي رضوا بها وأطمأنوا إليها دار المصائب وأنها ظل زائل تحذيرًا منها وتنفيرًا عنها، بين أن الدار التي دعا إليها سالمة من كل نصب وهم ووصب، ثابتة بلا زوال فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم قسمهم في الجزاء كما انقسموا في الانقياد للمراد فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لا يبرحون؛ لأنهم لا يريدون ذلك لطيبها ولا يراد بهم. ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۢ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ حتى ينفذ فيكم أمرنا، إظهارًا لضعف معبوداتهم وتحسيرًا لهم ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ أي: أزلنا إزالة كثيرة مفرّقة ما كان ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ في الدنيا من الوصلة والألفة ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لأنا لا نستحق ذلك.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ يشهد أنكم لم تخصوا أحدًا منه ومنا بعبادة بل كنتم مذبذبين، وهذا إشارة إلى أن العبادة المشوبة لا اعتداد بها، وأن من استحق العبادة استحق

الإخلاص فيها، وأنه لا يستحق ذلك إلا القادر على كشف الكرب ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩﴾ فلم نأمر بها ولا نرضاها فاللوم عليكم دوننا، وذلك افتداء من موقف الذل، أو أنهم لما تخيلوا في الشركاء صفات عبدوها لأجلها وكانت خالية عنها، صح النفي لأنهم عبدوا ذوات موصوفة بصفات لا وجود لها في الأعيان.

أو يقال وهو أحسن: ﴿وقال شركاؤهم﴾ طلبًا لأن يخفف عنهم منه بتوزيعه عليهم وعلى كل من عبده من غيرهم ﴿ما كنتم إيانا﴾ أي: خاصة ﴿تعبدون﴾ بل كنتم تعبدون أيضًا غيرنا، وهذا يعم والله كل من يرائيه غيرُه بعملٍ وهو يعلم أنه يرائيه، فيقره ولا ينكره عليه.

ولما أخبر عن حال المشركين تشوفت النفس إلى معرفة حال غيرهم فقال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْۚ﴾ أي: قدمت من العمل فيُعرف هل كان يؤدي إلى سعادة أو شقاوة ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾ من أن معبوداتهم شركاء.

ولما ثبت أن شركاءهم مربوبون مقهورون وأنه تعالى المولى الحق، أتبعه ذكر الدلائل على فساد مذهبهم، فوبخهم بأن وجَّه السؤال إليهم عما هم معترفون بأنه مختص به ويدل قطعًا على تفرده بجميع الأمر فقال: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ أي: تجعلون وقاية بينكم وبين عقابه على اعترافكم بتوحيده في ربوبيته وإشراككم غيره في إلهيته.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾ لا ريب فيه؛ لتفرده بالصفات الماضية ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما حقت الربوبية له قطعًا بفعل هذه الأمور -لأنه لو كان قادر يساويه في مقدوره لأمكن أن يمانعه وبطل أن يكون قادرًا- حق أن من زاغ عن الحق كان في الضلال، و﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ والمعنى على قراءة الجمع: أنه لا شيء من كلماته يناقض الكلمة التي أوجبت عذابهم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ ثم علل ذلك الحقوق بقوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ وعبر بالفسق؛ لأن السياق للخروج عن دائرة الدين الحق في قوله: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾ ولما فرغ مما يتعلق بأحوال الجسد، أمره أن يسألهم عن غاية ذلك والمقصود

منه من أحوال الروح فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ﴾ أي: بالبيان أو التوفيق ولو بعد حين ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي﴾ ولما كان قادرًا على غاية الإسراع عبر باللام فقال: ﴿لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ ولو على أبعد الوجوه ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ أي: يهتدي فضلًا عن أن يهدي غيره، وإدغام تاء الافتعال للإيماء إلى انتفاء جميع أسباب الهداية حتى أدانيها ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ أي: يهديه هاد غيره كائنًا من كان.

﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ ولما كان الظن لا ينكر استعماله في الشرائع نبه على أن محله إنما هو حيث لا يوجد نص على المقصود، وأما إذا وجد فإنه لا يجوز العدول عنه ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: بدله، ولا يكون بدل الحق إلا إذا كان تابعه مخالفًا فيه لقاطع يعمله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

ولما أثبت أن مذاهبهم تابعة للهوى لا للعلم، أتبعه ما هو من وادي اتباعهم للظنون ردًا لقولهم في القرآن: إنه مفترى؛ لأنه لا سند لهم في ذلك ولا شبهة بل مجرد هوى فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: قبله من الكتب، والدليل على ذلك الوجود، فإن أهل الكتابين عندهم وهم متمكنون من سؤالهم، فلو وجدوا مغمزًا ما لقدحوا به، فدل عدم قدحهم على التصادق قطعًا، ثم وصفه بما هو نهاية العلم فقال: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فهو ناظر إلى ﴿أفمن يهدي إلى الحق﴾ الآية، فهو برهان على أنه الهادي وحده فهو الحقيق بالاتباع والفصل بين الملتبسات حتى تظهر على حقها.

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ وهي كما قال الحرالي: "تمام جملة من المسموع تحيط بمعنى تام، بمنزلة إحاطة السور بالمدنية"، ووصفها بـ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ أي: في حسن النظم وصحة المعاني ومصادقة الكتب وتفصيل العلوم؛ لأنكم مثلي في العربية وتزيدون بالكتابة ومخالطة العلماء، ولما كانوا قد جزموا في هذه السورة بأنه افتراه لم يأتِ بـ«من»؛ لأن المراد كونها مثل القرآن كله، ولذلك وسع لهم في الاستعانة بجميع من قدروا عليه فقال: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ وحقق أن هذا القرآن من عنده سبحانه باستثنائه في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾.

ولما استدل على ذلك، وكان الدليل إنما يقام على من عرضت له شبهة، وكان قولهم ﴿افتراه﴾ مجرد عناد، نبه عليه وعلى أنه إنما أقام الدليل لإظهاره لا لشبهة عندهم = بالإضراب عن

قولهم فقال: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ نفورًا مما يخالف دينهم، ولما كان لا بد من وقوع أخباره على ما هي عليه قال: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ حتى يعلموا أصدق هي أم كذب، فإنه معجز في نظمه وصدق أخباره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا التكذيب العظيم قبل تدبير المعجز ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين رسخوا في وضع الأشياء في غير مواضعها حتى كذبوا من لا يجوز عليه الكذب.

ولما آذن باستئصالهم لتكمل المشابهة للأولين وكان ﷺ شديد الحرص على إيمانهم، أتبعه تعالى بقوله بيانًا لأن علمه بانقسامهم أوجب عدم استئصالهم: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤٠ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١﴾.

ثم قسّم الأخير إلى قسمين فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن﴾ ولما كان المستمع إليه أكثر، وكان إلقاء السمع بغاية الجهد يمكن إخفاؤه بخلاف الإبصار، عبر بالافتعال وجمع فقال: ﴿يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ ولما كان ﷺ يريد بإسماعهم هدايتهم، أنكر إسماعهم المترتب عليه الهدى فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ لأنهم لا ينتفعون باستماعهم؛ لأنهم يسمعون للرد لا للفهم، فكانوا بذلك كالمجانين فلذا قال: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٢﴾ لأن المانع من السمع: الصمم، ومن الفهم: عدم العقل، فصاروا شرًا من البهائم؛ لأنها وإن كانت لا تعقل فهي تسمع.

وأفرد في النظر دلالة على قلة الناظر فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ وهو غير منتفع بنظره؛ لما جعل عليه من الغشاوة فكان كالأعمى الذي زاد على عدم بصره عدم العقل، فلا بصر ولا بصيرة، ولذا أنكر بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٤٣﴾ فلا تمكن هدايتهم؛ لأن هداية الطريق الحسي لا تمكن إلا بالبصر، وهداية الطريق المعنوي لا تمكن إلا بالبصيرة.

[ولما كان عماهم والطبع على قلوبهم عقوبة من الله على إعراضهم عن الحق قال][٦١]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٤﴾.

ثم قال مهددًا لهؤلاء: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: لم تفدهم تلك الساعة أكثر من أن عرفوا بعضهم ليزدادوا حسرة بالعجز عن التناصر

(٦١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١٤، دار ابن الجوزي، بتصرف.

كما كانوا يفعلون في الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ﴾ أي: جبلة وطبعًا ﴿مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾ مشيرًا إلى تسفيههم فيما يدّعون البصر فيه من أمر المتجر وأنواع الهداية.

ولما كان إخبارُ الصادق بهلاك الأعداء مقرًا للعين ومشاهدتُه أقر قال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريك فيما هنالك ما هو أقر لعينك ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ ولما كان التهديد فيها بالعذاب غير معيّن له ﷺ في الدنيا أو في الآخرة، أتبعها بما هو صالح لهما بالنسبة إلى كل رسول فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧﴾.

ثم حكى جوابهم عن ذلك التهديد فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ ولما كان السياق للنقمة قدم الضر فقال: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَا أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩ قُلْ﴾ إعلامًا بأن الذي يطلبونه ضرر لهم محض لا نفع فيه ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ في الدنيا ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾ إذ سنة الله أن المكذب لا يثبت إلا عند مخايله، وأما إذا وقع فإنه يؤمن حيث لا ينفعه الإيمان، وهذا معنى التراخي في قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾.

ولما ذكر العذاب الدنيوي، أتبعه ما بعده إعلامًا بأنه لا يقتصر عليه في جزائهم فقال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ وأشار بـ«ثم» إلى تراخيه عن الإهلاك في الدنيا بالمكث في البرزخ أو إلى أنه أهول ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ أي: في الدنيا من العزم على الاستمرار على الكفر ولو طال المدى، فكان جزاؤكم الخلود في العذاب طبق النعل بالنعل.

ثم قال معجِّبًا وموبِّخًا لهم على استهزائهم: ﴿۞وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾.

ثم أخبرهم بظلمهم أيضًا بوضع الشيء في غير موضعه عند معاينة العذاب: بالسماح ببذل ما في الأرض حيث لا ينفع البذل، بعد ترك المأمور به وهو من أيسر الأشياء وأحسنها فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾.

ولما كان الحامل لملوك الدنيا على الظلم: العجز أو طلب التزيد في الملك، أشار إلى تنزهه عن ذلك بقوله مؤكدًا، سوقًا لهم مساق المنكر؛ لأنهم بعبادة الأصنام كالمنكرين لذلك: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان المقام للغنى عن الظلم، لم يحتج إلى تأكيد بإعادة النافي فقال: ﴿وَٱلْأَرْضِۗ﴾ ولا يظلم إلا ناقص الملك، ولا يخلف الوعد إلا ناقص القدرة ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لأنه تام القدرة والغنى فلا حامل له على الإخلاف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾ فهم لا يتدبرون الأدلة فلا ينقادون لشريعتنا. ﴿هُوَ يُحْيِۦ﴾ كما أنتم به مقرون ﴿وَيُمِيتُ﴾ كما أنتم له مشاهدون ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾.

ولما ثبت أن ذلك كله حق مباين للسحر، أقبل على الناس الذين قالوا في أول السورة: إنه سحر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: زاجر عظيم عن كل ما يشغل القلب عن الله من كل ما لا ينبغي وذلك هو الشريعة، ولما كان تناول المؤذي شديد الخطر، وهو لذيذ إلى النفس لما بينهما من ملاءمة النقص، وكان الانكفاف عنه أشق شيء عليها، رغبها في القبول بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: المحسن إليكم المدبر لمصالحكم بهذا القرآن ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ من أدواء الجهل، ويحصل بتطهير الباطن بعد التخلي عن الأخلاق الذميمة بالتحلي بالصفات الحميدة.

ولما كانت الروح إذا انصقلت مرآتها صارت قابلة لتجلي الأنوار عليها، وليس المانع من نزولها في كل قلب إلا صداء بعضها بتراكم الظلمات فيها من الإعراض والغفلة فكانت غير قابلة لانطباع الصور بها قال: ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق لأنه نور عظيم يقود ولا بد إلى الطريق الأقوم، ولما كان هذا النور إذا انتشر أفاض على أرواح الناقصين فيضَ النور من الشمس على العالم فينير كلَّ مقبل عليه قال: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وهذا للأنبياء عليهم السلام، ولما كان لا ينتفع بأنوارهم إلا من توجه إليهم قال: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ قال الإمام: "وهذا بخلاف ما نسبوه إليه من السحر، فإنه داء كله وضلال يجر إلى الشقاء".

ولما حثهم عليه؛ لمفارقته للسحر بثباته وعدم القدرة على زلزلته فضلًا عن إزالته، وزهدهم فيما هم عليه مقبلون من الحطام؛ لمشاركته للسحر في سرعة التحول والفناء، ولأنه يدعو إلى رذائل الأخلاق فهو أهل للزهد فيه والإعراض عنه، قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ قصر الفرح عليه دون ما يسرون به من الحطام، فإن السعادات الروحانية أفضل من الجسمانية ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ والعاقل يختار لتعبه الأفضل.

ولما وصف القرآن بما يقتضي استقامة المناهج وسداد الشرائع ووضوح المذاهب، أشار إلى أنهم كما خبطوا في الفرح فخصوه بما يفنى، فكذلك خبطوا في طريق الجمع(٦٢) فوعدوها على أنفسهم بأن حرموا بعض ما أحله، فمنعوا أنفسهم ما هم به فرحون دون أمر من الله، فنقصوا حظهم في الدنيا بهذا المنع، وفي الآخرة بكذبهم على ربهم في تحريمه، فقال سائقًا له على طريق السؤال الذي لا يجيبون عليه بغير الإقرار بالافتراء: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وعبر عن الخلق بالإنزال تنبيهًا على أنه شيء لا يمكن ادعاؤه لأصنامهم؛ لنزول أسبابه من موضع لا تعلق لهم به بوجه.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ على النحو الذي تقدم في الأنعام وغيرها ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ مع نسبتكم الافتراء إلي في هذا القرآن، وتقديم الجار لزيادة التشنيع عليهم، فإنهم أشد الناس تبرؤًا من الكذب، وقد خصوا الله -على تقدير التسليم لهم- بأن تعمدوا الكذب عليه.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بنعمٍ منها إنزال الكتب مفصلة وإرسال الرسل عليهم السلام لبيانها وطول إمهالهم على سوء أعمالهم، فكان شكره واجبًا عليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: الناس؛ لاضطراب ضمائرهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ولما وصف القرآن بما تقدم بعد إقامة الدليل على إعجازه، وأشار إلى أن ما تدينوا به يقدر كل واحد على تغييره بأحسن منه لكونه غير مبني على الحكمة، وكان قد أكثر في ذلك كله من الأمر له ﷺ بمحاجتهم، قال تسلية له وتقوية لهمته وزيادة في تهديدهم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إيذانًا بأنك بعيني في كل هذه المراجعات وغيرها من شؤونك، وهي كلها من كتابي المعجز الحكيم؛ لكونه من عندي فجلّ عن المعارضة فضلًا عن التغيير فضلًا عن الإتيان بما هو مثله فكيف بما هو أحسن منه!

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ ولما كان الكلام في أهل الأرض قدمها فقال: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولما لم يدع السياق إلى الجمع كما في سبأ، قال اكتفاءً بالمفرد الدال على الجنس:

---

(٦٢) بين الدنيا والآخرة، والله أعلم.

﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كل ما علا عن الأرض ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا﴾ وهو موجود ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ فثبت أن القرآن بعلمه فلو افتراه أحد عليه لأمكن منه.

ولما كان الأعداء معتقدين أنهم يهلكون حزب الله ولا يفوتوهم قال: ﴿۞أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ لأن قلوبهم معلقة بالله فلا يؤثر فيهم خوف ولا حزن أثرًا يقطع قلوبهم كما يعرض لغيرهم. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكملوا القوة العلمية ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ فكملوا القوة العملية. ولما شرح توليهم له بيّن توليه لهم فقال: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بظهور دينهم وخذلان عدوهم وبالرؤية الصالحة ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بسعادتهم وشقاء أعدائهم، ولما كان الغالب على أحوالهم في الدنيا الضيق، أكد بنفي الجنس لأن الجبابرة ينكرونه فقال: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾.

ولما كان الرسول ﷺ رأس الأولياء، عطف على بشارتهم قوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ أنهم يَغلِبون، وفي تكذيبك والاستهزاء بك وتهديدك، فإن ذلك قول يراد به تبديل كلمات الله وهيهات، وإلى هذا يرشد التعليل لهذا النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾ بضمائرهم وجميع أحوالهم فيجازيهم بما تقتضيه، وهو تعليل لتفرده بالعزة، والنهي في ﴿ولا يحزنك﴾ في اللفظ للقول وفي المعنى للسبب المؤدي إليه.

ولما كانت العزة لا تتم إلا بالقدرة، أثبت اختصاصه بالملك الذي لا يكون إلا بها، فقال مؤكدًا؛ لما يستلزمه إشراكهم من إنكار مضمون هذا الكلام: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وهو تعليل ثان لقوله: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أو للتفرد بالعزة، وعبر بـ«من» التي للعقلاء والمراد كل ما في الكون؛ لأن السياق لنفي العزة عن غيره والعقلاء بها أجدر، فنفيها عنهم نفي عن غيرهم بطريق الأولى وغُلِّبوا لشرفهم، ولذا تطلق «ما» التي هي لغيرهم في سياق هو بها أحق، ثم يراد بها العموم تغليبًا للأكثر ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾.

ثم أثبت أن من أشرك به خارِصٌ لكثرة الدلائل على وحدانيته ووضوحها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ وفيه أدلة واضحات على أنه مختص بالعزة فلا شريك له؛ لأن الشريك لا بد أن يقاسم شريكه شيئًا، وأما عند انتفاء ذلك فانتفاء الشركة أوضح من أن يستدل عليه.

ولما لم تكن لهم شبهة على ادعاء الولد لله سبحانه، ساق قولهم في ذلك مساق البيان لقوله: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ فقال: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ معجّبًا منهم في ذلك لمنافاته ما ثبت لله تعالى من الكمال، ولذا نزه نفسه فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ وبين غناه بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان سياق الاستدلال يقتضي التأكيد أعاد «ما» فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

ولما برهن على ذلك بكّتهم بنفي الحجة لهم فقال: ﴿إِنۡ﴾ أي: ما ﴿عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ لأن ما لا برهان عليه فهو جهل، فكيف بما قام الدليل على خلافه! ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾.

ولما تقدم سؤالهم الإتيان بما يقترحون من الآيات، ومضت الإشارة إلى أن تسييرهم في الفلك من أعظم الآيات وإن كانوا لإلفهم له قد نسوا ذلك، وبين أن متاع المفترين قليل؛ تخويفًا من شديد السطوة وعظيم الأخذ، عقبه بقصة قوم نوح لأنهم كانوا أطول الظالمين مدة وأكثرهم عدة ثم أخذوا أشد أخذة فقال: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ إعلامًا لهم بعظمة الله وحقارتهم؛ لأنهم أعرضوا عن الآيات وهم يعرفونها -بما دل عليه التعبير بالتذكير- فدل ذلك على عنادهم بالباطل، والمبطل لا يُخشى أمره لأن الباطل لا ثبات له.

ولذا قال: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: خفيًا لئلا أعارضكم، بل جاهروني به فإنه لا معارضة لي بغير الله الذي يستوي عنده السر والعلن ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ وكل ذلك لإظهار قلة المبالاة بهم للاعتماد على الله لأنه لا يعجزه شيء، ومعبوداتهم لا تغني شيئًا.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ﴾ بالبناء للمفعول؛ ليجعله عمدة الكلام بإقامته مقام الفاعل فقال: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ فأستسلم لكل ما يصيبني في الله، والحاصل أنه لم يكن بدعائه إياهم في موضع تهمة، لا سألهم غرضًا دنيويًا يزيده إن أقبلوا ولا ينقصه إن أدبروا، ولا أتى بشيء من عند نفسه ليظن أنه أخطأ فيه، ولا سلك به مسلكًا يُظن به استعباده إياهم في اتباعه، بل أعلمهم أنه أول مؤتمر بما أمرهم به.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: تنجية عظيمة لصدق اعتماده علينا ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ ولما كان هذا أمرًا باهرًا يتعظ به من له بصيرة قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

ولما لم يكن في قصص من بينه وبين موسى عليهم السلام مما يناسب مقصود هذه السورة إلا ما شاركوا فيه قوم نوح من أنهم لم تنفع الآيات من أريدت شقاوته منهم، ذكره سبحانه طاويًا لما عداه فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم﴾ أي: فتسبب عن استنادهم إلى عظمتنا أن جاؤوهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾ أي: قبل مجيء البينات لأنا طبعنا على قلوبهم، ويجوز أن يكون التقدير: من قبل مجيء الرسل إليهم، ويكون التكذيب أسند إليهم لأن آباءهم كذبوا لما بدلوا ما كان عندهم من الدين الصحيح، ورضوا هم بذلك استحسانًا له ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ٧٤﴾.

ولما كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون مناسبة لمقصود السورة أفصح بها، فقال دالًا على الطبع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ولما استقر في الأذهان بما مضى أن ديدن الأمم تكذيب من هو منهم حسدًا له، كان ربما ظن أن الرسول لو أتى غير قومه لكان الأمر على غير ذلك، فبين أن الحال واحد في القريب والغريب، فقال مقدمًا لقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: الأشراف من قومه، فإن الأطراف تبع لهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٧٥﴾.

وهو شديد المناسبة أيضًا لما تقدم من قول الكافرين «هذا سحر مبين» في نسبة موسى عليه السلام إليه وبيان حقيقة السحر في زواله وخيبة متعاطيه لإفساده إلى غير ذلك، هذا إلى مناسبة ما بين إهلاك القبط وقوم نوح بآية الغرق وأنه لم ينفع أحدًا منهم معاينة الآيات، ثم بيّن أن استكبارهم تسبب عنه طعنهم في معجزاته من غير تأمل فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ٧٦﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ عبر بالمضارع الدال على أنهم كرروه لينسخوا ما ثبت في قلوب الناس من عظمته، ونبه على أنهم بادروا إلى التكذيب من غير نظر ولا توقف بقوله: ﴿لَمَّا جَآءَكُمْۖ﴾ ثم كرر الإنكار بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾! فالآية من الاحتباك: ذكر القول في الأول دال على حذف مثله في الثاني، وذكر السحر في الثاني دال على حذف مثله في

الأول، ولما كان التقدير: أتقولون هذا وقد رأيتم فلاحه! بنى عليه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ لأن حاصل أمرهم تخييل وتمويه في الأباطيل.

فلما بيّن لهم ذلك عدلوا عن جوابه إلى الإخبار بما يتضمن أنهم لا يقرون بحقيته؛ لأنه يلزم عن ذلك ترك ما هم عليه من العلو وهم لا يتركونه، وأوهموا الضعفاء أن مراده عليه السلام الاستكبار، فقالوا معللين لاستكبارهم عن اتباعه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك أنت ولأخيك دوننا ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثم عطف على ﴿أجئتنا﴾: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ أو يكون عطفًا على نحو: فما نحن بموصليك إلى هذا الغرض، فأفردوه أولًا بالإنكار عليه في المجيء؛ ليضعف ويكف أخوه عن مساعدته، وأشركوه معه ثانيًا تأكيدًا لذلك الغرض وقطعًا لطمعه.

ولما لبسوا بوصفه بما هم به متصفون، أرادوا الزيادة في التلبيس بما يوهم أن ما أتى به سحر تمكن معارضته؛ إيقافًا للناس عن اتباعه فقال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾ أي: راسخون في صنعة إلقائه، إشارة إلى أن ما جاؤوا به ليس أهلًا لأن يلقى إليه بال ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ﴾؟ ثم بين أنه استفهام احتقار وإنكار فقال: ﴿ءَآلسِّحۡرُ﴾! والتعريف للعهد أو الحقيقة، ويجوز على قراءة ﴿السحر﴾ أن يقصد به الحصر، أي: هو السحر لا ما نسبتموه إليّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾.

ثم عطف عليه بيان إصلاحه عمل المصلحين فقال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢ *فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ بسبب ما فعل ليُعلم أن الآيات ليست سببًا للهداية إلا لمن أردنا ذلك منه، وبين أن الصغار أسرع إلى القبول بقوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ﴾ أي: شبان هم أهل لأن تُذرّ فيهم البركة ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ ولما كان إنكار الملأ إنما هو خوف فرعون أن يسلبهم رئاستهم، انحصر الخوف فيه فوحّد الضمير فقال: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ﴾ أي: قاهر متمكن، بما فتناه به من طاعة الناس له.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾ أي: لا تصبنا بما يظنون به تهاونك بنا فيزدادوا نفرة عن دينك لظنهم أنّا على الباطل، ولا تسلطهم

علينا مما يفتننا عن ديننا فيظنوا أنهم على الحق ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وفي دعائهم هذا إشارة إلى أن أمر الدين أهم من أمر النفس. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مصلى لتتعبدوا فيها مستترين عن الأعداء تخفيفًا من أسباب الخلاف ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جمعًا بين آلتي النصر: الصبر والصلاة، وتمرنًا على الدين وتثبيتًا له في القلب ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ولما كان ضلال فرعون وقومه بالزينة والمال إضلالًا لغيرهم، سأل موسى عليه السلام إزالة ذلك كله للراحة من شره فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ﴾ أكد لما للجهال من إنكار أن يكون عطاء الله سببًا للإهانة ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ﴾ أي: شدًا ظاهرًا، بما أشار إليه الفك ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ حيث لا ينفعهم الإيمان، فيجمعوا إلى ذل النفوس الذي طلبوا به اليوم العزّ الدائم: شدة الغضب بوضع الشيء في غير موضعه، المنتج لدوام ذلهم بالعقاب.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ولما كانت الطاعة وانتظار الفرج وإن طال زمنه أعظم أسباب الإجابة قال: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: فاثبتا على التعبد ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وعبر بما دل على ادعاء الرسوخ فيه لشدة ما أذله. ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تجيب حين لا تنفع الإجابة؛ لفوات الإيمان بالغيب الذي لا يصح أن يقع اسم الإيمان إلا عليه ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: في جميع زمان الدعوة الذي قبل هذا الوقت.

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: تنجية عظيمة، ولما كان ذلك سارًّا، وكانت المساءة بما يُفهم السرور إنكاءً، قال دالًا على أن ذلك بعد نزع روحه: ﴿بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ﴾ في أنك عبد ضعيف حقير، لست برب فضلًا عن أن تكون أعلى، ويعرفوا أن من عصى الملك أُخذ وإن كان أقوى الناس وأكثرهم جنودًا، والآية دليل على قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه﴾ [يونس: ٥٠] الآية، لو كان فرعون مثل قريش، فكيف ولا نسبة لقوتهم إلى قوته! ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لما عندهم من الاضطراب والأنس بأنفسهم ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ثم أشار إلى أن كثرة الغفلة في غير القبط أيضًا فقال: ﴿۞وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ولما كانوا كغيرهم، إذا كانوا على أمور يتواضعون عليها تقاربوا فيها وتوافقوا، وإذا كانوا على حدود حدها لهم المحسن إليهم وحده لم يلبثوا أن يختلفوا، عابهم الله بذلك فقال: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ فكان المقتضي لاجتماعهم على الله مفرِّقًا لهم على سبيل الشيطان؛ لخبث سرائرهم جمودًا مع المحسوس الفاني ونسيانًا للغائب الثابت، فكان أعظم زاجر عن طلب الآيات وظن أنها توجب الرد عن الغوايات ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾.

ولما كان ما مضى من آيات هذه السورة سببًا لنفي الشك عنها واليقين بمضامينها وكان ﷺ أشفق الخلق، كان ذلك محركًا لتمني الإجابة لما يقترحون، وكان طلب ذلك بعد الفطام عنه من أفعال الشك في الجملة فأريد صرف النفس عنه بالكلية فقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ ولم يرد بهذا الكلام حقيقته والله أعلم، بل تقوية اليقين بأن هذا أمر قد فُرغ منه فلا يحتمل مراجعة؛ لأن ثباتهم على الشقاوة أمر لا يعلم إلا من قِبلنا بنزول الوحي غضًا طريًا محفوظًا، أو بواسطة أهل الكتاب عن أنبيائهم، فالمعنى: أني قد أخبرتك بأن الآيات لا تزيد الشقي إلا ضلالًا، فلا تطلب إجابتي إياهم إلى مقترحاتهم رجاء إيمانهم فإنهم لا يؤمنون.

﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وزاده تشريفًا وترغيبًا فيه بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ أي: الغافلين عن آيات الله فتطلب الفضل لأهل العدل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحدًا منهم". ثم أتبعه نهي أتباعه عن مثل حالهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾ وهذا ونحوه مما غلظت فيه العبارة دلالة على مزيدِ قرب المخاطب -وإن كان المراد غيره- وعظيمِ منزلته، كما مضى بيانه عن الإمام الحرالي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: ٤٣] الآية، وتغليظ العبارة فيه تأديب عظيم لتابعيه.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَا﴾ والتقدير: لكن لم تؤمن قرية منهم إلا عند صدم العذاب كما فعل فرعون ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ عند المخايل وقت بقاء التكليف نفعهم ذلك، ودل على أنه قد كان أظلهم بقوله: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾.

ولما كان الرسول ﷺ شديد الحرص على إيمانهم، بيّن أن ذلك وحده لو كان كافيًا لآمنوا بهذه السورة، فإنها كشفت شبهاتهم وضلالاتهم وحققت بقصتي نوح وموسى عليهما السلام ضعفهم فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ وأفاد تقديم الضمير أن الله هو وحده القادر على تحويل الطباع، فإن قدرته قاهرة لكل شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ فيجعل الثبات والطمأنينة اللازمين للإيمان -الذي هو أبعد شيء عن السحر- على الذين ينتفعون بعقولهم، فيلزمون ثمرات للإيمان من معالي الأخلاق ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الاضطراب والتزلزل الذي يلزمه التكذيبُ -الذي هو أشبه شيء بالسحر لأنه تخييل ما لا حقيقة له- والقباحةُ والغضبُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ ولما كانت دلائل هذه السورة في غاية البيان فلا يحتاج فيها إلى غير مجرد العقل قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فلذلك لا ينتفعون بالآيات ويدّعون أنهم أعقل الناس فيتساقطون في سيئ الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ولما كأنه قيل: فماذا يقال لهم إذا طلبوا؟ قال: ﴿قُلِ﴾ منبهًا لهم على إبطال مذهب الجبر؛ لأن المشيئة مغيَّبة والعبد مأمور بالطاعة بما له من القدرة والاختيار ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ من الآيات التي أخرجتموها بإلفكم لها عن عداد الآيات، وهي عند التأمل من أعظم خوارق العادات، ثم نبه على أن التوقف عن الإيمان بعد التنبيه على كيفية الاستدلال معاندة فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولما كان التقدير: فإنّا نوقع الرجس بالمكذبين، عطف عليه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ وجاء به مضارعًا إعلامًا بأنه كذلك يفعل بهذا الرسول ﷺ وأتباعه، وأشار بـ«ثم» إلى طول زمان الابتلاء وعظيم رتبة التنجية، وحذف مقابل الإنجاء لأن المقام بعد آية ﴿ألا إن أولياء الله﴾ [يونس: ٦٢] ناظر إلى البشارة أكثر من النذارة ﴿رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ ولو كانوا في أدنى الدرجات تشريفًا للرسل، فإنهم بصدد الرسوخ بملازمتهم، ثم وصل بذلك تشريفًا للراسخين وترغيبًا في حالهم قولَه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ في كل زمن وإن لم يكن بين ظهرانيهم رسول؛ لأن العلة الاتصاف بالإيمان الثابت.

ولما كان طلبهم للآيات إنما هو على وجه الشك، بين أنه مظهر دينه؛ لأن البيان قد بلغ الغاية فقال: ﴿۞قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ بطلب الآيات بعد دلالة العقل عليه، فأنا لست على شك من صحته وبطلان دينكم، فانظروا لما فيه من الحكم مستحضرين ما لدينكم من الوهي الذي تقدم بيانه في قوله: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله﴾ [يونس: ٥٩] الآية، وعبّر بالشك مع أنهم يصرحون ببطلانه لاضطرابهم عند ورود الآيات كالشاكّ، أو لأن فيهم الشاك فغُلِّب لأنه أقرب إلى الحيز.

﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ ثم وصفه بما يوجب الحذر منه ويدل على كمال قدرته فقال: ﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥﴾. ولما نهاه عن الشرك أكده بما هو كالتعليل له بما يلزمه من العبث بالخضوع لما لا ضر فيه ولا نفع بقوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ أي: العريقين في وضع الدعوة في غير محلها؛ لأن ما هو كذلك في غاية البعد عن منصب الإلهية.

[ثم قال مقررًا لسلب النفع والضر من المعبودات الباطلة، ومصورًا لاختصاصه بهما سبحانه][٦٣]: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ ولم يستثنِ في الإرادة كما استثنى في الكشف لأن دفع المراد محال، وعبر بالإرادة في الخير وبالمس في الضير تنبيهًا على أنه ﷺ مراد بالخير بالذات وبالضر بالعرض، تطييبًا لقلبه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ إشارة إلى أن إصابته بالخير لا تكون إلا فضلًا منه بعد الستر للذنوب والرحمة للضعف، فهو الحقيق بأن يُعبد.

ولما كثرت في هذه السورة الأوامر والنواهي والأجوبة، ختم ذلك بجواب معلم بأن فائدة الطاعة ليست راجعة إلا إليهم، وضرر النفور ليس عائدًا إلا عليهم فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكامل، وزاد الرغبة فيه بقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لأنه تبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فأنقذها من النار وأوجب لها الجنة ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ لأنه ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء لأنه فانٍ فقد غر نفسه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾.

---

(٦٣) روح المعاني ١١/ ٣١٣.

ولما كان أكثر ذلك وعظًا لهم وتذكيرًا ختمه بأمره ﷺ بما يفعله في خاصة نفسه أجابوا أو لم يجيبوا فقال: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ بجميع جهدك ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ وأعلمت أن من اتبع الوحي ابتُلي بما ينبغي الصبر عليه، وأفهمت أن من كان أتْبع له كان أشد بلاء، **والصبر**: تجرع مرارة الامتناع من المشتهى إلى الوقت الذي ينبغي فيه تعاطيه، ويعين عليه العلم بعاقبته وكثرة الفكر في الخبر الذي ينال به، واعتياد الصبر في خصلة يسهّل الصبر في خصلة أخرى؛ لأن الخير يدعو إلى الخير.

وختم سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب وما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل به إلى أن يحكم الحكيم الذي أنزله بما لا مرد له مما برزت به كلماته التامة، وهذا بعينه أول التي بعدها، فكان ختم هذه وسطًا بين أولها وأول التي تليها، والله الموفق.

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل بما يعجز الخلق؛ لأنه من عند من هو شامل العلم كامل القدرة، المقتضي لمنزِّله سبحانه وضع كل شيء في أتم محاله، وأنسب ما فيها لهذا المقصد ما ذكر في قصة هود عليه السلام من الجزم بالمعالجة بالمبادرة الناظر إلى أعظم مدارات السورة: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ [هود: ١٢]، والعناية بكل دابة والقدرة على كل شيء المقتضي للعلم بكل معلوم اللازم منه التفرد بالملك، فوجب إفراده بالعبادة وألا يترك شيء من أمره رجاء إقبال أحد ولا خوف إدباره، ولا يخشى غيره ولا يركن إلى سواه، على ذلك مضى جميع النبيين.

لما ختمت التي قبلها بالحث على اتباع الكتاب والصبر على ما يتعقب ذلك، ابتدئت هذه بوصفه بما يرغب فيه فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ﴾ بناه للمفعول بيانًا لأن إحكامَه قد فُرغ منه على أيسر وجه ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: أتقنت إتقانًا لا مزيد عليه، ولا نقص معه من أحد في شيء منها، ولا الطعن في شيء من فصاحتها بشيء يقبل، ولعظمة رتبة التفصيل أتى بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ إلى حلال وحرام وقصص وأمثال، وكذا إلى فواصل ونهايات يفهم منها علوم جمة، وهذا التفصيل لم تشاركه فيه الكتب السالفة.

﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أي: لِما تقدّم من شمول العلم وكمال القدرة ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ وخص اسم الرب تذكيرًا بما له من النعم، ولما كان الاستغفار مطلوبًا في نفسه لكنه لا يعتبر إلا إذا قرن بالتوبة، عطف عليه بـ«ثم» إشارة إلى عظيم رتبتها فقال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا﴾ موضع «تمتيعًا»؛ لأن المتاع البالغ الذي لا كدر فيه لا يكون إلا في الجنة، ولذا وصفه بقوله: ﴿حَسَنًا﴾ ليدل على أنه أنهى ما يليق بهذه الدار.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ وفي التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلى أنه لم يقع التكليف إلا بما في الوسع مع أنه من معالي الأخلاق، لأن الفضل في الأصل ما فضل عن الإنسان، وتعانيه من كريم الشمائل، وما كان كذلك فهو في الذروة من الإحكام

لأنه منعُ الفعلِ من الفساد ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولو أدنى درجاته، بما أشار إليه حذف التاء ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ أي: لكبر ما فيه من العذاب.

قال ابن الزبير في مناسبة هذه السورة لما قبلها: "فحصل من سورة الأعراف والأنفال وبراءة ويونس تفصيل ما كان أجمل فيما تقدمها، كما حصل مما تقدم تفصيل أحوال السالكين والمتنكبين، فلما تقرر هذا كله أتبع المجموع بقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ الآية، وقد كان تقدم قوله تعالى: ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة﴾ [يونس: ٥٧] وقوله: ﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾ [يونس: ١٠٨] فأُتبِعا بقوله في صدر سورة هود: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ فكأنه في معرض بيان الحق والموعظة، وإذا كانت محكمة مفصلة فحق لها أن تكون شفاء وهدى ورحمة.

ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة عليها مدار آي الكتب وهي: فصل الإلهية وأشار إليه قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾، وفصل الرسالة وأشار إليه قوله: ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾، وفصل التكاليف وأشار إليه قوله: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾".

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ لأنهم يقرون بقدرته على أعظم من الإعادة، فهو قادر عليها كما قدر على البداءة. ولما تقدم من التخويف والإطماع ما هو مظنة لإقبالهم قال مبكتًا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ أي: ينحرفون عن الحق من غير إقبال؛ لأن من أقبل على الشيء أقبل عليه بصدره ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ كراهيةً لسماع الوحي ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ فلا وجه لاستخفائهم نفاقًا ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ التي يثنونها.

ثم أتبعه بما يدل على شمول العلم والقدرة معًا فقال: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ تحقيقًا لوصوله وحملًا على التوكل فيه؛ لأن الإفضال على كل نفس بما لا تعيش إلا به ولا يلائمها إلا هو مدة حياتها أدق مما مضى في العلم مع تضمنه لتمام القدرة، وهي ناظرة إلى ترغيب آية: ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾.

ولما كان خلقُ ما منه الرزق أعظم من خلقِ الرزق وتوزيعه في شمول العلم والقدرة معًا تلاه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ وقد

علم من هذا أنه كان قبل الأرض خلقٌ، فثبت أنه وما تحته محمولان بمحض القدرة، فثبت بذلك أن عظمة قدرته لا تتناهى، وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة يونس عليه السلام من أمر العرش لأن هذه سورة التفصيل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولما ثبتت القدرةُ على الإعادة والابتلاءُ للمجازاة عجّب من إنكارهم للبعث فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ولما كان العاقل لا ينبغي أن يسأل عن مثل ذلك إلا بعد قدرته على الدفع، أعرض عن جوابهم وقال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم﴾ وعبر بالماضي موضع المستقبل تحقيقًا ومبالغة في التهديد ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ﴾ وقدم الظرف إشارة إلى شدة إقبالهم على الهزء به حتى كأنهم لا يهزؤون بغيره، ولما كان استعجالهم استهزاء وضع موضع «يستعجلون» قولَه: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾.

ولما كان قولهم ذلك ناشئًا عن طبع الإنسان على الوقوف مع الحالة الراهنة والعمى عما يزيلها في العاقبة، بين ذلك ليعلم أن طبعه منافٍ لما تضمنه مقصود السورة من الإحكام الذي هو ثمرة العلم، فقال مؤكدًا؛ لأن كل أحد ينكر أن يكون طبعه كذلك: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ولما كان من أقبح الخلال استملاك المستعار، وكانت النعم عواري من الله، قدم الصلة دليلًا على العارية فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ من أن يعود له مثلها ﴿كَفُورٌ ۝٩﴾ أي: عظيم الستر لما سلفه له من الإكرام لأن شأنه ذلك.

ولما كان استملاكه العارية طبعًا له، دل عليه بما أفهم أنه لو طال عمره في الضر ثم نال حالة يرضاها لبادر إلى اعتقاد دوامها فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ أي: مُفْرِط في فرحه وفخره على غيره بكل نعمة تفضل الله عليه بها. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عند الشدائد رجاءً لمولاهم وحسن ظن به؛ لإيمانهم الموجب لتقيدهم بالشرع ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من أقوال الشكر وأفعاله عند حلول النعم، فهم دائمًا مشغولون بمولاهم شكرًا وصبرًا، وهم الذين أتم عليهم سبحانه نعمه وخلقهم في أحسن تقويم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾.

ولما استثنى من الجارين مع الطبع: من تحلى بالصبر الناشئ عن وقار العلم المثمر لصالح العمل، وكان ﷺ رأس الصابرين وكان ما مضى من أقوالهم وأفعالهم أسبابًا لضيق صدره،

فربما كانت مظنة لرجائهم تركه بعض ما يوحى إليه طمعًا في إقبالهم أو خوفًا من إدبارهم، قال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ مخافة ردهم له إذا بلغته لهم ﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ وكانوا يتهاونون بالقرآن لعلمهم أنه الآية العظمى، فإذا تقرر أن الإنسان مطبوع على التقلبات، فلا تكن موضع رجائهم في أن تترك ما يغيظهم مما نأمرك به، بل كن من الصابرين ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾.

قال أهل السير: "لما صدع رسول الله ﷺ بالإسلام كما أمره الله لم يبعد منه قومه، فلما عاب آلهتهم أعظموه وناكروه"، ولما أفهم هذا السياق: الإنكار لما يفتّر عن الإنذار، وكان المقصود الأعظم من الرسالة: النذارة لأنها هي الشاقة على النفوس، وأما البشارة فكل من قام يقدر على إبلاغها فلذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ فتوكل عليه في كل أمر، ولعله اقتصر على النذارة؛ لأنهم أهل لها وأنها هي التي يطمعون في تركها.

ولما كان القرآن في كل آية منه ما يبين للفَهِم سفساف قدحهم في الرسالة، قال منكرًا: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ﴾ أي: قطع، كل قطعة منها تحيط بمعنى تام يستدل فيها عليه ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ أي: مثل جميع القرآن في طوله وبلاغته ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ أي: أنكم قد ادعيتم مكابرة أنه مفترى فارغ عن الحِكم، فأتوا بعشر مثله في مجرد البلاغة غير ملزمين بحقائق المعاني، ذكره البغوي عن المبرد، وليس هذا أمرًا بالافتراء لأنه تحد فهو للتعجيز ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾.

فكأنهم تُحدوا أولًا بجميع القرآن في مثل قوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ [الطور: ٣٤]، ثم تُحدوا في سورة يونس عليه السلام بسورة واحدة مثل جميع القرآن غير معتنين فيها بالتفصيل إلى السور تخفيفًا عليهم واستهانة بأمرهم، فلما عجزوا تُحدوا بعشر مفتراة، ولما خفف عنهم التقيد بصدق المعنى وحقيقة المباني فعجزوا، أُعيد في المدينة لأجل أهل الكتاب تحديهم بسورة فقال: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣]، فالمتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى.

ولما كان أدنى درجات الافتراء إتيان الإنسان بكلام غيره من غير علمه، وكان عجزهم عن المعارضة دليلًا قاطعًا على أنهم لم يصلوا إلى شيء من كلامه تعالى بغير علمه ولا وجدوا مكافئًا له يأتيهم بمثله، ثبت قطعًا أن هذا القرآن غير مفترى فقال: ﴿۞فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ لأن محمدًا ﷺ واحد منهم تمنع العادة أن يعثر دون

جميع أهل الأرض على ما لم يأذن فيه ربه من كلامه فضلًا عن أن يكون مخترعًا له، ويجوز أن يكون ضمير ﴿يستجيبوا﴾ لـ«مَن» في قوله: ﴿فادعوا من استطعتم﴾ و﴿لكم﴾ للمشركين ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فإنه لو كان معه إله آخر لكافأه في الإتيان بمثل كلامه، وفيه تهديد وإقناط من أن تجيرهم من بأس الله آلهتُهم، ولما كان هذا دليلًا قطعيًا على ثبوت القرآن، سبب عنه قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾.

ولما كان أعظم الموانع للمشركين من التصديق: استيلاء أحوال الدنيا عليهم ولذلك تعنتوا بالكنز، أشار إلى عواقبه بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ فأخلد إليها لحضورها ونسي ما يوجب الإعراض عنها من فنائها وكدرها ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ أي: لا ينقص شيء من جزائهم فيها وأما أبدانهم وأرواحهم وأديانهم فكلها بخس في الدارين معًا، وفيها بيان سبب حبس العذاب عنهم مع سوء أعمالهم. ثم قال مشيرًا بأداة البعد إلى أنهم أهل البعد واللعنة نتيجة لما قبله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ وإن دأبوا فيه دأب من هو مطبوع عليه؛ لأنه صورة لا معنى لها لبنائه على غير أساس.

ولما اتضحت الحجج وكان ذلك موضع الإنكار على من يسوي بين المهتدي والمعتدي، فكيف بمن يفضِّل إما بالنظر إلى الرئاسة الدنيوية غفلة عن الحقائق أو عنادًا قال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بما آتاه من نور البصيرة وصفاء العقل، فهو يريد الآخرة ويبني أفعاله على الأساس ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ أي: ويتبع هذه البينة ﴿شَاهِدٞ﴾ هو القرآن ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: من ربه ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: شاهد أيضًا وهو التوارة ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾ ولما كان الجواب ظاهرًا حذفه، وتقديره والله أعلم: كمن هو على الضلالة، فهو يريد الدنيا ويبني أفعاله على غير أساس، فتكون في دار البقاء هباء منثورًا.

ولما كان هذا الذي على البينة عظيمًا ولم يرد به واحدًا بعينه، أشار إلى علوّه بأداة البُعد فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ فلما تشوفت النفس لما سبب عنه قال موجزًا بحذف النون: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: من القرآن أو من الوعد الذي هو النار والخيبة وإن نعّمنا المتوعَّد بذلك في الدنيا، ثم علل النهي بقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: المحسن إليك بإنزاله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾

بأنه حق، لا لكون الريب يتطرق إليه بل لما على قلوبهم من الرَّين، والقصد بهذا الاستفهام الحث على الإقبال على الدين الحق على وجه مبين لسخافة عقول الممترين وركاكة آرائهم.

ولما كان الكافرون قد كذبوا على الله بما أحدثوه من الدين من غير دليل وما نسبوا إليه النبي ﷺ من الافتراء قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ وأظهر في موضع الضمير بيانًا لما كفروا به؛ لأنه إذا علق الحكم بالوصف دل على أنه علته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ﴾ بالبناء للمجهول؛ للدلالة على هوانهم واستسلامهم لكل عارض ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ في ادعاء الشريك والولد والتحليل والتحريم وغير ذلك، وفي الإتيان بصفة الربوبية غاية التشنيع عليهم ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ وانظر إلى تهويل الأمر باسم الذات ما أشده! ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾.

ثم فصّل ظلمهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي: يُعرِضون في أنفسهم ويمنعون غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يريدون بطريق الدين الواسعة السهلة ﴿عِوَجًا﴾ بإلقاء الشبهات والطعن في الدلائل مع كونها في غاية الاستقامة، ولما كان النظر شديدًا إلى بيان كذبهم بولغ في تأكيد قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ والصد: المنع بالإغراء الصارف عن الأمر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ﴾ أي: يُفعل فيه فعل من يناظر آخر في الزيادة ﴿لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ بما كانوا يضاعفون المعاصي، ثم علل سبب المضاعفة بقوله: ﴿مَا كَانُواْ﴾ أي: بما لهم من فساد الجبلات ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ بانقيادهم للهوى ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾ حتى يعرضوا عن الشهوات، وهو كناية عن شدة إعراضهم عنه، كما يقول الإنسان لما تشتد كراهته له: لا أستطيع أن أسمعه، ونفي الاستطاعة أنكأ من نفي السمع لأنه قد يُحمل على الإجابة وأما نفي البصر فملازمٌ للنقص.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع الفطرة الأولى التي هي سهولة الانقياد للخير وصعوبة الانقياد للشر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٢١﴾. ولا شك أن من خسر نفسه ومن خسرها من أجله كان أخسر الناس فلذا قال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا ظنّ بل هو اليقين والقطع بـ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾.

ثم وصف حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كان حاصل ما مضى من وصف الكافرين الإعراض عن ربهم، وصف المؤمنين بالإقبال عليه فقال:

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ ولعله وصله بـ«إلى» في موضع اللام إشارة إلى الإخلاص أي: إخباتًا ينتهي إلى ربهم من غير أن يحجب عنه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣ ۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ على أتم أحوالهما ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ ولما كان الجواب قطعًا: لا يستويان مثلًا فلا يستويان ممثولًا، سبب الإنكار بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ فتعلموا صدق ما وصفوا به بما ترونه من أحوالهم.

ثم قال عطفًا على قوله: ﴿إنما أنت نذير﴾ [هود: ١٢]: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ وهذه القصة وما بعدها تقرير لمضمون هذا المثل وتسلية لهذا النبي الكريم ﷺ لئلا يضيق صدره بشيء مما أمر بإبلاغه حرصًا على إيمان أحد وإن كان أعز الخلائق عليه، وكان سياقها في الأعراف لغير ذلك، لكن ذُكر هنا إهلاك من كانوا أشد من العرب قوة وأكثر جمعًا تحذيرًا من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم، ففرق بين ما يساق للشيء وما يلزم منه الشيء، ولهذا الغرض المقصود هنا طولت قصة نوح عليه السلام في هذه السورة ما لم يطوله في غيرها، فاختلاف المقاصد هو الوجه في تكرير هذه القصص.

ولها فوائد أُخَر منها: إظهار الإعجاز في البيان بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة؛ لأنه ربما قال متعنت عند التحدي: قد استوفى اللفظ البليغ على الأسلوب الأكمل البديع في هذه القصص فلم تبق لنا ألفاظ نعبر بها عن هذه المعاني حتى نأتي بمثل هذه القصة، فأتى بها ثانيًا إظهارًا لعجزه وقطعًا لحجته، والعمدة في المناسبة الوجه الأول.

فإن قيل: فإنا نرى القصة تبسط في بعض السور غاية البسط ثم توجز في غيرها غاية الإيجاز، فلمَ لا استوعبت جميع المعاني في الموضع المبسوط، وإذا وقع حذف كان في الموجزة؟ قيل: لأنها في كل سورة لمناسبة تخص تلك السورة، ثم يراعى في البسط وغيره المعاني المناسبة للمقصد الذي سيقت له القصة.

﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ وإذا كان اليوم مؤلمًا فما الظن بما فيه من العذاب! فهو إسناد مجازي مثل: نهاره صائم، ولم يذكر بشارة إرشادًا إلى ما سيقت له القصة من تقرير معنى ﴿إنما أنت نذير﴾ [هود: ١٢] ولذلك صرح بالألم بخلاف الأعراف.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وهو قول من يحسد على فضل الله ويعمى عن جليّ حكمته فيمنع أن يكون النبي بشرًا ويجعل الإلٰه حجرًا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ فاتباعهم لا يدل على سداد لما اتبعوه؛ لرذالتهم في أنفسهم وعدم تأملهم فيه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وهو قول من يعرف الحق بالرجال فيَستدل على حقيته بعظمة متبعه في الدنيا وعلى إبطاله بحقارته فيها ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ لأنكم لم تتصفوا بما جعلناه مظنة الاتباع من التقدم في الدنيا، فكان داؤهم بطر الحق وغمط الناس، وهذا قد سرى إلى أكثر أهل الإسلام فصاروا لا يعظّمون إلا بذلك.

ولما كان ختام جوابهم أشده، بدأ في جوابه برده مبينًا لضلالاتهم مغضيًا عن شناعاتهم شفقة عليهم ومحبة لنجاتهم فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ تذكيرًا لهم أنه منهم لتعطفهم الأرحام وتردهم القرابات عن حسده أو اتهامه ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ ولما كانت البينة من الرحمة وحد الضمير فقال: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أي: بسبب تخصيصي بها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وذلك أن الدليل إذا كان أعمى عاد ضرره على التابع بالحيرة والضلال ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ وهو إشارة إلى أنها لم تخفَ عليهم وإنما هم معاندون، والتعبير بالجملة الاسمية واسم الفاعل إشارة إلى ثبات كراهتهم لها، والآية ناظرة إلى قوله: ﴿أفأنت تُكرِه الناس﴾ [يونس: ٩٩] الآية.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ونبه بهذا على أنه لا غرض له دنيوي ينفر المدعو عنه فوجب تصديقه ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فلو طردتهم لشكوني إليه ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ﴾ أي: أعلمكم علمًا هو كالرؤية ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩﴾ فتكذبون الصادق وتعيرون المؤمنين بما لا يعنيهم وتنسون لقاء الله وتوقعون الأشياء في غير مواقعها، وفي تعبيره بـ«تجهلون» دون «جاهلين» إشارة إلى تجدد الجهل لهم وهو غير عادتهم؛ استعطافًا لهم إلى الحِلم.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ﴾ ولو لم يشكوني إليه؛ لاطلاعه على ما دق وجل ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ فترجعون إلى عادتكم من الحِلم الباعث على التأمل الموقف على الحق. ولما كان نفيهم للفضل شاملًا للأموال وعلم الغيب، أقرهم على ذلك منبهًا على

خطئهم فيه بأنه لم يقل بينهم قط ما يكون سببًا له فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ وأسقط «لكم» تواضعًا؛ لكونه من قوله.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ﴾ قول من لم يجد في رده شبهة يبديها ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ أي: أراد كلٌّ منا صرف الآخر عن رأيه، فالمطلوب بالجدال: الرجوع عن المذهب، والمطلوب بالحجاج: ظهور الحجة، وقد يكون مذمومًا كالمراء إذا كان للتشكيك في الحق بعد ظهوره ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وسموه وعدًا سخرية به أي: هو عندنا وعد حسن نحب حلوله، فالمعنى: أنك لست قادرًا على ذلك ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أشار إلى أن هذه القصص كلها للتسلية، فكأنه قيل: أيقولون لك مثل هذه الأقوال؟ فقد قالوها لنوح ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾؟ فلا عليك فإنه قول يقصدون به مجرد العناد وهم يعلمون خلافه بعد ما قام عليهم من الحجج ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بعد أن أوضحته لكم، وسوق جوابهم على هذا الوجه أنكى لهم من إقامة حجة أخرى؛ لأنهم يعلمون أنه إلزام لهم بالفضيحة لانقطاعهم لدى من له وعي.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ فنحن نلهمك أصلح ما يكون من عملها، فلا تهتم بكونك لا تعرف صنعتها ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ وأشار إلى أنهم ازدادوا بغيًا بقوله: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ ولم يمنعهم شرفهم من ذلك، وذلك أنهم رأوه يعاني أمرًا عظيمًا لم يروا قبله مثله ليجري على الماء وهو في البر، ولما أيأسه الله من خيرهم ترك ما كان من لينه لهم فـ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ لظن أن عملنا غير مثمر ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ لعلمنا بأن عملكم سبب لخزيكم بالعذاب المستأصل.

وسبب عن هذا العلم قوله: ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ ولم يقل:

عليها؛ لأنه تعالى أمره أن يجعل لها غطاء لئلا تمتلئ من شدة الأمطار ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١﴾ اعترافًا بأنه لا نجاة إلا بعفوه.

فركبوها ﴿وَهِيَ﴾ أي: والحال أنها ﴿تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ وهو إشارة إلى سرعة امتلاء الأرض من الماء ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ إشارة إلى أن حرص الرسل عليهم السلام وشفقتهم ليست سببًا للين القلوب وخضوع النفوس ما لم يأذن الله.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ أي: بين الابن والجبل أو بينه وبين أبيه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ففعلتا مبادرتين لأمر الملك الذي لا يخرج عن مراده شيء ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ كما أراد الجليل على ما وعده نوحًا عليه السلام، لم يقدر أحد أن يحبسه أو يصرفه أو يؤخره ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ وقد أمرتني أن أحملهم ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ في نجاتهم إلا من سبق عليه القول، فإن كان ممن نجا فأتني به.

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ولهذا علل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ﴾ أي: ذو عمل، ولكنه جعله نفس العمل مبالغة في ذمه؛ لأن الجواهر متساوية الأقدام في نفس الوجود ولا تشرف إلا بآثارها، وعبر بالعمل دون الفعل لزعمه أن أعماله مبنية على العلم، وهذا يدل على أن الموافق في الدين أقرب ما يكون وإن بعد في النسب، والمخالف فيه أبعد ما يكون وإن قرب في النسب.

﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ لأن اللائق بأمثالك بناء أمورهم على التحقيق وانتظار الإعلام منا، كما قال موسى: «وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها» وكانت كافرة من آل فرعون ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا بسعة الرزق، ولا بركات عليهم منا ولا سلام ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨﴾.

ولما تمت هذه القصة وكانت دالة على علم تام بدقائق لا سبيل إليها إلا من جهة الملك العلام، فهي على إزالة اللبس عن أمره ﷺ أوضح من الشمس، قال تعالى منبهًا على ذلك: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ وعبّر بالمضارع إشارة إلى أنه لا يزال يجدد له أمثالها ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ ولما كان خفاؤها عنهم بعض زمان الماضي أدخل الجار فقال: ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: من إيحائي إليك حتى يُتوهم أنك تعلمتها من أحد، فبان أن لا غرض لقومك إلا العناد ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ كما كانت لنوح عليه السلام لتقواه، مع ما تضمنته القصة من بيان مآل الفريقين.

ولما تم من ذلك ما هو كفيل بغرض السورة أتبع بالدليل على أن العاقبة للمتقين مع الوفاء بما سيقت له قصة نوح من الحث على المجاهرة بالإنذار فقال: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فدعا إلى أصل الدين كما هو دأب سائر النبيين، ثم واجههم بما يسوؤهم من الحق وما ثناه عن ذلك رجاء ولا خوف فقال: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾ في إشراككم به سبحانه؛ لأن ما على التوحيد من أدلة العقل غير خاف على عاقل فكيف مع تنبيه النقل!

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ﴾ ثم وصف من توكل عليه تعالى بما يدل على الكفاية، فعليّ وجوب شكره فقال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ ولم يشاركه فيّ أحد ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾. ولما استدل على صدقه بنفي الغرض رغّبهم بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي: تكلفوا أنفسكم غير ما جُبِلت عليه من سلامة الانقياد فتبالغوا في الإعراض، بما أشار إليه إثبات التاء ﴿مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ أي: قاطعين لأنفسكم عن خيرات الدنيا والآخرة ببناء أمركم على الظنون الفاسدة.

﴿قَالُوا۟﴾ بعد أن أظهر لهم هود عليه السلام من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فأوضحوا مكابرتهم لقويم العقل وصريح النقل، والحامل على ترك البينة بعد ظهورها: صد الشبهة عنها، أو تقليد الرؤساء في دفعها واتهام مُوردها، أو اعتقاد أصول فاسدة تدعو إلى جحدها، أو العناد لحسد ونحوه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾.

وقالوا من غير تعرض لنقض ما قال لهم بنوع شبهة: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي: التصق بك التصاق العروة بما هي فيه مع التعمد والقوة ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ من جنون وخبال، فنهيت عن عبادتها ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ وعدل إلى صيغة الأمر تهاونًا بهم وأدبًا أن يُشهِدهم مع الله تعالى فقال: ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٤﴾﴾ وهي من أعلام نبوته عليه السلام.

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ وهو عرف في القدرة؛ لأن الكل جارون مع مراده لا مع مرادهم ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ فلذلك كان كل من في الكون يتألهه ويخافه ويرجوه وإن اتخذ بعضهم من دونه شركاء، وأما ما يُعبد من دونه فلا يعظمه إلا عابده، فانطبق ختام الآية على قولهم ﴿ما جئتنا ببينة﴾ ردًا له؛ لأن من كان على صراط مستقيم لم يكن شيء أبين منه، وعلى جوابه في توكله وما في حيزه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ كاملًا لم أدع منه شيئًا رجاء لإقبالكم ولا خوفًا من إعراضكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى﴾ ولما كان الأهم في هذا السياق بيان استعلائه وقدرته قدّم قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٦﴾﴾ فهو تعليل لاستخلاف غيرهم وتنزهه عن لحوق ضرر، لأن الحفظ: الحراسة، ويلزمها العلم والقدرة ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من قومهم فلم يصلوا إليهم بسوء مع اجتهادهم في ذلك وإعجابهم بقواهم، ولما كان سبحانه لا يَقدر أحد أن يُقدِره حق قدره وإن اجتهد في طاعته قال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم قال عاطفًا على قوله ﴿تلك من أنباء الغيب﴾: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أي: قصتهم، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ولا أهل الكتاب؛ لأنهم لا يعلمون إلا ما له أصل عن أنبيائهم، وهذه وقصة ثمود ليستا في شيء من أسفارهم، وسألت بعض علمائهم فلم أجد عنده شيئًا من علمها، وتلخيص قصتهم أنهم ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ فإن من عصى واحدًا فقد عصى الكل لاتفاقهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بغاية جهدهم ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ لغيره على ما يريد، وهذا يدل على أنه لا عذر في أصل الدين فإن الضمائر لا يعلمها إلا الله، فيمكن كل أحد مخالفة الجبار فيه ﴿عَنِيدٍ ﴿٥٨﴾﴾ لا يقبل الحق بوجه، فأُهلكوا.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وحقرها بما أشارت إليه الإشارة ﴿لَعۡنَةً وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ﴾ وعدّى الفعل إعظامًا لطغيانهم فقال: ﴿رَبَّهُمۡۗ﴾ والتأكيد في الإخبار بكفرهم تحقيق له، وفيه من أعلام الرسالة: الرد على طائفة يصوّبون جميع الملل، وخصوا عادًا هذه لكونها أغناهم. ومن كفر من أحسن إليه بعد بُعدًا لا قرب معه، ولما كان الأمر عظيمًا كرر الأداة التي تقال عند الأمور الجليلة فقال: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾ تحقيقًا لهم لأنهم عادان: الأولى والآخرة، وإيماء إلى أن استحقاقهم للإبعاد بما جرى لهود معهم.

ثم أتبعها قصة من كانوا عقبهم في الزمن ومثلهم في سكنى أرض العرب وعبادة الأوثان والمناسبة في الأمر المعذب به ؛لأن الموصل للصيحة إلى الأسماع هو الريح، وفي خفاء أمرهم مفصّلًا على أهل ذلك الزمان فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ ولما بين لهم عظمته، وكان الشيطان قد شبه عليهم أنه لعظمته لا يوصل إليه إلا بوسيلة هي الأوثان، نفى ذلك مبينًا طريق الرجوع إليه بقوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ۝٦١﴾ لا كمعبوداتكم في الأمرين معًا.

﴿۞قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ أي: الذي دعوتنا إليه، ثم بينوا ما أوجب سقوطه عندهم بقولهم: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وعبروا بالمضارع تصويرًا للحال كأن آباءهم موجودون فلا تمكن مخالفتهم إجلالًا لهم، فأجلّوا من يرونه سببًا قريبًا في وجودهم ولم يهابوا من أوجدهم وآباءهم ثم خولهم فيما هم فيه، ثم بُهتوا بأن عدّوا ما يوجب القطع لكل عاقل: لا يفيد عندهم إلا الشك في ترك إجابته فقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا﴾ ولما كان الداعي واحدًا لم يثبت غير نون ضميرهم بخلاف ما في سورة إبراهيم عليه السلام فقالوا: ﴿تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٦٢ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ﴾ أورده بصيغة الشك لأن خطابه للجاحدين.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أظهر موضع الإضمار وعبر بالاسم الأعظم لأن المقام للتهويل ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ فالذي أمرني بعبادته قادر على جزاء من يطيعه أو يعصيه، لا كأصنامكم لو عصيتموها ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إن عملت بما ترومونه مني لأصير في عداد من يُرجى عندكم ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ۝٦٣﴾ أي: إيقاعي في الخسارة، فلا تطمعوا في تركي لمخالفتكم ما دمتم على ما أنتم عليه.

ولما أخبرهم أن معصية الله خسران، ذكّرهم أمر الناقة التي أخرجها لهم فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ بإخراجها من صخرة وهي عشراء على حسب اقتراحكم، وتنفرد بشرب يوم وتنفردون كلكم بشرب يوم، وتنفرد برعي يوم وتنفرد جميع حيواناتكم برعي يوم، إلى غير ذلك مما تبصرون ﴿فَذَرُوهَا﴾ أي: اتركوها على أي حالة ﴿تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٣﴾ أي: من زمن إصابتكم لها بالسوء. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٤﴾.

وأشار إلى تعقب العذاب للأيام وتسببه عن الوعيد المعين بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالفاء بخلاف ما في قصة هود وشعيب عليهما السلام ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وبين أن إحسانه سبحانه لا يكون إلا فضلًا منه بقوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ ولم يكرر «نجينا» دلالة على أن عذابهم دون عذاب عاد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٥ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٦﴾ وتقدم سر التعبير بالديار مع الصيحة والدار مع الرجفة في الأعراف، وخصت هود بما ذكر فيها لأن مقصودها أعظم نظر إلى التفصيل، وكل من الديار والصيحة أقرب إلى ذلك، وعبّر بالإصباح زيادة في التخويف والتأسيف بما وقع لهم؛ لأن الإنسان يفرح إذا أصبح بقيامه من نومه مستريحًا قادرًا على ما يريد للاستمتاع بما يشتهي من التصرفات، فأصبح هؤلاء خفوتًا أجمعين كنفس واحدة ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٧﴾.

ثم أتبعها قصة لوط عليه السلام إذ كانت أشهر الوقائع بعدها وهي أفظع منها وأروع، وقدم عليها ما يتعلق بها من أمر إبراهيم عليه السلام للتنبيه لمن تعنت بطلب إنزال الملائكة في قولهم: ﴿أو جاء معه ملك﴾ [هود: ١٢] على أن ذلك ليس عزيزًا عليه، هذا مع مناسبة أمر هذا الولد لأمر الناقة في تكوين كل منهما بخارق للعادة، إشارة إلى تمام القدرة وكمال العلم المبني عليه أمر السورة في إحكام الكتاب وتفصيله، فقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في الصفة التي يحبها وهي صفة الأضياف ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ وفي الرفع مزية الثبات، والنصبُ للتجدد فصارت تحية بالأحسن ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٨﴾ لعدم معرفته أنهم ملائكة.

﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنه توسّم أنهم ملائكة نزلوا لأمر يكرهه من تعذيب من يعز عليه أو نحوه، ولذا: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٦٩﴾ فنفوا الخوف عنه بالإعلام بمن أرسلوا إليه لا بكونهم ملائكة ﴿وَامْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ على باب الخيمة، فسمعت البشارة بالولد ﴿فَضَحِكَتْ﴾ تعجبًا ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا﴾ أي: فتسبب عنه أن أعدنا لها البشرى تشريفًا لها وتحقيقًا أنه منها، والذي يدل على أنهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت: قوله تعالى: ﴿وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته﴾ [الذاريات: ٢٨-٢٩] الآية.

﴿بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧٠ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧١ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٢﴾ أي: كثير التعرف إلى من يشاء من جلائل النعم وعظيم المقدور بما يُعرف أنه مستحق للحمد على المجد، وهو الكرم الذي ينشأ عنه الجود.

ثم قال مشيرًا بالفاء إلى قلة زمن الإنكار الذي سببه الفزع: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ بانكشاف الأمر ﴿عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٣﴾ أي: يسألنا في نجاتهم، ثم علل مجادلته بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي: بليغ الإمهال لصاحب الذنب على ما يقتضيه العقل ﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٤﴾ أي: رجّاع إلى الله، فهو لما عنده من هذه المحاسن لا يزال يتوقع الإقلاع من العصاة ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٥﴾.

ولما عُلم من ذلك أن الملائكة لا ينزلون إلا للأمور الهائلة والأحوال المعجبة أخذ يقص أمرهم مع لوط عليه السلام فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ استضافوه فلم يجد بُدًا من قبولهم على ما أوصى الله بالضيف مطابقًا لعوائد أهل المكارم، فقبلهم وأزمع المقاتلة عنهم لما رأى من حسن أشكالهم مع ما يعلم من قبح أفعال قومه، ولذا ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وهو مثل يقال لمن لم يجد من المكروه مخلصًا.

﴿وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٦ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: الذين فيهم قوة المحاولة ﴿يُهْرَعُونَ﴾ أي: كأنهم يحملهم على ذلك حامل لا يستطيعون دفعه ﴿إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ﴾ أي: جبلة وطبعًا

﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أي: مع الاستمرار ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: الفواحش التي تسوء غاية المساءة، فمرنوا عليها حتى زال عندهم استقباحها، وكأنهم كانوا لا يدعون مليحًا ولا غيره من الغرباء، فلذلك لم يُذكر أن الرسل عليهم السلام كانوا على هيئة المرد الحسان ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ أي: لا تصلون إلى ضيفي إلا إن وصلتم إليهن لأن الخزي فيهما سواء، وعلى هذا يدل قوله في الآية الأخرى: ﴿إن كنتم فاعلين﴾ [الحجر: ٧١].

وكل هذا دليل على أنه لا يشك أنهم آدميون، فهو تنبيه للكفار على أنه لا ينتفع بإنزال الملائكة إلا الراشد التابع للحق ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ﴾ أي: كامل الرجولية ﴿رَّشِيدٞ ٧٧ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي حاجة ثابتة، ولم يريدوا به ضد الباطل؛ لأن البنات والضيف في نفي حقهم عنهم سواء ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٨ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ ووصفه الركن بالشدة مع أنه يتضمنها: تأكيد يدل على أن قومه كانوا في غاية القوة، وأنه كان يود معاجلتهم لو قدر.

﴿قَالُواْ﴾ ودلوا بأداة البعد على أنه كان قد خرج عن الدار وأجاف بابها وأن الصياح كان شديدًا ﴿يَٰلُوطُ﴾ إنك لتأوي إلى ركن شديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ واستثناؤها من الالتفات معهم مُفهِم أنه لا حجر عليه في الإسراء بها، أو أنه خلّفها فتبعتهم والتفتت ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ وعبّر في حقها باسم الفاعل وفي حقهم بالماضي؛ لأنه حكم بإصابة العذاب لهم عند هذا القول لأن ذنوبهم تمت، وأما هي فإنما تتم ذنوبها عند الالتفات ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨٠﴾ أي: فأسرع الخروج بمن أُمرت بهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالفاء للتسبيب والتعقيب ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي: من مكان هو في غاية العلو ﴿مَّنضُودٖ ٨١﴾ بالحجارة هي فيه متراكبة بعضها على بعض ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة بعلامات تدل على أنها معدة للعذاب، وفي الذاريات: ﴿حجارة من طين﴾ [آية: ٣٣]، فباعتبار أصله هو طين وباعتبار أوله حجر وكبريت ونار، ولعل حجر الكبريت أثقل الحجارة مع ما فيه من قوة النار وقبح الريح، ثم فخّمها بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ﴾ على شدة بعد مكانها بما دل عليه الإمطار و«على» وسجيل ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾.

ثم أتبعها أقرب القصص الشهيرة إليها في الزمن فقال: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم، واتحدت إلى الله وحده دعوتهم، قال السهروردي: "إن الفلاسفة لما لم يغترفوا من بحار الأنبياء وقفت بهم أفراس أفكارهم في عالم الشهادة، فلما حاولوا الخوض في الإلهيات انكشفت عورة جهلهم وافتضحوا باضطرابهم واختلافهم"، ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ والكيل للعدل في الكمية والوزن للعدل في الكيفية.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: بسعة تغنيكم عن البخس؛ مرهبًا ومرغبًا بالإشارة إلى أن الكفر موجب للنقمة، كما أن الشكر موجب للنعمة ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٣﴾ ووصف اليوم بالإحاطة أبلغ؛ لأنه محيط بما فيه من عذاب وغيره، والعذاب محيط بالمعذَّب، فذكر المحيط بالمحيط أهول.

ثم قال مؤكدًا نفي النقص ومنبهًا على أنه لا يكفي الكف عن تعمد التطفيف بل يلزم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها، ولأن التصريح بالأمر بالشيء بعد النهي عن ضده أوكد: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ ثم أكده أيضًا بتعميم النهي عن كل نقص فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ ثم بين أن أفعالهم ثمرة الهجوم عن غير فكر لأنها ليست ناشئة عن شرع، فأولها سفه وآخرها فساد فقال: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٤﴾ فهو دعاء إلى التأمل قبل كل فعل؛ لأن مادة «عثى» دائرة على الطلب عن غير بصيرة، بل لا يكون الإقدام بلا تأمل إلا فسادًا؛ لملاءمته للشهوة.

ولما كان نظرهم بعد الشرك مقصورًا على الأموال، وكان نهيه عما نهى عنه موجبًا لمحقها في زعمهم قال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أي: فضله وبركته في أموالكم وجميع أحوالكم وإبقاؤه عليكم وعفوه عنكم الذي هو ثمرة اتباع أمره ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مما تظنونه زيادة بالنقص والظلم، ولما كانت خيرية ما يبقيه العدل ظاهرة جدًا، تركها وبين شرطها بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ ٨٥﴾ إشارة إلى أن خيريتها لغير المؤمن مبنية على غير أساس، فهي غير مجدية إلا في الدنيا ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾.

ولما كان حاصل ما دعاهم إليه: ترك ما كان عليه آباؤهم من السفه في حق الخالق بالشرك والخلائق بالخيانة: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ

﴿أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ يعنون أن ما تأمرنا به ليس على منهاج العقل، فما يأمرك به إلا ما تفعله مما تسميه صلاة، فدارت شبهتهم على تقليد الآباء وتنزيههم عن الغلط لاحتمال أن يكون لأفعالهم وجه من الصواب خفي عنهم ﴿إِنَّكَ﴾ إذًا ﴿لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ﴾ في رضاك بما يُغضب الأرحام ﴿ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ في تضييع الأموال، يريدون سلخه من هاتين الصفتين بما خيَّل إليهم سفهُهم أنه دليل عليه قاطع، وعنوا بذلك نسبته إلى السفه والغي بالتهكم.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مستعطفًا لهم بالقرابة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ﴾ على سبيل الفرض ليكون أدعى إلى الإنصاف والقبول ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ حلالًا لم أظلم فيه أحدًا، والجواب محذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب، ويمكن أن يقال فيه: هل يسع عاقلًا أن يسفهني بترك الظلم، أو أن أحلم عمن عبد غيره وأترك دعاءه إلى الله! ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ وقد نبهت هذه الأجوبة الثلاثة على أن العاقل يجب أن يراعي ثلاثة حقوق: أهمها حق الله ثم النفس ثم العباد على وجه الإخلاص في الكل.

فثبت ببعده عن التهمة مع سداد الأفعال وحسن المقاصد: حلمه عليه السلام ورشده، فلذلك أتبعه بقوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾.

ولما رهبهم أتبعه الترغيب فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠﴾ ولم يبدأه بالاستعطاف إشارة إلى أنه لم يبق لي وقت آمن فيه وقوع العذاب حتى أشتغل فيه بالاستعطاف، والعطف بالتراخي لعظم مقدار التوبة؛ لأن الغفران لا يحصل بالطلب إلا إن اقترن بها، هذا الشأن في كل كبيرة؛ لأن الطاعة المفعولة بعدها يكون مثلها كبيرة في جنس الطاعات كما أن تلك كبيرة في جنس المعاصي، وتكرر الطاعات يقابله تكرر المعاصي بالإصرار الذي هو بمنزلة تكرير المعصية في كل حال.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ تهاونًا به، كما يقول الإنسان لخصمه إذا نسبه إلى الهذيان: أنا لا أدري ما تقول، ولما كان في ذلك إشارة إلى أنه ضعيف العقل لأن كلامه مثل كلام المجانين أتبعوه قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ فلا تتعرض لسخطنا فإنك لا تقدر على الامتناع من مكروه نحله بك بقوة عقل ولا جسم ولا عشيرة، وأشاروا إلى

ضعف العشيرة بقولهم: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ وهو من ثلاثة إلى عشرة ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ بل قومك هم الأعزة عندنا لموافقتهم لنا.

فأنكر عليهم بقوله مهددًا: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حتى نظرتم إليهم فيّ لقرابتي منهم ولم تنظروا إلى الله في قربي منه بما ظهر علي من كرامته ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي: جعلتموه كالغائب عنكم المنسي عندكم فعكستم في الفعل ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ فلا يرده عن نصرتي منكم مراعاة أحد لعزة ولا قوة، بل لكم أجل هو مؤخركم إليه لأنه لا يخشى الفوت.

ولما ختم بما يدل على أن تهديدهم له عدم لا يبالي به، بيّن أنه ليس بتارك شيئًا من عمله لشيء مما جُبلوا عليه فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ بكل ما أوجب علي غير خائف منكم ولا طامع في مؤالفتكم ولا معتمد على سواه، ولما كان الكلام من عنده عليه السلام أسقط الفاء فقال: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ بخلاف الأنعام والزمر(٦٤) فإن الكلام فيهما من الله العالم بالأسباب والمسببات، المأمور أشرف الخلق ﷺ بتبليغه ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ وكان العطف بالواو؛ لأنه لم يتقدم وعيد بوقت معين يتسبب عنه المجيء ويتعقبه.

﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ وكأنها كانت دون صيحة ثمود لأنهم كانوا أضعف منهم فلذلك أبرز علامة التأنيث(٦٥) في هذه دون تلك ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ أي: في الوقت الذي يتوقع الإنسان فيه السرور وكل خير ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾.

ولما كان شعيب ختن موسى عليهما السلام وكان قد ذكر كتابه أول السورة، كان ذكر قصته هنا متوقعًا فقال مفتتحًا لها بحرف التوقع: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف قومه المتبوعون؛ لأن القصد رفع أيديهم عن بني إسرائيل، ولما كان الناصح لنفسه لا يتبع أحدًا إلا فيما يعلم أنه صواب، قال معجّبًا من

---

(٦٤) في قوله تعالى: ﴿قل يا قومِ على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون﴾ الأنعام: ١٣٥، الزمر: ٣٩.

(٦٥) لأن "مادة «وثن» بجميع تقاليبها .. تدور على الزيادة والكثرة، ويلزمها الفرقة من اختلاف الكلمة، فيلزمها حينئذ الرخاوة فيأتي العجز"، والله أعلم [نظم الدرر ٥/ ٥٤٤].

الملأ مشيرًا إلى سرعة تكذيبهم: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ أي: عصى فرعون وحمل ملؤه أنفسَهم على أن تبعوا ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كل ما يفهمون عنه أنه يهواه ويأمر به، وتبعهم السفلة فأطبقوا على المنابذة إلا من شاء الله، واقتصر هنا عليهم؛ لأن المقصود التثبيت في الإنذار وإن كره المبلَّغون، وهذه حالهم.

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧﴾ وأوضح عدم رشده بقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: يكون قدامهم غير سائق لهم بل هم على أثره متلاحقين فيكون دخولهم إلى النار معًا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ كما أوردهم في الدنيا غطاءها وهو البحر ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ كما كان ورود البحر إذ ذاك؛ لأن الورد يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، وهذا يفيد ضد ذاك. ولما كان فرعون موصوفًا بعظم الحال وكثرة الجنود والأموال، حقّر دنياه بتحقير جميع الدنيا التي هي منها بإسقاطها في الذكر اكتفاء بالإشارة إليها فقال: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾.

ولما كانت هذه الأخبار لا يعرفها إلا بالغ في العلم، كان من المعلوم قطعًا أنه ﷺ لم يأتِ بها إلا من عند الله؛ للعلم بأنه لم يعان علمًا ولا ألمّ بعالِم يومًا، هذا مع ما اشتملت عليه من أنواع البلاغة وصروف الحكم والتفصيل من فنون المعارف، فاستحقت أن يشار إليها بأداة البعد إيماء إلى بعد المرتبة فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ وأشار بالتعبير بالمضارع إلى أنّا سنقصها عليك لغير ذلك من الأغراض.

﴿مِنْهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي﴾ وصوّر حالهم الماضية فقال: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ﴾ في أحوالهم قبل عبادتهم إياها ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٖ ۝١٠١﴾ أي: إهلاك وتخسير، فإنهم كانوا في عداد من يرجى فلاحه، فلما تورطوا في عبادتها ونشبوا في غوايتها خسروا أنفسهم التي هي رأس المال، فكيف لهم بعد ذلك بالأرباح!

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلها وإن كانوا غير من تقدم الإخبار عنهم وإن عظموا وكثروا ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٞ﴾ أي: مؤلم قاطع للآمال ﴿شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ أي: صعب مفتّت للقوى، ولعله عبر هنا باسم الرب مع احتمال سبق الوهم إلى أنه باسم الجبار

والمنتقم مثلًا أليق، إشارة إلى أنه عز وجل يربيك أحسن تربية في إظهارك على الدين كله، فلا تتكلف أنت شيئًا من قصد إجابتهم إلى إنزال آية أو ترك ما يغيظ من إنذار ونحو ذلك.

ولما كان مما جر هذه القصص والمواعظ: تكذيبهم لما يوعدون من العذاب الناشئ عن إنكار البعث، حقق أمر الآخرة وأنه مما ينبغي الاهتمام به، ردًا للمقطع على المطلع وإعلامًا بأنه لا فرق بينه وبين ما وقع من عذاب هذه الأمم في القدرة عليه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ لأنه إذا نظر إلى إهلاكه للظالمين وإنجائه للمؤمنين، علم أنه قادر على ما يريد وأنه لا بد أن يجازي كلًا بما فعل، فإذا رأى أن ظلمة كثيرين يموتون بغير انتقام علم أنه لا بد من يوم يجازيهم فيه، وهو اليوم الذي أخبرت به عنه رسله.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ ولو أقل كلام بدلالة حذف التاء، وهو يوم طويل جدًا ذو ألوان وأهوال، تارة يؤذن فيه في الكلام، وتارة يكون على الأفواه الختام، وتارة تسكتهم الحسرة والآلام، وتارة ينطقهم الجدال والخصام، ولما علم من هذا أنه يوم عظمة وقهر، سبب عنه تقسيم الحاضرين فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ﴾.

ولما كان الحال في هذه السورة مقتضيًا لتسلية النبي ﷺ، عبر باسم الرب إشارة إلى أنه يحسن إليه بكل ما يشرح صدره فقال: ﴿رَبُّكَۚ﴾ والذي ظهر لي والله أعلم: أنه لما تكرر الجزم بالخلود في الدارين فكان ربما ظُن أنه لا يمكن غير ذلك، جاء هذا الاستثناء معلِمًا أن الأمر فيه إلى الله تعالى كغيره من الأمور وإن جزم القول فيه، لكنه لا يقع غير ما أخبر به، وسوقه هكذا أدل على القدرة وأعظم في تقليد المنة، وفي الختم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ ترجية لأهل النار في إخراجهم منها زيادة في عذابهم.

﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ وفي الختم بقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ دوام طمأنينة لأهل الجنة زيادة في نعيمهم عكس ما كان لأهل النار.

ولما كان ذلك كافيًا في الثبات على أمر الله وتبليغ جميع ما أرسل به وإن شقّ اعتمادًا على النصرة في ذلك اليوم، فكان ذلك سببًا للنهي عن القلق في شيء وإن جلّ قال: ﴿فَلَا﴾ ولما

كان ما تضمنه هذا التقسيم أمرًا عظيمًا تشوفت النفس لعلم ما سبب عنه، فحذف النون إيجازًا؛ للإسراع بالإيقاف على المراد والإبلاغ في نفي الكون فقال: ﴿تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ بأن تضطرب من أجله فتكف عن مكاشفتهم بغائظ الإنذار طلبًا لمبادرتهم إلى امتثال الأوامر ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ أي: أنهم لم يفعلوا ذلك لشبهة إذا كشف عنها القناع رجعوا بل لمحض تقليد الآباء، فأقم عليهم الحجة بإبلاغ جميع ما نأمرك به كما فعل من قصصنا عليك أنباءهم غيرَ مخطر في البال شيئًا مما قد يترتب عليه إلى أن ينفذ ما نريد من أوامرنا ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾.

ولما تقدم قريبًا ذكر فرعون مع ذكر كتاب موسى عليه السلام أول السورة، ابتدأ ذكره بحرف التوقع فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ إشارة إلى أن الخلق مهما جاءهم عن الله -ولا يكون إلا مصحوبًا بالأدلة القاطعة- اختلفوا فيه، ومهما تلقفوه عن آبائهم تلقوه بالقبول وسمحوا فيه بالمهج وإن كان منابذًا للعقول، وفصل بين هذا وبين قصة موسى عليه السلام مع فرعون؛ ليكون -مع ما تقدم من الآيات- أوقع في التسلية وأبلغ في التأسية، كما هو شأن كل ما ألقي إلى المحتاج شيئًا فشيئًا.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَا﴾ ولما كان الشرط في حذف الفعل بعد «لما» الجازمة أن يكون مما يتوقع بوقوع فعل قبلها يدل عليه، كان التقدير: يقض بينهم وسيقضي، وهو معنى ما قرن بعدها بلام القسم من قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾.

فإذا علمت أن شأنك في أمتك شأن الرسل في أممهم وأنه لا بد من الاختلاف والجزاء: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

ولما كانت وسطًا بين إفراط وتفريط، وكان التفريط لا يكاد يسلم منه أحد، وهو في الأغلب يورث انكسار النفس والخوف من الله، وكان الإفراط يورث إعجابًا وربما أفضى بالإنسان إلى ظن أنه شارع فينسلخ من الدين، طوى التفريط ونهى عن الإفراط فقال: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ فإن الله إنما أمركم ونهاكم لتهذيب نفوسكم، ولن تطيقوا أن تقدروه حق قدره، فقد رضي منكم الاقتصاد في العمل مع حسن المقاصد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾.

ثم أتبعه النهي عن التفريط فيه بسفول الهمم، ولما كان الحب في الله والبغض فيه من أوثق عرى الإيمان، إشارة إلى ضده الذي هو أوثق عرى الشيطان قال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: وُجد منهم الظلم ولم يقل: الظالمين، أي: بالميل إليهم ولو بالرضى بأعمالهم والتشبه بهم، وحاصل الآيتين: لا تظلموا ولا تستحسنوا أفعال الظالمين.

وقال الرماني: "الركون: السكون إلى الشيء بالمحبة والانصباب إليه، ونقيضه النفور عنه"، ومن إجلال النبي ﷺ: إفراده بالخطاب في الأمر بأفعال الخير، والإتيان بضمير الجمع في النهي عن أفعال الشر، نبه على ذلك أبو حيان ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ولما كان الآدمي محل العجز والتقصير، أتبعه بأعلى مكفّر وأعمِّه وأجلبِه للاستقامة، وهذا يدل على أنها بعد الإيمان أفضل العبادات فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ أي: الطاعات المبنية على أساس الإيمان ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: الصغائر، وأما الكبائر فقد تقدم أنه لا يكفرها إلا التوبة لما فيها من الإشعار بالتهاون بالدين، واجتنابها لا يكفر إلا إذا كان عن نية صالحة كما أفهمه صيغة الافتعال من قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ [النساء: ٣١].

﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ﴾ الصبر هو الإحسان كله وإن ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فلذلك يهون عليهم الصبر؛ لأن الطاعة كلفة فلا تكون إلا بالصبر، وكل ما عداها فهو هوى النفس لا صبر فيه، فالدين كله صبر «حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات»، فهو أكره شيء إلى النفس، والمعين عليه ما في استشعار لزوم الحق من العز والأجر بالطاعة، والعلم بما يعقب من الخير في كل وجه.

ولما كان ما تقدم كله مشيرًا إلى استبعاد إيمان المعاندين بشيء من تدبير آدمي، وكان من طبع البشر عدم الانتهاء عن الخواطر إلا بعد التجربة، كان ربما قيل: لو أجيبوا إلى سؤالهم لربما رجعوا عن كثير من غيّهم، فقال دفعًا له: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ﴾ وفيها معنى التفجع والتأسف لاعتبار كل من كان على مثل حالهم، ويجوز أن تكون مناسبتها: أنه لما ذكر إهلاك القرون الماضية، بين أن سبب الهلاك الإعراض عن نهي منتهك الحرمات مع تمكنهم -بما أودع فيهم من القوى والقدرة- على اختيار جانب الخير والإعراض عن جانب الشر.

﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ﴾ أي: أصحاب ﴿بَقِيَّةٖ﴾ أي: حفظ وخير ومراقبة لما يصلحهم؛ لأن مادة «بقي» تدور على الجمع، ويلزمه القوة والثبات والحفظ ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ أي: يجددون النهي في كل حين، إشارة إلى كثرة المفسدين ﴿عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ والظاهر أن «من» بيانية، أي: هم الذين أنجينا فإنهم نهوا عن الفساد ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بترك النهي عن الفساد ﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ أي: راسخين في الإجرام، وهو قطع حبل الله على الدوام.

ولما لاح بما مضى أن العبرة في الإهلاك والإنجاء للأكثر، أكده بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ ذكّر بالوصف المُفهِم للإحسان تثبيتًا له وتأمينًا ﴿لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ إهلاكًا عامًا ﴿بِظُلۡمٖ﴾ صغير أو كبير ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ أي: عريقون في الإصلاح فيكون الهلاك في غير موقعه.

ثم بيّن انفكاك المشيئة عن الأمر بقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ على الإصلاح ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ لكونهم على أديان شتى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ أي: المحسن إليك بالتأليف بينهم في طاعتك، فإنهم لا يختلفون في أصول الحق ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ﴾ حين بادَروا إلى ما خلقهم له معرضين عن أوامره ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾ وقدمهم لأنهم الأصل في الشر.

﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٨ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ فيسكن؛ لأن المشاركة في الأمور الصعبة تهوّن على الإنسان ما يلقى من الأذى، والإعلام بعقوبات المكذبين فيها تأنيس للمكروب، وعبر بما منه الفأد وهو الحر؛ لأن من لازم الحرارة الاضطراب والتقلب الذي اشتق منه القلب، فيضيق به الصدر.

وبيّن أنه ليس كالأخبار الفارغة ولا المشوبة بالتحريف بقوله: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ولما كان الحق حقًا بالنسبة إلى كل أحد عرّفه، ونكّر ما هو خاص بقوم دون قوم فقال: ﴿وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٩ وَقُل لِّلَّذِينَ﴾ لم تؤثر فيهم هذه المواعظ فهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾.

ولما كان العمل واجبًا في كل حال، قال مؤكدًا لأجل إنكار الكفار أن يدوموا على العمل المخالف لهم مع ما يصل إليهم من الضر: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢٠﴾ لأن ما كان لله فهو دائم بدوامه سبحانه، وحذف النون الثانية اكتفاء بمطلق التأكيد؛ لأنه كاف في الإعلام بالجزم

في النية، وفيه تأدب بالإشارة إلى أن المستقبل أمر لا اطلاع عليه لغير الله، فينبغي ألا يبالغ في التأكيد فيه غيره، وهذا بخلاف ما في سورة فصلت مما هو جار على ألسنة الكفرة.

﴿وَانتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢١ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ﴾ بعد أن كان ظهر للجاهل أنه خرج عنه ﴿ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ في الحال على لبس وخفاء، وفي المآل على ظهور وجلاء، فهو شامل القدرة والعلم، فلا بد من أن يرجع إليه أمرك وأمر أعدائك فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وسبب عن إسناد الأمور كلها إليه قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾ ولا تهديد أبلغ من العلم، وهذا بعينه مضمون مطلعها قوله أولها: ﴿ألا تبعدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير﴾[٦٦].

---

(٦٦) أو يقال: لما دارت السورة حول فريقي الحق والباطل والصراع بينهما وكلمات الله فيهما، ختمها بعبارة جامعة لكل ما يحصل في الدنيا من مثل ذلك، فرغّب فريق الحق بالإصلاح على قراءة الخطاب، وهدد فريق الباطل على قراءة الغيب، والله أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى؛ لتمام علم منزله وشمول قدرته قولًا وفعلًا، وهذه القصة أنسب الأشياء لهذا المقصود، فلذلك سميت سورة يوسف.

لما تقدمت القصص والآيات القاطعة بأن القرآن من عنده وأنه مهما شاءه كان وأشار إلى أنه ناصر عابديه؛ لأنه إليه يرجع الأمر كله، بيّن هذه الأغراض بهذه القصة العظيمة الطويلة التي لقي فيها يوسف ما لقي من أقرب الناس إليه ومن غيرهم، ثم كانت له العاقبة فيه لصبره وتفويضه الأمر إلى الله؛ تأسية وتسلية لهذا النبي الأمين فيما يلقى من أقاربه الكافرين وإشارة إلى البشارة بما وقع له ﷺ يوم الفتح من ملك قيادهم ومنه عليهم.

وفي إشارتها بشارة بأن المحسود يعان إن عمل ما هو الأحرى به، ومن فوائدها: التنبيه على أن الحسد داء عظيم شديد التمكن في النفوس حتى أنه ربما غلب أهل الصلاح، وتركت إعادتها دون غيرها من القصص صونًا للأكابر عن ذكر ما ربما أوجب اعتقاد نقص، وفي عدم تكرارها في القرآن رد على من قال: كررت قصص الأنبياء عليهم السلام تمكينًا لفصاحتها بترادف السياق، وفي تكرير قصصهم رد على من قال: إن هذه لم تكرر لئلا تفتر فصاحتها، فكأن عدم تكريرها لأن مقاصد السور لم تقتض ذلك.

هذا مناسبة ما بين السورتين، وأما مناسبة الأول للآخر فإنه تعالى لما أخبر في آخر تلك بتمام علمه وشمول قدرته، دل على ذلك في أول هذه بما فعل في كلامه من أنه تعالى يقدر على أن يأتي بما تذهب الأفهام والعقول في معناه كل مذهب ولا تقف من ذلك على أمر محقق، وعلى أن يأتي بما يفهم معناه بأوائل النظر ثم لا يزال يبرز منه من دقائق المعاني كلما كرر التأمل إلى حد يعلم أنه معجوز عن كل ما فيه فقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولما تقدم أول سورتي يونس وهود وصفه بالحكمة والإحكام والتفصيل، وصف هنا بأخص من ذلك فقال: ﴿ٱلۡمُبِينِ ١﴾ أي: البين في نفسه أنه جامع معجز، والموضح لجميع ما حوى.

ثم علل كونه مبينًا بقوله -معبرًا بالإنزال لأنه في سياق تكذيبهم به بخلاف الجعل كما يأتي في الزخرف-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ قال أبو حيان: "«لعل»

ترجٍ فيه معنى التعليل"، وهذه الآية تدل على أن اللسان العربي أفصح الألسنة وأوسعها وأقومها وأعدلها، لأن من المقرر أن القول -وإن خص بخطابه قوم- يكون عًاما لمن سواهم.

ولما بين أنه يقص عليه من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده، قال مثبتًا ومعللًا بعلة هي أخص من الأولى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ وقد ضمنها سبحانه من النكت والحكم أمرًا عظيمًا، وذكر فيها محاسن الأخلاق والتوحيد والنبوة والإعجاز والتعبير والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجميع الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ولما كان إنزال القرآن مجمع الخيرات عيّن المراد فقال: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الذي قالوا فيه: إنه مفترى ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ وهو ناظر إلى قوله: ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال ابن الزبير: "هذه السورة من جملة ما قص عليه ﷺ مما فيه التثبيت الممنوح في آخر هود، **وإنما أفردت عن قصص الرسل** مع أنهم في سورة واحدة؛ لمفارقة مضمونها لها، فإن تلك قصص إرسالهم عليهم السلام أما هذه فحاصلها فرج بعد شدة وتعريف بحسن عاقبة الصبر واليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة، وقصة يوسف عليه السلام أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر وقلة ذات أيديهم إلى أن جمع الله شملهم وأورثهم الأرض وأيدهم بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم.

وأما تأخر ذكرها عنها فلأنها إخبار بعاقبة من آمن فلم يضره ما كان، ثم إن ذكر أحوال المؤمنين مع المنافقين(٦٧): مما يجب أن يعقَّب بهذه القصة من حيث عاقبة الصبر والحض عليه، وكذلك قوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ [هود: ١١٤، ١١٥، ١١٨] الآية، أما نسبتها للأولى فإن ندم إخوة يوسف وامرأة العزيز من إذهاب الحسنة السيئة، وأما نسبتها للثانية فإنه أمر نبيه ﷺ بالصبر ثم ساق القصة، وأما الثالثة فلا أعجب من حال إخوة فضلاء لأب من الأنبياء جرى بينهم من التشتت ما كان عبرة لأولي الألباب".

ثم أبدل من ﴿أحسن القصص﴾: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ

(٦٧) يقصد سورة التوبة، والله أعلم.

لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ ولما كانت شفقة الأخوة تمنع عادة من مثل ذلك، علله تقريبًا له بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ أي: واضح العداوة، فيوقعها بما يخيله من فوت الحظوظ بتركها، وفي الآية دليل على أن أمر الرؤيا مشكل فلا ينبغي أن تقص إلا على شفيق ناصح.

ولما علم يعقوب ﷺ من هذه الرؤيا ما سيصير إليه ولده من النبوة والملك قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ من الرؤيا وغيرها من كتب الله وسنن الأنبياء ودلالات المخلوقات؛ لأن الملك والنبوة لا يقومان إلا بالعلم والتأويل المنتهي الذي يصير إليه المعنى ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ ولما كان السياق للعلم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾.

ولما كان ذلك، توقع السامع ما يكون بينهم في شأن الرؤيا فقال: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ أي: بسبب هذه الرؤيا ﴿ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ والحب: ميل يدعو إلى إرادة الخير والنفع للمحبوب، بخلاف الشهوة فإنها ميل النفس ومنازعتها إلى ما فيه لذتها ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ وأما هما فصغيران لا كفاية عندهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ حيث فضلهما علينا؛ لأنّا في البنوة سواء ولنا مزية تقتضي تفضيلنا ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ أي: مجهولة فيهلك فيها إن كرهتم مباشرة قتله ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ ببره وبالتوبة من ذنب واحد يزيل الموجب للحسد الملزوم لذنوب متصلة من البغضاء والمقاطعة.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ ولما كان السياق لأن الأمر كله لله فهو ينجي من يشاء بما يشاء، لم يتعلق القصد ببيانه، وإشعارًا بأنه يجب قول النصح من أي قائل كان، وألا يحقر الإنسان نفسه في بذل النصح على أي حال كان ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل أكبر الكبائر بعد الشرك ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ فإنه كاف في المقصود ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ﴾ ولا بد ﴿فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ والنصح دليل الأمانة وسببها، ولهذا قرنا في قوله: ﴿ناصح أمين﴾ [الأعراف: ٦٨].

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا نَرۡتَعۡ وَنَلۡعَبۡ﴾ أي: نعمل ما تشتهي الأنفس من المباحات تاركين الجد وهو كل ما فيه كلفة ومشقة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ أي: هذا النوع، كأنه كان كثيرًا بأرضهم ﴿وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ وأعرضوا عن جواب الأول؛ لأنه لا يكون إلا بما يوغر صدره ويكشف حسدهم، وذلك مما يحول بينهم وبين المراد ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ بأنك يوسف، وكان حين ألقوه ابن اثنتي عشرة سنة، قاله الحسن.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾ في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم ضد ما جاؤوا به من الاعتذار ﴿يَبۡكُونَ ١٦﴾ والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التصنّع ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾.

ولما علموا أنه لا يصدّقهم لصحة فراسته ولأن الكذب في نفسه لا يخلو عن دليل على بطلانه، أعملوا الحيلة فقال: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ أي: مكذوب، أطلق عليه المصدر مبالغة؛ لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخلة ذبحوها ولطخوه بدمها، نقله الرماني عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مجاهد، وكان في القميص ثلاث آيات: دلالته على كذبهم لعدم تمزقه، ودلالته على صدق يوسف عليه السلام في قده من دبر، وعود البصر إلى أبيه به.

ولما كانت العادة أن الذئب يبقي من المأكول شيئًا يُعرف معه أنه هو، فلو كان كذلك لأتوا به تبرئة لهم وليدفنوه مع أسلافهم، كان كذبهم ظاهرًا، وقد كان قادرًا على مطالبتهم بذلك ولكنه علم أنهم ما قالوه إلا بعد عزم صادق على أمور لا تطاق، فخاف أن يفتح البحث من الشرور أكثر مما جاؤوا به بدليل قوله بعد ذلك: ﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ [يوسف: ٨٧] ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ أي: زينت وسهلت ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ وهو الذي لا شكوى معه للخلق، ولا يقال: إنهم بهذا جمعوا أوصاف المنافق: «إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان» لأن هذا وقع منهم مرة، والمنافق يكون ذلك فعله دائمًا أو غالبًا ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

ولما قال: ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ شرع في أسبابه فقال: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾. ولما كان سرورهم به مع ما هو عليه من الجمال والهيبة مقتضيًا لأن يغالوا بثمنه، أخبر أنهم لم

يفعلوا؛ إجراءً لأموره كلها على خرق العوائد فقال: ﴿۞وَشَرَوْهُ﴾ وعبر بـ«شرى» دون «باع» ليدل على اللجاجة وهي التمادي في الانتشار ﴿بِثَمَنٍ بَخۡسٍ﴾ أي: قليل، ولذا أبدل منه تأكيدًا وتعجيبًا: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: يسهل عدها لقلتها.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾ خاصة، انتهازًا للفرصة قبل أن يعرف فينزع منهم ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ والزهد: انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه عند الزاهد، وهذا يعيّن أن الضمير للسيارة؛ لأن حال إخوته فيه أشد من الزهد.

ولما كانت العادة جارية بأن القن يمتهن، أخبر تعالى أنه أكرمه عن ذلك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ أي أخذه برغبة عظيمة، والتعبير بهذا دون ما هو أخصر منه؛ للتنبيه على أن بيعه ظلم وأنه لم يدخل في ملك أحد أصلًا ﴿مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي: موضع مقامه فكيف به نفسه؛ ليرغب في المقام عندنا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ ولما كان هذا إنما هو لما مكن له في القلوب مما أوجب توقيره، أخبر تعالى بمنتهى أمره فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ فدل بالتمكين في الأرض على لازمه من الملك والعدل، وبالتعليم على ملزومه وهو النبوة.

ولما كان من أعجب العجب أن يتمكن من أرض هو فيها غريب مستعبد، قال تعالى نافيًا لهذا العجب: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ وكم في هذه القصة مما يدل على ذلك! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ لعدم التأمل أنه تعالى عالٍ على كل أمر وأن الحكم له وحده؛ لاشتغالهم بالنظر في الظواهر للأسباب التي يقيمها ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ أي: نبوة أو ملكة يكف بها النفس عن هواها، فلا يقول ولا يفعل إلا أمرًا فصلًا تدعو إليه الحكمة ﴿وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾.

ولما أخبر أن سبب النعمة عليه إحسانه أتبعه دليله فقال: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ أي: راجعته الخطاب ودارت عليه بالحيل؛ لأن مادة «راد» تدور على الدوران، وهو الرجوع إلى موضع الابتداء ﴿ٱلَّتِي﴾ هي متمكنة منه بكونه ﴿هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ وهو في عنفوان الشباب ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: مراودة لم يكن لها سبب إلا نفسه ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ أي: تغليقًا كثيرًا ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ﴾ أي: تهيأت وتصنعت ﴿لَكَۚ﴾ خاصة فأقبل إلي وامتثل أمري.

ولما كان يوسف محسنًا قد أوتي الكتاب والحكمة، بادر إلى الاعتصام بمن بيده ملكوت كل شيء فـ﴿قَالَ﴾ أعوذ من هذا الأمر ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ المحسن إلي في كل أمر، فأنا أرجو إحسانه في هذا ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ بأن جعل لي في قلب سيدك مكانة عظيمة حتى ائتمنني على كل ما لديه، فإن خالفت أمر ربي فخنت الأمانة كنت ظالمًا واضعًا للشيء في غير موضعه، وهذا التقدير -مع كونه أليق بالصالحين المراقبين- أحسن؛ لأنه يستلزم نصح العزيز، ولو أعدنا الضمير على العزيز لم يستلزم التقوى، ولما كان لسان حالها يقول: وإذا كان ظلمًا كان ماذا؟ علله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

ولما كان هذا الفعل لا يتم حسنه إلا عند غلبة الهوى قال: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ أي: أوقعت العزم الصادق ولا مانع لها ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ كما هو شأن الفحول عند توفر الأسباب ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ الذي آتاه من الحكم والعلم، أي: لهمّ بها، ولكنه لشدة المراقبة رأى البرهان فلم يغطه وفور شهوة ولا غلبة هوى فلم يهمّ، وهذا التقدير هو اللائق بمثله، وهو الذي تدل عليه هذه الآيات من صرف السوء عنه وقيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] الآية، من مطلق الإرادة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها﴾ [القصص: ١٠] أي: لأبدت به.

وأما ما روي عن السلف مما يعارض ذلك فلم يصح منه شيء، مع أنه إذا جُمع تناقض فتكاذب، ولا يساعد على شيء منها كلام العرب؛ لأنهم قدَّروا جواب «لولا» المحذوف بما لا دليل عليه من السياق، نبه على ذلك أبو حيان وسبقه إليه الرازي.

وقدّم ما يدل على جواب الشرط؛ ليكون أول ما يقرع السمع: ما يدل على أنه كان في غاية القدرة على الفعل، وأنه ما منعه منه إلا العلم بالله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التثبيت نثبته في كل أمر ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الهم بالزنا وغيره ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ أي: الزنا وغيره ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ وهذا مع قول إبليس: ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [ص: ٨٣] شهادة منه أن يوسف ﷺ بريء من الهم في هذه الواقعة.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ هذا للهرب منها وهذه لمنعه، فأوصل الفعل إلى المفعول بدون «إلى» دليلًا على أن كلا منهما بذل أقصى جهده في السبق، فلحقته عند الباب الأقصى ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: زوجها، ولم يقل: سيدهما لأن يوسف لم يدخل في رق؛ لأن المسلم لا يُملك وهو السيد ﴿لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ على كيفية غريبة جدًا، هكذا ينبغي أن يفهم هذا

المقام؛ لأن السيد لا يقدر على فتحه فضلًا عن الوصول إلى غيره؛ لتغليق الجميع ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ﴾ بضمير الغيبة لاستيحائه عن مواجهتها بإشارة أو خطاب ﴿رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وما قال ذلك إلا حين اضطرته إليه بنسبته إلى الخيانة، مع أن صدقه لا يحتاج إلى بيان أكثر من كونهما عند الباب، ولو كان الطلب منه لكانا في محل جلوسها وهو صدر البيت.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ لأنه لولا إقباله وهي تدفعه عنها لما وقع ذلك. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ لأنه لولا إدباره عنها وإقبالها عليه لما وقع ذلك، فعرف سيدها صحة ذلك بلا شبهة، وقدم أمارة صدقها لأنه مما يحبه سيدها، فهو في الظاهر اهتمام بها وفي الحقيقة تقرير لكذبها مرتين: الأولى باللزوم، والثانية بالمطابقة.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القذف له ﴿مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاستعظمه لأنه أدق من مكر الرجل وأخفى ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ بأن لا تذكره ولا تهتم به لأن عذرك قد بان ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ولما كان في هذا من شرف العفة ما يدل على كمال العصمة أكده بقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ فأضفنها إلى زوجها إرادة الإشاعة للخبر؛ لأن النفس إلى سماع أخبار أولي الأخطار أميل ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إفهامًا لأن الإصرار على المراودة صار لها كالسجية ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

ودل بالفاء على أن كلامهن نقل إليها بسرعة فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ وكأنهن أردن بهذا الكلام رؤيته فلذا سماه مكرًا ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن ما يُقطع من الأطعمة هذا الظاهر، وباطنه إقامة الحجة عليهن لتسكت قالتهن ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فامتثل كما هو دأبه معها في كل ما لا معصية فيه ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ﴾ أي: جرحن جراحات كثيرة ﴿أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأنه فاقهم في الحسن وأعرض عن الشهوة من غير علة نراها ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ وذلك لما ركز في الطباع من نسبة كل معنى فائق الحسن إلى الملائكة وإن كانوا غير مرئيين، كما ركز فيها نسبة ضد ذلك إلى الشياطين.

﴿۞قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فقال له النسوة: أطعها لئلا تسجنك وتهينك! فـ﴿قَالَ﴾ دافعًا عن نفسه ما وسوس له الشيطان في أمر جمالها ورئاستها ومالها ومن مكر النسوة اللاتي نوّعن له القول ترغيبًا وترهيبًا، عالمًا بأن القوة البشرية تضعف عن حمل مثل هذا إلا بتأييد عظيم ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ أي: أقل بغضًا ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ﴾ لِما عُلم من سوء عاقبة المعصية بعد انقضاء اللذة.

فأطلق المحبة على السجن وهو مقطوع ببغضه؛ ليدلّ على أن ذلك الذي يُظنّ حبه أبغض إليه من هذا المقطوع ببغضه، وكذا كل أمرين فوضل بينهما في وصف يَمنع من حمله على الحقيقة كونُ المفضَّل موصوفًا بضده قطعًا.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمل ميلًا عظيمًا؛ لما جبل الآدمي عليه من الميل النفساني إلى مثل ذلك، ومتى انخرق سياج صيانته بواحدة تبعها أمثالها واتسع الخرق على الراقع، ولذلك قال: ﴿وَأَكُن﴾ أي: كونًا هو كالجبلة ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ بارتكاب مثل أفعالهم. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إكرامًا له وتحقيقًا لما سبق من وعده في قوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾ [يوسف: ٢٤] الآية، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ﴾ ثم علله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بالنيات، فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم.

ولما كانت هذه الأمور موجبة لرفعته، فكان حينئذ أبعد شيء عن السجن لو كان الناس يجرون أمورهم على السداد، أخبر تعالى أنهم خالفوا داعي السداد واستبدلوا الغيّ بالرشاد فقال معبرًا بأداة التراخي لذلك: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ القاطعة ببراءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: إلى أن تنسى تلك الإشاعة، ويظهر الناس أنها لو كانت تحبه ما سعت في سجنه، قال الرازي: "وعلى الجملة فكل أحوال يوسف عليه السلام لطف في عنف ويسر في عسر ورجاء في يأس، والقدر ربما يساق إلى المقدور بعنف وربما يساق بلطف، والقهر والعنف أحمد عاقبة وأقل تبعة".

ولما كان السجن سببًا ظاهرًا في الإهانة، قص من أمره فيه ما حاصله أنه جعله سبب الكرامة، كل ذلك بيانًا للغلبة على الأمر فقال: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ﴾ خباز الملك وساقيه، ورُفع إليه أن الخباز أراد أن يسمه وظن أن الساقي مالأه على ذلك، و«مع» تدل على الصحبة واستحداثها، فالمعنى أن الثلاثة دخلوا في آن واحد، قاله أبو حيان.

وكان يوسف عليه السلام يحسن إلى أهل السجن ويهديهم إلى الخير ويذكرهم بالله، وكان في السجن ناس قد انقطع رجاءهم فلم يزل يرفق بهم حتى مالت إليه القلوب فـ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ﴾ مؤكدًا إحسانه بوصف نفسه بالعلم، انتهازًا لفرصة النصيحة عند هذا الإذعان بأعظم ما يكون النصح به وهو التوحيد.

﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا﴾ ونبه على غزارة علمه بالتبعيض في قوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾ وبيانًا للأسباب التي حصل له ذلك بها؛ ليسعى كل ذي همة إلى تعاطيها ﴿إِنِّى تَرَكْتُ﴾ مع كونه لم يلابس تلك الملة قط؛ تأنيسًا لهما واستدراجًا إلى تركهما ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ منبهًا على أن الكفر به هو القاطع عن العلم وعن كل خير.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وكل عطاء الله فضل لأنه لا واجب عليه، فكان لذلك واجبًا على كل أحد إخلاص التوحيد له شكرًا على فضله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لما لهم من الاضطراب مع الهوى عموا عن هذا الواجب فهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ بإخلاص العمل له.

ولما أقام لهم الدليل على ما هو عليه من الدين الحنيفي بعد أن قرر لهم أمر نبوته وأقام دليلها بما يخبرهم به من المغيبات ودعاهم إلى ما يجب عليهم من التوحيد، وكان أكثر الخلق يقرون بالإله الحق ولكنهم يشركون به، أتبعه برهان التمانع على فساد كل ملة غير الإسلام؛ تأييدًا لأدلة النقل بقاطع العقل فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ متباينون بالذوات والحقائق وكلهم محتاجون مع كونهم جمادًا، ولو كانوا أحياء لأمكن تمانعهم فأدى إلى إمكان عجز كل منهم، القاطع بعدم صلاحيته للإلهية ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ فلا يحتاج إلى شيء أصلًا، وسماها أربابًا وذكر أفعل التفضيل؛ ليكون أدعى إلى القبول.

﴿ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ لا معاني لها فهي منتف عنها خاصة الإلهية، ولما كان نفي الإنزال كافيًا في الإبانة للهدى؛ لأن عبادة الأصنام باطلة، ولم يكن في السياق كالأعراف مجادلة توجب مماحكة ومعالجة، قال نافيًا للإنزال

بأي وصف كان: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: برهان تتسلط به على تعظيمها، فانتفى تعظيمها لذاتها أو لغيرها، لأن كل من يمكن أن يكون له ثانٍ فهو مقهور، فأنتج هذا قطعًا أن الحكم إنما هو لله وهو لم يحكم بتعظيمها، وهذا معنى قوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لِما لهم من الاضطراب مع الحظوظ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ لأنهم لا ينتفعون بعقولهم فلذلك لا يفردون الله بالعبادة.

ثم أقبل على حاجتهما تأكيدًا للذي قرره فقال: ﴿*يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ﴾ يوسف عليه السلام عند ﴿رَبِّهِۦ﴾ بسبب اعتماده عليه في ذلك ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ﴾ من حين دخل إلى أن خرج ﴿بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ ليُعلم أن جميع الأسباب إنما أثرها بالله تعالى، وحقيقة البضع من الثلاث إلى التسع، والمروي هنا أنها سبع.

ولما بطل هذا السبب الذي أمر به يوسف عليه السلام أثار الله سبحانه سببًا ينفذ به ما أراد فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي﴾ ولما كان مراده أن لا يخرجوا بالجواب عن القصد ولا يبعدوا به عبر بما يفهم الظرف فقال: ﴿فِي رُءۡيَٰيَ﴾ ومنعهم من الكلام بغير علم بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ وفي الآية ما يوجبه حال العلماء من حاجة الملوك إليهم.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ﴾ أي: أخلاط ﴿أَحۡلَٰمٖۖ﴾ وهو ما يكون من الرؤيا باطلًا لكونه من حديث النفس أو وسوسة الشيطان، وأما الرؤيا التي تكون من الملك فهي الصحيحة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ فدلسوا من غير وجه: جمعوا وهي حلم واحد؛ ليجعلوها أضغاثًا لا مدلول لها، ونفوا عن أنفسهم العلم المطلق المستلزم لنفي العلم بالمقيد بعد أن أتوا بالكلام على هذه الصورة؛ ليوهموا أنهم ما جهلوها إلا لكونها أضغاثًا، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وساقه سياق الترجي استعجالًا ليوسف عليه السلام فإن الناس في غاية التلفت إليه، ولما كان تصديقهم ليوسف عليه السلام وعلمهم بعد ذلك

بفضله وعملهم بما أمرهم به مظنونًا قال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: على عادتكم.

ثم أرشدهم إلى ما يتقوون به على ما يأتي من الشر فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ لأسمع ذلك منه وأكرمه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الملك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ مستفهمًا: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ ولوّح بمكرهن به ولم يصرح ولا ذكر امرأة العزيز كرمًا وحياء فقال: ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ فإنهن يعلمن ببراءتي ومراودة امرأة العزيز ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ وأنا لا أخرج حتى يعلم ربك ما خفي عنه من أمرهن الذي علمه ربي؛ لتظهر براءتي على رؤوس الأشهاد وإلا لم ينقطع عني كلام الحاسدين، وفي هذا دليل على أن السعي في براءة العرض حسن بل واجب.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ دليل على أن براءته وعفته كانت متحققة عند كل من علم القصة، لكنهم ما كانوا يعرفون المراودة هل هي لهن كلهن أو لبعضهن؟ فمكرن في جوابهن إذ سألهن عما عملن من السوء معه، فأجبن بنفي السوء عنه عليه السلام و﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ فقد شهد النسوة كلهن ببراءته وأنه لم يقع منه ما ينسب به شيء من السوء إليه، فمن نسب إليه بعد ذلك همًّا أو غيرَه فهو تابع للهوى في نبي من المخلصين.

ولما انجلى الأمر أمَر الملك بإحضاره ليستعين به، لكن لما كانت براءة الصدّيق أهم من ذلك قدم بقية الكلام فيها عليه، وليكون كلامه في براءته متصلًا بكلام النسوة في ذلك، والذي دل على أن ذلك كلامه: ما فيه من الحكم التي لا يعرفها في ذلك الزمان غيره، فلما رجع الرسول إليه وأخبره بشهادتهن قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ أي: العزيز علمًا مؤكدًا ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في أهله ولا في غيرها ﴿بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ بل لا بد أن يقيم سببًا لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التعمية، والمعنى: أني لما كنت بريئًا سدد الله أمري وجعل عاقبتي إلى خير كبير وبراءة تامة، ولما كان غيري خائنًا أنطقه الله بالإقرار بها.

ولما كان ذلك ربما جر إلى الإعجاب قال: ﴿۞وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ أي: لم أقصد بما تقدم مجرد التزكية للنفس، وعلله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ بكفها عن الأمر به أو عن فعله بعد الأمر به، أو: إلا ما رحمه ربي من النفوس فلا يأمر بسوء ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ صرح به ولم يستغنِ بضميره كراهية الإلباس؛ لما تخلل بينه وبين جواب امرأة العزيز من كلام يوسف عليه السلام، ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ قطعًا لطمع العزيز عنه ودفعًا لتوهم أنه يرده إليه، ولعل هذا هو مراد يوسف عليه السلام بالتلبث في السجن إلى انكشاف الحال، خوفًا من أن يرجع إلى العزيز فتعود المرأة إلى حالها فيزداد البلاء.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وشاهد فيه ما شاهد من جلال النبوة وخلال السيادة ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ بوجوه صلاحه واستنمائه. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما مكنا ليوسف في قلوب الناس ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ بإنجاح جميع مقاصده لدخولها كلها تحت سلطانه، وكان هذا لأمرين: أن لنا الأمر كله، وأنه محسن: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾.

ولما كان هذا عز الدنيا لا يعد في الحقيقة إلا إن كان موصولًا بنعيم الآخرة، نبه على ما له في الآخرة مما لا يعد هذا في جنبه شيئًا، فقال مؤكدًا؛ لتكذيب الكفرة بذلك: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ ولما كان تعليق الأحكام على الأوصاف يفيد التعميم فيرغّب فيها أو يرهّب قال: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

وقد فهم من هذه القصة أن الغالب على طبع مصر الرداءة: بغض الغريب واستذلال الضعيف والخضوع للقوي، فإنهم أساؤوا إليه بالسجن بعد تحقق البراءة ثم عفا عنهم وأحسن إليهم، فجزوه على ذلك بأن استعبدوا أولاده وأولاد إخوته بعده وساموهم سوء العذاب، والدليل على أن هذا طبع البلد: أن بني إسرائيل لما شرفهم الله بالآيات كانوا كل قليل ينكثون فعاقبهم بالتيه، وكان يسميهم الجيل المعوج؛ لما علم من سوء طباعهم، ثم صار أولادهم يمتثلون الأوامر حتى ملكوا ما وعد الله به آباءهم من البلاد(٦٨).

(٦٨) ومن المعلوم أن المدار على الأوصاف الناشئة عن الأحوال، فالمعتبِر من يقيس على ذلك الأشباهَ ولا يجمد مع الأسماء، والله أعلم.

ثم جاءت السنون المجدبة فأخرج ما كان ادخره فتسامع به الناس فجاؤوا للامتيار منه من كل أوب ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ لأنه كان يباشر الأمور بنفسه كما هو فعل الكفاة الحَزَمة ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ لأنه كان مرتقبًا لحضورهم لعلمه بجدب بلادهم، ولم يتغير عليه كبير من حالهم لمفارقته إياهم رجالًا ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ لعدم خطوره ببالهم لطول العهد مع ما تغير عليهم من هيئته بالسن والملك وغيره مما ينكر معه المعروف.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ وقال لهم: لعلكم جواسيس؟ فأخبروه بحالهم وبأبيهم وأخيهم، فـ﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ يأتي برسالة من أبيكم حتى أصدقكم، أو أنهم طلبوا لأخيهم حملًا فأظهر أنه لم يصدقهم وطلب إحضاره ليعطيه، فإنه كان يوزع الطعام على قدر الكفاية ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ﴾ وعرفهم أنه لا يمنعهم من غيره فقال: ﴿عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾ أي: أنها هي بعينها رددتها عليهم إحسانًا إليهم ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢﴾ لردها تورعًا أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها أو طمعًا في مثل ذلك الإحسان.

وإنما لم يبادر إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور على أبيه؛ لأن ذلك غير ممكن عادة، ودل على إسراعهم في الرجوع بالفاء فقال: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ لأخينا بنيامين لغيبته، ولنا كلنا بعد هذه المرة إن لم نذهب به معنا ليظهر صدقنا ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ وأكدوا لما تقدم من فعلهم بيوسف عليه السلام مما يوجب الارتياب بهم.

فعزم على إرساله معهم ولكنه ألتجأ إلى الله تعالى غير قانع بوعدهم في حفظه؛ لما سبق منهم من مثله في يوسف عليه السلام بأن ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ منكم ومن كل أحد ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ فهو أرحم بي من أن يفجعني به بعد مصيبتي بأخيه.

﴿۞وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ أي: أيّ شيء نريد؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ هل فوق هذا من إكرام! ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: نجلب إليهم الميرة، وهي الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ تأكيدًا للوعد بحفظه

وبيانًا لعدم ضرر في سفره، ويدل على ما في التوراة من أنه كان سجن أحدهم ليأتوا بأخيهم الأصغر قوله: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ فيكون جملة ما نأتي به اثني عشر حملًا، لكل منا حمل وللمسجون حملان ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ كل ذلك زيادة في التوثيق لِما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام وإن كان الاعتماد إنما هو على الله، وهذا من باب «اعقلها وتوكل»، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾.

ولما كانوا أحد عشر رجًلا إخوة أهل جمال وبسطة وقد شهروا بعض الشهرة بسبب ما دار بينهم وبين يوسف عليه السلام في المرة الأولى فكانوا مظنة لأن ترمقهم الأبصار قال: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ ولم يوصهم في المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مع شغل الناس بما هم فيه من القحط ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ لئلا يصابوا بالعين، فإنها حق وهي من قدر الله وعن النبي ﷺ: «يحضر بها الشيطان وحسد ابن آدم».

وهذا الاحتياط أخذ بالأسباب المأمور بها لأنها من القدر، لا تحرز من القدر، ولذا قال مبينًا أنه إنما قصد تعاطي الأسباب على ما أمر الله والأمر بعد ذلك إليه، إن شاء سبّب عنها مسبباتها، وإن شاء أبطلها وأقام أسبابًا تضادها ويتأثر عنها المحذور: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ وعن علي رضي الله عنه: "وأعجب ما في الإنسان قلبه، إن أفاد مالًا أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة شغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد" ثم سئل عن القدر فقال: "سر الله فلا تتكلفه".

﴿وَلَمَّا﴾ وعطْفه بالواو يدل على أنهم ما أسرعوا الكرّة في هذه المرة خوفًا من أن يقول لهم: لم يفرغ ما عندكم حتى تضطروا إلى الاستبدال به، والزمان زمان رفق لا زمان تبسط ﴿دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ يعقوب وأبرزها إلى أولاده فعملوا فيها بمراده، فأغنى عنهم ذلك الخلاص من عقوق أبيهم فقط، فإنهم ابتلوا في هذه السفرة بما لم يجدوا منه خلاصًا، وهو نسبتهم إلى السرقة وأسر أخيهم.

ولما كان ذلك ربما أوهم أنه لا فائدة في الاحتياط، أشار إلى رده بمدح يعقوب ﷺ حثًا على الاقتداء به في ذلك فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ﴾ بحكمَي التكليف والتقدير ﴿لِّمَا﴾ أي: للذي

﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أو: لأجل تعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦٨﴾ أي: ليسوا بذوي علم لما علّمناهم؛ لإعراضهم عنه واستفراغ قواهم فيما وقع التكفل لهم به من أحوال الدنيا، ومغالبة فطرهم السليمة بردها إلى ما تدعو إليه الحظوظ والشهوات.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ وكأنه عطف بالفاء لإسراعه في تجهيزهم في هذه المرة قصدًا إلى أخذ أخيه بالحيلة التي دبرها، ولم يعطف في الأولى بالفاء؛ ليتعرّف أخبارهم في طول المدة من حيث لا يشعرون ﴿بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ ليحتال بذلك على إبقائه عنده مع تحقق البراءة عن قرب، فهو من باب ارتكاب أخف الضررين.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ أي: حقيقةً بما فعلتم بيوسف عليه السلام، أو مجازًا بأنكم فاعلون فعل السارق وهو أخذ ما ليس له في خفاء، ويُحتمل أنه لم يأمر به حتى يحتاج إلى تصحيحه وإنما فهمه المؤذن من قوله: صواعي مع الركب، أو نحوه مما هو حق في نفسه، وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه التلطف في بلوغ المراد بظاهرٍ جميل وباطنٍ حق مما يخفى على كثير من الناس موقعه؛ لأنه أنفذ له وأنجح للمطلوب.

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ بما جربتم من أمانتنا في ردنا لبضاعتنا التي وجدناها في رحالنا وغير ذلك. ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ بأن نرقّه في سرقته.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إبعادًا عن التهمة ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ ولما كان هذا كيدًا عظيمًا في أخذ أخيه بحكمهم قال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ بأن علمناه إياه جزاء لهم على كيدهم به ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ يعني ملك مصر؛ لأن جزاء السارق عندهم غير هذا ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ذلك بسبب يقيمه كهذا الذي هو حكم السارق، فيخليهم الملك وما حكموا به على أنفسهم ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ وهو الله تعالى فالتنوين للتعظيم، فهو يسبب من الأسباب ما تطيح له أسباب العلماء.

﴿۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ فلم يجزموا لعلمهم بأمانته وظنهم أن هذا الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم، وإنما أوهى ظنهم سكوت أخيهم عن الاعتذار به ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون يوسف عليه السلام وذلك أنه قيل: إن عمته أرادت أن يمكث عندها فخبّأت تحت ثيابه منطقة أبيها إسحاق عليه السلام ثم قالت: فقدت منطقة أبي فاكشفوا أهل البيت، فوجدوها مع يوسف فسمح يعقوب حينئذ ببقائه عندها.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ ولو بعد حين ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أي: من يوسف وأخيه، لأن ما نسب إليهما من الشر إنما هو ظاهرًا لخير اقتضاه، وأما أنتم ففعلتكم بيوسف شر مقصود منكم ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: سرق متاعنا، لأنه لم يقع منه قبل ذلك ما يصحح إطلاق الوصف عليه ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ في دينكم، فلم تطلبون ما هو ظلم عندكم.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ﴾ أي: انفردوا ﴿نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ وهو روبيل ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ﴾ أي: تفريطًا عظيمًا، فإن زيادة «ما» تدل على إرادته لذلك ﴿فِي يُوسُفَۖ﴾ فلا يصدقكم أبوكم أصلًا، بل يضم هذه إلى تلك فيعلم بها خيانتكم قطعًا ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أفارقها ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ ظاهرًا من رؤيتنا الصواع يخرج من وعائه، والشهادة: الخبر عن إحساس قول أو فعل، وتجوز بما أدى إليه الدليل القطعي ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١﴾ فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ﴾ لم تصح نسبة ابني إلى السرقة ظاهرًا ولا باطنًا، أي: لم يأخذ شيئًا في خفاء ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ أي: حدثتكم بأمر ترتب عليه ذلك، وكلا الأمرين صحيح أما نفي السرقة فواضح وأما الإثبات فلأنه لولا فعلهم بيوسف لِما سولت لهم فيه أنفسهم لم يقع هذا الأمر لبنيامين ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ﴾ أي: بيوسف وبنيامين وروبيل.

وفي قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ ما يدل الفطن على أنه تفرس أن هذه الأفعال نشأت عن يوسف عليه السلام ﴿إِنَّه هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨٣﴾ وقدم العلم لأن الحال داع إليه بما غاب من الأسباب أكثر من دعائه إلى معرفة حكمتها.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ والألف بدل عن ياء الإضافة لتدل على بلوغ الأسف ما لا حد له ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وخصه لأنه قاعدة إخوانه تفرع منها ما بعدها ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤﴾ وما ساء ظنه قط.

فلما رأوا أنه قد فاتهم ما أرادوه بذهاب يوسف من صلاح الحال مع أبيهم ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾. فشفى عيّ نفسه بما رأى من غلظة بنيه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ أي: نعم لا أزال كذلك؛ لأنه من صفات الكمال لدلالته على الرقة والوفاء، وإنما يُذمّ إذا كان على وجه الشكاية إلى الخلق، وأنا لا أشكو إليهم إنما ﴿أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ وهو أشد الحزن، سمي بذلك لأنه لا يطاق حمله فيُنشر ﴿وَحُزۡنِيٓ﴾ مطلقًا وإن كان سببه خفيفًا يقدر الخلق على إزالته.

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وهذا يؤكد ما تقدم من احتمال ظنه أن فاعل ذلك يوسف عليه السلام ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه، ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله عللوا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾.

فلما بلغ الأمر الغاية ولم يبق شيء يتخوف عرّفهم بنفسه: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ والظاهر أن هذا كان بغير ترجمان، وأعلمهم بأن ظنه فيهم الآن جميل تسكينًا لهم فقال: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾. فلما قرّب لهم الكشف عن أمره بهذا الاستفهام الذي لا يستفهمه ملك لا يعرفهم، وروي أنه لما قال هذا تبسم، وكان في تبسمه أمر من الحسن لا يجهله معه من رآه ولو مرة واحدة ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ لذكره لهم في قوله: ﴿وأخيه﴾ وليزيدهم ذلك معرفة له ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بأن جمع

بيننا على خير حال تكون، ودلّ على أن التقوى والصبر من الإحسان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾.

ولعله إنما ستر أمره عنهم إلى هذا الحد؛ لأنه لو أرسل إلى أبيه يخبره قبل المُلك لم يأمن كيد إخوته، ولأن الأمور العظام إن لم تكن بالتدريج عظم ضررها، فأحسن إليهم أولًا لتسكن روعتهم وتهون زلتهم، ويدل عليه أنه لما انتفى عن بنيامين ما اتصفوا به تعرّف إليه حين قدم عليه ونهاه أن يخبرهم بحقيقة الأمر، وشرع يمد في إحكام الأسباب التي أرادها، وهو تنبيه لمن قيل لهم أول السورة ﴿لعلكم تعقلون﴾ على الاقتداء بأفعال الهداة في التأني وتفويض الأمور إلى الحكيم، وأن يعلموا أن سنته جرت بأن الأمور الصعاب لا تنفذ إلا بالمطاولة لترتب الأسباب شيئًا فشيئًا على وجه الإحكام، والله أعلم.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي﴾ وكونه قميصًا من ملابسه المعتادة أدخل في الغرابة وأدل على الكرامة، والقميص ألصق الثياب بالجسم، فإظهار الكرامة به أدل على كمال دين صاحبه، وهو يُأوّل في المنام بالدين، وقيل: كان يهوذا هو الذي حمل قميصه لما لطخوه بالدم، فقال: لا يحمل هذا غيري.

﴿هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ أي: لقلت غير متوقف، والتفنيد: تضعيف الرأي. ﴿قَالُواْ﴾ ما ظنه بهم ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ أي: خطئك في ظن حياة يوسف، فصحح الله قوله وحقق وجدانه.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ﴾ من غير فاصل ما بين أول المجيء وبينه كما أفادته زيادة «أن» ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾ تسكينًا لقلوبهم وتصحيحًا لرجائهم ليقوى أملهم، فيكون تعالى عند ظنهم بتحقيق الإجابة. ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ وكان مباحًا في تلك الأزمنة.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا﴾ أي: السجود ﴿تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي: بمطابقة الواقع لتأويلها ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ وتعديته بالباء أدل على القرب من المحسن من التعدية بـ«إلى»، وعبر بقوله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ معرضًا عن لفظ «الجب» حذرًا من إيحاش إخوته، مع أن اللفظ يحتمله احتمالًا خفيًا.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فقسم النزغ بينه وبينهم تأنيسًا لهم ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ طبق ما ختم به يعقوب عليه السلام بشراه في أول السورة، لا يدانيه أحد في علم ليبطل ما يقيمه من الأسباب، ولا في حكمةٍ ليتوقع الخلل في شيء منها.

ولما ذكر هاتين الصفتين تذكر ما وقع له بهما من الأسباب، فغلب عليه مقام الشهود وازدادت نفسه عن الدنيا عزوفًا فقال: ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

ولما كان ما تقدم دليلًا كافيًا في تصحيح دعوى النبوة قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ وانتفاء تعلمك لذلك من بشر كانتفاء كونك لديهم في ذلك الحين، ومن المحقق أنه لا علم إلا بتعليم، فثبت أنه لا معلم لك إلا الله كما علم إخوانك من الأنبياء ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾. ثم قال معجّبًا من حالهم مع وجود موجب إيمانهم: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ حتى يكون سببًا لأن يتهموك ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

ولما كان القرآن أعظم الآيات كان ربما قيل: إن هذا ربما لا يعلمه إلا الراسخون في العلوم، عطف عليه الإشارة إلى أن له تعالى غيره من الآيات التي لا تحتاج لوضوحها إلى أكثر من العقل ومع ذلك لم ينتفعوا به فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾.

ولما كان ربما قيل: كيف يوصفون بالإعراض وهم يعتقدون أن الله فاعل تلك الآيات؟ بين أن إشراكهم مسقط لذلك فقال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ به من لا يقدر على شيء فضلًا عن أن يأتي بآية، كانوا يقرون بأن الله خالقهم ورازقهم ويعبدون

غيره، وكذا المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفران، وكذا أهل الكتابين يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره، فعلم أن إيمانهم هذا غير تابع لدليل.

والآية صالحة لإرادة الشرك الخفي الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل» وهو شرك الأسباب التي قدر الله وصول ما يصل إلى العبد بواسطتها، فقلّ من يتخطى من الأسباب إلى مسببها، قال الحكيم الترمذي: "إنما هو شك وشرك، فالشك ضيق الصدر عند النوائب، والشرك تعلق القلب بالشيء، وإنما يوسع الصدرَ نورُ اليقين، وإنما يتخلص من الشرك بنور التوحيد، فعند هذا يتولاه الله تعالى".

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وأشار إلى أشد ما يكون من ذلك على القلوب بقوله: ﴿بَغۡتَةٗ﴾ أي: وهم عنها في غاية الغفلة، وأكده بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾ أي: نوعًا من الشعور لشدة جهلهم؛ لأن الشعور إدراك الشيء بما يلطف كدقة الشعرة، وإنما قلت: إنه تأكيد لأنه معنى البغتة، ويلزم منها «التغب» وهو الهلاك والعيب والقبيح، وكل ذلك أسرع إلى الإنسان من أضداده لأن هذه الدار مبنية عليه، إلا من عصم الله.

ولما وصف أكثر الناس بسوء الطريقة الذي منشؤه الإعراض عن الأدلة الموجبة للعلم، ذكر طريق الخُلَّص فقال: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: حجة واضحة بنظري الأدلة القاطعة؛ لأن البصيرةَ المعرفةُ التي يتميز بها الحق من الباطل دينًا ودنيا بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ لا كمن هو أعمى جائر عن القصد حائر في الضلال فهو لا يزال في غفلة هدفًا للحتوف، ثم قال منبهًا على أن شرط كل دعوة إليه سبحانه: اقترانها بتنزيهه عن كل شائبة نقص: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وفي تخصيصه بذلك عقب ما أثبت له ولأتباعه: تلويح بنقصهم اعتذارًا عما يلحقهم من الوهن وطلبًا للعفو عنه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾.

ثم ذكر الداعين إليه على بصيرة فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ كما يوحى إليك ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ كما أنك منهم لأنها متهيئة للاجتماع وانتياب أهل الفضائل، وهذا أجدر بغزارة العقل وتوليد المعارف من البوادي، فإن المدن مواضع الحكمة والبوادي مواطن لظهور الكلمة، ولما كانت مكةُ مدينةً وفي بلاد البادية جمعت الأمرين، كما جمع المرسَل إليها ﷺ ما تفرق في غيره من المرسلين.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ﴾ وهو يدل على أنه تعالى يغضب ممن أعرض عن تدبر آياته ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ﴾ أي: حملهم الخوف على جعل الامتثال وقاية من حياة أهون مآلها الموت.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١١٠﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: "هم أتباع الرسل الذين آمنوا وصدقوا فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله"، وكل ذلك إعلام بأن سنته جرت بأنه يطيل زمان الابتلاء، حثًا للأتباع على الصبر وزجرًا للمكذبين عن التمادي في الاستهزاء.

﴿۞لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: الرسل الذين طال بهم البلاء حتى استيأسوا، من نوح إلى يوسف ومن بعده ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ ولما كان من أجلّ العبرة في ذلك: القطع بحقية القرآن قال: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: هذا القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا والآخرة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ والتفصيل: تفريق الجملة بإعطاء كل قسم حقه، فقد انطبق هذا الآخر على أول السورة في أنه الكتاب المبين، مع اعتناقه لأول التي تليه.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقصودها وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه، وتارة يتأثر عنه مع أن له صوتًا وإرهابًا يهدي بالفعل، وتارة لا يتأثر بل يكون سببًا للضلال والعمى، وأنسب ما فيها لهذا المقصد الرعد فإنه مع كونه حقًا في نفسه: يسمعه الأعمى والبصير، وتارة يتأثر عنه البرق والمطر وتارة لا، وإذا نزل المطر فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ، وتارة يضر بالإغراق أو الصواعق أو البرد وغيرها، والله أعلم.

لما ختم التي قبلها بالدليل على حقية القرآن بعد أن أشار إلى كثرة ما يحسونه من آياته مع الإعراض، ابتدأ هذه بذلك على طريق اللف والنشر المشوش لأنه أفصح، للبداءة في نشره بالأقرب فقال: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ﴾ ولما كان كونه من عند الملك ظاهرًا لما له من الإعجاز، بنى للمفعول قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فثبت حينئذ أنه هو ﴿ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾ والمقصود من هذه السورة هذه الآية وهي وصف المنزل بأنه الحق وإقامة الدليل عليه.

وقال الإمام ابن زبير رحمه الله في برهانه: "هذه السورة تفصيل لمجمل قوله سبحانه في خاتمة سورة يوسف: ﴿وكأين من آية﴾ إلى ﴿وما أنا من المشركين﴾ [الآيات: ١٠٥ - ١٠٨]، **فبيان** آي السماوات في قوله: ﴿الله الذي رفع السماوات﴾ [الرعد: ٢] الآية، **وبيان** آي الأرض في قوله: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ [الرعد: ٣] الآية، وقد زيدت بيانًا في مواضع، وورد هنا أعظم جهة في الاعتبار من إخراجها مختلفات في الطعوم والألوان والروائح مع اتحاد المادة ﴿يسقى بماء واحد﴾ [الرعد: ٤].

ثم بين عظيم ملكه وخوّف عباده ورغّبهم ﴿هو الذي يريكم البرق﴾ [الرعد:١٢] الآية، وكله راجع إلى ما أودع في السماوات والأرض من الآيات، ونبه على الآية الكبرى الجامعة للآيات والمتسعة للاعتبارات فقال: ﴿ولو أن قرآنًا﴾ [الرعد: ١١٩] الآية، **وبيان** قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ الآية، في نحو قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ [الرعد: ١]، **وبيان** قوله: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية﴾ الآية، فما عجل لهم من ذلك في قوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾ إلى ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ [الرعد: ٣١] الآية.

وبيان قوله: ﴿قل هذه سبيلي﴾ الآية، أوضحته آي الرعد بما بسطته من الدلائل، ثم بينت سالكي تلك السبيل فقال: ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ [الرعد: ٢٠] الآية، والسورة بجملتها غير حائدة عن تلك الأغراض المجملة في الآيات الأربع من آخر سورة يوسف".

ثم شرع يذكر ما أشار إليه بقوله: ﴿وكأين من آية﴾ [يوسف: ١٠٥] من الآيات المحسوسة الظاهرة الدالة على كون آيات الكتاب حقًا بما لها في أنفسها من الثبات، وبدأ بما بدأ به في تلك من آيات السماوات لشرفها ولأنها أدلّ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى﴾ ولما كان السياق للتدبير، علم أن المراد جريُهما لأجْل ذلك، فكان الموضع للام لا لإلى فعلل بقوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ هذي أجلها سنة وذاك أجله شهر ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ولما كان التدبير والتفصيل دالًا على تمام القدرة وغاية الحكمة، وكان البعث للفصل والحكم بالعدل وإظهار العظمة هو محط الحكمة علل بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.

ولما انقضى ما أراد من آيات السماوات، ثنى بما ثنى به في آية يوسف فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ﴾ ولو شاء لجعلها كالجدار أو الأزج لا يستطاع القرار عليها، وهذا لا ينافي أن تكون كرية؛ لأن الكرة إذا عظمت كان كل قطعة منها كالسطح، كما أن الجبال أوتاد والحيوان يستقر عليها، ولما ذكر الأنهار ذكر ما ينشأ عن المياه فقال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ قال الرماني: "الفكر تصرف القلب في طلب المعنى، ومبدؤه معنى يُخطِره الله على بال الإنسان، فيطلب متعلقاته التي فيها بيان عنه من كل وجه يمكن فيه".

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ بالجمع بالنظر إلى تفصيلها وإن كانت بالنظر إلى الماء مفردة، وهذا بخلاف ما يأتي في النحل؛ لأن المحدث عنه هناك الماء وهنا ما ينشأ عنه، فلما اختلف المحدث عنه كان الحديث بحسبه، ولما كانت هذه المفصلة أظهر من تلك المجملة بحيث لا يحتاج ناظره في الاعتبار به إلى غير العقل قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ لأن العلم بافتقار الحادث إلى المحدث ضرورة، فعدم العلم بالضروري يستلزم عدم العقل.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٥﴾ هذا قولهم بعد أن فصلنا من الآيات ما يوجب أنهم بلقاء ربهم يوقنون، قال الرماني: "وقيل: لا خير فيمن لا يتعجب من العجب، وأرذل منه من يتعجب من غير عجب"، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ كناية عن ضيقها، وهي وإن لم تكن مشاهدة الآن فهي لقدرة المهدد بها على الفعل كأنها موجودة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٦﴾.

ولما كان من العجب أيضًا استهزاؤهم بها قال: ﴿۞وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ من العذاب المتوعد به، جرأة منهم تشير إلى أنهم لا يبالون بشيء منه ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ وهي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله من الأمم الذين اتصلت بهم أخبارهم، ولما كانوا ربما قالوا: ما نرى إلا تهديدًا لا يتحقق شيء منه، قال مؤكدًا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ فلذلك يقيم الناس دهرًا طويلًا يكفرون ولا يعاقبون؛ حلمًا منه سبحانه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ فلذلك يأخذ أخذ عزيز مقتدر إذا جاء الأجل الذي قدّره.

ثم عجّب منهم في طلبهم إنزال الآيات مع تساويها في الدلالة على الله تعالى إذ كانوا بكفرهم بما أتاهم جديرين بالكفر بما يأتيهم فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ ولما كان النبي ﷺ راغبًا في إجابة مقترحاتهم لشدة التفاته إلى إيمانهم، كان كأنه سأل في ذلك فأجيب بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ وأصل الإنذار: الإعلام بموضع المخافة ليتقى، لا أنك مثبّت للإيمان في الصدور ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٨﴾ أي: داعٍ يهديهم وينذرهم، وأعطاه آيات لائقة على مثلها يؤمن البشر، فيهدي الله من يعلم فيه قابلية الهدى بما نصب من الآيات فلا يحتاج إلى شيء من المقترحات، ويضل من يعلم فيه دواعي الضلال ولو جاءته كل آية.

ثم شرع يقرر البعث بأفعاله المحسوسة لهم، إشارة إلى أن إنكاره إن كان لاستحالة الإعادة فهي مثل البداءة، وإن كان لاستحالة تمييز التراب الذي كان منه الحيوان بعد اختلاطه وتفرق أجزائه فتمييز الماء الصالح للولد من غيره أعجب؛ لأن الماء أشد اختلاطًا ومع ذلك يعلمه فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من الماء الذي يصلح لأن يكون حملًا ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ أي: تنقص ﴿ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ من الماء فتنشفه فيضمحل لعدم صلاحيته لذلك ﴿وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ من الماء على الماء الذي قدر تعالى كونه حملًا فيكون توأمًا فأكثر.

وذلك كله يستلزم الحكمة فلذا ختمه بقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٩ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال الحرالي: "لما لم يكن للخلق ظاهرُ قدْرٍ؛ لما هم عليه من الحاجات المعلِنة بصغر القدر، ومن حاول منهم أن يكبر بتسلط أو فساد زاد صغاره في أعين أرباب البصائر في الدنيا، وفي عيون جميع الخلق في الأخرى «يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم» = اختص الله بالكبير"، ﴿ٱلْمُتَعَالِ ۝١٠﴾ قال: "أشعر التفاعل: بما يتوهمه المحتجون بأوهام حجج داحضة ﴿حجتهم داحضة عند ربهم﴾ [الشورى: ١٦] فهو سبحانه يأذن في الاحتجاج ثم يتعالى بما له من الحجة البالغة ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ [الأنعام: ١٤٩] فهو المتعالي علمًا وحكمًا وحجة".

ولما كانت العادة قاضية بتفاوت العلم بالنسبة إلى السر والجهر، والقدرة بالنسبة إلى المتحفظ بالحرس وغيره، نفى ذلك الاحتمال عنه تعالى فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١١ لَهُۥ﴾ أي: لذلك المستخفي أو السارب ﴿مُعَقِّبَـٰتٌ﴾ أي: أنصار يتناوبون في أمره ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ولما دل هذا على غاية القدرة وجرت عادة المتمكنين بالتعدي، أخبر تعالى أنه على غير هذا لغناه عنه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من التحلي بالأعمال الصالحة والتخلي من أخلاق المفسدين، فإذا غيروا ذلك غير ما بهم إذا أراد وإن كانوا في غاية القوة.

ولما كان ملوك الدنيا لا يتمكنون غالبًا من جميع مراداتهم لكثرة المعارضين من الأمثال قال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١٢﴾ أي: من ملجأ يعيذهم كما يفعل القريب مع وليه. ثم أخبر تعالى بأمر جامع للعلم والقدرة وهو أدقّ مما تقدم؛ لأنه مظهر واحد ترجى منه النعمة وتخشى منه النقمة فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ أي: لتخافوا من قدرته، ولما لم يكن لهم تسبب في إنزال المطر لم يعبر بالرجاء وقال: ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: ولتطمعوا في رحمته.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٣ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي: ينزه عن صفات النقص تنزيهًا ملتبسًا ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بوصفه بصفات الكمال ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: الملك الأعظم بما يؤدي إلى الشك في قدرته وعلمه، ولما كان لا يغني من قصَده بالعذاب شيءٌ قال: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٤ ۞ لَهُۥ

﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ إن دعاه أحد سمعه فأجابه إن شاء بما يشاء، وإن دعا هو أحدًا دعوة أمر بيّن الصواب بما يكشف الارتياب، أو دعوة حكم لبى صاغرًا وأجاب.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: يدعو الكافرون، وبين سفول رتبتهم بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ﴾ أي: إلا إجابة كإجابة الماء لباسط ﴿كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ دون أن يصل كفاه إلى الماء، بما دل عليه التعدية بـ«إلى» ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ أي: فيه ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٥﴾ لأن معبوداتهم لا تضر ولا تنفع، والله لا يجيبهم لتضييعهم الأساس.

ولما كانت دعوة الأمر واضحة السبل جلية المناهج في جميع كتبه وكلها إلى الناظرين، وبين دعوة الحكم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لجميع أحكامه النافذة وأقضيته الجارية ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ قال الرازي رحمه الله: "والكافر في حكم الساجد وإن أباه؛ لما به من الحاجة الداعية إلى الخضوع، واعلم أن سجود كل صنف هو تذلـله وتسخره وانقياده لما أريد له"، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: أيضًا تسجد له بامتدادها على الأرض، لا يقدرون على منعها من ذلك ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٦﴾.

فلما تبين أنه سبحانه المدبر تبيّن أنه المختص بربوبيتهما فقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كانوا معترفين بربوبيته ثم لم يزعهم ذلك عن الإشراك، جُعلوا كالمنكرين لذلك فلم ينتظر جوابهم بل أمره أن يجيبهم بما يجيبون به، إشارة إلى أنهم لا يتحاشون من التناقض في اتباع الهوى فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ فتسبب عنه الإنكار عليهم في اعتماد غيره فقال: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا﴾ وقدّمه لأن السياق لطلبهم منهم، والإنسان إنما يطلب ما ينفعه.

﴿وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ١٧ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وساق ذلك في أسلوب الغيبة إعلامًا بأنهم أهل للإعراض عنهم؛ لقولهم ما لا يعقل بوجه، وهذا قريب مما يأتي في قوله: ﴿أم بظاهر من القول﴾ [الرعد: ٣٣] أي: بشبهة يكون فيها نوع ظهور لبعض الأذهان ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وإذ ثبت ذلك وجب أن يفرد بالتأله فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٨﴾.
ثم أتبع هذا الختم قوله دليلًا عليه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ فالمعنى

أن المياه ملأت الأودية، مع ما في ذلك من الدلالة على التفرد بالربوبية مما هو مثال للحق والباطل، وهو قوله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾.

ولما كان الزبد أحسن مثل لمعبوداتهم وكان لا يختص بالماء، ذكر معه ما يشبهه في النفع من الجوامد التي تزبد عند الإذابة مع كونها في حال الجمود في غاية الصفاء على ما يظهر فقال: ﴿وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ فهذا تقسيم حاصر لأنواع الفلز المنوه إليها مع التهاون به وإن تنافس الناس فيه ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ أي: مثل زبد الماء، يكشط عن وجهه أو يعلق بالأطراف فيذهب ويبقى ذلك الجوهر خالصًا كالحق إذا زالت عنه الشكوك والشبه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الضرب ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ أي: مثلهما.

ولما نبه بهذا الفصل على علو رتبة هذا المثل شرع في شرحه فقال مبتدئًا بما هو الأهم في هذا المقام وهو إبطال الباطل الذي أضلهم: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ﴾ متعلقًا بالأشجار وجوانب الأودية؛ لأنه يطفو بخفته ويعلق بالأشياء الكثيفة بكثافته ﴿جُفَآءٗۖ﴾ قال أبو حيان: "أي: مضمحلًا متلاشيًا لا منفعة فيه ولا بقاء له"، فهذا مثل الباطل من الشكوك والشبه، لا بقاء له وإن جال جولة يمتحن الله بها عباده؛ ليظهر الثابت من المزلزل ثم ينمحق سريعًا، وقال الرماني: "والجفاء: نبوّ مكان الشيء به حتى يهلك".

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والفلز الذي هو مثل الحق ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ينتفع الناس بالماء الذي به حياة كل شيء والفلز الذي به التمام، **فالماء والمعدن** مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب وبقاء الشرع، والمعادن تحيي موات العيش وتنظم المعاملات بين الناس، **والأودية والأواني** مثل القلوب يثبت منه فيها ما تحتمله على قدر سعة القلب وضيقه بحسب الطهارة وقوة الفاهمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٩﴾ فيجعلها في غاية الوضوح وإن كانت في غاية الغموض.

ولما تم ما للحق والباطل في أنفسهم من الثبات والاضطراب، ذكر ما لأهلهما من الثواب والعقاب فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ وأكده لادعاء الكفرة أنهم لا يذلون لشيء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠﴾.

ولما ظهر الافتراق، أنكر على من سوى بين العالم العامل وغيره فقال: ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ فيهتدي إلى طريق الرشد فيسلكها وإلى طريق الغي فيتركها ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ لأنه لا يعمل وإن كان عالمًا، فهو لا ينتفع بالأمثال ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ بالتفكر في أن ما أنزل من عند الله ثابت الأركان لا قدرة لأحد على هدم شيء من مبانيه، وأن ما عداه مخلخل الأركان منطمس الأعلام جم المهالك.

ثم قال يصف المتذكرين بما يدل على أنه لا لب لسواهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب العقد المؤكد منه بأوامره ونواهيه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ والتعبير به دون «بوصله» يفيد تجديد الوصل كلما قطعه قاطع على الاستمرار ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ﴾ أي: يوجدون الخوف إيجادًا مستمرًا ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٣﴾﴾ وهو المناقشة فيه من غير عفو.

ثم خص بالذكر أشياء مما دخل في العهد والميثاق تشريفًا لها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ وبين سببه بقوله: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ أي: بصبركم والذي صبرتم له والذي صبرتم عليه، إشارة إلى أن الصبر عماد الدين كله ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ ولما كان النقض ضارًا ولو كان في أيسر جزء أدخل الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بوصل ما أمر الله به أن يُقطع اتباعًا لأهوائهم، ولما كانوا كذلك استحقوا ضد ما تقدم للمتقين فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٦﴾﴾.

ولما كانوا ربما قالوا: فما له يوسع علينا ويضيّق على المؤمن؟ قال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ ثم يجعل ما للكافر سببًا في خذلانه، وفقر المؤمن موجبًا لعلو شأنه، ولما كانت السعة مظنة الفرح، قال عائبًا لمن اطمأن إليها: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٧﴾﴾.

ولما قصر العقل على المتذكرين إشارة إلى أن من عداهم بقر سارحة، وعرف أن ما دعا إليه الشرع هو الصلاح وضده هو الفساد، وكان العقل إنما هو لاتباع الصلاح وتجنب الفساد،

فكان المعاند بعد ذلك موضعًا للعَجَب، قال معجِّبًا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٨﴾.

[ثم بين حال الذين هداهم، مع التنبيه على أن مثال الذين ضلوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله بدلالة قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾، فقال][٦٩]: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ بعد الاضطراب بالشكوك؛ لإيجادهم الطمأنينة بعد الإيمان إيجادًا مستمرًا دالًا على ثبات إيمانهم لترك العناد، وهذا المضارع في هذا التركيب إنما يراد به الاستمرار على المعنى مع قطع النظر عن الأزمنة ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ فتسكن عن طلب آية غيره، والذكر: حضور المعنى للنفس، وذلك إشارة إلى أن من لم يطمئن به فليس له قلب فضلًا عن أن يكون في قلبه عقل.

ثم أخبر عما لهذا القسم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٣٠﴾ فكان ذلك مفهمًا لحال القسم الآخر.

ولما كان في ذلك فطم عن إنزال المقترحات قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إرسال الرسل الذي تقدم في آخر سورة يوسف عليه السلام ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾ طال أذاهم لأنبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم في عدم الإجابة إلى المقترحات ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ لا لطلب الإجابة إلى المقترحات ظنًا أنها تكون سببًا لإيمانهم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ إشارة إلى كثرة حلمه وتقبيح لحالهم في مقابلتهم النعمة بالكفر وهم يدّعون أنهم أشكر الناس ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣١﴾ أي: مرجعي، وهذا تعريض بهم في أن سبب كفرهم إنكار يوم الدين.

ولما أخبر عن اعتقاده في الرحمن، أخبر بما يعتقده في القرآن مما هو أهله فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ فالتقدير: لو وجد شيء من هذا بقرآن يومًا ما لكان بهذا القرآن، ولكن الله لم يرد ذلك لاختصاصه بالقدرة والأمر جميعًا.

ولما كان هذا إقناطًا من إيمان مقترحي الآيات بما يقترحون، أنكر على من لم يفد فيه ذلك فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من ذلك لعلمهم ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ

---

(٦٩) التحرير والتنوير ١٣/ ١٣٧.

﴿جَمِيعًاۗ﴾ والعلم بالشيء يوجب اليأس من خلافه، فقد وضح أن «ييأس» على بابها، ولما كان ذلك مضيِّقًا لصدور المؤمنين لما يعاينون من أذى الكفار، قال مسليًا: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾ فتوهن أمرهم ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ بفتح مكة أو النصر على جميع الكفر في زمن عيسى ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾. ولما كان تمني الإجابة إلى المقترحات لاستهزاء الكفار، قال مسليًا: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾.

ولما تقرر بما مضى أن الكل في قبضته قال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ يفعل بها ما يشاء من الإملاء والأخذ وغيرهما، كمن ليس كذلك مثل شركائهم التي ليس لها قيام على شيء أصلًا ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ بأسمائهم الحقيقية فإنهم إذا عرفت حقائقهم التي هي محل العجز والفقر عُرف ما هم عليه من سخافة العقول ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من كونها آلهة ببرهان قاطع ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ أي: بحجة إقناعية تقال بالفم، وكل ما لا يعلمه فليس بشيء، وهذا قريب من قوله: ﴿أم جعلوا لله شركاء﴾ [الرعد: ١٦] الآية، في أنه لو كان كذلك كان شبهة فيها ظهور ما.

ولما كان الجواب بالنفي بنى عليه: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ الذي أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شيء وإبطان غيره، فإنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقًّا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس بهم في الباطن إلا تقليد الآباء، وأظهروا أنهم يعبدونها لتشفع لهم وهم لا يعتقدون بعثًا، أو: أنهم غيروا في وجه الحق بما ختلوا به الضعفاء، وتمادى بهم الحال حتى اعتقدوه حقًّا ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ فلم يسلكوه ولا تركوا غيرهم يسلكه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾.

ولما تشوفت النفس إلى ما لأضدادهم بيّن أنه مما لا يُنال إلا بضرب الأمثال فقال: ﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ قال أبو حيان: "وليس هذا ضرب مثل، فهو كقوله: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفة العليا"، ويمكن أن يكون ذلك حقيقة ويكون هناك محذوف وهو: جنة من جنان الدنيا تجري من تحتها الأنهار إلخ، وهو من قول الزجاج.

﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ لأنهم ساءهم ما أنزل إلى النبي ﷺ حسدًا وجهلًا، ولذا عطف عليه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ﴾ مما حرفوه وبدلوه ويريد أن يكون الأمر تابعًا فيه لغرضه، فلذلك أعلمهم باعتقاده كفروا أو شكروا فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ٣٦ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل هذا الإنزال، أو: مثل إنزال كتب أهل الكتاب.

﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ والحكم: القطع بالمعنى على ما تدعو إليه الحكمة، فلا يقدر أحد على نقض شيء منه، والعربي: الجاري على مذاهب العرب في كلامها، فلا تلتفت إلى مايقترحونه بأهويتهم من تركك لبعض ما يوحى إليك أو غير ذلك ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ولما كان المراد التعميم في الزمان نزع الجار وأتى بـ«ما» لأنها أعم من «الذي» لشمولها الظاهر والخفي فناسب سياق الوحي الذي هو غيب، بخلاف آية البقرة الأولى فإنها في الملة الإبراهيمية المدركة بنور العقل الناشئ عن نظر المحسوسات فقال: ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾.

ولما كان بعضهم قد طعن في نبوته ﷺ بكثرة التزوج، كان موضع توقع الخبر عما كان للرسل في ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلٗا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ فما اتبع أحد منهم شيئًا من أهواء أمته ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ والحكمة اقتضت أن النبوة يكفي في إثباتها معجزة واحدة وما زاد على ذلك فهو إلى المشيئة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ وإثبات واو «يمحو» في جميع المصاحف مشير إلى أن بعض المحوات من الأعمار والشرائع وغيرها تبقى آثارها عالية، وأما حذفها باتفاق أيضًا في ﴿ويمح الله الباطل﴾ [آية: ٢٤] في الشورى مع أنه مرفوع أيضًا، فللبشارة بإزهاق الباطل إزهاقًا هو النهاية، وذلك لمشابهة الفعل بالأمر المقتضي لتحتم الإيقاع.

ولما كان من مقترحاتهم استهزاء: استعجال السيئة، وكانت النفس ربما تمنت وقوعها للبعض ليؤمن غيره قال: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فالذي عليك

والذي إلينا مستو في الحالتين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وهو إمرار الشيء إلى منتهاه، وهو هنا الرسالة ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

ثم حقق ما أخبر به من أنه قادر على الجزاء لمن أراد فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ التي هؤلاء الكفرة بها ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ بما يفتح الله على المسلمين مما يزيد به في أرض أهل الإسلام بقتل بعض الكفار واستسلام البعض حتى يبيد أهلها ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ وقد حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤٢﴾﴾ لأنه لا تخفى عليه خافية؛ والسرعة: عمل في قلة المدة على ما تحده الحكمة، وهي محمودة والعجلة مذمومة، وهو تعالى قادر على الكفرة وإن قطعوا بأنهم يَغلبون لما لهم من القوة والكثرة مع جودة الآراء وحدة الأفكار.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ﴾ أي: من مكر وغيره، فيجازيهم إذا أراد بأن ينتج عن كل سبب أقاموه مسببًا يكون ضد ما أرادوا، ولا تمكنهم إرادة شيء إلا بإرادته ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

ولما تقدم قوله: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ لكونك لا تأتي بمقترحاتهم مع أنه لم يقل يومًا: إنه قادر عليها ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٤﴾﴾ وفي سوقه هكذا على طريق الإبهام من ترويع النفس بهزها إلى تطلب المتصف بهذا الوصف ما ليس في التعيين، فقد انطبق هذا الآخر على أول السورة في أن المنزل حق من عنده وأنهم لا يؤمنون، والله الموفق.

سورة إبراهيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها التوحيد وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله؛ لأنه كافل ببيان الصراط المؤدي إليه، ولما ختم الرعد بأنه لا شهادة تكافئ شهادة من عنده علم الكتاب إشارة إلى أن الكتاب هو الشاهد بإعجازه، نكّره هنا للتعظيم فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ ولما تكرر وصفه بأنه حكيم مبين حق ثابت فصار بحيث لا يتوقف عن اجتناء ثمرته من وقف على حقائق تلك النعوت شوّق إلى تلك الثمرة فقال: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ التي هي أنواع كثيرة من الضلالات التي أدت إليها الجهالات ﴿إِلَى ٱلنُّورِ ١﴾ الذي هو واحد وهو سبيل الله المدعو بالهداية إليه في الفاتحة.

وشبّه الإيمان وما أرشد إليه بالنور لأنه عصمة العقل من الخطأ في الطريق إلى الله، كما أن النور عصمة البصر من الضلال عن الطريق الحسي ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ فعز عن أن يدخل أحد صراطه الذي هو ربه أو يتعرض أحد إلى سالكه بغير إذنه ﴿ٱلۡحَمِيدِ ٢﴾ بما يفيض على عباده من النعم التي يربيهم ويتحمد إليهم بها على كل حال، فكيف إذا سلكوا سبيله الواضح الواسع السهل؟

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٣ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وذلك بأن يتابعوا أنفسهم على حبها حتى يكونوا كأنهم طالبون لذلك، وهذا دليل على أن المحبة قد تكون بالإرادة ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٤﴾.

ولما قدم ما أفهم أنه أرسله ﷺ بلسان قومه إلى الناس كافة، دلّ على شرف هذا اللسان لصلاحيته لجميع الأمم وخفته عليهم: بخصوص لسان كل من الرسل بقومه، فلذلك أتبعه قولَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ فإذا تقرر ذلك علم أنه لا مانع حينئذ لأمة من الاستقامة على هذا الصراط إلا إذن الله ومشيئته.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ فلذلك دبر بحكمته إرساله ﷺ إلى الخلق كافة باللسان العربي، لأن المقصود جمع الخلق على الحق، فجمعهم على لسان واحد أنسب ما يكون لذلك، وكان لسان قوم الرسول أنسب لأنهم أقرب إليه فيكون

فهمهم لشريعته أسهل ويكونون عن الغلط أبعد، فإذا فهموا عنه دعوا من يليهم بالتراجمة وهلم جرًا فانتشر الأمر وسهل، وكان مع ذلك أبعد من التحريف وأسلم من التنازع، ولو كان بالألسنة كلها لأدى إلى ادعاء أهل كل لسان أن التعبير عنه بلسانهم أعظم، فيؤدي ذلك إلى المفاخرة والعصبية المؤدي إلى أشد الفرقة.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: "لما كانت الآيات السالفة في سورة الرعد لا يبقى معها شك لمن اعتبر بها قال هنا: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ الآية، ولما كان الهدى والضلال موقوفًا على مشيئته سبحانه وقد قال لنبيه ﷺ: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ [الرعد: ٧]، قال هنا: ﴿بإذن ربهم﴾، ثم قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وكأن هذا من تمام قوله: ﴿ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك﴾ [الرعد: ٣٨] الآية، وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد وبعد الفهم على أن أنكروا كون الرسل من البشر، رد تعالى أزعامهم في آيات وردت على التدريج في هذا الغرض شيئًا فشيئًا.

فأول الوارد من ذلك على ترتيب السور قوله تعالى: ﴿أكان للناس عجبًا﴾ [يونس: ٢] الآية، ثم ذكر في سورة هود قول قوم نوح: ﴿ما نراك إلا بشرًا مثلنا﴾ [هود: ٢٧] الآية، وجوابه عليه السلام: ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ [هود: ٦٣] الآية، أي: أني وإن كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله بفضله وآتاني رحمة من عنده وبرهانًا على ما جئتكم به عنه، وديدن الأمم أبدًا مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات.

ثم زاد تعالى نبيه ﷺ تعريفًا بأحوال من تقدمه من الأنبياء فقال: ﴿ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية﴾ [الرعد: ٣٨] وأعلم سبحانه أن هذا لا يحط شيئًا من مناصبهم بل هو واقع في قيام الحجة على العباد، ثم تلا ذلك بقوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للعذر، بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل واتخاذ مألوفات البشر لكان منفّرًا، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود لافتراق الجنسية".

ولما ذكر سبحانه الرسل بما ذكره فصل شيئًا من أخبارهم، فابتدأ بذكر من كتابه أجلّ كتاب بعد القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۞ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: وقائعه في الأمم السالفة وغير ذلك من المنح لأوليائه والمحن لأعدائه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞﴾ فإن أيامه عند أوليائه لا تخلو

من نعمة أو نقمة، وفي صيغة المبالغة إشارة إلى أن عادته تعالى أنه إنما ينصر أولياءه بعد طول الامتحان بعظيم البلاء ليتبين الصادق من الكاذب ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ [البقرة: ٢١٤] فلا يقوم بالدعاء إلى الدين إلا من بلغ الذروة في الصبر.

ثم ذكّرهم بأشد أيام الله محنة وأجلها منحة فقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وأسقط الترفّق بـ«يا قومِ» لأن مقام الترهيب يقتضي الإبلاغ في الإيجاز في التذكير للخوف من معاجلتهم بالعذاب، ولما كانوا قد طال صبرهم جدًا بما طال من بلائهم من فرعون على وجه لا يمكن عادة خلاصهم منه، أشار إلى إسراعه بخلاصهم بالنسبة إليه جزاء لهم على طول صبرهم، فعبر بالإفعال دون التفعيل فقال: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولما كان السياق للصبر البليغ عطف في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٨﴾.

ولما ذكرهم بنعمة الأمن رغبهم فيما يزيدها ورهبهم مما يزيلها فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ وأكده؛ لما للأنفس من التكذيب بمثل ذلك لاعتقادها أن الزيادة إنما هي بالسعي في الرزق والنقص إنما هو بالتهاون فيه ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾ فإن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٩ وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ مرهّبًا لهم معلمًا أن وبال الكفر خاص بصاحبه ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٠﴾.

ثم ذكرهم أيامه في الأمم الماضية، وعين منهم الثلاثة الأولى لأنهم كانوا أشدهم وأكثرهم وأعمرهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۝١١ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ﴾ ولما كانوا غير مسلّمين أن المرسل لهم هو الله بنوا للمفعول قولهم: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: لأنكم لم تأتونا بما يوجب الظن فضلًا عن القطع فلذا لا يحتاج رده إلى تأمل، ولما كان ما أتى به الرسل يوجب القطع بما يعلمه كل أحد فكانوا بما قالوه في مظنة الإنكار أكدوا بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ ولما كان الدعاء مسندًا إلى جماعة الرسل أثبت نون الرفع مع ضمير المتكلمين فقالوا: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝١٢﴾.

ولما كان ما شكوا فيه من الظهور بحيث لا يتطرق إليه ريب، أنكروا مطلق الشك فقالوا: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ فلما أوضحوا لهم الأدلة على

وحدانيته، بينوا لهم بأن ثمرة الدعوة خاصة بهم لا يأباها من له أدنى بصيرة فقالوا: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ وهو آجالكم مفرّقة، ولا يستأصلكم بالعذاب في آن واحد كما فعل بمن ذكر من الأمم.

فلما علموا أنه لا يتهيأ لهم عن ذلك جواب، أعرضوا عنه بأن ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فما وجه تخصيصكم بالرسالة؟ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: أنكم لكونكم من البشر الذين يقع بينهم التحاسد حسدتمونا على اتباع الآباء وقصدتم تركنا له لنكون لكم تبعًا ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٣﴾ وهذا تعنت محض فإنهم جديرون بأن يعرضوا عن كل سلطان يأتيهم، كما ألغوا ما أتاهم من البينات فلم يعتدوا به.

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ﴾ غير فاعلين فعلهم في الحيدة عن الجواب ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ فلم يصرحوا بما تميزوا به من وصف النبوة ولم يخصوا أنفسهم بمنّ الله، بل أدرجوها في عموم من شاء الله تواضعًا منهم واعترافًا بالعبودية ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٤ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾ أكدوا؛ لإنكار أن يصبر الرسول مع وحدته على أذاهم مع كثرتهم وقوتهم ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ وعبر بالماضي إشارة إلى أنهم عفوا عن أذاهم في الماضي فلا يجازونهم به، فهو استجلاب إلى توبتهم، وعدلوا عن المضارع لأنهم ينتظرون أمر الله في الاستقبال، فقد يأمرهم بالجهاد أو الصبر.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ﴾ مستهينين بمن قصروا التجاءهم عليه ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ فصبروا على ذلك توكلًا على ربهم واستمروا على نصيحتهم ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ﴾ وأكد؛ لتوقف من ينظر كثرة الكفار وقوتهم في مضمون الخبر ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ١٦ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ بأن نورثكموها سواء قدّرناهم على إخراجكم أم لا ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٧﴾ فاستبشروا بذلك الوعد.

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ على أعدائهم فأفلحوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٨﴾ ثم أتبعه ما هو كالدليل على خيبته، وعبر عن غفلته عنه بقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٩ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أسبابه من الشدائد التي لو جاءه سبب

منها في الدنيا لمات ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ لأنا قضينا بدوام حياته زيادة في عذابه ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ٢٠﴾ لا تحتمل عقولكم وصفه بأكثر من الغلظ.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: المكارم التي كانوا يعملونها في الدنيا، في يوم الجزاء، ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيًا كما قال الحوفي وابن عطية، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ أي: يوم الجزاء، ولما كان الأمر هنا متمحضًا للأعمال قدّم قوله: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ لبنائه على غير أساس ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ٢١﴾.

ولما ذكر الآخرة في أول السورة وأتبعه مَثَل أعمال الكفار فيها، أتبع ذلك الدليل عليه وعلى أنه لا يسوغ في الحكمة في أعمال الضلال إلا الإبطال فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ فثبت بهذا ضلالهم الموجب لهلاك أعمالهم التي هي أسبابهم، الموجب لهلاكهم.

ولما ثبت بهذا قدرته على الإعادة بعد الموت، عبر بصيغة المضي الذي تحقق فقال: ﴿۞وَبَرَزُواْ﴾ وفيه من هز النفس وروعتها ما ليس في العبارة بالمضارع ﴿لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ فكانوا بحيث لا يخفى منهم خافية، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون من العذاب ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي: الأتباع من أهل الضلال توبيخًا لرؤسائهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا﴾ أي: كونًا كالجبلة ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ وقد جرت عادة الأكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ﴾ بل كل مجزي بما فعل، علينا إثم ضلالنا في أنفسنا وإضلالنا لكم، وعليكم إثم ضلالكم وذبّكم عنا وتقويتكم لجانبنا حتى استكبرنا فاستغرقنا في الضلال، ولو أن الله هداكم حتى تبعتم الأدلة التي سمعتموها كما سمعناها وتركتمونا لأوهى من شوكتنا فكان ربما يكون سببًا لهدايتنا، كما أنه ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾.

ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي هو رأس المضلين المستكبرين ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ بأن أرسل إليكم رسلًا وأنزل معهم براهين وكتبًا ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ أنا بما

زينت لكم به المعاصي من الوساوس وعدَ الباطل ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ فالآية من الاحتباك: ذكر ﴿وعد الحق﴾ أولًا دليلًا على حذف ضده ثانيًا، و«أخلفتكم» ثانيًا دليلًا على حذف «صدقكم» أولًا ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ محكّمين الشهوات، ولو حكمتم عقولكم لتبعتم الهداة؛ لما في سبيلهم من النور الداعي إليها، وما في سبل غيرهم من المهالك الزاجرة عنها.

وساقه على صورة الاستثناء وإن لم يكن دعاؤه من السلطان في شيء؛ إشارة إلى أنهم تبعوه ولا قدرة له على غير هذا، وتركوا دعاء من أنزل إليهم من كل سلطان مبين، وفاعل مثل ذلك لا لوم له على غير نفسه ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمغيثكم فآتيكم بما يزيل صراخكم من العذاب، وحكاية هذه المحاورة للتنبيه على النظر في العواقب والاستعداد لذلك اليوم قبل أن لا يكون إلا الندم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾.

ثم أتبعه ما للمؤمنين فقال: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقرئ: ﴿وأُدخِلُ﴾ على التكلم فيكون عدل عن أن يقول «بإذني» إلى ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ للإعلام بالصفة المقتضية للرحمة، كما قال تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك﴾ [الكوثر: ١] ولم يقل: لنا، فلا تنبغي المسارعة إلى إنكار شيء يمكن توجيهه ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٦﴾.

ولما تقرر بما مضى أن الحق ما قاله الله أو فعله أو أذن فيه، وأن الباطل ما كان على غير أمره مما ينسب إلى الشيطان أو غيره وأنه أبطل الأشياء وأخبثها، قرب سبحانه ذلك بالمثل فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لحسن منبتها وطيب عنصرها ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ على أحسن ما يكون من الإيتاء؛ لأن علوها منعها من عفونات الأرض فكانت ثمرتها نقية من شوائب الأدناس ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي: الذين يحتاجون إلى ذلك لاضطراب آرائهم، لأن في ضربها زيادة إفهام وتصوير للمعاني ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾.

فهذا مَثَل كلام الأولياء، فكلمتهم الطيبة كلمة التوحيد التي لا أطيب منها وهي أصل كل سعادة راسخة في قلوبهم، بسقت فروعها التي هي الأعمال الدينية، فصارت كلما هُزَّت

اجتنى الهاز ثمراتها التي لا نهاية لها عالمًا بأنها من فتح مولاه، وكما أن الشجر لا يتم إلا بعرق راسخ وأصل قائم وفروع عالية، فكذلك الإيمان لا يتم إلا بمعرفة القلب وقول اللسان وعمل الأركان. ثم أتبعه مثل حال الأعداء فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ﴾ برأي كل من له رأي ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٨﴾ لأنه لا نفع لها بل وجودها ضار ولو بشغل الأرض، فكذلك الكلمة الخبيثة الباطلة لا بقاء لها أصلًا وإن علت وقتًا، لأن حجتها داحضة فجنودها منهزمة.

فلما حصل من المَثَلين التعجبُ ممن يترك ممثول الأول ويفعل ممثول الثاني، نبه على أن ذلك بفعل القاهر تعالى فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بمثل ما تقدم من حوارات أنبيائه عليهم السلام ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ﴾ يهديهم عند كل سؤال إلى أحسن الأقوال حيث تطيش الأفكار لشدة الأهوال ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٩﴾ وفيه إرشاد إلى الإقبال عليه وحده.

ثم أتبع ذلك: الدليل على أنه الفاعل وحده وعلى إضلال الذين بدلوا كلمة التوحيد بالإشراك واجتثاث كلمتهم فقال: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ﴿كُفْرًا﴾ وهم يدّعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأعلاهم هممًا في الوفاء ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٣٠﴾ مع ادّعائهم أنهم أذب الناس عن الجار فضلًا عن الأهل ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٣١﴾.

ولما كان هذا فعل من لا عقل له بينه بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ لأنهم إن كانوا عقلاء فإنهم يعلمون أن هذا لازم لفعلهم فهم قاصدون له، وإلا فلا عقول لهم لأنه لا يقدم على ما لا يعلم عاقبته إلا أبله ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ وبالغوا في فعل البهائم مهما قدرتم ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٢﴾ بسبب تمتعكم على هذا الوجه.

ولما كان ذلك محركًا للنفس إلى الوقوف على ما يقال لمن خلع الأنداد، ندب تعالى أولياءه إلى الإقبال إلى ما أعرض عنه أعداؤه، والإعراض عما أقبلوا بالتمتع عليه من ذلك فقال: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ واقتصر على هاتين الخلتين؛ لأنه لم يكن فرض في مكة غيرهما مع ما تقدم من فضلهما وعمومهما، ثم أشار إلى المداومة

عليهما بقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ثم قال مرهبًا من التهاون في عبادته مشيرًا بالجار إلى قصر مدة أعمالهم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣٣﴾﴾.

ولما نفى جميع الأسباب، عرّف بالحكَم في ذلك اليوم فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أتبعه ما جعله سببًا لكمال التصرف وإنضاج الثمار المسقيّة بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٥﴾﴾ يوجد كل منهما بعد تصرمه، ولو كان أحدهما سرمدًا لاختل الحال.

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ ولما كان الكمال لا يكون إلا في الجنة قال: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ أي: ما أنتم محتاجون إليه، فأنتم سائلوه بالقوة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ وتقريب العجز عن العد: أن السلامة من كل داء ذكره الأطباء نعمة، وذلك متعسر الحصر، فكيف بما لم يطلعهم الله عليه! هذا في الجسم، وأما في العقل: فالسلامة من كل عقد زائغ ودين باطل، وذلك لا يحصيه إلا خالق الفكر وفاطر الفطر سبحانه.

ولما كان أكثر هذه السورة في بيان الكفرة وما لهم وبيان أن أكثر الخلق هالك، ختم الآية ببيان ما اقتضى ذلك من صفات الإنسان فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع لما له من الأنس بنفسه والنسيان لما ينفعه ويضره والاضطراب بما يغمه ويسره ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٦﴾﴾ وختم مثل ذلك في سورة النحل بـ﴿غفور رحيم﴾ [النحل: ١٨] لأنها سورة النعم، بدئت بالنهي عن استعجال العذاب لأن الرحمة أسبق، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع، فالتقدير إذن: ﴿..إن الإنسان لظلوم كفار﴾ ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة لأنه غفور رحيم، وأما هذه السورة فبدئت بأن الناس في الظلمات.

ثم أمره ﷺ أن يذكّرهم بأيام الله عند أبيهم إبراهيم عليه السلام للدلالة على تبديلهم النعمة ظلمًا منهم وكفرًا، وبما سنه لهم من إقامتهم الصلاة وشكرهم لنعمه بالإنفاق وغيره فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ﴾ ولما كان السياق لإخراج الرسل من محالهم، وأتبعه سبحانه بأن المتعرضين بدلوا نعمة الله بما أسكن فيه من الأمن بعد جعله بلدًا: بما أحدثوا فيه من الإخافة لخير أهله، كان الأنسب تعريفه فقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي: الذي يريدون

إخراج الرسول منه ﴿ءَامِنًا﴾ وكأن هذا الدعاء صدر منه بعد أن سكن الناس مكة وصارت مدينة، والذي في البقرة كان حيث وضع ابنه مع أمه وهي خالية عن ساكن، فدعا أن يجعلها الله بلدًا، ولما دعا بالأمن من فساد الأموال والأبدان، أتبعه بالدعاء بالأمن من فساد الأديان فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٧﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم ذكر السبب الحامل له على تخصيص هذا البلد بذلك فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وكأن هذا الدعاء كان بعد بنائه البيت. ولما فرغ من الدعاء بالأهم، وتبين من ذلك أنهم خالفوا أعظم آبائهم في جميع ما قصده لهم من المصالح، أتبعه ما يحث على الإخلاص ليكون أنجح للمراد فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فهو غير محتاج إلى التعريف بالدعاء، فالدعاء إنما هو لإظهار العبودية.

ولما تم ما دعا به من النزاهة عن رجاسة الشرك، أتبعه الحمد على النعم وما تبع ذلك من الإشارة إلى وجوب الشكر فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وهذا يدل على ما تقدم فهمي له من أن هذا الدعاء كان بعد بناء البيت وطمأنينته بإسحاق عليه السلام، ولما كان إتيان الولد له في سن لا يولد فيه لمثله وكان جميع ما دعا به من الخوارق فوجوده مستبعد، أكد قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٤١﴾﴾ أي: من شأنه الإجابة على الوجه الأبلغ، تعريضًا بالأنداد.

ثم أتبع الحمد بالدعاء بالتحلي بحلية العبادة التي أسكن من ذريته لإقامتها، إشارة إلى صعوبتها على النفس إلا بمعونة الله فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٢﴾﴾. ولما كان الإنسان ولو اجتهد كل الاجتهاد، محل العجز الموجب للتقصير المفتقر للستر قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤٣﴾﴾.

ولما ختم دعاءه بيوم الحساب ذكر بعض ما يتفق فيه رجوعًا إلى ما مضى من أحواله على أحسن وجه فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين بدلوا نعمة الله كفرًا، وجل المقصد تهديد أهل الظلم بالإشراك وغيره ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٤﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها وناصبيها إلى جهة الداعي لا يلتفتون، وهو كناية عن أشد الذل، وأكده بقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ كالمحتضر لما بهم من الهول ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: عدمٌ فارغةٌ لا شيء فيها من الجرأة والأنفة التي يظهرونها الآن.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وقد زال عنهم ما يفتخرون به من الحمية والكبر لما رأوا من الأهوال ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٦﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ فلم تعتبروا ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٧﴾﴾ فجمعنا لكم بين طريقي الاعتبار: السمع والبصر، ثم لم تنتفعوا بشيء منهما.

﴿وَ﴾ الحال أنه بان لكم أنهم حين فعلنا بهم ما فعلنا أنهم ﴿قَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ الذي استفرغوا فيه جهدهم بحيث لم يبق لهم مكر غيره في تأييد الكفر وإبطال الحق ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾ وقرئ ﴿لَتزولُ﴾ والمعنيان متقاربان، وقيل: «إن» نافية واللام لتأكيد النفي والجبال: الآيات والشرائع، بل هي أثبت ﴿مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٨﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ في أنه يعز أولياءه ويذل أعداءه ويهلكهم بظلمهم ويسكن أولياءه الأرض من بعدهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٩﴾﴾.

ولما تقررت عظمة ذلك اليوم وكان أعظم يوم يظهر فيه الانتقام، بينه بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٥٠﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٥١﴾﴾ أي: السلاسل التي تجمع الأيدي فيها إلى الأعناق ويقرنون فيها مع أشكالهم ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمصهم السابغة ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ ولما كان هذا اللباس مع نتنه شديد الانفعال بالنار، بين أنه يسلطها عليهم فقال: ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ ولما كان الوجه أشرف ما في الحيوان، ذكره وقدمه تعجيلًا لإفهام الإهانة فقال: ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فعُلم اضطرامها فيما ضمخ بالقطران من باب الأولى.

ثم بين علة هذه الأفعال في ذلك اليوم فقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ ولما عظم الأمر بإسناد الجزاء إلى الاسم الأعظم، اقتضى ذلك أن يكون نفس الكسب هو الجزاء بأن يصوَّر بما يحق من الصور المليحة عند إرادة الثواب والقبيحة عند إرادة العقاب، فلذلك أسقط الباء فقال: ﴿مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

ولما اشتملت هذه السورة على ما قرع سمعك من هذه المواعظ والأمثال والحكم، ترجمها سبحانه بما يصلح عنوانًا لجميع القرآن فقال: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الكتاب الذي يُخرِج الناسَ من الظلمات إلى النور ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: كافٍ غاية الكفاية في الإيصال ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ليصلوا به إلى الله ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فيكون همهم واحدًا.

وأشار إلى أن أدلة الوحدانية والحشر لا تحتاج إلى كبير تذكر؛ لأنها في غاية الوضوح، بقوله مدغمًا تاء التفعل: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤﴾ فيعلموا أنه لا وصول لهم مع الغفلة فيلزموا المراقبة، ويعلموا بما ركز في طبائعهم وجرى من عوائدهم: أن أقل حكامهم لا يرضى بأن يدع رعيته يتهارجون لا ينصف بينهم فيكون ذلك منه انسلاخًا من رتبة الحكم، فكيف يدّعون ذلك في أحكم الحاكمين!

وقد انطبق آخر السورة على أولها، لأن هذا عين الخروج من الظلمات إلى النور بهذا الكتاب الحامل على كل صواب، والله الموفق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الواضحة للحق من غير اختلاف أصلًا، وأمثل ما فيها في هذا المعنى قصة أصحاب الحجر، فإن وضوح آيتهم كوضوح ما دل عليه مقصود هذه السورة في أمر الكتاب، وأيضًا آيتهم في غاية الإيضاح للحق والجمع لمعانيه الدائرة على التوحيد المقتضي للاجتماع على الداعي، على أن لفظ الحجر يدل على مادل عليه مقصود السورة من الجمع والاستدارة التي روحها الإحاطة المميِّزة للمحاط به من غيره بلا لبس أصلًا.

لما ختم التي قبلها بعنوان الكتاب، ابتدأ هذه بشرحه، وأوله: وصفه بأنه جامع، والخير كله في الجمع والشر كله في الفرقة، فقال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: الكامل، ولما كان الغالب في هذه السورة القطع الذي هو من لوازم الكتاب قدّمه، وذلك أنه قطع بأمر الأجل والملائكة وحفظ الكتاب وكفاية المستهزئين ﴿وَ﴾ آيات ﴿قُرۡءَانٖ﴾ والتنوين للتعظيم ﴿مُّبِينٖ ١﴾ لجميع ما يوصل إلى الله، وهذا شرح كونه بلاغًا.

فمقصودها اعتقاد كون القرآن بلاغًا جامعًا لذلك مغنيًا عن جميع الأسباب، فلا ينبغي الالتفات إلى شيء سواه ﴿ذرهم يأكلوا﴾، ﴿لا تمدن عينيك﴾، ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٣، ٨٨، ٩٩]، وكان الجمع بين الوصفين الدال كل منهما على الجمع: إشارة إلى الرد عليهم في جعلهم القرآن عضين، مع أن المفهومين -مع تصادقهما على شيء واحد- متغايران، فكأن الأول إشارة إلى حفظه في الطروس بالكتابة، والثاني إلى حفظه في الصدور بالدراسة، ومادّتا «كتب» و«قرأ» بجميع التقاليب تدور على الجمع.

ولما وصف سبحانه هذا القرآن بما وصفه من العظمة والإبانة لجميع المقاصد التي منها سؤال الكفرة عند رؤية العذاب التأخيرَ؛ للطاعة في قوله تعالى: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ [إبراهيم: ٤٤] بينه بقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ وأشار بالمضارع إلى كثرة ودهم لذلك وتكرره، ودخلت «ربما» على المضارع وهي للماضي؛ للإعلام بأنه مقطوع به كما يقطع بالماضي الذي تحقق ووقع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ وقد كان ما أخبر الله به

فقد ندم كل من أسلم من الصحابة على تأخير إسلامه لمّا علموا فضل الإسلام ورأوا فضائل السابقين، وسيكون ما شاء من ذلك في القيامة وما قبلها.

فالمعنى أنكم إن كذبتم بأنكم ترجعون فلا أقل من أن تشكوا في ما يجوز كونه، ولا ينبغي حينئذ للعاقل ترك الاستعداد على تقدير هذا الاحتمال، وهذا التقليل هو مدلول «رب»، وقال في لسان العرب: "إن العرب خوطبت بما تعلمه في التهدد، والرجل يتهدد الرجل فيقول: لعلك ستندم على فعلك؟ وهو لا يشك أنه يندم، ولكن مجازه أن هذا لو كان مما يُوَد في حال من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف أن يندم على الشيء، لوجب عليه اجتنابه، والدليل على أنه للتهدد قوله: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾"، فعُلم أنهم يطلقونها بمعنى القلة فيما هو كثير؛ إرخاء للعنان وتنبيهًا على الاحتياط وذلك عند التهديد.

ثم قال مشيرًا إلى المانع لهم عن الإذعان: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: رجاؤهم طول العمر وبلوغ ما يقدّره الوهم من الملاذّ من غير سبب مهيئ لذلك، ولما كان هذا أمرًا لا يشتغل به إلا أحمق هدد بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه: "لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنه الآي المختتم بها سورة إبراهيم، أعقب ذلك بقوله: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ أي: عند مشاهدة تلك الأحوال الجلائل، ثم قال تأكيدًا لذلك الوعيد: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ ثم أعقب هذا ببيان ما جعله سنة في عباده من ارتباط الثواب والعقاب بأوقات لا انفكاك لها عنه ولا تقدم ولا تأخر".

ولما كان من المعلوم من أحوالهم: الاستعجال بالعذاب استهزاءً قال في جوابهم: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ ولما كان السياق للإهلاك واستعجالهم أكّد تحتّمه بزيادة الواو فقال: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾.

ثم عطف على استعجالهم ما يدل على عنادهم بتركهم الجواب إلى التعنت والسفه فقال: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي: بزعمه ﴿ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ أي: بسبب ادعائك ذلك، فأقاموا الشتم مقام الجواب صنعةَ المغلوب في المناظرة، ثم أتبعوه ما زعموه دليلًا لهم فقالوا: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إما للشهادة لك وإما لإهلاك من خالفك، أي: ما وجه اختصاصك بنزول الملائكة وأنت مثلنا! ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾.

وأجاب عن الثاني لأنه أقرب فقال: ﴿مَا تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أما على الرسل فبالحق من الأقوال، وأما على المنذَرين فبالحق من الأفعال من الهلاك والنجاة، ولو لم نمهل لفات ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج المؤمنين من أصلابهم ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.

وأجاب عن الأول بقوله مؤكدًا؛ لتكذيبهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ فانتفى جواز أن ينزل على مجنون، وقد كان من حفظه أن أمر الصدّيقُ زيدَ بن ثابت رضي الله عنهما بجمع القرآن، فكان لا يكتب شيئًا إلا مكتوبًا منه بحضرة النبي ﷺ وأمرِه وقابله مع ذلك على المحفوظ في الصدور، ثم أعاد التتبع كما فعل أولًا ففقد آية من الأحزاب ما وجدها مكتوبة بشرطه إلا عند خزيمة بن ثابت رضي الله عنه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾ أي: رجالًا من أهل القرى مثلك يوحى إليهم ولم نرسل معهم ملائكة تراها أممهم. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ مكررين لذلك دائمًا فكأنهم تواصوا به، ولم ينقص هذا من عظمتنا شيئًا، فلا تبتئس بما يفعلون بك، ولعله عبر عنه بالسين المفهمة للطلب: إشارة إلى أن رغبتهم فيه لا تنقضي كما هو شأن الطالب للشيء، مع أنهم لا يقعون على مرادهم في حق أهل الله؛ لأنهم لا يفعلون من ذلك فعلًا إلا كان ظاهر البعد عما يريدون؛ لظهور ما يدعو إليه حزب الله وثباته، قال الرماني: "وإنما كان الناس إلى ما يوجبه الجهل من الاستهزاء ونحوه أسرع منهم إلى ما يوجبه العلم من الأخذ بالحزم والنظر في العواقب؛ لما في ذلك من تعجّل الراحة واللذة وإسقاط الكلفة بإلزام النفس الانتقالَ من حال إلى حال".

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا السلك العجيب ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: الذكر ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾ بغاية العسر، فلا يتسع له المحل فلا ينفع، حالَ كونهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ لأن صدورهم لا تنشرح له ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ بذلك، ونحن قادرون على فعل ما نريد من تلك السنة بهذه الأمة. ودلّ عليه بقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ حتى صرنا نرى الأشياء على خلاف ما هي عليه ونثبت ما لا حقيقة له.

ولما كان ذكر هذه الآية السماوية دليلًا على مرودهم على الكفر، وكان معلومًا أن ثبوت النبوة مترتب على ثبوت الوحدانية، أخبر عما له من الآيات فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ

بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾.

ثم بين أنه كما كانت هذه الأشياء عنده بحساب قدّره على حكمة دبرها كان غيرها كذلك، فذلك هو المانع من معاجلتهم بما يهزؤون به من العذاب فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ ونفى عن غيره ما أثبته أولًا لنفسه فقال: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾.

ولما فصّل الخبر في سبب الإحياء في الجملة، فتهيأت النفس للانتقال منه إلى الإحياء الحقيقي قياسًا قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾ أي: الإرث التام إذا مات الخلائق. فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثارها لا تكون محكمة إلا بالعلم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ وهم من قضينا بموته أولًا، فكأنه بموته يسارع إلى التقدم وإن اجتهد في تأخيره بالعلاج وغيره ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾ وهم من أخرنا موتهم، فكأنهم يُسبَقون إلى ذلك وإن عالجوه بشرب سم وغيره.

ولما ثبت بذلك إحياء الموتى؛ لانتفاء المانع من جهة القدرة، واقتضاء الحكمة له من جهة العلم للعدل بين العباد، قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾.

ولما جرت سنته الإلهية أنه يذكر ابتداء الخلق دليلًا على الإعادة قال: ﴿۞وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ وفي خلقه من الماء الذي هو كالأب والطين الذي هو كالأم بمساعدة النار والهواء = من الحكمة: أن يكون ملائمًا لما في هذا العالم، فيكون بقاؤه بذلك الذي خُلق منه في مأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره، وذلك أدل على حكمة الخالق وعلمه ووحدانيته ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾.

قال الرازي في اللوامع: "وهذا إشارة إلى درجات خلق آدم عليه السلام ومراتبه، وأشار الله تعالى إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال في موضع: ﴿من تراب﴾ إشارة إلى المبدأ الأول، وفي آخر ﴿من طين﴾ إشارة إلى الجمع بين الماء والتراب، وفي آخر ﴿من حمأ مسنون﴾ إشارة إلى الطين الصالح لقبول الصورة، وفي آخر ﴿من صلصال﴾ إشارة

إلى يبسه وسماع صلصلة منه، وفي آخر ﴿من صلصال كالفخار﴾ وهو الذي أُصلح بأثر من النار فصار كالخزف، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة".

ثم أشار إلى نعمة أكبر من الإيجاد وهي التفضيل على جميع المخلوقات على وجه مبين لسبب الضلال فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: طين شديد اليبس ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ أي: طين أسود منتن ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: مصور بصورة الآدمي كأنه مصبوب في قالب ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: اسجدوا له سجود من كان في مبادرته وسهولة انقياده كأنه وقع من غير اختياره.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من غير توقف ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ فلم يعاجله بالعقوبة بل أخره إلى أجله المحكوم به في الأزل، كما أنه لم يعاجلكم لذلك ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ أي: ظاهر البدن ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي: متهيئ للّمس، وأنا خير منه لأنك خلقتني من نار نافعة بالإشراق ممتنعة بالإحراق، فخضوعي له مناف لحالي وإلزامي به جور.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ لأنها دار لا يقيم بها متكبر عاص بمخالفة أمري ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ أي: إلى يوم فوات التوبة، فلا يتمكن من عمل يقربه من حضرة الأنس.

ولما علم من هذا دوام لعنه وكان ذلك مفهمًا لإنظاره إلى ذلك الحد ﴿قَالَ رَبِّ﴾ فاعترف بالعبودية والإحسان إليه، ولم يحمله ذلك على التوبة؛ للحكم بدوام لعنه، فلا يطمع طامع في إيمان من ختم بكفره بالإجابة إلى ما يقترح، وأتى بفاء السبب لما فهم من الإملاء فقال: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ليأمن الموت ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: الذي قدرت عليك الموت فيه وهو النفخة الأولى التي يموت منها كل مخلوق لم يكن في دار الخلد.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصي والمباحات الجارة إليها الشاغلة عن الطاعة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: التي هي محل الغفلة وهم منها، والشيء إلى ما هو منه أميل ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ أي: المشرَّفين بالإضافة إليك فهم لذلك لا يميلون عنك إلى

شيء سواك، ولذا أبدل منهم: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١﴾ فلا محيص لكم عنه، فكأنه قيل: علي إقامته.

ثم قال مضيفًا جميع العباد إليه، نافيًا ما قد يوهمه الكلام من أن لإبليس عملًا مستقلًا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ أي: بتعمد منه ورغبة ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ فإني جعلت لك عليهم سلطانًا بالتزيين والإغواء ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣﴾ ثم بين أنهم متفاوتون فيها فقال: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ﴾ قال الرماني: "وهي أطباق بعضها فوق بعض" عن علي وغيره، والسبب في تصاعدها: اختلاف أنواع الكفر في الغلظ والخفة ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٌ مَّقۡسُومٌ ۝٤٤﴾.

ولما ذكر الكافرين، ذكر المخلصين فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۝٤٨﴾. ولما أفهم السياق أن الناجي إنما هو المتقي المخلص، بين حال من لم يقم بحق التقوى فقال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ ولما كان ذلك ربما كان سببًا للاغترار الموجب للإصرار قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ﴾ أي: وحده ﴿ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ أي: الكامل في الإيلام، فعُلم أن الأول لمن استغفر والثاني لمن أصر، وأن المتقين إنما دخلوا الجنة بعفوه والغاوين إنما عذبوا بعدله.

ثم أخبر بما عُذِّبت به الأمم ليزدجروا، وذكر من هو أقرب إلى بلادهم ممن يعرفونه لأنه أوقع في النفس فقال: ﴿۞وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ ولما كان طلبهم في هذه السورة للملائكة على وجه أوكد مما في سورة هود عليه السلام، أشار لهم إلى ما في رؤيتهم من الخوف ولو كانوا مبشِّرين وفي أحسن صورة بقوله: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ وإسقاطه ذكر جوابه بالسلام لا يقدح بذكره في غيرها؛ لاشتمال الحدث على الجميع، وتكون مثل هذه التصرفات لمعانٍ يستخرجها من أراد الله ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾.

ولما تحقق البشرى، وكان إتيانهم على غير الصفة التي يأتي عليها الملك للوحي، وكان عالمًا بأن الملائكة ما تنزل إلا بالحق ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧ قَالُواْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ

﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا﴾ وأكد لعظيم تشوف الخليل إلى معرفة أمرهم، بخلاف ما في النمل(٧٠) فإن سياقها عار عن ذلك.

﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا﴾ بالفاء الدالة على سرعة وصولهم ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢﴾ لِما هم عليه من أحوال لا تشبه أحوال البشر فلا بد أن يكون عن إتيانكم شر لأحد، وهو معنى ﴿سيء بهم﴾ [العنكبوت: ٣٣] الآية، فقدم حكاية إنكاره إياهم وإخبارهم عن العذاب للزجر عن قولهم: ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ [الحجر: ٧]، ويجوز أن يكون قال هذا لما أخبروه بأنهم رسل الله، فخاف أن يكونوا أتوا بشيء يكرهه لكونهم على غير صفة الآتي بالوحي.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ لتكون أقربهم إلينا وإلى محل العذاب؛ لأنك أثبتهم قلبًا وأعرفهم بالله، والشرُّ من ورائكم، وقد جرت عادة الكبراء أن يكونوا أدنى جماعتهم إلى المخوف سماحًا بأنفسهم وتثبيتًا لغيرهم وعلمًا منهم بأن مداناة الوجل لا يقرب من أجل، وضده لا يغني من قدر، ولئلا يشتغل قلبك بمن خلفك، وليحتشموك فلا يلتفتوا أو يتخلف أحد منهم، وغير ذلك من المصالح.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لأن الملتفت غيرُ مستيقن لخبرنا أو متوجعٌ لهم، وذلك أيضًا أجد في الهجرة وأسرع في السير وأدل على أنهم لا يرقّون لمن غضب الله عليهم، مع أنهم ربما رأوا ما لا تطيقه أنفسهم ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ ولا يقطع الدابر حتى يقطع ما دونه، فهو كناية عن الاستئصال بأن آخرهم وأولهم في الأخذ سواء؛ لأن الآخذ قادر.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ ولما كان إكرامُ الضيف إكرامًا لمن هو عنده وإهانتُه إهانتَه قال: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨﴾ في إصابتهم بفاحشة، وكان ذلك قبل معرفته أنهم ملائكة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟﴾ عاطفين على ما تقديره: ألم تعلم أنا لا نترك هذا الأمر لشيء من الأسباب: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾ أن تجير علينا أحدًا منهم. فلما وصلوا إلى هذا الحد من الوقاحة، ذكر لهم الحريم ليحملهم ذلك على الحياء

(٧٠) في قوله تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ الآية: ٥٧.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ يعني: وأنتم عالمون بأني لا أسلمهن أبدًا، فعُلم أن وصولكم إلى أضيافي دون هلاكي محال.

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ولما كان الزجر في هذه السورة أعظم من الزجر في سورة هود عليه السلام؛ لطلبهم أن يأتي بجميع الملائكة، أعاد الضمير على المعذبين لا على مدنهم لأنه أصرح فقال: ﴿عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ عدة من جهة غمرها بالماء بعد خسفها وكونه مخالفًا لمياه الأرض بالنتن والخباثة وعدم عيش الحيوان فيه وعدم النفع مناسبةً لأفعال أهلها، مع أن البلاد التي هي بها من أبهج البلاد في عذوبة المياه وطراوة الأرض وحسن الأشجار وغير ذلك ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ أي: الناظرين في السمة، وهي الأثر الدال في الوجه والقرائن القاضية بالخير والشر، وكانوا يدّعون أنهم أبصر الناس بمثل ذلك ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾.

ثم قال مؤكدًا لما تقدم من الحث على إتيانها بقصد الاعتبار بها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ فإذا أخبروا أنها هكذا لأن الله عاقبهم لعصيانهم رسوله ﷺ وعلى آله، آمنوا حذرًا من مثل هذا العذاب إيمانًا بالغيب. ثم أتبع عذابهم بآخر يشابهه في كونه نارًا من السماء فقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ ثم أخبر عن البلدين لتقاربهما في العذاب والمكان وكونهما على طريق واحدة من طرق متاجر قريش فقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ﴾ أي: طريق ﴿مُّبِينٖ ٧٩﴾ أي: موضح لعظمة الله وانتصاره لأنبيائه ممن يكذبهم، مع كونه مقيمًا في مكانه لم تنطمس آثاره.

ثم عطف عليهم من هم على طريق أخرى من متاجرهم إلى الشام، وكانت آيتهم في غاية الوضوح فكذبوا بها تحقيقًا لقوله: ﴿ولو فتحنا عليهم بابًا﴾ [الحجر: ١٤] الآية، وتمثيلًا له ردًا للمقطع على المطلع، فقال: ﴿۞وَلَقَدۡ كَذَّبَ﴾ وقال مشيرًا إلى أن إتقان بيوتهم لم يمنعهم من العذاب ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ وهم ثمود ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ كما كذبهم هؤلاء بتكذيبك؛ لأن الرسل يشهد بعضهم لبعض، فمن كذب واحدًا فقد كذب الجميع ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ من الانهدام ولحاق ما يُكره، لا كبيوتكم التي لا بقاء لها على أدنى درجة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾.

ولما ذكر أنهم سكنوا الأرض سكنى الآمنين فأزعجتهم عنها صيحة سلبت أرواحهم، ذكّر بما سيكون لأهل الأرض قاطبة بنفخة الصور فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بسبب إقامة الحق وإظهار العدل، ولولا أن سلطنا بعض الناس على بعض لم يظهر لهم منا هذه الصفة غاية الظهور ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ لأنه لا بد من الأخذ لك بحقك إما في الدنيا وإما في الآخرة. وعلله بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ فهو قادر على ذلك عالم بوجه الحكمة فيه في وقته وكيفيته.

ولما ختم بهذين الوصفين بعد الإخبار عما أوتي أهل الحجر من الآيات، وأنه خلق بالحق لا بالتمويه، أخبر بما أوتي هذا النبي الكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ مما يدل على علمنا ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ وهي الفاتحة، الجامعة على وجازتها معاني القرآن، يكون كل سُبع منها كفيلًا بإغلاق باب من أبواب النيران السبعة ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ حقًّا ثابتًا وآيةً باقية.

ولما كان ما أوتيه وما سيؤتاه أعظم ما أوتيه مخلوق، اتصل به قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: مدًّا عظيمًا بالتمني والاشتهاء المصمم، ولذلك ثنى العين احترازًا عن حديث النفس ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ اكتفاء بهذا البلاغ العظيم الذي من تحلى به وأشربه قلبه أراه معايب هذه الدار فبغّضه فيها وأشرف به على ما أمامه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لكونهم لم يؤمنوا فيخلّصوا أنفسهم من النار، وكأن هذا هو الصفح المأمور به، وهو الإعراض عنهم رأسًا إلا في البلاغ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ فإن الله مبارِك فيهم وناصر بهم وغير محوجك إلى غيرهم ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾.

ولما ذكر ما التحم بقصة أصحاب الحجر، عاد إلى تتميم أمرهم فشبههم بمن كذب من هذه الأمة فقال: ﴿كَمَآ﴾ أي: آتينا آياتنا أولئك المقتسمين[71] على قتل رسولهم فكانوا عنها معرضين، مثل ما ﴿أَنزَلْنَا﴾ آياتنا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ من قريش حيث اقتسموا شعاب مكة ينفّرون الناس عنك ويفرقون القول في القرآن ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ أي: قسموا القول فيه والحال أنه جامع المعاني منتظم المباني، واشتغلوا بما لا ينفعهم من التعنت وغيره دأب أولئك، فليرتقبوا مثل ما حل بهم، ومثلهم كل من تكلم في القرآن بمثل ذلك مما لا ينبغي ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾.

---

(٧١) في قوله تعالى: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ النمل: ٤٩.

ويؤيد أن التشبيه راجع إلى قصة صالح عليه السلام: ذكر الوصف الذي به تناسبت الآيتان وهو الاقتسام، ثم وصف المقتسمين بالذين جعلوا القرآن عضين، لئلا يظن أنهم الذين تقاسموا في بيات صالح، وإنما عبر في أولئك بـ﴿آتيناهم﴾ لأن آياتهم معطاة محسوسة لا منزّلة معقولة، وقال في هؤلاء ﴿أنزلنا﴾ إشارة إلى القرآن وإلى أنهم مبطلون في جحدهم؛ لأنه أعظم من تلك الآيات مع كونها محسوسات.

[ثم قال مفرِّعًا على قوله: ﴿ولقد آتينا سبعًا من المثاني﴾][(٧٢)]: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ولما كان هذا في غاية الشدة عليه ﷺ لكثرة ما يُلقى عليه الأذى، خفف عنه سبحانه بقوله معللًا له: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مع ما رأوا من آياته الدالة على عظمته وجلاله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ولما كان من بقي بعد المستهزئين ممن هو على مثل رأيهم كثير، قال يسليه ويسخي بنفسه في الصدع: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: المصلين؛ ليكفيك ما أهمك فإنه لا كافي غيره فلا ملجأ إلى سواه، وعبر عن الصلاة بالسجود إشارة إلى شرفه وما ينبغي من الدعاء فيه لا سيما عند الشدائد، فقد قال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ٤٥] وروي أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

ولما أمره بعبادة خاصة أتبعه بالعامة فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ قال الرازي في اللوامع: "وهذا دليل على أن شرف العبد في العبودية، وأن العبادة لا تسقط عن العبد بحال ما دام حيًا"، وقال البغوي: وهذا معنى ما في سورة مريم عليها السلام: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا﴾ [مريم: ٣١].

فقد انطبق آخر السورة في الأمر باتخاذ القرآن بلاغًا لكل خير والإعراض عن الكفار = على أولها أتم انطباق.

---

(٧٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٨٧.

سورة النحل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم [فكان لا إلٰه إلا هو]، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من دقائق شأنها.

لما ختم الحجر بالإشارة إلى إتيان اليقين وهو صالح لموت الكل، ابتدأ هذه بمثل ذلك لطفًا بالمخاطب، وافتتحها باسمه الأعظم الجامع لجميع معاني الأسماء؛ لأن ذلك أليق بمقام التهديد، فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ أي: أيها الأعداء استهزاءً وأيها الأولياء استكفاء واستشفاء ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزه عن الاستعجال وعن جميع صفات النقص ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عن أن يكون له كفؤ يدفع ما يريد فلا بد من وقوعه، فهي واقعة موقع التعليل لصدر الآية، كما أن صدر الآية تعليل لآخر سورة الحجر ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾.

ولما تقرر تنزهه عن كل نقص شرع يصف نفسه بصفات الكمال من الأمر والخلق، ولما كان الأمر أقدم وأعلى بدأ به، ولما فُهم من قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام أن لنزول الملائكة حالة أخرى لا تنكرها الرسل، وكان المشركون ربما طلبوا الفرق بينهم وبين الرسل في إنزالهم قال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

ولما كان ذلك قاطعًا في التنزه عن الشريك؛ لأنه لو كان لزم إمكان الممانعة فلزم العجز عن المراد، أو وجود الضدين المرادين لهما وكل منهما محال قال: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ ولما كان مع مشاركته لغيره من الحيوان في كونه من نطفة متميزًا بالنطق، فكان أدل ما يكون على الوحدانية قال: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

ولما كان الكون مع دلالته على الوحدانية نعمةً يجب شكرها، شرع يعدد ذلك تنبيهًا على وجوبه فقال: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ﴾ أي: بليغ الرحمة بتسخير ذلك للضعيف المتوسل إليه بما يرضيه ﴿رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ﴾ أي: على سبيل التجديد والاستمرار ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ مما لعله أجل منافع مما ذكر.

ولما كانوا في أسفارهم يقصدون أقوم الطرق وأوصلها إلى الغرض، ومن عدل عن ذلك كان عندهم ضالًا سخيف العقل، نبههم على أن ما تقدم في هذه السورة قد بين الطريق الأقوم الموصل إليه تعالى بتكفله ببيان أنه الواحد القادر المنعم فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: بيان الطريق العدل وكذلك الجائر حتى لا يشك في شيء منهما، فإن الطريق المعنوية كالحسية، منها مستقيم من سلكه اهتدى ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ من سلكه ضل فهلك.

فالآية من الاحتباك: ذكر أن عليه بيان القصد أولًا دلالة على حذف أن عليه بيان الجائر ثانيًا، وذكر أن من الطرق الجائر ثانيًا دلالة على حذف أن منها المستقيم أولًا، والتعبير المذكور لبيان أن المقصود بالذات إنما هو بيان النافع ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ بخلق الهداية في قلوبكم بعد بيان الطريق، ولكنه لم يشأ ذلك فجعلكم قسمين.

ولما ذكر الإنسان وما يليه في الشرف من الحيوان، ذكر النبات الذي هو قوام حياتهما فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾.

ثم ابتدأ بالأنفع فالأنفع في القوتية والائتدام والتفكه فقال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وأما كلها فلا يكون إلا في الجنة، وهذا البعض مذكِّر بالكل ومشوق إليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: الماء، ولذا أفرد فقال: ﴿لَءَايَةً﴾ ولما كانت منافع ذلك مما قد يشغل عن الفكر في المراد به لقربه، فكان التفطن لدلالته يحتاج إلى تأمل قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما قال تعالى في وعيد المستهزئين: ﴿فسوف يعلمون﴾ [الحجر: ٣]، أعقبه ببيان تعجيل الأمر فقال: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾، ثم بين سبحانه ما هو عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما هدى الكل وأخر العقوبة عن مستوجبها".

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ولما كانت منافعها مع كونها محسوسة ليست قريبةً سهلةَ الملابسة فتشغل عن الفكر فيها، وكانت الآثار العلوية أدل على القدرة وأبين للعظمة، لم يَحِل أمرها إلى غير مطلق العقل فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾.

ولما كان التفكر في ذلك مذكرًا بما بعده من تفاوت اللون قال: ﴿۞وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ أي: خاصة فاشكروه واعلموا أنه ما خصكم بهذا التدبير العظيم إلا لحكم كبيرة ﴿فِى

﴿ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ ولما كان اختلاف اللون -وإن كان منتشرًا- واحدًا من جهة كونه لونًا وحّد فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ ولما نبه في التي قبلها على وضوحه بحيث لا يحتاج إلى غير بديهة العقل، نبه هنا على أن ذلك معلوم طرأ عليه النسيان فقال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ وقد بدأ سبحانه بالأجسام ثم الأعراض من الألوان.

ولما ذكر بعض ما في المكشوف من الأرض أتبع ذلك بالمغمور بالماء فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ ولما كان المخرُ -وهو أن تجري السفينة مستقبلة الريح فتشق الماء فيسمع لجريها صوت معجب، وذلك مع الحمل الثقيل- آيةً عظيمة قال: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ ولما كان النظر إلى تعداد النعم هنا أتم منه في سورة فاطر(٧٣) قدم المخر في قوله: ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ﴾ ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأعمها نبه على ذلك بالالتفات إلى مقام الغيبة لئلا يظن خصوصه بالمخاطب فقال: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾.

ولما لم يبق بعد ذلك شبهة في أن الخالق إنما هو الله وأن ما يدعون من دونه واضح العجز قال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ حيث أراد ومتى أراد، فلا يمكن عجزه بوجه لتمكن شركته ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾. ولما كانوا مستحقين لسلب النعم بالإعراض عن التذكر، أشار إلى سبب إدرارها فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

ولما جرت العادة بأن المكفور إحسانه يقطعه عند علمه بالكفر، فكان ربما توهم متوهم أن سبب مواترته عدم العلم به، قال مهددًا بإبراز الاسم الأعظم الذي بنيت عليه السورة للفصل بالفرق بين الخالق وغيره: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾.

ولما أثبت لنفسه تعالى كمال القدرة وتمام العلم والتفرد بالخلق، شرع يقيم الأدلة على بعد ما يشركونه به من الإلهية بسلب تلك الصفات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ﴾ فوصفهم بما يستلزم أن يكون عبدتها أشرف منها؛ تسفيهًا لهم بخضوعهم لها، ولما كان الوصف قد يطلق على غير الملتبس به، مجازًا عن عدم نفعه قال: ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ ولعله اقتصر على وصفهم بذلك؛ لأنه مع كونه كافيًا في

(٧٣) في قوله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ الآية: ١٢.

إبعادهم عن الإلهية، صالح لكل مخلوق ادعي فيه الإلهية وإن اتصف بالحياة؛ لأنها زائلة يعقبها الموت، ومن كان كذلك كان بعيدًا عن الإلهية ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فنفى ما هو أعم من العلم لينتفي به كل ما هو أخص ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ثم استأنف بنتيجة ما مضى فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: جاهلة بأنه واحد لِما لها من القسوة لا لاشتباه الأمر؛ لأن مادة «نكر» تدور على القوة وهي تستلزم الصلابة فتأتي القسوة ﴿وَهُم﴾ أي: والحال أنهم بسبب إنكار الآخرة ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عن كل ما لا يوافق أهواءهم، فصاروا بذلك إلى حد يخفى عليهم معه الشمس، كما قال تعالى: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ [هود: ٢٠] وربما دل ﴿مستكبرون﴾ على أن ﴿منكرة﴾ بمعنى: جاحدة ما هي به عارفة.

ولما كانوا -لكون الإنسان أكثر شيء جدلًا- ربما أنكروا الاستكبار وادعوا أنه لو ظهر لهم الحق لأنابوا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾. ولما كان الطعن في القرآن -بما ثبت من عجزهم عن معارضته- دليل الاستكبار قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ فيَضلون بهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ لما لهم فيها من التسبب من غير أن ينقص من أوزار الضالين بهم شيء وإن كانوا جهلة؛ لأن لهم عقولًا هي بحيث تهدي إلى سؤال أهل الذكر، وفطرًا أولى تنفر من الباطل أول ما يعرض عليها فضيعوها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ولما كان المراد من هذا الاستكبار محو الحق من غير تصريح بالعناد بل مع إقامة شبه ربما راجت -وإن اشتد ضعفها- على عقول هي أضعف منها وكان هذا حقيقة المكر، شرع يهدد الماكرين ويحذرهم ما وقع بمن كانوا أكثر منهم وأقوى، ويرجّي المؤمنين في نصرهم عليهم فقال: ﴿۞ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ ولما كان المكر هو الضر في خفية، بيّن أن ما حصل لهم من العذاب هو من باب ما فعلوا = بقوله: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وبيّن أن عذابهم غير مقصور على الدنيوي بقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ أوليائي، ما لهم لا يحضرونكم ويدفعون عنكم؟

ولما كان من أجلّ المقاصد في تعذيبهم: العدل بتفريح الأولياء وإشماتهم بهم جزاء لما كانوا يعملون بهم في الدنيا قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وصفهم بأشرف الصفات لكونه منشأ كل فضيلة، وتعريضًا بأن الحامل على الاستكبار: الجهل الذي هو سبب كل رذيلة.

﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ [بإثبات التاءين] إشارة إلى موتهم على حالة لا يمكن جبرها وهي الكفر، بخلاف تارك الهجرة في النساء(٧٤) فإنه قد يجبر هذا النقص بأعمالٍ صالحة ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ﴾ على وجه التأكيد لتقدم كذبهم في قولهم ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ ﴿مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾.

ثم أخبر عن المهتدين منبهًا على الوصف الذي أوجب لهم الاعتراف بالحق فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ وإنما أطبق القراء على نصب هذا ورفع الأول؛ فرقًا بين جواب المقر المطابق للسؤال، وجواب الجاحد العادل عنه(٧٥) ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ أي: تقبض أرواحهم وافية من النقص، بما أشار إليه إثبات التاءين ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾.

ولما أخبر عن توفي الملائكة مشيرًا بذلك إلى أن سنته جرت بأنهم لا ينزلون إلا لإنزال الروح من أمره على من يختصه لذلك أو لأمر فيصل لا مهلة فيه، قال منكرًا عليهم: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٤﴾.

ولما ذكر مآلهم وسوء حالهم، أتبعه عجبًا آخر من مقالهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ على سبيل الاعتراض على من يدعوهم إلى التوحيد عنادًا منهم ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن

---

(٧٤) في قوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ الآية: ٩٧.

(٧٥) "يعني أن هؤلاء أطبقوا الجواب على السؤال مفعولًا للإنزال، فقالوا: أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء" [الكشاف: ٣/ ٤٣٣].

﴿دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ولما ذكروا الأصل أتبعوه الفرع فقالوا: ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ لأن ما يشاء لا يتخلف ونحن نتبع ما شاءه لأنه لا يشاء إلا حقًّا، وضل عنهم أن مدار السعادة والشقاوة إنما هو موافقة الأمر لا موافقة الإرادة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾ أي: كذب، بدليل الأنعام[٧٦]، وكان تكذيبًا لأن قولهم اقتضى أن يكون ما هم عليه مما يرضاه الله، والرسل يقولون: لا يرضاه ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ فصار وبال العصيان عليكم.

ولما كان جمع الرسل مفهمًا لتوزيعهم على الأمم، صرح بذلك فقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ فنابذ الأمر وعمل بمقتضى الإرادة، فإن الأمر قد لا يقع متعلقه، والإرادة لا بد أن يقع متعلقها، فلو كان كل ما شاءه حقًّا كان الفريقان محقين فلم يعذب أحدهما، ﴿فَسِيرُواْ﴾ إن كنتم في شك من إخبار الرسل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ وعبر هنا بالفاء المشيرة إلى التعقب دون تراخ؛ لأن المقام للاستدلال المنقذ من الضلال الذي تجب المبادرة إلى الإقلاع عنه ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾.

ولما لم يكن بعد الاستدلال بالمحسوس إلا العناد، قال مسليًا له ﷺ: ﴿۞إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُهۡدَىٰ مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ فيبرهنوا على صحة معتقدهم، أو يعينوهم على الرجوع عنه عند العجز عن ذلك، أو يكفوا عنهم العذاب.

ثم قال دالًّا على أن اعتقادهم مضمونَ هذه الجملة هو الذي جرأهم على ما تقدم من أقوالهم: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ استنادًا منهم إلى مجرد استبعاد ما لم تجر به نفسه عندهم عادة، جمودًا منهم عن حلها مع ادعائهم أنهم أعقل الناس وأفهمهم، وأمر البعث معلوم عند كل عاقل سمع أقوال الهداة تاركًا لهواه ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ لتقيدهم بما توصلهم إليه عقولهم، وهي مقصورة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي إلى عالم الغيب بغير وساطة منه سبحانه.

ثم بيّن علة كونه حقًّا عليه وهو أنه لا يجوز في عقل عاقل أن حاكمًا يأمر عبيده بشيء ثم يهملهم فلا يسألهم ولا سيما إن اختلفوا فتقاطعوا وتقاتلوا، فكيف وهو أحكم الحاكمين!

---

(٧٦) في قوله تعالى: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ الآية: ١٤٨.

وذلك بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ويجزي كلًّا بما عمل لأن ذلك من العدل الذي هو فعله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ في إنكارهم للمعاد وزعمهم أنهم المختصون بالمفاز. ولما بين تحتمه وحكمته، بين إمكانه ويسره عليه فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

ولما كان التقدير -تفصيلًا لفريقَي المبيَّن لهم-: فالذين كفروا لنخزينهم، عطف عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ترغيبًا في الهجرة.

ولما نبه على إحسانه إليهم وكان فيه أول الأمر نوع غموض لظهور الكفرة في بادئ الرأي، وصفهم بما يُحتاج إليه لاستجلاب تمامه، فقال واصفًا للمهاجرين بما حملهم على ما استحقوا به هذا الأجر الجزيل: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ولما كانوا قد قدحوا في الرسالة بكون الرسول بشرًا وليس معه ملك يؤيده، رده بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ وما أحسن تعقيبه للصابرين لأن الرسل أصبرهم، ولما كانوا يسألون أهل الكتاب في بعض الأمور قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ ولما كان القرآن أعظم الأدلة قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولما كان التفكر داعيًا للعاقل إلى تجويز الممكن والبعد من الخطر، أنكر الأمن من ذلك فقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهم في حال سكون ودعة بنوم أو غفلة ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى﴾ حال ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾ ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة، ولما كان الأمن يكون عن ظن عجز العدو عنه، علل بقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ سواء علينا غفلتهم ويقظتهم.

ولم يعلل ما بعده بذلك لأن المتخوِّف مجوز للعجز فقال: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ ويجوز أن يراد بما مضى عذاب الاستئصال وبهذا الأخذ شيئًا فشيئًا، فإن التخوف: التنقص عند هذيل، وبيّن سبب إمهاله لهم في كفرهم مع قدرته عليهم بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾. ثم دل على تمام قدرته على ذلك وغيره بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن

﴿شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾ وخص الظل بالذكر لسرعة تغيره والتغير دال على المغير.

[ولما ذكر السجود القسري، ذكر سجودًا آخر بعضه اختيار، وفي بعضه شبه اختيار فقال] (٧٧): ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أعاد الموصول لأن المقام للمبالغة في إثبات الحكم على الطائع والعاصي ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ وخص المقربين فقال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ودل على أن في غيرهم من يستكبر فيكون انقياده للإرادة كرهًا بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾ ثم علل خضوعهم بقوله دلالة على أنهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ﴾ ودل على أنهم مكلفون بقوله: ﴿مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾.

ولما كان التوحيد أعظم المأمورات قال: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ عاطفًا على قوله: ﴿وقال الذين أشركوا﴾ [النحل: ٣٥] تبكيتًا لهم بأنهم احتجوا بحكمه ولم يمتثلوا أمره ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ تنبيه على أن الألوهية تنافي التعددية، وهو يشير إلى أن ما يسمى آلهة وإن تعدد يرجع حقيقة إلى اثنين: خالق ومخلوق، ومن المعلوم أن المخلوق غير صالح للألوهية فانحصر الأمر في الخالق ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ رد لقول المتعنت أن المراد إثبات الإله الدال على الجنس ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ أي: ذلك الواحد أنا وحدي لا شريك لي.

ولما كانت الوحدانية معلومة لكل عاقل، وكانت الرهبة خاصة بالخوف مما خالف العاصي فيه ما يعلمه قال: ﴿فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان الأمر قد ظهر غاية الظهور، لم يؤكد بإعادة النافي فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مما تعبدونه وغيره، فكيف يكون شيء منه إلهًا وهو ملكه! ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الخضوع والتذلل ﴿وَاصِبًاۚ﴾ أي: دائمًا ثابتًا عامًا لا كالملوك الذين تنقطع ممالكهم مع خصوصها، والمعبودات التي تختص بناس، وتكسد عبادتها في وقت بعد أن كانت رابحة، ولما كانت التقوى نتيجة الرهبة قال: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾.

وأتبع ذلك ما يوجب تعظيم الإنكار عليهم، فقال مبينًا أنه لا ينبغي أن يتعلق خوف ولا رجاء إلا به: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ تنبيه على أنهم ما أقدموا على ذلك الشرك إلا لهذا الغرض، إحلالًا لهم محل العقلاء الذين لا يقدمون

(٧٧) التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٠.

إلا على ما يعلمون عاقبته، ولا خزي أعظم من هذا لأنه أنتج أن الجنون خير من عقل يكون هذا مآله، فهو من باب التهكم ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾ وحذف المتهدد به أبلغ وأهول لذهاب النفس في تعيينه كل مذهب.

ثم عطف على قوله: ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ قولَه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤال توبيخ وهو الذي لا جواب لصاحبه إلا بما فيه فضيحته ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ عبّر بالاسمية الدالة على الثبات ليظهر فضيحتهم. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ ولعله عبر بالبشرى تنبيهًا على تعكيسهم للأمور في جعلهم سرورهم وحزنهم وغير ذلك من أمرهم ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾.

ولما كان شرح هذا أنهم تكلموا بالباطل في جانبه تعالى وجانبهم، بين ما هو الحق في هذا المقام فقال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ الذي لا يوقع شيئًا إلا في محله، فلو عاملهم بما يستحقونه لأخلى الأرض منهم.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ ولما كان سياق هذه الآية أغلظ من سياق فاطر، ذكر الظلم وعبر بما يشمل كل محمول الأرض سواء كان على الظهر أو في البطن فقال: ﴿بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لأن الكل إما ظالم وإما من مصالح الظالم فيهلكه عقوبة للظالم، أو لأنه ما خلقهم إلا للبشر فإذا أهلكهم أهلكهم ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾.

ولما كان ما تقدم أمارة على كراهتهم لما نسبوه إلى الله تعالى أتبعه التصريح به فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ﴾ أي: لأنفسهم من البنات والأموال والشركاء والاستخفاف برسلهم ورسالاتهم ﴿وَتَصِفُ﴾ ولما كان قولًا لا حقيقة له بوجه أسنده إلى اللسان فقال: ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾ ولا جهل أعظم ولا حكم أسوأ من أن تقطع بأن من تجعل له ما تكره يجعل لك ما تحب.

ثم بين لهم ما يكون من حالهم بالقياس على أشكالهم تهديدًا وتسلية للنبي ﷺ فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ فهو نفي لأن

يكون لهم ولي على أبلغ الوجوه؛ لأنه لو قدر على نصرهم لما أسلمهم للهلاك وقد أطاعوه ﴿ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾.

ولما كان حاصل ما مضى الخلاف والضلال والنقمة قال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾.

ولما ختم بما أحيا به القلوب بالإيمان والعلم بعد موتها بالكفر والجهل، شرع في أدلة الوحدانية على وجه غير المتقدم ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من الحصر فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ولما كان السياق لإثبات دعائم الدين وكان الإحياء بالماء لا يزال أثره قائمًا، أعرى الظرف من الجار لأن المعنى به أبلغ فقال: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾ ولعله لم يختمها بـ«يبصرون» لئلا يظن أن ذلك من البصيرة فيحتاج إلى كبير فكر فتفوت الإشارة إلى شدة الوضوح.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم﴾ ولما كانت السورة لتعداد النعم، وذكر المسقي وهو اللبن، تعينت إرادة الإناث فانتفى الالتباس بتذكير الضمير فقال: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ﴾ لما كان لهم مدخل في ذلك أسند الأمر إليهم بخلاف ﴿نسقيكم﴾ وللإشارة إلى كراهة السكر فإن أصله انسداد المجاري، فالآية دليل على أن الرزق يطلق على الحرام ﴿سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

ولما كان أمر النحل أعجب مما تقدم وأنفس ثلّث به وجعله من وحيه إيماء إلى ذلك، وأخره لأنه أقل الثلاثة عندهم، فقال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ أي: بالإلهام ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولما أذن لها في ذلك كله وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون إلا بمشقة نبه على خرقه للعادة في تيسيره لها فقال: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ﴾ وأشار بقوله: ﴿رَبِّكِ﴾ إلى أنه لولا عظيم إحسانه في تربيتها لما اهتدت إلى ذلك.

﴿ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ أيَّ شرابٍ! لأنه مع كونه من أجل المآكل هو مما يُشرب ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ قال الحكيم الترمذي: " إنما كان ذلك لأنها ذلت لله مطيعة وأكلت من كل الثمرات محبوبها ومكروهها تاركة لشهواتها، فلما صار هذا الأكل

لله صار ذلك شفاء للأسقام، فكذا إذا ذل العبد لله مطيعًا وترك هواه صار كلامه شفاء للقلوب السقيمة"، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد كثر في هذه السورة إضافة الآيات إلى المخاطبين، وجعل الإمام الحرالي في كتابه المفتاح لذلك بابًا، بعد أن جعل أسنان الألباب مثل أسنان الأجساد فقال:

"**الباب التاسع** في وجوه إضافات الآيات واتساق الأحوال لأسنان القلوب في القرآن: اعلم أن الآيات والأحوال تضاف لمن اتصف بما به أدرك معناها، وهي أطوار أظهرها: **آيات الاعتبار البادية لأولي الأبصار** وهي الخلق كله، فإنه موجود للاعتبار منه لا للركون إليه، فاتخذه قوم كسبًا لأنفسهم لا عبرةً به إلى ربه ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ [يونس: ٧] حتى صار عندهم وعند أتباعهم آيتهم لا آية خالقه ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ [الشعراء: ١٢٨].

ثم يليها: **ما ينال إدراكَ آيته العقلُ الأدنى ببداهة نظره** ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [النحل: ١٢] ثم يليه: **ما يحتاج إلى فكر**؛ لاشتغال الحواس بمنفعته، فيثير العقلُ الأدنى التفكرَ في وجه آيته ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء﴾ إلى ﴿لآية لقوم يتفكرون﴾ [النحل: ١٠] أفرد الآية لاستناد كثرته إلى وحدة الماء ابتداء ووحدة الانتفاع انتهاء.

ثم يليه: **ما يُقبَل بالإيمان** وهو مما يدرك سمعًا؛ لأن الخلق مرئي والأمر مسموع ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب﴾ إلى ﴿لآية لقوم يسمعون﴾ [النحل: ٦٣ - ٦٥]، وعند هذا يترقى نظره إلى ما يكون آية في نفس الناظر، فينظر مثلًا إلى الماء في الآية المتقدمة على أنه آية حياة القلوب.

﴿وإن لكم في الأنعام﴾ إلى ﴿لآية لقوم يعقلون﴾ [النحل: ٦٦] وهذا هو **العقل الأعلى**، وكما للعقل الأدنى فكرة تنبئ عن بداهته فكذلك للعقل الأعلى فكرة تنبئ عن عليّ فطرته ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ إلى ﴿لآية لقوم يتفكرون﴾ وهذا العقل الأعلى هو اللب الذي عنه يكون التذكر بالأدنى من الخلق للأعلى من الأمر ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفًا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ [النحل: ١٣].

وفي مقابلة كل من هذه الأوصاف أضداد يرد البيان فيها بحسب مقابلتها.

وما أوصله خفاءُ المسمعِ والمرأى إلى القلب هو فِقهُه، ومن فقد ذلك وُصف سمعه بالصمم وعينه بالعمى ونُفي الفقهُ عن قلبه ونُسب إلى البهيمية، ومن لم تَنل فكرتُه أعلامَ ما غاب

عيانُه، نُفي عنه العلم ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية، ﴿يقولون لئن رجعنا﴾ إلى ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿يقولون لا تنفقوا﴾ إلى ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ [المنافقون: ٧]؛ نفى العلم فيما ظهرت أعلامه والفقه فيما خفي أمره، وهذا الباب لمن يستفتحه من أنفع فواتح الفهم في القرآن".

ثم أتبع ذلك ببعض ما في أنفسهم مما يدل على عموم القدرة وشمول العلم، فقال حثًا على التفكر في آياته قبل حلول ذلك الحادث فيندموا حيث لا ينفع الندم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ﴾ ولما كان مقصود السورة وسياق الآية للدلالة على شمول العلم، نزع الخافض للدلالة على استغراق الجهل لزمن ما بعد العلم فقال: ﴿بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾.

ولما ذكر المفاوتة في الأعمار، وكانت المفاوتة في الأرزاق أدل على القدرة والاختيار، ثنى بها فقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ ولما كان جعل المملوك في رتبة المالك مما يتعاظمهم في حقوقهم قال: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ أي: فيستوي بالرد المالك والمملوك ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ في جعلهم له شركاء يضيفون إليهم ما أنعم به عليهم!

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: تتوالدون بها وتسكنون إليها فيبقى نوعكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ يخفّون في أعمالكم ويسرعون في خدمتكم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ بجعله ملائمًا للطباع شهيًا للأرواح نافعًا للإشباع، فعلم من هذا قطعًا أن صاحب هذه الأفعال هو المختص بالجلال، فتسبب عن كفرهم الإعراض عنهم بقوله: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ وذلك متضمن لكفران نعمته ونسبتها إلى غيره.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ ولما دحض بهذه الحجة جميع ما أقاموه من الشبه وضربوه من الأمثال في قولهم: إن الملك لا يوصل إليه إلا بالأعوان والقربان، فعبدوا الأصنام وفعلوا لها ما يفعل له قال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ قال ابن عباس: "لا تشبهوه بخلقه"؛ لأن ملوك الدنيا المقيس

عليهم إنما أقاموا الأعوان لحاجتهم وضعف ملكهم، وهو تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يشغله شأن عن شأن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ فإذا ضرب مثلًا أتقنه بحيث لا يقدر غيره أن يبدي فرقًا ما بين الممثل والممثل به في الأمر الممثل له ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

ثم أقام الدليل على إحكام أمثاله بقوله: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ وهذا مثل شركائهم ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾ وهذا مثل الإلٰه وله المثل الأعلى ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ أي: هذان الفريقان الممثل بهما، فإذا كان لا يسوغ في عقل أن يسوى بين مخلوق حر مقتدر وآخر مملوك عاجز، فكيف يسوى بين حجر موات أو غيره وبين الله الذي له القدرة التامة على كل شيء! ولما ثبت أنه المختص بالمثل الأعلى قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ أي: له الإحاطة بجميع صفات الكمال التي منها اختصاصه بالشكر لكونه هو المنعم ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ لكونهم يسوون به غيره.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ أي: لا يَفهم ولا يُفهِم ولذا قال: ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ وهذا مثل شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بنصح غيره ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ أي: عامل بما يأمر به، وهذا مثال للمعبود بالحق الذي يكفي عابدَه جميع المؤن، وهو دال على تمام علمه وقدرته. ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾.

ثم أتبعها ما هو من أدلة الساعة فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ آلاتٍ لإزالة الجهل، فالذي قدر على ذلك في البطون إبداعًا، قادر على إعادته في بطن الأرض بل بطريق الأولى، ولعله جمعهما دون السمع؛ لأن التفاوت فيهما أكثر من التفاوت فيه، والأفئدة هي القلوب التي هيأها للفهم وإصلاح البدن بما أودعها من الحرارة اللطيفة القابلة للمعاني الدقيقة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ فتعترفوا له بجميع ما أتتكم به رسله.

ولما ذكر ما منّ به على الطير من الارتفاع الحامي لها من الحر في قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ أتبعه ما يسكنون إليه فيظلهم ويجمعهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ ميزكم

به عن سائر الحيوانات ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

ولما ذكر ما يخصهم أتبعه ما يشاركون فيه سائر الحيوانات فقال: ﴿۞وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ ثم أتبعه ما هداهم إليه عوضًا مما جعله لسائر الحيوان فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية والبيان لطريق النجاة والمنافع ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فلما صار البيان إلى هذا الجلاء، كان ربما وقع في الوهم أنهم إن لم يجيبوا لحِق الداعيَ حرجٌ، فقال تعالى نافيًا لذلك معرضًا عنهم إعراض المغضب معبرًا بـ«التفعل» المفهم لأن الفطر الأولى داعية إلى الإقبال على الله فلا يُعرِض صاحبُها إلا بنوع معالجة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادة غير المنعم بها أو بتكذيب الآتي بالتنبيه عليها، بعضهم لضعف معرفته وبعضهم عنادًا، وكان بعضهم يقول: هي من الله ولكن بشفاعة آلهتنا ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ولما كان من أجل المقاصد بهذه الأساليب التخويف من البعث، وكان من المعلوم أنه ليس بعد الإعراض عن البيان إلا المجازاة قال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار لأنه لا عذر هناك في الحقيقة ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ولا يطلب منهم الإعتاب المؤثر للرضى وهو إزالة العتب؛ لأن تلك الدار ليست بدار تكليف.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾ أضافوهم إلى أنفسهم لأنه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجب لضرهم، يعني: فأكرِمنا لأجلهم، جريًا على منهاجهم في الدنيا في الجهل والغباوة.

فخاف الشركاء من عواقب هذا القول ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ولما بين ما للذين أشركوا، بين ما للذين كانوا دعاة إلى الشرك مانعين من الانتقال عنه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ﴾ بصدهم غيرهم ﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم كرر التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السالفة، وهو أن الشهادة تقع على الأمم فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ﴾ أي: الذين بعثناك إليهم وهم أهل الأرض، وأكثرهم ليس من قومه ﷺ ولذلك لم يقيد بعثته بـ«أنفسهم»، ثم بين أنه لا إعذار في شهدائه لأنه أزاح العلل وترك الأمر على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وإنما احتيج إلى تفسيره مع أنه في نهاية البيان؛ لتقصير الإنسان في العلم بمذاهب العرب الذين هم الأصل في هذا اللسان، وتقصير العرب عن جميع مقاصده كما قصروا عن درجته في البلاغة، فرجعت الحاجة إلى تقصير الفهم لا إلى تقصير البيان، ولهذا تفاوت الناس في فهمه لتفاوتهم في تلك الأسباب، قال الإمام الشافعي: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"، واحتج بآيات منها هذه.

وذلك لأنه سبحانه بين فيه الأصول والفروع بالنص على بعضها وبالإحالة على السنة في الآخر، وعلى الإجماع في نحو قوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ [النساء: ١١٥]، وعلى الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم في نحو قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» فإنهم قد اجتهدوا وقاسوا ولم يخرج أحد منهم عن الكتاب والسنة، فهو من دلائل النبوة في كونه ﷺ شهيدًا لكونه ما أخبر عنهم إلا بما هم أهله.

ولما بين تعالى فضل هذا القرآن، أخذ يبين اتصافه ببيان كل شيء، فقال جامعًا لما يتصل بالتكاليف والأخلاق والآداب: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وأول درجاته التوحيد الذي بنيت السورة عليه، والعدل ميزان الله المبرأ، وبه يستتب أمر العالم وبه قامت السماوات والأرض، وهو وسط كل أطرافه جور، وبالجملة: الشرع مجمع العدل وبه تعرف حقائقه، ومن استقام على نهج الحق فقد استتب على منهج العدل، ذكره الرازي في اللوامع.

﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ وهو فعل الطاعة على أعلى الوجوه، فالعدل فرض والإحسان فضل، وهو في التوحيد: الارتقاء عن أول الدرجات، ومن أعلاه: الغنى عن الأكوان حتى تكون في غيبتها عند انبساط نور الحق كالنجوم في انطماسها عند انتشار نور الشمس، وغايته: الفناء حتى عن هذا الغنى وشهود الله وحده، كما في قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ فإنه من الإحسان.

ولما أمر بالمكارم نهى عن المساوئ فقال: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي ما اشتد تقصيره عن العدل ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما قصر عن العدل في الجملة ﴿وَٱلْبَغْيِۚ﴾ وهو الاستعلاء على الغير ظلمًا، وهو أخو قطيعة الرحم في تعجيل العقوبة «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ لما في ذاك من المعالي، فإن كل أحد يكره أن يُفعل معه شيء من هذه المنهيات، فمن اعتبر بعقله علم أنه إن لم يكف عن فعل ما يكره أخوه، وقع التشاجر فحصل الفساد المؤدي إلى الخراب، هذا في المخلوقين، فكيف بالخالق بأن يصفه بما لا يليق به سبحانه!

ثم ذكر بعض ما أجملته الآية السابقة، وبدأ بما هو -مع جمعه- أهم وهو الوفاء بالعهد، وأعلاه التوحيد واتباع الرسل ثم المواثيق التي بين الناس فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وحذف الجار لأن المنهي عنه إنما هو استغراق زمان البَعد بالنقض ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٩١﴾ فمتى نقضتم فعل بكم فعل الكفيل القادر بالمكفول المماطل من أخذ الحق والعقوبة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ ثم عرّف أنهم أسفه من تلك المرأة لأن ضررها لا يتعداها، وأما ضررهم فإنه مفسد لذات البين فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: ذريعة إلى الفساد بالخداع والغرور من حيث إن المحلوف له يطمئن فيفجؤه الضرر، وكل ما أُدخل في شيء على فسادٍ فهو دَخَل، تفعلون ذلك لأجل ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ﴾ في القوة أو العدد، فإذا وجدت نفاذًا لزيادتها غدرت ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ ليظهر تمسككم بالوفاء أو انخلاعكم منه اعتمادًا على كثرة أنصاركم وقلة أنصار من نقضتم عهده، فيوشك أن يعاقب بالمخالفة فيضعّف القوي ويقلل الكثير.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٩٢﴾ [ولما أحال البيان إلى يوم القيامة، زادهم إعلامًا بحكمة هذا التأخير فقال][78]: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ فبذلك يكونون مختلفين في المقاصد فيأتي الخلاف مع تأدية العقل إلى أن الاجتماع خير من الافتراق، فالاختلاف مع هذا من قدرته الباهرة ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٣﴾.

---

(٧٨) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٦٧.

ولما بين أن الكذب وما جر إليه أقبح القبائح وكان من أعظم أسباب الخلاف فكان أمره جديرًا بالتأكيد، أعاد الزجر عنه بأبلغ مما مضى فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ أي: أنفسكم ومنعتم غيركم بأيمانكم التي أردتم بها الإفساد لإخفاء الحق ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾. ثم أتبعه النهي عن الخيانة في عموم العهد للدلالة على عظيم النقض فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ أي: من حطام الدنيا وإن كنتم ترونه كثيرًا.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ فصاحبه منغص العيش أشد ما يكون به اغتباطًا، بانقطاعه أو بتجويز انقطاعه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ ولما كان كرماء الملوك يوفون الأجور بحسب الأعمال، أخبر بأنه يعمد إلى الأحسن فيرفع الكل إليه فقال: ﴿وَلَيَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾.

ثم أخبر أن ذلك إنما هو دائر مع الإيمان، فقال مرغبًا في عموم شرائع الإسلام: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ولما كان الإنسان كلما علا في درج الإيمان كان جديرًا بالبلاء، بين تعالى أن ذلك لا ينافي سعادته، ولذلك أكد قوله: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ أي: في الدنيا بما نؤتيه من ثبات القدم وطهارة الشيم ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾.

ولما كان القرآن تلاوة وتفكرًا وعملًا أجلّ الأعمال الصالحة، أمر بالاستعاذة من الشيطان عند قراءته لئلا يفسدها بوساوسه أو يحول بين الفهم وبينه، فإنه لا عائق عن الإذعان لأساليبه الحسان إلا خذلان الرحمن بوساوس الشيطان فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾.

ولما كان ذلك ربما أوهم تعظيم الشيطان قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ الذي يتمكن به غاية التمكن بإمكان الله له ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي: يجددون ولايته ويصرون عليها كل حين ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي: بالشيطان ﴿مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ دائمًا؛ لأنهم إذا تبعوا وساوسه وأطاعوا أوامره فقد عبدوه فجعلوه بذلك شريكًا، فهم لا يتأملون دقائق

القرآن ولا يفهمون ظواهره على ما هي عليه لِما أعماهم به الشيطان من وساوسه، فهم لا يزالون يطعنون فيه بقلوب عمية وألسنة بذية.

﴿*وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرِۭ﴾ فإنك تأمر اليوم بشيء وغدًا تنهى عنه وتأمر بضده، وليس الأمر كما قالوا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ لانهماكهم في اتباع الشيطان، حتى زلت أقدامهم في هذا الأمر الواضح بعد إقامة البرهان على أن الكل من عند الله.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: الطهر البالغ ليس فيه داع إلى هوى، فكيف يتوهم فيما ينزله افتراء! ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أحسن إليك بإنزاله ثم بتبديله بحسب المصالح، كما أحسن إليك بالنقل من حال إلى حال لا يصلح في واحدة منها ما يصلح في غيرها، من الظهر إلى البطن ثم من الرضاع إلى الفطام فما بعده، فكيف ينكر تبديل الأحكام للمصالح ولا ينكر تبديل الأحوال لذلك! ﴿بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما يرون من إعجاز البدل والمبدل مع تضاد الأحكام، وما فيه من الحكم والمصالح بحسب تلك الأحوال، وليتمرنوا على حسن الانقياد ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾ المنقادين المبرئين من الكبر الطامس للأفهام.

ثم نقض لهم شبهة أخرى بأوضح مما تقدم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ أي: علمًا مستمرًا ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ أي: قولًا متكررًا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي: غير لغة العرب وهو مع ذلك ألكن، وهو غلام نصراني لبعض قريش اختُلف في اسمه ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ أي: هو من شدة بيانه مظهر لغيره، فلو أن المعلم عربي للزمهم ألا يعجزوا عن معارضته، فكيف وهو أعجمي!

ولما كان إقدامهم على مثل هذا العار مع ادعائهم النزاهة موضع عجب قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ فأبشر لمن بالغ في العناد بسد باب الفهم والسداد.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى﴾ أي: يتعمد ﴿ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ فإنّ ردهم لما قام الدليل على أنه حق وعجزوا عنه تعمّدٌ للكذب.

ولما ذكر الذين لا يؤمنون مطلقًا، أتبعهم صنفًا منهم هم أشدهم كفرًا فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ ولما كان الكفر كله ضارًا وإن قصر زمنه أثبت الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ لِما

قام على الإيمان من الأدلة التي أوصلته إلى حد لا يلبس، فصار استكباره عن الإيمان ارتدادًا عنه، وجواب الشرط دل ما قبله وما بعده على أنه: فهو الكاذب، أو: فعليه غضب من الله ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ على قول كلمة الكفر ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فلا شيء عليه، وأجمعوا -مع إباحة ذلك له- أنه لا يجب عليه التكلم بالكفر، بل إن ثبت كان ذلك أرفع درجة ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي: من نفسه أو من غيره بالتسبب فيه؛ لأن حقيقة الإيمان والكفر يتعلق بالقلب، وإنما اللسان معرّف بما فيه لتُوقَع الأحكام الظاهرة ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

ولما كان من يرجع إلى الظلمات بعد خروجه منها إلى النور حقيقًا بالتعجب منه، بيّن علة فعلهم ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ الذين علم استمرارهم عليه، بل يخذلهم ويسلط الشيطان عليهم يجتالهم عن دينهم. ولما كان استمرارهم على الكفر أعجب من ارتدادهم، أتبعه سببه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾.

ولما قدم الفاتن والمفتون، ذكر حكمهما على القراءتين فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ في قبول توبة من ارتد بلسانه أو قلبه ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أهلَ الكفر بالنزوح من بلادهم توبة إلى الله تعالى مما كانوا فيه، ولما كان سبحانه يقبل اليسير من العمل في أي وقت كان، أشار إلى ذلك بالجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ وعلى قراءة ﴿فَتَنوا﴾ أي: من آمن، أو: أنفسَهم بأن أطاعوا في كلمة الكفر ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾.

ثم بين اليوم الذي تظهر فيه تلك الآثار فقال: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾.

ولما بين أن الأعمال هناك هي مناط الجزاء، بين أنها في هذه الدار أيضًا مناط له، مرهبًا من المعاجلة فيها بالعذاب فقال: ﴿۞وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ ولما كانت السعة تجر إلى البطر غالبًا نبه على ذلك بالفاء فقال: ﴿فَكَفَرَتۡ﴾ ونبه على سعة فضله بجمع القلة الدال على أن ما أعطاهم تافه بالنسبة إلى ما عنده تعالى فقال: ﴿بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ حتى صار بشموله لهم

لباسًا، وبشدة عركهم ذواقًا ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ من الكفر والكبر، قد مرنوا عليه بكثرة المداومة مرون الإنسان على صنعته.

ولما كان تعالى لا يعذب حتى يبعث رسولًا، حقق ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾.

ولما تقرر بما مضى أن الله هو وحده الإلٰه والرازق، وختم بهذا المثل المحذر من كفران النعم، عقبه بقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ حذرًا من أن يحل بكم ما أحل بالقرية ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ كما اقتضته هذه الأدلة، لأنه وحده الذي يرزقكم وإلا عاجلكم بالعقوبة، فصار الكلام في الرزق والتقريع على الكفر مكتنفًا الأمثال قبل وبعد.

ولما كان الإذن إنما هو في بعض الرزق، وكانت المباحات أكثر من المحظورات، حصر القليل ليعلم منه الكثير فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ﴾ ولما كان مقصود السورة لبيان الكمال، كان تقديم غيره لتقبيح حال المعتني به أولى فقال: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾.

ولما تبين بهذه الآية جميع المحرم أكله، فعُلم بذلك جهلهم فيما حرموه على أنفسهم لأجل أصنامهم، صرح بالنهي عنه إبلاغًا في تأكيد ذلك الحصر فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ ولما كان تحليلهم وتحريمهم قولًا فارغًا ليس له حقيقة لأنه لا دليل عليه، عبر عنه بأنه وصف باللسان لا يستحق أن يدخل إلى القلب فقال: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ أي: لأجل الذي تصفه ﴿أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ تهكم بهم؛ لأن العاقل لا يُقدِم إلا على ما يعرف لوازمه وإلا لكان في غاية الجهل، فدار أمرهم في مثل هذا بين الغباوة المفرطة أو قصد ما لا يقصده عاقل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾. ولما كان الفلاح عندهم هو العيش الواسع في هذه الدنيا، أجاب من كأنه قال: فإنا ننظرهم بنعمة ورفاهة؟ فقال: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾.

ولما بين لهم نعمته بتوسعته عليهم بما ضيقوا به على أنفسهم، بين لهم نعمة أخرى بتمييزهم على بني إسرائيل فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: في الأنعام ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ فضيقنا عليهم معاملة بالعدل،

وعاملناكم أنتم حيث ظلمتم بالفضل، فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة. ثم عطف على هذه النعمة الدنيوية نعمة هي أكبر منها جدًا استجلابًا لكل ظالم، وبين عظمتها بحرف التراخي فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ﴾ ولما كان سبحانه يقبل اليسير من العمل أدخل الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذنب ولو كان عظيمًا ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ بالاستمرار على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ١١٩﴾.

ولما دعاهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، أتبعه ذكر إبراهيم عليه السلام ترغيبًا في اتباعه في ذلك فقال: ﴿۞إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ أي: ميالًا مع الأمر والنهي بنسخ أو بغيره ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾ وحذف النون إعلامًا بأن الشرك منفي عنه عليه السلام على أبلغ الوجوه ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾ بجمع القلة، إشارة إلى أن الشاكر على القليل يشكر إذا أتاه الكثير من باب الأولى، فاشكروا الله اقتداء به ليزيدكم وبيّن ما أصابه على ذلك بقوله: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾.

ولما قرر من عظمته في الدارين ما هو داع إلى اتباعه، أمر أشرف الخلق به تنبيهًا على زيادة عظمته فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾.

ولما كان الخلاف والعسر مخالفًا لملته، وكان اليهود يزعمون أنه على دينهم، وكان السبت من أعظم شعائرهم، قال جوابًا على زعمهم وتحذيرًا من العقوبة على الاختلاف في الحق: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾ أي: تحريمه أو وباله ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ حين أُمروا بالجمعة، فقبل ذلك بعضهم وأراد السبت آخرون وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق، فجعله عليهم وشدد عليهم فيه، ثم جاءهم عيسى فأبوا أن يكون عيدهم بعد عيدهم فأخذوا الأحد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾.

ولما تقدم في السورة ما ربما أيأس منهم فأقعد عن دعائهم، وأتبعه ضرب الأمثال ونصب الجدال على تلك المناهج المعجزة، وكان قد أمره ﷺ باتباع ملة إبراهيم، فسرها بقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وهو الإسلام الذي هو الملة الحنيفية ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وهي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبح والصلاح والفساد، وهي في الحقيقة الحق الصريح، فمن كان أهلًا له دعا به ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾ بضرب الأمثال والوعد والوعيد ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ أي: التي

يسهل على كل أحد فهم ظاهرها، ويروق كلَّ نحرير ما ضمنته سرائرها ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ أي: الذين يحتملون ذلك منهم، افتلهم عن مذاهبهم الباطلة إلى مذهبك الحق بالحجاج.

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ ولا تعرض عنهم يأسًا منهم، فهو بيان لأصناف الدعوة بحسب عقول المدعوين، وأما المجادلة المركبة من مقدمات كاذبة يراد ترويجها بالحيل الباطلة والطرق الفاسدة، فهي السيئة التي لا تليق بمنصف ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾.

ولما خص رسوله ﷺ بالأمر بذلك، عم أشياعَه بالأمر بالعدل والإحسان فقال: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ ولما أباح لهم درجة العدل رقاهم إلى رتبة الإحسان بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾.

ثم قال مفردًا له ﷺ بالأمر إجلالًا له وتسلية فيما كان سبب نزول الآية من التمثيل بعمه حمزة رضي الله عنه وتنويهًا بعظم مقام الصبر؛ لأن أمر الرئيس أدعى لامتثال أتباعه: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ ثم أتبع ذلك بما يحث على دوام الالتجاء إليه المنتج للمراقبة والفناء عن الأغيار، ثم الفناء عن الفناء فقال: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

ولقد قابل هذا الأمر ﷺ بأعلى مقامات الصبر، وذلك أنهم مثلوا بقتلى المسلمين في غزوة أحد، فلما وقف على عمه حمزة رضي الله عنه قال: «أما والله! لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم»، فلما نزلت الآية بادر الامتثال وكان ينهى في خطبه عن المثلة، وأحسن يوم الفتح بأن نهى عن قتالهم بعد أن صاروا في قبضته.

ولما كان بعد توطين النفس على الصبر وتفريغ القلب من الإحنة يرجع إلى الأسف على إهلاكهم أنفسَهم بتماديهم على الكفر قال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولما كان سبحانه في مقام التبشير بالإسراء أشار بحذف النون إلى ضيق الحالة عن أدنى إطالة فقال: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ ولو قلّ فإن أذى الكفار الذي السياق للتسلية عنه لا يضرك فيما بُعثت لأجله ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ أي: من استمرار مكرهم بك. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ وأنت رأس المتقين المحسنين فالله معك.

ومن كان الله معه كان غالبًا وصفقته رابحة، وضده في أسوأ الأحوال، فلا تستعجلوا قلقًا كما استعجل الكفار استهزاء، فوافق المقطع المطلع.

سورة الإسراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقصود بها: الإقبال على الله وحده وخلع كل ما سواه لأنه وحده المالك، وتفضيل بعض الخلق على بعض وذلك هو العمل بالتقوى، وكل من أسمائها واضح الدلالة على ما ذكر أنه مقصودها، أما «سبحان» الذي هو علم للتنزيه فلأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص كان جديرًا بألا نعبد إلا إياه [وكان أعظم الناس تفضيلًا أشدهم له تنزيهًا وهو عبده ﷺ]، وأما «بنو إسرائيل» فمن علم أمرهم في سيرهم إلى الأرض المقدس، وإيتائهم الكتاب وما ذكر مع ذلك من أمرهم في هذه السورة، عرف ذلك.

لما كان مقصود النحل التنزه عن النقص والاتصاف بالكمال، وختمها بالإشارة إلى نصر أوليائه مع ضعفهم على أعدائه على قوتهم، افتتح هذه بتحقيق ما أشار الختم إليه بما خرقه من العادة في الإسراء، وبيانًا لأنه مع المتقي المحسن، وتنويهًا بأمر محمد ﷺ وإعلامًا بأنه رأس المحسنين وأعظمهم منزلة بما آتاه من الخصائص التي منها المقام المحمود فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ وهذا التنزيه راد لما عَلم من ردهم عليه وتكذيبهم له إذا حدثهم عن الإسراء، وفيه إيماء إلى التعجيب من هذه القصة للتنبيه على عظمتها ﴿بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ ورجع إلى أظهركم في ذلك الجزء اليسير من الليل، وأنتم تضربون أكباد الإبل في هذه المسافة شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا.

﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: لأجله فما ظنك به نفسه! فهو أبلغ من «باركنا فيه»، ولعله حذف ذكر المعراج هنا لقصور فهومهم عن إدراك أدلته لو أنكروه، بخلاف الإسراء فإنه أقام دليله عليهم بما شاهدوه من الأمارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بأنه ﷺ لم يرها قبل ذلك، وعن جابر رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما ختم سورة النحل بالثناء على إبراهيم عليه السلام والأمر باتباعه، كان ظاهر ذلك تفضيله على محمد ﷺ وسائر النبيين فأعقب هذا بسورة الإسراء، وقد تضمنت من خصائص نبينا ﷺ: إمامته بالأنبياء في الأرض وبأهل السماء فيها، فأكمل الله لنبيه

ﷺ الشرف على أهل السماوات والأرض، وذكْر المقام المحمود وهو مقامه في الشفاعة الكبرى، ولا أعلم سورة تضمنت من خصائصه ﷺ مثل ما تضمنت هذه والحمد لله".

ولما كان ﷺ قد منحه الله من الآيات في هذا الوقت اليسير، أتبعه ما منح موسى عليه السلام في المسير من مصر إلى الأرض المقدسة في مدد طوال جدًا، وقد كان عليه السلام أعظم الأنبياء بركة على هذه الأمة ليلة الإسراء؛ لِما أرشد النبيَّ ﷺ إليه من مراجعة ربه في تخفيف الصلاة، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ثم نبه على أن المراد من ذلك كله التوحيد اعتقادًا وعبادة بقوله: ﴿أَلَّا﴾ أي: لئلا ﴿يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ أي: ربًا يكلون أمورهم إليه، منبهًا بذكر الوكالة على سفه آرائهم في ترك من يكفي في كل شيء إلى من لا كفاية عنده لشيء.

ثم أتبعه ما يدل على شرفهم بشرف أبيهم وأنه لم ينفعهم عند إرادة الانتقام بما ارتكبوا من الإجرام فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ولم يقل: «ذرية نوح» ليُعلِم أنهم عقب أولاده المؤمنين لتكون منة أخرى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ فأحسَن إليه لشكره بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب كما فعل بإبراهيم عليه السلام، فاقتدوا بهذين الأبوين العظيمين في الشكر يزدكم، وخص نوحًا عليه السلام لأنه ما أملى لأحد ما أملى لقومه ثم أهلكهم أجمعين، وكذا كل من كذب بكتابه يهلكه وإن طال إمهاله، ولذا أتبعه بقوله:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ أكده لأنه يستبعد الإفساد مع الكتاب المرشد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: المقدسة بما يغضب الله ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ﴾ بما صرتم إليه من البطر لنسيان المنعم ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ بالظلم والتمرد، ولا ينتقم منكم إلا على حسب ما تقتضيه الحكمة بعد إمهال طويل ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟﴾ أي: ترددوا مع الظلم والسطوة ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ الملزوم لقهر أهلها وسفولهم بعد ذلك العلو الكبير ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾.

ولما بين سبحانه أنه قادر على إذلال العزيز بعد ضخامة عزه، بين أنه مقتدر على إدالته على من قهره بعد طول ذله إذا نقاه من ذنوبه، فقال تعالى مشيرًا بأداة التراخي إلى عظمة هذه الإدالة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا

﴿٦﴾ والظاهر أن الإدالة في هذه الكرة هي التي كانت في أيام عزير على يد كورش ملك الفرس، وأن الذين كانوا قهروهم أولًا هم أجناد بختنصر.

وأشار إلى أن المعصية من أسباب الإذلال وأن الطاعة سبب الإعزاز فقال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ فاستأهلتم البلاء لما أفسدتم، بعثنا عليكم عبادًا لنا ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالسيف، وهذا تعريض بالتهديد لقريش بأنهم إن لم يرجعوا أبدل أمنهم في الحرم خوفًا وعزهم ذلًّا فأدخل عليهم جنودًا لا قبل لهم بها، وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل إكرام لا إهانة ببركة هذا النبي الكريم ﷺ، وكان الخراب في هذه المرة على يد طيطوس ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾. ثم أطمعهم بكرّة أخرى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

ولما ثبت أن كتاب موسى عليه السلام صادق الوعد والوعيد فيما قضى فيه إليهم، بين حال كتاب محمد ﷺ الذي زاد عليه في الحسن بنسبة ما زاد المسير المحمدي إلى بيت المقدس على المسير الموسوي فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ من كل طريقة دعت إليها الكتب السماوية، أما في الصورة فباعتبار ما علا به من البيان، وأما في الوعود فباعتبار العموم لجميع الخلق، وأما في الأصول فبتصريف الأمثال وحسم مواد الشبه وإيضاح الدلائل، وأما الفروع فباعتبار الأحسنية، ولما انقسم الناس إلى مهتد به وضال أتبع ذلك بيانه فقال: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ أي: على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

ولما ذكر سبحانه ما لكلامه من الدعاء إلى الأقوم، أتبعه ما عليه الإنسان من العوج الداعي له إلى العدول عن التمسك بشرائعه القويمة، تنبيهًا على ما يجب عليه من التأني للنظر فيما يدعو إليه نفسه ووزنه بمعيار الشرع فقال: ﴿۞وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: عند الغضب ونحوه على نفسه وعلى من يحبه ﴿بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ﴾ أي: مثل دعائه ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾ ثم نبه على الطبع الذي هو منبع ذلك فقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله من غير أن يتأنى فيه تأني المتبصر الذي لا يريد أن يوقع شيئًا إلا في أتم مواقعه، والعجلة: طلب الشيء في غير وقته، وأما السرعة: فهي عمله في أول وقته الذي هو أولى به.

ولما ثبت ما لصفته تعالى من العلو ولصفة الإنسان من السفول تلاه بما لأفعاله من الإتقان ذاكرًا ما هو الأقوم من دلائل التوحيد والنبوة، ثم ما لأفعال الإنسان من العوج جريًا مع طبعه أو من الإحسان بتوفيق المنان فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ﴾ آية الليل كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة، فكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكرهما فكذلك الزمان لا يتيسر الانتفاع به إلا بهاتين الآيتين.

﴿فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فلا تزال هذه الدار الناقصة في تنقلها بين النور والظلمة، كما للإنسان بعجلته التي يدعو إليها طبعه وتأنيه الداعي إليه عقله من التنقل بين النقصان والكمال ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

ثم أتبعه ما هو أدق من ذلك وأغرب في القدرة فقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ الذي يزين بالقلادة ونحوها ويشين بالغل ونحوه، إلزامًا لا يقدر أن ينفك عن شيء منه، كما ألزمنا بني إسرائيل ما قضينا إليهم في الكتاب فكان كما قلنا، وهم يعلمون سوءه فلم يقدروا على الاحتراز منه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾. ولما كان ما مضى، أنتج قطعًا معنى ما قلنا لبني إسرائيل ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ لكل أحد منهم ومن غيرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

ولما أشار إلى عذاب المخالفين، قرر أسبابه وعرّف أنها بقدره فقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الذين لهم الأمر والنهي، بالفسق، أي: استدرجناهم بإدرار النعم ودفع النقم الذي كان -بكونه سببًا لبطرهم- كالأمر بالفسق ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ بعد ما أزال الرسول معاذيرهم بالبلاغ، وخص المترفين لأن غيرهم لهم تبع، ولأنهم أحق الناس بالشكر وأولى بالانتقام عند الكفر، ويجوز أن يكون: أمرناهم بأوامرنا بالطاعات التي يعلم قطعًا أنها لا تكون بغيرها لأنا لا نأمر بالفحشاء، ففسقوا فيها.

وقد جرت العادة بأن المترف عسر الانقياد لا تكاد تسمح نفسه بأن يصير تابعًا بعد ما كان متبوعًا، فعصوا فتبعهم غيرهم لأن الأصاغر تبع للأكابر، فأطبقوا على المعصية

فأهلكناهم، وقرأ يعقوب: ﴿آمرنا﴾ بمد الهمزة بمعنى: كثَّرنا ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ بمباشرة البعض للفسق وسكوت الباقين ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾.

ولما كان الاعتبار بالمشاهد أوقع، أخبر أنه فعل ذلك بما لا عد له من القرون فقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ وأما من قبله فالظاهر من سكوت القرآن أنهم لم يكونوا كفارًا، وبه صرح كثير من المفسرين ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ فكم من إنسان كنتم ترونه صالحًا، ثم أسفرت عاقبته عند الامتحان عن ضلاله.

ولما تقرر ذلك أخبر بأنه يعاملهم على حسب علمه على وجه مرغب في الآخرة مرهب من الدنيا؛ لأنها المانعة من اتباع الرسل خوفًا من نقص الحظ منها فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ أي: إرادة هو فيها في غاية الإمعان بما اقتضاه طبعه المشار إليه بفعل الكون ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ مما يريده لا جميع ما يريده ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: لا لكل من أراد ذلك، تنبيهًا على أن ذلك بقوتنا لا بقوة ذلك المريد، فينبغي لمريد الدنيا أن لا يزال حذرًا من عذاب الآخرة، فإن لم يعط شيئًا من مناه اجتمع له فقر الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أعطي فهو لا يعطى كل ما يريد فيجتمع له عذاب ما منعه منها مع عذاب الآخرة.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ أي: الذي هو لها، وهو ما كانت جديرة به من العمل بما يرضي الله بما شرعه في كتابه وسنة رسوله ﷺ لا أيّ سعيٍ، ثم ذكر شرط السعي الذي لا يقبل إلا به فقال: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ فالحاصل أن الشرف وغيره عند الله إنما هو بالأعمال، وأن الدنيا إن وجدت عند الولي لم تشرفه، وإن عدمت عنه لم تحقره.

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ مع أن كلًا حريصون على أن يأخذوا فوق كفايتهم من الأرزاق التي هي أكثر منهم، فما كان هذا التفاضل إلا بقسر قادر كامل قهرهم على ذلك، فاستحق ألا توجه رغبة راغب إلا إليه ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ أولًا بالجنة والنار أنفسهما، وثانيًا بالدرجات والدركات فيهما.

ولما تقرر بما مضى أنه سبحانه متصف بجميع الكمال، أنتج أنه لا إله غيره فقال: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾.

ثم أتبع النهي الأمرَ بذلك إعلامًا بعظم المقام فقال: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ولما أمر بمعرفة الحق للمحسن المطلق، أتبعه الأمر بمعرفته لأول المربين من الخلق فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ بالاتباع في الحق إن كانا حنيفين، فإن ذلك يزيد في حسناتهما، وبالبراءة منهما في الباطل، فإن ذلك يخفف من وزرهما؛ ليكون الله معكم، فإنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ولما كان سبحانه عليمًا بما في الطبع من الملل عند أخذهما في السن قال مؤكدًا: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ أي: لا تتضجر منهما ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ والنهر: زجر بإغلاظ.

وقال الحرالي رحمه الله في كتابه في أصول الفقه: "وقد أولع الأصوليون بأن يذكروا في باب الاستدلال بالملزوم على اللازم والأدنى على الأعلى قوله تعالى: ﴿ولا تقل لهما أف﴾ بناء على أن التأفيف أقل شيء يعق به الأب، وذلك حائد عن سنن البيان ووجه الحكمة؛ لأنه ليس في العقوق شيء أشد من التأفيف؛ لأنه إنما يقال للمستقذر المسترذل، ولذلك عطف عليه ﴿ولا تنهرهما﴾ ولو كان لازمًا له بالأحرى لم يصلح عطفه عليه؛ لإفادة الأول إياه".

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ لهما -لا من أجل امتثال الأمر وخوف العار فقط- بأن لا تزال تذكّر نفسك بالأوامر والنواهي وما تَقدَّم لهما من الإحسان إليك، فصارا مفتقرين إليك وقد كنت أفقر الخلق إليهما، حتى يصير ذلك خلقًا لازمًا لك، فإن النفس لأمارة بالسوء إن لم تُقَد إلى الخير بأنواع الإرغاب والإرهاب والإمعان في النظر، ثم أمر تعالى بأن لا يكتفي برحمته التي لا بقاء لها فإن ذلك لا يكافئ حقهما، بل يطلب لهما الرحمة الباقية فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾.

ولما كان ذلك عسرًا جدًا حذر من التهاون به بقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ وأشار إلى أنه لا يكون ذلك إلا بمعالجة النفس فقال: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾.

ولما حث على الإحسان إليهما بالخصوص، عم بالأمر به الكل ذي رحم وغيره فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ تنبيه على أن الارتقاء نحو ساحة التبذير أولى من الهبوط إلى مضيق الشح والتقتير، والتبذير: بسط اليد في المال على حسب الهوى جزافًا، وأما الجود فبمقدار معلوم؛ لأنه اتباع أمر الله في الحقوق المالية، ومنها معلوم بحسب القدر، ومنها معلوم بحسب الوصف.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ فإن فعلهم فعل النار التي هي أغلب أجزائهم، وهو إحراق ما وصلت إليه لنفع وغير نفع ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ لكونك لا تجد ما تعطيه ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ بالقبض ﴿مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ بالبسط منقطعًا بك لذهاب ما تقوى به. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾ سواء قبضت يدك أو بسطتها.

ولما أتم الوصية بالأصول أوصاهم بالفروع لضعفهم، ولما كانوا يقتلون بناتهم خوف الفقر، قال في النهي عن ذلك مواجهًا لهم، إعلامًا ببعده ﷺ عن هذا الخلق قبل الإسلام وبعده: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ مقدمًا ضمير الأولاد لكون الإملاق غير حاصل في حال القتل بل مترقَّبًا من الإنفاق عليهم، بخلاف آية الأنعام فإن سياقها يدل على أن الإملاق حاصل عند القتل، والقتل للعجز عن الإنفاق ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾.

ولما كان في قتل الأولاد حظ من البخل وفي الزنا داع من الإسراف، أتبعه به فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ أي: أدنى قرب بفعل شيء من مقدماته ولو بإخطاره بالخاطر ﴿ٱلزِّنَىٰٓ﴾ مع أن السبب الغالب في فعل النساء له الحاجة وطلب التزيد، وفيه معنى قتل الولد بتضييع نسبه، وفيه إيجاد نفس بالباطل كما أن القتل إعدام لها بالباطل، وعبر بالقربان تعظيمًا له لما فيه من المفاسد الجارة إلى الفتن بالقتل وغيره، ثم علله بقوله مؤكدًا؛ إبلاغًا في التنفير عنه لما للنفس من شدة الداعية إليه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي: كونًا ثابتًا ﴿فَـٰحِشَةً﴾ أي: زائدة القبح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ والتعبير بالسبيل يدل على كثرة متعاطيه بالدلالة على سعة منهجه.

ثم أتبعهما مطلق القتل الذي من أسبابه تحصيل المال فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ بقتل غير القاتل، ولا يزد على حقه بوجه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القتيل ﴿كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ في الدنيا بما جبل الله في الطباع من فحش القتل وكراهة كل أحد له وبغض القاتل والأخذ على يده، وفي الآخرة بأخذ حقه منه من غير ظلم ولا غفلة، فمن وثق بذلك ترك الإسراف، فإنه لخوف الفوت أو للتخويف من العود.

ولما نهى عن الإغارة على الأرواح والأبضاع التي هي سببها، نهى عن نهب ما هو عديلها لأن به قوامها وهو الأموال، وبدأ بأحق ذلك بالنهي لشدة الطمع فيه لضعف مالكه فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ولما كانت الوصاية من أنواع العهد، أمر بوفاء ما هو أعم منها فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾.

ولما كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم، وكان الائتمان عليه كالمعهود فيه، أتبعه قوله: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم في الدنيا والآخرة وإن تراءى لكم أن غيره خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ أي: عاقبة في الدارين.

ثم قال تعالى مفردًا الضمير ليصوّب النهي إلى الاجتماع والانفراد على حد سواء: ﴿۞وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ﴾ وهما طريقا الإدراك ﴿وَٱلْفُؤَادَ﴾ الذي هو آلة الإدراك، وأول حديث النفس: السانح ثم الخاطر ثم الإرادة والعزيمة، فيؤاخذ بالإرادة والعزيمة لدخولهما تحت الاختيار فيتعلق بهما التكليف بخلاف الأولين فخفف عنا بعدم المؤاخذة بهما، كما قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسهم ما لم تعمل به أو تكلم» ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾.

ولما كان الكبر أعظم موقف عن العلم الداعي إلى كل خير، وممرِض بمرض الجهل الحامل على كل شر قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾ وهو شدة الفرح التي يلزمها الخيلاء، لأن ذلك من رعونات النفس بطيش الهوى وداعي الشهوة وما طبعت عليه من النقائص، فإنه لا يحسن إلا بعد بلوغ جميع الآمال التي تؤخذ بالجد ولن يكون ذلك لمخلوق، ولذلك علله بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ فبماذا تفخر!

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن إليه حياء منه، فإن لم يكن فخوفًا من قطع إحسانه وخضوعًا لعز سلطانه. ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾ التي لا يستطاع نقضها ولا الإتيان بمثله، ومن حكمتها أنها لم تقبل النسخ في شريعة من الشرائع.

ولما بين أن الجهل سبب لكل سوء وكان الشرك أعظم جهل أتبعه فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾ فهذان الوصفان أشنع من وصفي الذم

والخذلان في الآية الأولى، كما هي سنته تعالى أن يبدأ بالأخف تسليكًا لعباده، وإنما كان الشرك أجهل الجهل؛ لأن من الواضح أن الإله لا يكون إلا واحدًا، وجعل فاتحتها وخاتمتها النهي عنه؛ لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماءَ، وحك بيافوخه السماء، ما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

ثم أتبعه ما هو أزيد من مجرد الشرك في الجهل فقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾ فرضي لنفسه وهو إلهكم الخالق الرازق بما لا ترضونه لأنفسكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾. ولما لم يرجعوا بعد هذا البيان، أشار إلى أن لهم أمثال هذا الإعراض فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: طرّقنا تطريقًا عظيمًا بأنواع البيان ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ فإن جميع ما في القرآن لا يخرج شيء منه عن العقل، بل هو مركوز في الطباع وله شواهد في الأنفس والآفاق يستحضرها الإنسان بأيسر تنبيه إذا أزيل عنها ما سترها عن العقل من الحظوظ والشواغل ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ﴾ ليقهروه ويزيلوا ملكه كما ترون من فعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض، أو ليتقربوا إليه ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وهذا تسبيح بلسان المقال ممن يصح منه وبلسان الحال منه ومن غيره، فهو تسبيح من جهات شتى، بخلاف ما لو قصر التسبيح على لسان المقال فإنه يكون من نوع واحد ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة على إعراضكم عن صرف الأفكار فيما أمركم بصرفها إليه ﴿غَفُورًا ۝٤٤﴾.

ولما قرر في سياق التوحيد غباوتهم، قال مشيرًا إلى النبوة: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾

ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من لم يرسخ إيمانه، أتبعه ما يؤكد ما مضى ويثبّت السامعين فيه فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ من الآذان والقلوب، أو بسببه من إرادة الوقوع على ما يجعلونه موضع تكذيبهم واستهزائهم ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ ولما كان قولهم هذا نتيجة لجهلهم، وصل به الدليلَ على نسبته لهم إليه فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ التي هي أبعد شيء عن صفتك، وهذا بعد أن نهاهم الله بقوله: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٧٤] فكأن هذا أول دليل على ما وصفناهم به من عدم الفهم والسمع، فضلًا عن أن يقاوموا هذا القرآن ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾.

ثم أتبع ذلك ضلالهم عن السبيل في أمر المعاد فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ زاد على يبس الحجارة شدة اتصال الأجزاء ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركونها بارتفاع وانخفاض من التعجب والاستهزاء، كأنهم في شدة جهلهم على غاية العلم بما يقولون.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ يكون ذلك: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ لشدة ما ترون من الأهوال، أو جهلًا منكم بحقائق الأمور كما هي حالكم اليوم.

ولما كان في هذا الكلام من التهكم بهم ما لا يعلم مقداره إلا مثلهم من البلغاء، كان ربما استن به المؤمنون فخاطبوهم بنحوه من عند أنفسهم فتجاوزوا الحد من شدة غيظهم من المشركين، فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ فيوشك أن يأتوا بما لا يناسب الحال فيهيجوا شرًا، ثم علل أمرهم بقول الأحسن فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

ولما كان من أعظم ثمرات العمل: التفضيل بإعطاء كل شيء ما يستحقه قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ فلا ينكر أحد تفضيلنا لهذا النبي الكريم ﷺ، ولما كان داود عليه السلام هو المؤسس للمسجد الأقصى الذي وقع الإسراء إليه، وكان مع كونه ملكًا من أشد الناس تواضعًا قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾ ففاوت سبحانه بينهم على حسب علمه بأحوالهم حتى في الوحي، فخص داود عليه السلام بكتاب كله مواعظ، والمواعظ أشد شيء منافاة للمشي في الأرض مرحًا ونهيًا عنه، وأعظم شيء أمرًا بالقول الذي هو أحسن.

وفي ذلك أجلّ تنبيه على فضل بيت المقدس الذي جعله سببًا لتفضيل الأنبياء: تارة بالهجرة إليه كإبراهيم عليه السلام وتارة بقصد تطهيره من الشرك وتنويره بالتوحيد كموسى عليه السلام وتارة بتأسيس بنيانه وتشييد أركانه كداود عليه السلام، وتارة بالإسراء إليه والإمامة بالأنبياء عليهم السلام به والعروج منه إلى سدرة المنتهى.

ولما ثبت أن شأنه تعالى التفضيل والتحويل على حسب علمه وقدرته، ثبت بغير شبهة أن لا مفزع إلا إليه، فقال مظهرًا عجز شركائهم: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ ولم ينصب ﴿يملكون﴾ لئلا يظن أن النفي مسبب عن الدعاء فيتقيد به. ولما بين أنه لا ضر لهم ولا نفع، بين أنهم يتسابقون إلى القرب إليه تعالى فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الكفار، ثم أخبر عن المبتدأ بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فالعابدون لهم أجدر بأن يعبدوه ويبتغوا إليه الوسيلة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾.

[ولما ختم السابقة بالتعريض بتهديدهم، صرح به في قوله][79]: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ وعن مقاتل أنها عامة: للصالحة بالموت، والطالحة بالعذاب.

ولما كانت كفار قريش تكرر اقتراحهم للآيات، وكان ما رأوه من آية الإسراء أمرًا باهرًا ثم لم يؤمنوا قال: ﴿۞وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّآ﴾ عِلمنا بما وقع من ﴿أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ وعلمنا أن هؤلاء مثلهم وأن السعيد لا يحتاج في إيمانه إليها، وقد جرت سنتنا أنّا لا نمهل بعد الإجابة إلى المقترحات من كذب بها، ونحن قد قضينا برحمة هذه الأمة بعدم استئصالها؛ لِما يخرج من أصلاب كفرتها من خلص عبادنا.

ثم قال تحقيقًا لذلك: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ وخص آيتهم بالذكر تحذيرًا؛ لأنهم عرب اقترحوا ما كان سببًا لاستئصالهم، ولأن لهم من علمها بقربها إليهم ما ليس لهم من علم غيرها، وخص الناقة لأنها حيوان أخرجه من حجر، والمقام لإثبات القدرة على الإعادة ولو كانوا حجارة أو حديدًا.

---

(٧٩) التحرير والتنوير ١٥/ ١٤١، بتصرف.

[ولما دلت قصة ثمود على إحاطته علمًا وقدرة وكانت الناقة فتنة لهم، ناسب قوله]: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾ ليلة الإسراء، قال ابن عباس: "هي رؤيا عين" لا منام، وهو ممكن عقلًا، فإن كل موجود فيه من الدقائق ما تتحير فيه العقول، لكن لما كان معتادًا لم تنكره الطباع، وأما مثل هذا فلما كان على خلاف العادة استنكره من لا يتجاوز فهمه المحسوسات على ما ألف من العادات، ولعله إنما سماه رؤيا لما فيه من الخوارق التي تكون عادة في المنام ﴿إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ ولما كان كل ما خفي سببه وخرج عن العادة: فتنةً يُعلم به المحق من المبطل، وكان قد أخبر أن شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم، ضمها إلى الإسراء فقال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ والعرب تسمي كل ضار ملعونًا ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾.

ولما كان السياق في التسلية بأن الآيات لا تنفع المحكوم بشقاوته، وبأن آدم عليه السلام قد آذاه الحاسد مع أنه صفي الله وأول أنبيائه أورد قصته، مع البيان لأن أغلب أسباب الطغيان الحسد فقال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ فكفر بنسبته لنا إلى الجور وعدم الحكمة. ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأستولين عليهم بشدة احتيالي ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢ قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾ فإنك لن تعدو أمرنا فيك ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ أي: أدنى اتباع ﴿مِنۡهُمۡ﴾ ويجوز أن يراد بتجريد الفعل: أن من تبعه بغير معالجة من فطرته الأولى لا يكون إلا عريقًا في الشر ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣﴾.

ثم قال ممثلًا حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع بقوم: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ والفز أصله القطع، أي: استزله بقطعه عن الصواب ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ أي: دعائك بالغنى والمزامير وكل ما تزينه بالوساوس ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾ أي: اجمع أو سق بغاية ما يمكنك من الصياح ﴿عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ﴾ أي: ركبان جندك ﴿وَرَجِلِكَ﴾ أي: ومشاتهم، والمعنى: افعل جميع ما تقدر عليه ولا تدع شيئًا من قوتك، فإنك لا تقدر على شيء لم أقدره لك.

ولما كان الشيطان طالبًا شركة الناس في جميع أمورهم بوساوسه الحاملة لهم على إفسادها فإن أطاعوه كانوا طالبين لأن يشركوه وإن لم يشعروا، عبر بالمفاعلة فقال: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ﴾ من المواعيد الباطلة ما يستخففهم ويغرهم، ثم التفت إلى الصالحين من عباده فأخبرهم تثبيتًا لهم وتنبيهًا لغيرهم على أنه ليس بيده شيء: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

﴿إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾. ثم قال دفعًا لما قد يوهمه ما مضى من استقلاله بشيء من التأثير: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾ فلا تقدر أن تحملهم على ذنب لا يغفر، فإني وفقتهم للتوكل علي فكفيتهم أمرك ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾.

ولما ذكر أنه الوكيل الذي لا كافي غيره في حفظه، أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك، فقال عودًا إلى دلائل التوحيد: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ ولم يقل: «أمسكم» بالإسناد إلى نفسه، تأديبًا لنا بنسبة الخير دون الشر إليه مع اعتقاد أن الكل فعله، وتنبيهًا على أن الشر مما ينبغي البعد عنه ﴿فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ أظهر في موضع الإضمار تنبيهًا على أن هذا الوصف يعم هذا النوع؛ لطبعه على النقائص إلا من أخلصه الله له.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ ودل على شدة إسراعهم بالكفر عند وصولهم إلى أول الساحل بقوله: ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ لأن قدرتنا في الحالين سواء، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ٦٨ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ﴾ ولما كان إطلاق النفي في ختام الآية الماضية يحتمل أن يدعى تقييده بما يخالف المراد، وكان المقصود هنا التخويف، قيد بما عين المراد، وقدم قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾ دلالة على باهر العظمة ﴿بِهِۦ تَبِيعًا ٦٩﴾.

ولما قررهم بنعمته عليهم في البر والبحر وكان ذلك في معرض التهديد، أخبر أنه فعل ذلك تكريمًا لهم فقال: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ على سائر الطين بالنمو، والنامي بالحياة، والحيوان بالنطق ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: المستلذات التي يأكل غيرهم من الحيوان قشها ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾.

ولما كان يوم الدين أعظم يوم يظهر في التفضيل المختتم به قال: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: ضالًا يفعل في الأعمال فعل الأعمى في أخذ الأعيان ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٧٢﴾.

ثم أتبعه دليل عمى التارك لسبيل الرشد، فقال محذرًا للبصراء عن الاغترار بوساوس الأشقياء: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ بسبب عماهم عما جُبلتَ عليه من الفطنة ﴿لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ ومن كان خليل الكفار لم يكن خليل الله.

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ وهي من الأدلة الواضحة على رجحان عقله ﷺ؛ لأنها دلت على أنه لو وكل إلى نفسه وما خلق الله في طبعه من الأوصاف الفاضلة لم يركن إليهم أصلًا، وهم أشد الناس أفكارًا وأعلمهم بالخداع مع كثرة عددهم وعظم جلدهم، وإنما كان قصاراهم أن يقارب الركون شيئًا قليلًا ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ وهي دالة على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظيم شأن مرتكبه وارتفاع منزلته، وعلى أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته.

ولما بين أنهم استمالوه بالرفق، دل على أنهم أخافوه بعد ذلك فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ وفيها بيان لأن الجاهل لا يزال ينصب للعالم الحبائل فيعود ذلك عليه بالوبال.

ولما قرر أنه سبحانه عصمه ﷺ، عُلم أنه قد تفرغ للعبادة وتهيأ للمراقبة، فبدأ بأشرفها فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وفي ذلك إشارة عظيمة إلى أن الصلاة أعظم ناصر على الأعداء، ولذلك كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أظهر ولم يضمر ترغيبًا؛ لصعوبة القيام من المنام ﴿كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾. ثم حث على التهجد لأفضليته وأشديته فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ قالوا: إن عسى تفيد الإطماع، ومن أطمع أحدًا في شيء ثم حرمه كان عارًا، والله تعالى أكرم من أن يفعل ذلك، وعبر بها دون ما يفيد القطع لأنه أدل على العظمة.

ولما كان هذا المقام صالحًا للشفاعة ولكل مقام يقومه، وكان كل مقام يحتاج إلى التوفيق في مباشرته والانفصال عنه قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يستحق الداخل فيه أن

يقال له: أنت صادق في قولك وفعلك ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾. ثم قال مبشرًا له باستجابة دعائه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ ثم علل زهوقه بقوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ﴾ في نفسه بجبلته وطبعه ﴿زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

ولما كان القرآن هو السبب الأعظم في إزهاق الباطل قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لإنارته لقلوبهم من صدأ الجهل وحمله لهم على سبيل الرشد، قال الرازي في اللوامع: "وهو أنس المحبين والنور المبين الذي من استبصر به انكشف له من الحقائق ما كان مستورًا، كما أن الباطل داء ونقمة للكافرين"، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

ثم عطف ما هو أعم منه وأبين في الفتنة والاجتراء فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ أيّ نعمة كانت من إنزال القرآن وغيره ﴿أَعْرَضَ﴾ كإعراض هؤلاء عند مجيء هذه النعمة التي لا نعمة مثلها ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾﴾ هلَعًا وقلة ثقة بما عنده من رحمة الله، وقد بيّن في سورة يونس عليه السلام بأن هذا في المسرفين دون غيرهم فقال: ﴿كذلك زُيّن للمسرفين﴾ [الآية: ١٢]، ولعله طوى ما أظهره في سورة هود عليه السلام بقوله: ﴿إلا الذين صبروا﴾ [الآية: ١١] إشارة إلى أنه لقلة أفراده كأنه عدم.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي: طريقته التي تشاكل روحه وما طبعناه عليه من خير أو شر ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

ولما كان من المشاكلة مشاكلة بعض الأرواح لبعض قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وأضافها إليه لأن الخلق قسمان: ما كان بتسبيب وتطوير وهو الذي يترجم في القرآن بالخلق، وما كان إخراجًا من العدم بلا تسبيب وتطوير وهو المعبر عنه بالأمر ومنه هذه الروح، وكذا ما هو للحفظ والتدبير كالأديان، والجامع لذلك القيومية، فأفادت هذه العبارة أن الروح محدثة وأنها غير مطورة ولا مسببة، وأمسك السلف عن الإمعان في الكلام على الروح أدبًا؛ لأنهم علموا أن في الجواب بهذا إشارة إلى أن السكوت عن السؤال أولى لهم.

ثم أتبعه التنبيه على جهلهم؛ لتعكيسهم في الأسئلة بتركهم الواضح الذي ينفعهم في الدارين من هذا الروح المعنوي وهو القرآن، والإقبال على ما لا يضر الجهل به، ويتوقف إثباته على أمور دقيقة ومقدمات صعبة من الروح المحسوس لقلة علمهم فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ

﴿ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ وفي الروح أسئلة كثيرة جدًا لا برهان على أجوبتها، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة: نفيه، فإن أكثر حقائق الأشياء مجهولة وهي موجودة.

وقد قال رسول الله ﷺ لقريش لما سألوه عن الروح وعن قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا» ولم يستثن، فمكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا حتى أرجف به أهل مكة، مع أن في التأخير برهانًا قاطعًا على صدق النبي ﷺ في أن هذا القرآن من عند الله؛ لأنه لو كان قادرًا على الإتيان بشيء منه من عند نفسه أو غيره من الخلق لبذل جهده في ذلك، تنزيهًا لنفسه وعرضه عن مثل ما خاضوا فيه بسبب إخلاف موعدهم، ولما كانت الروح من عالم الأمر الذي هو من سر الملكوت، ضمت إلى سورة الإسراء الذي هو من أبطن سر الملكوت.

ولما تقدم تحقيق عماهم بسؤالهم عما لا يعنيهم، أخبر أنهم أرادوا تبديل ما ينفعهم ويعنيهم بما يبيدهم ويفنيهم زيادة في عماهم فقال: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مما أرادوا الفتنة فيه من القرآن، على أن فيه من العلم ما يغنيهم لو أقبلوا على تفهمه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ ولما كان السياق للروح الذي هو الوحي فكانت العناية به أشد قدم قوله: ﴿بِهِۦ﴾ ولما كان السياق لمن يأخذ ما يريد طوعًا وكرهًا قال: ﴿عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾ يأتيك به أو بشيء منه ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾ وعبر عن أداة الانقطاع بأداة الاتصال إشارة إلى أن رحمته سبحانه له كالوكيل الذي يتصرف بالغبطة على كل حال.

ولما كان بمعرض أن يقولوا: إن ذهب عليك من شيء فائت بمثله من عند نفسك، أجابهم بقوله: ﴿قُل﴾ ولما أريد هنا المماثلة في كل التفصيل -كما دل عليه التعبير بالقرآن- زاد في التحدي قيد الاجتماع من الثقلين وصرَف الهمم للتظاهر والتعاون، بخلاف ما مضى في السور السابقة فقال: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ﴾ وقدمهم لسهولة اجتماعهم بهم ولأنهم عندهم الأصل في البلاغة ﴿وَٱلۡجِنُّ﴾ الذين يأتون كهانكم، وترك الملائكة لأنهم لا عهد لهم بشيء من كلامهم ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ﴾.

ولما كان المُظهَر إذا أعيد مضمرًا أمكن فيه الخصوص، وكان المراد إنما هو الشمول قال: ﴿بِمِثۡلِهِۦ﴾ ولم يقل: «به» ولئلا يظن أنه يعود على القرآن ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ ولما كان مبنى السورة على بيان العناية بالناس الذين اتقوا والذين هم

محسنون قدم قوله: ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩ وَقَالُواْ﴾ بعد ما لزمهم من الحجة، فعل المبهوت المعاند: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ تنزيه لله وتعجيب؛ لوضوح عنادهم بطلبهم ما لا يقدر عليه إلا الإله ممن لا يقدر على شيء منه إلا بإذن الله، وسبب اتباع الضلال مع وضوح ضره وترك الهدى مع ظهور نفعه: وقوع الشبهة أو الشهوة لضعفاء العقول -وهم أكثر الناس- في أوله، ثم تقليد الرؤساء وتمكن العادة السيئة فيما بعد ذلك.

﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ لأن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم، إذ الشيء عن شكله أفهم وبه آنس، ولما لم يبق بعد هذا البرهان إلا محض العناد قال: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾.

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ وأشار إلى قلة المهتدي بإفراد ضميره فقال: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ كما كانوا في الدنيا، قال الرازي في اللوامع: "إذ يحشر المرء على ما مات عليه، فلم يكن له في الآخرة شيء إلا حصل مبدؤه في الدنيا وتمامه في الآخرة"، ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ أي: أخذ لهبها في السكون عند إنضاجها لجلودهم ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ بإعادة الجلود.

ثم بين علة تعذيبهم ليرجع من قضى بسعادته فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وكانوا كل يوم يزدادون كفرًا، وهم عازمون على الدوام عليه ما بقوا ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾.

ولما كانوا قد بخلوا بعد قيام الأدلة عما يجب عليهم من الاعتراف له تعالى بما أوجبه عليهم، نبه على سفههم في ذلك فقال: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ﴾ ثم استدل على صحة هذا المفروض بالمشاهد من مضمون قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ١٠٠﴾ أي: شديد الإمساك لإمكان أن يكون فقيرًا وإن اتسعت أحواله؛ لما تستلزمه حاجته من النقص، أي: فإذا كان هذا أمركم فيما تملكونه مع الحاجة إلى الإنفاق، فكيف تطلبون من النبي ﷺ ما لا يملكه؟ أو من الخالق الحكيم ما لا حاجة إليه؟ لأنه إن كان لإثبات قدرته فأنتم لا تمترون فيها، وإن كان لإثبات رسالة نبيكم فقد ثبتت بأمور أعظمها هذا القرآن.

ولما قدم سبحانه أن أكثر الناس جحد الآيات، شرع يسلي نبيه ﷺ بما اتفق لمن قبله من إخوانه الأنبياء، مع التنبيه على أنه يجود بالآيات على حسب المقتضيات، وعلى أن خوارق العادات لا تنفع في إيمان من حكم عليه بالضلال فقال: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ وقد نظمتها كما وردت في التوراة ليهون حفظها فقلت:

عصَى قُمَّلٌ موتُ البهائمِ ظلمةٌ ... جـرادٌ دمٌ ثـم الضفـادعُ والبردْ
ومـوتُ بكـورِ الآدميِّ وغـيرِه ... من الحي آتاها الذي عز وانفردْ

ولما كان اليهود هم الذين أمروا قريشًا بسؤال النبي ﷺ عما تقدم، نبههم على سؤالهم -إن كانوا يقبلون كلامهم- عن أمر موسى عليه السلام في كونه بشرًا رسولًا كهذا النبي الكريم وأنه أتى بالخوارق فاستؤصل المكذب بها، وإلا كان قبولهم لبعض كلامهم دون بعض بغير دليل تحكمًا وترجيحًا من غير مرجح، فقال: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾ أكد قوله لما أظهر موسى عليه السلام مما يوجب الإذعان له ﴿يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ١٠١﴾ أي: فكل ما ينشأ عنك فهو خيال لا حقيقة له.

قال الشيخ ولي الدين الملوي: "ولعل منه اقتباس الأئمة في المناظرة: مطالبة اليهود والنصارى ونحوهم بإثبات نبوة أنبيائهم، فكل طريق يَسلكونه يُسلك مثله في تقرير نبوة محمد ﷺ، وكل اعتراض يوردونه يورد عليهم مثله، وما كان جوابًا لهم فهو جواب لنا، ومن تفطن للآية الكريمة رأى منها العجب في ذلك"، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ وعلى قراءة ﴿علمتُ﴾ يفيد أن عنده العلم القطعي بأن ما أتى به منزل من ربه ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ١٠٢﴾ أي: مغلوبًا لوضوح مكابرتك، وذلك لإخلادك إلى الحال التي أنت بها وكسلك عن الانتقال عنها إلى ما هو أشرف منها.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالنفي والقتل للتمكن من استعباد الباقين، كما أراد هؤلاء أن يستفزوك منها للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد، فحذرهم بقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى أنه كان يريد محوهم عن الأرض، أو إلى أن سكناهم مع وجوده كانت عدمًا لِما بهم من الذل ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤﴾.

ولما ثبت بما تقدم أن هذا القرآن المخبر بذلك حق قال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ﴾ لا بغيره ﴿أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ هو، ووصل إليهم على لسانك بعد إنزاله عليك كما أنزلنا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ١٠٥﴾ ولم نرسلك لتفجير الأنهار ولا إنبات الأشجار.

ثم أخبر بالحكمة من إنزال القرآن منجمًا فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ لما لهم من النوس والزلزلة فلا يتهذبون إلا في أزمان طويلة ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ١٠٦﴾ مفرقًا بحسب الوقائع؛ لأنه أتقن في فصلها وأقرب لحفظها وأعون على الفهم؛ لغزارة ما فيه من المعاني والحكم، وأعظم تثبيتًا للفؤاد وأشرح للصدر؛ لأن أخبار الحبيب إذا كانت متواصلة كان المحب كل يوم في عيد.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فالإيمان به غير محتاج إليكم، وهو احتقار لهم حيث صرف لهم من كل مثل فأبوا إلا كفورًا، ثم علله بما يقبل بكل ذي لب إليه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وبني للمفعول دلالة على أن العلم الرباني -من أيّ مؤت- حاث على الإيمان بهذا القرآن، وتنبيهًا على أن من لا يحمله علمه على ذلك الذي لا أبين من حقيقته، فعلمه كلا علم بل هو أجهل الجهلة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من أيّ تال ﴿يَخِرُّونَ﴾ أي: يسقطون كمن لا اختيار له، وأكد السرعة بقوله: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ باللام دون «على»، وأول ما يلاقي الأرض ممن يسقط كذلك ذقنه.

ثم بين أنه ليس سقوطًا اضطراريًا من كل جهة بقوله: ﴿سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٧ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ تكراره ﴿خُشُوعًا ۩ ١٠٨﴾ وعبر في البكاء بالفعل إشارة إلى تجدده في بعض الأحيان، وفي السجود بالاسم إشارة إلى دوام خشوعهم بالسجود المشروع أو بمطلق الخضوع.

ولما ذكر السجود وكان العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، علمهم كيف يدعون فقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ بلفظ الجلالة الذي ورد في النحل من التنويه به ما لم يرد في غيرها لما تقدم من الأسرار، مع أنه عد فيها من النعم ما لم يعد في غيرها وذلك أليق باسم الرحمن فقال: ﴿أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾.

قال الحرالي: "الرحمانية استغراق الخلق بالرحمة، والرحيمية حظ خاص منها، فلذلك لحق اسم الرحمن في معنى استغراقه للخلق: باسم الله في معنى إحاطته بجميع معاني الأسماء الحسنى فقال سبحانه: ﴿قل ادعو الله أو ادعو الرحمن﴾ فإذا تحقق القلب اختصاصه بالله علم أنه لا رحمن إلا الله، كما أنه لا إله إلا الله[٨٠]".

ولما كان السجود في الصلاة أولى وأحسن، وكان ربما فهم من قوله: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ ومن قوله: ﴿إذا يتلى عليهم﴾ قوة الجهر به قال: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١٠٩﴾ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: "﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم"، وأطلق هنا اسم الكل -وهو الصلاة- على الجزء -وهو القراءة- إشارة إلى أن المقصود الصلاة، وفيما تقدم اسم الجزء على الكل؛ لأن المقصود الأعظم هناك القراءة في الفجر.

ولما تقدم إحاطة هذين الاسمين قال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي: الإحاطة بالأوصاف الحسنى ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ فإن ذلك لا يكون إلا للحاجة وبالحاجة، وهي من أسوأ الأوصاف ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ فإن ذلك لا يكون إلا بالعجز ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ إفهامًا بأن له أولياء جاد عليهم بأن جعلهم أنصارًا لدينه رحمة منه لهم لا احتياجًا إليهم ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١٠﴾ قال أبو حيان: "والتكبير أبلغ لفظ للعرب في معنى التعظيم والإجلال"، وذلك عين ما افتتحت به السورة من التنزيه وزيادة.

(٨٠) أي: أن «الرحمن» مستغرق للخلق و«الله» مستغرق للذات، فاختص كلاهما بذي الجلال، والله أعلم.

سورة الكهف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها وصف الكتاب بأنه قيّم؛ لصحة دعوته وصدق أخباره ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي أقام عباده على أوضح الطرق بقيم الكتاب ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بتفضيل من اختصه بالصواب.

لما خُتمت تلك بتنزيهه سبحانه عن صفات النقص، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال، منبهًا بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيّم الذي هو الدليل على ما ختمت به تلك من العظمة والكمال فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ولما أخبر باستحقاقه ذلك لذاته أخبر بأنه يستحقه أيضًا لصفاته وأفعاله فقال: ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ ولما كان المراد وصف جملة الكتاب بالإعجاز من غير نظر إلى التفريق والتدريج، عبر بالإنزال دون التنزيل فقال: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمٗا﴾ تصريحًا باللازم تأكيدًا له، ومفيدًا أنه مقيم لغيره.

ولما وصف الكتاب بما له من العظمة أتبعه ذكر فائدته مقدمًا ما هو الأهم من درء المفسدة بالإنذار فقال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣﴾ فجمعت هاتان العلتان جميع معاني الكتاب، فإنه لا يكون كذلك إلا وقد جمع كل ما يعنيهم فعله أو تركه وما يتبع ذلك، وذلك هو القيم أي: المستقيم في نفسه المقيم لغيره.

ولما كان الغالب على الإنسان المخالفة؛ لما جبل عليه من النقائص، كان الإنذار أهم فأعاده فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤﴾ قال الأصبهاني: "وعادة القرآن بأنه إذا ذكر قصة كلية عطف عليها بعض جزئياتها، تنبيهًا على أنها أعظم جزئيات ذلك الكل". ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ لأنه لا يمكن أن يعلق العلم به؛ لأنه لا وجود له ولا يمكن وجوده ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ الذين هم مغتبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا الذي لا يُعقل، ولو أخطؤوا في تصرف دنيوي لمن يتبعوهم فيه ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥﴾.

ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمانهم شفقة عليهم وغيرة على المقام الإلهي، خفف عليه سبحانه بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

ثم بين علة إرشاده للإعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾.

ولما كان إخراج النبات المختلف ورده يابسًا وإعادته يانعًا أعجب من حفظ الأجسام مدة ثم رد الأرواح فيها قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ﴾ هم فقط ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ أبرز الضمير لبيان أنهم شبان ليسوا بكثيري العدد ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ أي: متكاثرة، قال الزجاج: "كل شيء مما يُعَد، إذا ذكر فيه العدد ووُصف: أريد كثرته؛ لأنه إذا قلّ فُهم مقدار عدده بدون التقدير، فلم يحتج إلى أن يُعَد".

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ﴾ بعد أن آمنوا ﴿هُدًى ۝١٣﴾ بما شرحنا لهم صدورهم من المواهب التي حملتهم على ارتكاب المعاطب ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فصار ما فيها من القوى مجتمعًا غير مبدد ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بين يدي طاغيتهم دقيانوس ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ ينبه على أنهم من حين عبادتهم إلى الآن لم يأتوا على ذلك بدليل ﴿عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾.

ولما كانوا لا يَدانِ لهم بمقاومة قومهم لكثرتهم وقلتهم هاجروا ليسلم لهم دينهم فقال: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾ وهذا الجزم من آثار الربط على قلوبهم بما علموا من قدرته تعالى على كل شيء وحمايته لمن عبده وتوكل عليه، ففعلوا ذلك ففعل الله ما رجوه فيه، فجعل لهم أحسن مرفق بأن أنامهم ثم أقامهم بعد قرون وهدى بهم الجيل الذي أقامهم فيه.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ ولما كان انفرادهم بالهدى عن أهل ذلك القرن كلّهم عجبًا، وصل به ما يزيله فقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ فتجد المقضي بضلاله تمر على الآيات ولا يعلم أنها آيات فضلًا عن أن يتدبرها وينتفع بها. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ

ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ في التخفي حتى لا يتفطنوا له.

﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ إن استمسكتم بدينكم ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ إن لنتم لهم ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾﴾ لأنكم وإن أُكرِهتم ربما استدرجكم الشيطان بذلك إلى الإجابة حقيقة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ﴾ بعد اعترافهم بما قصصت عليك ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ ولما تغير قولهم حسن قوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أدلته، وهو ما أوحيت إليك به ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾﴾.

ولما كان نهيه عن استفتائهم موجبًا لقصر همته على ربه سبحانه، فربما قال لما يعلم من كرمه: سأخبركم به غدًا، كما وقع من هذه القصص، علمه الله ما يقول في مثل ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ تعظيمًا لله واعترافًا بأنه لا حول ولا قوة إلا به، ولأنه إن قيل ذلك دون استثناء فعاق عن الفعل عائق كان كذبًا منفرًا عن القائل ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾﴾.

ثم قال جوابًا لمن يقول: فإن قال أحد غير هذا فما يقال له؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فلا ريب فيما يخبر به ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾ فلما انتفى ذلك انسد باب العلم إلا من جهته.

ولما تقرر أنه لا شك في قوله قال: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فلا شك في وقوعها فلا عذر في التقصير في إبلاغها، والنسخ غاية لا تبديل ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ أي: ملجأ ومتحيزًا تميل إليه فيمنعك منه إن قصرت في ذلك.

ولما كان المشركون يطلبون منه ليستمعوا إلى تلاوته أن يطرد أتباعه الفقراء، قال مرغبًا فيهم مزهدًا من غيرهم(٨١): ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ بتلك الزينة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ بالميل إلى ما استدرجناه به منها والأنفة من مجالسة أوليائنا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم علمه ما يقول لهم على وجه يعمهم وغيرهم ويعم القصة وغيرها فقال: ﴿وَقُلِ﴾ هذا الذي جئتكم به من هذا الوحي ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ولما خيرهم تهديدًا فصل ما أعد للفريقين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ وشاكل استغاثتهم تهكمًا بهم فقال: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي: إذا قرب إلى الفم فكيف بالفم والجوف! ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

ثم قال كاشفًا بضرب المثل أن ما فيه الكفار من الارتفاق العاجل ليس أهلًا لأن يفتخر به لأنه إلى زوال: ﴿۞وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ لما آتاهم الله من زينة الحياة الدنيا، فركنوا إليه ولم يشكروا من آتاهم إياه عليه بل أداهم إلى التكبر ﴿رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٢﴾﴾ فكانت الجنتان جامعتين لخير الفواكه وأفضل الأقوات وعمارتهما متواصلة.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي: غير ما تقدم ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٣﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وحّدها إشارة إلى أنه لا جنة له غيرها لأنه لا حظ له في الآخرة ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٤﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ولما كان الإنسان مجبولًا على غلبة الرجاء عليه، فإذا اغتنى اضمحل الخوف قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٥﴾﴾ لأنه ما أعطاني ذلك إلا باستحقاقي.

---

(٨١) أو يقال: لما بين طريق الثبات الأعظم وهو الوحي، بين طريقًا آخر سلكه الفتية، والله أعلم.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٦﴾﴾ حيث نفيت إعادته لمن ابتدأ خلقهم، ونسبته إلى العبث إذ جعلت غاية هذا الخلق البديع: الموت الذي لو كان غاية كما زعمت لفوّت على المطيع الثواب، وعلى العاصي العقاب. ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ كما لم يشاركه في إحسانه إلي أحد.

ولما كان المؤمنون على طريق الأنبياء في إرادة الخير والإرشاد إلى سبيل النجاة، قال معلّمًا له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٨﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٩﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤٠﴾﴾.

فحقق الله للمؤمن ما توقعه وخيب ظن المشرك فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤١﴾﴾ فندم لأجل ما فاته من الدنيا لا حرصًا على الإيمان للفوز في العقبى؛ لقصور عقله ووقوفه مع المحسوسات. ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ لا من نفره الذين اعتز بهم ولا من غيرهم ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: بنفسه.

ولما أنتج هذا المثل قطعًا أنه لا أمر لغير الله، وأن غيره إنما هو كالخيال لا حقيقة له، صرح بذلك في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في مثل هذه الشدائد العظيمة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ أي: النصرة ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي: الثابت الذي لا يحول يومًا ولا يزول ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣﴾﴾.

ولما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم، ضرب لدار الدنيا عامة فقال: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في استيلائها على الأهواء بزهرتها، ثم اضمحلالها أفرح ما كانوا بها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٤﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ وهما أجلّ ما في هذه الدار من متاعها ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وأنتم تعلمون ما في تحصيلهما من التعب، وما لهما بعد الحصول من سرعة العطب، وهما مع ذلك قد يكونان خيرًا إن عمل فيهما بما يرضي الله، وقد يكونان شرًا ويخيب الأمل فيهما ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهي أعمال الخير المجردة التي يقصد بها وجه الله ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: من جهة ما يرجو فيها من الثواب لأنه باقٍ.

ثم عقب ذكر الجزاء ذكر أعظم يوم يظهر فيه ذلك فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٦﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٧﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٨﴾﴾ لمّا هالهم إثبات جميع الصغائر بدؤوا بها، وصرحوا بالكبائر -وإن كان إثبات الصغائر- يُفهِمها تأكيدًا؛ لأن المقام للتهويل والتفجع، وإشارة إلى أن الذي جرهم إليها هو الصغائر كما قال الفضيل بن عياض.

ولما ذكر إحسانه بالعدل أتبعه الإحسان بالفضل في سياق مذكر بولايته الموجبة للإقبال عليه فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ المخلوقين من نار، ولعل النار لما كانت نيرة -وإن كانت نورانيتها مشوبة بالإحراق- عد من الملائكة لاجتماع العنصرين في مطلق النور، مع ما كان غلب عليه من العبادة.

ولما كان أكثر الجن مفسدًا؛ لأن أصلهم النار المحرقة، سبّب فسقَه عن كونه منهم فقال: ﴿فَفَسَقَ﴾ فلا تستنوا به في التكبر فإن من كانت خطيئته في كِبر لم يُرجَ صلاحه، بخلاف من كانت في معصية ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٤٩﴾﴾ إذ استبدلوا من لا أمر لهم بمن له الأمر كله.

ثم علل الختام بحقارة شأن من أشركوا بهم وبعدهم عن المنزلة التي أحلوهم بها فقال: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ﴾ وأبرز موضع الضمير إرشادًا إلى أن المضل لا يستعان به لأنه مع عدم نفعه: يضر فقال: ﴿ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥٠﴾﴾ فلا يؤسف على فوات إسلام أحد، فإن من علم الله فيه خيرًا أسمعه، ومن لم يسمعه فهو مضل ليس أهلًا لنصرة الدين.

ثم بيّن أنهم زيادة على عدم نفعهم لهم في الدنيا، يتخلون عنهم في الآخرة أحوج ما يكونون إليهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ تماديًا في الجهل والضلال ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥١﴾﴾ أي: فاصلًا مهلِكًا؛ لأن مادة «وبق» تدور على الحائل بين شيئين، ويلزمه القوة والحفظ والهلاك، لأن من حيل بينه وبين شيء

فقد هلك بفقده. ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ على عادتهم في الجهل كما قالوا: ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبدًا . وما أظن الساعة قائمة﴾ ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾.

[ثم قال عطفًا على الجمل السابقة التي ضُربت فيها الأمثال](٨٢): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ ولما كانت هذه السورة في وصف الكتاب اقتضى الاهتمامُ به تقديمَه فقال: ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ أي: المزلزلين فضلًا عن الثابتين ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ أي: في كل وجه من وجوه المعاني، فلم يتقبلوه وجادلوا فيه، ثم نبه على الوصف المقتضي لذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ لأنه لم ينته عنه بعد هذا البيان.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين جادلوا بالباطل ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن﴾ أي: طلب أن ﴿تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في إجابتهم إلى ما اقترحوه على رسلهم، المقتضي للاستئصال لمن استمر على الضلال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأظهر الوصف الموجب؛ للإنكار على من شك في أنهم أظلم فقال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قال الأصبهاني: "هذا من أفصح التقرير: أن يوقف الرجل على ما لا جواب فيه إلا الذي يريد خصمه".

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ أي: لا يهتدي أكثرهم بالدعاء وحده بل لا بد معه من السيف فيهم فيذل غيرهم، وقد نفى آخر الآية الفعل عن العباد وأثبته لهم أولها، وقلما تجد آية تسند الفعل إليهم إلا قارنتها أخرى تثبته لله وتنفيه عنهم؛ ليتميز الراسخ من الطائش الذي يقول بالجبر أو التفويض. ولما كان هذا مقتضيًا لأخذهم قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ ثم قال عطفًا على ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾.

ثم عقب بقصة موسى والخضر عليهما السلام وفيها إرشاد إلى ذم الجدل بغير علم، ووجوب الانقياد للحق عند بيانه، وتبكيت لليهود عندما أوهموا العرب بسؤالهم أن من شرط النبي

---

(٨٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٦.

أن لا يخفى عليه شيء، مع ما يعلمون من أن موسى عليه السلام خفي عليه جميع ما فعله الخضر فقال(٨٣): ﴿۞وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٥٩﴾﴾ وما أنسب التوقيت بحياة الحوت؛ لأن العلم حياة القلوب.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦١﴾﴾ ولم يتعب حتى جاوز المكان الذي أُمر به، معجزةً أخرى ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ﴾ منبهًا على أن ذلك ليس من الشيطان وإنما هو إغفال من الله تعالى ليجدا العلامة التي أخبره بها ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٣﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٤﴾﴾ قال الحرالي: "«عند» في لسان العرب لما ظهر، و«لدن» لما بطن".

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٥﴾﴾ وأتى عليه السلام في سؤاله له بهذه الأنواع من الآداب والتواضع؛ لما هو عليه من الرسوخ في العلم؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة أكثر، فكان طلبه لها أشد، فكان تعظيمه للعلماء أكمل. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٦﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ ويؤخذ منه أن العالم إن رأى في التغليظ على المتعلم ما يفيده إرشادًا إلى الخير كان عليه ذكره، فإن السكوت يوقعه في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٦٩﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧٠﴾﴾ ناسيًا للوعد؛ لما دهمه مما عاهد عليه الله أن لا يقر على منكر، على أنه لو لم ينس لم يترك الإنكار كما فعل عند قتل الغلام؛ لأن مثل ذلك غير داخل في الوعد؛ لأن المستثنى شرعًا كالمستثنى وضعًا.

---

(٨٣) ويقال أيضًا: لما قرر أن هذا الكتاب قيّم وكان منه ما تخفى حكمته فيُجادَل فيه، أرشد بعد قصة أصحاب الكهف إلى ذم الجدال بغير علم مطلقًا، وفي هذه إليه وإلى أن عاقبة أمر الحكيم إلى خير، والله أعلم، قال الخطيب: "وكذلك ما جاء من شرائع الإسلام التي لا توافق الرأي، ولو كشفت أصولها لجاءت للناس بينة غير مشكلة على مثل ما جاء عليه أمر السفينة والغلام والجدار، فإن ما جاء به محمد ﷺ كالذي جاء به موسى، يعتبر بعضه ببعض ويشبه بعضه بعضًا" [الفقيه والمتفقه ١/ ٣٩٦، بتصرف].

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي: تلحقني بما لا أطيقه من النسبة إلى السفه والشر ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ لأنه مباشرة، والخرق تسببٌ لا يلزم منه الغرق.

﴿۞قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ ولما ذكر أنه ما تبعه إلا بأمر الله، أعلم بندمه على الإنكار بقوله: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ فقد وفى بمقام الشرع الذي أقامه الله فيه، فلم يخلّ بمقام الصبر الذي ليس فيه ما يخالف ما يَعرف من الشرع ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

قال الحرالي: "التفطن لما اختص به بيان القرآن عن بيان الإنسان من مفاتيح أبواب الفهم، فمنه تكرار الأسماء بالإظهار والإضمار نحو: ﴿أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ استأنف للمستطعَمين إظهارًا غير إظهار المأتيين"، قال الشافعي: "وفي هذه الآية أدل دلالة على أنه لم يستطعما كل أهل القرية، وفيها خصوص"، وبيانه: أن النكرة إذا أعيدت كانت الثانية غير الأولى، وإذا أعيدت معرفة كانت عينها في الأغلب.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ وما فيه من الحكمة لأنه عند تعارض الضررين يجب ارتكاب الأدنى لدفع الأقوى بشرط التحقق، وأثبت تاء الاستفعال هنا وفيما قبله إعلامًا بأنه ما نفى إلا القدرة البليغة على الصبر لا مطلق القدرة عليه. ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ فيفسد دنياهما أو يحملهما حبه على الكفر بالله فيفسد دينهما ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ وهذا البدل يمكن أن يكون الصبر ويمكن أن يكون ولدًا آخر، ونُقل أنها كانت بنتًا.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ وقد دل هذا على أن صلاح الآباء داعٍ إلى العناية بالأبناء ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وحذف التاء؛ لأن مُنكِرَه بعد أن كُشف الغطاءُ غيرُ صابرٍ أصلًا ﴿عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨١﴾﴾.

وفي هذه القصة حث على المبادرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمصابرة عليه وأن لا يراعى فيه كبير ولا صغير إذا كان المرء على ثقة من أمره، وتنبيه على أنه لا يلزم من العلم اللدني معرفة كل شيء كما يدعيه أتباع بعض الصوفية؛ لأن الخضر سأل موسى عليهما السلام: «من أنت؟ فقال: موسى بني إسرائيل».

ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم؛ لأنه أساس كل سعادة وقوام كل أمر فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ وصدّرها بالإخبار عن سؤالهم إشارة إلى أنهم لم يسألوا عن التي قبلها على ما فيها من العجائب والمعارف، تبكيتًا لليهود في إغفال الأمر بالسؤال عنها إن كان مقصودهم الحق، وإن لم يكن مقصودًا لهم كانوا بالتبكيت أجدر، أو تكون معطوفة على مسألتهم الأولى وهي الروح، وصدرها بالإخبار بالسؤال تنبيهًا على ذلك لطول الفصل.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ قيل: بالملك وحده، وقيل: مع النبوة؛ لأن ما ينسب إلى الله تعالى على سبيل الامتنان جدير بأن يحمل على النهاية لا سيما إذا عبر عنه بمظهر العظمة ﴿لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴿٨٣﴾ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ هؤلاء القوم ببذل السيف فيهم بكفرهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٤﴾﴾ بالبداءة بالدعوة.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٥﴾ *وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٦﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٨٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٨٨﴾﴾ ولكنا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد على ما تدعو إليه الحكمة، فلو شئنا لبسطنا ما سألتم عنه تفصيلًا يعجز عن حفظه الألباء.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٨٩﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن

تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٠ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ أي: من خرجكم الذي تريدون بذله لمكنتي، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ [النمل: ٣٦]، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: آلات وعمال أتقوى بها في فعل ذلك، فإن أهل البلاد أخبر بما يصلح في هذا العمل من بلادهم.

﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩١ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ۝٩٢ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٣﴾ وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه؛ لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض، ويؤيده أنهم يخرجون في آخر الزمان بنقبه لا بظهوره إذا قالوا إن شاء الله ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٤﴾ فلذلك أعان على هدمه.

﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: إذ جعلنا السد دكاء ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ۝٩٥ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ۝٩٦ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ۝٩٧﴾ هو أبلغ في التبكيت بالغباوة من مجرد نفي البصر والسمع؛ لأن ذلك لا ينفي الاستطاعة.

﴿۞أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ ينصرونهم ويدفعون عنهم؟ ولما كان الاستفهام للإنكار حسن قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ۝٩٨﴾ نقدمها لهم أول قدومهم كما يعجل للضيف.

ولما تبين أنهم خسروا خسارة لا ربح معها، نبههم على ذلك فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝٩٩﴾ أي: فعلًا هو في غاية الإحكام وهم في غاية الدربة به. ولما كانوا ينكرون أنهم على ذلك لملازمتهم لكثير من محاسن الأعمال، بين لهم السبب في بطلان سعيهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ فصاروا لا يخافون فلا يردهم شيء عن أهوائهم ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ لعدم بنائها على أساس الإيمان ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ۝١٠٠ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠١﴾ فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الإلهية حتى ضموا إليه الهزء الذي هو أعظم احتقار.

ثم بين ما للقسم الآخر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي: تحولًا، دفعًا لما قد يتوهم من أن الأمر كما في الدنيا من سآمة صاحب النعيم بطول الإقامة فيشتهي ما هو أعلى منه، وهذا عكس ما كان في الدنيا من ركون الكفار إليها وعزوف المؤمنين عنها وشوقهم إلى ربهم بمفارقتها.

ثم قال قطعًا لهم عن السؤال وتقريبًا إلى أفهامهم بضرب من المثال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لأنها لا تتناهى لأن معلوماته ومقدوراته لا تتناهى ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٤﴾﴾ وهذا كله كناية عن عدم النفاد؛ لأنه تعليق على محال عادة.

ولما كانوا قد غيوا إيمانهم به بأمور سألوه جوابها، وكان قد ثبت بإجابتهم على هذا الوجه أنه رسول، أجابهم بما يرد عليهم غلطهم ويرشدهم إلى ما يعنيهم فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١٠٥﴾﴾.

وقد انطبق آخر السورة على أولها بوصف كلمات الله ثم ما يوحى إليه، مع البشارة لمن آمن والنذارة لمن أعرض، والحمد لله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها بيان اتصافه سبحانه بشمول الرحمة والقدرة، المستلزم لاتصافه بجميع صفات الكمال، المستلزم للتنزه عن الولد لأنه لا يكون إلا لمحتاج ولا يكون إلا مثل الوالد، وعلى هذا دلت تسميتها بمريم لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة وشمول العلم.

ولما كان مقصود التي قبلها الدلالة على أن القرآن قيم لا عوج فيه، ودل على ذلك بسوق المسؤول عنه من القصص أحسن سوق، ابتدأ هذه بالكشف عن أغرب من تلك القصص على وجه مستلزم في أكثرها قدرتَه سبحانه على البعث وتنزهه عن الولد؛ لأنه لا يحتاجه إلا فانٍ يريد من يخلفه، وقدم قصة زكريا ويحي عليهما السلام لأن التبكيت بها أعظم لمباشرتهم لقتلهما.

وقال ابن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا﴾ [الكهف: ٩] أتبع ذلك بقصص تضمنت ما هو أشد عجبًا وأخفى سببًا".

﴿كٓهيعٓصٓ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ١ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ﴾ فيما مضى قط ﴿بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٣﴾ فأجرِني في هذه المرة أيضًا على عوائد فضلك ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾ خصه بالذكر اقتداء به عليه السلام إذ قال: ﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ [يوسف: ٦]. ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٥ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٦ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٧﴾ قال الرازي: "إن هذا على الاستخبار، أيعطيه الولد بتلك الحال أم يقلبه شابًا؟".

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٨﴾ أوجز بحذف النون لشدة تشوفه عليه السلام إلى الجواب، فتحقق بهذا أنه من امرأته هذه العاقر في حال كونهما شيخين. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ ولما بدئت السورة بالرحمة، وكان الليل محل تنزلها قال: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ٩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١٠﴾.

فحملت امرأته كما قلنا، فولدت يحي كما بشرنا، فلما كبر قلنا: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ ولما كانت النبوة لا يقوى على حملها إلا عند استحكام العقل ببلوغ الأشد قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١١﴾ وهذه الخارقة لم تقتض الحكمة أن تكون لنبينا ﷺ لأن قومه لا عهد لهم بالنبوة، فعوض أعظم من ذلك باشتهار الصدق ليكونوا بتكذيبه مكذبين لأنفسهم، وبمزيد إبقاء معجزته القرآنية بعده تدعو الناس إلى دينه دعاء لا مرد له.

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ ولعله نكره لأنه عليه السلام قتل فما سلم بدنه، بخلاف ما يأتي في عيسى عليه السلام ﴿يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ وخص هذه الأوقات لأن من سلم فيها سلم في غيرها لأنها أصعب منه.

ثم أتبعه بقصة أغرب بكونها ليس فيها إلا سبب واحد وهو المرأة، إشارة إلى أنه تعالى يخلق ما يشاء، ومن كان كذلك كان مستغنيًا عن الولد، وإلزامًا للنصارى بالاعتراف بأنه عبد كما اعترفوا بأمر يحي عليه السلام وذلك بما جمع بينهما من خرق العادة فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ خالة يحي كما في الصحيح: «فإذا يحي وعيسى وهما ابنا خالة»، ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ جبريل ليعلمها بما يريد الله بها من الكرامة بولادة عيسى لئلا يشتبه عليها الأمر ويتشعب بها الفكر ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ لئلا تشتد نفرتها وروعها منه.

ودل على خلوصها وشدة التجائها إلى الله بقوله: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ حذفت النون إيجازًا وإبلاغًا في النفي.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: علامة على كمال قدرتنا ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ لمن آمن به، لا كآية صالح عليه السلام لأنها كانت آية استئصال لأهل الضلال ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾. فنفخ في درعها فوصل إلى جوفها ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢﴾.

وأشار إلى قرب الولادة بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ﴾ خوف العار ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ فولدته ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾

قال الرازي: "والأصح أن مدة حملها له وولادته ساعة لأنه كان مبدَعًا ولم يكن من نطفة تدور في أدوار الخلقة"، ويؤيده أنه لم ينقل في كتابنا ولا عن نبينا ﷺ أنهم أنكروا عليها زمن الحمل، ولو علموا به لأنكروه، ولو أنكروه لنقل كما نقل إنكار الولادة.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٣﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٤﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالنوم لأن المهموم لا ينام، وهو كناية عن طيب النفس بالكفاية بطعام البدن، وغذاء الروح بكونه آية ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي﴾ لمن ينكر عليك تنبيهًا على البراءة؛ لأن البريء يكون ساكنًا لاطمئنانه والمرتاب يكثر كلامه وحلفه ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا، فإن كلامي يقبل المجادلة، ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٥﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ إتيان البريء الموقن بأن الله معه ﴿تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٦﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٧﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى الاعتقاد الصحيح فيه وأنه لا يستعبده شيطان ولا هوى ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٠﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ فلا والد لي غيرها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣١﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٢﴾﴾ كما تقدم في يحيى عليه السلام إشارة إلى أنهما في البشرية سواء، ولم يكن لنبينا ﷺ مثل هذه الخارقة لئلا يلتبس حاله بالكهان؛ لأن قومه لا عهد لهم بالخوارق إلا عندهم، فعوضه الله بإنطاق الرضعاء والحيوان والجماد.

ولما كان في ذلك من أقواله عليه السلام وأحواله أعظم البيان عن بعده عما ادعى فيه النصارى من الإلهية واليهود من أنه لغير رشدة، أشار بأداة البعد فقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: يتكلفون الشك فيه ويجادلون به مع شدة وضوح أمره ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزه عن كل نقص من احتياج إلى ولد أو غيره، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ هو من مقول عيسى عليه السلام الماضي، والاعتراض بما تقدم بينهما للتأكيد والاهتمام.

ولما كان الصراط المستقيم سببًا للاجتماع، عجّب منهم في استثمار غير ذلك منه فقال: ﴿فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٦﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ إذ يطّلعون فيه على جميع ما أضرهم عمله في الدنيا، وجميع ما كان ينفعهم لو عملوه، فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ﴾ أي: والحال أنهم الآن ﴿فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾﴾. ولما كان الإرث حوز الشيء بعد موت أهله، وكان الله قد قضى بموت الخلائق أجمعين وأنه يبقى وحده قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ولما كان إبراهيم عليه السلام مثل زكريا في هبة الولد على كبر سنه وعقم زوجه، أتبع ذلك قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ أي: بليغ الصدق في نفسه والتصديق بكل ما يأتيه مما هو أهل لأن يصدق، ولا يكون كذلك إلا وهو عامل به حق العمل، فهو أبلغ من المخلَص ﴿نَّبِيًّا ﴿٤٠﴾﴾ وأكد نبوته ونبوة من بعده وإن كانوا مقرين بها؛ لكونهم في إنكارهم نبوة البشر كالمنكرين لها.

وذكر من قصته ما ينفي الشريك ليقتدي به أولاده(٨٤) فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيرى ما أنت فيه من خدمته أو يجيبك إذا ناديته ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤١﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٢﴾﴾.

ولما بين أنه لا نفع فيما يعبده، ونبهه على الوصف المقتضي لوجوب الاقتداء به، بين له ما في عبادة معبوده من الضر فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ فإن الأصنام ليس لها دعوة أصلًا، والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقًا، فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان، فكان هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ والمطيع للعاصي لشيء عاص لذلك الشيء، لأن صديق العدو عدو.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٤﴾ ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ وفيها تسلية للرسول ﷺ فيما كان يلقى من الأذى.

---

(٨٤) ولأن نسبة الشريك كنسبة الولد في استلزام الحاجة، وتأكيدًا لنقص ما نسبوه إليه تعالى من ذلك، والله أعلم.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝٤٦ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقيد الاعتزال بزمن، بل أشار إلى أنهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٧ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ كما هو الشأن في كل من ترك شيئًا لله ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ وخصهما بالذكر للزومهما محل إقامته وقيامهما بعد موته بخلافته فيه، وأما إسماعيل عليه السلام فكان الله تعالى هو المتولي لتربيته، فأخره بالذكر جاعلًا له أصلًا برأسه ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝٤٨ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ۝٤٩﴾ أي: ذكرًا صادقًا رفيعًا يحمدون به.

ولما كان موسى عليه السلام أول من ذكرهم الله على لسانه في التوراة، أتبع ذكره فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٠﴾ وعطف عليه دليله الدال على ما صدرت به السورة من الرحمة فقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٢﴾.

ولما كان إسماعيل عليه السلام آخر من شيد قدرهم وأعظم من أعلى ذكرهم، عقب ذكره فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لمعونة الله له لأنه لا يعد وعدًا إلا مقرونًا بالاستثناء، كما قال لأبيه: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات: ١٠٢] وخصه بالمدح به لقصة الذبح وإن كان الأنبياء كلهم كذلك ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٣﴾ إلى جُرْهُم، أتى أهل تلك البراري بدين أبيه إبراهيم عليهما السلام فأحياها الله بنور الإيمان ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٤﴾.

ولما كان إدريس عليه السلام أعجبهم أمرًا ختم به فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٥ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٦﴾ أي: الجنة أو السماء الرابعة، قال ابن قتيبة في المعارف: "وفي التوراة أن أخنوخ أحسن قدام الله فرفعه إليه"، ومن جيد المناسبات أن إسماعيل وإدريس عليهما السلام اشتركا في البيان بالعلم واللسان، فإسماعيل أول من أجاد البيان باللسان، وإدريس أول من أعرب الخطاب بالكتاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ عطف الأوصاف بالواو إشارة إلى التمكن فيها ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فكيف بخصوص هذا القرآن! ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗا

﴿وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٧﴾﴾ فوصفهم بسرعة الخشوع الناشئ عن دوام الخضوع، وعبر بالاسم إشارة إلى دوام خضوعهم للكبير العظيم.

ولم يذكر الأذقان لدلالتها على نوع دهشة وهي حالة دون مقام الراسخين؛ لأنهم في أعلى الدرجات من حضور الفكر وانشراح الصدر لتلقي الحق وإلقائه إلى الخلق، انظر إلى ثبات الصديق رضي الله عنه عند وفاة النبي ﷺ مع أنه أوفاهم محبة وأوفرهم حزنًا، ولذا أرسل النبي ﷺ الخميصة التي ألهته في الصلاة إلى أبي جهم لأنه رضي الله عنه ربما كان من أهل الجمع في الصلاة لا يرى غيرَه سبحانه فناء عن كل فان، بخلاف النبي ﷺ فإنه لكماله متمكن في كل من مقامي الجمع والفرق(٨٥) في كل حالة.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بتركها أو تأخيرها والإخلال بحدودها فكانوا لما سواها أضيع، فأظلمت قلوبهم فأعرضوا عن داعي العقل ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: بغاية جهدهم ﴿ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ من تغيير أحكام الكتاب وتبديل ما فيه مما يخالف الأهواء ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٨﴾﴾ أي: شرًا يتعقب ضلالًا عظيمًا، فلا يزالون في عمى عن الرشاد لا يستطيعون إليه سبيلًا، وهم على بصيرة من أنهم على خطأ وضلال ولكنهم مقهورون على ذلك بما زُيِّن لهم منه حتى صارت لهم فيه أتم رغبة، وهو من وادي قوله:﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا﴾ [الإسراء: ٩٧] مع قوله: ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ [مريم: ٣٨].

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فحافظ على الصلاة وكف نفسه عن الشهوات ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٥٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ فآمنوا به فاستحقوه بفضله على إيمانهم بالغيب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦٠﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦١﴾﴾ أي: دوامًا، لا يحتاجون إلى طلبه في وقت من الأوقات ﴿۞تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾.

ولما كشفت السورة تبكيتًا لأهل الكتاب عن أغرب مما سألوا عنه، وأجاب عما سألوا عنه أحسن جواب، فثبت أنه كلام الله قطعًا وأنه ما أجمل أمر الروح وأخر الإجابة خمس عشرة ليلة إلا لحكمة، قال على لسان جبريل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾ فيترك تفصيل أمر الروح ويؤخر

---

(٨٥) الجمع: اجتماع القلب على الله سبحانه، والفرق: شهود المحسوسات.

الجواب عن الوقت الذي وعدتهم فيه لخفاء شيء من ذلك عليه، ولا ينسى ما يصلحك فيحتاج إلى مذكر به ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ أي: لأجلها فإنها لا تكون إلا عن مجاهدة شديدة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٤﴾ أي: متصفًا بوصف من أوصافه اتصافًا حقيقيًا أو مسمًى باسمه!

ولما ثبت بما تقدم شمول علمه وتمام قدرته، عجّب منهم في إنكارهم البعث فقال: ﴿وَيَقُولُ﴾ بعد هذا البيان المقتضي لاعتقاد البعث، فضلًا عن إنكاره مرة، فكيف بالمداومة على ذلك! بما أشار إليه المضارع ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الذي شغله الإنس بنفسه عن التأمل في كمال ربه. ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٥ أَوَ لَا يَذَّكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بالتشديد إشارة إلى أنه لاستغراقه في الغفلة يحتاج إلى تأمل شديد، والمعنى على قراءة التخفيف: أولا يَذْكر أدنى تذكر، فإنه يرشده إلى الحق ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ ولما كان المقام لتحقيره بكونه عدمًا أعدم النون فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٦ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الذين يضلونهم ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٧﴾ على الركب من الهول والذل.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: فرقة مرتبطة بمذهب واحد ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٨﴾ انتزاعًا يعلم به أهل الموقف أنه أقل من القليل وأوهى من الفتيل، وأن له تعالى مع الرحمة: صفات أخرى من الجلال والانتقام ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٦٩﴾. ولما كانوا بهذا الإعلام المؤكد بالإقسام جديرين بالإصغاء، التفت إلى مقام الخطاب فقال: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧٠﴾ قال الرازي: "ما من مؤمن -إلا الأنبياء- إلا وقد تلطخ بخلق سوء، ولا ينال السعادة إلا بتخليصه منه وذلك إنما يكون بالنار". ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ بأن تكون عليهم حال الورود بردًا وسلامًا ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧١﴾ كما كانوا حولها.

ولما كان هذا جديرًا بالقبول لقيام الأدلة على كمال قدرة قائله، قال معجّبًا من منكره: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إعراضًا عن الاستدلال بالآيات بالإقبال على هذه الشبهة الواهية، وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٢﴾. ولو شئنا لأهلكناهم وسلبنا جميع ما يفتخرون به: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ ولم يأت بالجار إعلامًا بأن المتقدمين كلهم كانوا أرغد عيشًا وأمكن حالًا فقال: ﴿قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٣ قُلۡ﴾ ردًا عليهم: هذا الذي افتخرتم به لا

يدل على حسن الحال في الآخرة، بل ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ مثلكم ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا ٧٤﴾ بسعة الديار وطول الأعمار وإنفاقها في الأوزار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ مما متع به الكفرة، على تقدير التنزل إلى تسميته خيرًا، وإضافة الرب إليه ﷺ إشارة إلى أنه يربيها تربية تبلغ أقصى ما يرضيه في كل تابعيه ﴿ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ أي: عاقبة يوم الحسرة.

ولما كان ما تقدم موجبًا للإقبال عليه تعالى، عجّب من حال من كفر به فقال: ﴿۞أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ فلم يكفه في جهله تعجيز القادر حتى ضم إليه إقدار العاجز. ولما كان ما ادعاه لا علم له به إلا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما، أنكر عليه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ﴾ لم يقع شيء من هذين ولا يكون ما ادعاه، وأكد التهديد بالسين فقال: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ للتوبيخ والعذاب، فيظهر له بعد طول الزمان أن ما كان فيه: ضلال يؤدي إلى الهلاك ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾ باستدراجه بالنعم المحبّبة في الدنيا المعذّبة فيها بالكدح فيها والمخاصمة عليها. ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته عن ذلك ﴿مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾ منعزلًا عن كل شيء.

ولما ذكر إتيان هذا الكافر ذليلًا أتبعه حال المشركين مع معبوداتهم فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾ لينقذوهم من العذاب. ﴿كَلَّاۚ﴾ لأنه طلب للعز من معدن الذل، من العبيد المجبولين على الحاجة، فمن طلب العز للدنيا طلبه منهم لا محالة، فاضطر قطعًا -لبنائهم على النقص- إلى ترك الحق واتباع الباطل، فأعقبه الذل وإن طال المدى ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ وحّده إشارة إلى اتفاق الكلمة، وكذا يفعل الكفار مع شركائهم فتقع بينهم العداوة.

ولما كان من المستبعد عندهم كفرهم بآلهتهم، دل على وقوعه بما يشاهد منهم من الأفعال المنافية لرزانة الحلم فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ أي: تحركهم تحريكًا شديدًا وتزعجهم في المعاصي والدنايا التي لا يشكون في قباحتها وشناعتها، وهم أشد الناس عيبًا لفاعليها. ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ لأنفاسهم فما فوقها، فإذا جاء أجلهم محونا آثارهم وأخلينا منهم ديارهم.

وسيكفرون بعبادتهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾ بالإيمان والطاعة.

ولما أبطل مطلق الشفعاء، وكان الولد أقرب شفيع، وكانوا قد ادعوا له ولدًا، أبطل دعواهم فيه لينتفي كل شفيع فينتفي ما راموه من آلهتهم فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مَن كُلِّ أحدٍ محتاجٌ إليه وهو غنيٌ عن كلِّ أحد ﴿وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ لأنه غير محتاج، ومع ذلك فهو محال لأن الولد لا يكون إلا مجانسًا للوالد، ولا شيء من النعم بمجانس للمنعم المطلق.

ثم أقام الدليل على غناه عن ذلك واستحالته عليه، تحقيقًا لوحدانيته وبيانًا لرحمانيته فقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فكيف يكون العبد ابنًا أو شريكًا! فدلت الآية على التنافي بين العبودية والولدية ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾. ثم بيّن ما أفادت الطاعةُ المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ أي: حبًا عظيمًا في قلوب العباد دالًا على ما لهم عنده من الود، وإخلاء لقلوب الصالحين من الإحنة عليهم، قال الأصبهاني: "من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي تكسب بها الناس المودات".

ولما كان القرآن سببًا للود بما لأهله من التحلي بالصالحات والتخلي من السيئات قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ أشداء في الخصومة يريدون العز بذلك؛ لما لهم عندنا من الهوان الناشئ عن المقت المسبَّب عن مساوئ الأعمال، ولا يكون هذا إلا ممن يحتقر من يخاصمه ويريد أن يجعل الحق باطلًا تكبرًا عن قبوله، ومن كان هذا سبيله مرن على ذلك ومرد فاستحق أن يُركِبه الله أبطل الباطل: الكفر عند الموت فتحرم عليه الجنة، ولقد أجرى الله عادته -ولن تجد لسنة الله تحويلًا- أن من تعود الجراءة بالباطل كان ذليلًا في الحق.

ولما كان التقدير بعد ذكر الإنذار: فإنا قادرون على إهلاكهم، عطف عليه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾.

فختمت السورة بما بدئت به من الرحمة لأوليائه، بعد الرحمة للفريقين بهذا الكتاب.

سورة طه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها البشارة لهذا النبي الكريم ﷺ بإظهار الدين بكثرة الأتباع وإبارة الخصوم ورد الأضداد وإن كانوا قوما لدًا، كما ليّن قلب عمر رضي الله عنه فجعله وزيرًا، وهذه السورة والتي قبلها من أقدم السور المكية يوم كان المسلمون في قلة.

لما ختم تلك بإهلاك القرون بعد إنذار القوم اللد، وكان ربما أفهم أنه قد انقضت مدتهم وأتى دمارهم وأنه لا يؤمن منهم للددهم إلا من قد آمن، افتُتحت هذه بنفي الشقاء بشارةً بكثرة الأتباع فقال: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾ بقلة أتباعك بعد استئصال قومك ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾ إيماء إلى أنه سيكون فيهم من المتقين من تناسب كثرته إعجاز هذا القرآن ودوامه؛ لأن كثرة الأمة على قدر جلالة الكتاب.

﴿تَنزِيلٗا﴾ متدرجًا؛ إزالة لشبههم وشرحًا لصدورهم ومدًا لمدة البركة فيهم بتردد الملائكة الكرام إليهم، ولما كان رجوعهم إلى الدين على شدة الأنفة التي سماهم الله بها قومًا لدًا في غاية البعد، شرع يذكّر بقدرته إشارة إلى أن القلوب بيده يقلبها كيف شاء كما صورها كيف شاء فقال: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إعلامًا بالترفق بسكانها ليملأها بالإيمان منهم ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤﴾ في ستة أيام، ولو شاء كانتا في لحظة[٨٦] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾.

ولما كان الملك لا ينتظم غاية الانتظام إلا بإحاطة العلم قال: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: بهذا القرآن ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ وهو ما يناجي به الاثنان مخافتة ﴿وَأَخۡفَى ٧﴾ من ذلك وهو ما في الضمائر مما تخيلته الأفكار ولم يبرز إلى الخارج، وغيره من الغيب الذي لم يعلمه غيره تعالى بوجه. وأنتج ما مضى قطعًا قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾.

ثم عطف عليه شاهدًا محسوسًا على ما له من الاتصاف بما انتفى عن غيره من الأسماء الحسنى، ومثالًا على إعلائه أمر هذا المصطفى ﷺ، وندبًا إلى التأسي بموسى عليه السلام في

---

(٨٦) فكذلك انتشار أمرك وقيام عزك وكثرة أتباعك، يكون متدرجًا بحسب الحكمة، كما كان تنزيل هذا الكتاب وإعداد موسى عليه السلام وخلاص بني إسرائيل، ولو شاء كان كل ذلك في لحظة.

تحمل أعباء النبوة والصبر على مقامات الشدائد فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٨ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ١٠ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أدبًا ولتنالك بركتها ولتكون مهيأ للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ١١ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٢ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إشارة إلى أنها المقصود بالذات من الدين؛ لأنها أعلى شرائعه؛ لأنها حاملة على المراقبة بما فيها من دوام الذكر والإعراض عن كل سوء، وذلك معنى: ﴿لِذِكْرِىٓ ١٣﴾.

ثم علل الأمر بالعبادة بأنه لم يخلق الخلق سدى بل لا بد من إماتتهم ثم بعثهم لإظهار العظمة ونصب موازين العدل فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ١٤ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن إدامة ذكرها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ بإعراضه عنها وحمله غيره على ذلك بتزيينه بما أوتي من المتاعِ الموجِبِ للمكاثرةِ المثمرةِ لامتلاء القلب بالمفاخرة، فإن من انصد عن ذلك غيرُ بعيدِ الحال ممن كذب بها، ولأن صد الكافر مسبَّب عن الرخاوة في الدين، فكن شديدًا لئلا يطمع أحد في صدك وإن كانوا الجمَّ الغفير، فإن كثرتهم على الهوى لا البرهان ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ١٥﴾ إشارة إلى أن من ترك المراقبة لحظة حاد عن الدليل، ومن حاد عنه هلك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٦﴾ لينظر إليها قبل قلبها حية فيتحقق أنها عصاه فيزداد بقلبها ثباتًا وتثبيتًا لمن يرسَل إليهم. ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٧ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٨ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ١٩ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢٠﴾ فهذه آية بينة على أن الذي يخاطبك هو ربك.

ولما أراه آية في الآفاق، أراه آية في نفسه فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢١ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ٢٢ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٣﴾.

وأشار إلى ما حصل له من الضيق من ذلك بما عرف من أنه أمر عظيم لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ٢٤ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ٢٥ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ٢٦ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ٢٧ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ٢٨ هَٰرُونَ أَخِى ٢٩ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ٣٠ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ٣١ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٢ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ٣٣ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا

بَصِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ وأرشد بدعاء موسى عليه السلام بذلك إلى الدعاء بمثله حتى دعا رسولنا ﷺ بأن يؤيد الله الدين بأحد الرجلين، فأيده بأعظم وزير: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولما كان إنجاؤه من فرعون في السنة التي يذبح فيها الأبناء، بيد فرعون وفي بيته أمرًا عظيمًا، قال مذكرًا له بذلك تنويرًا لبصيرته وتقوية لقلبه، إعلامًا بأنه ينجيه منه الآن كما أنجاه في ذلك الزمان، ويزيده بزيادة السن والنبوة خيرًا: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٦﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴿٣٨﴾﴾ أي: ليحبك كل من رآك لما جبلتك عليه من الخلال الحميدة، لتكون أهلًا لما أريدك له ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع، كل ذلك إمضاء لأمري وإيقافًا لأمره بنفسه لا بغيره؛ ليزداد العجب من إحكام السبب.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾ أي: خلصناك من محنة بعد محنة ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: وقت قدرته في الأزل ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ أي: ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربَّى على طريقة من الطرائق ﴿لِنَفْسِى ۚ﴾ أي: لتفعل من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤١﴾﴾ فإن عبدي كلَّ عبدي: لَلَّذي يذكرني عند لقاء قرنه، فإن ذلك أعون شيء على المراد.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ لئلا يبقى له حجة ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ بإظهار النون الثالثة إبلاغًا في إظهار الشكوى؛ ليأتي الجبر على قدر الكسر ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه من جملة عبيد مرسِلهما تكذيبًا له في ادعائه الربوبية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ﴾ ليعبدوه فإنه لا يستحق العبادة غيره.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾ تأكيدًا لما مضى ونسبةً له إلى كفران الإحسان ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ فعُلم أن العطب على غيرهم. وعلل بقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ بصرف الكلام عنه تنبيهًا على أنه كذلك وتعليمًا للأدب.

﴿قَالَ﴾ مدافعًا لهما بالمناظرة لا بالبطش لئلا يُسَفَّه ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ولم يقل: ربي، حيدة عن سواء النظر وتوضيحًا لخزيه، ولما كان موسى ﷺ هو الأصل في ذلك، وكان ربما طمع فرعون بمكره في حبسة تحصل في لسانه، أفرده بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ ۝٤٨ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٤٩﴾ العاقلَ وغيرَه إلى جميع منافعه فيسعى لها ومضاره فيحذرها.

ولما لم يكن في هذا الجواب خلل يمكن له الطعن فيه، صرف الكلام خوفَ الافتضاح بزيادة موسى عليه السلام في الإيضاح فيظهر الفساد من الصلاح، إلى شيء يتسع فيه المجال ولا يقوم عليه دليل فيمكن فيه الرد فقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ وهو وإن كان حيدة، هو من أمارات الانقطاع، غير أنه فعلُ راسخِ القدمِ في المكر والخداع.

ولما فهم موسى عليه السلام ما أراد فرعون من الخوض في ما لا طائل تحته، ولم تكن التوراة نزلت عليه إذ ذاك، لم يمش معه فيه بل ﴿قَالَ﴾ قاطعًا له عنه: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥١﴾.

ثم عاد إلى ما كان فيه من الدليل على وحدة الصانع واختياره فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٢ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ﴾ وقد دلت هذه الأوصاف على تحققه سبحانه قطعًا بأنه لا يضل ولا ينسى من حيث إنه أبدع هذا العالم شاملًا لكل ما يحتاجه من فيه لما خلقهم له، بخلاف غيره فإنه لو عمل شيئًا واجتهد كل الاجتهاد في تكميله، فلا بد أن يظهر له فيه نقص ويصير يسعى في إزالته وقتًا بعد وقت ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٣﴾. ولما دل على قدرته على وجه دال على خصوص القدرة على البعث وصل به قوله: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٤﴾ كما ابتدأ ذلك، بل الإعادة أهون.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٥ قَالَ﴾ حين لم يجد مطعنًا، مخيِّلًا للقبط بما يثير حميتهم لأنه علم حقية ما جاء به موسى، فخاف أن يتبعه الناس ويتركوه ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذه التي نحن مالكوها ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٦﴾ فخيّل إليهم أن ذلك سحر، فكان ذلك -مع ما ألفوه من عادتهم في الضلال- صارفًا لهم عن اتباع ما رأوا من البيان.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ تأكيدًا لما خيل به، ثم أظهر النصفة إيثاقًا لربط قومه فقال: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٧﴾ فانظر هذا الكلام

الذي نمّقه فأوقف به قومه عن السعادة، واستمر يقودهم بأمثاله حتى أوردهم البحر فأغرقهم ثم في النار أحرقهم، فعلى الكيّس أن ينقد الأقوال والأحوال ويعرضها على الكتاب والسنة، فما وافق لزمه وما لا تركه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي: عيدكم الذي اعتدتم الاجتماع فيه ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٨﴾ فيكون أجلى لما يُعمل، ولا يأتي الليل إلا وقد عرف المحق من المبطل، وأنتم أجمع ما تكونون وأفرغ.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ بجمع من يحصل بهم الكيد وهم السحرة، حشرهم من كل أوب، وكان أهل مصر حينذاك أسحر الناس ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ٥٩ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ بجعلكم آياته سحرًا وادعائكم أن ما تخيلون به حق، وإشراككم به ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦٠ فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ أي: السحرة ﴿أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ لما سمعوا هذا الكلام، علمًا منهم بأنه لا يقدر أن يواجه فرعون في جميع جنوده وأتباعه ثم يسلم منه إلا من الله معه ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦١﴾ لئلا يَظهر فرعونُ وأتباعُه على تنازعهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ تقربًا إليه بما يثبط الناس عن اتباعهما وإن غلبا؛ لأنه لا ينكر غلبة ساحر على آخر: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ ولما كان كل حزب بما لديهم فرحون قالوا: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ أي: التي هي أمثل الطرق، فيصرفان وجوه الناس عنكم ويبطل ما لكم بذلك من الأرزاق والعظمة ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ والاصطفاف أهيب في صدور الرائين.

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ قَالُواْ﴾ لأنَّ لِينَ القول مع الخصم إن لم ينفع لم يضر: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ﴾ مقابلًا لأدبهم بأحسن منه، ولأنه فهم أن مرادهم الابتداء، وليكون هو الآخِر فتكون العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ وإذا كان هذا حاله مع أنه أثبت الناس بصرًا وأنفذهم بصيرة فما ظنك بغيره! ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ وقدم ما الاهتمام به فقال: ﴿خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ على ما هو طبع البشر، وللنظر إلى الطبع عبر بالنفس لا القلب مثلًا.

ولما كان المعلوم أن الله معه قال: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٧ وَأَلۡقِ﴾ وأشار إلى يُمن العصا وبركتها بقوله: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ﴾ بقوة وسرعة لا تكاد تدرك، بما أشار إليه حذف التاء ﴿مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ أي: فعلوه بعد تدرب كبير عليه، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ ولما كان المقصود تحقير هذا الجيش أفرد ونكر فقال: ﴿كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾ لا حقيقة له ولا ثبات سواء كان واحدًا أو جمعًا، وحذف ذكر الإلقاء وما سببه من التلقف لأن مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية.

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٨ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ولما كان سياق السورة مقتضيًا لتقديم هارون ﷺ(٨٧) قالوا: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٦٩﴾ ويؤيده أنه قال هنا: ﴿إنا رسولا﴾ [الآية: ٤٧] وفي الشعراء ﴿رسول﴾، وقال الرازي: "لا يقال في شيء من القرآن: أنه قدم أو أخر لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ بل فيه وفي المعنى".

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون، وأضمر اسمه هنا؛ لأن مقصود السورة الرفق بالمدعوين، وهو غير متأهل لذكر اسمه في هذا المقام: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ إيهامًا بأنه سيأذن فيه؛ ليقف الناس عن المبادرة إلى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الإذن ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ فلم تتبعوه لظهور الحق، بل لإرادتكم مكرًا وافقتموه عليه قبل حضوركم، وهذا على عادته في تخييل أتباعه فيما يوقفهم عن اتباع الحق.

ثم شرع يزيدهم بعد التخييل حيرة بتهديد السحرة فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ أنا أو رب موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۝٧٠ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ بالاتباع لك لنسلم من عذابك الزائل.

ولما تسبب عن ذلك أنهم لا يبالون به علمًا بأن ما فعله فهو بإذن الله قالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧١﴾ فإنما حكمك على الجسد ساعة تعقب راحة، ونحن لا نخاف إلا ممن يحكم على الروح وإن فني الجسد، فذاك هو الشديد العذاب الدائم الجزاء، ولعلهم أسقطوا الجارّ تنزلًا إلى أن حكمه لو فرض أنه يمتد إلى آخر الدنيا لكان أهلًا لأن لا يخشى لأنه زائل وعذاب الله باق.

---

(٨٧) لتقدم سؤال موسى عليه السلام أن يجعله له وزيرًا، والله أعلم.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ لتعارض به المعجزة، فإنه كان الأكمل لنا عصيانك فيه لأن الله أحق بأن يتقى ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ جزاء منك فيما وعدتنا به ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ ثوابًا وعقابًا، والظاهر أن الله تعالى سلمهم من فرعون، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٥]، قاله أبو حيان.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أبدًا مع شدة عذابها، بخلاف عذابك الذي إن اشتد أمات فزال سريعًا، وإن خفّ لم يُخِف وكان آخره الموت وإن طال ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ حياة ينتفع بها ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ التي لا نسبة لدرجاتك التي وعدتنا بها منها ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي: طهر نفسه بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة، وفيه تسلية للصحابة إذ كانوا عند نزولها مستضعفين.

ثم أتبع ذلك شاهدًا محسوسًا عليه، مبينًا أنه لم يغن عن فرعون شيء من قوته ولا استكباره فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ وكان هذا الإيحاء بعد مدة مديدة جرت فيها خطوب طوال كانت بسببها الآيات الكبار، وكأنها حذفت لما تدل عليه من قساوة القلوب، والمراد هنا الانتهاء لِما تقدم من مقصود السورة.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ وأوجز فهوّل فقال: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أمر لا تحتمل العقول وصفه حق وصفه ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ولما كان إثبات الفعل لا يفيد العموم، نفى ضده ليفيده فقال: ﴿وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ لا لنفسه ولا لأحد من قومه.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معترفين لهم أنّا نظرنا إلى السوابق فأكرمناهم لأجل أبيهم ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ فبدأ بالإنجاء الممكّن من العبادة، ثم أتبعه بنعمة الكتاب الدال عليها، ثم بالرزق المقوي. ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ بالبطر وإغفال الشكر بصرفه في غير الطاعة ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ أي: كان حاله حال من سقط من علو. ولما كان الإنسان محل الزلل وإن اجتهد قال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

ولما واعد الله موسى ﷺ بعد ثلاثين ليلة ولم يعين له أولها، تعجّل لاشتياقه بعشرة أيام عن الوقت الذي علم الله أن الكلام يقع فيه، فزاده بعد ذهابه عشرًا فظن بنو إسرائيل الظنون واتخذوا العجل، وذلك قوله: ﴿۞وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨١﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٢﴾ قَالَ فَإِنَّا﴾ بسبب عجلتك عنهم ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ بعد المدة التي ضربتها لهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٣﴾﴾ وعن ابن عباس في حديث الفتون: أن السامريَّ كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ولم يكن منهم.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴿٨٤﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ ولما جرت العادة بأن طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود قال: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ﴾ بالنقض مع قرب العهد ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٥﴾﴾ فالحاصل أنكم فعلتم ما لا يفعله عاقل. ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ونحن بملك أمرنا، بل زين لهم السامري ذلك ووسوس به الشيطان، فما دوروا إلا وقد تبعوه حتى كأنهم يقادون إليه بالسلاسل، وقيل: هذا كلام من لم يعبده، اعتذروا بأنهم قليل لا قدرة لهم على مقاومة من عبده، وهذا كله إشارة إلى أنه تعالى هو المتصرف في القلوب.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ عدولًا عن التكلم؛ استهجانًا لنسبة أمر العجل إلى المتكلم ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: صورة ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ﴾ أي: السامري، فتابعه عليه من أسرع في الفتنة: ﴿هَٰذَآ﴾ الذي هو على صورة ما هو مَثَلٌ في الغباوة ﴿إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴿٨٧﴾ فَنَسِيَ﴾ موضعه فذهب يطلبه، أو: نسي أن يذكره لكم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٨﴾﴾.

ولما كان الذنب مع العلم أبشع، والضلال بعد البيان أشنع قال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ في إخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي لا نعمة على أحد إلا وهي منه، ومن رحمته قبول التوبة ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٨٩﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩٠﴾﴾ ولما لم يكن معه من يقوى على جهادهم، وكانوا قد غيوا الرجوع برجوع موسى، مع أنه لم يأمره بجهاد من ضل، رأى الإصلاح أن يعتزلهم حتى يأتي.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ أنت نبي الله وأخي ووزيري وخليفتي فأنت أولى الناس بأن ألومه ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩١ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ۝٩٢ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٣ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما سولت لي نفسي أخذ أثره ﴿سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٤﴾ نبذها في الحلي فنبذتها، ولم يدعني إلى ذلك داع.

ولما كان فعله هذا مفرقًا لبني إسرائيل عن طريق الحق، وجامعًا لهم على نفسه بكونه صار متبوعًا في ذلك الضلال لكونه كان سببه، عوقب بالنفرة من الإنسان؛ ليكون ذلك سببًا لضد ما تسبب عن فعله، وذلك قوله: ﴿۞قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ أي: لا تمسني ولا أمسك، فلا تقدر أن تنفك عن ذلك لإرادة الإلٰه الحق له، لتعلموا عظيم ضلالكم في ترك القادر على كل شيء، واتباع ما لا قدرة له على شيء.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٥ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ۝٩٦﴾ وكان القياس على ما يتبادر حيث نفى عن العجل العلم والقدرة: أن يثبَتا هنا للإلٰه الحق، ولكنه أثبت العلم الواسع؛ لاستلزامه للقدرة على كل ما يمكن أن يتعلق به العلم، بإفادة الأسباب للمراد ومنع الموانع عنه فيقع لا محالة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ [الأعراف: ١٨٨] ولا يستلزم إثباتُ القدرة المحيطة العلمَ الشامل؛ لخروج المحال الذي ليس من شأن القدرة أن تتعلق به.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا القص العالي ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ۝٩٧﴾. ولما اشتمل هذا الذكر على جميع أبواب الخير، فكان كل ما ليس له فيه أصلٌ شقاوةً محضة وضلالًا بعيدًا قال: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ۝٩٨ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ وجمع بعد الإفراد؛ تنبيهًا على العموم، ولئلا يظن أن الجماعة يمكنهم المدافعة ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ۝٩٩﴾.

ثم شرح بعض أحوال ذلك اليوم فقال: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وعدل عن أن يقول: ونحشرهم؛ لبيان الوصف الذي جره لهم الإعراض عن الذكر ﴿يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ۝١٠٠

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ في الدنيا فيما يحسبون، أي: أقربهم إلى أن تكون طريقته مماثلة لما يطلب منه ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ [الروم: ٥٥]، فلا يزالون في إفك وصرف عن الحق في الدارين؛ لأن الإنسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه، ويجوز أن يكون المراد أن من قال: إن لبثهم يوم واحد، أمثلهم في نفس الأمر؛ لأن الزمان وإن طال إنما هو يوم متكرر، ليس مرادًا لنفسه وإنما هو مراد لما يكون فيه.

ولما أخبر عن بعض أحوال المعرضين، أخبر عن بعضها في الإعراض فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ شكًا منهم في البعث وتوهمًا -لجمودهم- أنها تكون موجودة لا محالة؛ لأنها أقوى الأشياء وأمكثها ﴿فَقُلۡ﴾ بالفاء بخلاف الجواب عن الروح وقصة ذي القرنين لِما هناك من الاستشراف للجواب ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: مواضع الجبال ﴿عِوَجٗا﴾ عبر بالكسر وهو للمعاني ومواضعُ الجبال أعيانٌ؛ نفيًا للاعوجاج على أبلغ وجه، فلو جمعت أهل الخبرة بتسوية الأراضي لاتفقوا على الحكم باستوائها.

﴿وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾ أي: الداعي في قصدهم إليه؛ لأنه ليس في الأرض تعريج ولا مانع للصوت من النفوذ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي: لا تكون شفاعة ليكون لها نفع، وإنما حوّل العبارة لأن المقصود النفع فنفيه أولًا أهول ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠ ۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ أي: نقصًا من جزائه، وإن كان هو لم يوف المقام حقه لأنه لا يستطيع ذلك.

ولما اشتملت هذه الآية على أحسن تبشير وإنذار ونظم وإظهار قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الإنزال ﴿أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ ولما كان هذا الحث العظيم ربما عجّل المسابقَ في التقوى فتلقفه قبل الفراغ من إيحائه قال: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ أي: بتفهيم ما نزل منه وإنزال غيره، وفي هذا دليل على أن

التأني في العلم بالتدبر أنفع من الاستعجال المتعب للبال وأعون على الحفظ، فمن وعى شيئًا حق الوعي حفظه غاية الحفظ.

ولما تقدم ذم من أعرض عن ذكره أتبعه قصة آدم عليه السلام تحذيرًا من الركون إلى ما يسبب النسيان، وحثًا على رجوع من نسي إلى طاعة الرحمن فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾. ثم أتبعه تفصيل ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: لا تصغيا إليه فيخرجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ ولما كان المخصوص في هذه الدار بالسعي هو الرجل، وكان أغلب تعبه في أمر المرأة، أفرد التحذير بقوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

ولما كانت الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان: الشبع والري والكسوة والكنّ، بيّن كفايته إياها على وجه معيّن لأصناف الشقاء؛ ليتحامى السببَ الموقعَ فيها كراهة لها، فإذا مضت عليه القدرة علم أنه لا يغني حذر من قدر فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ وإن كان ناسيًا؛ لأن علو رتبته تقتضي مزيد الاعتناء ودوام المراقبة ﴿رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ أي: فأخطأ طريق التوصل إلى الخلد.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴿١٢٣﴾ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ فإن الشقاء عقاب الضلال، ويلزم من نفيه نفي الخوف والحزن بخلاف العكس، فهو أبلغ مما في البقرة، فإن المدعو إليه في تلك مطلق العبادة، والمقام في هذه للخشية والعداوة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ذات ضيق وإن رؤي بخلافه، فإن ضلاله لا بد مرديه فيؤول إليه، مع أنه مستولٍ عليه الحرص، مسلطٌ عليه الشح والهم، ولا يرجو ثوابًا ولا يأمن عقابًا، فهو في أضيق الضيق، لا يزال همه أكبر من وُجده؛ «لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى ثانيًا» وهكذا حال من أتبع نفسه هواها، وأما المقبل على ذكرِ الله الشارحِ للصدور فهو في أوسع سعةٍ قانعٌ راض، فلا تغتر بالصور وانظر إلى المعاني ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٦﴾ * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ

ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٤ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٥﴾.

ولما كان ما مضى سببًا عظيمًا للاستبصار والبيان أنكر عليهم بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٦ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ أنه يمهل مكذبيك؛ ليرد من شاء منهم، ويُخرِج من أصلابهم من يعبده ﴿لَكَانَ لِزَامٗا وَ﴾ لولا ﴿أَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٧﴾ ضربه لكل شيء لكان الأمر كذلك أيضًا.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٢٨ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أي: لا تطول نظرهما بعد النظرة الأولى المعفو عنها قاصدًا للاستحسان ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ﴾ أي: تمتيع ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ١٢٩﴾ لا ينفعهم في الآخرة لعدم صرفهم له في أوامر الله.

﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ لأنه يكفي ولا يطغي ﴿وَأَبۡقَىٰ ١٣٠﴾ فإنه وفقك لصرفه في الطاعة فكتب لك من أجره ما توفاه يوم الحاجة. ولما أمر بتزكية النفس أعلم بأن منها تزكية الغير فقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ وإن شغلتك عن بعض أمر المعاش لأنّا ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ فعظمتنا تأبى أن نكلفك أمرًا ولا نكفيك ما يشغلك عنه ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣١﴾.

ولما قدم في هذه السورة ما لم يقدروا على إنكاره عجّب منهم في عدم إذعانهم للحق فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٢﴾. ولما تبين بذلك أنهم يطعنون بما لا شبهة لهم فيه، أتبعه ما كان لهم فيه نوع شبهة لو وقع فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٣ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ فإنكم كالبهائم لا تجوّزون الجائز إلا عند وقوعه ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٤﴾ وقد علموا يوم فتح مكة ودخلوا في الإسلام رغبة ورهبة، وكانوا بعدُ يتعجبون من توقفهم عنه.

وهذا معناه أنه ﷺ ومن اتبعه هم السعداء في الدنيا والآخرة، وهو عين قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ٢] فقد انطبق الآخر على الأول، ودل على أن العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل، والله أعلم.

سورة الأنبياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها؛ لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها، والدال عليه: مجموع قصص الأنبياء عليهم السلام، ولا تستقل قصة منها بجميع ذلك ولا تخلو من دلالة على شيء من ذلك، فنسبت إلى الكل.

لما ختمت طه بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي والسعيد، وكان هذا العلم يحصل بالإيمان أو الموت أو إحلال العذاب أو يوم الحساب، افتُتحت هذه بأجلى ذلك وهو يوم الحساب فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما خُتمت مريم بقوله تعالى: ﴿وتنذر به قومًا لدًا﴾ [آية: ٩٧]، فاقتضى ذلك تأنيسه ﷺ حتى لا يشق عليه لددهم بقصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وآدم عليه السلام وما كابده مع إبليس، فإنه إذا تقرر لديه أنه سنة الله تعالى في عباده، هان عليه لدد قريش ومكابدتهم، ثم ابتدئت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس.

وقد تضمنت إلى ابتداء قصة إبراهيم ما يعقب -لمن اعتبر به-: التسليمَ والتفويضَ لله سبحانه والصبرَ على الابتلاء وهو من مقصود السورة، وفي قوله: ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ [الأنبياء: ٩] الآية، إجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تأييد الرسل عليهم السلام، وهو من لدن قوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده﴾ [الأنبياء: ٥١] إلى آخر السورة، وهو كمال الغرض المتقدم من التأنيس".

ولما أخبر سبحانه عن غفلتهم وإعراضهم، علله بقوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ أي: بالاستهزاء به ووضعه في غير مواضعه واستماعهم له للطعن فيه. ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ ولما ذكر ما يظهرونه في حال الاستماع، ذكر ما يخفونه من التشاور في الصد عنه والتوثق من بعضهم في الثبات على المجانبة له فقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ وأبدل من ضميرهم ما دل على العلة الحاملة لهم على ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ أنه بشر مثلكم، والعجب أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم لما يخص الله به بعض الناس من المواهب.

﴿قُل رَّبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾ وقد أشار إلى هذا في هؤلاء الأنبياء عليهم السلام الذين دل بقصصهم في هذه السورة على ما تقدمها من الأحكام والقضايا ﴿وكنا به عالمين﴾ [الآية: ٥١] ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ [الآية: ٧٨] ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الآية: ١٠٥].

ولما اضطربت أقوالهم في القرآن، وكان الاضطراب من أمارات الباطل، وكان وصفهم له بالسحر ربما أدى السامع إلى الاستبصار في أمره، أخبر أنهم وصفوه بغيره اضطرابًا فقال: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ ولما كانوا يصفونه بجميع هذه الأوصاف، يقولون لكل شخص ما رأوه أنسب له منها، نبه على بطلانها كلها بتناقضها: بحرف الإضراب، إشارة إلى أنه كان يجب عليهم ألا ينتقلوا إلى قول منها إلا بعد الإعراض عن الذي قبله ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ﴾ لأنا قد بينا بطعننا أن القرآن ليس بآية، ثم خيلوا النصفة بقولهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ وهذا تناقض آخر في اعترافهم برسالتهم مع كونهم بشرًا، وإنكارهم رسالته ﷺ لكونه بشرًا.

﴿مَآ ءَامَنَتۡ﴾ أي: بالإجابة إلى الآيات المقترحات، ولما كان المراد استغراق الزمان أسقط الخافض فقال: ﴿قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾.

ثم بين بطلان ما قدحوا به في الرسول ﷺ فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ولما كان السياق لإنكار أن يكون النبي بشرًا، وكان الدهرُ كله ما خلا قط جزء منه من رسالة، إما برسول قائم وإما بتناقل أخباره، كان تعميم الزمان أنسب فقال من غير حرف جر: ﴿قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ وذلك من نعم الله على خلقه؛ لأن جعل الرسل من البشر أمكن للأخذ عنهم، ولما لم يكن لهم طريق في علم هذا إن لم يقبلوه عن القرآن إلا سؤال أهل الكتاب قال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾.

ولما بين أنه على سنة الرسل في كونه رجلًا، بين أنه كذلك في جميع أوصاف البشر فقال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا﴾ أي: ذوي جسد متصفين بأنهم ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ بالخير إن أطعتم والشر إن عصيتم، وشرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه وبشرف نبيكم ﷺ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾.

ولما كان التقدير: فإن قبلتموه شرفناكم، وإن رددتموه أهلكناكم كمن قبلكم، عطف عليه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ وأشار بالقصم الذي هو أفظع الكسر إلى قوتها واجتماعها ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ ولما كان الإنشاء يستغرق الزمان على التعاقب، أسقط الجار بيانًا لأنهم ما ضروا إلا أنفسهم فقال: ﴿بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾ بعد قولهم للرسل: ﴿لنخرجنكم من أرضنا﴾ [إبراهيم: ١٣].

وصور التهكم بهم بأعظم صورة فقال: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال: ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تفتخرون بها بما أتقنتم من بنائها ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ [إبراهيم: ٤٤] ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤﴾ فاعترفوا حيث لم ينفعهم لفوات محله ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجاد، فكان التقدير: فلم نخلق الناس عبثًا يعصوننا ولا يؤاخذون، عطف عليه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ ولما كان خلق سماء واحدة يكفي في الدلالة على الحكمة فكيف بأكثر منها! وكان المكذبون بالبعث لا يتحققون إلا بما يرونه، وحّد فقال: ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ أي: غير مريدين بذلك تحقيق الحقائق وإبطال الأباطيل.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال الأصفهاني: "اللهو: صرف الهم عن النفس بالقبيح"، ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مما يليق أن ينسب إلى حضرتنا بأن يكون محض لهو ولا كدر فيه، وأما ما اتخذتموه لهوًا فإنا خلقناه لغير ذلك بدليل ما فيه من المنغصات، فاتخذتموه أنتم من عند أنفسكم لهوًا، فكان أكثره عليكم شرًا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾ ولكنه لا يليق بجنابنا فلم نفعله ولا نكون فاعلين له.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو هذا الذكر الحكيم الذي أنزلناه جدًا كلّه وثباتًا لا لهو فيه ولا باطل، ولا تقدرون أن تتخذوا شيئًا منه لهوًا اتخاذًا يطابقكم عليه منصف ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ بما تهوى أنفسكم من غير إذن منا. ثم عطف على ما لزم من القذف قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾.

ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بأن يبادروا إلى التوحيد فلم يفعلوا، كانوا حقيقين بالتوبيخ والتهكم فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾ أي: يحيون شيئًا مما فيها حتى يستحقوا بذلك صفة الإلهية، وإفادة السياق الحصر تفيد أنه لو وقع الإنشار لأحد على وجه يجوز مشاركة غيره له لم يستحق العبادة.

ثم أقام البرهان على صحة نفي إله غيره ببرهان التمانع، وهو أشد برهان لأهل الكلام فقال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ لقضاء العادة بالخلاف بين المتكافئين المؤدي للفساد، ولقضاء العقل بإمكان الاختلاف اللازم منه إمكان التمانع اللازم منه إمكان عجز أحدهما اللازم منه أن لا يكون إلهًا، وإذا انتفى الجمع فأولى انتفاء الاثنان ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ أي: لا يعترض عليه لأنه لا كفؤ له ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ لِما في أفعالهم من الاختلال، بل يُمنعون عن أكثر ما يريدون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ ولما كان الكريم سبحانه لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم إليه دليل النقل قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ عنه غفلةً منهم عما يراد بهم وفعلًا باللعب فعل القاصر عن درجة العقل، وبعضهم معاند مع علمه الحق، وبعضهم يعلم فيفهم، كما أفهمه التقييد بالأكثر. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ وترك التصريح بالأمر بالتخصيص بالعبادة لفهمه من المقام والحال، فإنهم كانوا يعبدونه ولكنهم يشركون، تنبيهًا على أن كل عبادة فيها شوب شرك: عدم.

ولما دل على نفي مطلق الشريك، عجب من ادعائهم الشركة المقيدة بالولد فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ أي: تنزه عن أن يكون له ولد فإنه يقتضي المجانسة بينه وبين الوالد، ولا يصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقي ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ فأفهم تعذيبُ مدعي الشرك تعذيبَ أتباعه من باب الأولى.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ أَوَلَمۡ يَرَ﴾ أي: يعلم علمًا هو كالمشاهدة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾

وإنما أنكر عليهم عدم الرؤية؛ لأن انفصال الأجسام عن بعضها بالارتفاع وغيره لا يكون إلا بفعل قادر مختار، لا سيما مع عظم الجرم وعدم العماد، فصح الإنكار عليهم لعملهم بخلاف ما يعلمونه. ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن السقوط ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ الدالة على القدرة والعظمة والتفرد بالإلهية ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ولما ذكر الصارم للأعمار من الليل والنهار قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ ولما كانوا يتربصون به ﷺ ريب المنون، أنكر عليهم بقوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فالمنكر: تقدير خلودهم على تقدير موته، الموجب لإنكار تمنيهم لموته. ولما تم ذلك أنتج قطعًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يفرح أحد ولا يحزن بموت أحد بل يشتغل بما يهمه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما كان الابتلاء على قدر النعم، فكان ﷺ أعظم شيء ابتلوا به؛ لأنه لا نعمة أعظم من النعمة به ولا شيء أظهر من آياته قال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فأظهر الوصف تنبيهًا على أن الكفر يطمس الفكر مطلقًا ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: جعلوك عين ما ليس فيك شيء منه ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قال أبو حيان: "والذكر يكون بالخير والشر، فإذا لم يذكر متعلقه فالقرينة تدل عليه"، ﴿وَهُم﴾ أي: والحال أنهم على حالٍ كانوا بها أصلًا في الهزء ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ولما كان من آيات الأولين التي طلبوها: العذاب، قال معللًا لذلك: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ فإني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم. ولما ذم العجلة قال دالًا عليها: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾. فأجابهم على طريق التهكم بقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ فعُرف بهذا أنها قد أحاطت بهم، ولكنهم لا يعلمون ذلك إلا عند الوقوع لأنه لا أمارة لها قاطعة بتعيين وقتها ولا تأتي بالتدريج كغيرها ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾. وهذا معنى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ فيا شدة أسفهم على صرف أوقات المهلة في لذات أكثرها أكدار.

[ولما رفع الحزن عن قلب رسول الله ﷺ بذكر ما للمكذبين، ذكر الوجه الثاني في دفعه فقال][88]: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ولما كان الأمان عن مثل ذلك لا يكون إلا بشيء يوثق به، سألهم عن ذلك بقوله: ﴿۞قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: يحفظكم ويؤخركم ويكثر رزقكم، ولما استوى بالنسبة إلى قدرته حذرهم وغفلتهم قال: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فهم لا يذكرون فضلًا عن أن يخشوا.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾. ولما لم يصلح هذا سببًا لاجترائهم، أضرب عنه قائلًا: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ﴾ فكان طول سلامتهم غارًا لهم بنا ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: التي أهلها كفار ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ﴾ بقتل بعضهم ورد من بقي عن دينه إلى الإسلام، فهم في نقص وأولياؤنا في زيادة ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ مع مشاهدتهم لذلك أم أولياؤنا؟

ولما تبين الخلف في قولهم وفعلهم على ادعائهم الحكمة والقوة، وثبت أن أقواله الناقضة لها هي من عند الله بما ثبت من استقامة معانيها وإحكامها، قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾. ولما كان المنذَر لا يترك الاستعداد لما ينذَر به إلا إذا كان قويًا على دفعه، بين أنهم على غير ذلك فقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ولما أثبت القدرة على ما افتتحت به السورة من قيام الساعة، وكانت عادة كثير من الناس الجور عند القدرة، بين أنه سبحانه بخلاف ذلك فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ والميزان حقيقي، ووزن الأعمال على صفة يصح وزنها معها بقدرة من لا يعجزه شيء.

ولما تقدم إعراضهم عن هذا الذكر تعللًا بطلب آيات الأولين، وكان كتاب موسى عليه السلام بعد القرآن أعظم الكتب السماوية، وكان أهل الكتاب قد أعرضوا عنه مع ما أتى به من باهر الآيات، وكان الحساب تفصيل الأمور ومقابلة كل منها بما يليق به وذلك هو

---

(٨٨) مفاتيح الغيب ١١/ ٤٤٥، بتصرف.

الفرقان قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾. ثم حثهم على كتابهم الذي هو أشرف منه فقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أنه لو أنكره غيركم لكان ينبغي لكم مناصبته، فكيف يكون الإنكار منكم!

ولما كان إبراهيم عليه السلام أعظم آبائهم، وقد شارك موسى ومحمدًا عليهما السلام بأمور منها إنزال الصحف عليه، قال منبهًا لهم على عماهم بعبادة الأوثان: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل موسى وهارون عليهما السلام ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ بأنه جبلةُ خيرٍ يدوم على الرشد ويترقى فيه إلى أعلى درجاته. وتعليقُ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ على ﴿عالمين﴾ إشارة إلى أن قوله لما كان برضى لنا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم، ولو لم يكن كذلك لمنعناه منه بنصر قومه عليه ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فبأي معنى استحقت منكم هذا الاختصاص، وإنما هي مثال للحي في الصورة وهو أعلى منها بالحياة التي أفاضها الله عليه!

﴿قَالُواْ﴾ مسوين أنفسهم بالبهائم التي تقاد ولا علم لها بما قيدت له: ﴿وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: الذين يقدرون على إقامة الدليل على ما يشهدون به؛ لأنهم لم يشهدوا إلا على ما هو عندهم مثل الشمس، لا كما فعلتم أنتم حين اضطركم السؤال إلى الضلال ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

ولما كانوا في غاية التعظيم لأصنامهم لرسوخهم في الجهل، لم يقع في أوهامهم قط أنه يقدم على ما قال، ولو أقدم فلن يقدر، فشمر تشميرًا يليق بتعليقه اليمين بالاسم الأعظم: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسر وجعل الفأس معه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث وضع الإهانة في غير موضعها، فإن الآلهة حقها الإكرام.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ولم يريدوا تعظيمه مع شهرته وشهرة أبيه وعظمتهما فيهم ليجترئ عليه من لا يعرفه، فنكروه بقولهم: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ

﴿ٱلنَّاسِ﴾ ينظرون إليه نظرًا لا خفاء معه، حتى كأنه ماشٍ على أبصارهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ فيكون ذلك مسوغًا لأخذه بذلك، وهذا عين ما قصده الخليل عليه السلام: أن يبين في هذا المحفل العظيم شديدَ جهلهم.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ﴾ متهكمًا لهم وملزمًا بالحجة: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ غيرةً من أن يُعبد معه من هو دونه، وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ يدل على أنه كان فيهم كبير غيره، وهذا مع كونه تهكمًا بهم: تنبيه على قباحة الشرك، وأنه لا يرضى به إلٰه بل يهلك العابد والمعبود من دونه إن كان قادرًا ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ لكونكم وضعتم العبادة في غير موضعها، وتركتم ما عبدتموه ولا قدرة له بلا حافظ.

ولما كان رجوعهم إلى الضلال بعد هذا الإقرار بعيدًا، عبر بأداته فقال: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولما كانوا في محل ضرورة بسبب تكسير أصنامهم، راجين من ينفعهم في ذلك، قدم النفع فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ لتفعلوا فيه أعظم مما فعل بآلهتكم، واتركوا الجدال فإنه يورث ضد ما تريدون ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

فجمعوا الحطب شهرًا حتى كان كالجبل، وأضرموا فيه النار حتى إن كان الطائر ليمر بها في الجو فيحترق، ثم ألقوه فيها بالمنجنيق فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» ﴿۞قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ بإضراره بالنار وبعد خروجه منها، ولما كان السياق لتحقيق أمر الساعة الذي هو مقصود السورة، وكان الصائر إليها المكذب بها قد خسر خسارة لا جبر لها؛ لفوات محل الاستدراك قال: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ لأن فضيحتهم في الدنيا الموجبة للعذاب في الأخرى كانت بنفس فعلهم الذي كادوه به.

ولما كان إنجاؤه وهو وحده من هذا الأمر العظيم عجيبًا فكيف مع غيره! قال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ فكان ذلك دالًا على قدرتنا لا سيما إعادة الخلق في يوم الحساب ﴿وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: لكل ما يريدونه أو يرادون له أو يراد منهم، وهذا إشارة إلى أن العاصي لا يصلح لشيء وإن

طال عمره واشتد أمره؛ لأن العبرة بالعاقبة. ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ الذي هو العمل المؤسس على العلم بإخبار الملائكة به عنا، ولذا قال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهي شرائع الدين، ولما كانت الصلاة أمها خصها فقال: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ إحسانًا إلى الخلق بما دعت الصلاة إلى الانسلاخ عنه من الدنيا.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ قال أبو حيان: "وكانت سبعًا، عبر عنها بالواحدة لاتفاق أهلها على الفاحشة"، فغمرناها بالماء القذر المنتن الذي جعلناه -مع أنا جعلنا من الماء كل شيء حي- لا يعيش فيه حيوان فضلًا عن أن يتولد منه؛ لِما خامروا من القذر الذي لا ثمرة له ﴿ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ حتى من كان من أهله عليه السلام؛ لأن الكفر قطع بينهما فلم يعد من أهله لاختلاف الدين.

ثم أشار بقصة داود وسليمان عليهما السلام إلى أنه ربما يفضل الابن الأب في أمر، فربما قدم لأجله وإن كان لا يلزم منه تقديمه مطلقًا فقال: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ فإن داود عليه السلام حكم بأن يمتلك صاحب الحرث الغنمَ بما أفسدت.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ فقال: تسلم الغنم لصاحب الكَرْم لينتفع بها، ويعمل صاحبها في الكرم حتى يعود كما كان، فيأخذ حرثه وترد الغنم إلى صاحبها، وهذا أرفق بهما ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ ثم أتبعه من الخوارق ما يشهد لداود عليه السلام بالفضل فقال: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾.

ولو شئنا لجعلنا الحرث أو الغنم يكلمه بصواب الحكم، ولم يذكر ناقة صالح عليه السلام لأنها مقترَحة موجِبة للاستئصال، فلم يناسب ذكرها هنا لِما أشار إليه قوله: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم﴾ [الأنبياء: ١٠] ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ قال البغوي: "قال قتادة: أول من صنع الدروع وسردها وحلقها داود عليه السلام، وكانت من قبل صفائح".

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ ولما كان السياق هنا لبيان الإقدار على الأفعال الهائلة قال: ﴿عَاصِفَةٗ﴾ ولم يذكر هودًا عليه السلام هنا؛ لأن عملها له كان على مقتضى العادة في التدمير وإن كان خارقًا بقوته، والتي لسليمان نافعة مع التكرار ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨٠ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨١﴾.

ولما كانت الإعادة هي المقصودة بالذات في هذه السورة، أتبعهم بمن أعاد له ما كان أعدمه من أهل ومال فقال: ﴿۞وَأَيُّوبَ﴾ وكان الله قد بسط عليه الدنيا فشكر ثم ابتلاه فصبر ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ بتسليطك الشيطان علي في بدني وأهلي ومالي، وقد طمع الآن في ديني بأن زين لامرأته أن تأمره أن يذبح للصنم فإنه يبرأ ثم يتوب، فحلف: ليضربنها إن برأ ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجبها وربَّه بأبلغ صفاتها ولم يصرح، فكان ذلك ألطف في السؤال فهو أجدر بالنوال.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾ فأحيينا أولاده وحشمه ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ﴾ لا يشك الناظر أنها ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ وأن غيرنا لا يقدر عليها ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ ليتأسوا به فيصبروا إذا ابتلوا بالضراء ولا يظنوا أنها لهوانهم، ويشكروا إذا ابتلوا بالسراء لئلا تكون عين شقائهم. ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ لكل ما يرضاه الحكيم منهم.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ لقومه بالهجرة عنهم، ولربه بالخروج عنهم دون الانتظار لإذن خاص منه بالهجرة ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ قال الأصبهاني: "أي: لن نقضي عليه بالعقوبة"، فهو تعبير عن اللازم بالملزوم، قال: "أو: لن نضيق عليه الخروج، من القدر الذي معناه الضيق لا من القدرة، ومنه: ﴿فقدر عليه رزقه﴾ [الفجر: ١٦]".

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزهت عن كل نقص، فلا يقدر على الإنجاء من مثل ما أنا فيه غيرك ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ تصديقًا لظنه أن لن نعاقبه «أنا عند ظن عبدي بي»، والآية تُفهِم أن شرط الكون مع من يظن الخير: دوام الذكر وصدق الالتجاء ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ بالتشديد تنبيهًا على أنهما نعمتان؛ لأن أمره مع

صعوبته كان في غاية الغرابة ﴿مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ ثم أشار إلى قدرته على أمثالها وأن ما فعله من إكرام أنبيائه عام لأتباعهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾.

ولما كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله، عطف عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولدًا من بطن لم يعهد الحمل من مثله، وتكريرًا لأعلام القيامة وتقريرًا للقدرة التامة فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي: من غير ولد يرث ما آتيتني من الحكمة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٨﴾ لأنك أغناهم عن الإرث وأحسنهم تصرفًا، فأنت الحقيق بأن تفعل في إرثي من العلم والحكمة ما أحبه ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٨٩﴾.

ثم تلاه بإبداع ابن خالته عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة على حال أغرب من حاله، فأخرجه من أنثى بلا ذكر، فقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ ولعله أضاف هنا النفخ إليها ليفيد أنه أحياها به بأن قوى معانيها القلبية، وخصت هذه السورة بهذا لأن مقصودها الدلالة على البعث الذي هو إفاضة الأرواح على الأموات، وختم به الأنبياء المذكورين هنا لأنه خاتم المجددين لهذا الدين المحمدي، وهو دليل الساعة، وكتابه أعظم كتاب بعد التوراة التي ابتدأ بصاحبها ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، حاشا القرآن.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الأنبياء الذين أرسلناهم قبل نبيكم ﷺ ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ أي: مقصودكم بالاقتداء في الاهتداء، حال كونها ﴿أُمَّةٗ﴾ قال البغوي: "وأصل الأمة: الجماعة التي هي على مقصد واحد"، ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ لا اختلاف بينهم أصلًا في التوحيد الذي هو الأصل ولا في توجيه الرغبات إلينا وحدنا، علمًا منهم بما لنا من صفات الكمال، فاتبعوهم في ذلك ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ في كل زمان وكل مكان لكل أمة ﴿فَٱعۡبُدُونِ ٩١﴾.

ثم بيّن ما فعلوا بعد هذا الأمر فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي: مخالفة للأمر بالاجتماع، ولما كان ترك العبادة ليس سببًا للتقطع، بل ربما كان عنه الاجتماع على الضلال كما يكون في آخر الزمان عطف بالواو، ولما كان الدين الحق من الجلاء والعظمة والملاءمة للنفوس بحيث لا يجهله ولا يأباه أحد نصح لنفسه، وكانت صيغة التفعّل صريحة في التفرق، وتفيد العلاج

والتكلف عبر بها، ولما كان بعيدًا جدًا أن يقطع الإنسان أمر نفسه قدَّم الأمر فقال: ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٣﴾ ولعله حذف قسيمَيه وهما: ومن يعمل من السيئات وهو كافر فلا نقيم له وزنًا، ومن عمل منها وهو مؤمن ففي مشيئتنا؛ ترغيبًا في الإيمان.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٤﴾ أي: إلينا للحساب، بل نحبسهم في البرزخ منعمين أو معذبين. ودل على ما قدّرته قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٥ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ولما كان من الوضوح في الدلائل والرسوخ في الخواطر بحيث لا يجهله أحد، أضربوا عن الغفلة فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٦﴾ أي: بعدم اعتقاده، واضعين الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله، فأنكرنا ما حقه القبول.

ولما كان هذا محلًا تخطر فيه آلهتهم بما يترجونه منها من النفع، قال معنفًا لهم ومحقرًا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولما كانوا يُرمى بهم في جهنم رميَ الحصباء إسراعًا وإكراهًا فيكونون وقودها قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٧ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٨ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝٩٩﴾.

ولما كان موضع السؤال عمن عبدوهم من الصالحين، قال على وجه يعمهم وغيرهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠٠﴾ وعن ابن عباس أن ابن الزبعرى لما نزلت: ﴿إنكم وما تعبدون﴾ الآية، قال: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، أكل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿ولما ضُرب ابن مريم﴾ [الزخرف: ٥٧] الآية، ثم نزلت هذه، وقد أسلم بعد ذلك ومدح النبي ﷺ.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أي: حركتها البالغة وصوتها الشديد، فكيف بما دونه ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠١ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ فكيف بما دونه ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٢﴾.

وتكون هذه الأشياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾ ولما كان هذا عند من لا يعلم أعظم استبعادًا من إعادة الموتى، قال دالًا عليه مقربًا له: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ

نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ والحاصل أن من أوجد شيئًا لا يبعد عليه التصرف فيه كيفما كان ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٣﴾ أي: شأننا أن نفعل ما نريد، لا كلفة علينا في شيء من ذلك بوجه.

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٤﴾ مع ما سلف من قصص أولئك الأنبياء دلالة على أن العاقبة لمن أرضانا.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾ أي: لأمرًا كافيًا في البلوغ إلى معرفة الحق ﴿لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٥﴾. ولما كان مِن غير العابدين مَن يستعجل العذاب، عطف عليه ما يفهم سبب تأخيره عنهم فقال(٨٩): ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٦﴾.

ولما كان البلاغ الذي رتب هذا لأجله هو التوحيد قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ ولما انضم إلى ما مضى من الأدلة العقلية في أمر الوحدانية هذا الدليل السمعي قال: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٧﴾ ففي الآية أن هذه الوحدانية يصح أن يكون طريقها السمع ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ أي: إيذانًا نستوي فيه نحن وأنتم بإبلاغكم جميع ما أرسلت به من غير غش ولا خفاء ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٨ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١٠٩﴾ ومن لازم ذلك المجازاة عليه.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١٠﴾ [ولما وصف رسالة محمد ﷺ، لوّح هنا إلى عاقبة هذا الدين على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل من قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾ إلى هنا، فقال](٩٠): ﴿قُل رَّبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: بالأمر الذي يحق لكل منا من نصر وخذلان على ما أجريته من سنتك القديمة في أوليائك وأعدائك ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١١﴾.

فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة، وذكر غفلتهم وإعراضهم، وذكر القرآن الذي هو البلاغ، وقام الدليل بالسمع بعد العقل على تحقق أمر الساعة، وفي ذلك أعظم حث على التقوى للنجاة في ذلك اليوم، وهو أول التي تليها، والله الموفق.

(٨٩) أو يقال: لما كان في هذا البلاغ غاية الرحمة وإن شق على النفس كالصبر وغيره، قال: ..، والله أعلم.

(٩٠) التحرير والتنوير ١٧/ ١٧٥، بتصرف.

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها الحث على التقوى لنيل الإنعام في يوم الجمع للفصل، وأنسب ما فيها لذلك الحج وهو ظاهر(٩١)، [وتفصيل الحنيفية التي كان بها أتباع ملة إبراهيم شهداء].

وقال ابن الزبير: "لما تكرر من التهديد والإنذار بالساعة في التي قبلها ما لا تكاد تجد أمثاله في نظائرها، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ الآية، ثم أتبع ببسط الدلالات على البعث".

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: تحركها المزيل للأشياء عن مقارها من النفخ في الصور وبعثرة القبور وما يتبعهما ﴿شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ وهذا للزلزلة نفسها، فكيف بجميع ما يحدث في ذلك اليوم!

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ أي: الزلزلة أو: كل مرضعة، أضمرها قبل الذكر تهويلًا للأمر ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ وهي من ماتت مع ابنها رضيعًا ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ أي: تسقطه قبل التمام رعبًا وفزعًا، وهي من ماتت حاملًا والله أعلم، فإن كل أحد يقوم على ما مات عليه، ويؤيد أن هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رفعه: «يقول الله تعالى يا آدم أخرج بعث النار، من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها»، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾.

ولما حذر من ذلك اليوم، أخبر أن منهم من يكذب وعرّف بمآله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: في قدرته على ذلك اليوم وفي غيره، فيترك اتباع الهداة النصحاء ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ بغاية جهده في جداله ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ أي: متجرد للفساد لا شغل له غيره ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ بما يبغض إليه من الطاعات فيخطئ سبيل الخير ﴿وَيَهۡدِيهِ﴾ بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات، إعلامًا بأنه إن كان له هدى إلى شيء فهو ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾.

---

(٩١) لما فيه من التخلي عن الدنيا وحظوظ النفس، والتحلي ببالغ الذكر والانكسار للرب، والله أعلم.

ثم أقبل عليهم ثانيًا رحمة لهم، منبهًا على أنه ينبغي أن لا يكون عندهم شك في البعث لما عليه من الآيات فقال: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ﴾ بأداة الشك إشارة إلى أن الذي يقتضيه الحال جزمهم به ﴿فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ ولما كان السياق للقدرة على البعث، أثبت «من» للدلالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ وقد عُلم بعود الإنسان في ذهاب العلم وصغر الجسم إلى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق: أن الذي أعاده إلى ذلك قادر على إعادته بعد الممات.

﴿عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم من الأمر بالتقوى والترهيب بالحشر والاستدلال عليه ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

ولما ذكر القسم الأول من المعرضين وهو التابع الضال، ثنّى بالداعي لأهل الضلال فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ ومن المعلوم أنه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله إلا بالباطل. ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: لاويًا عنقه إعراضًا وتكبرًا ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ﴾ وإن طال استدراجه بتنعيمه «حق على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه»، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ كما أحرق قلوب المهتدين بجداله بالباطل.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ۞وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ فهو مزلزل كزلزلة من يكون على حرف شفير ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ أي: من الدنيا ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ﴾ أي: بسببه وثبت على ما هو عليه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: مصيبة ولو قلت ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ لتهيئه للانقلاب بكونه على شفا جرف، فسقط عن ذلك الطرف من الدين سقوطًا لا رجوع بعده ولا حركة له معه، فإن الإنسان مطبوع على المدافعة بكل أعضائه عن وجهه، فلا يوصل إليه إلا بعد نهاية العجز، والمعنى أنه رجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر أو الشك رجوعًا متمكنًا.

ولما كان هذا مفسدًا لآخرته بالوزر، وغير مستدرك له ما فاته من الدنيا قال: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان ذلك المدعو إن فُرض توقع نفعه أو ضره كان خوف ضره أقرب من رجاء نفعه، قدّم الضر فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ وأعاد «ما» ليفيد أن الذم لا يشترط فيه انتفاؤهما معًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه ليس مرجو النفع كما هو مخشي الضر ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ لأنه ليس مأمون الضر فهو غير صالح للعشرة بوجه.

ولما أفهم ما تقدم أنه تعالى قادر على كل من النفع والضر، نبه عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

ولما ذكر العابد على حرف، ترجم عن حاله فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ ممن أصابته فتنة ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فأعرض عنه انقلابًا على وجهه فإنه لا يضر إلا نفسه، وإن ظن أنه لا يضرها ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليبذل جهده في دفع القضاء والقدر عنه، أو يكون المعنى: فليفعل ما يفعله من بلغ منه الغيظ ليختنق، وهذا كما يقال لمن جزع: اضرب برأسك الجدار، مت غيظًا، ونحو ذلك، والحاصل: أنه إن لم يصبر على المصائب لله طوعًا، صبر عليها كرهًا مع ما ناله من أسباب الشقاء ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾. ولما بين هذه الآيات المرئية هذا البيان المعجز حكمه، بين أنه معجز أيضًا بنظمه فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

ولما كان النظر في هذه السورة إلى يوم الجمع، بيّن حال المهتدي والضال ببيان جميع الفرق فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ ثم ختم بأعم الكل في الضلال كما فتح بأعمهم في الهدى فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

قال الحرالي في شرح الأسماء الحسنى: "لا شهادة إلا بخبرة وغنى ممن له اعتدال في نفسه بأن لا يحيف على غيره، فيكون ميزانَ عدلٍ بين كل متداعيين ممن يحيط بخبرة أمرهما ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، وبحسب إحاطة علم الشهيد ترهب شهادته، ولذلك أرهب شهادةٍ شهادةُ الله على خلقه: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله﴾ [الأنعام: ١٩]".

ولما كان عموم الشهادة بحيث يستعظم لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم، قرر ذلك بما هو في معنى العلة فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولما كان السياق مقتضيًا للإبلاغ في صفة القيومية بذكر الفصل بين جميع الفرق أكد بإعادة الموصول فقال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وعبر بما هو للعاقل ليُفهِم خضوع غيره من باب أولى، وأتبعها بما عُبد من دونه فقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ولما كان السجود الممدوح عليه إنما هو الموافق للأمر قال دالًّا على إرادته: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على: فمن يكرم الله بتوفيقه للامتثال فما له من مهين، ولعله طواه وذكر الأول لأن السياق للتهديد وإظهار القدرة وهو في الإهانة أتم ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

ولما قسم الناس إلى ساجد وجاحد، أتبعه جزاءهم على وجه موجب للأمر بالمعروف الذي من جملته الجهاد لوجهه خالصًا فقال: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ لا يمكن منهما المسالمة الكاملة إذ كل منهما في طرف، ولما أشار بالتثنية إلى أن كل فرقة منهم صارت باتحاد الكلمة في العقيدة كالجسد الواحد، صرح بكثرتهم بالتعبير بالجمع فقال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ لم يختصموا بسببٍ غيرِه أصلًا ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ ولما كان السياق لخصومة أولياء الله قال: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ زيادة على ما في السجدة(٩٢)، بشارة لهم ونذارة للأعداء.

﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ في مقابلة ثياب الكفار، كما كان لباس الكفار في الدنيا حريرًا، وذلك أن النبي ﷺ قال: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة» فيوشك لتشبهه بالكفار في لباسهم أن يُلحِقه الله بهم فلا يموت مسلمًا، والله الهادي. ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟﴾ بنى للمفعول إشارة إلى سهولة الهداية لهم، ولذلك لم يذكر العزة مع الحمد فقال: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ وحلوا في الجنة بأشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا بأشرف الطرائق.

(٩٢) في قوله تعالى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها﴾ الآية: ٢٠.

ولما بين ما للفريقين، وتضمن ما للفريق الثاني بيان أعمالهم الدالة على صدق إيمانهم، كرر ذكر الفريق الأول لبيان ما يدل على استمرار كفرهم ويؤكد جزاءهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ووصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ﴾ ولما كان المشروط نوعًا من الإلحاد لا الكامل، عبر بقوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾﴾.

ولما ختم بذكر البيت، أتبعه التذكير بحجه؛ لما فيه من التذكير بالقيامة الحاملة على التقوى التي هي مقصد السورة، بما فيه من الوفادة على الله والخضوع له مع التجرد من المخيط والاجتماع في المشاعر، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المصلين صلاة أهل الإسلام ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٥﴾ لِّيَشْهَدُواْ﴾ ولما كان الإنسان ميالًا إلى الفوائد قال: ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: لا للمعبود، دينية ودنيوية.

ولما كانت المنافع لا تطيب إلا بالتقوى وكان الحامل عليها الذكر قال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ إشارة إلى وجوب الاجتهاد لعلم أن الشهر ذو الحجة، وأما أيام التشريق[٩٣] فإنها لما كانت مبنية على العلم به لم تحتج إلى غير العد ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ فيه حث على الاجتهاد فيه بصيغة التفعل، وعلى الإخلاص بالإخفاء بحسب الطاقة بالإدغام ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ﴾ أي: التعظيم الحامل له على امتثال الأمر فيها على وجهه واجتناب المنهي عنه ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ الذي أسدى إليه كل ما هو فيه من النعم فوجب عليه شكره ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

ولما كان ذلك كله من الزور، أتبعه النهي عن جميعه فقال: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٢٨﴾﴾ وهو الانحراف عن الدليل، كما أن الحنف الميل مع الدليل، ولذلك أتبعه قوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ وإنما كانا كذلك مع اجتماعهما في مطلق الميل؛ لأن الزور تدور مادته على القوة والوعورة، والحنف على الرقة والسهولة ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(٩٣) المذكورة في قوله تعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ البقرة: ٢٠٣.

لعلو ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ قبل أن يصل إلى الأرض ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حيث لم يجد في الهواء ما يهلكه، فيتقطع حال وصوله إلى الأرض بقوة السقطة وشدة الضغطة ﴿فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٢٩﴾.

ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالإشارة بأداة البعد فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: معالم دينه ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: تعظيمها ﴿مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٠﴾ وتعظيمها استحسانها، وقد علم بما ذكرته أنه حذف من هذه جملة الخيرَ، ومن قوله: ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ سببَ كونه خيرًا له وهو التقوى، ودل على إرادته هناك بذكره هنا، وعلى إرادة الخير هنا بذكره هناك. ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ وهذا تعليل للجملة التي قبله، فإن المنافع حاملة على التفكر فيها لا سيما مع تفاوتها، وهو موصل للتقوى بمعرفة أنها من الله ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣١﴾.

ولما كان التقدير: جعل لكم سبحانه هذه الأشياء مناسك، عطف عليه قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ وعلل هذا الجعل بقوله: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ في كل ما أمر به أو نهى عنه وإن لم تفهموا معناه كغالب مناسك الحج ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾.

ولما قدم الحث على التقرب بالأنعام كلها، وكانت الإبل أعظمها خلقًا وأجلها في أنفسهم أمرًا، خصها بالذكر فقال: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ بأن لا تحرّموا منها إلا ما حرم ولا تحلوا إلا ما أحل، وتشهدوا منها ما حث على إهدائه، وتتصرفوا فيها بحسب ما أمركم.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ التي حملت صاحبها على امتثال الأوامر التي هي نهايات لذلك ﴿مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾.

ولما كان ذكر الحج مذكّرًا بمنع المشركين لمن أراد هذه الأفعال على هذه الأحوال الصالحة قال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ وأتى

بالصفتين على صيغة المبالغة؛ لأن نقائص الإنسان لا يمكنه أن يفعلها خالية عن المبالغة؛ لأنه يخون نفسه بالعزم أولًا، وبالفعل ثانيًا، وغيرَه من الخلق ثالثًا، وكذا يخون ربه سبحانه، وهكذا في الكفر وغيره، ولما كانت الخيانة منبع النقائص كانت المبالغة فيها أكثر.

ثم بين كيف تكون المدافعة وبمن، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ وأبلغ في التأكيد لاستبعاد النصرة مع ما للكفار إذ ذاك من الكثرة والقوة، وللمؤمنين من الضعف والقلة فقال: ﴿لَقَدِيرٌ ٣٧﴾.

ثم وصفهم بما يبين مظلوميتهم على وجه يجمعهم ويوثقهم بالله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وفي سوقه مساق الاستثناء وهو منقطع: إشارة إلى أن من أخلص لله آذاه الناس جهدَهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: بتسليط بعضهم على بعض ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ أخرها لتكون بعيدة من الهدم قريبة من الذكر، لأن كل فرقة تريد هدم ما للأخرى فيدفعه الله بمن يريد من عباده، وإذا تأملت ذلك وجدت فيه من الأسرار ما يدق عن الأفكار، فإنه تعالى لما أراد بأكثر الناس الفساد، نصب لهم من الأضداد ما يخفف كثيرًا من العناد ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ﴾ بسبب معتاد أو بغيره، كما وقع في كثير من الفتوحات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٣٨﴾.

ثم وصفهم بما يبين أن قتالهم له لا لهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٣٩﴾ عطفًا على: ولله بادئتها، لكنّ ذكْرَها وطيَّ البادئةِ منبهٌ على أنه تعالى يجعل للشيطان حظًا في البادئة ليتبين الصادق من الكاذب، وأما العاقبة فهي متمحضة له. ولما كان التقدير بعد هذا الترغيب: فإن يؤمنوا بك مكناهم في الأرض، عطف عليه مسليًا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ٤٠ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤١ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ﴾ ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه فكان تكذيبه في غاية من البعد، غير سبحانه الأسلوب تنبيهًا على ذلك فقال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

وعبر عن طول الإملاء بأداة التراخي لزيادة التأسية فقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٢ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ مع بقاء

بنائها وفوران مائها ﴿وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ ٤٣﴾ فخلت القصور من أربابها بعد كثرة التضام في نواديها، وعطلت الآبار من ورادها بعد الازدحام بين رائحها وغاديها.

ولما كان هذا واعظًا لمن له استبصار، أنكر عليهم عدم الاعتبار، فعد أسفارهم التي كانوا يرون فيها هذه القرى عدمًا فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: لعدم الضرر بعماها لمستنيرِ البصيرة ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ لوجود الضرر بعماها المبطل لمنفعة صاحبها وإن كان البصر موجودًا، ولما احتيج في تصوير عماها إلى زيادة تعيين؛ لما تعورف من أن العمى إنما هو للبصر قال: ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٤﴾.

ثم قال معجبًا وموضحًا لعماهم: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٥ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ كظلمكم بالاستعجال وغيره ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٦﴾.

ولما كان الاستعجال بالأفعال لا يطلب من الرسول، وكان الإخبار باستهزائهم وشدة عماهم ربما أفهم الإذن في الإعراض عنهم قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٧ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤٨ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾ أي: أوقعوا السعي ولو مرة واحدة بشبهة من الشبه ونحوها ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِّزِينَ﴾ أي: مقدّرين أنهم يعجزوننا بإخفائهم آياتنا وإضلال الناس عنها بإلقاء الشبه والجدال اتباعًا للشيطان المَريد من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، و﴿معاجزين﴾ أي: مبالغين في فعل ما يلزم منه في زعمهم عجزنا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٤٩﴾ هذا في الآخرة، وسيظهر سبحانه في الدنيا أيضًا عجزهم، بكشف شبههم ومجّ القلوب النيرة لها.

ولما لاح من ذلك أن الشيطان ألقى للكفار شبهًا يعاجزون بها بجدالهم في دين الله، عطف عليه تسلية قولَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا على الناس ما أمره الله به واشتهى في نفسه أن يقبلوه حرصًا منه على إيمانهم ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: ما تلاه واشتهى أن يُقبل، من الشبه والتخيلات ما يتلقفه منه أولياؤه فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيبطله بإيضاح أمره ومج القلوب له، ولما

كان إبطاله تعالى للشبه إبطالًا محكمًا لا يشتبه، عبر بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: يجعلها جلية فيما أريد منها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٠ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ لسفولها عن اللين المعتدل حتى صارت مائية تقبل كل صورة ولا تثبت فيها صورة، وهم أهل النفاق المتلقفون للشبه الملقون لها ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ عن فهم الآيات، وهم المصارحون بالعداوة، قد صارت قلوبهم حجرية فانتقشت فيها الشبه فبعد زوالها.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥١ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بإتقان حججه وإحكام براهينه وضعف شبه المعاجزين ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ لهاديهم، ولكنه أظهر تنبيهًا على سبب العلم فقال: ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ يصلون به إلى معرفة بطلانه.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي: من أجل إلقاء الشيطان وما ألقاه ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٣﴾ كما سعوا بجدلهم في إعقام الآيات.

وقد زالت بحمد الله عن هذه الآية بما قررته: الشكوكَ من قصة الغرانيق وما شاكلها مما يتعالى عنه ذلك الجناب الرفيع، ولم يصح شيء من ذلك كما صرح به الحافظ ابن كثير وغيره، كيف وقد مُنع الشيطان من مثاله ﷺ في المنام كما قال: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»، وقد تولى الله حفظ الذكر الحكيم بحراسة السماوات وغيرها: ﴿وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ [الجن: ٢٧] الآية.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولما كانت إثابته تعالى لأهل طاعته تفضلًا منه، نبه على ذلك بإعراء الخبر عن الفاء السببية فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٤ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وقرن الخبر بالفاء إيذانًا بأنه مسبب عن كفرهم فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٥﴾. ولما كان المشركون يمنعون بهذه الشبه وغيرها كثيرًا من الإيمان، وكانوا لا يتمكنون بها إلا ممن يخالطهم، رغب سبحانه في الهجرة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لم يكن لهم بها غرض آخر.

ولما كان أكثر ما يخاف من الهجرة قتل الأعداء للمهاجر عند تحقق المصارمة، قال معبرًا بأداة التراخي إشارة إلى طول العمر وعلو الرتبة بسبب الهجرة: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ

ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٦ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾ كما أرضوه بخروجهم منه، ولما كان الإنسان محل الخطأ والنسيان، وكان ربما ظن ظان أنه لو علم ما قصروا فيه لغضب عليهم قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٧﴾.

ولما كان الحلم مخيلًا لوجوب العفو عن حقوق العباد، نفى ذلك بقوله إذنًا للمهاجرين فيمن أخرجهم من ديارهم أن يخرجوه من داره ويذيقوه بعض ما توعده الله به من العذاب المهين: ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ ولما كان ما يحصل للمبغي عليه بالكسر عودًا على بدء من الذل والهوان مبعدًا لأن ينجبر، أكد وعده فقال: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ ثم ندب إلى العفو بعد ضمان النصر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٥٨﴾.

ثم ذكر الدليل على هذين الوصفين فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اتصافه بهما ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ لأجل مصالح العباد، المسيء والمحسن ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٥٩﴾. ولما وصف نفسه بتمام القدرة وشمول العلم علله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ ولما لم يتقدم هنا من الدليل على بطلان الأوثان مثل ما ذكره في لقمان، أكد بضمير الفصل فقال: ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٠﴾.

ثم أتبعه دليلًا آخر على ذلك كله بآية مشاهدة قاضية بعلوه وكبره فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦١ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ﴾ أي: بما يحفظ من سرائرهم عن الزيغ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب المناسك، قال الحرالي: "الرأفة ألطف الرحمة، فإنها تحفظ الباطن من إظهار ما يستدعي العفو، وتارة يكون هذا الحفظ بالقوة بنصب الأدلة، وتارة يضم إلى ذلك الفعل بخلق الهداية في القلب، وهذا خاص بمن له بالمنعم نوع وصلة"، ﴿رَّحِيمٞ ٦٣﴾.

ثم أتبع هذه المنن بما هو أكبر منها فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ فلزم منها المنة بما تقدم ذكره من المنافع الدنيوية ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٤﴾.

ولما تقرر له سبحانه تمام القدرة وشمول العلم، بيّن أنه بهاتين الصفتين مكّن لكل قوم ما هم فيه من المناسك التي بها انتظام الحياة، فإن وافقت الأمر الإلهي كانت سببًا للحياة

الأبدية، وإلا كانت سببًا للهلاك الدائم، وهو سبحانه الذي نصب من الشرائع لكل قوم ما يلائمهم فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: شرعًا لاجتماعهم به على خالقهم حيث وافق أمره، ولاجتماعهم على أهوائهم إذا لم يوافقه ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ بما يلقيه الشيطان إليهم من الشبه ليجادلوا به بل أعرض عنهم ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

ولما كانوا أهل لجاج علمه ما يقول لهم بقوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٧﴾﴾ مهددًا لهم بذلك مذكرًا لنفسك بقدرة ربك، قال الرازي في اللوامع: "وينبغي أن يتأدب بهذا كل أحد، فإن أهل الجدل قوم جاوزوا حد العوام بتحذلقهم، ولم يبلغوا درجة الخواص الذين عرفوا الأشياء على ما هي عليه، فالعوام منقادون للشريعة، والخواص يعرفون حقائقها، وأهل الجدل قوم في قلوبهم اضطراب وانزعاج".

ولما كان حفظ ما يقع بينهم على كثرتهم في طول الأزمان أمرًا هائلًا، أتبعه قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي﴾ ولما كان السياق لحفظ أحوال الثقلين للحكم بينهم، وكانوا لا يتجاوزون السماء الدنيا، لم تدع حاجة إلى ذكر أكثر منها فقال: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم قال معجبًا ممن لا تنفعه الموعظة ولا يجوّز الواجب وهو يوجب المحال: ﴿۞وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين وضعوا التعبد في غير موضعه ﴿مِن نَّصِيرٍ ﴿٦٩﴾﴾ لا في مدافعة عنهم ولا في إثبات حجة لمذاهبهم، فنفى نصرةً تبلغ القصد بأن يغلب المنصور عليه، وأما مطلق نصرٍ لا يفيد بما تقدم من شبه الشيطان فلا.

ولما ذكر اعترافهم بما لا يعرف بنقل ولا عقل، ذكر إنكارهم لما لا يصح أن ينكر فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي أردتموه بعباد الله التالين عليكم للآيات وما حصل لكم من الضجر من ذلك؟ ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٠﴾﴾.

ولما أخبر تعالى عن أنه لا حجة لعابدِ غيرِه، أتبعه بأن الحجة قائمة على أن ذلك الغير في غاية الحقارة والعجز فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: للاستنقاذ من الذباب، وهو الأصنام وعابدوها ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧١﴾ أي: الذباب والأصنام، اجتمعوا في الضعف وإن كان الأصنام أضعف.

ولما أنتج هذا جهلهم بالله، عبر عنه بقوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٢ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٣﴾ ولا شك أن قوة الرسول من قوة المرسِل. ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ فلا يفعلون شيئًا إلا بإذنه، فلا يقع في فكرٍ أن المحيطَ علمًا الشاملَ قدرة يكل رسولًا من رسله إلى نفسه فيتكلم بشيء لم يرسله به، ولا أنه يمكّن شيطانًا أو غيره أن يتكلم على لسانه بشيء، بل كل منهم محفوظ في نفسه ﴿وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣، ٤] محفوظ عن تلبيس غيره ﴿وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٤﴾.

ولما أثبت سبحانه أن الملك والأمر له وحده وأنه قد أحكم شرعه وحفظ رسله، فكانت نتيجة ذلك أن يقبل إليه الخلص من الناس، خاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ وعبر عن الصلاة بهذين الركنين؛ لأنهما -لمخالفتهما الهيئات المعتادة- الدالان على الخضوع، فحسن ذلك في السورة التي جمعت جميع الفرق، الذين فيهم من يَستقبح لعتوه بعض الهيئات الدالة على ذل.

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ بنية وبغير نية حتى يكون ذلك لكم عادة فيخف عليكم عمله لله، وهو قريب من «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٥ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ باستفراغ الطاقة في إيقاع كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس، على الوجه الذي أمر به من الحج والغزو وغيرهما، جهادًا يليق بما أفهمته الإضافة إلى ضميره تعالى من الإخلاص والقوة، فإنه يهلك جميع من يصدكم عن شيء منه، وعلله بقوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ أي: ضيق يعتذر به من توانى في الجهاد، أعني: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ وهو أب لبعضهم حقيقة ولبعضهم مجازًا بالاحترام، فيعم الخطاب الجميع.

ثم علل الأمر بحق الجهاد بعلة أخرى فقال: ﴿هُوَ﴾ أي: الله تعالى ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ الكتاب الذي أنزل عليكم بعد تلك الكتب، أي: أن كل أمة سمت نفسها، والله تعالى خصكم باسم الإسلام؛ لتكونوا أشد الأمم انقيادًا لتكونوا خيرهم، وعلل هذا المعنى بقوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ ولما ندبهم لأن يكونوا خير الناس، تسبب عنه قوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصلة ما بينكم وبين ربكم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وصلة ما بينكم وبين إخوانكم ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٦﴾﴾.

فهو ينصركم على كل من يعاديكم، بحيث تتمكنون من إظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها، وهذا نتيجة التقوى، وما قبله من أفعال الطاعة دليلها، فانطبق آخر السورة على أولها، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقصودها اختصاص المؤمنين بالفلاح، واسمها واضح الدلالة على ذلك، وبدأها بما يثمر الاعتصام به سبحانه فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُومِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ﴾ أضيفت إليهم ترغيبًا لهم في حفظها لأنهم المنتفعون بها ﴿خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ قال الرازي: "خشية أن ترد عليهم، وهو خوف ممزوج بتيقظ واستكانة"، قال ابن كثير: "والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين".

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ أي: ما لا يعنيهم، ولما جمع قاعدتي بناء التكاليف: فعل الخشوع وترك اللغو، وكان الإنسان محل العجز والتقصير، فهو لا يكاد يخلو عما لا يعنيه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤﴾.

ولما أشار إلى أن بذل المال على وجهه طهرة، أومأ إلى أن بذل الفرج في غير وجهه نجاسة وحفظه طهرة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥﴾ أي: دائمًا لا يُتبِعونها شهوتَها، وذِكْرها بعد اللغو الداعي إليها وبذل المال الذي هو من أعظم أسبابها: عظيم المناسبة ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

ولما كان من لم يكتف بالحلال مكلفًا نفسه طلب ما يضره، عبر بما يُفهِم العلاج فقال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ بزنى أو لواط أو استمناء ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ لما يورث ذلك من اختلاط الأنساب وانتهاك الأعراض وإتلاف الأموال وإيقاد الشر بين العباد.

ولما كان ذلك من الأمانات العظيمة أتبعه عمومها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ﴾ ولما كان العهد أعظم أمانة تلاها به تنبيهًا على عظمه فقال: ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ ولا يخفى ما في افتتاح هذه الأوصاف واختتامها بالصلاة من التعظيم لها كما قال ﷺ: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»، وهذه الآيات أجمع ما ذكر في وصف المؤمنين ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾.

وقال ابن الزبير: "فصّل في افتتاحها ما أجمل في قوله: ﴿اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير﴾ [الحج: ٧٧] الآية، وأعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع،

وذكر سبعة أضرب من العبادة هي أصول لسائر التكاليف، ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان المأثم جملة ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأتبع هذه العبادات السبع بأطوار سبعة للإنسان، كان كأن قيل: إنما خرجت إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة، وإنما تتخلص منها بالتزام هذه العبادات السبع، ولعل قوله بعدها: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ مما يقرر هذا(٩٤)".

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ﴾ أي: عظيمًا متحركًا خصيمًا مبينًا بعيدًا من الطين جدًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾. ولما كانت إماتة ما صار هكذا بعد القوة العظيمة والإدراك التام من الغرائب، وكان عتو الإنسان على خالقه ومخالفته لأمره نسيانًا لهذا المألوف كالإنكار له، أكد بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ولما قرر قدرته على البعث بخلقهم، أتبعه بخلق ما هو أكبر منهم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي: سماوات لا تتغير عن حالتها التي دبرناها عليها إلى أن نريد، وهذا من قولهم: فلان على طريقة -أي: حالة- واحدة، ومع كون السماوات مطارقة بعضَها، فهي طرق للملائكة يتنزلون فيها بأوامره سبحانه، ولما كان إهمال الشيء بعد إيجاده غفلة عنه، وكان البعث والموت إحداثًا لما لم يكن قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ بل دبرناه تدبيرًا محكمًا ربطناه بأسباب تنشأ عنها مسببات يكون بها صلاحه، فكيف يظن بنا أنا نترك الخلق بعد موتهم سدى، مع أن فيهم المطيع الذي لم نوفه ثوابه، والعاصي الذي لم ننزل به عقابه!

ثم دل على الختام بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ﴾ لعله والله أعلم: بقدر ما يسقي ويحيي، إذ لو كان فوق ذلك لأغرقت البحار الأقطار، ولو كان دون ذلك لأدى إلى الجفاف ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وسبب عنه الدليل الأقرب على البعث فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ سمى الأول باسم شجرته

(٩٤) لعله يريد أن روح المؤمن تصعد فيها إذا مات، وروح الكافر الذي لم يفعل هذه العبادات لا تُفتَّح لها أبواب السماء، أو أن الملائكة يقطعونها نزولًا وعروجًا يشهدون أعمال العباد، والله أعلم.

لكثرة ما فيهما من المنافع المقصودة، بخلاف الثاني فإنه المقصود من شجرته ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم﴾.

ولما لم يذكر اللبن، أنث الضمير ليُعلم أنه المراد فقال: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

ولما ثبت أمر البعث، شرع يهدد من استكبر عنه بإهلاك الماضين، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام لأنه أول، ولأن نجاته كانت في الفلك المختوم به الآية التي قبلها، وفي ذلك تذكير بنعمة النجاة فيه لأن الكل من نسله، ودلالة على أن الفلاح مخصوص بالمؤمنين كما ذكر أول السورة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ ولما كان أهل الإيمان كلهم إذ ذاك قبيلة واحدة لاجتماعهم في لسان واحد، قدم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ لتكونوا أتباعًا له ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥﴾.

ولما أيس من فلاحهم ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ولما كان يخاف من أذاهم له في عمله بالإفساد وغيره قال: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧﴾ ونحن نكرمك عن سؤالٍ لا يُقبل.

ولما قدم ذلك أتبعه الأمر بالشكر فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨﴾ ولما أشار له بهذا القول إلى السلامة بالحمل، أتبعه الإشارة إلى الوعد بإسكان الأرض فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾.

ثم حث على تدبر القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ على صدق الأنبياء وفلاح المؤمنين وأنهم الوارثون للأرض بعد الظالمين وإن عظمت شوكتهم ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠﴾ لعبادنا بإرسال الرسل، وللصالحين منهم بما يعلي درجاتهم، ثم نجعل لهم العاقبة فنبتلي بهم الظالمين بما يوجب دمارهم، هذه عادتنا إلى أن نرث الأرض ومن عليها فيكون البلاء المبين.

ولما بين تكذيبهم وعذابهم، وكان القياس موجبًا لأن من يأتي بعدهم يخشى مثل مصرعهم فيخالف سبيلهم، بين أنه لم يعتبروا فارتكبوا مثل أحوالهم بل زادوا عليها، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ۞وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف، ولما كانت القبائل تفرقت بتفرق الألسن قدم قوله: ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ ولأنه لو أخر لكان بعد تمام الصلة وهي طويلة.

ولما كان الشرف لازمًا للترف لكونه حاملًا على البطر والتكبر حتى على المنعم، وكان إهلاك المترفين أدل على تخصيص المؤمنين بالفلاح، اقتصر على ذكرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يخاطبون أتباعهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم صرحوا بما دل عليه الكلام من استبعادهم ذلك فقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا﴾ وألهبوه على ترك مثل ما خاطبهم به بقولهم: ﴿رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والرجل لا ينبغي له مثل ذلك، أو: هو واحد فلا يلتفت إليه ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ على تخلفهم عن اتباعك.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ وأبهمهم ليصح تنزيل قصتهم على كل من ادعي فيهم الإتراف من الكفرة، ويترجح إرادة عاد لما أعطوا مع ذلك من قوة الأبدان، وبذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما، وإرادة ثمود لما في الشعراء والقمر مما يشابه بعض قولهم هنا، ولموافقتهم لقوم نوح في تعليل ردهم بكونه بشرًا، وللتعبير عن عذابهم بالصيحة، ويمكن أن تكون صيحة جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود، أو مجازًا عن العذاب الهائل.

وطوى الإخبار عمن بعدهم بغير التكذيب والإهلاك لعدم الحاجة إلى ذكر شيء غيره فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك، فدل أخذنا لهم وإنجاء الرسل ومن صدقهم والمخالفة بينهم في نوع العذاب: أنا نحن

الفاعلون بهم ذلك باختيارنا لا الدهر، وأنا ما فعلنا ذلك إلا بسبب التكذيب ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولما كان آل فرعون أترف أهل زمانهم وأقواهم، وكان قد نقل إلينا من آيات رسولهم ما لم ينقل إلينا مثله لمن تقدمه، صرح سبحانه بهم، وكأن الرسالة إليهم كانت بعد فترة طويلة، فدل عليها بحرف التراخي فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ ﴿٤٥﴾ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: فنحن أعلى منهما بهذا. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ولم تغن عنهم قوتهم شيئًا، ولا ضر بني إسرائيل ضعفهم وصَغارهم. ثم حكى ما كان من أمرهم بعد نصرهم فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾﴾ قال ابن كثير: "وبعد أن أنزل التوراة لم تهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين".

ولما كانوا قد كذبوا لاستبعادهم لأن يكون الرسل بشرًا، وكان من بني إسرائيل من اتخذ عيسى ﷺ -مع كونه بشرًا- إلهًا، عجب من حالهم فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ لما قصد ملوك الشام إهلاكهما ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: منبسط صالح للقرار ﴿وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: ماء ظاهر للعين، فأنجح الله أمره وأمر من اتبعه وخيب الكافرين.

ثم قال مخاطبًا لجميعهم بعد إهلاك من عاندهم من قومهم على وجه يشمل ما قبل ذلك، ردًا لمن جعله موجبًا لإنكار الرسالة، وتبكيتًا لمن ابتدع الرهبانية من أمة عيسى عليه السلام: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟﴾ ولما علو عن رتبة الناس فلم يكونوا أرضيين، لم يقل ﴿مما في الأرض﴾ [البقرة: ١٦٨] وعن رتبة الذين آمنوا، لم يقل ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ١٧٢] ليكونوا عابدين نظرًا إلى النعمة أو حذرًا من النقمة بل قال: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الكاملة، ودل سبحانه على أن الحلال عون على الطاعة بقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: دعوتكم أيها الأنبياء وملتكم المجتمعة على التوحيد، أو: الجماعة التي أنجيتها معكم من المؤمنين.

﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: مقصدكم الذي ينبغي ألا تلتفتوا إلى غيره، أو جماعة أتباعكم حال كونها ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فما دامت كذلك فهي مرضية ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي: المحسن إليكم بالخلق والرزق وحدي، فمن وحدني نجا، ومن كثر الأرباب هلك، ولما كان الخطاب في هذه

السورة للخلص قال: ﴿فَاتَّقُونِ ۝٥٣﴾ بالدعاء إلى وحدانيتي بلا فرقة أصلًا، بخلاف سورة الأنبياء المصدرة بالناس فإن مطلق العبادة أولى بدعوتها(٩٥).

ولما كان التقدير: فاتقى الأنبياء الله فدعوا العباد إليه وأرادوا جمعهم عليه، عطف عليه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي: الأمم، وإنما أضمرهم لوضوح إرادتهم؛ لأنه صرح بأن الأنبياء وأتباعهم أمة واحدة لا اختلاف بينها، فعلم أن الضمير للأمم ومن بعدهم ﴿أَمْرَهُم﴾ في الدين بعد أن كان مجتمعًا متصلًا ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ﴾ أي: قطعًا كل قطعة منها في غاية القوة والاجتماع والثبات على هواها، ولم يرحموا أنفسهم بما دعتهم إليه الهداة من الاجتماع والألفة، فأهلكوها بالبغضاء والفرقة ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من ضلال وهدى ﴿فَرِحُونَ ۝٥٤﴾ غيرُ معرِّجٍ الضالُّ على ما جاءه من الهدى، ولا معتبر بما أصاب المكذبين من الردى.

ولما أنتج هذا أن الضلال وإن وضح لا يكشفه إلا ذو الجلال قال: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٥﴾. ولما كان الموجب لغرورهم ظنهم أن حالهم في بسط الأرزاق حال الموعود لا المتوعد قال: ﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٦ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٧﴾ أنه استدراج إلى الهلاك.

ولما ذكر أهل الافتراق أتبعهم أهل الاتفاق، مبينًا من الذي تكون له الخيرات فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لا ما كان من جهة غيره ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٦٠ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ لأنهم عالمون بأنهم لا يقدرون الله حق قدره وإن اجتهدوا، ثم علل ذلك بقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦١ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا﴾ عبر باللام إشارة إلى زيادة القرب منها ﴿سَٰبِقُونَ ۝٦٢﴾ لأنا نحن نسارع لهم في المسببات أعظم من مسارعتهم في الأسباب.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٣﴾ فلا يقدر عاص أن يقول: كنت غير قادر على الطاعة، ولا يظن بنا مؤمن أنا نؤاخذه بالزلة والهفوة.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: الذي أخبرنا به من الكتاب فهم به كافرون ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مبتدئة من أدنى رتبة التكذيب من سائر المعاصي؛ لأجل

---

(٩٥) يعني قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ الآية: ٩٢.

تكذيبهم بالكتاب المستلزم لتكذيبهم بالبعث المستلزم لعدم الخوف المستلزم للإقدام على كل سوء ﴿هُمۡ لَهَا﴾ أي: دائمًا ﴿عَٰمِلُونَ ٦٤﴾ لا يكفهم إلا عجزهم عنها. ولما كانوا كالبهائم لا يخافون من المهلكة إلا عند المشاهدة، غيَّى عملهم للخبائث بالأخذ فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٥ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٦﴾ ومن عدم نصرنا لم يجد له ناصرًا، فلا فائدة لجؤاره إلا إظهار الجزع.

ثم علل عدم نصره لهم بقوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي﴾ ولما كانت عظمتها التي استحقت بها الإضافة إليه تكفي في الحث على الإيمان بمجرد سماعها، بنى للمفعول قوله: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٧ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا﴾ أي: متحدِّثًا في الآيات حديثًا كثيرًا كحديث المسامر الذي من شأنه أن لا يمل ﴿تَهۡجُرُونَ ٦٨﴾ أي: تفحشون القول فيها، وأفرد الأول لأن كلًّا منهم يتحدث في أمر الآيات مجتمعًا مع غيره ومنفردًا، وجمع الثاني لأن بعضهم كان يستمعها ولم يكن يفحش القول فيها، أو تعجيبًا من أن يجتمع جمع على مثل ذلك؛ لأن الجمع جدير بأن يوجد فيه من يبصر الحق فيأمر به.

[ولما وصف حالهم، رد عليهم بأن إقدامهم على هذه الأمور لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة، فقال](٩٦): ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ بأن ينظروا في أدباره وعواقبه ولو لم يبلغوا في نظرهم الغاية، بما أشار إليه الإدغام؛ ليعلموا أنه موجب للإقبال والوصف بأحسن المقال ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٩ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٧٠﴾ وفيه غاية التوبيخ لهم بأنهم يعرفون أنه أصدق الخلق وأعلاهم في كل معنى جميل ثم يكذبونه. ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بعد تدبر ما أتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ﴾ إنما فعلوا ذلك لأنه ﷺ ﴿جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧١﴾ متابعة للأهواء؛ عنادًا أو جهلًا وتقليدًا أو خوفًا من أن يقال: صبأ.

ولما كان ربما قيل: ما له ما كان بحسب أهوائهم فيتبعونه ويستريحون من المخالفات التي جرت إلى المشاحنات؟ قال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي: شهواتهم التي تهوي بهم ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على علوها وإحكامها ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ على كثافتها وانتظامها ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ على كثرتهم وقوتهم، بسبب اختلاف أهوائهم واضطرابها المفضي إلى النزاع، كما

---

(٩٦) مفاتيح الغيب ١٢/ ١٠٩.

ترى من الفساد عند اتباع بعض الأغراض في بعض الأزمان، ولكنا لم نُتبِعه أهواءهم ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ وهو الكتاب الحكيم، ففيه صلاح العالم وتمام انتظامه ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ٧١﴾.

ثم نبه على وجه آخر من وجوه طعنهم هم أعرف الناس ببطلانه فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢ وَإِنَّكَ﴾ مع انتفاء هذه المطاعن كلها ﴿لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾ أي: متنحون منحرفون في سائر أحوالهم، سائرون على غير منهج أصلًا، لأنه يجوز أن يراد مطلق الصراط، وأن يراد النكرة الموصوفة بالاستقامة.

ولما كان ربما قيل: إن جؤارهم المتقدم سلوك في الصراط، بين أنه لا اعتداد به لعروضه فقال: ﴿۞وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: "كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبدًا".

ثم أتبع هذا الدليل تأييدًا له ما يدل على أنهم لا يسلكون الصراط إلا اضطرارًا فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ ليكرموا مقام العبودية تاركين حظوظ أنفسهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٧﴾. ولما كان التذكير بالعذاب أقرب إلى الإياب، خاطبهم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٨٠﴾.

[ولما أوضح القول في دلائل التوحيد، عقَّبه بذكر المعاد فقال][٩٧]: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ ولما كان محط العناية في هذه السورة الخلق والإيجاد والتهديد لأهل العناد، قدم قولهم: ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ بخلاف النمل، فإن محط العناية فيها الإيمان بالآخرة فلذلك قدم قوله «هذا» ﴿مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨٣﴾.

(٩٧) مفاتيح الغيب ١٢/ ١١٣.

ولما أنكروا البعث، قررهم بأشياء يلزمهم بتسليمها الإقرار بالبعث فقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: فكيف بعد إقراركم بهذا كله تصرفون عن الحق كما يصرف المسحور!

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩١﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ بالتصرف فيه وحده ليتميز ما له مما لغيره ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ إذا تخالفت أوامرهم، فلم يرض أحد منهم أن يضاف ما خلقه إلى غيره، ولا أن يمضي فيه أمر على غير مراده كما هو مقتضى العادة، فلا يكون المغلوب إلهًا لعجزه، ولا يكون مجيرًا غير مجار عليه، بيده وحده ملكوت كل شيء.

وفي ذلك إشارة إلى أنه لو لم يكن ذلك الاختلاف لأمكن أن يكون، فكان إمكانه كافيًا في إبطال الشركة لما يلزم ذلك من إمكان العجز المنافي للإلهية ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩٢﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ولما أثبت كذبهم وهددهم بما أنزله بالماضين، ولم يكن بعد الإعذار إلا إنزال البلاء، أمره أن يتعوذ منه فقال: ﴿۞قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٦﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾﴾ فلو شئنا منعناهم منه أو عاجلناهم بالعذاب، وأما أنت فافعل ما أمرناك واصبر. ولما كان الصبر عليه لا يطاق إلا به تعالى، أمره بالدعاء بذلك فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٨﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٩﴾﴾.

ولما كان أضر أوقات حضورهم ساعة الموت، عقّب بذكره تنبيهًا على بذل الجهد في الدعاء للعصمة فيه، أو أنه معطوف على ما تقديره: فلا أكون من المطيعين لهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿١٠٠﴾﴾ قال ابن كثير: "كان العلاء بن زياد يقول: لِيُنزلن أحدُكم نفسَه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعته".

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠١﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ﴾ وهي أعظم الأسباب ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يذكرونها

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ لما دهمهم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ أي: في التناصر لأنه انكشف لهم أن لا حكم إلا الله، فتسبب عنه أنه لا نصرة إلا بالأعمال التي رحم الله بالتيسير لها ثم رحم بقبولها.

فلذلك قال: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ أي: متقلصو الشفاه عن الأسنان مع عبوسة الوجوه وتجعدها وتقطبها، شغل من هو ممتلئ الباطن كراهية لما دهمه من شدة المعاناة، ولا يناقض نفي التساؤل هنا إثباته في غيره؛ لأنه في غير تناصر بل في التلاوم والتخاصم، على أن المقامات في ذلك اليوم طويلة وكثيرة، فالمقالات والأحوال لأجل ذلك متباينة وكثيرة.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ﴾ بتشاغلكم بالاستهزاء بهم واستعبادهم ﴿ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على عبادتي ولم يشغلهم عنها تألمهم بأذاكم كما شغلكم عنها التذاذكم بإهانتهم ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾.

﴿قَٰلَ﴾ تأسيفًا على ما أضاعوا من عبادة يسيرة تورثهم سعادة لا انقضاء لها، وارتكبوا من لذة قليلة أعقبتهم بؤسًا لا آخر له ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ﴾ استقصارًا له في جنب ما رأوا من العذاب ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ في ذلك الوقت، لَمَا آثرتم الفاني على الباقي، ولأقبلتم على ما ينفعكم. ولما كان حالهم في ظنهم أن لا بعث حال من يظن العبث على الله الملك الحق المبين قال: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ثم وصفه بما ينافي العبث فقال: ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ أي: المحيط بأهل مملكته علمًا وقدرة ورعاية ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: الذي لا تطرق للباطل إليه في شيء من ذاته ولا صفاته، فلا زوال له ولا لملكه، فأنى يأتيه العبث! ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ومن يكون كذلك يكون حائزًا لجميع أوصاف الكمال متعاليًا عن سمات النقص، والعبث من أدنى صفات النقص؛ لخلوه عن الحكمة التي هي أساس الكمال ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ ولما كان في سياق

الحكم بالعدل والتنزه عن العبث -بخلاف سياق براءة والنمل فإنه للقهر والجبروت- وصفه بقوله: ﴿ٱلۡكَرِيمِ ١١٧﴾ قال القزاز: "وأصل الكرم في اللغة: الفضل والرفعة".

ولما كان التقدير [بعد ذلك البيان]: فمن دعا الله وحده فأولئك هم المفلحون الوارثون في الدارين، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ﴾ ولما كان المراد ما يسمى برهانًا ولو على أدنى الوجوه الكافية، عبر بالباء دون «على» المفهمة للاستعلاء بغاية البيان فقال: ﴿بِهِۦ﴾ أي: بسبب دعائه، بل البراهين كلها قائمة على نفيه ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٨﴾.

فصار أول السورة وآخرها مفهمًا لأن الفلاح مختص به المؤمنون، ولذلك أمر نبيه ﷺ بإنقاذ عباده حتى بالدعاء، أو عطف على ما تقديره: فأخلص العبادة له ﴿وَقُل﴾ لأن أحدًا لا يقدره حق قدره ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٩﴾.

فمَن رحِمته أفلح بما توفقه له من امتثال ما أشرت إليه أول السورة فكان من المؤمنين، فقد انطبق على الأول هذا الآخر بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر.

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها مدلول اسمها، المراد منه أنه تعالى شامل العلم، اللازم منه تمام القدرة، اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة، اللازم منه شرف النبي ﷺ ومن اختاره لصحبته، اللازم منه شرف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها(٩٨).

لما تقدم في التي قبلها تحريم الزنى والحث على الصيانة، ابتدأ سبحانه هذه بأنه منَّ على المخاطبين ببيان ما خُلقوا له من الأحكام؛ لأنهم لم يخلقوا سدى بل لتكاليف تعبّدهم بها ترفع التنازع وتحسم مادة الشر، فتوجب الرحمة والعطف.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ بما ترون فيها من الحِكَم أن الذي نصبها لكم وفصلها لا يترككم سدى، فتقبلوا على أوامره وتنتهوا عن زواجره، ليغفر لكم ما قصرتم فيه، وينيلكم ما لا وصول لكم إليه إلا برحمته، وتتذكروا بما يبين لكم من الأمور التي سترتها ظلمات الأهوية ما جبل عليه الآدميون، فتعلموا أن الذي تحبون أن يفعل معكم يحب غيركم أن تفعلوه معه، والذي تكرهونه من ذلك يكرهه، فيكون ذلك حاملًا على النصفة المورثة للألفة.

وقال الإمام ابن الزبير: "لما قال تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ [المؤمنون: ٧] استدعى الكلام بيان حكم العادي في ذلك ولم يبيَّن فيها، فأوضحه في سورة النور فقال: ﴿الزانية والزاني﴾ الآية، ثم أتبع ذلك من الأحكام ما تبرأ ذمة المؤمن بالتزام ما أمر الله فيه منها، والوقوف عندما حده تعالى من أن يكون من العادين".

ولما كان مبنى هذه الدار على الأنساب في التوارث والإمامة والنكاح وغير ذلك، ومبنى تلك الدار على الأعمال لقوله تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، حذّر رحمةً منه في أول هذه من لبس الأنساب فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ وقدمها لأن أثر الزنى يبدو عليها، ولأنها أصل الفتنة بهتك ما أُمرت به من حجاب التستر والتحذر ﴿وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ

---

(٩٨) أو يقال: "مقصودها العفاف وتعليم أخلاق الخلطة بين الناس، وسميت بالنور لما فيها من البيان والتفصيل الذي لم يُعهد في غيرها، ولذا تكرر فيها ذكر الآيات المبينات التي هي كالنور، ولأنها كانت كالنور الذي أضاء المدينة بعد أن أظلمت بالإفك" (مقاصد سورة النور، أحمد السيد، بتصرف).

﴿مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ إذا لم يكن محصنًا ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ ولعله عبر بها إعلامًا بأنه لم ينه عن مطلق الرحمة؛ لأن الرأفة أشد الرحمة أو أرقها، وتكون عن أسباب من المرؤوف به ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن الممنوع ما يؤدي إلى التهاون بالحد أو الرضى عن منتهكه، لا رقة القلب الطبعية.

ولما علم سبحانه ما طبع عليه عباده من رحمة بعضهم لبعض فحث على هذا الحكم بالأمر والنهي، زاد في الحض عليه بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ ولما كانت الفضيحة أعظم عند بعض الناس من ضرب السيف فضلًا عن السوط قال: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ وفي كل هذا إشارة ظاهرة إلى أن إقامة الحدود والغلظة فيها من رحمته سبحانه المشار إليها بقوله: ﴿وأنت خير الراحمين﴾ [المؤمنون: ١١٨].

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ وذلك محرم، فهذا تنفير للمسلمة أن من نكحت زانيًا فهي مثله أو شر منه، وكذا المسلم إن نكح زانية فهو مثلها أو شر منها، وأسند النكاح في الموضعين إلى الرجل تنبيهًا إلى أن النساء لا يباشرن العقد ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاح الزاني والزانية ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

ثم إن هذا الحكم نُسخ، قال الشافعي: "أخبرنا سفيان عن يحي بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: هي منسوخة نسختها ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ [النور: ٣٢] فهي من أيامى المسلمين، فهذا كما قال إن شاء الله تعالى وعليه دلائل من الكتاب والسنة، منها: أنه لا خلاف في أن الزانية إن كانت مشركة فهي محرمة على زناة المسلمين وغير زناتهم، وإن كانت مسلمة فهي بالإسلام محرمة على جميع المشركين بكل نكاح، ولم نعلم رسول الله ﷺ حرم على زانية أو زانٍ أن ينكحا غير زانية ولا زان، فالاختيار للرجل أن لا ينكح زانية وللمرأة أن لا تنكح زانيًا، فإن فعلا فليس بحرام، فإن المعصية لا تحرم الحلال، إلا أن يختلف ديناهما".

وقد علم أنه لم يرد أن هذا الحكم نسخ بآية الأيامى فقط، وكان التحريم في أول الإسلام لئلا يغلب حال المفسد على المصلح فيختل بعض الأمر، وهو من وادي قوله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، فلما ضرب الدين بجرانه ولم يخش وهي شيء من بنيانه، نسخت الحرمة وبقيت الكراهة أو خلاف الأولى، والله الموفق.

ثم عطف على ذلك تحريم القذف، بما يوجب تعظيم الرغبة في صيانة الأعراض وإخفاء الفواحش فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ وخص الإناث وإن كان الحكم عامًا، تنبيهًا على عظيم حق أم المؤمنين رضي الله عنها ولأن الكلام في حقهن أشنع ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ إن كانوا أحرارًا، وحد العبد نصف ذلك؛ لآية النساء ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ [الآية: ٢٥] فهذه مخصوصة بتلك، إذ لا فرق بين الذكر والأنثى ولا بين حد الزنى والقذف ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ للحكم بافترائهم، ومن ثبت افتراؤه سقط الوثوق بكلامه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ فيسقط عنهم الفسق ورد الشهادة لا الجلد؛ لأن من تمام التوبة الاستسلام للحد والاستحلال منه، ولأنه حق آدمي وهو لا يسقط بالتوبة ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾.

ولما كان حد القذف عامًا أخرج الزوجات بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ وهو أبلغ من اللعن الذي هو الطرد؛ لأنه قد يكون بسبب غير الغضب، وسبب التغليظ عليها: الحث على اعترافها بالحق؛ لما يعضد الزوج من قرينة أنه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته إلا وهو صادق، ولأن بها تختلط الأنساب ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾.

ولما حرم الله سبحانه بهذه الجمل الأعراض والأنساب، فصان بذلك الدماء والأموال قال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ يُحكِم الأمور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الأمور: لَفضَح كل عاصٍ ولم يوجب أربعة شهداء سترًا لكم، ولَأمر بعقوبته بما توجبه معصيته ففسد نظامكم، ونحو ذلك مما لا يبلغ وصفه.

ثم علل ما اقتضته ﴿لولا﴾ بقوله لِما عُرف من رغبة كثير من المؤمنين إرادةَ ضرب أعناق الآفكين، منبهًا لهم على أن ذلك يجر إلى مفسدة كبيرة: ﴿۞إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: أسوأ الكذب؛ لأنه القول المصروف عن مدلوله إلى ضده، المقلوب عن وجهه إلى قفاه، وترك تسمية أم المؤمنين رضي الله عنها تنزيهًا لها عن هذا المقام ﴿عُصۡبَةٞ﴾ يحمى بعضهم لبعض

فيشتد أمرهم، لأن مدار المادة على الشدة، وهم مع ذلك ﴿مِّنكُمۡۚ﴾ أي: ممن يعد عندكم في عداد المسلمين، فلو فضحهم الله وأمركم أن تعاقبوهم بما يستحقون لفسدت ذات البين، ثم قال للخلص وخصوصًا النبي ﷺ وعائشة وأبواها وصفوان رضي الله عنهم:

﴿لَا تَحۡسِبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ بثبوت البراءة الموجبة للفخر الذي لا يُلحق، بتلاوتها على مر الدهور، مع الثواب بالصبر، وثبوت إعجاز القرآن بصدقه في صيانة من أثنى عليها في ذلك إلى أن ماتت رضي الله عنها إلى غير ذلك.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ صيغة الافتعال تستعمل في الذنب إشارة إلى أن الإثم يرتب على ما فيه عزم قوي صدَّقه العمل، وتجرد في الخير إشارة إلى أن الثواب يكتب بمجرد فعل الخير بل ونيته ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ أي: معظمه بإشاعته ﴿مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١﴾ أعظم من الباقين؛ لأن عليه أوزار ما قالوا، والله قادر على تكذيبهم عند أول الخوض فيه، ولكنه أراد لناس رفعة ولآخرين الهلاك.

وقد ذكروا حسان رضي الله عنه فيمن تكلم، وأنا والله لا أظن به أصلًا وإن جاءت تسميته في الصحيح، فقد يخطىء الثقة لأسباب لا تحصى، وكيف يظن به ذلك وقد شهد رسول الله ﷺ أن جبريل عليه السلام معه، وهو القائل يمدح عائشة رضي الله عنها ويكذِّب من نقل عنه ذلك:

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ	وتُصبِحُ غَرْثى مِن لحوم الغِوافِلِ
مُهذَّبةٌ قد طيَّبَ اللهُ خيمَها	وطهَّرها مِن كلِّ شَيْنٍ وباطِلِ
فإن كان ما بُلِّغتِ عنِّيَ قلتُه	فلا رفعَتْ سَوطِي إليَّ أنامِلي
وكَيفَ ووُدِّي ما حييتُ ونُصْرَتي	لِآلِ رسولِ اللهِ زَينِ المَحافِلِ

قال ابن عبد البر: "وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الإفك وجُلد فيه، ورووا عن عائشة رضي الله عنها أنها برأته من ذلك". قالت عائشة: "فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فو الله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي".

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُومِنُونَ وَٱلۡمُومِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ وهم دون من كذب عليها فقطعوا ببراءتها، أو: بإخوانهم؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد، وقد عمل أبو أيوب الأنصاري

وصاحبته رضي الله عنهما بهذه الآية إذ قالت له: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك كذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة خير منك ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ أي: واضح في نفسه، فإن إتيان صفوان بها على جمله في نحر الظهيرة ورسول الله ﷺ بين أظهرهم يوحى إليه، إدلالًا بحسن عمله غافلًا عما يظن به أهل الريب، أدل دليل على البراءة وكذب القاذفين، ولو كان هناك أدنى ريبة لجاء كل منهما وحده متسترًا مع ذعر تعرف به خيانته، فالأمور تذاق، ولا يظن الإنسان بالناس إلا ما في نفسه.

﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ ثم بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ بعضكم حقيقة وبعضكم مجازًا بعدم الإنكار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾. ثم بين وقت حلوله بقوله: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم﴾ وهو تصوير لمزيد قبحه، وإشارة إلى أنه قول لا حقيقة له فلا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل ﴿مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ أي: في حد ذاته، فكيف وهو في جناب زوج خاتم النبيين رضي الله عنها!

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ﴾ حقيقة بالنطق ولا مجازًا بالسكوت عن الإنكار ﴿بِهَٰذَا﴾ أي: بمثله في حق أدنى الناس، فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة نبيه ﷺ! ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ﴾ أي: كذب يبهت من يواجه به لشدة ما يفعل في القوى الباطنة؛ لأنه في غاية الغفلة عنه لشدة بعده منه، فالذي ينبغي للإنسان أولًا ألا يظن بإخوانه المؤمنين ولا يُسمِع فيهم إلا خيرًا، فإن غلبه الشيطان وارتسم شيء من ذلك في ذهنه فلا يتكلم به، وليبادر إلى تكذيبه ﴿عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧﴾ فإن عدتم فأنتم غير صادقين في دعواكم الإيمان.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فثقوا ببيانه ﴿حَكِيمٌ ١٨﴾ لا يضع شيئًا إلا في أحكم مواضعه وإن دق عليكم فهم ذلك، فلا تتوقفوا في أمر من أوامره.

ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ عبر بالحب إشارة إلى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محب له، ولا يحبه إلا بعيد عن

الاستقامة ﴿أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ فإن الله يعلم هل كفر الحد عنهم جميع مرتكبهم أم لا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾.

ثم كرر التذكير بالمنة بترك المعاجلة بقوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ﴾ بكم في نصب ما يزيل جهلكم بما يحفظ من سرائركم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الحدود، فإن الرأفة تقِيم المرؤوف به وتحفظه؛ لأنها ألطف الرحمة، وتارة يكون هذا الحفظ بالقوةِ بنصب الأدلة، وتارة يضم إلى ذلك الفعلُ بخلق الهداية في القلب بما للمرؤوف به من الوصلة بسهولة الانقياد وقوة الاستعداد ﴿رَّحِيمٞ ٢٠﴾ والجواب محذوف تقديره: لتركِكم في ظلمات الجهل تعمهون، فثارت بينكم الفتن حتى تفانيتم.

ولما حذرهم موارد الجهل، نهاهم عن التمادي فيه في سياق معلم أن الداعي إليه الشيطان العدو فقال: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ وهي ما أغرق في القبح ﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ وهو ما لم يجوّزه الشرع، فهو أولًا يقصد أعلى الضلال، فإن لم يصل تنزل إلى أدناه، وربما درج بغير ذلك، ومن المعلوم أن من اتبع من هذا سبيله، عَمِل بعمله فصار في غاية السفول.

ولما كان التقدير: فلولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان مع أمره بالقبائح، عطف عليه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ من عباده، من جميع أدناس نفسه وأمراض قلبه، ثم ختم بما لا تصح التزكية بدونه فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾.

ولما كان من التزكية: الصبر على من خاض فيما لم يخض فيه من زكاه الله وألا يُقطع عنهم ما كان من الإحسان قال: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها، ويرحمكم بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

ولما كان الختم بهذين الوصفين بعد الأمر بالعفو ربما جرأ على الإساءة، وصل به مرهبًا ومعممًا للحكم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ عن السوء، ولما كان وصف الإيمان حاملًا على كل خير ومانعًا من كل سوء، نبه على أن الحامل على هذين الوصفين إنما

هو التقوى، وصرف ما لهن من الفطنة إلى ما لله عليهن من الحقوق[٩٩] فقال: ﴿ٱلْمُومِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ وقيد بوصف الإيمان لأن قذف الكافرة وإن كان محرمًا، ليس فيه هذا المجموع ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمِ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾.

ثم أتبع ذلك بما هو كالعلة لآية: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ دليلًا شهوديًا على براءة عائشة رضي الله عنها فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ وقدم هذا الوصف لأن كلامهم فيه، فإذا انتفى ثبت الطيب ﴿لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ بذلك قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله ويفعل أفعال مثله، وهو تعالى قد اختار لنبيه لكونه أشرف خلقه: خلص عباده من الأزواج والأولاد والأصحاب، وكلما ازداد الإنسان منهم من قلبه ﷺ قربًا ازداد طهارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦﴾.

ولما أنهى الأمر في براءة عائشة رضي الله عنها، أمر بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بما يحسم الفساد، ردًا لما أثار الشيطان بوسواسه من الداء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَانِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما كنتم تفعلونه من الدخول بغير إذن ومن تحية الجاهلية، وقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «إذا سلم ثلاثًا فلم يجبه أحد فليرجع» وهذا إذا ظن أن صاحب البيت سمع.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَا أَحَدًا﴾ فالله يمنعكم منها، تقديمًا لدرء المفاسد ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُوذَنَ لَكُمْ﴾ لأن الدخول تصرف في ملك الغير أو حقه، فلا يحل بدون إذنه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ﴾ ولا تستنكفوا أن تواجَهوا بما تكرهون من صريح المنع، فإن الحق أحق أن يتبع، وللناس عورات وأمور لا يحبون اطلاع غيرهم عليها، وإذا وقفتم للاستئذان فلا تقفوا تجاه الباب ولكن على يمينه أو يساره؛ لأن الاستئذان إنما جعل من أجل البصر، وتحاموا النظر إلى الكوى التي ينظر منها أهل البيت ليعرفوا من على الباب، ونحو هذا من أشكاله.

---

(٩٩) لعله يعني: أن الإيمان الذي يقيم صاحبُه ما لله عليه من الحقوق هو فطنة وزيادة، فأغنى ذكره عن ذكر الفطنة التي ربما أوهم الوصف بالغفلة انتفاءها، ويشير إليه قوله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»، كما أفاد أن فطنتهن مصروفة في طاعة الله، والله أعلم.

﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ لأن الاستئذان لئلا يطلع على ما يراد طيه، فإذا لم يخف ذلك فلا معنى للاستئذان ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ وأكد قوله: ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ بإعادة الموصول، تحذيرًا من أن تزاحموا أحدًا في مباح بما يؤذيه ويضيق عليه معتلين بأصل الإباحة، أو يؤذن لكم في منزل فتبطنوا فيه الخيانة، فإنه وإن وقع الاحتراز من الخونة بالحجاب فلا بد من الخلطة لما بني عليه الإنسان من الحاجة إلى العشرة.

ولذلك اتصل به قوله تعالى مقبلًا على أعلى خلقه فهمًا وأشدهم لنفسه ضبطًا، إشارة إلى صعوبة الأمر وخطر المقام: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فعبر بالوصف إشارة إلى أنه لا يعفّ فيها إلا راسخ الإيمان؛ لخفاء الخيانة حينئذ، بخلاف ما سبق حيث عبّر بـ﴿الذين آمنوا﴾ ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ بإثبات «من» إشارة إلى العفو عن النظرة الأولى، وأن المأخوذ به إنما هو التمادي، ولما كان البصر بريد الزنى قدمه، ولما كان حفظ الفرج -لخطر المواقعة- أسهل من حفظ البصر حذف «من» ليعم فقال: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ أي: عن كل حرام من كشف وغيره، ولم يستثن الزوجة وملك اليمين استغناء بما في «المؤمنون» ولأن المقام للتشديد.

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أي: أقرب إلى أن ينموا ويكثروا ويطهروا حسًا ومعنى ويبارك لهم، **أما الحسي**: فمنه ما جاء في الموطأ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "ما فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم قط المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو"، **وأما المعنوي**: فمنه ما رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»(١٠٠).

ولما كان الكلام هنا في غض البصر وكان ظاهرًا جدًا في الطهارة، لم يدعُ داعٍ إلى التأكيد بالتصريح بها، وأما آية البقرة فلما كانت في العضل، وكان لا يكون إلا عن ضغائن وإحن، فكان الولي ربما ظن أن منعها عمن عضلها عنه أطهر له ولها، أكد العبارة بقوله: ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ [البقرة: ٢٣٢] ولما كان المقام صعبًا لميل النفوس إلى الدنايا واتباعها

---

(١٠٠) الحديث ضعيف، ولعل مما يؤيد معناه من الصحيح: «العينان تزنيان وزناهما النظر» مع: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..» من نظر حرام وغيره، وأصرح منه لكنه أقل ثبوتًا: «إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله إلا أعطاك الله خيراً منه»، والله أعلم.

للشهوات، علل مرغبًا ومرهبًا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾ ولما كان وازع الحياء مع ذلك مانعًا عظيمًا فلا يخالَف إلا بمعالجة وتدرب، عبر بالصنعة فقال: ﴿بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠﴾.

ولما كان النساءُ حبائلَ الشيطان(١٠١)، أُمِرن بزيادة الستر بقوله، ناهيًا عن الزينة ليكون النهي عن مواضعها من الجسد أشد وأولى: ﴿۞وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ فبدا من غير قصد، ولما كان أكثر الزينة في الأعناق والأيدي والأرجل قال: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ أي: يهوين بها إلى ما هنالك، وكأنه اختير لفظ الضرب إشارة إلى قوة القصد للستر.

﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ قال أبو حيان: "ثم ثنى بالمحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر، فالأب والأخ ليس كابن الزوج" فقال: ﴿أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ﴾ فإن لهم عليهن من الشفقة ما يمنع النظر بالشهوة، ومثلهم في هذا المعنى الأعمام والأخوال ﴿أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فإن رحمتهم لأولادهم مانعة ﴿أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾ فإن لهن عليهم من الهيبة ما يبعد عن ذلك ﴿أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فإن هيبة آبائهم حائلة ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ فإن لهم من الرغبة في صيانتهن ما يحفظ من الريبة ﴿أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فإنهم كأبنائهن ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المسلمات.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ أي: الحاجة إلى النساء ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾ أي: يقصدوا الاطلاع ﴿عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ لعدم بلوغ سن الشهوة لذلك، ولما نهى عن الإظهار نبه على أمر خفي منه فقال: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ ولما كان ذلك لمطلق الإعلام بناه للمفعول فقال: ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ وفي معناه التطيب، والنهي عنه يفهم النهي عن موضعه من الجسد من باب الأولى.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ارجعوا إلى طاعته مهما حصل منكم زيغ ﴿جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وهذا الأمر للوجوب، وإذا كان للراسخين في الإيمان فمن دونهم من باب أولى ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١﴾ بالمطلوب الذي عُلِّق في أول سورة المؤمنون بتلك الأوصاف التي منها رعاية الأمانة ولا سيما في الفروج.

---

(١٠١) أي: أسبابًا يتوصل بها إلى إيقاع الفتنة؛ لما جُبل عليه الرجال من الميل إليهن، وما جُبلن عليه من حب الزينة وإظهارها وحب الثناء بها، والله أعلم.

ولما حكم وقرر ووعظ وحذر، أرشد لأسباب العصمة التي هي نعم العون على التوبة فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ وهم العزب ذكرًا أو أنثى ﴿مِنكُمْ﴾ أي: أحراركم ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: للنكاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ احتياطًا لمصالحهم وصونًا لهم عن الفساد، امتثالًا لما ندب إليه حديث: «تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة».

ولما كان للزواج كلف يهاب لأجلها؛ لما طبع الآدمي عليه من الهلع في قلة الوثوق بالرزق قال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لأنه قد كتب لكل نفس رزقها، فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم، وعن أبي بكر: "أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى"، وعن أبي هريرة رفعه: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

ولما قدّم الكلام فيما بعد النكاح من الرزق ترغيبًا في التوكل والإحصان، وكان قبله ما قد يمنعه، قال حاثًا على قمع النفس الأمارة عند العجز: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولما كان من الموانع: خوف رق ولد إن تزوج وهو رقيق قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: تصرفًا صالحًا في دينهم ودنياهم؛ لئلا يفسد حالهم بعد الاستقلال بأنفسهم ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ولما أمر بالجود في أمر الرقيق تارة بالنفس وتارة بالمال، نهاهم عما ينافيه فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ أي: إمائكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وأشار بالتفعّل وذكر الإرادة إلى أن ذلك لا يكون إلا عن عفة بالغة، وزاد في تصوير التقبيح بذكر علة التزام هذا العار في قوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ أي: تطلبوا طلبًا حثيثًا ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن العرض متحقق فيه الزوال، والدنيا مشتقة من الدناءة ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ بحيث صارت لشدة بيانها تبين هي لمن تدبرها طرق الصواب مما هو صلاحكم في الدين والدنيا.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من أحوالهم بما أنزل الله إليهم في التوراة في أحوال المخالطة والزنى وقذف الأبرياء كيوسف ومريم عليهما السلام وتبرئتهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بما يقرب من الله وينوّر القلب ويوجب الألفة ويذهب وحر الصدر.

ثم علل إنزاله على هذا السنن الأقوم والنظم المحكم بقوله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لأن النور هو ما تظهر به الأشياء، فهو تعالى مُظهِرهما بإيجادهما وإيجاد أهلهما، وهاديهم بالتنوير بالعلم، الجاعلِ صاحبَه بهدايته إلى الصراط المستقيم: كالماشي في النور، وهما وما فيهما دال على ظهوره، وأنه تعالى حاو لصفات الكمال منزه عن شوائب النقص، ثم قال منبهًا على أن آياته الهادية تلوح خلال الشبهات الناشئة عن الأوهام الغالبة على الخلق التي هي كالظلمات: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي هدى به إلى سبيل الرشاد في خفائه عن بعض الناس مع شدة ظهوره ﴿كَمِشۡكَوٰةٍ﴾ أي: خرق لكن غير نافذ في جدار.

﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ أي: سراج ضخم، فإذا كان في المشكاة اجتمعت أشعته فكان أشد إنارة ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ أي: في شدة الصفاء ﴿كَوۡكَبٞ﴾ شبهه بها دون الشمس والقمر لأنهما يخسفان ﴿دُرِّيّٞ﴾ أي: متلألئ، فإنه إذا كان في زجاجة صافية انعكست أشعته من بعض جوانب الزجاجة إلى بعض فيزداد النور ويبلغ النهاية، كما أن شعاع الشمس إذا وقع على ماء أو زجاجة صافية تضاعف النور.

﴿تُوقَدُ﴾ ولما كان هذا الضوء يختلف باختلاف ما يتقد فيه، فإذا كان دهنًا صافيًا خالصًا كان شديدًا قال: ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي: عظيمة الثبات والخيرات ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ ولما كان الشجر ربما ضعف وخبث ثمره بحائل بينه وبين الشمس، بين أن هذه الشجرة ليست كذلك فقال: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ﴾ بحيث لا تتمكن منها الشمس إلا عند الشروق ﴿وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ بحيث يسترها من الشمس عند الشروق ساتر، بل هي بارزة للشمس من حين الشروق إلى وقت الغروب، ليكون ثمرها أنضج فيكون زيته أصفى، قال البغوي: هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الأكثرين. فهي لزكاء عنصرها وطهارة منبتها وبروزها للشمس والرياح: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾.

ولما لم يبق لهذا الممثل به ما يقوي نوره، قال في المثل له: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ أي: أن العلم الرباني عظيم الاتساع لا يوقف له على حد، ولما كان الإخبار عن مضاعفة هذا النور موجبًا لاعتقاد أنه لا يخفى عن أحد، أشار إلى أنه بشمول علمه وتمام قدرته يُعمي عنه من يريد مع شدة ضيائه فقال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ يبين كل شيء بما يسهل سبيله، فثقوا بما يقول وإن لم تفهموه أنفسكم، وأمعنوا النظر فيه يفتح لكم سبحانه ما انغلق منه.

ثم بيّن من أي شيء تكون هذه المشكاة فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ حسًّا بالبناء، ومعنى بإخلاصها للعمل الصالح ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أي: بصلاة الصبح ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي: ببقية الصلوات، فيفتحون أعمالهم ويختمونها بذكره؛ ليُحفظوا فيما بين ذلك ويبارَك لهم فيما يتقلبون فيه، وجمع الأصيل ليحقق أن المراد باقي الصلوات ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وخصهم مع أن حضورَ النساءِ المساجدَ سنة شهيرة إشارة إلى أن صلاتهن في بيوتهن أفضل، قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها..» ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ﴾ بين طمع في النجاة وحذر من الهلاك ﴿ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٦ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٧﴾.

ولما أخبر أن الذين اتبعوا نور الحق سبحانه وصلوا إلى الحقائق، أخبر عن حال أضدادهم الذين اتبعوا الباطل، فحالت جباله بين بصائرهم وبين تلك الأنوار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ جمع قاع، وقال ابن جرير: "القاع: ما انبسط من الأرض واتسع، وفيه يكون السراب"، ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ فلم يفده قصده غير زيادة العطش بزيادة التعب، وهكذا الكافر يظن أعماله تجديه، فإذا هي قد أهلكته ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٨﴾.

ثم ضرب مثالًا آخر بين الحامل لهم على الوقوع في ممثول الأول وهو السير بغير دليل، فقال عاطفًا على ﴿كسراب﴾: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ «أو» هنا للتخيير، أو التنويع فإنها إن كانت حسنة الظاهر فكالسراب أو قبيحة فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين كالظلمات في الدنيا والسراب في الآخرة ﴿فِي بَحۡرٖ﴾ هو مثال قلب الكافر ﴿لُّجِّيّٖ﴾ إشارة لأنه عميق لا يدرك له قرار ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ هو مثل ما يغشى قلبه من الجهل والحيرة ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ قد غطى النجوم وهو مثال الرين والطبع، فلا سماء تبصَر ولا أرض ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ﴾ أي: الكائن في هذا البحر، بدلالة المعنى ﴿يَدَهُۥ﴾ وهي أقرب شيء إليه ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٣٩﴾.

ولما كان قيام الأمور وظهورها إنما هو بالنور، حسًّا بالإيجاد ومعنى بجعل الموجودات آيات مرئيات على موجدها، قال تعالى دالًا على أنه وحده نور السماوات والأرض: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وعبر بـ«من» لأن المخبر به من وظائف العقلاء ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ولما أخبر بما يستلزم الملك صرح به فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤١﴾﴾. ولما تقرر بذلك قدرته على البعث دل عليه بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾.

ولما اتضح بهذا ما لله تعالى من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص، قال مترجمًا لتلك الأدلة: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾.

ولما كان إخفاء هذه الآيات عن البعض بعد بيانها أعجب من ابتداء نصبها، وكان الخروج من نورها بعد التلبس بها إلى الظلام أشد غرابة، قال معجّبًا ممن هذا حاله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وإنما هم من أهل الوصف اللساني المجرد عن المعنى الإيقاني. ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ أي: ناس مجبولون على الأذى المفرق ﴿مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ إذا كان الحق عليهم؛ لاتباعهم أهواءهم، مفاجأة تؤذن بثباتهم فيه. ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: منقادين أتم انقياد؛ لما وافق من أهوائهم لا لطاعة الله ورسوله.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: خلل أصلي ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ أي: عرض لهم خلل لشبهة ﴿أَمۡ﴾ الخلل في الحاكم فهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بنصب حكم جائر وهو منزه عن الأغراض ﴿وَرَسُولُهُۥۚ﴾ بضرب أمر زائغ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: الكاملون في الظلم؛ لأن قلوبهم مطبوعة على المرض والريب، لا أن فيها نوعًا واحدًا منه، وليسوا يخافون الجور، بل هو مرادهم إذا كان الحق عليهم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ﴾ من أي داع كان ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ لهم أو عليهم ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾. ولما رتب سبحانه

الفلاح على هذا النوع الخاص من الطاعة، أتبعه عمومها فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾.

ولما ذكر ما رتب على الطاعة الظاهرة التي هي دليل الانقياد الباطن، ذكر حال المنافقين فيه فقال: ﴿۞وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى الإقسام، وفيه إشارة إلى أنهم أهل للاتهام، وكذا قال المتنبي:

وفي يمينِكَ فيما أنت واعِدُهُ ما دلَّ أنَّكَ في الميعادِ مُتَّهمُ

﴿طَاعَةٌ﴾ أي: هذه الحقيقة ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ ولم تعرّف الطاعة بـ«ال» لئلا يظن أنها لعهد ذكري أو نحوه، والمعنى: أن الطاعة -وإن اجتهد العبد في إخفائها- لا بد أن تظهر مخايلها على شمائله، وكذا المعصية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾ فهو ينصب عليه دلائل يعرفه بها عباده. ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من القبول، وأفهم قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ -أي: إلى كل خير- أنه لا هداية بدون متابعته ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ أي: الذي يحصل به البلاغ قطعًا، إما بالإيضاح وحده أو مضمومًا إلى السيف فما دونه من الزواجر.

ولما ذكر إعراضهم، قال بيانًا لأن تمكن الدين غير مفتقر إليهم أقبلوا أو أدبروا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ صريحًا بأهل القرن الأول، ليكون ظاهرًا في إخراج المنافقين المعرضين، إشارة إلى أنهم لا يزالون في ذل وضعة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وأكّد لما عند أكثر الناس من الريب في ذلك فقال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كتب في الزبور ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ أضافه إليهم إشارة إلى رسوخ أقدامهم فيه.

﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ وأشار إلى عدم استغراق هذا الأمن العام لجميع الزمان بإثبات الجار فقال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وعلل التمكين وما معه بقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ لأن زمانهم يكون زمن عدل فلا يتحابون فيه بالرغبة والرهبة، ولقد صدق سبحانه ومن أصدق من الله حديثًا، ففتح لهم البلاد ونصرهم على جبابرة العباد، ولما قتلوا عثمان رضي الله عنه وخرجوا على علي ثم ابنه الحسن رضي الله عنهما نزع الله ذلك

الأمن كما أشير إليه بـ﴿من﴾ وتنكير ﴿أمنًا﴾ وجاء الخوف واستمر ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٣﴾.

ثم بيّن العبادة بقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنها قوام ما بينكم وبين ربكم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهي نظام ما بينكم وبين إخوانكم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فإنما هو عن أمر ربكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٤﴾.

ولما كان الكفار من الكثرة والقوة بمكان، كان الحال جديرًا بتأكيد معنى التمكين فقال: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٥﴾.

ولما ختم ما تقدم من الأحكام والمواعظ بالتمكين لأهل هذا الدين، شرع في إكمال بقية أحوالها تأكيدًا لما حكم به من التمكين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ وخص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ أي: اختلالات في التستر والتحفظ ﴿لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني العبيد والخدم والصبيان في ترك الاستئذان ﴿جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ ثم علل الإباحة في غيرها مُخرجًا لغيرهم بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي: لعمل ما تحتاجونه في الخدمة، كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في الاستخدام ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٦﴾.

ولما بين حكم الصبيان والأرقاء، أتبعه حكم البالغين الأحرار فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ فأضافها إليه سبحانه تعظيمًا لها، إشارة إلى أنها مقدمة للآيات الإلهيات؛ لأن من لم يتفرغ من مكدّرات الأفكار لم يطر ذلك المطار، وحثًا على استحضار ما دعت إليه من الحكم والمواعظ، وتنبيهًا على ما فيها من العلوم النافعة دينًا ودنيا، وزاد في الترغيب في العلم والحكمة إشارة إلى أن ذلك سبب كل سعادة فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٧﴾.

ولما ذكر اقتبال الشباب في تغيير حكم الحجاب، أتبعه الحكم عند إدبار الشباب في إلقاء الظاهر من الثياب فقال: ﴿۞وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ وكأنه أشير بصيغة التفعل إلى أن ما ظهر

منها من وجهها أو زينتها عفوًا غير مقصود به الفساد لا حرج فيه ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠﴾.

ولما أتم ما ذكر من حرمات البيوت المستلزمة لصيانة الأبضاع على وجه يلزم منه إحراز الأموال، أتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجل مقاصد الأموال فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: ولا على غير من ذكر، وعبر بذلك تذكيرًا بأن الكل من نفس واحدة ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ الذي تعرفون رضاه بذلك ولو بقرينة كما هو الغالب ولذا أطلقه، كل ذلك من غير إفساد ولا حمل ولا ادخار، وقد عدل الصديق هنا بالقريب تنبيهًا على شريف رتبة الصداقة ولطيف سرها، وأفرده لعزته.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ لغير قصد الاستقذار والترفع والإضرار، وإن كان الأكل في جماعة أفضل وأبرك، كما يُفهِمه تقديمه، ولما ذكر موطن الأكل وكيفيته، ذكر الحال التي يكون عليها الداخل فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ولما كانت الإغارة على شيء من الأعراض والأموال على غير ما أذن فيه تُذهِب العقول وتُعمي البصائر، ختم الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾ بضبط النفوس وردها عن الأهوية، باتباع آيات الشرع التي أنزلها الذي كرر وصفه هنا بأنه عليم حكيم.

ولما كان قد نفى عنهم الإيمان بالتولي عن الأحكام في قوله: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ [النور: ٤٧]، قال مقابلًا له: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا﴾ أي: صدقوا إيمانهم بأنهم إذا ﴿كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ أي: لهم على الله، كالجهاد والتشاور وصلاة الجمعة ونحو ذلك ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ وقيل: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع مقدَّميهم في الدين والعلم، لا يخذلونهم في نازلة من النوازل، وأفهمهم أن حال المستأذن قاصرة عن حال المفوِّض الملازم كيفما كانت فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾.

ولما عُلم بما تقدم أن للرسول ﷺ خصوصية ليست لغيره، صرح بذلك فقال: ﴿۞لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ الذي يوقعه ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ ولو على سبيل العموم، في وجوب الامتثال ﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ ولا تجعلوا أيضًا دعاءكم إياه كدعاء بعضكم لبعض بمجرد الاسم بل تأدبوا معه وعظموه ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أي: شيء يخالطهم في الدنيا فيحيل أمورهم إلى غير الحالة المحبوبة التي كانوا عليها ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾ في الآخرة، وهذا يدل على أن الأمر للوجوب حتى يصرف عنه صارف؛ لترتيب العقاب على الإخلال به.

ولما أقام الأدلة على أنه نور السماوات والأرض وختم بالتحذير لكل مخالف، أنتج ذلك أن له كل شيء فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولثبوت أنه تعالى محيط العلم والقدرة، لم يؤكد بإعادة الموصول فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ﴾ أي: ويعلم ما هم عليه يوم ﴿يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ وأعرض عن الخطاب تهويلًا للأمر ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ فلذلك أنزل الآيات البينات، وكان نورَ الأرض والسماوات، فقد رد الختام على المبدأ، والله الهادي.

سورة الفرقان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها إنذار عامة المكلفين بهذا القرآن المبين لشمول قدرته سبحانه وتمام علمه، المستلزم لأنه لا موجود على الحقيقة سواه، فهو الحق وما سواه باطل؛ وتسميتها بالفرقان واضح الدلالة على ذلك، فإن الكتاب ما نزل إلا للتفرقة بين الملتبسات وتمييز الحق من الباطل ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة﴾ [الأنفال: ٤٢][١٠٢].

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي له الحجة البالغة؛ لإحاطة عظمته وشمول علمه وقدرته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي عم بنعمة الفرقان أهل الإيمان والكفران ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي خص من شاء بالرضوان.

لما ختم سبحانه تلك بسعة الملك وشمول العلم وتعظيم الرسول افتتح هذه بالبرهان على ذلك فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ ولما كان تكرار الإنذار وتفريقه أصدع قال: ﴿نَزَّلَ﴾ ولما كان إيضاح المشكلات في الفرق بين الملتبسات أعون بما يكون علة، عبر بما يدل على الفرق وقدمه فقال: ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ أي: الكتاب الذي نزل إلى سماء الدنيا فكان كتابًا، ثم نزل مفرقًا بحسب المصالح فسمي لذلك فرقانًا، ولأنه الفارق بين كل ملتبس، فلا يدع خفاء إلا بينه ولا حقًا إلا أثبته ولا باطلًا إلا محقه، فبه انتظام الحياة الأولى والأخرى، فكان قاطعًا على علم منزله، ومن علمه الباهر إنزاله ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

وقال ابن الزبير: "لما تضمنت سورة النور بيانَ كثير من الأحكام، والكشفَ عن المغيبات، والوعدَ للخلفاء الراشدين بالتمكين، والفضحَ للمنافقين، فكان مجموع هذا فرقانًا يعتضد به الإيمان، أتبعه سبحانه بقوله: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمُطْلِع على ما أخفاه المنافقون من المكر والكفر ﴿ليكون للعالمين نذيرًا﴾ فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم".

ولما تقدم ذكر منزِّلِ الفرقان سبحانه والفرقانِ والمنزَّلِ عليه ﷺ على طريق الإجمال، أتبع ذلك تفصيله على الترتيب، فبدأ بوصف المنزِّل سبحانه بما هو أدل دليل على إرادة التعميم

---

(١٠٢) أو يقال: لما ذكر النور في التي قبلها باعتباره وصفًا لآيات الله وكائنًا في بيوت الذاكرين، ذكر أثره وهو الفرقان باعتباره وصفًا للآيات ولعباد الرحمن -الذين يبيتون لربهم ذاكرين-؛ لأنهم لم يخروا على الآيات صمًا وعميانًا، فكانوا بها فرقانًا، والله أعلم.

في الرسالة لكل من يريد فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾. ثم عجّب منهم في جمالة حالية فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ وعطفها بالواو إشارة إلى أن كل واحدة منها كافية في سلب الإلهية عنهم بما ثبت من العجز.

ولما اتضح بوصف المنزّل إعجازُ المنزَّل عجّب من حال المكذبين به فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ولما كان الإنسان مطبوعًا على حب أن تظهر عنه المحاسن ولا ينسب شيء منها إلى غيره، كان أعجب من ذلك وأظهر عوارًا قولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ بوضع الإفك على ما لا أصدق منه ولا أعدل ﴿وَزُورًا ۝٤﴾ أي: ميلًا عن السنن المستقيم في نسبة أصدق الناس إلى هذه الدنايا التي لا يرضاها لنفسه أسقطهم، فإنها مع كونها دنيئة في نفسها: مضمونة الفضيحة.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ وهذا كما ترى لا يقوله من له مسكة في عقل ولا مروءة، فإن من المعلوم أن من لازم شيئًا زمانًا لم يبق ممن يعرف أحواله أحد حتى عرف ذلك منه، فلو أنكره بعد لافتضح فضيحة لا يغسل عنه عارها، فكيف والبلد صغير، والرجل عظيم شهير، وهو يدعوهم إلى المعارضة ولو بسورة من مثله، وفيهم الكتاب والشعراء فلا يقدرون.

ولما كانت أقوالهم مع ظهور عوارها، تروج على بعض العرب مع سعة عقولهم وصحة أفكارهم؛ لشبه واهية مكنهم فيها التقليد وشدة الإلف لحالهم، أجابهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ولما كانت العادة جارية بأن من علم استخفاف غيره به وكان قادرًا عليه عاجله بالأخذ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ فليس لإمهالهم ووعظهم بما نزله إليهم سبب إلا رحمته وغفرانه وعلمه بأن كتابه صلاح لأحوالهم.

ثم أتبع ذكرَ المنزَّل والمنزِّل: الإخبار بطعنهم في الرسول الآتي به فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يكون مصاحبًا له ليكون أهيب في النذارة، ولهذا عبر بـ«إلى» دون «على» التي هي للتغشي بالوحي ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ والتعبير في هذا والذي بعده بالمضارع أدل على تكالبهم على

الدنيا وأنها أكبر همهم ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ فتفرغه عن طلب المعاش، وعلى قراءة ﴿نأكل﴾ فالمعنى: أن ذلك أجلب لنا إلى اتباعه.

وما قالوه كله فاسد، إذ لم يدَّع هو ﷺ أن وصفًا من أوصاف البشر الذاتية ينافي النبوة، وأما الاستكثار من الدنيا فهو عائق في الأغلب عن التزود للآخرة وحامل على التجبر، ولا يفرح به إلا أدنياء الهمم، وخفة ذات اليد لا تقدح إلا في ناقص يسأل الناس إرادةً لتكميل نقصه بالحطام الفاني ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨﴾ أي: يتكلم بما لا يجديه، فحاله كحال من غُلب على عقله بالسحر، أو أن السحر صار له طبعًا حتى كأنه ينشأ عنه على غير اختياره، فهو يفرق به بين المرء وزوجه وولده ونحو ذلك، وعبروا بصيغة المفعول إشارة إلى هذا.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ﴾ عن جميع طرق العدل بسبب ضربهم ذاك، فلم يجدوا قولًا يستقرون عليه، فأبعدوا جدًا ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في الحال ولا في المآل بسبب هذا الضلال ﴿سَبِيلٗا ٩﴾.

ولما ثبت أنهم لا يمن لهم ولا بركة لا على أنفسهم ولا غيرهم، أثبت لنفسه سبحانه ما يستحق من الكمال فقال: ﴿*تَبَارَكَ﴾ أي: ثبت ثباتًا مقترنًا باليمن والبركة ﴿ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾ ولم يشأ تعالى ذلك في هذه الدنيا الفانية وأخره إلى الآخرة الباقية، وقد عرض عليه ما شاء من ذلك في الدنيا فأباه، ولا يبعد عندي أن يكون أشير بالآية إلى ما فتح عليه ﷺ من الحدائق وإلى ما فتح على أصحابه من بعده من البلاد، وقد كان قادرًا على أن يقويه بجميع ذلك قبل موته ولكنه لم يفعل؛ لأن ذلك أوضح في الأمر؛ لأن نصره كان على خلاف ما ينصر به أهل الدنيا، من غير جنود ظاهرة ولا أموال وافرة ولا ملوك قاهرة، بل كانت الملوك عليه ثم صاروا أهون شيء عليه، بيد أصحابه من بعده.

﴿بَلۡ﴾ أي: لا تظن أنهم كذّبوا لأجل ما ذكروه، أو: دع ما قالوه من هذا، فإنهم لم يقتصروا في التكذيب عليه بل ﴿كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ واستقر ذلك في أنفسهم دهورًا فعسر انفكاكهم عنه بما جاءهم من البيان الذي لا يشكون فيه، فاجترؤوا على العناد لعدم الخوف من الآخرة، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ [آل عمران: ٢٤] ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ وهم يساقون إليها

﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: هلاكًا عظيمًا؛ لأنه لا منادم لهم غيره ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ لأنكم لا تهلكون إذا حلت بكم أسبابه.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ تهكمًا بهم، وإلا فإن سلب الخير عن مقابله لا يخفى على أحد، أو يكون على طريق التنزل وإرخاء العنان تنبيهًا للعاقل على أنه يكفيه في الرجوع عن الغي: طروق احتمالٍ لكون ما هو عليه مفضولًا ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ ولما كان الكريم لا يكاد يسمح بأن يُسأل فيما لا يحقق حصوله قال: ﴿مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾.

ولما ذكر حالهم في الساعة معه تعالى أتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من دونه فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينفعوننا إذ كيف نترك -مع حاجتنا- من بيده كل شيء وهو أقرب إلينا في كل ولاية من كل شيء، إلى من لا شيء بيده! وفائدة السؤال مع علمه تعالى: تبكيتُ المعاندين وتأسيفُهم والموعظةُ لنا، ولما كان المضل في الظاهر بطرهم النعمة واتباع الشهوات التي قصرت بهم عن إمعان النظر، استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨﴾.

ولما كان هذا واقعًا قطعًا قال معبرًا بالماضي: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم﴾ بوضع العبادة في غير موضعها وباعتقاده في الرسل ما لا ينبغي ونحوه ﴿مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾.

ثم ذكر ما ظلموا فيه من قولهم ﴿مال هذا الرسول﴾ ونحوه، فبين أن ما جعلوه من ذلك وصمة في حقه هو سنته سبحانه في الرسل من قبله أسوة لنوعهم البشري: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ وأسقط الجار ليعم فقال: ﴿قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا﴾ بالعطاء والمنع.

﴿بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ بأن جعلنا هذا نبيًا وهذا ملكًا وهذا فقيرًا لنختبر الفقيرَ بصبرِه على ما حُرم مما أعطيه الغني أو جزءِه، والملكَ بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة دونه، فلذا لم أعط رسولي الدنيا؛ لأبتليكم في الطاعة له خالصة، فإني لو أعطيته إياها

لسارع الأكثر إلى اتباعه طمعًا فيها، وهذا معنى: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ۝٢٠﴾ فهو عالم بكم قبل الامتحان ويضع الأمور في حاق مواضعها، فسلّموا له في كل الأمور تفلحوا، وتدبروا أقواله وأفعاله بحسن الانقياد والتلقي تحصّلوا علمًا غزيرًا.

ولما ذكر الابتلاء أتبعه أنه كشف عن أنه لا بصر لهم فقال: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فهم لا يعملون عملًا يطمعون في إثابتنا لهم عليه بعد الموت ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كما أنزلت عليه فيما يزعم ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ بما له إلينا من الإحسان، وما لنا من العظمة بالأموال وغيرها، فيأمرنا بما يريد من غير حاجة إلى واسطة ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ ولما كان ضرر كبرهم لا يعود على أحد غيرهم قال: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ۝٢١﴾ وبيان أنهم ما قالوا هذا إلا عتوًا: أن ما جاءهم من الآيات التي أعظمها القرآن، دلهم قطعًا بعجزهم عن الإتيان بشيء منه على صدقه ﷺ، وفي هذا الاستئناف وفحوى هذا السياق دلالة على التعجب من غير لفظه.

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٢٢﴾ أي: يريدون أن يكون بينهم وبين الملائكة مانع عظيم منهم، قال أبو عبيدة: "وهذا عوذة العرب"، وعبر بالمضارع إشارة لدوام تجديدهم له؛ لعظيم روعتهم منهم.

وعبر في ما بعده بالماضي إشارة لتحققه فقال: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ في يوم رؤيتهم للملائكة سواء كان في الدنيا أو الآخرة ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ من المكارم ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ لكونه لم يؤسس على الإيمان، وإنما هو للهوى والشيطان ﴿هَبَآءٗ﴾ وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من الكوة مما يشبه الغبار، فهو أشبه شيء بالعدم لأنه لا نفع له، ولما كان الهباء إذا حركته الريح تناثر وذهب فعظم دخوله في حيز العدم مع أنه محسوس قال: ﴿مَّنثُورًا ۝٢٣﴾.

ثم تلاه بحال أضدادهم، مشيرًا إلى أن منزل أولئك لا قرار فيه إذ كانت النار مقيلهم فقال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ۝٢٤﴾ وروي أن وقت الحساب يقصر على المؤمنين فيقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ الناس من الحساب.

ولما كان للكفرة في هذه الدار من العز والقوة ما يتعجبون معه من مصير حالهم وحال أخصامهم إلى ما ذكر، بين أن الأمر في ذلك اليوم على غير ما نعهده فقال: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ ومن عموم رحمته

وحقية ملكه أن يسرَّ قلوب أهل وده بتعذيب أهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم الحق باتباع الباطل، ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل أحد الجنة ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

وبين عسر ذلك اليوم بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾. ولما تأسف على مجانبة الرسول، تندم على مصادقة غيره بقوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ أي: يا هلاكي الذي ليس لي منادم غيره لأنه ليس بحضرتي سواه ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ يعني الذي أضله، يسميه باسمه، وإنما كنى عنه ليعم ﴿خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: صديقًا أوافقه في أعماله.

ثم علل ما تقدم بقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ ولم يكن لي منه مانع يظهر غير إضلاله، ولما كان التقدير: ثم ها هو قد خذلني أحوج ما كنت إلى نصرته، عطف عليه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: كل من كان سببًا للضلال من الجن والإنس ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ يورده ثم يسلمه إلى أكره ما يكره لا ينصره، ولو أراد لما استطاع.

ولما ختم بالإضلال عن الذكر وكان القرآن أعظمه، قال مخوفًا لقومه؛ لأن الرسل قبله كانوا إذا شكوا أنزل بقومهم عذاب الاستئصال: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾. ولما كان في هذا الكلام معنى الشكاية وعظيم التحزن، قال مسليًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما فعلنا من هذا وأنت أعظم الخلق: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

ولما قرر عداوتهم له أتبعه بما يدل عليه فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ ليزول عنا ما نتوهمه من أنه هو الذي يرتبه قليلًا قليلًا، فتعبيرهم بـ«نُزِّل» الذي يدل على التفريق أبلغ في مرادهم، فإنهم أرغبوا السامع في الإقبال على كلامهم بتوطينه على ما يقارب مراده، ثم أزالوه بالتدريج أتم إزالة.

ولما أبطل ما أتوا به من الاعتراض بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ عطف عليه قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: باعتراض في إبطال أمرك، يخيِّلون به لعقول الضعفاء بما يجتهدون في تنميقه وتدقيقه حتى يصير عندهم في غاية الحسن ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ﴾ من مثلهم ﴿تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: كشفًا لما غطى الفهمَ من ذلك الذي خيّلوا به وادعوا أنهم أوضحوا به وجهًا من وجوه المطاعن، فجزم أكثر من السامعين بحسنه.

ولما كانوا يريدون بهذه السؤالات أن يضللوا سبيله، فعُلم أنه تعالى يعمر بهم دار الشقاء، وكان ذلك أدل على أنهم أعمى الناس عن الطرق المحسوسة فضلًا عن المدارك الغامضة قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ﴾ أي: يجمعون قهرًا ماشين مقلوبين أو مسحوبين ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ كما أنهم في الدنيا كانوا يعملون ما كأنهم معه لا يبصرون ولا تصرف لهم في أنفسهم، تؤزهم الشياطين أزًا، فإن الآخرة مرآة الدنيا مهما عمل هنا رئي هناك، كما أن الدنيا مزرعة الآخرة مهما عمل فيها جنيت ثمرته هناك.

ثم قال تسلية له ﷺ وتخويفًا لهم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك، وأنزلناه إليه منجمًا في نحو عشرين سنة، وذلك بيّن من نصوص التوراة، وزاد في التسلية بذكر الوزير لأن الرد للاثنين أبعد فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥﴾.

ولما كان عذاب القبط الإغراق، أتبعه بأمثالهم فيه فقال: ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ بتكذيبهم نوحًا؛ لأن من كذب واحدًا من الأنبياء بالفعل فقد كذب الكل بالقوة؛ لأن المعجزات متساوية الأقدام في الدلالات، ولأنهم عللوا تكذيبهم بأنه من البشر، فلزمهم تكذيب كل رسول من البشر ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾.

ولما ذكر آخر الأمم المهلكة بعامة وأولها، ذكر من بينهما وطوى خبرهم بغير العذاب لأنه في سياق الإنذار فقال: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾.

ثم غير الأسلوب تنبيهًا على عظيم الشأن وهزًا للسامع فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ وإن كانت عدة قرى، تحقيرًا لشأنها في جنب قدرته تعالى، وإهانة لمن يريد عذابه، ودلالة على جمع الفاحشة لهم حتى كانوا كأنهم شيء واحد ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ وهي قرى قوم لوط، قال البغوي: "كانت خمس قرى فأهلك الله أربعًا منها ونجت واحدة وهي أصغرها، وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث"، ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾ لأنه استقر في أنفسهم اعتقادهم التكذيب بالآخرة.

ولما أثبت تكذيبهم بالآخرة عطف عليه تحقيقًا: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ

﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ هم أو الداعي لهم إلى ترك الأصنام الذي ادعوا إضلاله بقولهم: ﴿إن كاد لَيُضلنا﴾.

[ثم بين سبحانه أن بلوغ هؤلاء في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لاتخاذهم أهواءهم آلهة، فكلما دعاهم الهوى إليه انقادوا له، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع فقال](١٠٣): ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾ أي: أنهم حقروا الإلٰه بإنزاله إلى رتبة الهوى، فهم لا يعبدون إلا الهوى، وهو ميل الشهوة ورمي النفس إلى الشيء، لا شبهة لهم أصلًا يرجعون عنها إذا جلت، فالمعنى: أن هذا المذموم قصر نفسه على تأله الهوى، فاضمحل وصف الإلٰه ولم يبق إلا الهوى، فلا صلاح له ولا رشاد، ولما كان لا يقدر على صرف الهوى إلا الله، تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

ولما انتفى الرد عن الهوى قسرًا بالوكالة، نفى الرد طوعًا بتقبيح الضلالة فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع من ينزجر ولو كان غير عاقل كالبهائم ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ ولو آمنوا لانقشعت تلك الحجب وأضاءت أنوار الإيمان، فكما أن الإنسان وإن كان بصيرًا، لا يميز بين المحسوسات ما لم يشرق عليها نور الشمس، فكذلك الإنسان وإن كان ذا بصيرة، لا تدرك بصيرته المعاني على ما هي عليه ما لم يشرق عليها نور الإيمان، لأن البصيرة عين الروح كما أن البصر عين الجسد.

ولما كان المنفي إنما هو انتفاعهم بما يسمعون ويعقلون وكان ذلك موضع عجب، عقبه سبحانه بتصرفه في الأمور الحسية مثالًا للأمور المعنوية، ولأن عمله في الباطن ينيره إذا شاء بشمس المعارف كعمله في الظاهر سواء فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وهو ظلمة ما منع ملاقاة نور الشمس، كما حجب ظِلُّ ضلالهِم أنوارَ عقولهِم ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ فلولا هي ما ظهر أن لشيء ظلًا، ولولا النور ما عرف الظلام ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

ولما ذكر في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أسباب الإماتة والإحياء القريبة، أتبعه أسبابهما البعيدة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ نُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا

---

(١٠٣) مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٣١.

خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ وكرر المذكورات لأنه تعالى لا يسقي جميعها على حد سواء، كما روي عن ابن مسعود يرفعه قال: «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله قسم الأرزاق، فإذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم، وإذا عصوا جميعًا صرف الله تعالى ذلك إلى الفيافي والبحار»، والسر في ذلك أنه كان من حقهم أن يطهروا أنفسهم وغيرَهم ليناسبوا حاله في الطهورية، فلما تدنسوا تسببوا في صرفه عنهم.

ولما ختم بما جعله سببًا لحياة الأشباح، أتبعه بما هو سبب لحياة الأرواح فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: وجهنا القرآن وجوهًا من البيان ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾. ولما كان تعنتهم بأن ينزل عليه ملك فيكون معه نذيرًا، ربما أثار في النفس طلب إجابتهم إلى مقترحهم حرصًا على هدايتهم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ ولكنا لم نفعل لما في القرآن من الكفاية في ذلك ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما قصدوا من التفتير عن الدعاء به، بما يبدونه من المقترحات أو يظهرون لك من المداهنة، أو من القلق من صادع الإنذار ﴿وَجَٰهِدْهُم﴾ أي: بالدعاء ﴿بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

ولما ذكر تصريف الفرقان ونشره في جميع البلدان، أتبعه الحجز بين أنواع الماء الذي لا أعظم امتزاجًا منه فقال: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ ولعله أشار بأداة القرب تنبيهًا على أن الموضعين مع شدة المقاربة، لا يلتبس أحدهما بالآخر. ولما ذكر تعالى قدرته في منع الماء من الاختلاط، أتبعه القدرة على خلطه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ فقسمه ذكرًا وأنثى كما قسم ذلك إلى عذب وملح.

ولما أثبت عموم قدرته، قال معجبًا منهم، معبرًا بالمضارع إشارة إلى أنهم لو فعلوا ذلك مرة لكان في غاية العجب، فكيف مع التجديد والاستمرار: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولما كان هذا السياق لتعداد نعمه سبحانه، وكان رجاء الإحسان مقبلًا إلى المحسن، قدم النفع فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ فلا أسخف عقلًا ممن يترك من بيده كل نفع وضر وهو يتقلب في نعمه، ويقبل على من لا نفع بيده ولا ضر، ولما كان الكافر لا يمكن أن يصافي مسلمًا ما دام كافرًا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ معينًا لشياطين الإنس والجن على أولياء الله، وهو في الحقيقة تهكم بهم؛ لأنهم يفعلون ما يلزم عليه هذا الذي لا يدور في عقل.

ولما كان التقدير تسلية له ﷺ: فالزم ما نأمرك به ولا يزد همك بردهم عما هم فيه فإنا ما أرسلناك عليهم وكيلًا، عطف عليه قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾.

ولما وقع جوابهم عن قولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ [الفرقان: ٧] وكان قد بقي قولهم: ﴿أو يلقى إليه كنز﴾ [الفرقان: ٨] أجيب بقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧﴾ فإنه إذا اهتدى بهداية ربه كان لي مثل أجره، فأفاد هذا فائدتين: إحداهما- أنه لا طمع له في شيء ينقصهم، والثانية- إظهار الشفقة البالغة بأنه يعتد بمنفعتهم الموصلة لهم إلى ربهم ثوابًا لنفسه.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ﴾ ولا يصح التوكل عليه إلا بلزوم طاعته والإعراض عما سواها ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: فلا ضياع لمن توكل عليه أصلًا، بل هو المتولي لمصالحه في حياته وبعد مماته، ولا تلتفت إلى ما سواه بوجه فإنه هالك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ولما كان المسلَّ ربما ظن أن من سلاه إما غير قادر على نصره أو غير عالم بذنوب خصمه، وكان السياق للشكاية من أذى المعرضين قال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾.

ثم وصفه بما يقتضي الأناة وحسن التدبير ليتأسى به المتوكل عليه فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وهو تدريب للعالِم في الحلم والأناة والصبر على عباد الله في دعوتهم إلى الله، والإقرارُ بأن تخصيص هذا العدد لحكمة عظيمة وكذا جميع أفعاله وإن كنا لا ندرك ذلك = هو الإيمان ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ولما كان المعصي إذا علم بعصيان من يعصيه وهو قادر عليه لم يمهله، أشار إلى أنه على غير ذلك، حاضًا على الرفق بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾.

ولما ذكر إحسانه إليهم، ذكر ما أبدوه من كفرهم في موضع شكرهم فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال ابن العربي: "إنهم إنما عبروا بذلك إشارة إلى جهلهم الصفة دون الموصوف"، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠﴾.

ولما أنكروه أثبته بإثبات ما هم عالمون به من آثار رحمانيته فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وبنى عليها أمر الأرض، دبر بها فصولها وأحكم بها معايش أهلها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: ذوي حالة معروفة في الاختلاف، فيأتي هذا خلف ذاك بضد ما له من الأوصاف، ويقوم مقامه في

كثير من المرادات ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ فيؤديه تذكره إلى الإيمان إن كان كفورًا ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ لتحمله إرادته تلك على الشكر إن كان مؤمنًا.

ولما وصف الكفار بما وصفهم به من الغلظة على النبي ﷺ والعدواة له ومظاهرتهم على خالقهم ونحو ذلك من جلافتهم، ذكر أضدادهم واصفًا لهم بأضداد أوصافهم مبشرًا لهم بضد جزائهم فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أي: رفق وسكينة وتواضع لا يؤذون أحدًا ولا يفخرون؛ لأن من كان من الأرض وإليها يعود لا يليق به إلا ذلك. ولما ذكر ما أثمره العلم من الفعل في أنفسهم، أتبعه ما أنتجه الحلم من القول لغيرهم فقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ أي: ما فيه سلامة من كل سوء، وليس المراد التحية، كأنه أطلق «الخطاب» إعلامًا بأن أكثر قول الجاهل الجهل.

ولما ذكر ما بينهم وبين الخلق وكان الغالب على ذلك أن يكون جلوة نهارًا، ذكر ما بينهم وبين خالقهم من ذلك خلوة ليلًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾. ولما ذكر تهذيبهم لأنفسهم للخلق والخالق، أشار إلى أنه لا إعجاب عندهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ وقدموا الدعاء بالنجاة اهتمامًا بدرء المفسدة، وإشعارًا بأنهم مستحقون لذلك وإن اجتهدوا؛ لتقصيرهم عن أن يقدروه سبحانه حق قدره.

ولما ذكر أفعالهم وأقوالهم فيما بينهم وبين الخلق والخالق، ذكر أحوالهم في أموالهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾. ولما ذكر ما تحلوا به من أصول الطاعات، أتبعه ما تخلوا عنه من أمهات المعاصي فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ولما ذكر القتل الجلي، أتبعه الخفي بتضييع نسب الولد فقال: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ على أن الزنى جارٌّ أيضًا إلى القتل والفتن، وفيه التسبب لإيجاد نفس بالباطل كما أن القتل تسبب إلى إعدامها بذلك.

ودل على عظيم قبح المذكورات بأمور: الأول- الإشارة بأداة البعد في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ مع قرب المذكورات؛ ليدل على أن البعد في رتبها؛ لعظيم قبحها ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾.

الثاني- قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ على قراءة المفاعلة، تقتضي تعظيم التضعيف بالنسبة إلى من يباري آخر فيه فهو أبلغ، الثالث- التهويل بقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الذي هو أهول من

غيره بما لا يقايس، الرابع- الإخبار بالخلود الذي أول درجاته أن يكون مكثًا طويلًا فقال: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ ولا يقال: إن الإشارة ترجع إلى مجموع هذه الذنوب، فالتهويل خاص بمن ارتكب مجموعها = لأن السياق يأباه؛ لأن تكرار «لا» أفاد ورود النفي على وقوع الخصال الثلاث حال الاجتماع والانفراد، فكان معنى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾: ومن يفعل شيئًا من ذلك، ليَرِدَ الإثبات على ما ورد عليه النفي فيحصل التناسب.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾ ولما كان الرجوع عنه أغلظ، أكد فقال: ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ أي: بندمهم على تلك السيئات، وأخبر أن هذه صفته تعالى أزلًا وأبدًا فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾.

ولما أشار إلى التطريق له بالوصفين العظيمين، أتبع ذلك بيان الطريق إليه بما أجرى من العادة فقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ﴾ ولما كان في سياق الترغيب أعراه من التأكيد فقال: ﴿صَٰلِحًا﴾ ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفًا ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾.

ولما مدحهم على ترك الزنى عقبه بالإعراض عن اللغو الذي هو أعظم مقدماته فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون انحرافًا مع الهوى ﴿ٱلزُّورَ﴾ قال ابن جرير: "وأصله: تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه كذلك، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق"، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ قال: "هو في كلام العرب: كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح"، ﴿مَرُّواْ كِرَامًا ٧٢﴾ أي: آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر على حسب ما يرونه نافعًا، أو معرضين إن كان ذلك مثيرًا لمفسدة أعظم أو نحوه، وأما حضورهم وسكوتهم فلا؛ لأنه دليل الرضا به وسبب لوجوده والزيادة فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ أي: ذكرهم غيرهم كائنًا من كان؛ لأنهم يعرفون الحق بنفسه لا بقائله ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٧٣﴾ كما يفعل المنافقون والكفار بل يسقطون عند سماعها ويبكون عليها، سقوط سامع منتفع بسمعه، بصير منتفع ببصره وبصيرته.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ علمًا منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى أنهم أهل للإمامة: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: هب لنا منهم أعمالًا صالحة، فجعلوا أعمال من يعز عليهم هبة لهم ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولما كان المطلوب من المسلمين الاجتماع في الطاعة حتى تكون الكلمة في المتابعة واحدة، وحدوا الإمام وإن كان المراد الجنس فقالوا:

﴿إِمَامًا ٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾.

ولما ظهر أمر الرحمن وما عليه عباده من الدعاء، أمره أن ينذر أضدادهم بقوله مهددًا: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ المعنى: أنه ليس فيكم الآن ما يصلح أن يعتد بكم لأجله إلا دعاؤكم إياه وقت الشدائد؛ لأنكم مكذبون قد فعلتم ضد ما كان ينبغي لكم من الشكر، فتركتم ذلك الدعاء له وعبدتم الأوثان ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ﴾ جزاء هذا التكذيب ﴿لِزَامَۢا ٧٧﴾.

فانطبق آخر السورة على أولها بالإنذار بالفرقان لمن أنكر حقيقة الرحمن.

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقصودها أن هذا الكتاب بين في نفسه بإعجازه أنه من عند الله، مبين لكل ملتبس بتفصيله وتنزيله على أحوال الأمم وتمثيله، وتسميتها بـ«الشعراء» أدل دليل على ذلك بما يفارق به القرآنُ الشعرَ من استقامة مناهجه وصدق وأخباره وعدل تبشيره وتهديده، وكذا تسميتها بـ«الظلة» إشارة إلى أنه أعدل في بيانه أو أدل في جميع شانه من المقادير التي دلت عليها قصة شعيب عليه السلام بالمكيال والميزان، وأحرقُ من الظلة لمن يبارزه بالعصيان.

ولما فرق في تلك بين الدين الحق والمذهب الباطل قال هنا: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ أي: الفارق لكل مجتمع ملتبس بغاية البيان، فإن الإبانة هي الفصل والفرق.

وقال ابن الزبير: "لما عرّفت سورة الفرقان بشنيع مرتكب الكفرة المعاندين وختمت بما ذكر من الوعيد، كان ذلك مظنة لإشفاقه ﷺ وتأسفه على فوات إيمانهم؛ لِما جبل عليه من الرحمة، فافتتحت هذه بتسليته بقوله: ﴿لعلك باخع نفسك﴾ الآيتين، وقلما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته ﷺ إلا معقبة بقصص موسى عليه السلام، وفي كل قصة منها إحراز ما لم تحرزه الأخرى من المعاني، فما من قصة متكررة في الظاهر إلا ولو قُدِّر إزالتها لنقص من الفائدة ما لا يحصل من غيرها".

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ جمعه ليدل على أن جمعهم لا يغني عن ذلهم شيئًا، والأصل: فظلوا، ولكنه ذكر الأعناق لأنها موضع الخضوع، وللإشارة إلى أنه يكون بالطبع من غير تأمل؛ لما أبهتهم من عظمة الآية، فكأن الفعل للأعناق لا لهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟﴾ وأشار بتقديم الجار -والمؤذن بالتخصيص- إلى أن لإعراضهم عنه من القوة ما يعد الإعراض معه عن غيره عدمًا فقال: ﴿عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ سبَّبه بالفاء وحققه بالسين وقلل التنفيس عما في آخر الفرقان؛ ليعلموا أن ما كذبوا به واقع ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ أي: يهزؤون، ولكنه عبر بالسين إشارة إلى أن حالهم في شدة الرغبة فيه حال الطالب له.

ولما كانت رؤيتهم لآيات الآفاق الموجبةِ للانقياد، موجبةً لإنكار تخلفهم عما تدعو إليه فضلًا عن الاستهزاء، وكان قد تقدم آخر تلك الحث على تدبر بروج السماء وما يتبعها من الدلالات، عطف عليه ما ينشأ عن ذلك في الأرض في قوله معجبًا منهم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: عظيمة، ولعله وحدها على كثرتها إشارة إلى أن الدوال عليه متساوية الأقدام في الدلالة، فالراسخون تغنيهم واحدة، وغيرهم لا يرجعون لشيء ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ﴾ ولما كان المقام لإنزال الآية القاهرة قدم قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر على الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ في أنه لم يعاجلهم به بل أنزل عليهم الكتاب ترفقًا بهم وبيانًا لما يرضاه.

ومن هنا شرع سبحانه في تمثيل آخر الفرقان في إظهار القدرة بالبطش عند النقمة بذكر أخبار هذه الأمم، دلالة على الوصفين معًا ترغيبًا وترهيبًا، وأخلى قصة أبيهم إبراهيم عليه السلام من ذكر الإهلاك إشارة إلى البشارة بالرفق ببنيه العرب في الإمهال كما رفق بهم في الإنزال والإرسال، ولما كانت التسلية بموسى وإبراهيم عليهما السلام أتم لما لهما من القرب والمشاركة في كثير من الأحوال، قدمهما مقدمًا لموسى عليه السلام فقال: ﴿۞ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾.

ولما كان من المعلوم أن من أتى الناس بما يخالف أهواءهم لم يقبل، أجاب بما يقتضي الدعاء بالمعونة؛ لِما عرف من خطر هذا المقام فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾ فلا يترتب على إتياني إليهم أثر ويبغون لي الغوائل. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥﴾ فنحن نفعل معكما من المعونة والنصر فعل القادر الحاضر لما يفعل بوليه، قال أبو حيان: "وكان شيخنا أبو جعفر بن الزبير يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى والخطاب لموسى وهارون فقط، فكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع"، ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ﴾ ولم يثنِّ لأن المقام لا اقتضاء له للتنبيه على طلب المؤازرة، بخلاف ما مر في طه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾.

ولما كان من المعلوم أنهما امتثلا ما أمرهما الله قال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ فلنا عليك بذلك من الحق ما ينبغي أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا، وكأنه عبر بـ«السنين» المفهمة للنكد لأنه وقع فيما كان يخافه، وفاته ما كان يحتاط به

من ذبح الأطفال. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ لنعمتي وحق تربيتي بقتل من ينسب إلي. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا أعرف دينًا، قال ابن جرير: "والعرب تضع الضلال موضع الجهل، والعكس".

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ ولما كان سببها ظلمه لقومه جعله نفسَها فقال: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢١﴾﴾ وهم أبناء الأنبياء، ولسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة ما لا تقدرون له على جزاء. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ حائدًا عن الجواب لما فيه من تأنيبه وتعجيزه ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فسأل بـ«ما» عن حقيقته وإنما أراد في الحقيقة إنكاره.

﴿قَالَ﴾ معرِّفًا له تعالى بأظهر أفعاله مما لا يقدر أحد على ادعاء المشاركة فيه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ فهذه هي المنة، لا منتك علي بالتربية إلى حين استغنيت عنك، وهذا هو الاستعباد بالإحسان مع العصيان بالكفران، لا استعبادك لقومي بإهلاكهم وهم في طاعتك ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: واثقين بما تعتقدون.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وظاهر قوله أنه نبههم على الإنكار؛ لأنه سأل عن الماهية فأجيب بغيرها، ويحتمل غير ذلك لو ضويق فيه، فهو من خفي مكره.

﴿قَالَ﴾ مخصصًا بعد ما عمم بشيء لا تمكن المنازعة فيه لمشاهدة وجود أفراده بعد أن لم تكن: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾. فلما أوضح بذلك بطلان ما حملهم على اعتقاده من ربوبيته لم يتمالك أن ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٦﴾﴾ حيث لا يفهم أني أساله عن حقيقة مرسِله، فكيف يصلح للرسالة!

فلما أساء الأدب، ذكر له ما لا يمكنه أن يدعي طاعته له فقال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وهذا الدليل أبين الكل؛ لتكرر الحركة فيه وغير ذلك من معالمه، ولذلك بهت نمرود لما ألقاه عليه الخليل عليه السلام ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فخيرهم بين الإقرار بالجنون أو العقل بما أشار إليه من الأدلة، في مقابلة ما نسبوه إليه من الجنون بسكوتهم وقول عظيمهم بغير شبهة، فكان قوله أنكأ مع أنه ألطف، وأوضح مع أنه أستر وأشرف.

فلما قطعه ووصل معه إلى ما إن سكت عنه أوهن من حاله، تكلم بما السكوت أولى منه فـ﴿قَالَ﴾ عادلًا عن الحجاج بعد الخوض فيه إلى المغالبة التي هي علامة الانقطاع: ﴿لَئِنِ

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ﴾ مدافعًا بالتي هي أحسن حتى لا يبقى عذر ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ التي تقدم أن الله أراه آياتها ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ التي احترقت لما أخذ الجمرة في حجر فرعون، واجتهد فرعون في علاجها فعجز.

﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ لما وضح له الأمر، يموه على عقولهم خوفًا من إيمانهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ ولا ينفي ذلك أن يكون قومه قالوه إظهارًا للطواعية كما مضى في الأعراف.

ولما أوقفهم بما خيلهم به، أحماهم لأنفسهم فقال ملقيًا لجلباب الأنفة؛ لما قهره من سلطان المعجزة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ ولم يأمروا بقتله ولا بما يقاربه، فسبحان من يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شيء ولا يهاب هو غيرَ خالقه ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ يجمعون السحرة بكره. ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: متناه في العلم به بعد ما تناهى في التجربة ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ حثًا لهم على الإسراع إلى الاجتماع بأمر فرعون، وامتحانًا لهم هل رجعوا عن دينه؟ علمًا منه بأن ما ظهر من المعجزة موجب لاتباعه ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وزين لهم هذا القائلُ البقاءَ على باطلهم بذكر جانب السحرة فقط، وإن كان شرط فيه الغلبة فقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ زادها هنا زيادة في تأكيد إبعاده عن الإيمان مع وضوح البرهان؛ تسليةً له ﷺ، وما بعد ذلك من مسارعة السحرة للإيمان بعد إقسامهم بعزته بغاية التأكيد تحقيقٌ لآية: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقيًا ألقاهم بغير اختيارهم، علمًا منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٧ قَالَ﴾ أي: فرعون، ولم يصرح به كما في الأعراف؛ لأن مقصود السورة ملائم للإعراض عنه والإراحه منه، منكرًا مبادرًا موهمًا أنه إنما يعاقب على المبادرة بغير إذن لا على نفس الفعل وأنه ما غرضه إلا التثبت؛ ليؤخر بهذا التخييلِ الناسَ عن المبادرة بالإيمان إلى وقت ما ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ أي: لأجله إعظامًا له بذلك(١٠٤) ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾.

هذا وكل من سمعه يعلم كذبه قطعًا فإن موسى عليه السلام ما ربي إلا في بيته، لا يعلم سحرًا ولا ألمّ بساحر، ولا سافر إلا إلى مدين، ثم لم يرجع إلا داعيًا إلى الله ﴿فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤٨﴾ وأتى بالتنفيس خشية أن لا يقدر عليهم فيظهر عجزه فيؤمنوا.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾ أي: لا ضرر أصلًا علينا بل لنا في الصبر عليه إن وقع أعظم الجزاء، وورد النفي الشامل هنا إيذانًا بأنه تعالى لم يُقدِر فرعون على عذابهم، تحقيقًا لما في أول القصة من الإشارة إلى ذلك بـ﴿كلا﴾ و﴿مستمعون﴾ فإن الإمكان من تابعيه يضيق صدره عليه السلام، ولِما يأتي في القَصص من قوله: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [الآية: ٣٥].

﴿إِنَّآ﴾ إن قدرك الله عليه ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾ أي: ولا بد لنا من الموت، وإنما حكمك على هذا الجسد ساعة من نهار، ثم لا حكم على الروح إلا لله. ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ وعللوا طمعهم مع كثرة الخطايا بقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾ أي: من أهل هذا المشهد.

﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ أي: رجالًا يجمعون الجنود بقوة وكره، ويقولون تحريكًا لهممهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة بأداة القرب إلى أنهم في القبضة وإن بعدوا، وأشاروا إلى تفرق قلوبهم بقولهم: ﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ لأن مدار المادة على التقطع، ودلوا بجمع القلة على أنهم أوزاع ليس لهم أهبة لقتال فقالوا: ﴿قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ ولما ذكر أن في اتباعهم شفاء

---

(١٠٤) قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿قال فرعون آمنتم به﴾ [الأعراف: ١٢٤]: "والضمير في ﴿به﴾ عائد على الله تعالى؛ لقولهم: ﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾ [الأعراف: ١٢١] ... وفي طه والشعراء يعود في قوله: ﴿له﴾ على موسى لقوله: ﴿إنه لكبيركم﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]" [البحر المحيط: ٥/ ١٤٠، الفكر].

الغلل، أتبعه ما ينفي عن المتقاعد العلل فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ أي: نحن -مع إجماع قلوبنا- من طبعنا الحذر فلا نزال على أهبة القتال.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَۖ﴾ أي: مثل ذلك الإخراج العجيب ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ أي: جعلناهم بحيث يرثونها، لأنا لم نبق لهم مانعًا منها. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ ضعفًا وعجزًا، استصحابًا لما كانوا فيه عندهم من الذل، وكأنه عبر عنهم بـ«أصحاب» دون «بني إسرائيل» لأنه كان قد آمن كثير من غيرهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ إلى ما فيه خلاصكم.

﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾ أي: فتسبب عن كلامه الدال على المراقبة أنا أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ﴾ أي: علامة عظيمة على ما قال الرسول موجبة للإيمان به ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: الذين شاهدوها والذين وُعظوا بسماعها ﴿مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ أما القبط فما آمن منهم إلا قليل، وأما بنو إسرائيل فكان كثير منهم مزلزلًا يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر، وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾.

ولما أتم سبحانه ما أراد من قصة موسى عليه السلام، أتبعه بقصة إبراهيم عليه السلام لِما تقدم فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ﴾ مبتهجين بسؤاله، مظهرين الافتخار في جوابهم بإطالة الكلام: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾ فجروا على منوال هؤلاء في داء التقليد الناشئ عن الجهل: بنفس العبادة، وبظنهم أنهم ظفروا بأمر عظيم غفل الخلق عنه، وزاد قوم إبراهيم عليه السلام أن استمروا على ضلالهم وأبوه معهم، ولم تكن له حيلة إلا دعاؤهم، فهو أجدر بشديد الحزن وببخع نفسه عليهم، وهو موضع التسلية.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢﴾ أي: استحضروا أحوالكم معهم من أول عبادتكم لهم وإلى الآن: هل سمعوكم وقتًا ما ليكون ذلك مرجيًا لكم لحصول نفع منهم في وقت ما؟ ولما كان المقصود بالذات للداعي جلب النفع، قدمه فقال: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ

﴿يَضُرُّونَ ٧٣﴾ على التَّرك؟ ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَا ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ فنحن نفعل كما فعلوا؛ لأنهم أعقل منا وأعظم تجربة، فلولا أنهم رأوا ذلك حسنًا ما واظبوا عليه، هذا مع أنهم لو سلكوا طريقًا حسية حصل لهم منها ضرر حسي ما سلكوها قط، ولكن هذا الدين يهون على الناس فيه التقليد بالباطل قديمًا وحديثًا.

﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ﴾ ولما أجابوه بالتقليد، رقّاه إلى أقصى غاياته؛ ليدل على أن التقدم لا يكون برهانًا على الصحة، والباطل لا ينقلب حقًا بالقدم، فقال: ﴿ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦﴾ أي: الذين هم أقدم ما يكونون، هل لهم وصف غير ما أقررتم به من عدم السماع والنفع والضر؟ ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ أعاملهم في إبطالهم معاملة الأعداء وكل من عبدهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ولما كان في آبائهم الأقدمين من عبد الله وحده قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾.

ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من أنه على الضد الأقصى من كل ما عليه أصنامهم فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ لأنه لا يعلم باطن المخلوق ويقدر على كمال التصرف فيه غير خالقه، ولا شك أن الخلقَ للجسد والهدايةَ للروح، وبالخلق والهداية تحصل جميع المنافع، والإنسان له قالب من عالم الخلق وقالب من عالم الأمر، وذكر الخلق بالماضي لأنه لا يتجدد في الدنيا، والهداية بالمضارع لتجددها وتكررها دينًا ودنيا ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾. ولما كان المرض ضررًا، نزهه عن نسبته إليه أدبًا فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾.

ولما ذكر البعث ذكر ما يترتب عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ فدل صنيعه على أن تقديم الثناء على السؤال أمر مهم وله في الإجابة أثر عظيم. ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ أي: عملًا متقنًا بالعلم ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ لأكون للمتقين إمامًا فيكون لي مثل أجورهم، فإن «من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ولما طلب سعادة الدنيا وكانت لا نفع لها إلا باتصالها بسعادة الآخرة التي هي الجنة، وكانت الجنة لا تنال إلا بمنّه تعالى، شبه إدخالها بالإرث الذي يحصل بغير اكتساب من الوارث فقال: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ خَصَّه بالدعاء لأن أمه كانت

آمنت، ولو كانت كافرة لسأله فيها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.
ولما نبه على أن المقصود هو الآخرة، صرح بالتزهيد في الدنيا بتحقير أجلِّ ما فيها فقال:
﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ
يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ﴾ بعد ذلك السؤال، إظهارًا لعجزهم بالفعل حتى
عن الجواب ﴿فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ولما كان الإنسان مطبوعًا على أن يقول في كل شيء ينوبه: ما يثيره له إدراكه مما يرى أنه يبرد
من غلته: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ
﴿١٠١﴾﴾ لأنا قاطعنا بذلك كل من له أمر في هذا اليوم. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ
﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ أي: عظيمة على بطلان الباطل وحقوق الحق ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّومِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

ثم عقب بقصة الأب الثاني لأنها أدل على صفتي الرحمة والنقمة التي هي أثر العزة بطول
المهلة، ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الأرض فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٠٥﴾﴾ أي: بتكذيبهم نوحًا، وقد سئل الحسن البصري رحمه الله عن ذلك فقال: "من كذب
واحدًا من الرسل فقد كذب الكل؛ لأن الآخر جاء بما جاء به الأول" حكاه عنه البغوي.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ وأشار إلى نسبه فيهم بقوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾ زيادة في تسلية هذا النبي الكريم ﷺ
﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾. ولما أثبت أمانته
نفى تهمته فقال: ﴿وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ليظن ظان أني جعلت الدعاء سببًا له.
﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ فأعاده إعلامًا بأهميته
وتأكيدًا له في قلوبهم لِما يعلم من جلافتها.

فأجابوا بما ينظر إلى محض الدنيا بأن ﴿۞قَالُواْ﴾ منكرين لاتباعه استنادًا إلى داء الكبر
الذي ينشأ منه بطر الحق وغمط الناس أي: احتقارهم: ﴿أَنُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾
فيكون إيماننا بك سببًا لاستوائنا معهم!

فكان ما متعوا به من العرض الفاني مانعًا لهم عن السعادة الباقية، وأما الضعفاء فانكسار قلوبهم وخلوها عن شاغلٍ موجبٌ لإقبالها على الخير وقبولها له، فكان مثال المستكبرين مثال شخص كان آخر دونه بدرجة، فأصبح فوقه بدرجة، فأنف من أن يرتقي إلى درجته لئلا يساويه، ورضي لنفسه أن يكون دونه، فما أسخف عقله!

ولما كانت الجواهر متساوية في أنها مخلوقات الله وإنما تتشرف بآثارها، فالآدمي إنما يشرف أو يرذل بحاله من قاله وفعاله، أشار إلى أنه يعتبر ما هم عليه الآن من الأحوال الرفيعة، فلذلك ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٢﴾ أي: وما لي وللبحث عن ذلك، إنما لي ظاهرهم الآن وهو خير ظاهر، فهم الأشرفون وإن كانوا أفقر الناس وأخسهم نسبًا، فإن الغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ١١٣ وَمَا أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لا وكيل مناقش على البواطن ولا متعنت على الاتباع ﴿مُّبِينٌ ١١٥﴾ أوضح ما أرسلت به فلا أدع فيه لبسًا.

ولما أيأسهم مما أرادوا، أقبلوا على التهديد بأن ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾. ولما أيس منهم بما أظهروه ﴿قَالَ﴾ شاكيًا إلى الله تعالى ما هو أعلم به منه توطئة للدعاء عليهم، معرضًا عن تهديدهم له صبرًا واحتسابًا ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: حكمًا يكون لي فيه فرج ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: عظمية على أنا ننتقم ممن عصانا وننجي من أطاعنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾.

ولما كان هذا الأمر الهائل مقتضيًا لاتعاظ من بعدهم، بيّن حالهم بقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: علامة على شدتكم؛ لأنه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعضها دون كلها، ولما كان إثباتهم لقوتهم بمثل هذا قليل الجدوى عند التأمل قال: ﴿تَعْبَثُونَ ١٢٨﴾ والعاقل ينبغي له أن يصون أوقاته النفيسة عن العبث الذي لا يكون سبب نجاته، وكيف يليق ذلك بمن الموت من ورائه!

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ هي في إحكامها بحيث تأكل الدهر قوة وثباتًا، فلا يبنيها إلا من حاله حال الراجي للخلود، ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾. ولما بين أن عملهم عمل من لا يخاف الموت، أتبعه ما يدل على إنكارهم الجزاء فقال: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾ أي: بأحد ﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ قال البغوي: "والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب".

﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَاتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾ وتعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب ﴿قَالُواْ﴾ راضين بما عندهم من داء الإعجاب، الموقع في كل ما عاب: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ فإنّا في الحالتين لا نطيعك. ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ أي: كذبهم، أو: عادتهم في الحياة والموت والعافية والبلاء، وعليه تدل قراءة الضم ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾ لأنّا أهل قوة وبراعة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ﴾ أنه مع أوليائه وعلى أعدائه، ومن كان معه لا يذل ومن كان عليه لا يعز ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾ أي: أكثر من كان بعدهم ﴿مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾. ودل عليه بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١﴾ وأشار إلى زيادة التسلية بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّى لَكُمۡ رَسُولٌ﴾ فلذلك عرضت عليكم هذا؛ لأني مأمور بذلك وإلا لم أفعل ﴿أَمِينٞ ١٤٣﴾. ولما صار له بذكر الرسالة عذر في المواجهة قال: ﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥﴾.

ثم شرع ينكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره فقال: ﴿۞أَتُتۡرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦﴾ أي: وأنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم! ﴿فِى جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ﴾ إظهارًا للقدرة ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ أي: مظهرين النشاط والقوة تعظمًا وبطرًا لا لحاجتكم إليها، فلذلك أقول لكم: ﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما كان ربما ادعي في بعض الفساد أن فيه صلاحًا، نفاه بقوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾.

ولما دعا إلى الله تعالى بما لا خلل فيه، فعلموا عجزهم عن الطعن، عدلوا إلى التخييل على الضعفاء بأن ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ وإتباعهم الوصف

من غير عطف يدل على أنهم غير جازمين بتكذيبه، ويؤيده قولهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ بخلاف ما يأتي قريبًا في قصة شعيب عليه السلام ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ وإن قلّ لأن ما كان من عند الله يجب إكرامه ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ۝١٥٧﴾ على عقرها لتحقق العذاب.

وأشار إلى أن ذلك الندم لا للتوبة، أو أنه عند رؤية البأس فلم ينفع، أو كناية عن أن حالهم صار حال النادم لا أنهم ندموا، فإنه نُقل أنه أتاهم العذاب وهم يحاولون قتل صالح ﷺ = بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يخرج شيء من قبضته ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝١٥٩﴾ وفي تكرير هذه الآية مع التأكيد، وإتباعها بذكر كفر من أتى بعد أصحابها من غير اتعاظ، أعظم تسلية للنبي ﷺ وتخويف لكل عليم حليم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: في السكنى لا النسب؛ لأنه ابن أخي إبراهيم ﷺ وهما من بابل، وكأنه عبر بالأخوّة لاختياره لمجاورتهم ومصاهرتهم والإيلاد من نسائهم ﴿لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣﴾ لأني لا آمركم إلا بما يرتضيه، ولا أنهاكم إلا عما يغضبه. ﴿وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ ولعلهم كانوا يفعلون بالذكور من غير الآدميين توغلًا في الشر وتجاهرًا بالتهتك؛ لقوله: ﴿مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٥﴾ أي: كلهم، أو: من بين العالمين أي: أنكم اختصصتم بذلك.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ وليس ذلك ببدع منكم، فإن العدوان -الذي هو مجاوزة الحد في الشر- وصف أنتم عريقون فيه، فلذا لا تقفون عند حد حده الله. فلما اتضح الحق، أعلم بانقطاعهم وأنهم عارفون أنه لا وجه لهم في ذلك أصلًا لعدولهم إلى الفحش، بقوله: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾ إشارة إلى أن عادتهم المستمرة نفي من اعترض عليهم.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾ أي: المشهورين والعريقين ببغض هذا العمل الفاحش، المذكورين بين الناس بمنابذة من يفعله، والقلاء: بغض شديد كأنه يقلي الفؤاد ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا﴾ أي: من الجزاء الذي يلحقهم لما ﴿يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾.

وأشار إلى قبول دعائه بقوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ مما عذبناهم به، ولم يؤخره عنهم إلى حين خروجه إلا لأجله ﴿أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١﴾ لمخالفته في الدين وكان هواها مع قومها ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾. ولما كان في جري المكذبين والمصدقين على نظام واحد من الهلاك والنجاة أعظم عبرة وموعظة قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في بطشه بأعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾ في لطفه بأوليائه ورفقه بأعدائه، بإرسال الرسل وبيان كل مشكل.

ثم وصل بذلك دليله فقال: ﴿۞ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ ولما كانوا أهل بدو وشعيب قرويًا لم يقل: أخوهم، إشارة إلى أنه لم يرسل نبيًا إلا من أهل القرى؛ لأن البركة والحكمة في الاجتماع، ولذلك نهى النبي ﷺ عن التعرب بعد الهجرة وقال: «من يرد الله به خيرًا ينقله من البادية إلى الحاضرة»، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾ وقد اتضح أن دعوة الرسل واحدة، مع النصح والأمانة والخشية والمحسبة.

﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟﴾ لعله إشارة إلى ما يعرض من نحو ذلك من الخواطر أو الهيئات التي يغلب الإنسانَ فيها الطبعُ ثم يرجع عنها رجوعًا يمحوها، ولذلك قال: ﴿مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١﴾ أي: الذين يُخسِرون أي: يُنقِصون أنفسَهم أديانَها بإخسار الناس دنياهم.

ولما أمر بوفاء الكيل أتبعه بمثل ذلك في الوزن فقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾ أي: الذين اختبلوا فصار كلامهم على غير نظام. وأشاروا إلى عدم صلاحية البشر مطلقًا للرسالة بقولهم، عاطفين بالواو إشارة إلى عراقته فيما وصفوه به وأنه لا فرق بينه وبينهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾ والعطف أبلغ؛ لجزمهم بكذبه حتى أداهم إلى الاستهزاء بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾.

ولما كان عذاب العاصي يتوقف على العلم بأعماله والقدرة على نكاله ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ وهي سحابة على نحو ما طلبوا من قطع السماء، أتتهم بعد حر شديد فوجدوا منها بردًا وروحًا طيبًا، فاجتمعوا تحتها استرواحًا إليها، فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا بنحو مما اقترحوا، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

ولما كان الحال موجبًا للسؤال عن يوم الظلة، قال تعالى مهولًا لأمره: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء المطرد للرسل وأتباعهم، والأخذ المطرد لمن عصاه ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾ على صدق الرسل وأن يكونوا جديرين بتصديق العباد لهم في جميع ما قالوا ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾ ولعله كرر هذا الختام في هذه السورة ثماني مرات؛ للإشارة إلى سبق الرحمة للغضب، مع ما له من الروعة في النفس.

وأشار إلى ما في الإخبار عن هذه القصص من عظيم الدلالات على رسالته ﷺ، بما فيها من الإعجاز في الأساليب وفي أن الآتي بها أمي لم يخالط عالمًا قط = بقوله ردًا للمقطع على المطلع: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾ فاقتضت حكمته أن يكون هذا الذكر جامعًا لكونه ختامًا، وأن يكون معجزًا لكونه تمامًا.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ دلالة على أنه مادة خير وأن الأرواح تجيء بما ينزله من الهدى ﴿ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ فلا تمكن منه الخيانة. ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي: يا محمد الذي هو أشرف القلوب وأوعاها، لا زيغ فيه ولا عوج، فدخوله إليه في غاية السهولة حتى كأنه وصل إليه بغير واسطة السمع، عكس ما يأتي عن المجرمين، وهكذا كل من وعى شيئًا غاية الوعي، حفظه كل الحفظ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ وإنما كانت عربيته وإبانته موضحة لسبقه قلبه؛ لأن من تكلم بلغته -فكيف بالبيّن منها- تسبق المعاني الألفاظَ إلى قلبه، فلو كان أعجميًا لكان نازلًا على السمع؛ لأنه يسمع أجراس حروف ولا يفهم معانيها.

ولما كان الاستكثار من الأدلة مما يسكن النفوس وتطمئن به القلوب قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ فإن قريشًا كانوا كثيرًا ما يرجعون إليهم ويعولون في الأخبار الإلهية عليهم، فإن كثيرًا منهم أسلم وذكر تصديق أسفار الأنبياء للقرآن في صفة النبي ﷺ، وقد عربت كتبهم بعد ذلك وأخرج منها علماء الإسلام كثيرًا مما أهملوه حجة عليهم، ولا فرق في ذلك بين من أسلم منهم وبين

غيرهم، فإنها حين نزول القرآن كان التبديل قد وقع فيها بإخبار الله تعالى، وكذلك كل ما استخرج من الكتب يكون حجة على أهلها.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا السلك العجيب الذي هو سماع وفهم ظاهري، في صعوبة مدخله وضيق مدرجه، ولما لم يكن السياق مقتضيًا لما اقتضاه سياق الحجر من التأكيد، اكتفى بمجرد الحدوث فقال: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٠٠﴾. وبين المعنى بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: من أجل ما جبلوا عليه من الإجرام ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٢٠١﴾. ولما كان إتيان الشر فجأة أشد قال: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٢﴾. ودل على شدة وقعه عليهم بقوله: ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾ أي: مفسوح لنا في آجالنا لنسمع ونطيع؟

ولما حقق حالهم عند الأخذ تسبب عنه الإنكار عليهم بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ وقد تبين لهم كيف كان أخذه للأمم الماضية ﴿يَسْتَعْجِلُونَ ٢٠٤ *أَفَرَءَيْتَ﴾ أي: هب أن الأمر كما يعتقدون ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾ ولما كانت حياة الكافر في غاية النكد وإن كان في أصفى رغد، عبر بما يدل على القحط فقال: ﴿سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ وأعراها من الواو لأن الحال لم يقتض التأكيد كما في الحجر؛ لأن المنذرين مشاهدون. ثم علل الإنذار بقوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وجعل المنذِرين نفس الذكرى كما قال: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرًا رسولًا﴾ [الطلاق: ١٠] إشارة إلى إمعانهم في التذكير حتى صاروا إياه ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾.

ولما أخبر أن غاية إنزال هذا القرآن كونه ﷺ من المنذرين، قرر أنه من عند الله بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠﴾ ليكون سحرًا أو كهانة أو شعرًا أو أضغاث أحلام كما يقولون. ولما كان لا يلزم من عدم التلبس بالفعل عدم الصلاحية له قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ لأنه خير كله وبركة، وهم مادة الشر والهلكة ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ٢١١﴾ وإن اشتدت معالجتهم على تقدير أن يكون لهم قابلية لذلك. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ٢١٢﴾.

ولما كان تقديره أنهم إلى الطواغيت الباطلة يدعون، والقرآن داع إلى الله الحق المبين، سبب عنه قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ

﴿٢١٤﴾ وإنذارهم يفهم إنذار غيرهم من باب الأولى، ويكسر من أنفة الأبعد لأنه سلك به مسلك الأقرب.

ولما كانت النذارة إنما هي للمتولين، أمر بضدها لأضدادهم فقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ أي: هم فغيرهم من باب الأولى ﴿فَقُلۡ﴾ تاركًا لما كنت تعاملهم به حال الإيمان من اللين: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ﴾ فيما تقدم ﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾. ثم أتبع الأمر به: الوصف بما يقتضي الكفاية فقال: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ وشمول العلم يستلزم تمام القدرة وفي ذلك تثبيت للمتوكِّل.

ولما بين سبحانه أن القرآن مناف لأقوال الشياطين، وأن حال النبي ﷺ موافق لحال الروح الأمين النازل عليه بالذكر الحكيم، قال متممًا لدفع اللبس عن كون القرآن من عند الله: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ إلى الشياطين ويصغون إليهم؛ لِمَا بينهما من التعاشق بجامع إلقاء الكذب من غير اكتراث ولا تحاش، أو: يلقي الشياطين ما يسترقون استماعه من الملائكة إلى أوليائهم، فهم بما سمعوا منهم يحدثون، وبما زينت لهم نفوسهم يخلطون ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾ انهماكًا في شهوة علم المغيبات الموقع في الإفك والضلالات.

ولما بطل كونه سحرًا وكونه أضغاثًا ومفترى، نفى كونه شعرًا بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ﴾ لاستحسان مقالهم وفعالهم، فيتعلمون منهم وينقلون عنهم ﴿ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾ عن السنن الأقوم إلى الزنى والفحش وكل فساد يجر إلى الهلاك، وهم كما ترى بعيدون من أتباع محمد ﷺ ورضي عنهم، الساجدين الباكين الزاهدين.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ﴾ من أودية القول ﴿يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ أي: يسيرون سير الهائم حائرين، وعن طريق الحق جائرين، كيفما جرهم القول انجروا ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ أي: لأنهم لم يقصدوه، وإنما ألجأهم إليه الفن الذي سلكوه، فأكثر أقوالهم لا حقائق لها، وهذا بخلاف القرآن فإنه معان جليلة محققة، في ألفاظ متينة منسقة، لا كلفة في شيء منها، فلا رغبة لذي طبع سليم عنها، فأنتج ذلك أنه لا يتبعهم على أمرهم إلا غاو مثلهم، ولا يزهد في هذا القرآن إلا من طبعه جاف وقلبه مظلم مدلهم.

ولما كان من الشعر كما قال النبي ﷺ حكمة، وكان الفيصل بين حسنه وقبيحه كثرة ذكر الله قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لم يشغلهم الشعر عن الذكر، بل بنوه على أمر الدين والانتصار للشرع، فصار لذلك كله ذكرًا لله. ويكفي الشاعر في التفصي عن ذم هذه الآية له ألا يغلب عليه الشعر فيشغله عن الذكر فيكون من الغاوين، وليس من شرطه أن لا يكون في شعره هزل أصلًا ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ بشعرهم فيمن آذاهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ بهجو ونحوه.

ولما أباح سبحانه الانتصار من الظالم، وكان البادئ أظلم إذا اقتصر المجيب على جوابه، فكان جديرًا إذا تجاوز بأن يعتدي فيندم، حذرهما الله بقوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾.

وقد انعطف آخرها على أولها في تعظيم الكتاب وتسلية النبي ﷺ ووعيد الكافرين.

سورة النمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها وصف هذا الكتاب بالكفاية لهداية الخلق أجمعين، وذلك يرجع إلى العلم المستلزم للحكمة، فالمقصود الأعظم منها إظهار العلم والحكمة، وأدل ما فيها على هذا المقصود: ما للنمل من حسن التدبير وسداد المذاهب في العيش، ولا سيما ما ذكر عنها سبحانه من صحة القصد في السياسة وحسن التعبير عنه.

ولما ختم التي قبلها بتحقيق أمر القرآن وأنه من عند الله، قال هنا: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي: الجامع ﴿وَكِتَابٖ﴾ أي: هو مع كونه جامعًا لما يصلح المعاش والمعاد، قاطع في أحكامه، غالب في إحكامه في كل من نقضه وإبرامه، وعطفه دون إتباعه للدلالة على أنه كامل في كل من الوصفين. ولما كانت العناية هنا بالنشر -الذي هو من لوازم الجمع في مادة «قرا»- أكثر قدم القرآن، يدل عليه انتشار الهدهد، وانتشار المرأة وقومها وعرشها، وافتراق ثمود إلى فريقين، وانتشار قوم لوط عليه السلام إلى ما لا يحل، ونشر الرياح، وتقسيم الرزق، إلى غير ذلك مما إذا تدبرت السورة انفتح لك بابه، وهذا بخلاف ما في الحجر.

﴿مُّبِينٍ ١ هُدٗى﴾ ولما كان الشيء قد يهدي إلى ما يكدر الحال، قال نافيًا لذلك: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ ولما كان وصف الإيمان خفيًا، وصفهم بما يصدقه من الأمور الظاهرة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عبر فيه بما يقتضي الاختصاص للدلالة على غاية الرسوخ فقال: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾.

ولما أفهم التخصيص أن ثَم مكذب، بيّنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: القبيحة فلم يخافوا من عاقبتها مع ظهور قباحتها ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾ أي: يترددون في الضلال ويتمادون فيه، ثم ذكر ما يختصون به من ضد ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾ أي: الأشد خسارة؛ لأنهم خسروا أنفسهم التي لا يمكنهم إخلافها.

ولما كان الكفرة يتلقون كفرهم الذي هو في غاية السفه، إما عن الشياطين الذين هم في غاية الشر، وإما عن آبائهم الذين هم في غاية الجهل، وصف النبيَّ ﷺ بضد حالهم فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ﴾ ولما قدم في هذه أنه هدى، وكان الهادي لا يوثق بهدايته إلا إن كان في علمه حكيمًا، قدم وصف الحكمة فقال: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

ثم قال دالًا على الوصفين: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: زوجه ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم﴾ عبّر عنها بضمير الجمع سترًا لها، وجزم بالوعد؛ لأن مقصود السورة يرجع إلى العلم، وللتعبير بـ«الخبر» الشامل للهدى وغيره، فكان تعلق الرجاء به أقوى من تعلقه بخصوص كونه هدى ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من الملائكة والأراضي المقدسة، وحق لها أن تكون كذلك لأنها مبعث الأنبياء ومهبط الوحي عليهم وكفاتهم أحياء وأمواتًا.

﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ ولما كان تعليق التنزيه بالاسم العَلَم دالًا على أنه يستحقه لمجرد ذاته، وصفه بما يعرِّف أنه يستحقه أيضًا لأفعاله التي منها ما يريد أن يربي به موسى عليه السلام كبيرًا بعد ما رباه به صغيرًا فقال: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ثم أفهمه مما تضمن ذلك وصفين يدلانه على أفعاله معه فقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يصل إلى ما يريد، ولا يوصل إلى شيء من غير الطريق التي يريد ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ الذي ينقض كل ما يفعله غيره إذا أراد، ولا يقدر غيره أن ينقض شيئًا من فعله.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ كالسحرة الذين آمنوا بعد ذلك، فإني أغفره له بحيث يكون كأنه لم يعمله أصلًا.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: سبب الإبصار لكونها منيرة ظاهرة جدًا ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ ولما كان الجحد إنكار الشيء مع العلم به، حقق ذلك بقوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ فكانت ألسنتهم مخالفة لما في قلوبهم، ولذلك أسند الاستيقان إلى النفس، ثم علل جحدهم ووصفهم لها بخلاف وصفها فقال: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ أظهر موضع الضمير؛ ليدل على الوصف الذي كان سببًا لأخذهم، تهديدًا لكل من ارتكب مثله.

ولما تم بهذه القصة الدليل على حكمته، دل على علمه فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا﴾ شكرًا عليه، دلالة على شرف العلم وتنبيهًا لأهله على التواضع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥ *وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام محدثًا بنعمة ربه ومنبهًا على ما شرفه الله به؛ ليكون أجدر في قبول الناس ما يدعوهم إليه من الخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: فهم ما يريد كل طائر إذا صوّت، ولا بدع في أن الذي آتى كل نفس هداها يؤتيها قوة يتفاهم بها كل نوع منها فيما يريد، ويكون ذلك قاصرًا عن إدراك الإنسان؛ لخصوصه بالجزئيات الناشئة عن الحسيات.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ بدأ بهم لعسر جمعهم ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ ثنّى بهم لمشاركتهم لهم في ذلك من حيث تباعد أغراضهم ﴿وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ وقولها هذا يدل على علمها بأنهم لو شعروا بهم ما آذوهم؛ لأنهم أتباع نبي فهم رحماء.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ وفيه تنبيه على بر الوالدين في سؤال القيام عنهما بما لم يبلغاه من الشكر ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾.

والشكر في اللغة: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعمًا، وحاصله أنه اسم لمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم، والشكر ثلاثة أشياء- الأولى: معرفة النعمة بإحضارها في الخاطر، والثاني: قبولها بإظهار الفقر والفاقة فإن ذلك شاهد بقبولها حقيقة، والثالث: الثناء بها على المنعم بما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك عن مقامه.

وهو على ثلاث درجات: **الأولى**: الشكر على المحاب، ومن سعة بره سبحانه أنْ عدّه شكرًا مع كونه واجبًا على الشاكر، ووعد عليه الزيادة، وأوجب فيه المثوبة إحسانًا ولطفًا، **الثانية**: الشكر في المكاره، وهو إما من رجل يستوي عنده المكروه والمحبوب، فإذا نزل به المكروه شكر الله عليه بإظهار الرضا، وإما من رجل يميز بين الأحوال فلا يرضى بنزول المكروه، فإن نزل به فشُكْره عليه إنما هو كظم الغيظ لرعاية الأدب وإن كان باطنه شاكيًا، **والثالثة**: شهود المنعم وحده باشتغاله بالاستغراق في مشاهدته عن مشاهدة النعمة.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ وذكره له دونهم يدل على عظيم منزلته فيما له عنده من النفع. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تأديبًا له وردعًا لأمثاله ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾ تأديبًا لغيره ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وفي هذه المكافحة التنبيه على أن أضعف الخلق قد يؤتى ما لا يصل إليه أقواهم؛ لتتحاقر إلى العلماء علومهم ويردوا العلم في كل شيء إلى الله، وفيه إبطال لقول الرافضة: إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه من هو أعلم منه.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أدنى رتبة من رتبه تعالى وهي رتبة الأفعال؛ لأنها مصنوع من مصنوعاته، سواء كان ذلك استقلالًا أو مع الشرك ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ أي: حصل لهم هذا العمى الذي استولى به عليهم الشيطان لانتفاء سجودهم، أو: زين لهم لئلا يسجدوا ﴿لِلَّهِ﴾ فإنهم لو سجدوا له لاهتدوا، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ففات الشيطانَ ما يقصده منهم من الضلال.

﴿ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولما كان السياق للانفراد بالإلهية المقتضية للقهر والكبر قال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ بخلاف آية المؤمنون(١٠٥)، وهذه آية سجدة، لأن مواضع السجود إما مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها أو أمر به، والكل ناظر إلى العظمة.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ ودل على إسراعه عليه السلام بقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ وبالفاء في قوله: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ ولما كان من شأن الملوك ألا يصل إليهم أحد بشيء إلا على أيدي جماعتهم، عظمت هذا الكتاب بوصوله إليها على غير ذلك فقالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾ كما يفعل الملوك؛ لأني داعٍ إلى رب كل شيء، فيجب الخضوع له ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ بما رأيتم من معجزتي في أمر الكتاب.

---

(١٠٥) في قوله تعالى: ﴿رب العرش الكريم﴾ الآية: ١١٦.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾ ودل هذا على غزارة عقلها وحسن أدبها، ولذلك جنت ثمرة أمثاله: طاعتهم لها في المنشط والمكره ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ ٣٣ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٤﴾. ولما علمت أن من سخر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شيء، مالت إلى المسالمة فـ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٥ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ أي: تقع منهم موقعًا، قال البغوي: "وهي العطية على طريق الملاطفة".

﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٦ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ وإنما قصدي لكم لأجل الدين! تحقيرًا لأمر الدنيا وإعلامًا بأنه لا يرضيه شيء دون طاعة الله ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والملك والقرب منه سبحانه ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾ أي: من الملك الذي لا نبوة فيه ولا تأييد من الله ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٧﴾ بتجويزكم أن الدنيا تردني عنكم لأنها غاية قصدي، ويجوز: ﴿تفرحون﴾ أي: بما يُهدى إليكم فتتركون من كنتم تريدون غزوه لأجل ما آتاكم منه من الدنيا، فحالي خلاف حالكم فإنه لا يرضيني إلا الدين ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٨﴾ إن لم يقروا بالإسلام.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾ لترى بعض ما آتاني الله من الخوارق، فيكون أعون على متابعتها في الدين ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٩ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٤٠﴾. ولما كانت القصة لإظهار فضل العلم المستلزم للحكمة ترغيبًا في القرآن، أتبعه قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ﴾ تنبيهًا على أنه اقتدر على ذلك بقوة العلم؛ ليفيد ذلك تعظيمه والحث على تعلمه، وبين أن هذا الفضل إنما هو للعلم الشرعي فقال: ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وفيه إشارة إلى أن من خدم كتابًا حق الخدمة كان الله معه ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ﴾ فأعترف بكونه فضلًا ﴿أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ بظن أني أوتيته باستحقاق ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤١﴾.

ولما قدم -كما هو دأب الصالحين- الشكر، فعل في العرش ما أراده ليختبر عقلها فـ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ﴾ إلى معرفته فيكون سببًا لهدايتها في الدين ﴿أَمۡ تَكُونُ

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٤٢﴾ بل هم في غاية الغباوة لا يتجدد لهم اهتداء، ولو هدوا لوقفوا عند الشبه وجادلوا بالباطل.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ وكانت قد وضعته في بيت منيع ووكلت به حراسًا أشداء ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ وهذا يدل على نظر ثابت وطبع منقاد؛ لتجويز المعجزات والإذعان لها مع دهشة القدوم ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ ثم ذكر السبب في زيادة العلم وثباته فقال: ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ۝٤٣ وَصَدَّهَا﴾ عن كمال العلم كما صدها عن الدين ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٤﴾ أي: فكان ذلك سببًا -وإن كانت وافرة العقل- في اقتفائها آثارَهم في الدين.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾ وهو قصر جعل صحنه من الزجاج الصافي، وأجرى تحته الماء ودواب البحر ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ﴾ مؤكدًا؛ لكونه لحسن الصنعة وإحكامها لا يكاد يصدق أنه حائل دون الماء ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ ۝٤٥﴾.

فلما رأت ما فضله الله به من العلم المؤيد بالحكمة المكمل بالوقار المتمم بالخوارق، بادرت إلى طاعته علمًا بأنه رسول الله، فـ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾ فعمَّت بعد أن خصت ترقيًا من حضيض العمى إلى أوج الهدى.

ولما أتم هذه القصة المؤسسة على العلم المشيد بالحكمة المنبئة عن إطباق المدعوين فيها على الإسلام، مع إيالة الملك وغربة الداعي، أتبعها قصة انقسم أهلها مع الذل والفقر فريقين، مع أن الداعي منهم فعزه عزهم، مع ما فيها من الحكمة ودقيق العلم بإبطال المكر بعد طول الحلم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وعجّب منهم بما أشارت إليه الفاء وأداة المفاجأة من المبادرة إلى الافتراق بما يدعو إلى الاجتماع فقال: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ﴾ وبين بقوله: ﴿يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٧﴾ أنه افتراق بكفر وإيمان.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي العقوبة التي أنذرتكم بها ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ من الخيرات التي أبشركم بها إن آمنتم ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٨ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ فإنه وقع بيننا بسببكم الخلاف وكثر القول والإرجاف ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ﴾ أي: ما تيَمَّنون به فيثمر ما يسركم، أو تتشاءمون به فينشأ عنه ما يسوؤكم، وهو

عملكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإن شاء جعلنا سببه وإن شاء جعل غيرنا ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٩﴾ أي: تختبرون، هل تصلحون للخير بالتوبة فيخفف عنكم أو لا فتُمحَقوا؟

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ وقال في القاموس: "إن النفر ما دون العشرة غير أنه يفهم التفرق، والرهط يفهم العظمة والشدة والاجتماع"، ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ وقال: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى عموم فسادهم ودوامه، ولما كان الكفرة كلهم مفسدين بالكفر، وكان بعضهم ربما يُصلِح في بعض أفعاله، بين أن هؤلاء ليسوا كذلك فقال: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ ٥٠ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٥١﴾.

ولما كان عملهم عمل من لا يظن أن الله عالم به قال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ فكان مكرهم الذي اجتهدوا في ستره لدينا مكشوفًا فأبطلناه ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ هو المكر في الحقيقة فإنه لا يعلمه أحد ولذا قال: ﴿وَهُمۡ﴾ مع اعتنائهم بالفحص والتحرز ﴿لَا يَشۡعُرُونَ ٥٢﴾ فإنا جعلنا تدميرهم في تدبيرهم فأدخلناهم في خبر كان، وأما مكرهم فكانوا على اجتهادهم فيه قد جوّزوا فيه سلامة بعض من قصدوا إهلاكه فقالوا: ﴿ثم لنقولنّ لوليه﴾ فشتان بين المكرين. ولذا قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٣﴾ لم يفلت منهم مخبر ولا تفاوت فيه مقبل ومدبر. ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٤﴾ قال أبو حيان: "وخراب البيوت وخلوّها من أهلها مما يعاقَب به الظلمة"، ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٥﴾.

ولما فرغ من قصة القريب، أتبعها بغريب لم يتبعه ممن دعاهم إنسان، فقال دالًا على أن له تعالى الاختيار، فتارة يجري الأمور على القياس وأخرى على خلافه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٦﴾ أي: لكم عقول تعرفون بها الحسن والقبيح، وربما كان بعضهم يفعله بحضرة بعض كما قال: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت: ٢٩] فيكون من البصر والبصيرة.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ إنزال لهم إلى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد ولا عفاف وقال: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ إشارة لأنهم أساؤوا من الطرفين في الفعل والترك ﴿بَلۡ﴾ أي: إنكم لا تأتونهم لشهوة محوجة بل ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٞ﴾ ولما كان مقصود السورة إظهار العلم والحكمة، وكانوا قد خالفوا ذلك قال: ﴿تَجۡهَلُونَ ٥٧﴾ أي: تفعلون ذلك تزينًا بالشهوات.

وأشار إلى تغاليهم في الجهل وافتخارهم به بقوله: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ فأظهر ما أضمره في الأعراف لأنه أليق بسورة العلم ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٨﴾ أي: يعدون أفعالنا نجسة ويتنزهون عنها ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٩ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٦٠﴾.

ولما تم بما تقدم الدليل على حكمته سبحانه وعلمه ومباينته للأصنام في قدرته وحلمه، أمر نبيه ﷺ بأن يحمده شكرًا على ما علّم، ويقررهم بعجز أصنامهم فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومما يتنبه له أنه لم يرد في قصة لوط أكثر من نهيه لهم عن هذه الفاحشة، فلا يخلو حالهم: إما أنهم كانوا لا يشركون بالله، ولكنهم لما ابتكروا هذه المعضلة وجاهروا بها مصرين عليها أُخذوا بالعذاب لذلك، ولكفرهم بتكذيبهم رسولهم، وإما أنهم كانوا مشركين ولكنه ﷺ لمّا رآهم قد سفلوا إلى رتبة البهيمية، رتّب دعاهم منها إلى رتبة الإنسانية ثم الوحدانية، ويدل على هذا التقدير الثاني قوله مشيرًا إلى أنه تعالى أهلكهم ومن كفر قبلهم ولم تغن عنهم معبوداتهم شيئًا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦١﴾.

ثم عادله بقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٢﴾ أي: عن الحق مع العلم به. ولما فرغ من آية اشترك فيها الخافقان، ذكر ما تتفرد به الأرض؛ لأنهم أعلم بأحوالها منهم بالأمور السماوية فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ثم أتبعه دليله فقال: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ فلو اضطربت لتغيرت مجاري المياه، ثم ذكر سببه فقال: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ ولما أثبت لهم في ختام الأولى علمًا في الجملة، قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: المنتفعون بهذه المنافع ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٣﴾ لإعراضهم عن هذا الدليل الواضح.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٤﴾ بأن من أنجاهم هو المالك لجميع أمورهم. ولما ذكر المضطر ذكر ما هو من أعظم صور الاضطرار فقال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ إذا سافرتم بما رسم لكم من المعالم العلوية والسفلية ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ولما كانت الرياح من أدلة السير وبعضها من أدلة المطر قال: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾.

والرياح التي يهتدى بها في المقاصد أربع: الصبا والدبور والشمال والجنوب وهي أضعف الدلائل، وقال الأصمعي: "إذا جاءت الجنوب جاء معها خير وتلقيح، وإذا جاءت الشمال نشفت، ويقال للمتصافيين: ريحهما جنوب، وإذا تفرقا قيل: شملت ريحهما"، وقال أبو عبيدة: "الشمال عند العرب للروح، والجنوب للأمطار والندى، والدبور للبلاء، والصبا لإلقاح الشجر، وكل ريح من هذه الرياح انحرفت فوقعت بين ريحين فهي نكباء".

ولما كانوا في البحر يخلصون له سبحانه ويتركون شركاءهم، نبههم على أن ذلك موجب لاعتقاد وجوب الإخلاص له دائمًا فقال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣﴾. ثم ختم هذه الأدلة بما يعمها وغيرها، إرشادًا إلى قياس ما غاب منها على ما شوهد، فلزم من ذلك قطعًا القدرة على الإعادة فقال: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة، أمره ﷺ إعراضًا عنهم، إيذانًا بالغضب في آخرها أن يقول لهم: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ لتثبت دعوى الشركة في الخلق فتسمع دعوى الشركة في الألوهية، وفيه تهكم بهم في أنه لا كلام في وجود البرهان وإنما المراد الإتيان به، وتنبيه على أنهم أبعدوا في الضلال ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾.

ولما كانت مضمونات هذه البراهين متوقفة على علم الغيب، وكانوا ربما قالوا: سنأتي به، أعلم أنه لا برهان لهم عليه بل البرهان على خلافه، فقال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: الكامل في الغيبة، وهو الذي لم يخرج إلى عالم الشهادة أصلًا ولا دلت عليه أمارة، ولما كان منه وقت الساعة قال: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٦٥﴾.

ولما كانوا قاطعين بإنكار الآخرة، وكان الذي ينبغي للعالم أن لا يقطع بالشيء إلا بعد إحاطة علمه به، قال متهكمًا بهم: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ أي: بلغ وتناهى ﴿عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ ولما كانوا كاذبين في إنكارها قال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾ فإدراك العلم لوضوح الأدلة التي أعرضوا عنها، ثم نزلوا إلى درجة الشك، ثم أهلكوا أنفسهم بالعمى، وهذا كمن يسمع باختلاف المذاهب وتضليل بعضهم لبعض، فيضلل بعضهم من غير نظر في قوله فيصير كالأعمى، أو الشك لأن أعمالهم أعمال الشاك.

ثم ذكر ما يدل على الشك والعمى فقال: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا﴾ ولما كانت العناية هنا بالإيقان بالآخرة، قدم قوله: ﴿هَٰذَا نَحۡنُ

﴿وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧٠﴾ فحطّ كلامُهم على أنهم تارة ينكرون دأب المحيطِ العِلم، وتارة يستبعدون دأب الشاكِّ المركبِ الجهل.

ولما لم يبق بعد هذه الدلائل إلا التهديد قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٧١﴾ أي: القاطعين لما أمر الله به أن يوصل من الصلاة التي هي الوصلة بين الله وبين عباده، والزكاة التي هي وصلة بين العباد؛ لتكذيبهم الرسل الذين هم الهداة إلى ما لا تستقل به العقول، فكذبوا بالآخرة التي ينتج التصديق بها كل هدى، ويورث التكذيب بها كل عمى.

ولما كانت جلافتهم في عماهم مؤسفة للنبي ﷺ قال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن﴾ بإثبات النون؛ لأنه لا مقتضى للإبلاغ في نفي الضيق، بخلاف ما مضى في النحل فإن السياق هناك للعدل في العقوبة المقتضي لتعظيم التسلية بنفي جميع الضيق، ليكون ذلك حاملًا على الصبر بعدم مجاوزة الحد بل بالعفو ﴿فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٢﴾.

ولما ذكر تكذيبهم بالساعة أشار إلى أنهم بغيرها من الوعيد أشد تكذيبًا فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧٣ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٤﴾ فعلى تقدير وقوعه ماذا أعددتم لدفاعه؟ فإن العاقل من ينظر في عواقب أموره ويبنيها على أسوأ التقادير، فيعد لما يتوهمه من البلاء ما يكون فيه الخلاص.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ بترك معاجلتهم بالعذاب ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٥﴾. ولما كان الإمهال قد يكون من الجهل بذنوب الأعداء، قال نافيًا لذلك: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٧﴾.

ثم دل على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٨﴾. ولما ذكر علمه أتبعه حِلمه وفضله فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٩﴾. ولما ذكر فضله أتبعه عدله فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٠﴾. فلما ثبت ذلك تسبب عنه قوله: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ ثم علله حثًا على التحري في الأعمال بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٨١﴾.

ولما كان توقفهم عنه مع وضوحه عجبًا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ٨٠ وَمَا أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ والسياق يشعر بأن كفرهم ثلاث رتب: عليا ووسطى ودنيا ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ٨١﴾.

ثم ذكر ما يوعدون مما استعجلوه استهزاء، فقال محققًا بأداة التحقيق: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ من اليقين وهو إتقان العلم بنفي الشبه، بل هم فيها مزلزَلون، فلم يبق بعده ﷺ إلا كشف الغطاء. ولما كان من فعل الدابة التمييز بين المؤمن والكافر، تلاه بتمييز كل فريق منهما عن صاحبه فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المرئية بعدم الاعتبار، والمسموعة بردها والطعن فيها

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ سائلًا؛ إظهارًا للعدل بإلزامهم بما يقرون به من أنفسهم، وفيه إنكار وتقريع: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَ﴾ الحال أنكم ﴿لَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ حتى تعلموا ما يليق بها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨٤﴾ ولما كان التقدير بدلالة السياق: فأجابوا بما تبين به ظلمهم، عطف عليه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾.

ولما ذكر الحشر استدل عليه بحشرهم كل ليلة إلى المبيت، وإظهار الظلام -الذي هو كالموت- بعد النور، وبعث النور بعد إفنائه بالظلام فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ على التوحيد والبعث والنبوة، لأن من قلّب الملوين لمنافع الناس الدنيوية، أرسل الرسل لمنافعهم في الدارين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٨٦﴾.

ولما ذكر هذا الحشر الخاص ذكر الحشر العام، فقال مشيرًا إلى عمومهم بالموت كما عمهم بالنوم، وعمومهم بالإحياء كما عمهم بالإيقاظ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾. ولما ذكر دخورهم، تلاه بدخور ما هو أعظم منهم خلقًا فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وكذا كل كبير الجرم أو كثير العد، يكون سائرًا والناظر الحاذق يظنه واقفًا؛ لقصر البصر عن الإحاطة به لبعد ما بين أطرافه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا﴾ ولما كان في سياق البيان لعماهم ونفي العلم عنهم، عبر بالفعل الذي هو أعم من أن يكون بعلم أو لا فقال: ﴿يَفْعَلُونَ ٨٨﴾.

ولما كان من إتقانه للأشياء أنه رتب الجزاء أحسن ترتيب، ذكره فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ ولما كانوا قد نكسوا أعمالهم وعكسوها بعبادة غير الله، بيّن أنه ليس لهم إلا مثل سيئتهم فقال: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ أي: تكررون عمله وتزعمون أنه مبني على العلم.

ولما أوجب هذا الترغيب والترهيب لكل سامع أن يقول: فما الذي نعمل ومن نعبد؟ أجاب بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ تذكيرًا لهم بنعمته تعالى عليهم ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ لا كالملوك الذين ليس لهم إلا ما حموه على غيرهم ولما كانوا ربما قالوا: نحن نعبده، عين الدين الذي تكون به العبادة فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾.

ولما بين ما أمر به في نفسه، أتبعه ما تعم فائدتُه غيرَه فقال: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ باتباعه ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أي: الذي له العظمة كلها سواء اهتدى الكل أو ضلوا أو انقسموا؛ لأنه لا يخرج شيء عن مراده ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ بتذكركم ما أتوعدكم الآن به وأصفه لكم، فتظهر لكم عظمة القرآن وإبانة آيات الكتاب.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ من مخالفة أوامره، والمعنى على الخطاب: عما تعمل أنت وأتباعك من الطاعة وهم من المعصية، فيجازي كلًا بما يستحق، فلا يظن ظان أن تركه للمعالجة بعقابهم لغفلة عن أعمالهم، بل لأنه حد لهم حدًا هم بالغوه.

فقد رجع آخرها إلى أولها بإبانة الكتاب وتفخيم القرآن وتقسيم الناس فيه إلى مهتد وضال.

سورة القصص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقصودها التواضع لله برد الأمر كله إليه، وذلك هو المأخوذ من تسميتها بـ«القصص» الذي حكم لأجله شعيب بعلوّ الكليم عليهما السلام.

لما ختم تلك بالوعد المؤكد بأنه يظهر آياته وأنه ليس بغافل عن شيء، تهديدًا للظالم وتثبيتًا للعالم، قال أول هذه: ﴿طسٓمٓ﴾ مشيرًا بالطاء المُليحة بالطهر إلى خلاص بني إسرائيل بعد تطهيرهم بطول الابتلاء، وبالسين إلى السيادة التي تكون بمسموع من الوحي في ذي طوى من طور سيناء، وبالميم إلى قضاءٍ تامٍّ من الملك الأعلى بذلك.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ ثم أقام الدليل على إبانته وأنه ﴿يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم يختلفون﴾ [النمل: ٧٦] بما أورد هنا في قصة موسى عليه السلام من الدقائق، ولذلك بسط فيها من أمور القصة ما لم يبسط في غيرها فقال: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢﴾ أي: يجددون الإيمان في كل وقت عند كل حادثة لثبات إيمانهم، فعلم أن المقصود منها هنا الاستدلال على نبوة محمد ﷺ الأمّي بالاطلاع على ما لا يُعلم إلا بالتعلم أو الوحي، فصح أنها دليل على قوله تعالى آخر تلك: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ الآية، ويوضحه قوله تعالى في آخر القصة: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ ﴿وما كنت بجانب الطور﴾ [القصص: ٤٤، ٤٦].

وقال ابن الزبير: "لما تضمن قوله: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ إلى آخر السورة الإشعارَ بأنه ﷺ سيملك مكة لأنها بلد ربه وملكه وهو عبده ورسوله وله كل شيء فالعباد والبلاد ملكه، أتبع ذلك بما قصه من تطهير ما أشار إليه من قصة بني إسرائيل وامتحانهم بفرعون إلى أن نصرهم، ولهذا أشار في كلا القصتين بقوله في الأولى: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ وفي الثانية بقوله: ﴿ونُري فرعون وهامان﴾ [القصص: ٦]الآية.

وذكر بعد افتتاح السورة من خبر فرعون وآياته الباهرة في أمر موسى عليه السلام ما فيه عبرة، فإنه لم يزل يذبح الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه، حتى إذا كان ذلك المولود تولى بنفسه تربيته وحفظه وخدمته؛ ليعلم لمن التدبير والإمضاء، وكيف نفوذ سابق الحكم والقضاء، ثم أتبع ذلك بخروج موسى عليه السلام من أرضه خائفًا يترقب، وما ناله في ذلك

من عظيم السعادة، وفي ذلك منبهة لرسول الله ﷺ على خروجه من مكة وتعزية له وإعلام بأنه تعالى سيعيده إلى بلده ويفتحه عليه، وبهذا المستشعَر من هنا صرح آخر السورة في قوله: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [القصص: ٨٥]".

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقًا تتبع كل فرقة شيئًا وتنصره، والكل تحت قهره وطوع أمره، فرق بينهم لئلا يتمالؤوا عليه فلا يصل إلى ما يريده منهم، فافترقت كلمتهم فلم يَحْمِ بعضهم لبعض فتخاذلوا فسفل أمرهم ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾ ولما كان هذا أمرًا متناهيًا في الشناعة ولا له فائدة أصلًا؛ لأن القدر -على تقدير صدق من أخبره- لا يرده الحذر، قال تعالى مبينًا لقبحه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣﴾ أي: العريقين في هذا الوصف، فلا بدع أن يقع منه هذا الجزئي المندرج تحت ما هو قائم به من الأمر الكلي.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: مقدَّمين في الدين والدنيا، علماء يدعون إلى الجنة، عكس ما يأتي من عاقبة آل فرعون ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وذكر أنه مع مغالبة الجبابرة، إعلامًا بعظمه فقال: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٥﴾.

ولما كان التقدير: فكان ما أردناه، عطف عليه أول نعمه على الذين استُضعفوا فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ وعدل عن لفظ البحر؛ لأن القصد في اليم أظهر من السعة، ولما كان الخوف عما يلحق المتوقع، والحزن عما يلحق الواقع قال: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ﴾ وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ فأزال مقتضى الخوف والحزن، ثم زادها بشرى بقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فألقى الله تعالى عليهم محبته فاتخذوه ولدًا، وسموه موسى؛ لأنهم وجدوه في ماء وشجر، و«مو» بلسانهم: الماء، و«سا»: الشجر، ولما كان العاقل لا سيما المتحذلق، لا ينبغي له أن يقدم على شيء حتى يعلم عاقبته، فكيف إذا كان يدعي أنه إله، عبر سبحانه بلام العاقبة التي معناها التعليل تهكمًا بفرعون فقال: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: كلهم على طبع واحد ﴿كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٧﴾ أي:

دأبهم تعمد الذنوب والضلال عن المقاصد، فلا بدع في خطئهم في أن يربوا من لا يذبحون الأبناء إلا من أجله، مع القرائن الظاهرة في أنه من بني إسرائيل الذين يذبحون أبناءهم.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ولما كان هذا كله فعل من لا يعلم فلا يصح كونه إلهًا، صرح بذلك تسفيهًا لمن أطاعه في ادعاء ذلك فقال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٨﴾ أي: لا شعور لهم أصلًا؛ لأن من لا يكون له علم إلا بالاكتساب فهو كذلك، فكيف إذا كان لا يهذب نفسه باكتسابه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي: قد ذهب منه كل ما فيه من المعاني المقصودة التي من شأنها أن يربط عليها الجأش ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بعد أن رددنا إليه المعاني الصالحة التي أودعناها فيه، فلم تعلن به ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠ ۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه، استعار التحريم للمنع؛ لأنه منع فيه رحمة ﴿مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١١﴾ قال البغوي: "والنصح تصفية العمل من شوائب الفساد".

﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ مع ما تقدم من القرائن التي يكاد يقطع بها بأنه من بني إسرائيل، منها إلقاؤه في البحر على تلك الصفة، وأن المدلول عليها لإرضاعه منهم ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ وهو من العمر ما بين إحدى وعشرين إلى اثنتين وأربعين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ خرقًا للعادة ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تهيئة لنبوته، واختار سبحانه هذا السن للإرسال؛ لأنه يكون به ابتداء الانتكاس في عادة جميع بني آدم إلا الأنبياء، فإنهم في حد الوقوف يؤتون من قوة الأبدان وبحار العلوم بغير اكتساب، بل غريزة يغرزها الله فيهم حينئذ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إحكامًا لما جعلناه سببًا لنقلته، طهارةً من عشرة القوم الظالمين ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ وأخبر أنه ندم حالًا بقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾. ولما كان هذا الكافر ليس فيه شيء غير الندم لكونه عليه السلام لم يأته في

قتله إذن خاص أخبر عن مبادرته إلى الاستغفار على عادة البصراء بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٥﴾.

ولما أنعم عليه سبحانه بالإجابة إلى سؤله أخبر بشكره عليها بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ١٦﴾ أي: لا أكون بين ظهراني القبط فإن فساده كثير.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٧﴾ كون ما وقع بالأمس لم يكفك عن الخصومة لمن لا تطيقه وإن كنت مظلومًا. ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: من القبط ﴿قَالَ﴾ أي: الإسرائيلي، ظانًا أنه ما دنا إلا يريد البطش به هو لما أوقعه فيه لا بعدوه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٨﴾.

ولما كان تقدير الكلام الذي أرشد إليه السياق: فلما سمع الفرعوني قول الإسرائيلي تركه، ثم رقى الكلام إلى أن بلغ فرعون، عطف عليه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ ولما كان الأمر مهمًا يحتاج إلى مزيد عزم وقوة قدم فاعل المجيء على متعلقه، بخلاف ما في سورة يس ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ حتى وصل حالهم في تشاورهم إلى أن كلًا منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ١٩ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٠﴾ فاستجاب الله له فوفقه لسلوك الطريق الأعظم نحو مدين فنجى، وذلك أن الذين انتدبوا إليه قطعوا بأنه لا يسلكه جريًا على عادة الهاربين في المشي عساقًا أو سلوك ثنيات الطريق، فانثنوا فيما ظنوه يمينًا وشمالًا ففاتهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ﴾ ولما كانت عنايته بالله أتم لما له من عظيم المراقبة، قال مقدمًا له: ﴿رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢١ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ٢٢ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤﴾ وفي القصة ترغيب في الخير، وبعث على بذل المعروف مع الجهد.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ لأن المكافأة من شيم الكرام، وقبولها لا غضاضة فيه ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ

قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ قال أبو حيان: "وقولها قول حكيم جامع، لأنه إذا اجتمعت الأمانة والكفاية في القائم بأمر فقد تم المقصود".

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ معبرًا بالترجي لأنه أليق بالتواضع الذي هو مقصود السورة، وهو الحقيقة في إدراك الآدميين في مثل هذا، ولذا عبر بالجذوة التي مدار مادتها الثبات فقال: ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ولما كان هذا الاسم غيبًا، تعرّف بصفة هي مجمع الأفعال المشاهدة فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ تنسلك على لونها وما هي عليه من أثر الحريق الذي عجز فرعون عن مداواته، وأخرجها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ﴾ أي: من خشية أن تظنها معيبة، تخرجْ كما كانت، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره فذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ والمعنى أنه يخاف أن يفوت مقصود الرسالة إما بقتله أو لعدم بيانه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ وقريب من هذا قول النبي ﷺ لما أمره الله تعالى بإنذار قومه: «إذن يثلغوا رأسي فيجعلوه خبزة» وكأن مراد السادة القادة عليهم السلام والإكرام: الاستعلام عن الأمر هل يجري على العادة أو لا؟ فإن كان يجري عليها وطنوا أنفسهم على الموت، وإلا ذكر لهم الأمر الخارق فيكون بشارة لهم ليمضوا في الأمر على بصيرة.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنًا﴾ أي: ظهورًا عظيمًا عليهم بالحجج والهيبة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ يدل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشيء مما هددهم به، وكأنه حذف أمرهم هنا لأنه في بيان أمر فرعون وجنوده بدليل ما كرر من ذكرهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾ وقد كذبوا وافتروا، لقد سمعوا بذلك في أيام يوسف عليه السلام، فقد قال لهم الذي آمن: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبله بالبينات﴾ [غافر: ٣٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ فيعلم أنه أتى بما يرضي الله، وهي وإن كانت حقيقتها ما يتعقب الشيء من خير أو شر، لكنها لا يراد بها إلا ما يقصد للعاقل حتى تكون «له»، وأما عاقبة السوء فهي عليه لا له.

ثم علل ذلك بما أجرى الله به عادته مؤكدًا؛ لما استقر في الأنفس من أن القوي لا يغلبه الضعيف: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾ أي: الذين يمشون كما يمشي من هو في الظلام بغير دليل، فهم لا يضعون قدمًا في موضع يثقون بأنه صالح للمشي لا تبعة فيه.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ قانعًا في مدافعة ما رأى أنه اجتذب قومَه عن الجهل من ظهور تلك الآيات البينات، بأن يوقفهم عن الإيمان إلى وقت ما، وكذا كانت عادته كلما أظهر موسى عليه السلام برهانًا؛ لأن قومه في غاية الغباوة والعراقة في الميل إلى الباطل والنفرة من الحق وترجيح المظنة على المئنة: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نفى علمه بذلك إظهارًا للنصفة وأنه ما قصد غشهم، وذلك منه واضح في أنه قصد تشكيكهم، إشارة منه إلى أن انتفاء علمه بوجوده ما هو إلا لانتفاء وجوده، بعد علمه بأن الحق مع موسى عليه السلام؛ لأن ذلك أنهى ما قدر عليه بعد رؤيتهم لباهر الآيات.

﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وهو قاطع بخلافه ولكنه يقصد المدافعة إلى وقتٍ؛ لعلمه أن أكثر الناس يظنون بالملوك القدرة على كل ما يقولونه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ فوصف أصدق أهل ذلك الزمان بصفةِ نفسِه.

ولما قال هذا مريدًا به كما تقدم: إيقاف قومه عن اتباع الحق، أتبعه تعالى الإشارة إلى أنهم فعلوا ما أراد فقال: ﴿۞وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ لشدة رغبتهم في الكبر على الحق والاتباع

للباطل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض مصر، ولعله عرفها إشارة إلى أنه لو قدر على ذلك في غيرها فعل ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وأما تكبره سبحانه فهو بالحق كله، وعطف على ذلك ما تفرع عنه وعن الغباوة أيضًا، ولذا لم يعطفه بالفاء فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ فلذلك اجترؤوا على ما ارتكبوه من الفساد.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ وهذا إشارة بأن كل ظالم تكون عاقبته هكذا إن صابره المحق ورابطه حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. ولما كان «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» وكانوا أول من أصر وأطبق في ذلك الزمان على تكذيب الآيات قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً﴾ فكل من فعل مثل أفعالهم من رد الحق والتجبر على الخلق، فكأنه قد اختار الاقتداء بهم وإن لم يكن قاصدًا ذلك، كما أنه «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»، ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ﴾ ولما كان المراد الإطناب في بيان ملكهم، فسر الإشارة فقال: ﴿ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾.

ولما وعد تعالى بإمامة بني إسرائيل وختم بإمامة آل فرعون في الدعاء إلى النار، إعلامًا بأن ما كانوا عليه تجب مباعدته، وكان من المعلوم أنه لا بد لكل إمامة من دعامة، أخبر بأساس إمامة بني إسرائيل، مقسمًا عليه؛ لأن العرب وإن كانوا مصدقين لما وقع من المنة على بني إسرائيل، فحالهم بإنكار التمكين لأهل الإسلام والتكذيب بكتابهم حال المكذب بأمر بني إسرائيل، لأنه لا فرق بين ناس وناس لأن رب الكل واحد، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ وهذا إشارة إلى أنه ليس في الشرائع ما يخرج عن العقل، بل متى تأمله الإنسان تذكر به من عقله ما يرشد إلى مثله.

ولما بين في هذه السورة من خفي أمر موسى عليه السلام ما بين، وكان من المشهور أن النبي ﷺ لم يعرفها ولا سواها من غيره تعالى، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ بحيث تسمع بذلك ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ من أهل ذلك العصر حتى تخبر به على هذا الوجه. ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ أي: ما أخرنا أحدًا منهم، ولكنا

أهلكناهم وأنشأنا بعدهم أجيالًا كثيرة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ فنسيت تلك الأخبار، فوجب في حكمتنا إرسالك.

ولما نفى السبب المبدئي للعلم بتلك الوقائع، نفى السبب الغائي للعلم بالأحكام فقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن﴾ أنزلنا ما أردنا منه ومن غيره عليك وأوحيناه إليك ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ أي: منهم، وإلا فقد أتتهم رسل موسى ثم عيسى عليهما السلام، وزيادة الجار في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ تدل على الزمن القريب وهو زمن الفترة، وأما ما قبل ذلك فقد كانوا فيه على دين إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ لمثل ما تقدم من أنهم إذا قبلوا ما جئت به وتدبروه، أذكرهم ما في عقولهم من شواهده وإن كانت لا تستقل بدونه، والله الموفق.

ولما كان انتفاء إنذارهم قبله ﷺ نافيًا للحجة في عذابهم، ذكر أن إرساله مما لا بد منه لذلك فقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَ لَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ ثم بين كفرهم بقوله: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ والأقرب أن يكون الضمير لمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام، مع علم كل ذي لب أن هذا القول زيف؛ لأنه لو كان شرط إعجاز السحر التظاهر، لكان سحر فرعون أعظم إعجازًا؛ لأنه تظاهر عليه جميع سحرة البلاد، وأما محمد ﷺ فقد دعا أهل الأرض من الجن والإنس إلى معارضة كتابه فعجزوا.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ﴾ وذكر شرطه من باب التنزل لإظهار النصفة، وهو في الحقيقة تهكم بهم فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ وأكثر الهوى مخالف للهدى ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ منهم، ولكنه قال: ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ تعليقًا للحكم بالوصف ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾.

ولما كانوا بإعراضهم كأنهم منكرون لأن يكون جاءهم شيء من ذلك قال: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي: أتبعنا بعض القول بعضًا بالإنزال منجمًا؛ ليكون جوابًا لأقوالهم

وحلًا لإشكالهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ وبيّن المتذكرين حقًا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: المحسن إلينا، وكل من الوصفين موجب للإيمان به، وعللوا مبادرتهم بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ على ما كان من الإيمان، بعد ما هزهم إلى النزوع عنه إلف دينهم الذي كان.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ أي: لا نريد شيئًا من أحوالهم وأقوالهم. ولما كان ربما ظن أن عدم هدايتهم لتقصير في دعائه، وأنه لو أحَبّ هدايتهم وعلق همته بها لاهتدوا، قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦﴾.

ولما ختم بأنه أعلم بأهل الخير وأهل الشر، قال دليلًا على ذلك لأنهم إنما يتبعون أهواءهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾ وأنت على حالك من مخالفة الناس ﴿نُتَخَطَّفۡ﴾ أي: من أي خاطف أردنا؛ لأنا نصير قليلًا في كثير من غير نصير ﴿مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وروى الأزرقي في تأريخ مكة حكايات في حماية الله لحرمها ثم قال: "قال عمر: جعل الله هذا في الجاهلية إذ لا دين؛ حرمةَ حرمِها، ليتنكب الناس عن انتهاك ما حرم مخافة العقوبة، فلما جاء الدين صار الموعد الساعة"، وكأنه لمثل ذلك عبر بالتمكين، فالتقدير: إنما فعلنا ذلك بعد سكنى إسماعيل عليه السلام توطئة لما أردنا من الحكم والأحكام، أوَ ليس الذي فعل ذلك لمن يعبد غيره، بقادر على حماية من يدخل في دينه؟

ولما وصفه بالأمن أتبعه ما تطلبه النفس بعده فقال: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ ولما كان هذا الذي أبدوه عذرًا عن تخلفهم عن الهدى يظنونه من نفائس العلم، رده تعالى نافيًا عمن لم يؤمن منهم جميع العلم، الذي بنفيه ينتفي أن يكون هذا الفرد علمًا، فقال مؤكدًا: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾.

ولما أخبر بقدرته تعالى على التمكين مع الضعف، قال ترغيبًا لهم إن آمنوا بإهلاك أضدادهم، وترهيبًا إن أصروا من المعاملة بعكس مرادهم: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، والحال أنّا كثيرًا ما أهلكنا الأقوياء ﴿مِن قَرۡيَةِۭ﴾ وأشار إلى سبب الهلاك بقوله:

﴿بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ بالمارة عليها ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾.

ولما أظهر القدرة دل على العدل بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أي: أعظمها وأشرفها؛ لأن غيرها تبع لها ﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول من أم القرى وفيها؛ لأنها مع كونها مدينة تجري فيها الأمور على قانون الحكمة، هي في بلاد البوادي تظهر فيها الكلمة، فجمعت الأمرين لأن المرسل إليها جامع وخاتم ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾.

ولما كان خوفهم من عواقب المتابعة إما على أنفسهم وإما على ما بأيديهم من المتاع قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما تثمره لكم المتابعة من الثواب ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠﴾.

ولما ظهر بذلك بون عظيم بين حال المخالف والمؤالف سبب عنه قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو مع كونه فانيًا وإن طال زمنه، مشوب بالأكدار مخالط بالأقذار والأوزار ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٦١﴾ أي: إلى مكان يود لو افتدى منه بطلاع الأرض ذهبًا.

ولما كان اليوم وإن كان واحدًا يتعدد بتعدد أوصافه، قال مقررًا لعجزهم: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهو العذاب المتوعد به بأعظم القول، وهم أئمة الكفر، بإنزالهم أنفسهم منزلة الشركاء ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى الأتباع ﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ بما زينا لهم من الأقوال التي أعاننا على قبولهم إياها منا مع كونها ظاهرة العوار: ما خولتنا فيه في الدنيا من الجاه والمال ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ فغووا ﴿كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ ومرادهم بقولهم هذا أنه لا لوم علينا في الحقيقة بسببهم، وهذا معنى قولهم: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ۝٦٣﴾ بل كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم، وإن كان لنا فيه نوع دعاء لهم إليه وحث عليه.

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ وأضافهم هنا إليهم إشارة إلى أنهم لم يستفيدوا من زعمهم أنهم شركاء لله إلا أن أشركوهم فيما صرفوا إليهم من أموالهم وأقوالهم وأزمانهم وأحوالهم

﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ تمسكًا بما لا يجدي؛ لفرط الغلبة واستيلاء الحيرة ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ تأسفًا على أمرهم، أو: لو أن ذلك كان في طبعهم لنجوا.

ولما أشار إلى أنه لا خلاص إلا بالهدى قال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾. ولما لم يكن لهم قدم صدق بما أتتهم الرسل به قال: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ أي: الأخبار العظيمة التي يحق لها أن تذكر والتي يمكن أن ينجوا بها، وهذا كله إشارة لأنهم لم يقدموا في إجابة الرسل ما يحق أن يذكر في ذلك اليوم ﴿يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾.

ولما علم بهذه الآيات حال من أصر على كفره، أخبر بحال من تاب فوعد الوعد الحسن فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من الهدى الضلال وغيرهما ﴿وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ أي: أن يفعلوا أو يفعل لهم كل ما يختارونه من إتيان الرسول بمثل ما أتى به موسى عليه السلام أو غيره ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزه عن أن يختار أحد شيئًا لا يريده فيصل إليه أو يقع بوجه عليه ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾. ولما كانت القدرة لا تتم إلا بالعلم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾.

ولما كان علمه بذلك إنما هو لكونه إلهًا قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ ثم شرح معنى الاسم الأعظم بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ وليس ذلك لغيره آمنوا أو كفروا ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: إمضاء القضاء على الإطلاق ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ ففي الآيات تقوية لقلوب المطيعين، وزجر للمتمردين، بالتنبيه على كونه قادرًا على جميع الممكنات، عالمًا بكل المعلومات. ثم أقام دليلًا على كمال علمه وحكمته وتمام قدرته، منبهًا على وجوب حمده، مفصلًا لبعض ما يحمد عليه، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾.

ولما كان الليل محل السكون ومجمع الحواس، فهو أمكن للسمع وأنفذ للفكر قال: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ ولما كان الظلام غير مقصود في نفسه عبّر بقوله: ﴿يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ﴾ ولما كان الضياء مما ينفذ فيه البصر قال: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لا من غيرها من خوف أو رجاء أو تعلق أغراض ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن

﴿فَضۡلِهِۦ﴾ ولما ذكر علة جعْلِه لها كذلك، ذكر علة أخرى هي المقصودة بالذات؛ لأنها نتيجة السمع والبصر اللذين حث على استعمالهما فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾.

ولما ختم بالشكر إشارة إلى أنه سبب الفلاح، عاد إلى يوم الجزاء الذي تظهر فيه ثمرة ذلك، مقرعًا على الإشراك مع ظهور هذه الدلائل على التوحيد فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ وكرر الإشارة إلى أن إشراكهم إنما هو بالاسم لا معنى فيه أصلًا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٧٤﴾.

ولما استدل على إبطال الشركة بأن الشركاء لم يستجيبوا لهم، دل هنا على أنه لا دليل على الإشراك ولا شبهة فقال: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ وهو رسولهم، فشهد عليهم بأعمالهم وما كانوا فيه من الارتباك في أشراك الإشراك ﴿فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ فإن العاقل لا يبني شيئًا على غير أساس ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ إذ لم يجدوا سندًا ﴿أَنَّ ٱلۡحَقَّ﴾ في الإلهية ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥﴾.

ولما دل على عجزهم في تلك الدار وعلمهم أن المتصرف في جميع الأقدار إنما هو الواحد القهار، دل على أن ذلك له أيضًا في هذه الدار: بإهلاك أولي البطر من غير أن يغنوا عمن أضلوا أو يغني عنهم من أضلهم أو ما اعتمدوا عليه شيئًا، فكان معبودهم في الحقيقة مما جمعوه من حطام الدنيا، فاعتقدوا أنهم نالوا به السعادة الدائمة، فكان مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا، وكان عذابهم من جنس ما عذب به فرعون في الصورة من حيث إنه تغييب، وإن كان ذلك في مائع وهذا في صلب جامد؛ ليعلم أنه قادر على ما يريد، فقال تطبيقًا لعموم ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ على بعض الجزئيات:

﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ تنبيهًا على أنه جدير بأن ينكر كونه كذلك، وذلك أنه كان من الذين آمنوا به وقلنا فيهم ﴿ونريد أن نمن﴾ [القصص: ٥] إلى آخره، لأنه ابن عمه عليه السلام على ما حُكي عن ابن عباس.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: تجاوز الحد في احتقارهم بما خولناه فيه من هذا الحطام الفاني، فقطع ما بينه وبينهم من الوصلة، ووصل ما بينه وبين فرعون وأضرابه من الفرقة، فأخرجه ذلك من حوزة المنة والأمانة إلى دائرة الهلاك والخيانة، ولما ذكر بغيه ذكر سببه فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أي: الأموال المدفونة المدخرة، فضلًا عن الظاهرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ

بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ نسب القول للكل وإن كان القائل البعض؛ لأن أهل الخير هم الناس ومن عداهم عدم:

﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ أي: لا تسرّ سرورًا يحفر في قلبك فيحرفك إلى الأشر والمرح، فإن الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون إليه، وذلك يدل على نسيان الآخرة، قال الرزاي: "ومن فرح بغير مفروح به، استجلب حزنًا لا انقضاء له"، وعللوا نهيهم مؤكدين؛ لاستبعاد من يرى تواصل النعم السارة على أحد أن يكون غير محبوب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ بما يفنى، فإن فرحهم يدل على سفول الهمم.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ فإن فعلك لذلك يذكرك أن هذه الدار دار ارتحال، وكل ما فيها إلى زوال، وذلك يوجب الزهد فيها ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بل استعمل المباحات من غير إسراف، وعن علي رضي الله عنه: "ولا تنس صحتك وقوتك ونشاطك وغناك أن تطلب به الآخرة"، ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ ولما كانت النفس من شأنها إن لم تزم بزمام الشرع الإسراف والإجحاف قالوا: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾.

فأجاب مؤكدًا؛ لأن كل أحد يعلم عجزه، وينكر عليه فيما يدعي أنه حصله بقوته: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ﴾ مع قرب الزمان بإدخال «من» في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ آخرهم فرعون الذي شاهده في ملكه وهُلْكِه واستعباده أمثاله ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ لسفول الهمم ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ بما أوتيه من العلم الذي كان سببًا له إلى هذا المال.

ودل على جهلهم وفضل العلم الرباني وحقارة ما أوتي قارون من المال والعلم الظاهر بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فشرفوا عن إرادة الدنيا علمًا بفنائها ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ وأصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والحث، كما استعمل «لا أبا لك» فيه، وأصله ذلك ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ ومن فاته الخير حل به الويل ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ وبين عظمة هذه النصيحة بقوله مؤكدًا؛ لأن أهل الدنيا ينكرون أنهم غير صابرين: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ بالجمع ترغيبًا في التعاون، إشارة لأن الدين لصعوبته لا يستقل به الواحد.

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ على قربه من موسى عليه السلام، فإياكم أن تردوا ما أتاكم النبي ﷺ فتهلكوا وإن كنتم أقرب الناس إليه، فإن الأنبياء كما أنهم لا يوجِدون الهدى في قلوب العدى، فكذلك لا يمنعونهم من الردى ولا يشفعون لأهل الشقاء أبدًا، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ وأكد النفي -لما استقر في الأذهان أن الأكابر منصورون- بزيادة الجار فقال: ﴿مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾.

ولما استبصر بخسفه الجهال الذين هم كالبهائم لا يرون إلا المحسوسات، عبر عن حالهم بقوله: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ﴾ هذه الكلمة والتي بعدها متصلة بإجماع المصاحف، قال الرضي: "«وي» للتندم أو للتعجب، ركبت عند الخليل وسيبويه مع «كأن»"، وقال الفراء: "كلمة تعجب ألحق بها كاف الخطاب، نحو قول عنترة في معلقته: ويكَ عنترُ أقدِمِ". ﴿ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ولما كان لقارون من المكنة في الدنيا ما مضى ذكره، فكان ربما أدى إلى تألهه، قال منبهًا إلى أنه من جملة عبيده، لا فرق بينه وبين أضعفهم بالنسبة إلى قدرته: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ أي: يضيق، سواء كان فطنًا أم لا ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ فلم يعطنا ما تمنيناه من الكون على مثل حاله ﴿لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾.

ولما قدم سبحانه أن المفلح من تاب وآمن وعمل صالحًا، وعرّف بقصة قارون أن هذه الدار للزوال فكان موضع استحضار الآخرة، ذكرها بقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ ولما كان المقصود الأعظم طهارة القلب الذي عنه ينشأ عمل الجوارح قال: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ ولم يقل: «يتعاطون» مثلًا، إعلامًا بأن النفوس ميالة إليه، فمهما رتعت قريبًا منه اقتحمته ﴿عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وإذا أرادوا شيئًا من ذلك عند أمرهم بمعروف أو نهيهم عن منكر كان مقصودهم به علو كلمة الله للإمامة في الدين لا علوهم؛ ليكون لهم مثل أجر من اهتدى بهم، والضابط: العمل بما يرضي الله والتعظيم لأمر الله والعزوف عن الدنيا ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ بعمل ما يكره الله، ثم قال معبرًا بالاسمية دلالة على الثبات: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾.

ولما تحرر الفرق بين أهل الدارين، وعلم أن الآخرة إنما هي للجزاء، بين ما يحصل فيها فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾.

ثم بيّن العاقبة بما هو كالعلة فقال مؤكدًا؛ لاستبعادهم رده ﷺ إلى مكة بعد خروجه منها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: جميع ما فيه من التكاليف التي منها المقارعة بالسيوف ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ يبعثك فيه ثوابًا على إحسانك في العمل مقامًا محمودًا، ولولا هذا الرد لكانت هذه التكاليف من العبث، فاجتهد فيما أنت فيه، أو: أن المعاد هو وطنك الدنيوي: مكة، كما فسرها ابن عباس رضي الله عنهما، والأخروي: الجنة.

فلا تظن أنه يسلك بك سبيل أبويك عليهما السلام إبراهيم وإسماعيل في الهجرة بلا عودة، بل سبيل أخيك موسى عليه السلام الذي أنزل عليه التوراة كما أنزل عليك القرآن، غير أن رجوعك لأنك نبي الرحمة لا يكون فيه هلاكهم، ولما أفهم الإبلاغ في التأكيد أن ثمة من ينكر عودَ النبي ﷺ ومنهم عين تطرف قال: ﴿قُل﴾ أي: لهؤلاء المنكرين لما أخبرتك به: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾.

ولما كان رجوعه في غاية البعد لكثرة الكفار وقلة الأنصار، قربه بقوله معلمًا أن كثيرًا من الأمور تكون على غير رجاء بل وعلى خلاف القياس: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وعبر به لأن السياق للرحمة التي من ثمراتها الاجتماع ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ ولما حرّك ما تقدم الهمم إلى العكوف على أمر الله قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ بالمكث بين ظهرانيهم أو بالفتور عن الاجتهاد في دعائهم، وهذا تدريب من الله تعالى لأئمة الأمة في الدعاء إلى الله عند كثرة المخالف وقلة الناصر المحالف.

ولما كان التواني في النهي عن المنكر إعراضًا عن الأوامر، وإن كان المتواني مجتهدًا في العمل، قال مؤكدًا تنبيهًا على شدة الأمر لكثرة الأعداء وتتابع الاعتداء: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الصدع بها ﴿بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ ولم يؤكد اكتفاء بالمستطاع، وإشارة إلى أن جلب المصالح أيسر من درء المفاسد فإن المطلوب فيه النهاية؛ لأنها محدودة بالاجتناب، ثم قال مؤكدًا، اهتمامًا بدرء المفاسد وأنه لا بد فيه من بلوغ الغاية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧﴾ أي: في عدادهم بترك نهيهم عن شركهم وما يتسبب عنه.

ولما كانت مشاركتهم بالفعل أبعد من مشاركتهم بالسكوت، قال من غير تأكيد: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ والمراد بهذا كله المبالغة في الإنذار إعلامًا بأن تارك النهي عن المنكر

مع القدرة شريك للفاعل وإن لم يباشره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ ثم علل وحدانيته بقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ ولعله عبر بالوجه ليشمل ما قصد به من العمل الصالح، ولكون النظر إليه هو الحامل على الطاعة بالاستحياء وما في معناه.

﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ في الدنيا بأنه لا ينفذ لأحد مراد إلا بإرادته، وفي الآخرة بالبعث، ولا شك أن المقصود بهذه الأوامر والنواهي أتباعه ﷺ، ولعلها إنما وجهت إليه ﷺ؛ لأن أمر الرئيس أدعى لأتباعه إلى القبول.

وقد اتضح بهذا البيان أن هذا الكتاب مبين، وبإنفاذ إرادته تعالى في تقوية أهل الضعف على أهل العلو أن له وحده الحكم، فانطبق آخر السورة على أولها، وانشرح مجملها بمفصلها.